بسم الله الرحمن الرحيم

مُقَدِّمَة

الحمد لله والصلاة والسلام على سيدنا محمد رسول الله ﷺ، وبعد..

ليس الغرض من دراسة السيرة النبوية مجرد الوقوف على الوقائع التاريخية، أو سرد طرف من القصص والأحداث، شأنها شأن الاطلاع على سيرة أحد الخلفاء فى الأزمنة الغابرة. إن الغرض من السيرة أن يتصور المسلم الحقيقة الإسلامية متجسدة مجموعة فى حياته ﷺ.

فليست سيرته إلا تطبيق الوحى المنزل من السماء لهداية البشر فى شؤنهم كافة وبالتالى يتضح لنا:

١. أن اختيار الرسول ﷺ لهذه المهمة العظمى، إنما هو اختيار للمثل الأعلى لكل شأن من شؤن الحياة الفاضلة التى أرادها الله تعالى لسعادة البشر، ومما لا شك فيه حينئذ أن الانسان إذا أراد البحث عن مثل أعلى فى كل ناحية يطلبها من نواحى حياته، الروحية والمادية، النفسية والبدنية فإنه سيجد ذلك بشكل تام الوضوح متناسب الاركان وفى أعلى الكمالات فى النبى ﷺ، وفى ذلك يمن الله تعالى على الناس فيقول:﴿ لَّقَدۡ كَانَ لَكُمۡ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الأحزاب: ٢١].

٢. إن تأمل ما سبق يدل دلالة واضحة على صدق نبوته، وصحة رسالته ﷺ إذ دراسة سيرته تبين بجلاء أن ذلك المثل الأعلى فعلاً وقولاً ظاهراً وباطناً هو الرسول محمد ﷺ،

وأن وفاء سيرته بهذا المثل الأعلى بكل هذه التفصيلات، الدقيقة لحياته لم تكن لأحد من قبل ممن أوتوا النبوة، فضلاً عن أدعيائها من قبل ومن بعد.

٣. إن فهم شيء عن شخصية النبى ﷺ بهذه النظرة لابد أن يكون من منظور النبوة لا من أى منظور آخر، إذ لن يفسر كثيراً، بل كل أحواله ﷺ إلا كونه موصولاً بالسماء مؤيداً بالوحى.

٤. دراسة سيره النبى ﷺ الزاد الذى به يفهم القرآن الكريم وتتجلى معانيه تجلية حقيقية كصورة صادقة لمقصود الشارع، فيكون لدى المعلم والداعية الإسلامى نموذج حى عن طرائق التربية والتعليم والنصح ولإرشاد كل ذلك هداية للافراد والجماعات ليكونوا أعضاء فعالين ناجحين فى المجتمع الصالح، فسيرته ﷺ تقدم لنا نموذج الشاب المستقيم فى سلوكه، والنموذج الرائع للداعية إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة الباذل منتهى الطاقة فى سبيل ابلاغ سالتة، ولرئيس الدولة الذى يسوى الأمور بعدل ورحمة وحذق الدقيق بين الحقوق والواجبات فى أسرته، وللقائد الحربى والسياسى المحنك الصادق والمتعبد المتبتل فى دقة وعدل، والمعاشر لأهله وصحبه بحسن العشرة والمصاحبه.[1]

أهمية البحث:

علاوة على ما تقدم من أهمية السيرة النبوية، جاءت هذه الرسالة لتضيف أهمية سيرته فى القرآن الكريم، لأنه كان خلقه ﷺ القرآن[2]، فكان بحث السيرة فى القرآن مما يضيف جديداً للبحث العلمى فى هذا الباب من ناحيتين:

1- د. البوطى، فقه السيرة (١٨).

2- رواه مسلم(٧٤٦)، مطولاً من حديث قتاده ﷺ.

الأولى: المقارنة بين ما نزل من القرآن ووقع فى السيرة النبوية وهو طراز جديد من الكتابة يبين مراد القرآن الكريم من القصص والعبر المأخوذة منه والحكم والفهم عن الله والتحذير وغيره مما جاء به القرآن الكريم ليفيد المسلمين مطلوب الهداية من سيرته ﷺ، وليميز للمؤمنين المتقين مراد الله وحكمته وموعظته وشرعه إلى آخر ما أشرنا إلى شيء منه مع المقارنة بقصص الانبياء السابقين وشيء من سيرتهم ليحذر المشركين من سوء عاقبة ما هم فيه، ويبشر المؤمنين بنصر الله إلى كثير مما دق أو جل مما جاء فى القرآن الكريم.

الثانية: المقارنة بين ما جاء فى القرآن عن الرسول ﷺ وعن الأنبياء عليهم السلام مما يوضح أم مشكاة النبوة واحدة، ويبرهن على ما ادخر الله من فضل لهذه الأمة، وعلى أن النبى ﷺ سيد ولد آدم ولا فخر.

وإن ما نزل بالمسلمين اليوم – وعلى رأسه – مهاجمة النبى ﷺ طعناً فى دينه ورسالته استمرار الغزو الفكرى لبلاد الإسلام، ليعطى أهمية أخرى للرد على المستشرقين الذين أسسوا فكرهم على هذا السوء وذلك البهتان، وكان اختيار الأستاذ الدكتور المشرف لمونتجمرى وات للرد عليه من أصوب الاختيارات وأدقها، لأن وات يتقمص المذهب المؤدب المتسربل بالعلمية والحياد والنزاهة، وهو أخطرهم جميعاً فهو محصلة السابقين، وأسوة المتأخرين لذلك كان الرد عليه وإظهار حقيقته، فى الحقيقة رد على الأولين منهم والآخرين فكان مما شمله هذا البحث هو الرد على وات وإظهار وجه السيرة الناصع مما أثاره عليه وات من غبار ومن ورائه طابور المستشرقين جمعياً.

وكانت محبة النبى ﷺ وشرف الانتماء إلى دينه القويم من وراء ذلك كله هى الأهمية الحادية على وضع هذه اللبنة فخاراً بالدفاع عنه، وإن كان دفاع أمثالنا وعدمه سواء فمن نحن لندفع عمن كان بفضله سبحانه سبب الدفع عنا، وسبب سعادتنا فى الدنيا والأخرة.

منهجى فى البحث:

أحاطت بالبحث مناهج عدة:

أولها: منهج كتابة السيرة. وقد اعتمدت منهج المحدثين إذ هو أدقها فى تصحيح الوقائع وتضعيفها بما لم يصل إليه منهج آخر، وما ورد من وقائع وأحداث تاريخية فى غير العقيدة والتشريع أخذت بها على طريقة المؤرخين غير متشدد فيها.

الثانى: منهج التفسير. وكان أهمها وهو المنهج الذى وضعت لبنتة الأولى فى رسالة الماجستير، وهو منهج التفسير الموضوعى فهو المحيط المتتبع للموضوع فى القرآن الكريم كما بينت ذلك نظرياً وتطبيقياً مما يلم بالموضوع ويظهر جماليات النصوص وعلو بلاغتها المؤدى فى كثير إلى بيان حد الإعجاز علاوة على المقارنة والدراسة النصية والتحليلية.

وكذلك التفسير بالمأثور لإثبات هذه القائع والسير، مع التفسير بالرأى الصحيح عامة.

الثالث: المنهج المقارن. وقد خصصت منه ما يتعلق بالموضوع الواحد بمقارنة النصوص الواردة فيه.

الرابع: المنهج النقدى المنبنى على دراسة النص فى ذاته ثم مقارنته ببقية النصوص، وقد استخدمت ذلك مع وات وغيره لتصحيح الصحيح وإظهاره وتزيين الباطل ودحضه.

لقد كان لتعدد منهج البحث بهذه الطريقة صعوبة الإحاطة بجزء ولو يسير فى كتابة السيرة، ولكن لما ذكرنا من أهمية البحث، كانت محاولة الباحث القيام بهذا الجزء لإيضاح السيرة بهذه الطريقة، لعلها تكون لبنة متواضعة يرجى البناء عليها لتكون السيرة هى الموسوعة الشاملة لكل ما يتعلق بأحوال النبى ﷺ وأخلاقه ومعاملاته وصفاته وهدايته لأمته.

إن هذا لأمل نرجو للمخلصين القيام به، وقد وقف البحث فى أبوابه عند حدود ولم يستكملها نظرا للطول الشديد مع الاختصار لو استكمل شيئاً من ذلك، وهو مما يؤسف له ويحزن عليه، ولعل الله أن يبارك فى الجهد والعمر لتكملة ما يمكن إكماله من هذا البحث.

قسمت البحث إلى مدخل وثلاثة أبواب وخاتمة:

❁ الباب الأول: سيدنا محمد ﷺ فى القرآن الكريم ويشتمل على ثلاثة فصول:

- الفصل الأول: ثناء الله تعالى عليه ﷺ.
- الفصل الثانى: حقوقه ﷺ.
- الفصل الثالث: عصمته ﷺ.

❁ الباب الثانى: الرسول ﷺ فى مكة ويشتمل على ثلاثة فصول:

- الفصل الأول: من المولد إلى البعثة.
- الفصل الثانى: البشارات بالنبى ﷺ إرهاصاً بنبوته.
- الفصل الثالث: بدء الوحى.

❁ الباب الثالث: العهد المدنى.

- الفصل الأول: أسس بناء المجتمع الإسلامى والدولة الإسلامية فى المدينة.
- الفصل الثانى: غزوة بدر الكبرى.

وكان من فضل الله عليَّ التوفيق لأن يكون المشرف على الرسالة الأستاذ الدكتور/ عفت الشرقاوى، وهو من هو علماً وخلقاً خاصة، فكان الراعى لهذا البحث حتى خرج فى ثوبه هذا، مع التكريم بوقته وجهده، ولم يبخل عليَّ بحسن توجيه ودقة ترتيب وزيادة مهمة تفيد البحث وتجعل له قيمة من الناحية العلمية، مع سعة صدره وصبره على فيما أنا فيه من أمراض وعلل، فالله يتولى جزاءه وحسن مثوبته على ما قدم من علم وبذل من جهد.

وفى النهاية ذلك جهد المقل، وبضاعتى المزجاة فى خدمة الدين والذب عن رسول الله ﷺ، أرجو أن تكون فى محل القبول عند الله قبل الناس، وأن يعفو عنى فى تقصيرى وما بدر منى.

الباحث

الباب الأول

سيدنا محمد

صلى الله عليه وسلم

في القرآن الكريم

تمهيد

يقدم الباحث في هذا الجزء من الرسالة دراسة ما يتعلق بالرسول ﷺ في القرآن الكريم، فهو أصدق وصف له عليه الصلاة والسلام وأدقه وأجمله وأشمله، ثم إنه لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه خاصة أنه نزل على قوم شاهدوا تلك الأوصاف، وعاينوا تلك الأخلاق وعاشروا صاحب هذه السمات، وكان لهم مع عداوتهم له أن يردوا ذلك، أو يشككوا فيه إذ كان ذلك أسهل في رد الدعوة وإبطالها من القتال والقتل، وما ورد عن هؤلاء حينما كانوا أعداء كفرة إلا التسليم بتلك الصفات، والإذعان لهذه الأخلاق، وذلك صريح الإعلان بتصديق القرآن، والتسليم له بهذه الأوصاف، وسنشير بإذن الله تعالى إلى تفصيل تلك الآيات، تفسيرها وما يتعلق بذلك.

وطريقتنا في البحث - كما قدمنا - هو عرض النصوص، ودراستها دراسة نصية ومقارنتها ببعضها، واستخلاص النتائج، مع التحليل وإظهار جمالياتها، بلاغةً ولغةً، مع مراعاة المكى والمدنى منها، والترتيب التاريخى لها، وكلها ترد على المستشرقين أصحاب الادعاءات الكاذبة من مثل العلمية، والإنصاف، والحياد، حيث لم تصمد هذه الدعاوى أمام أي نقد نزيها كان أم غير نزية للأسف، فليس ثَمَّ إلا التعصب.

وباستقراء آيات القرآن الكريم، والاستعانة بكلام العلماء في تتبع ما جاء في القرآن الكريم عن النبي ﷺ وجدناه ينقسم إلى أقسام كثيرة، اخترنا منها ثلاثة أقسام تدل على ما وراءها وتوفي بالغرض، وتغطي جوانب الموضوع، وتركنا الباقى – مع أهميته – اختصاراً، وهى:

الأول: في ثناء الله تعالى عليه، وإظهار عظيم قدره عند ربه وما خصه به من كرامته في الدارين[1]، مع تكميل المحاسن له خَلْقاً وخُلُقاً، وما أظهره عليه من الكرامات، وشَرَّفَه به من الخصائص.

الثاني: حقوقه التي فرضها الله على عباده من لزوم الإيمان به ومحبته ووجوب طاعته واتباع سنته، وتوقيره وبرِّه، وتعظيم أمره، والصلاة عليه ﷺ.

الثالث:عصمته ﷺ في الأمور الدينية، وما يجوز أن يطرأ عليه من الأعراض البشرية، مع العرض والرد لما يوهم مخالفة ذلك للقرآن الكريم.

١- ومما ورد في ذلك: مواساته ﷺ والتخفيف عنه، وتولى الدفاع عن شخصه الكريم، وتصبيره، وحمله على أحاسن الأخلاق.

الفصل الأول

ثناء اللّه تعالى عليه

صلى الله عليه وسلم

المبحث الأول

﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾

ونبدأ بدراسة القسم الأول، وأول آية تصادفنا فيه من ثناء الله تعالى على النبي ﷺ، وتبين رفيع منزلته، وعلو قدره، هي قوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤﴾ [القلم:٤].

وقدمنا بها الكلام لأنها نزلت في أول ما نزل من القرآن الكريم إذ هي قد نزلت بعد قوله تعالى: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ﴾ حيث قررنا من قبل أننا سنراعي الترتيب الزمني في ذلك؛ لأن الدراسة بالأصالة في سيرته، وتلك كالمقدمة بالتعريف لصاحب السيرة عليه الصلاة والسلام.

وعلى أية حال ننظر في الآية الكريمة لنحللها، ونبدأ بها هذا القسم.

وأول ما يلاحظه الباحث فى هذه الآية الكريمة أنَّ الله ﷻ اصطفى سيدنا محمدًا ﷺ لتَحَمُّل الرسالة والنبوة وهو في غاية الخُلُق وأعلاه، بل وهو على عظيم الخُلُق وأَجَلِّه، وهو دليل على حيازة النبي ﷺ للكمالات النفسية كافة قبل البعثة، مما يدلّ على عناية الله تعالى المتقدمة بنبيه ﷺ ومبعوثه إلى الخلق، وهو ما يميز ويوضح لعموم الخلق صدق النبوة وصحَّة الرسالة، إذ كيف يتأتى لأحدٍ من العرب لا يزيد عليهم في شيء، بل هو ابن بيئتهم بثقافتها، وعلمها وغيره، أن يكون على هذه الحال الذي لم يبلغ شأوه أحد، ولن يبلغه أحد، بل إن الفارق بين شأوه وبين جميع الناس كالفارق بين السماء والأرض.

والعجيب أنَّه لم يهار أحد ممن عادوه وقاتلوه في هذه الأخلاق، وكانوا يناشدونه بتلك الأخلاق العالية أن يعفو عنهم، وقد لقَّبوه بالصادق الأمين[1].

وما كانت هذه الأخلاق، وهذه العناية لتوحد إلا لأننا في معرض أخطر أمر، وهو أمر النبوة والرسالة، إذ ما كان لأحدٍ أن يردَّها أو يدفعها، أو يشكك فيه فيقضي على الرسالة في مهدها بتكذيب الله أن يكون ذلك رسوله.

وأمر آخر، وهو أن الرسول ﷺ هو القدوة لهؤلاء المدعوين إلى الله تعالى، وكذلك الدعاة إليه، فكيف يكون فيه ما يشينه ويردّ دعوته بإظهار النقص والعيب فيها، إن ذلك قدح في المرسل سبحانه- وهذا ما يستحيل صدوره.

وقد رأينا التحدي في دعوته ﷺ إلى آخر لحظة من حياته الشريفة والعجز عن مواجهته، فكيف يكون في أول دعوته ما يبطلها؟

وقد بُدئ وصفه ﷺ في بداية البعثة بهذا الوصف بالذات؛ لأنه الدليل إلى ما بعده من الأوصاف، وهو البرهان الساطع على صدق ما سيلقيه عليهم بعد ذلك من توحيد، وعبادات ومعاملات وغيره، وعلى أن ذلك حق لا مرية فيه، صحيح لا شية فيه؛ لأن الناقل له، المبلغ به هو صاحب الخلق العظيم في هذه الحياة الدنيا، فكيف يقول كذباً، أو يتقول على الله تعالى ما لم يقله؟ وذلك يدلّ على صحة كل ما صدر عنه ﷺ، ويؤيده قوله فيما نزل بعد ذلك في سورة النجم: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ [النجم:٤] كما سنبينه في حينه إن شاء الله تعالى.

١- وردت تسميته بالأمين في حديث تحكيمه صلى الله عليه وسلم في الحجر الأسود، قالوا: "هذا الأمين رضينا، هذا محمد" (ابن هشام ١/ ١٩٧). وورد تسميته صلى الله عليه وسلم بالصادق في حديث إسلام حمزة رضي الله عنه الذي رواه ابن أسماء "أشهد أنك الصادق" (السيرة النبوية لابن كثير ١/ ٤٤٦)، وفي غير ذلك.

وثمة أمر آخر وهو أنَّ الرسول ﷺ جاء ليدعو الناس جميعًا إلى التزام أحاسن الأخلاق، والاتصاف بها، كما قال: (إِنَّمَا بُعِثتُ لأُتَمِّمَ مَكَارِمَ الأخلاق).(١)

وبالتالي لابد أن يكون أعلى الناس جميعًا خُلُقاً، لأنَّ فاقد الشيء لا يعطيه، وإن كان مثلهم فلأي شيءٍ يدعوهم؟ ولذا وجدناه من أول بعثته أعظم الناس خُلُقًا، فلما وصفه ربُّه بذلك من حين ابتعثه، كان ذلك متسقًا تمام الاتساق مع دعوة الله تعالى الناس إلى توحيده ومعرفته، وعبادته، وإلى كل جميل من الأقوال، والأفعال في الظاهر والباطن.

وللأستاذ سيد قطب في كتابه "في ظلال القرآن"(٢) كلام جميل نذكره ملخصًا، يقول: ثم تجيء الشهادة الكبرى والتكريم العظيم: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾ ﴾.

وتتجاوب أرجاء الوجود بهذا الثناء الفريد على النبي ﷺ، ويثبت هذا الثناء العلوي في صميم الوجود، ويعجز كل قلم، ويعجز كل تصور عن وصف قيمة هذه الكلمة العظيمة من ربِّ الوجود، وهي شهادة من الله، وفي ميزان الله، لعبد الله، يقول له فيها: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾ ﴾ ، ومدلول الخلق العظيم هو ما عند الله مما لا يبلغ مداه أحد من العالمين.

ودلالة هذه الكلمة العظيمة على عظمة محمد ﷺ تبرز من نواحٍ شتى:

تبرز من كونها كلمة من الله الكبير المتعالي، يسجلها ضمير الكون، وتثبت في كيانه، وتتردد في الملأ الأعلى إلى ما شاء الله.

١- الحديث صحيح رواه البخاري "في الأدب المفرد" (٢٧٣)، وابن سعد " في الطبقات" (١/ ١٩٢) والحاكم (٢/ ٦١٣)، وأحمد (٢/ ٣١٨)، عن أبي هريرة مرفوعًا.

٢- انظر سيد قطب "في ظلال القرآن" دار الشروق الطبعة العاشرة ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م. تفسير سورة القلم (٧/ ٢٩٠).

وتبرز من جانب آخر، من جانب إطاقة محمد ﷺ لتلقيها وهو يعلم مَنْ ربَّه هذا، قائل هذه الكلمة؟ ما عظمته؟ ما دلالة كلماته؟ ما مداها؟ ما صداها؟ ويعلم من هو إلى جانب هذه العظمة المطلقة، التي يدرك هو منها ما لا يدركه أحد من العالمين.

إن إطاقة محمد ﷺ لتلقى هذه الكلمة من هذا المصدر، وهو ثابت، لا ينسحق تحت ضغطها الهائل - مع أنها ثناء -ولا تتأرجح شخصيته تحت وقعها وتضطرب.. تلقيه لها فى طمأنينة وفى تماسك وفى توازن هو ذاته دليل على عظمة شخصيته فوق كل دليل.

ولقد رويت عن عظمة خلقه فى السيرة، وعلى لسان أصحابه روايات منوعة كثيرة، وكان واقع سيرته أعظم شهادة من كل ما روى عنه. ولكن هذه الكلمة أعظم بدلالتها من كل شيء آخر، أعظم بصدورها عن العلى الكبير، وأعلم بتلقى محمد لها وهو يعلم من هو العلى الكبير، وبقائه بعدها راسخاً ثابتاً مطمئناً، لا يتكَبَّر على العباد، ولا ينفتح، ولا يتعاظم.

لقد كان - وهو بشر- يُثني على أحد أصحابه، فيهتز كيان صاحبه هذا من وقع هذا الثناء العظيم، وهو بشر ويعلم أصحابه أنه بشر، فأما هو فيتلقى هذه الكلمة من الله، وهو يعلم من هو الله، ثم يتماسك ويصطبر ويتلقى ويسير إنه أمر فوق كل تصور وفوق كل تقدير.

وما كان إلا محمد ﷺ بعظمة نفسه هذه من يحمل هذه الرسالة الأخيرة بكل عظمتها الكونية الكبرى فيكون كفؤاً لها كما يكون صورة حية منها.

إن هذه الرسالة من الكمال والجمال، والعظمة والشمول، والصدق والحق بحيث لا يحملها إلا الرجل الذي يُثني عليه الله هذا الثناء فتطيقه شخصيته، ثم يتلقى بعد ذلك عتاب ربه له بذات التماسك، وذات الطمأنينة، ويعلن ذلك كما يعلن تلك لا يكتم من هذه شيئًا، ولا تلك، وهو في كلتا الحالتين النبي الكريم، والعبد الطائع والمُبَلِّغ الأمين.

إنه محمد - وحده - هو الذي يرقى إلى هذا الأُفُق من العظمة، هو الذي يكافئ هذه الرسالة الكونية العالمية الإنسانية حتى لتتمثل في شخصه حية، تمشي على الأرض في إهاب إنسان، إنه محمد- وحده- الذي علم الله منه أنه أهل لهذا المقام.

والله أعلم حيث يجعل رسالته- وأعلن في هذه أنه على خلق عظيم، وأعلن في الأخرى أنه- جلَّ شأنه، وتقدست ذاته وصفاته، يصلي عليه هو وملائكته: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ ﴾[الأحزاب:٥٦]، وهو- جلَّ شأنه- وحده القادر على أن يهب عبدًا من عباده ذلك الفضل العظيم.

انتهى تلخيصا لكلام المؤلف.[1]

وأما عند تحليل الآية الكريمة:

فأول ما يطالعه الباحث في ذلك هو العطف[2]، وهو عطف جملة ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾﴾ على قوله: ﴿ مَآ أَنتَ بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ ﴾ وهو جواب القسم، أى إنَّ قوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ... ﴾ مُقسَم عليه من الله جلَّ وعلا- وإن كان سبحانه لا يحتاج لقسمٍ لإثبات كلامه- وإنَّما ذلك لتبيين أهمية المُقسَم عليه وصدقه، وعلو شأنه، وأنه مفروغ منه، ولا يتطرق إليه الاحتمال، أو يمسُّه الشك.

والقَسَم هنا يجري على سنن الأقسام الصادرة في كلام الله تعالى بما شاء من عظيم خلقه الدالة على آثار صفاته وجلاله.

---

[1]- انظر سيد قطب "في ظلال القرآن" تفسير سورة القلم (٧/ ٢٩٠).

[2]- انظر محي الدين الدرويش "إعراب القرآن الكريم" (١٠/١٦٤) الطبعة الخامسة دار ابن كثير ١٤١٧ هـ ١٩٩٧م.

والقلم هو الوارد في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝﴾ [العلق: ٤-٥]، لأنه الظاهر الذي يقتضيه حال أهل الكتاب، وعند من يعرف الكتابة من العرب، وهو المناسب لقوله تعالى:﴿ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴾ [القلم:١]، وقد أقسم به لشرفه بأنه يكتب به القرآن، وكُتِبَت به الكتب المقدسة، وتُكْتَب به كتب التربية والأخلاق والعلوم، وكل ذلك له حظ شرف عند الله تعالى.(١)

هذا على التعريف المرجح في تعريف القلم، وقيل أيضًا ما يُكَنَّى عنه بالقلم من تعلق علم الله بالموجودات الكائنة، والتي ستكون(٢).

وأما قوله تعالى: ﴿ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴾ [القلم:١] فالمقسم به الثاني، فالآيات فيها أمران مقسم بهما؛ وهما القلم وما يسطرون، والمقسم عليه ثلاثة، وهي نفي الجنون عن النبي ﷺ، وإثبات الأجر والثواب له، والثالث كونه على خلق عظيم.

ونعود إلى قوله تعالى: ﴿ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴾ [القلم:١]، ومعناه السطور المكتوبة بالقلم، فإذا كانت ﴿مَا﴾ موصولة صار المعنى: أي وما يكتبونه من الصحف، ويجوز أن تكون مصدرية والمعنى: وسطرهم الكتابة سطورًا.

ويجوز أن يكون القسم بالأقلام التي يكتب بها الوحي وبالمكتوب والموحى به، ويكون القسم حينئذ بالقرآن نفسه على أن القرآن ما هو بكلام مجنون، وذلك كقوله تعالى:

١- ومن فوائد هذا القسم أنَّ هذا القرآن كتاب الإسلام، وأنَّه سيكون مكتوبًا مقروءًا بين المسلمين، ولهذا كان ﷺ يأمر أصحابه بكتابة هذا الوحي. وتعريف القلم هنا للجنس. انظر التحرير والتنوير (٢٠/ ٦٠)، للطاهر بن عاشور.

٢- انظر السابق.

﴿ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ۝ إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا ﴾ [الزخرف: ٢-٣] فهو قسم بالقرآن على القرآن، وهو من بديع القسم، إذ القرآن هو الدليل والمدلول عليه في نفس الوقت، وهو قضية سنعود إلى توضيحها إن شاء الله في حينها.

وضمير﴿ يَسْطُرُونَ ﴾ راجع إلى غير مذكور، وهو معلوم للسامعين، فكأنه قال: ن والقلم المكتوب، أي والمسطور، وهو نظير قوله تعالى: ﴿ وَكِتَٰبٍ مَّسْطُورٍ ۝ فِي رَقٍّ مَّنشُورٍ ۝ ﴾ [الطور: ٢-٣]، لأن ذكر القلم ينبئ بكتبة يكتبون، والمقصود هو المكتوب، فهو بمنزلة الفعل المبني للمجهول، ومن فسر التفسير الثاني للقلم جعل ضمير ﴿ يَسْطُرُونَ ﴾ عائدًا إلى الملائكة في كتاباتهم ما يلقي إليهم من الله تعالى لتنفيذه، بضبط الكاتب بغير زيادة ولا نقصان.

كل ما سبق يبين ويوضح قيمة الآتي من الكلام، وعظمة معناه، واستقراره وثبوته؛ لأنه لا خُلْف لكلام الله تعالى، فضلاً عن قَسَمِه، ومن ثَمَّ أطلنا شيئًا ما لنبرز تلك الدرجة العليا التي تظهر نبوة النبي ﷺ وصدقها، ومدى صحة الرسالة وأنها وحيٌ من الله تعالى، ولا يمكن أن يكون إلا ذلك.[1]

وأوثر القسم بالقلم والكتابة للإيماء إلى أنَّ باعث الطاعنين على الرسول ﷺ واللامزين له بالجنون، إنما هو ما أتاهم به من الكتاب، فكان هذا من أقوى التحدي لهم

---

[1]- لأنَّ هذا الكلام إما أن يكون مصدره محمد ﷺ، أو المكذبين من الكفار وأهل الكتاب وأهل الأرض جميعًا، أو أن يكون مصدرًا آخر. ولا يمكن أن يكون بالعقل هو كلام الكفار، وكذلك لا يمكن أن يكون من كلام محمد، لأنه ﷺ لا يزيد في علمه عن علوم بيئته، وكذا في لغته وثقافته، وبدراسة هذا الكلام نجده مبايناً لكلامه، وأعلى في بلاغته وبيانه وعلومه عن بيئته بما لا مجال للمقارنة فيه حتى سجد له أساطين اللغة حينئذ. (علاوة على أن دراسة النص لها موضع آخر)فكان هذا الكلام كلام قوة عليا عليمة محيطة أعلى من كل شيء، ولا يحيط بها شيء، فَدُلُّونَا على قادر عليم، ادعى أنَّ هذا كلامه، غير الله جلَّ وعلا.

على صدق النبوة، وبرهانًا ساطعًا على الرسالة، لأن ما رموه بسببه من الجنون هو ذاته ما أقسم به دليلاً لصدقه، وحجة لمدَّعاه. إنَّ الأدلة المقطوعة على هذا النحو لهي إعجاز في نفسها وتعجيز للخصم بحيث لا يستطيع ردًا ولا دحضًا.

ونأتي إلى جواب القسم لنحلل آياته، ولنرى فيه قيمة المقسم عليه، وما فيه من إثبات الكمالات للنبي ﷺ، ونفي النقص عنه، وذلك في الدنيا، مع عظيم الأجر والثواب في الآخرة.

والمقسم عليه ثلاثة كما ذكرنا آنفاً:

أولها: نفي الجنون عن النبي ﷺ، والمقصود من نفي الجنون إثبات النبوة للنبي -عليه الصلاة والسلام- لأنَّ المشركين قصدوا بإلحاق الجنون به وإثباته له نفي النبوة عنه، فلما أقسم المولى سبحانه على نفي الجنون فذلك إنما كان لإثبات ما قصد المشركون نفيه، فثبتت له النبوة.

وكان ذلك تسليةً أيضًا من الله تعالى للنبي ﷺ لئلا يحزنه هذا القول، وتسرية عنه لما لاقاه من أذى بحمله دعوة الحق، إذ كان يظن ﷺ أنه بدعوتهم إلى هذا الخير سيسرعون لتصديقه، وتأييده، والإيمان به، خاصة وأنه غير متهم عندهم، بل هو الصادق الأمين لديهم من قبل ومن بعد.

وأما رميهم له بالجنون ﷺ ، فهو ما ذكره القرآن الكريم عنهم في نفس السورة حيث شافهوا الرسول ﷺ به فيقول القرآن الكريم: ﴿ وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَيُزۡلِقُونَكَ بِأَبۡصَٰرِهِمۡ لَمَّا سَمِعُواْ ٱلذِّكۡرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُۥ لَمَجۡنُونٞ ۝ ﴾ [القلم: ٥١]. وقد أكدوا قولهم هذا بحرف ﴿ وَإِن ﴾ ولام الابتداء﴿ إِنَّهُۥ لَمَجۡنُونٞ ۝ ﴾ فأُجيب على قولهم بمؤكدات أقوى مما في كلامهم إذ أقسم عليه أولاً، وجيء بالباء التي تزاد بعد النفي لتأكيده ثانيًا، وثالثًا بالجملة الاسمية منفية لدلالة الجملة

الاسمية على ثبات الخبر وهكذا كل ما ورد فيه نفى صفه الجنون عنه فإنما هو رد على أقوال المشركين كقوله: ﴿وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ ﴿٢٢﴾﴾ وقد زل فيه صاحب الكشاف زلة لا تليق بعلمه[1].

وقد أكد القرآن أن نفي الجنون عنه أنه بسبب نعمة الله تعالى عليه، أو لتلبسه بنعمة الله جلَّ وعلا، فكيف يكون مجنوناً من هو محاط بنعمة الله متدثراً بها، فهى عليه كاللباس مشتملاً بها.

وهو ما يدل في محاجة المشركين على أنّ هذه النعم كانت ظاهرة في حقه من الفصاحة، والعقل الكامل والسيرة المرضية، والبراءة من كل عيب، والاتصاف بكل مكرمة، فوجودها تنافي الجنون وحصوله، وقد نبه الله تعالى على هذه الدقيقة لتكون جارية مجرى الدلالة اليقينية على كونهم كاذبين في قولهم له إنه لمجنون[2].

يقول العلامة أبو السعود في "إرشاد العقل السليم" في ذكر قوله: ﴿رَبِّكَ﴾ حيث أظهر وصف الربوبية، وأضافها إلى النبي- عليه السلام والصلاة- أنه يدل على عظمة قيمة

---

[1]- انظر الطاهر ابن عاشور " التحرير والتنوير" (٢٩/ ٦٢)، الدار التونسية للنشر، بغير سنة الطبع، والزلة التى يشير إليها للزمخشرى فى تفسيره لسورة التكوير حيث استدل بهذه الآية على علو مقام جبريل ﷺ على النبى ﷺ وهذا من عقائد المعتزلة ودسائسها.

[2]- انظر الفخر الرازي " التفسير الكبير" (١٥/ ٦٤٨)، وأبا حيان "البحر المحيط" (١٠/ ٢٣٥) دار الفكر ١٤١٢هـ ١٩٩٢م، وابن عطية "المحرر الوجيز" (٥/ ٢٣٦)، وقد ذكر بعض المفسرين كأبي السعود أن النعمة هي النبوة والرياسة العامة وهذه يجادل فيها المشركون وينكرونها، وأما ما ذكرنا فهو المناسب لرد الجنون المزعوم. انظر أبا السعود "إرشاد العقل السليم" (٥/ ٧٥٢) طبعة دار الفكر، والألوسي "روح المعاني" (١٦/ ٤١) المكتبة التجارية.

هذه النعمة، وعلى تشريف النبي ﷺ بهذه الإضافة، وهذا نص كلامه: "والتعرض لوصف الربوبية المنبئة عن التبليغ إلى معارج الكمال، مع الإضافة إلى ضميره عليه الصلاة والسلام لتشريفه، والإيذان بأنه تعالى يتم نعمته عليه، ويبلغه من العلو إلى غاية لا غاية وراءها، والمراد تنزيهه عليه الصلاة والسلام عما كانوا ينسبونه إليه حسدًا وعداوة، ومكابرة، مع جزمهم بأنه عليه الصلاة والسلام في غاية الغايات القاصية، ونهاية النهايات الناهية من حصانة العقل ورزانة الرأي"[1].

بعد أن نَزَّه الله تعالى النبي- عليه الصلاة والسلام- عن قول المشركين ودفع عنه بهتان أعدائه، وثَبَّته على دعوته، وصبَّره وسلاه، وبَيَّن نعمته عليه، وعظيم درجته عنده، أعقب ذلك كله بإكرامه بأجر غير ممنون، وهو الجواب الثاني للقسم الذي ذكرنا، وهو أنه أقسم له- سبحانه- بأن له أجرًا غير ممنون، وما يقسم إلا على عظيم، وهو ذلك الأجر الذي بشره به، وهو أجر عام يشمل أجر الدنيا، وأجر الآخرة جراء ما لقيه من أذى المشركين، وأن دعوته وتحمله وصبره سوف يرى نتيجته وعاقبته بعينه في الدنيا، ويوم يقوم الناس لرب العالمين، وذلك ما حدث من عناية الله به في الدنيا ونصره على أولئك المكذبين

[1]- العلامة أبو السعود "إرشاد العقل السليم" (٥/ ٧٥٢). وللعلماء والمفسرين أخذ ورد طويل في التوجيه الإعرابي لهذه الجملة (يراجع للتوسع بما ذكرنا من المصادر) وحاصله في قوله ﴿بنعمة ربك﴾ أنه – جعله الزمخشري في الكشاف – حالاً من الضمير الذي في مجنون المنفي، وتبعه عليه معظم المفسرين، ويكون التقدير، انتفى وصف المجنون بنعمة ربك عليك. والباء للملابسة أو السببية وقد اعترض أبو حيان كلام الزمخشري، وبين وجه الاعتراض. يراجع ذلك كله في "إعراب القرآن" لمحي الدين الدرويش، و "روح المعاني" للألوسي (١٦/ ٤١)، و"والتحرير والتنوير" للطاهر بن عاشور (٢٩/ ٦٢)، "والبحر المحيط" لأبي حيان (١٠/ ٢٣٥) وغيرها. قدم هذا فيما سبق.

والمستهزئين وغيرهم، ورفع رايته في الأرض، والتمكين لدين الله تعالى، مع ثواب الآخرة الدائم الذي لا ينقطع ولا يبيد.

وقد أكد هذا الثواب بـ﴿ إِنَّ ﴾، وبلام الابتداء وبتقديم المجرور في قوله ﴿ لَكَ ﴾ ، وهو برهان جسامة هذا الأجر، وضخامته ووصوله إلى مرتبة لم يصل إليها أحد، دليل ذلك قوله ﴿ لَكَ ﴾ التي تفيد الاختصاص، بمعنى أنَّ هذا الأجر لك لا لغيرك، لم يجزه غيرك كائنًا من كان، فيدل ذلك على علو مرتبة النبي ﷺ، ولما صح ووقع ذلك في الدنيا كان عنوانًا من عناوين صحة النبوة، وصدق الرسالة، فمن من المرسلين أو غيرهم رفعت رابته وانتشر دينه، ودام قوله، واستمرت تعاليمه على نحو ما كان له ﷺ مع ما حدث من مجابهة وحروب لم يعلمها على الحقيقة والتفصيل إلا الله جلَّ شأنه.

ودلَّ كذلك أنه سيد ولد آدم يوم القيامة إذ هو أعلاهم وأعظمهم، فهو أعلاهم منزلة، صاحب الوسيلة التي لا تنبغي إلا لأحد من خلق الله، هو النبي ﷺ.

وقيمة هذا الأجر وبقاؤه يوضحه قوله سبحانه وتعالى: ﴿ غَيْرَ مَمْنُونٍ ﴾ لا منَّ فيه: أي لا أذى فيه من المعطي للمعطَى له، من تعديده عليه، أو افتخاره به، وذكره له كما قال تعالى: ﴿ لَا تُبْطِلُواْ صَدَقَـٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ ﴾ [البقرة:٢٦٤] ويجوز أن يكون ﴿ مَمْنُونٍ ﴾ غير مقطوع عنه، وهو الثواب المتزايد كل يوم، أو الأجر الأبدي الذي لا يفنى، فكانت كلمة ﴿ مَمْنُونٍ ﴾ لها من الإيجاز بجمع هذين المعنيين ما ليس لقوله: ﴿ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴿١٠٨﴾ ﴾ [هود:١٠٨] في سورة هود، وهو هنا مناسب لتكريم[١] النبي ﷺ ولتبيان أعظم ما له من الثواب عند الله تعالى، فهو لا يصل إليه أحد فضلاً عن أن يدانيه، إذ هو له خاصة لا يشركه فيه غيره، ولا أذى فيه، مع

[١]- انظر ابن عاشور "التحرير والتنوير" (٢٩/ ٦٣).

تزايده وأبديته فكان ذلك تأنيسًا وتثبيتًا لقلب الرسول مع البشرى والوعد الجميل بما لا مزيد عليه.

وبعد أن آنس نفس رسوله ﷺ بهذا الوعد، جاء المقسم عليه الثالث، وهو قوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم:٤] فسفَّه رأي أعدائه بقولهم مجنون، ودفعه بما يذهبه ويبطله مما يعلمه قومه، فحقق أنه متلبس بخلق عظيم، وذلك ضد الجنون، وقد أكد بمؤكدين بحرف ﴿إِنَّ﴾ وبلام الابتداء أي أنه كلام لا يدع مجالاً لشك أو تردد، وكأنه يؤكد الواقع الذي لا يمارون فيه، ولا يكذبون به[1].

والخلق: طباع النفس وعاداتها وسجاياها، وأكثر إطلاقه على طباع الخير إذ لم يُتْبع ينعت.

والعظيم: الرفيع القدر، وهو مستعار من ضخامة الجسم، وشاعت هذه الاستعارة حتى ساوت الحقيقة.

و﴿عَلَىٰ﴾ للاستعلاء المجازي المراد به التمكن كقوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ﴾ [البقرة:٥]، ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ﴾ [النمل:٧٩].

والخلق العظيم هو الخلق الأكرم في نوع الأخلاق، وهو البالغ أشد الكمال المحمود في طبع الإنسان، لذلك فالخلق العظيم أرفع من مطلق الخلق الحسن، فلاجتماع مكارم

---

[1] - وقد يقول قائل: بل قد ورد قول المنكرين له ﷺ بأنه ساحر كذاب وغيرها، والرد أنه يكفي أن القرآن الكريم ذكر بنفسه هذه الافتراءات ولم يخف شيئًا منها؛ لأنه لا يأبه بها إذ لا يخشى شيئًا من ذكرها، مما يدل على أنها على غير الحقيقة، وأنها مما لا يخيف الواثق من نفسه، فضلاً عن أن تهزه أو تزلزله. ثم إن القرآن الكريم قد جابههم بالرد فلم ينكروه كقوله تعالى: ﴿فإنهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون﴾ .

الأخلاق إذاً في النبي ﷺ ، فهو أحسن الخلق معاملة للناس على مختلف الأحوال المقتضية لحسن المعاملة.

ولاجتماع هذه الأخلاق فيه ﷺ رأينا السيدة عائشة- رضي الله عنها- تقول: كان خلق نبي الله ﷺ القرآن[1]، أي هو أدب القرآن ويشمل ذلك كل ما وصف به القرآن مكارم الأخلاق، ويشمل كذلك ما وصف به النبي ﷺ من نحو قوله: ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ﴾ [آل عمران:١٥٩] وقوله تعالى: ﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ [الأعراف: ١٩٩] وغير ذلك من آيات القرآن الكريم.

وأيضًا ما أخذ به رسول الله ﷺ من الأدب بطريق الوحي غير القرآن قال رسول الله ﷺ: (إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق)[2]فجعل أصل شريعته إكمال ما يحتاجه البشر من مكارم الأخلاق في نفوسهم.

وإذا كان الرسول ﷺ هو صاحب الخلق العظيم، وأن الخلق العظيم هذا هو أدب الوحي الذي نزل عليه، فإن ذلك يدل على أن الرسول ﷺ هو المظهر الأكبر لهذا الخلق، ومن ثم أمره الله تعالى أن يقول: ﴿ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾ ﴾ [الأنعام:١٦٣] حيث صار بعد أمر ربه بقوله:﴿ ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا ﴾ [الجاثية:١٨] أول وأعظم المتبعين لها والمتخلقين بأخلاقها.

والأمر المهم الآخر في هذا الكلام أن الشريعة هذه أيضًا متمكنة تمام التمكن من عظيم الأخلاق، مرتبطة به أشد الارتباط، فكانت هي الأخرى المظهر الأجلّ الأعظم

---

[1]- رواه مسلم [صلاة المسافر] (١٣٩) عن قتادة ﷺ.

[2]- سبق تخريجه (٦).

لمكارم الأخلاق وفضائلها، وبهذا يزداد وضوحاً معنى التمكن الذي أفاده حرف الاستعلاء في قوله:﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾ ﴾ [القلم:٤] فهو متمكن من الخلق العظيم في نفسه، ومتمكن منه في دعوته الدينية[1].

ويؤكد سيد قطب أن تلك الأخلاق مربوطة بالسماء وليس العرف أو المصلحة إذ ذاك في الأرض هو الذي يحددها أو ينشئها فيقول: "لقد لخص الرسول ﷺ رسالته في هذا الهدف النبيل، وهو أنَّه بعث ليتمم مكارم الأخلاق، ومن ثمَّ كانت سيرته الشخصية مثالاً حيًّا، وصفحة نقية وصورة رفيعة، تستحق من الله أن يقول عنها في كتابه الخالد: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾ ﴾ [القلم:٤] " فيُمجِّد بهذا الثناء نبيه، كما يُمجِّد به العنصر الأخلاقي في منهجه، ويشد به الأرض إلى السماء، ويعلق به قلوب الراغبين إليه- سبحانه- وهو يدلهم على ما يُحب ويَرضى من الخلق القويم.

هذا الاعتبار هو الاعتبار الفذّ في أخلاقية الإسلام، فهي لم تنبع من البيئة،ولا اعتبارات أرضية إطلاقًا ولا تستمد، ولا تعتمد على ما كان قائمًا من اعتبارات العرف أو المصلحة أو الارتباطات ، إنما تُستمد من السماء، وتعتمد على السماء، تُستمد من صفات الله المطلقة ليحققها البشر في حدود الطاقة، كي يحققوا إنسانيتهم العليا وكي يصبحوا أهلاً لتكريم الله لهم واستخلافهم في الأرض، وكي يتأهلوا للحياة الرفيعة الأخرى بجوار الله تعالى: ﴿ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ ﴿٥٥﴾ ﴾ [القمر:٥٥].

وهذه الأخلاق ليست فضائل مفردة: صدق، وأمانة، وعدل... إنما هي منهج متكامل، تتعاون فيه التربية التهذيبية مع الشريعة التنظيمية، وتقوم عليه فكرة الحياة كلها

---

[1]- انظر الفخر الرازي "التفسير الكبير" (١٥/ ٦٤٩)، أبا حيان "البحر المحيط" (١٠/ ٢٣٦)، الطاهر بن عاشور "التحرير والتنوير" (٢٩/ ٦٤).

واتجاهاتها جميعاً، وتنتهي في خاتمة المطاف إلى الله لا إلى أي اعتبار آخر من اعتبارات هذه الحياة.»[1]

تعريف الأخلاق عند الفلاسفة:

وتجدر الإشارة هنا إلى ذكر شيء مما قاله الحكماء والفلاسفة من المسلمين ومن غيرهم في تعريف الأخلاق، لنرى مدى ارتباط هذه الأخلاق ارتباطاً وثيقاً بالنبي ﷺ، ومدى تحققها فيه إلى أقصى غاية ممكنة، وبالتالي من حيث شعروا أو لم يشعروا، نرى مدى بناء هذه الشريعة على تلك الأخلاق وتأسيسها عليها، وفي ذات الوقت يكون ردًا على هؤلاء المستشرقين الذين عاثوا فساداً في دين الإسلام، وأخلاق الرسول ﷺ.

نقل أسعد الحمراني عن "معجم لاروس" بأن الأخلاق: "هي علم تحديد معايير وقواعد السلوك، أو هي علم التعرف على الحقوق والواجبات"[2].

وذكر الحمراني أيضاً أن علم الأخلاق: "هو جملة القواعد والأسس التي يعرف بواسطتها الإنسان معيار الخير في سلوك ما، أو مدى الفساد والشر المتمثل في سلوك آخر[3].

وإن كان هذا هو تعريف الأخلاق عند الغربيين، فإن تعريف المحدثين والقدماء مما يبين جوانب الموضوع، ويوضح ملامحه، حتى إذا جئنا لتعريف الحكماء والفلاسفة والعلماء المسلمين للأخلاق اكتملت الصورة، وحينئذ نطبق هذه الصورة المكتملة للتعريف على

---

[1]- انظر سيد قطب "في ظلال القرآن" (٦/ ٣٦٥).

[2]- انظر اسعد الحمراني "الأخلاق في الإسلام والفلسفة القديمة" (١٥) حيث نقل هذا التعريف عن "معجم لاروس" الصادر في باريس ١٩٣١م.

[3]- المصدر السابق.

رسالة الإسلام، وعلى رسولها ﷺ. لنرى بموضوعية كيف تمثلت هذه الأخلاق فيهما على أتم وجه، وأحسن سيرة، ونلج المقصود مباشرة فنقول: أمَّا الأخلاق عند الغربيين المحدثين فتعرف بأنها: "تصور وتقييم ما ينبغي أن يكون عليه السلوك، متمشية في ذلك مع مثل أعلى أو مبدأ أساسي تخضع له التصرفات الإنسانية، ويكون مؤازراً للجانب الخَيِّر في الطبيعة البشرية"(١).

ويلاحظ الباحث أن تعريفات الأخلاق عند الغربيين لا تفرق بين الحديث والقديم، حيث يبين ذلك كلام ابن مسكويه بدون قصد منه للتفريق بين التعريفات، فيحدد الأخلاق مبيناً وجهة نظر القدماء، أي فلاسفة اليونان بأنها: "علمٌ يعرف به حال النفس من حيث ماهيتها، وطبيعتها، وعلة وجودها، وفائدتها، ما هي وظيفتها التي تؤديها، وما الفائدة من وجودها، وعن سجاياها، وعن أميالها، وما ينقلها بسبب التعاليم إلى الحالة الفطرية، وذكر أن هذا أول علم تأسس منذ بدء الخليقة"(٢).

ونختار تعريف الجرجاني حيث هو من اعتنى بالتعريفات، ليبين تعريف الأخلاق عند علماء المسلمين المتقدمين، وهو ما درج عليه متأخروهم من المهتمين منهم بالأخلاق والتفسير فيقول: " الخلق عبارة عن هيئة للنفس راسخة يصدر عنها الأفعال بسهولة ويسر من غير حاجة إلى فكر وروية، فإن كان الصادر منها الأفعال الحسنة، كانت الهيئة خلقاً حسناً، وإن كان الصادر منها الأفعال القبيحة، سميت الهيئة التي هي مصدر ذلك خلقاً سيئاً، وإنما قلنا هيئة راسخة؛ لأن من يصدر منه بذل المال على الندور بحالة عارضة لا يقال

---

[١]- حسن الشرقاوي "نحو الثقافة الإسلامية" (١/ ٢٣٨)، القاهرة دار المعارف ١٩٧٩م.

[٢]- انظر ابن مسكويه "تهذيب الأخلاق"، وانظر "موسوعة نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم ﷺ" (١/ ١٨٠) جدة دار الوسيلة الطبعة الأولى ١٤١٨هـ-١٩٩٨م.

خلقه السخاء ما لم يثبت ذلك في نفسه"[1].

إن المتأمل فيما سبق من التعريفات لا يجد مشقة أو صعوبة في أن يقرر بكل أمانة أن تلك الصفات لم تتحقق لأحد متكاملة على هذا النسق في غير محمد ﷺ، إذ لا يحتاج لروية وتدبر، أو أعمال فكر إذا كان مشتغلاً بالتاريخ فقط أن يقول إنَّ تلك الأخلاق كانت في أسمى صورها، والتي هي باقية ما بقي ناس يعلمون عن محمد ﷺ، ولو سأل المنصف نفسه من الذي ادعى، أو إدُعِيَ له على مدار التاريخ الإنساني كله أنه يتمتع بتلك الأخلاق، واتصف بأعلى كمالاتها، وما تزال آثارها باقية بل مكتملة كما كانت فيه، بلغت كما نقلت عنه، وتمثلها أتباعه، ويحاولون إلى اليوم، لم تجد مؤرخاً، ولا عالماً، ولا عاقلاً محايداً، منصفاً، أو غير منصف إلا أن يقول: ما ذكر ذلك إلا عن محمد ﷺ، وإن ذكر غيره في ميدان من ميادين هذه الأخلاق، فما ذكرت كل الأخلاق وأعلاها إلا له.

لا نحتاج إلى تنزيل معاني هذه التعريفات- كما أسلفنا- على النبي ﷺ، خاصة وهي تعريفات قاصرة مليئة بالثغرات والمآخذ، إذ الواقع والسير قد كفتننا مؤنه ذلك، وإنما نقف عند تعريفات العلماء المسلمين، إذ هم قد زادوا على هذه التعريفات أموراً تسد خللها، وتكمل النقص فيها، وبالتالي تجعل هذه التعريفات أجمع وأمنع من تعريفات الغربيين، وبناء عليه، فإذا كانت هذه التعريفات الشاملة قد جمعت لمحمد ﷺ فمن باب الأولى، قد أحاطت أخلاقه بتعريفات أولئك، ولا بأس حينئذ أن نذكر تعريفاً للأخلاق عند المسلمين، يقول مقداد يالجين معرفاً الأخلاق في نظر الإسلام بقوله: "هي عبارة عن مجموعة المبادئ والقواعد المنظمة للسلوك الإنساني التي يحددها الوحي لتنظيم حياة الإنسان، وتحديد

---

[1]- عبد القاهر الجرجاني "التعريفات" (١٠٤)، وكذلك الفخر الرازي "التفسير الكبير" (١٥/ ٦٤٩ -٦٥٠)، وانظر الطاهر بن عاشور "التحرير والتنوير" (٢٩/ ٦٣).

علاقته بغيره على نحو تحقيق الغاية من وجوده في هذا العالم على أكمل وجه."[1]

يظهر هذا التعريف شمول الأخلاق في نظر الإسلام، وكذلك كونها في منظور متكامل بين مصدرها، وطبيعتها ومغزاها الاجتماعي وغايتها، وهو ما يجعل النظام الإسلامي متميزاً بهذين الطابعين:

الأول: طابع إلهي من حيث أنها مراد الله، إذ أنه يجب أن يتبع الإنسان في هذه الحياة، أوامر لله ومراده في خلقه، لذلك جاء الوحي بصورة هذا النظام.

الثاني: طابع إنساني من حيث يتضمن المبادئ العامة في بعض نواحيه، وللإنسان دوره في تحديد واجباته الخاصة، والتعرف على طبيعة مظاهر السلوك الإنساني المعبرة عن القيم، لذا تعد الأخلاق روح الإسلام، حيث يقول الرسول ﷺ: (البر حسن الخلق)[2].

ولا بأس هنا أن نذكر أحد علماء المسلمين الذين ربطوا الأخلاق بقضية الإيمان، وما ينبثق عنه، وهو ابن تيمية أحمد بن عبد الحليم الحراني الذي سلك مسلكاً في تحديد مفهوم الأخلاق يعتبر جديداً إلى حد ما في الفكر الإسلامي، كما بين ذلك صاحب " النظرية الخلقية عند ابن تيمية" حيث يقول ما ملخصه: إن ابن تيمية كان أوفى، وأكمل وأكثر نضجاً ممن سبقه من علماء المسلمين، أو غيرهم في هذا المضمار، وذلك لأن التصور النظري للأخلاق لدى هؤلاء جميعاً فيه من الثغرات، وعليه من المآخذ ما يجعل من هذا التصور فكرة ناقصة، بل عاجزة عن تحقيق الكمال الإنساني، فعند ابن تيمية نرى الارتباط الوثيق بين مفهوم الأخلاق، ومفهوم الإيمان الذي حدده الإسلام، وما ينبثق عنه من نظام في

---

[1]- انظر مقداد يالجين "التربية الأخلاقية الإسلامية" رسالة دكتوراه منشورة، الطبعة الأولى القاهرة، مكتبة الخانجي ١٩٧٧م، (٧٥)، وانظر "نضرة النعيم" (١/ ٦٦)، جده دار الوسيلة الطبعة الأولى سنة ١٤١٨هـ.
[2]- المصدر السابق، والحديث رواه مسلم (٤٦٣٣).

العبادة، يكمن في التصور الخلقي الصحيح، ففي الإيمان وطرائقه وآفاقه تستطيع النفس أن تجد حاجتها المادية والروحية معاً، وليس ثَمَّة طريق يبلغ الإنسان إلى كماله المنشود، وصلاحه المرجو، وبالتالي سعادته المأمولة غير طريق الإيمان[1].

ويكفي منهج علماء المسلمين، من سلكه منهم بتحقيق أكثر، وتحديد أدق كابن تيمية ومن تبعه، أن يرجع إليه الأوربيون اليوم بعد أن تشردوا في صحراء المادة القاحلة، التي تصوروا فيها سعادتهم، فإذا هي سراب، وقد عادوا إلى إدخال الإيمان كعنصر فعال في تحديد الأخلاق الموصلة للسعادة التي اتضح لهم أنها مبنية على الإشباع الروحي والسلام النفسي الذي تظهر آثاره في الأخلاق المحمودة مع البشر كافة، والتي بها يشعر المرء بقيمة لهذه الحياة التي أصبح لها غايات وأهداف محمودة.

إننا بتغير الأخلاق إلى ذلك نغير جميع أنماط السلوك الإنساني، وقد رأينا كيف غيرت دعوة النبي ﷺ لمكارم الأخلاق هؤلاء العرب في أقصر فترة إلى أعظم أنماط ووسائل السلوك الإنساني على مرِّ التاريخ.

الأركان الأساسية للأخلاق:

ما سبق يدفعنا- بعد أن علمنا تحقق هذا العلو الأخلاقي في الرسول ﷺ وأنَّه كان الأنموذج الفخم لدعوته- إلى أن نحدد الأركان الأساسية للأخلاق، وشيئاً من تفصيلاتها لنرى مدى انطباقها على شخص الرسول الكريم- عليه الصلاة والسلام- فيتضح بذلك شيء من قيمة الرسول والرسالة، وصحة نسبه هذا الوحي لله تعالى.

---

[1]- انظر محمد عبد الله عفيفي "النظرة الخلقية عن ابن تيمية" مطابع الفرزدق التجارية، الرياض طبعة ١٤٠٨هـ ١٩٨٨م، (٥٨-٥٩)، والكلام في تبيين خصائص مسلك ابن تيمية والمقارنة بغيره ... إلخ موجود في الدراسة.

يقول الإمام ابن القيم في كتابه "مدارج السالكين" ما ملخصه: وحسن الخلق يقوم على أربعة أركان، لا يتصور قيام ساقه إلا عليها: الصبر، والعفَّة، والشجاعة، والعدل. وأخذ يفصِّل كيف جمعت كل منها جملة من مكارم الأخلاق التي بمجموعها تكتمل صورة الأخلاق الحسنة في صاحب الرسالة، لتكون عنواناً وتفصيلاً لهذه الرسالة بحيث لا يبقى عقلاً ولا واقعاً إلا التسليم بكونها من عند الله تعالى.

وإنَّ من الإنصاف العلمي أن نعرض من حين إلى آخر على مدار الرسالة لما اعترض به المعترضون، أو شكك به المرتابون من المستشرقين، ومن لفَّ لفَّهم لتلك الأغراض الخبيثة من محاربة الإسلام- العدو الرئيسي الذي اتخذوه لهم في هذه الأيام- ولنرى أتصمد أمام النقد العلمي النزيه، أم لا، من وجهة نظر هذه الرسالة، وإن كنَّا سنختصر ذلك اختصاراً؛ لئلا نخرج عن مقصود البحث، وسيكون ذلك فيما سنعرض له فقط من بعض مواقفهم التي تدل على سائر المواقف، مع الإعراض التام عما تتميز به هذه الكتابات من التطاول والتسافه، وقلّة الحياء والأدب[1]، إذا ذلك بضاعة الجهلة التي تظهر عند فقد الحجة

---

[1]- يقول كيمون فى كتابه (باثولوجيا الإسلام):«إن الديانة المحمدية جذام تفشى بين الناس وأخذ يفتك بهم فتكاً ذريعاً، بل هو مرض مريع وشلل عام وجنون ذهولى يبعث الإنسان على الخمول والكسل ولا يوقظة من الخمول والكسل إلا ليدفعة إلى سفك الدماء والإدمان». ويقول إيضاً :«أعتقد أن من الواجب إبادة خُمس المسلمين والحكم على الباقيين بالأشغال الشاقة وتدمير الكعبة ووضع قبر محمد وجثته فى متحف اللوفر». انظر عبد الودود يوسف : قادة الغرب يقولون، دار السلام للطباعة والنشر طبعة ١٩٩٤ (٤٢). يقول الفيلسوف الأمريكى فرنسيس فوكوياما فى كتابة«نهاية التاريخ» أن الإسلام أصبح خطراً كبيراً على الممارسات الليبرالية وأن هناك تشابهاً بين الأصولية الإسلامية والنازية الأوروبية وأن الإسلام هو سبب فى تخلف المسلمين وأنه وراء فشل المسلمين فى التفوق علمياً أو إقتصادياً أو صناعياً. انظر رجب البنا «الغرب والإسلام» دار المعارف طبعة ١٩٩٧ (٢٣٧-٢٣٨)

والبرهان، وسيكون البحث مع مدعي الحياء والأدب منهم، وإن اعتقد الباحث أنهم لا يفرقون عن غيرهم شيئاً، إلا أنهم صاغوا ما يريدون من أبحاث الظلمات بطريقة حاولوا فيها إلباسها ثوب العلم مع البعد عن طريقة الشتم والسب والقذف.

نعود إلى كلام ابن القيم حيث يقول:

فالصبر: يحمله على الاحتمال، وكظم الغيظ، وكف الأذى، والحلم والأناة والرفق وعدم الطيش والعجلة.

والعفة: تحمله على اجتناب الرذائل والقبائح من القول والفعل الظاهر والباطن، وتحمله على الحياء، وهو رأس كل خير، وتمنعه من الفحشاء، البخل والكذب، والغِيبَة والنميمة.

والشجاعة: تحمله على عزة النفس، وإيثار معالي الأخلاق، وعلى البذل والندى، الذي هو شجاعة النفس وقوتها على إخراج المحبوب ومفارقته، وتحمله على كظم الغيظ والحلم؛ فإنه بقوة نفسه وشجاعتها يمسك عنانها، وبكبحها بلجامها عن الترف والبطش، كما قال النبي ﷺ: (ليس الشديد بالصرعة، إنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب) وهو حقيقة الشجاعة، وهي ملكة يقتدر بها العبد على قهر خصمه.

والعدل: يحمله على اعتدال أخلاقه، وتوسطه فيها بين طرفي الإفراط والتفريط،فيحمله على خلق الجود والسخاء الذي هو توسط بين الذل والقِحَة، وعلى خلق الشجاعة الذي هو التوسط بين الجبن والتهور، وعلى خلق الحلم الذي هو توسط بين الغضب والمهانة وسقوط النفس.

فمنشأ جميع الأخلاق الفاضلة من هذه الأربعة.

ومنشأ جميع الأخلاق السافلة، وبناؤها على أربعة أركان: الجهل، والظلم، والشهوة، والغضب[1]، وكيف رأينا أنَّ الرسالة وصاحبها- عليه الصلاة والسلام- أبعد شيء عن هذه الأخلاق، وأشد نهياً عن الإتصاف بها، وأكثر العالمين حملاً لهم على مجاهدة أنفسهم على تركها، فجعل الدين كله خُلُقاً، فمن زاد عليك في الخلق زاد عليك في الدين، ودليل ذلك وبرهانه من كلامه هو ﷺ لما سئل عن البرِّ والإِثم فقال: (البُّر حسن الخلق، والإِثم ما حاك في صدرك، وكرهت أن يطَّلع عليه الناس)[2].

فقابل البَّر بالإِثم، وأخبر أنَّ البر حسن الخلق، والإثم حواز الصدور، وهذا يدلُّ على أنَّ حسن الخلق هو الدين كله، وهو حقائق الإيمان، وشرائع الإسلام، ولهذا قابله بالإِثم.

وإنَّ مما يؤكد ذلك في نظر صاحب الشريعة قوله عليه الصلاة والسلام: (إنَّ المؤمن ليدرك بحسن خلقه درجة الصائم القائم)[3] فجعل حسن الخلق درجة المتقين الصائمين القائمين، وليس ثَمَّ درجة أعلى من ذلك إذ هي أعظم صفات المدح، وأعلى درجة الإيمان، ولذا قال: (إنَّ من أكمل المؤمنين إيماناً: أحسنهم خُلُقاً)[4].

ولقد تمثلت هذه الصفات جميعها فيه ﷺ كما ذكر أبعد الناس منه، وكذلك أقرب الناس إليه، حيث قالت السيدة عائشة رضي الله عنها لَّما سُئلت عن خلقه عليه الصلاة

---

[1]- انظر محمد بن أبي بكر بن أيوب المعروف بابن قيم الجوزية "مدارج السالكين" دار إحياء الكتب العربية (١/ ٢٣٠)، عطية محمد سالم تكمله "أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن" للشنقيطي محمد الأمين (٨/ ٤٢٧).

[2]- رواه مسلم (٢٥٥٣)، ورواه أحمد أيضًا (٤/ ١٨٢)، والترمذي (٢٣٨٩). من حديث النواس بن سمعان.

[3]- رواه أبو داود (٤٧٩٨) من حديث السيدة عائشة رضي الله عنها.

[4]- رواه الترمذي (١١٦٢) مطولاً واللفظ له وقال حيث حسن صحيح، ورواه أحمد (٢/ ٢٥٠، ٤٧٢).

والسلام: (كان خلقه القرآن)[1] ، أي خلقه آداب الشرع التي أمر بها جميعها، إذ لا يمكن أن يأمر الله بأي شيء، إلا ويكون الرسول ﷺ أول المسارعين إلى تنفيذه لقوله تعالى: ﴿ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾ [الأنعام:١٦٣]، وحديث أنس رضي الله عنه خادمه بعد حديث زوجه، يبين لنا ذلك، فعلى طول خدمته للنبي ﷺ لم يتغير عليه قطّ، ولا بدا له منه شيء من ذلك، خاصةً مع من يخدمه؛ لأنه لابد من أفعال يقع بها الضجر والتأفف، أو تؤدي إلى المعاتبة أو المعاقبة، ولكن شيئاً من ذلك كله لم يقع لأنس رضي الله عنه مع النبي عليه الصلاة والسلام، يقول أنس: (كان رسول الله ﷺ أحسن الناس خُلُقاً) وقال: (ما مَسَستُ ديباجاً ولا حريراً ألينَ من كفِّ رسول الله ﷺ، ولا شممت رائحة قطّ أطيب من رائحة رسول الله ﷺ، ولقد خدمت رسول الله ﷺ عشر سنين، فما قال لي قط: أُفّ، ولا قال لشيء فعلته: لم فعلته؟ ولا لشيء لم أفعله: ألا فعلت كذا)[2].

---

[1]- رواه مسلم (٧٤٦) مطولاً من حديث قتادة رضي الله عنه.

[2]- رواه البخاري (٣٧٦٨)، ومسلم (٢٣٠٩) بعضه، والترمذي (٢٠١٥).

المبحث الثاني

﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾

وتمشيًا مع سياق القواعد الموضوعة لهذا البحث، نذكر آية أخرى جمع الله فيها للنبي عليه الصلاة والسلام مكارم الأخلاق، وهي قوله تعالى: ﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ١٩٩ ﴾ [الأعراف:١٩٩] لنُحللها حتى يتضح كيف أمره الله بهذا؟ بعد أن مدحه بأنه على خُلُقٍ عظيم، ونلاحظ ما يلي:

أنَّ هذه الآية في سورة الأعراف، وهي السابعة والثلاثون في ترتيب النزول، ومعنى أنَّ الله تعالى يأمره ﷺ بعد هذه المدة بذلك مع أن تلك أخلاقه، وأنه أثنى عليه بها أن يكون ذلك خطاباً لأُمَّته ﷺ، وهو المناسب للسياق القرآني حيث جاء بعد ذلك قوله تعالى: ﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ٢٠٠ ﴾ [الأعراف:٢٠٠].

وكما بَيَّنَّا في عصمته لا يمكن أن يكون ذلك في حَقِّه- عليه الصلاة والسلام- والاحتمال الآخر أن يكون الخطاب له في جزئه الأول، وهو خذ العفو...، وكذلك يكون مُوَجَّهًا للمؤمنين، ولا يمتنع أن يكون في الثاني للمؤمنين أيضاً، وحينئذ يكون المراد من هذا التوجيه القرآني الكريم لهذه الصيغة، هو التأكيد مرة أخرى على مكارم الأخلاق، وتثبيت المؤمنين فيما لا قوة من الأذى على مارَبَّاهم عليه من حسن الخلق، لأن ذلك دليل أنه لأمر ما مهم، قد ندبهم لذلك مرة أخرى، وأمرهم به.

ويوضح هذا الأمر أن المشركين قد وصلت إساءتهم إلى الحد الذي يمكن أن يخرج

المؤمنين عن حد المسامحة، والإعراض عن الجاهلين، أو العفو عمن ظلمهم، مما يدل على أن قلوبهم قد ملئت غيظاً من هؤلاء المجرمين لدرجة انتظار الانتقام منهم، بدلاً من الصفح، وتمني الهداية لهم، وهي روح الإسلام العظيم.

أخلاق جبلي وكسبي:

وإذا كان قوله تعالى: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝ ﴾ [القلم:٤] كانت في أول ما نزل من القرآن الكريم جاء هذا السؤال، وهو: هل الأخلاق جِبِلِّيَّة أو كَسبِيَّة؟ خاصة وأننا ادّعينا في أول الكلام أنه ﷺ ما نزل عليه الوحي إلا وهو في عظيم الأخلاق وأعلاها، وهو ما يؤيده الواقع كما ذكرنا.

والإجابة العامة: هي أن الأخلاق منها ما يكون جِبِلِّياً قد طبع عليه المرء، ومنها ما يكون كَسبِياً يقع له بالتخلق والتكلف، حتى يصير له سجية وملكة، وله أمثلة عدة، وأقوال كثيرة وردت عن النبي ﷺ منها ما قاله- عليه الصلاة والسلام- لأشج عبد القيس رضي الله عنه: (إنَّ فيك لخُلُقين يحبهما الله: الحلم، والأناة. فقال: أخُلُقين تخلقت بهما أم جبلني الله عليهما؟ فقال: بل جبلك الله عليهما. فقال: الحمد لله الذي جبلني على خلقين يحبهما الله ورسوله)[1].

وهذا يدل على أن الأخلاق منها: ما يطبع المرء عليه، وقد رأينا الواقع مليء بتلك الصور، وقد رأينا الشجاع الثابت بطبعه، والكريم، والحليم، وغيرهما، والعكس كذلك كأصحاب الأخلاق المذمومة كالبخل، والجبن، وغيرهما.

---

[1]- أخرجه مسلم (١٧) في الإيمان: باب المر بالإيمان بالله تعالى ورسوله ﷺ وشرائع الدين، أم الجملة الأخيرة: (خلقين تخلقت ...) فقد أخرجها أحمد (٤/ ٢٠٥، ٢٠٦)، البخاري في الأدب المفرد (٥٨٤) وسندها صحيح، انظر زاد الميعاد (٣/ ٦٠٥-٦٠٩).

ومنها: ما هو مكتسب، يكتسبه الإنسان بالتكلف، ورياضة النفس ومجاهدتها، وقد ورد في هذا قوله ﷺ: (إنما العلم بالتعلم، والحلم بالتَّحَلَم، ومن يتحرَّ الخير يُعطَه، ومن يتوقَّ الشر يوقه)[1].

وهذا يوضح أن من الأخلاق ما يكتسب بالتدرب عليها، وممارستها مع المجاهدة على مدافعة ضدها عند ورود أسبابها، فالحلم يحاول المرء أن يتخلق به، ويظهر مدى التزامه بهذا الخلق عند ورود سبب الضد من معاملات وأقوال وتصرفات تخرج الإنسان عما يحاول أن يكون عليه من الحلم، فيضبط حينئذ جهله، ويكظم غيظه، ويجاهد نفسه على الثبات فيما عرض له من امتحان حلمه، وهكذا بقية الأخلاق، وهذا باب طويل في رياضة النفس، ترى النبي ﷺ حاول شيئاً من ذلك؟ الواقع يأبى إلا أن يقول لا، لقد كانت تلك الأخلاق سجية فيه، لقد تعرض لامتحانات الأخلاق كافة، فما سمعنا له هنة فيها عَيَّرَه بها قومه، وامتنعوا من وصفه بسببها بأنه صاحب الخلق القويم، أو تذرعوا بها لئلا يدخلوا الإسلام.

ومع ذلك من حسن تواضعه، وهضمه لنفسه، التي لا ينطق بها إلا العظماء وجدناه يدعو ربَّه ﷻ بأن يرزقه ويهبه، ويعينه، ويوفقه لأحسن الأخلاق، وقد ذكر ذلك ليكون تعليماً للمؤمنين، وتنبيهاً لهم على الثبات على أحسن الأخلاق بدوام الدعاء لله تعالى أن يهديهم إليها، ويوفقهم لها، فيقول ﷺ: (اللهم اهدني لأحسن الأخلاق لا يهدي لأحسنها

---

[1]- أخرجه الخطيب البغدادي في تاريخه (٩/ ١٢٧) عن أبي هريرة مرفوعًا.

إلا أنت، واصرف عني سيئها لا يصرف عني سيئها إلا أنت)[1].

ولابد من إضافة هنا تبين مصدرية الأخلاق، وتوضح ما سبق، وهي أنَّ الأخلاق لا يمكن أن تكون نتاج عقل، حتى نقول إن الرسول أنتج هذه الأخلاق بعقله، لأن العقل يستطيع أن يختبر العلاقات بين الأشياء ويحددها، ولكنه لا يستطيع أن يصدر حكماً قِيَمِياً عندما تكون القضية قضية استحسان أو استهجان أخلاقي. إنَّ محاولة إقامة الأخلاق على أساس عقلاني لا يستطيع أن يتحرك أبعد مما يسمى بالأخلاق الاجتماعية، أو قواعد السلوك اللازمة للمحافظة على جماعة معينة، وهي في واقع الأمر نوع من النظام الاجتماعي[2].

ويؤكد هذه الفكرة الدكتور محمد الله دراز لقوله: "فإذا ما قيل لنا، إننا نحن الذين نشرع لأنفسنا، بوصفنا أعضاء في عالم عقلي، وجب علينا أن نتفق على ذلك الاستقلال الذي خص به العقل."

ماذا تعني في الواقع هذه المقولة: " العقل يمنح نفسه قانونه؟ هل هو مبدع العقل والقانون، أو أنه يتلقاه مُعدًّا على أنه جزء من كيانه كما يفرضه على الإرادة، ذلك لأنه إذا كان العقل مبدع القانون فإنه يصبح السيد المطلق، فيبقى عليه، أو يبطله تبعاً لمشيئته، فإذا لم يستطع ذلك فلأنه قانون سبق في وضعه وجود العقل، وأن صانع العقل قد طبعه فيه،

---

[1]- جزء من حديث رواه مسلم (٧٧١) صلاة المسافرين: باب الدعاء في صلاة الليل وقيامه، وأبو داود (٧٦٠) في الصلاة: باب ما يستفتح به الصلاة من الدعاء.

[2]- انظر علي عزت بيجوفيتش: "الإسلام بين الشرق والغرب"، ترجمة محمد يوسف عدس ط١، الكويت، مجلة النور، مؤسسة بافاريا للنشر والإعلان والخدمات ١٤١٤هـ ١٩٩٤م، ص١٨٦.

كفكرة فطرية، لا يمكن الفكاك عنها"[1].

مما سلف من القول يتضح لنا أن الأخلاق منها ما هو كسبي، ومنها ما هو جبِلِّي طبعي، وإن الكسبي إنما هو لأخلاق معلومة ظاهرة في الواقع يحاول الإنسان أن يتخلق بها بالتدرب عليها، ورياضة النفس بها، وبالتالي لا يمكن أن تكون نتاجاً للعقل، إذ العقل قد وجد، وهذه الأخلاق متقررة في الواقع وموجودة.

فإذا طبقنا هذا الكلام على رسول الله ﷺ فإنه لا مناص من أن نقول إن أخلاقه كلها جبلِّية، لأنه أتى قومه بدعوته، وليس هناك مغمز واحد يغمز، أو غمز عليه في أخلاقه باتفاق المخالف والموافق ساعتها، وإلى الآن، ثانيًا أتاهم يدعوهم إلى مكارم الأخلاق، وقد فاقهم في أخلاقه بما لا طاقة لهم به، بمعنى أن الفارق بين أخلاقه وأخلاقهم كان في الدرجة العليا التي يستطيع بها أن يدعوهم إليها، وأن يرشدهم إليها إذ كيف يدعوهم وهو مثلهم، بقي هذا الفارق الأخلاقي العظيم كما هو، بل زاد، فلو كانت الأخلاق من مفرزات العقل الإنساني فلم اختص بها محمد ﷺ، والعقول متقاربة في البيئة العلمية والثقافية والاجتماعية الواحدة.

وقد يأتي هذا الإعتراض- كاعتراضات المستشرقين- إنه كان يتحنث في غار حراء حتى ادّعى النبوة، وهي تلك التأملات التي قادته إلى ما ادّعى!

ونقرر كما ينبغي أن يقرر العقلاء بإنصاف، هل كان يتحنث ليتعلم الأخلاق؟ لم يقلها أحد، ولا رماه بها أحد ولا يستطيع، لأنه ليس من عادة العرب أن يكون كذلك. وكيف يكون شهراً في العام لعدّة أعوام سبباً لهذا العلو الأخلاقي، والسمو العقلي؟ وكيف ولِمَ لم

---

[1]- محمد عبد الله دراز، "دستور الأخلاق في القرآن"، ص٣٥، وانظر "موسوعة نضرة النعيم" (١/ ٦٥-٦٦).

يَقُم مناهضو الدعوة، أو بعضهم لمثل ذلك ليجنبوا قومهم، أنفسهم تلك المواجهات الدامية؟ أو الادعاء على النبي ﷺ ونبذه بذلك؛ ليظهروا كذبه فيما ادعى؟

إنَّ معاملة الرسول لقومه، وللناس كافة من أول يوم بهذا الخلق الحسن إلى آخر يومٍ في حياته لَيدل دلالة قاطعة على أنَّه ليس له من أمره شيء، وأن الموجه له لا علاقة له بنفسه، ولا من داخله، ولا لهدف آخر يسعى إليه، بل هو شيء فوق طاقته لا يستطيع له رداً ولا دفعاً، إنما هو يُنفذ أوامر هذه القوة الخارجة العليا، ليس غير، لا ينتظر من وراء ذلك إلا رضا هذا الإله عنه، لا يلوي على غير ذلك، ولا يخشى أحداً ولا ينتظر جزاءً أو شكوراً من أحد، فضلاً عن أي غرض مادي أ وحسي آخر، وهو يلهج بقوله تعالى: ﴿ قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ ۖ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦﴾ ﴾ [يونس:١٦]، وقد جاءت آيات كثيرة في هذا السبيل، وكذلك في سياق أنه لا يملك من أمر نفسه شيئاً، وإلا لما عرَّض نفسه لذلك كله بغير أية أغراض حصلها في الدنيا، كقوله تعالى: ﴿ قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ ۚ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ۚ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾ [الأنعام:٥٠]، وكقوله تعالى: ﴿ قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۗ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ ۚ إِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً ۖ وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٤٩﴾ ﴾ [يونس:٤٩].

وإذا انتهينا من هذه النقطة، فلابد من الإشارة إلى أمر مهم من فهم أخلاقه ﷺ، وهو: مع أن الله جَبَلَه على عظيم الأخلاق، وأنه ما بعث لدعوة الحق إلا وهو كذلك، فإن أخلاقه بعد البعثة كانت في ارتفاع وعلو دائم، إذ لا يوصف شيء بالثبات في الدنيا، وفي ذلك نقدم بما يقول سيد قطب: ما أن أخلاقية الإسلام لا تستمد ولا تعتمد على اعتبارات أرضية من العرف أوالمصلحة أوغيرها، إنما تستمد من السماء وتعتمد على السماء، تستمد من هتاف السماء للأرض لكي تتطلع إلى الأفق، وتستمد من صفات الله المطلقة ليحققها البشر في حدود الطاقة، كي يحققوا إنسانيتهم العليا. ومن ثم فهي غير مقيدة ولا محدودة بحدود؛ إنما

هي طليقة ترتفع إلى أقصى ما يطيقه البشر، لأنها تتطلع إلى تحقيق صفات الله الطليقة من كل حد، ومن كل قيد[1].

ويزيد ابن رجب الحنبلي في كتابه "لطائف المعارف" هذا الأمر توضيحاً وتفصيلاً فيقول من كلام طويل له: ولما كان الله ﷻ قد جَبَلَ نبيه ﷺ على أكمل الأخلاق وأشرفها، كما في حديث أبي هريرة، عن النبي ﷺ: «إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق»[2] فدل هذا على أنه ﷺ أجود بني آدم على الإطلاق، كما أنه أفضلهم وأعلمهم وأشجعهم وأكملهم في جميع الأوصاف الحميدة.

وكان مثالاً لهذه الأوصاف، هو جوده ﷺ فكان جوده يتمثل بجميع أنواع الجود، من ذلك العلم والمال، وبذل نفسه لله تعالى في إظهار دينه وهداية عباده، وإيصال النفع إليهم بكل طريق، ومن إطعام جائعهم، ووعظ جاهلهم، وقضاء حوائجهم، وتحمل أثقالهم.

ولم يزل على هذه الخصال منذ نشأ، ولهذا قالت له خديجة - رضي الله عنها - في أول مبعثه: «والله لا يخزيك الله أبداً، إنك لتصل الرحم، وتقري الضيف، وتحمل الكل، وتكسب المعدوم، وتعين على نوائب الحق»[3].

ثم تزايدت هذه الخصال فيه بعد البعثه وتضاعفت أضعافاً كثيرة.

وفي الصحيحين عن أنس، قال: «كان رسول الله ﷺ أحسن الناس، وأشجع الناس،

---

[1]- انظر سيد قطب، "في ظلال القرآن" (٦/ ٣٦٥٧).

[2]- سبق تخريجه.

[3]- أخرجه البخاري في بدء الوحي (٣)، ومسلم (١٦٠) في الإيمان: باب بدء الوحي برسول الله ﷺ.

وأجود الناس»[1]، وفي صحيح مسلم[2] عنه، قال: «ما سئل رسول الله ﷺ على الإسلام شيئاً إلا أعطاه، فجاءه رجل فأعطاه غنماً بين جبلين، فرجع إلى قومه، فقال: يا قوم، أسلموا فإن محمداً يعطي عطاء من لا يخشى الفاقة»[3].

وإننا إذ نذكر مثلاً قليلاً لهذه الأخلاق، لنبين ما كان عليه ﷺ من علو الأخلاق التي بعث بها، مجبولاً عليها، حتى شهد بها أعداؤه شهادة من لم ير، ولم يسمع بمثلها فيمن ذكر بالسؤدد والشرف، فقد ذكر عن صفوان بن أمية، وهو من هو فضلاً وشرفاً وقيادة لقومه في معاداة النبي وحربه سنين طويلة، أعطاه رسول الله ﷺ يوم حنين وادياً مملوءاً إبلاً ونَعَماً، فقال صفوان: "أشهد ما طابت بهذا إلا نفس نبي.[4]"

ولمثل ما سبق، ويزيد عليه، يقول ابن رجب: وكان يؤثر على نفسه وأهله وأولاده، فيعطي عطاء يعجز عنه الملوك مثل كسرى وقيصر، ويعيش في نفسه عيش الفقراء، فيأتي عليه الشهر والشهران لا يوقد في بيته نار.

ترى لو كان له غرض من تلك الأغراض الاستشراقية المفتراة، فما الذي كان يحمله على ذلك، وقد عرض عليه الكفار، الملك والمال، وشهوات الدنيا ولذاتها من النساء وغيره، فلم يعبأ بها، حتى ولو كانت الشمس والقمر عن يمينه وشماله، ما تراجع قيد شعرة

---

[1]- أخرجه البخاري مطولاً رقم (٢٨٥٧) في الجهاد: باب اسم الفرس والحمار، ومسلم رقم (٢٣٠٧) في الفضائل: باب شجاعة النبي ﷺ وتقدمه للحرب.

[2]- رقم (٢٣١٢) في الفضائل: باب ما سئل رسول الله ﷺ شيئًا قط فقال: لا.

[3]- انظر ابن رجب، زين الدين أبي الفرج عبد الرحمن ابن أحمد "لطائف المعارف"، ت ٧٩٥هـ حققه ياسين السواس، دار ابن كثير دمشق، ط١٤١٣هـ ١٩٩٢م (٣٠٥-٣٠٨).

[4]- انظر السابق.

عن ذلك؛ لأنه ليس له ذلك، عدم الوقوع دليل الصدق.

جاءته ابنته فاطمة عليها السلام تشتكي ما تلقى من خدمة البيت وتسأله خادماً يعينها يكفيها ذلك، فقال لها: (لا أعطيك وأدع أهل الصفة تطوي بطونهم من الجوع.) وأمرها أن تستعين بالتسبيح والتكبير والتحميد عند نومها[1].

ويستكمل ابن رجب كلامه بقوله: وكان جوده ﷺ يتضاعف فى شهر رمضان على غيره من الشهور، كما أن جود ربه يتضاعف فيه أيضاً، فإن الله جبله على ما يحبه من الأخلاق الكريمة، وكان على ذلك من قبل البعثة.[2] وهو ما يؤكد الذي ذهبنا إليه.

ذكر ابن إسحاق في سيرته عن وهب ابن كَيْسَان عن عبيد بن عمير، قال: كان رسول الله ﷺ يجاور في حراء من كل سنة شهراً، يطعم من جاءه من المساكين، حتى إذا كان الشهر الذي أراد الله به ما أراد من كرامته، من السنة التي بعثه الله فيها، وذلك الشهر شهر رمضان، خرج إلى حِرَاءَ، حتى إذا كانت الليلة التي أكرمه الله تعالى برسالته، ورحم العباد بها، جاءه جبريل من الله عز وجل.

ثم كان جوده في رمضان- بعد الرسالة- أضعاف ما كان قبل ذلك؛ فإنه كان يلتقي هو وجبريل عليه السلام، وهو أفضل الملائكة وأكرمهم، ويدارسه الكتاب الذي جاء به إليه، وهو أشرف الكتب وأفضلها، وهو يحث على الإحسان ومكارم الأخلاق.

ومن ثم كان رسول الله ﷺ هذا الكتاب له خُلُقاً بحيث يرضى لرضاه، ويسخط لسخطه، ويسارع إلى ما حث عليه، ويمتنع عما نهى عنه؛ فلهذا كان يتضاعف جوده

---

[1]- أخرجه البخاري (٦/٢١٥)، وأهل الصفة فقراء الإسلام لا يأوون على بيت ولا مال.

[2]- انظر ابن رجب الحنبلي "لطائف المعارف" (٣٠٨-٣٠٩).

وإفضاله في هذا الشهر؛ لقرب عهده بمخالطة جبريل عليه السلام، وكثرة مدارسته له هذا الكتاب الكريم، الذي يحث على المكارم والجود.[1]

وهكذا كل الأخلاق التي اتصف بها النبي ﷺ كانت في الغاية من السمو، وإذا بها تتضاعف إلى أعلى وأسمى من ذلك بعد بعثته المشرفة؛ لأنها تستمد من صفات الله التي لا يحدها قيد ولا حد.

وممن ذكر ذلك من المحققين، وإن لم يقصد إليه ولكنه يوضح الفكرة التي نحن بصددها العلامة الطاهر بن عاشور في تفسيره للآية الكريمة ﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾ ﴾، ونحن نذكر ما قاله مختصراً، يقول:

أشبعت هذه السورة من أفانين قوارع المشركين من عظتهم، وإقامة الحجة عليهم، وبعثهم على التأمل في دلائل الوحدانية، وصدق الرسول ﷺ، وما جاء به من الهدى، مع تبيين ضلال المشركين، وفضح فساد معتقدهم، وكيف سجل مكابرتهم وعنادهم، والتعجب من ركوبهم لرؤوسهم، ونأيهم بجانبهم، وكيف أصموا أسماعهم، وأغمضوا أبصارهم عما دعوا إلى سماعه، كل ذلك تكلمت به السورة، وسارت به آياتها ونظرت في نفس الوقت أحوالهم بأحوال الأمم الذين كذبوا من قبلهم، وكفروا نعمة الله فحل بهم من أصناف العذاب ما ذكرته السورة الكريمة، وأنه إنذار لهؤلاء أن يحل بهم ما حل بأولئك، وقد أعلنت السورة باليأس من ارعوائهم، وانتظار ما سيحل بهم بأيدي المؤمنين، وبتثبيت الرسول والمؤمنين، وتبشيرهم والثناء عليهم بما هم عليه من الهدى، مسلاة لهم وتنويهاً بفضلهم، كان من شأن، ذلك أن يثير في أنفس المؤمنين كراهية أهل الشرك كراهة تحفزهم

---

[1]- المصدر السابق.

للانتقام منهم، ومجافاتهم، والإعراض عن دعائهم إلى الخير، لا جرم شرع في استئناف غرض جديد، يكون ختاماً لهذا الخوض البديع، وهو غرض أمر الرسول ﷺ والمؤمنين بقلة المبالاة بجفاء المشركين وصلابتهم، وأن يسعوهم من عفوهم، والدأب على محاولة هديهم والتبليغ إليهم بقوله خذ العفو ... الآية[1].

والمتأمل لهذا الأمر بمكارم الأخلاق ليدل المرة بعد المرة على أخلاقية هذا الدين، وأن قضية الخلق الحسن هي محور دعوته، وأن الثبات على هذه الأخلاق تحت مختلف الظروف من أهم مهماته وأقوى مقوماته.

إن التمسك بهذه الأخلاق في تلك الظروف الشاقة، والأحوال العصيبة تبرهن بما لا يدع مجالاً للشك على أن الموجه لهذه الدعوة هو الله تعالى، وبالتالي يدلل ويشهد لصحة الرسالة، إنها أخلاق تخالف معهود البشر كافة، إذ لم يكن في تاريخ البشرية وإلى اليوم والغد من عامل أعداءه الذين دعاهم إلى السمو الروحي والأخلاقي والنفسي بمعرفة الله، فواجهوه بالبطش وأشد التنكيل تلك المعاملة الحسنة، التي تخالف جبلة النفوس، وما كان عليه الواقع، إذ كل الناس ينتظرون من كل قلوبهم لمن آذاهم- إذا لم يتمكنوا منهم-أياماً سوداً يشمتون بهم فيها، ويُسرون لما وقع عليهم إبانها، وأما إذا قدروا على الانتقام فالتاريخ يحدثنا بوقائع يندى لها جبين البشرية خجلاً وأسفاً، في القديم والحديث قد وقعت على أيدي هؤلاء الناقمين المنتقمين، تفيض حقداً وغلاً وظلماً وعدواناً وشططاً إلى آخر ما يذكر المعجم من ألفاظ في هذا الصدد، وتاريخ الروم والفرس ويهود طافح بمثل ذلك في القديم، وتاريخ أوربا الحديث أشد ابتلاء بتلك الأحداث الدامية فيما بين الأوربيين أنفسهم، أو فيما بينهم وبين الشعوب التي استعمروها مما يثير الإشمئزاز والتقزز من مدعي الرقي

---

[1]- انظر الطاهر بن عاشور "التحرير والتنوير" (٢٢٥-٢٢٦/ ٩).

والتمدن.

كل ذلك بغير الإسلام الذي منع فيما منع الشماتة بالأعداء، حتى الشماتة منعها فما بالك بما هو أشد؟

إن هذه التعاليم ما كان ليتبعها أحد إلا أن يكون مستسلماً للقوة التي لا تقهر متبعاً لأوامر الإله الحق ﷻ، مصدقاً بما جاءه به النبي من ربه، قد امتلأ قلبه واستولى عليه ذلك الإيمان بصدق الرسول ﷺ ومحبته بحيث يوطن نفسه مهما كانت الملمات والخطوب على اتباع أوامره والانتهاء عن نواهيه، إن تلك منزلة لم يبلغها أحد من البشر إلا ذلك الرسول المؤيد بالوحي الإلهي من السماء.

إن في ذلك رداً بليغاً على أولئك المستشرقين في ادعاءاتهم الباطلة حول الإسلام ورسوله[1].

ونعود إلى تحليل الآية..

فقوله ﴿ خُذِ ﴾ مستعمل هنا مجازاً، حيث استعير بالتلبس بالوصف والفعل من بين أفعال لو شاء لتلبس بها، فكأنه يمكن أن يتلبس بالعفو أو بضده، أو بالعدل أو غير ذلك فأمره القرآن الكريم أن يأخذ العفو من بين ذلك وأن يكون ذلك اختياره، فيكون معنى ﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ﴾ : عَامِل به واجعله وصفاً ولا تتلبس بغيره[2].

والعفو: هو الصفح عن ذنب المذنب، وعدم مؤاخذته به، كقوله تعالى: ﴿ فَٱعْفُواْ

---

[1]- له بقية كلام.

[2]- انظر الطاهر بن عاشور "التحرير والتنوير" (٢٢٦/٩)، وقد ذكر أن استعارة الأخذ للعفو من مبتكرات القرآن، ولذا كان البيت خذي عفوي لأبي الأسود الدؤلي، ونسبته للشعراء الجاهليين غير صحيحة.

وَٱصۡفَحُواْ حَتَّىٰ يَأۡتِيَ ٱللَّهُ بِأَمۡرِهِۦٓ﴾ [البقرة: ١٠٩].

والمراد بالعفو عنه ما يعم ويشمل العفو عن المشركين، وعدم مؤاخذتهم بجفائهم وإساءتهم للرسول ﷺ وللمؤمنين.

وقد عمَّت الآية صورة العفو كلها لأن التعريف في العفو تعريف للجنس فهو مفيد للاستغراق، فهو يستغرق العفو، كل العفو ومعناه أمر الرسول ﷺ بأن يعفو عموماً ويصفح، ولا يؤاخذ بالجفاء وسوء الخلق، ولا يعاقب ويقابل بمثل الصنيع الواقع عليه أو على المؤمنين.

وأسبق من يتبادر إلى الذهن العفو عنه في هذه الآية هم المشركون[1].

وقوله ﴿ بِٱلۡعُرۡفِ﴾ فالعرف اسم مرادف للمعروف من الأعمال،وهو الفعل الذي تعرفه النفوس، ولا تنكره إذا خليت وشأنها بدون غرض في ضده، وقد دل على

مرادفته للمعروف قول النابغة[2]:

فلا النُّكْر معروفٌ ولا العُرفُ ضائِعُ

والمعروف مجاز في المقبول المرضي به، لأن الشيء إذا كان معروفاً كان مألوفاً مرضياً به، وأريد به هنا ما يقبل عند أهل العقول، وفي الشرائع، وهو الحق والصلاح.

وذلك ما يدلنا على أمر هذه الشريعة الرشيدة، إذا يتأكد في كل فترة من فترات دعوتها عنوانها الأصلي من كونها دعوة الحق والخير والصلاح والعفو لإبقاء المؤمنين بها على طريق

---

[1] -وقد أورد المفسرون هنا قصة عيينة بن حصن مع أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ؓ ...

[2] - انظر الطاهر بن عاشور«التحرير والتنوير»(٢٢٦/ ٩)

جادتها، لا تثنيهم المحن ولا يحولهم عنها ما يلاقون من أذى ليخرجهم عن رسالتهم الحقة. فكانت شريعة الأخلاق العالية في كل مراحلها حتى تنتهي الدنيا.

ويدخل في الأمر بالعرف الإتسام به، والتخلق بخلقه؛ لأن شأن الآمر بشيء أن يكون متصفاً بمثله، وإلا فقد تعرض للاستخفاف، وعلى أن الآمر يبدأ بنفسه فيأمرها كما قال أبو الأسود[1]:

يا أيها الرَّجُلُ المعلمُ غَيرَه   هَلاَّ لنفسِكَ كان ذا التعليمُ

وجاء العرف معرفاً ليفيد الاستغراق أيضاً، ليكون شاملاً لكل معروف، فما من معروف من خير وصلاح إلا ودعت إليه هذه الشريعة، ونادى به رسول الله ﷺ وندب الناس كافة إليه، لأن حذف مفعول الأمر يفيد عموم المأمورين، وهكذا تكون دعوته الخالدة موجهة للعالمين، فأفادت هذه الكلمة شمولها كل عرف، شمولها لكل أحد، وبالتالي خلودها وبقاءها وصلاحيتها لكل زمان.

وإن شمولها لكل أحد يدخل فيه المشركون دخولاً أولياً، لأنهم سبب الأمر بهذا العموم، وإن إعراضهم لا يصدنك عن إعادة إرشادهم[2]، والدأب في سبيل هديتهم، وتلك ميزة أخرى من مميزات دعوة الحق، ورسالة السماء.

"والإعراض" مشتق من العارض، وهو الخد، ومعناه إدارة الوجه عن النظر للشيء، وهو هنا مستعار لعدم المؤاخذة بما يسوء من أحد، فشبه عدم المؤاخذة على العمل بعدم الالتفات إليه في كونه لا يترتب عليه أثر العلم به، لأن شأن العلم به أن تترتب عليه

---

[1]- انظر الطاهر بن عاشور«التحرير والتنوير»(٩/ ٢٢٧).

[2]- انظر السابق.

المؤاخذة.

"والجهل" هنا ضد الحلم والرشد، وهو أشهر إطلاق الجهل في كلام العرب قبل الإسلام، فالمراد بالجاهلين السفهاء كلهم؛ لأن التعريف فيه الاستغراق، وأعظم الجهل هو الإشراك، إذ هو أشد السفاهة.

وهذه الآية أوقفت المرء كثيراً عن الرد على المستشرقين إذ هم بهذه الحالة من رد الحق من معانديهم وسفهائهم توجب الإعراض عنه، وكذلك من مدعي العلمية والحياد؛ لأن الإنصاف يحمل على اتباع الإسلام، فأين اتباعهم للإسلام الذي لابد أن يقودهم إليه تفكيرهم الحر، ونزاهتهم في البحث!

إن الإعراض عنهم بالترك والإهمال، والتهوين من شأن ما يجهلون به من الأقوال والأفعال، وعدم الدخول معهم في جدال لا ينتهي إلا إلى الشد والجذب، وإضاعة الوقت والجهد لهو الأولى.

على أن جمعاً من المفكرين اليوم يميلون إلى تفنيد هذه الآراء لأولئك المستشرقين إظهاراً لصورة الإسلام الصحيح،ورداً للظلم والافتراء الواقع عليه، وعلى المسلمين، ودعوة لدين الإسلام بتبيين جمال الإسلام وعظمته، وببيان عظمة رسوله وفخامته ﷺ، وهى وجهة لها ما يؤيدها أيضاً من الشرع، ويساندها من الواقع.

وننوه في آخر الآية بكلام للطاهر بن عاشور حاصله أن الآية حوت مكارم الأخلاق فيقول: وقد جمعت هذه الآية مكارم الأخلاق؛ لأن فضائل الأخلاق لا تعدو أن تكون عفواً عن اعتداء فتدخل في ﴿ خُذِ ٱلۡعَفۡوَ ﴾، أو فعل خير واتساماً بفضيلة فتدخل في ﴿ وَأۡمُرۡ

بِٱلۡعُرۡفِ﴾ ، وهذا معنى قول جعفر بن محمد: "في هذه الآية أمر الله نبيه بمكارم الأخلاق، وليس في القرآن آية أجمع لمكارم الأخلاق منها"[1].

ومع الكلام عن أخلاق النبي ﷺ، وأخلاقيات الإسلام يثور السؤال، وماذا عن الجهاد في الإسلام؟ مع تشعبات كثيرة تنبثق منه، أو تحيط به، خاصة من المستشرقين[2] المجاهرين بالعداوة، والسوء من القول. وشهرة ما قالوا، وما يقولون غنيٌ عن تسويد الصفحات به.

ونواصل السير مع الترتيب الزمني لنزول القرآن الكريم، لنستكشف به مواضع ثناء الله تعالى على رسوله ﷺ، وليوضح تكامل هذا الثناء من عدمه، بما يدل على صدق الرسول وصحة الرسالة- أي فيما ادعاه من الوحي، ومدى تطابق هذا المدح مع الواقع الذي كان فيه رسول الله ﷺ، وأن ذلك لم يتخلف عن النبي ﷺ إلى أن لقي الله تعالى، بل على العكس، كان في ازدياد مما جبله الله عليه من كل خلق كريم إلى آخر أنفاسه الطاهرة في هذه الحياة، ثم نقارن كما هي العادة النصوص، ونبين ترابطها؛ ليظهر التناسق والاكتمال فيها. هذا الواقع الذي لم يدفعه أحد بدليل يُنظر فيه فضلاً عن أن يناقش، مما يعري- وهي عارية أصلاً- تلك الافتراءات عليه ﷺ.[3]

---

[1]- انظر السابق.

[2]- ذكرت من قبل أن ليس فيهم منصف، بل هم رأس حربة الحروب الصلبية، والغزو العسكرى والفكرى لبلاد الإسلام، فكل كلامهم، أو كلام كلهم محل ريبة وتحفظ وشك وسوء الظن .

[3]- أي في كلام المستشرقين وأذنابهم.

المبحث الثالث

﴿ وَٱلضُّحَىٰ ۝١ وَٱلَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢ ﴾

ووصلنا إلى مدحه في سورة الضحى، وهو السورة الحادية عشرة في ترتيب السيوطي، أي من السور المتقدمة جداً في النزول، فننظر فيها ونحللها، ثم نقارنها بما سبق من ثناء وتكريم من الله تعالى للنبي ﷺ فنلاحظ:

أولاً: تُشْعِرُ السورة الكريمة بأنه قد حدث تأخير للوحي عن النبي ﷺ، لدرجة أن أرجف الكفار بذلك، وأن شيطان محمد قد ودعه وقلاه، وانتهى أمر النبوة المزعومة، وفرحوا بذلك.

ويبدو من السياق أنه كان فرحاً مشوباً بالحذر، لأن القرآن لم يشر إلى ابتهاجهم بذلك، بل أغفل ذكر قولهم وحالهم وقتئذ، لأن المتصور أيامها أن يقال إن محمداً صادق، وما جربنا عليه كذباً، ولكنها أماني النفس وتطلعاتها، ركوباً لموجة العناد والإستكبار، مع الإصرار على دين الآباء والأجداد.

ثانياً: ذكر المفسرون والمؤرخون والمحدثون كالبخاري ومسلم[1] وغيرهم، أن جبريل تأخر عن النبي ﷺ ليلتين أو ثلاثاً مرض فيها- اشتكى- كما تقول الروايات، فجاءته أم

---

[1]- رواه البخاري (٤٩٥٠) عن جندب، ومسلم (١٧٩٧) كذلك، وانظر ابن كثير "تفسير القرآن الكريم" (٤/٥١١)، وابن هشام "السيرة النبوية" (١/١٥٦) طبعة التوفيقية.

جميل امرأة أبي لهب فقالت: يا محمد إني لأرجو أن يكون شيطانك قد تركك، لم أره قَرِبك منذ ليلتين أو ثلاثاً، فأنزل الله ﷻ:

﴿ وَٱلضُّحَىٰ ۝ وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ ۝ ﴾ [الضحى:١-٢].

إن تأخر الوحي عن النبي ﷺ ليلتين أو ثلاثاً ينبغي في مثل هذه الأحوال أن يكون أمراً عاديًّا، لا يتوقف أمامه ليكون مصدر تكذيب، إذ سرعان في عادة البشر، فضلاً عن الوحي أن يأتي تكذيب من الرسول ﷺ، فيكون صاحبه في موقف سيء يدل في نهاية المطاف على عدم استخدام العقل، أو البصر بنتائج تصرفه، ومثل هذا لا يُحكِم العلم والإنصاف والحيدة والموضوعية، إنما يندفع وراء ما يعتمل في نفسه، ويكون تصرفه رد فعل لما يتمنى ويهوى أن يكون، وذلك صنيع المستشرقين في سيرة النبي ﷺ، وأسلافهم وقدوتهم في ذلك أم لهب على جهلها وغيها، ولعلها كانت أفضل منهم في قولها: إني لأرجو... وقد ذكرنا هذه القصة الصحيحة لنبين أمراً في غاية الأهمية، هو أن أحوال النبي ﷺ كافة كانت معلومة لقريش، مسلمها وكافرها، رجالها ونسائها، لا يغيب عنهم من أحواله وأقواله شيء، إلى الدرجة التي حملت هذه المرأة على ما فعلت، وأنه ما كان يخفي شيئاً ويظهر آخر، أو يكتم من أمر رسالته وأخلاقه وحياته بعضاً ويبدي بعضاً، بل كان بادي الصفحة معهم، ومع كل أحد، واضحاً كل الوضوح، لا لبس في منطقه وقوله، ولا تحير في فهم كل مواقفه وأعماله، وإن التبس على بعضهم فهم شيء سارع بالبيان المبين.

ويبين هذا الموقف من جهة أخرى علامة فاصلة بين النبوة، وبين كون هذا الدين من عند محمد، وهو أن يتغيب أو يفتر عن الوحي إلى درجة أن يقال شيطانه قلاه وتركه، وما كان عليه وهو مدعي النبوة إلا أن يواصل الإرسال الكاذب، ولكنه يقف في شجاعة

ليعلنها أنه ليس له من الأمر شيء[1]، واثقاً في ربه، مطمئناً لما هو عليه، متحملاً كل التبعات المترتبة على ثباته، صامداً للتحديات كافة التي تواجهه، يعلن ضمن ما يعلن أن دينه سيعلو وسينتصر في وقت لا تواجه مثل فيه هذه التنبؤات في أقل أحوالها إلا بالسخرية والإستهزاء والإستخفاف، وإذا بالتاريخ يذكر وقوع ما تنبأ به حرفاً حرفاً.

أما تحليل الآيات– ونذكر ما يتعلق فيها بمدحه والثناء عليه ﷺ كما ألمحنا آنفاً مما نزل في أوائل بعثته المشرفة – فنلاحظ:

الأولى: القسم، وقد أشرنا إلى معناه في سورة القلم، وإن دلنا هنا على أمر زائد– مطرد معنا في كل السور التي افتتحت بالقسم– هو كثرة الأقسام في السور المكية، على عكس السور المدنية، فلم تفتتح سورة واحدة منها بقسم، وكأن القسم كان مطلوباً في بداية البعثة، خاصة وأن المقسم به كان من خلق الله العظيم الذي يظهر وحدانية الله تعالى وقدرته، وأنه ليس لأحد من البشر تصريف في هذه المخلوقات إلا له وحده، فيكون ذلك باعثاً على التأمل في الآيات الكونية، داعياً إلى الإيمان بخالقها الذي يدعو محمد إلى توحيده، وقد وجدنا الكثرة الكاثرة كذلك من آيات الدعوة إلى النظر في الكون والإنسان وبقية المخلوقات آيات مكية، ليستدل بها على الإله الواحد سبحانه، ولتأكيد قضايا الإيمان، وترسيخها في أذهان وقلوب الناس آنئذ، وإن القسم في مثل هذا الأحوال لينبهنا إلى أن القرآن الكريم استخدم كل الأساليب التي تبين صدق الرسول ﷺ، ومنها تأكيد أقواله

---

[1]- وقد أكدت آيات كثيرة هذا المعنى منها ﴿ إِن يُوحَىٰٓ إِلَيَّ إِلَّآ أَنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٠﴾ ﴾ [ص:٧٠]، وقوله: ﴿ فَذَكِّرۡ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٞ ﴿٢١﴾ لَّسۡتَ عَلَيۡهِم بِمُصَيۡطِرٍ ﴾ [الغاشية:٢١- ٢٢]، وقوله: ﴿ قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي نَفۡعٗا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ وَلَوۡ كُنتُ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ لَٱسۡتَكۡثَرۡتُ مِنَ ٱلۡخَيۡرِ وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُۚ إِنۡ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٞ وَبَشِيرٞ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ﴿١٨٨﴾ ﴾ [الأعراف:١٨٨]، وقوله: ﴿ إِنۡ عَلَيۡكَ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ﴾ [الشورى:٤٨]، وهي كلها سور مكية.

وتقريراته بالقسم الذي كان له أهميته عند العرب في تصديق المتكلم.

ويوضح القسم بتلك المخلوقات بجلاء أنه ليس كلام محمد ﷺ، لأنه ما كان له أن يقسم بغير الله كما أمر هو نفسه، إذ هو شرك[1]، فالذي يقسم بتلك المخلوقات والظواهر هو خالقها سبحانه، لأنه لم يدع أحد أنه خلقها، أو أنه خالق مع الله لشيء منها، أو لغيرها، وهو شيء واضح تمام الوضوح أنه منفصل عن عقل محمد ونفسيته، علاوة على أنه يدعو في بيئة يشترك مع من فيها في عامة علومهم وثقافتهم.

الثانية: تؤكد لنا القصة أن الرسول ﷺ ليس له من الأمر شيء، فلا هو يعجل نزول الوحي، ولا يؤخره، ولا يد له فيما ينزل أو لا ينزل، ساءه شيء من ذلك أو سَرَّه، أسعفه في المواقف التي يظن لزوم الوحي فيه، أو بطأ عنه، وما كان موقف كهذا الذي نحن بصدده، ليحتمل تأخير الوحي ليضع الرسول في موقف مؤلم بهذه الطريقة، بل ما كان النبي ﷺ لينتظر أن يقع ذلك له، ولكنه في النهاية الوحي الذي لا يخضع لرؤية محمد، إنه تنزيل من حكيم حميد له الكون وهو خالقه ومدبره بتمام الحكمة والعلم المحيط، وما محمد ﷺ إلا مبلغ عن ربه يقول له: ﴿ وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ ۖ لَهُۥ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ ۚ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ﴿٦٤﴾ ﴾ [مريم:٦٤]، وإن محمداً لو كان ذلك إليه لكان من السهل عليه أن يخترع وحياً، أو أن ينسج موقفاً وقصة تناسب حل المشكلة التي وقع فيها، بل إن الواقع والعقل ليمنع ابتداء من الوقوع في ذلك، فضلاً عن أن يرويها بكل صدق وأمانة، على أعدائه، ليروجوها ليسوا مسيئين إليه فحسب، وإنما لمرسله سبحانه في المقام الأول.

---

[1]- الحديث: (من حلف بغير الله فقد كفر أو أشرك) رواه أحمد (٦٩، ٨٧، ١٢٥/ ٢)، والترمذي (١٥٣٥)، وصححه الحاكم بلفظ:(فقد كفر) (١٨/ ١)

وهكذا- من بداية نزول الوحي- والقرآن يؤكد قضايا صحة الرسالة، بما لا يدع مجالاً لمنصف، أو لمن له أدنى عقل على صدق الرسول ﷺ فيما ادعى من الوحي؛ لأنهم لم يكونوا يكذبونه ﷺ فيما بينهم في غير ذلك حتى جاءهم بالوحي المبارك.

وتحمل الآيات التصريح والتلميح في الرد على المستشرقين، الذين جاءوا بعد سنين طويلة ليخترعوا أموراً لم تكن[1]، ومواقف لم تحدث، ناهيك عن الأخلاق المفتراه ليلصقوها بالنبي ﷺ، وكان ذلك رداً موضوعياً عليهم، إن كل شيء في حياته معلوم، إنه لا علاقة له بما ينزل عليه إلا التبليغ، والله هو الحكم بعد ذلك. كان الأولى بهذه المواقف هؤلاء الكفرة أعدى أعدائه ليشيعوها وينفروا الناس بها عن دعوته، فلم لم يكن ذلك، دل على عدم الوقوع، ولكن ماذا تقول لمنصفين استبدلوا الأحذية بالعقول، وحكموها في التاريخ، واخترعوا له أحداثاً وفسروها بتلك الفعال.

الثالثة: يبدو في اختيار القَسَم بالضحى والليل إشارة إلى إشراق نور التوحيد، وانتهاء ظَلْماء الشرك، وأنه ما فتر الوحي ليقف وينتهي، بل ليعاود انبلاجه وظهوره، وليزداد سناؤه وضياؤه حتى يعم العالمين بأبهى مما كان ضوءاً، وأقوى إشراقاً، والآيات في السياق تشير إلى ذلك في قوله تعالى: ﴿ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ ۝ ﴾ [الضحى:٥] وإن رضاءه- كما ذكرنا- في رضا الله، ورضا لله في علو دينه، وظهور بنيانه، وتمكين شرعه، هداية للناس إلى طريقه القويم.

---

[1]- انظر «وات»، «محمد فى المدينة» (١٢١) حيث اخترع أن آيه اقرأ تذكر النبى ﷺ بفضل ورقة بن نوفل عليه وأن هناك قرآناً قبلها وأن النبى ﷺ كان على صله متتابعة بورقة قبل الوحى وأن الأفكار الإسلامية قد اختلطت إلى حد كبير - على حسب تعبيره- بأفكار ورقة، وهو مستشرق معاصر بريطانى الأصل، تركزت اهتماماته الأساسية فى مجال السيرة النبوية، عمل عميداً لقسم الدراسات العربية فى جامعة أدنبرا.

يشير إلى ذلك ابن القيم فيقول: عن قوله: ﴿ وَٱلضُّحَىٰ ۝ وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ ۝ ﴾ [الضحى:١-٢] إقسام منه ﷻ على إنعامه على رسوله ﷺ، وإكرامه له، وإعطائه ما يرضيه، وذلك متضمن لتصديقه له، فهو قسم على صحة نبوته، وعلى جزائه في الآخرة، فهو قسم على النبوة والمعاد.

وأقسم بآيتين عظيمتين من آياته دالتين على ربوبيته وحكمته ورحمته، وهما الليل والنهار، فتأمل مطابقة هذا القسم وهو نور الضحى الذي يوافي بعد ظلام الليل للمقسم عليه، وهو نور الوحي؛ الذي وافاه بعد احتباسه عنه، حتى قال أعداؤه: ودع محمداً ربُّه. فأقسم بضوء النهار بعد ظلمة الليل على ضوء الوحي ونوره بعد ظلمة احتباسه واحتجابه.

وأيضاً فإن فالق ظلمة الليل عن ضوء النهار هو الذي فلق ظلمة الجهل والشرك بنور الوحي والنبوة فهذان للحس، وهذان للعقل.

ثم يشير إلى معنى مهم، وهو أن لا يليق بحكمته سبحانه أن يترك عباده في ظلمة الليل يعيشون، لا نهار له يقيمون فيه معايشهم، و تستقيم بضوئه وشمسه دنياهم، فكذلك لا يليق أن يتركهم في ظلمة الجهل والغي، بل يهديهم بنور الوحي والنبو إلى مصالح دنياهم وآخرتهم، فتأمل حسن ارتباط المقسم به بالمقسم عليه.[1]

الرابعة: قوله:﴿ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝ ﴾ [الضحى:٣] جواب القسم، وهو إبطال لمقالتي المشركين في قول بعضهم ودعه ربه، وفي قول آخرين قلاه ربه تهكماً به ﷺ، وهو يدل على بقاء مكانته عند ربه، وحظوته لديه، إذ من ودعك قد بالغ في تركك، فما الظن بالقلى وهو البغض والشنآن له؛ أي ما خلاك وأهملك وتركك ولا قطعك وأبغضك منذ اصطفاك

[1]- انظر ابن القيم "بدائع التفسير"(٢٥٥/ ٥)، و"التبيان في أقسام القرآن" (٥٢-٥٣).

ورفعك.[1]

إذ التوديع: تحية من يريد السفر، واستعير في الآية للمفارقة بعد الاتصال تشبيهاً بفراق المسافر في انقطاع الصلة، حيث شبه انقطاع صلة الكلام بانقطاع صلة لإقامة، والقرينة إسناد ذلك إلى الله الذي لا يتصل بالناس اتصالاً معهوداً.

وهذا نفي لأن يكون اتصاله بالله قد قطع؛ بقطع الله الوحي عنه[2]؛ ولذلك وجدنا هذا البر العظيم من الله تعالى به عندما أضاف لفظ الربوبية إلى ضمير المخاطب ﷺ ﴿ رَبُّكَ ﴾ ليبين عنايته به، وولايته له، وفيه من اللطف به ما لا يخفى، فكأنه قيل: ما تركك المتكفل بمصلحتك والمبلغ لك سبل الكمال اللائقة بك[3].

ونلاحظ في قوله: ﴿ وَمَا قَلَىٰ ﴾ حذف المفعول، وذلك لئلا يواجه عليه الصلاة والسلام بنسبة القلى، لو قال ما قلاك، لطفاً به وشفقة عليه ﷺ وفيه احتمال آخر، وهو أنه لنفي صدوره عنه ﷻ بالنسبة إليه ﷺ ولأحد من أصحابه، ومن أحبه إلى يوم القيامة، وذلك لقوله ﷺ: (المرء مع من أحب).[4]

ويأتي بعد نفي التوديع والقِلى قوله تعالى: ﴿ وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ ﴿٤﴾ ﴾ [الضحى:٤]

---

[1]- انظر ملا علي القاري "شرح الشفا" (٨٢، ٨٤/ ١)

[2]- انظر الطاهر بن عاشور "التحرير والتنوير" (٣٩٥، ٣٩٦/ ٣٠).

[3]- الألوسي "روح المعاني" (٢٨٠، ٢٨١/ ١٦)، انظر كذلك القرطبي "الجامع لأحكام القرآن" (٦٤/ ٢٠)، برهان الدين البقاعي "نظم الدور" (٤٥٣/ ٨)، وغيرها.

[4]- انظر الفخر الرازي "التفسير الكبير" (٤٦٨/ ١٦)، والألوسي "روح المعاني" (٢٨١، ٢٨٢/ ١٦)، وأبا السعود "إرشاد العقل السليم" (٨٧٨، ٨٧٩/ ٥)، أما الحديث فقد رواه البخاري رقم (٦١٦٨) عن عبد الله بن مسعود، ورواه مسلم (٢٦٤٠) عن عبد الله أيضًا.

وهو من عطف الجمل كلام مبتدأ به، إذ لما نفي القلى بُشر بأن آخرته خير من أولاه، وأن عاقبته أحسن من بدأته، وأن الله خاتم له بأفضل مما قد أعطاه في الدنيا والآخرة. يقول الطاهر بن عاشور[1] ما حاصله: والتعريف في ﴿وَلَلۡأٓخِرَةُ﴾ و﴿ ٱلۡأُولَىٰ ﴾ يؤذن بالعموم الذي يشمل استمرار الخير كله للنبي ﷺ ومنه استمرار الوحي.

وتعبير الآخرة غلب في اصطلاح القرآن الكريم على الحياة الآخرة والدار الآخرة، كما غلب لفظ الدنيا على حياة الناس هذه التي قبل انخرام هذا العالم، ومقصودنا من ذكر ذلك، ما أكرم الله به نبيه، وأثنى عليه به من أن المراد من كلا اللفظين كلا معنييه وهما:

المعنى الأول: أن الحياة الآخرة خير له من هذه الحياة العاجلة؛ تبشيراً له بالخيرات الأبدية.

المعنى الثاني: الإيماء إلى أن عودة الوحي عليه هذه المرة خير مما سبق، وتكفل الله تعالى له بأن لا ينقطع عنه نزول الوحي من بعد.

ثم يشير إلى الأمرين معاً فيقول: فاللام في ﴿وَلَلۡأٓخِرَةُ﴾ و﴿ ٱلۡأُولَىٰ ﴾ لام الجنس، أي كل آجل أمره هو خير من عاجله في هذه الدنيا وفي الأخرى.

والكلام يشير إلى معاني ثناء الله على رسوله ﷺتصريحاً واستنباطاً من الكلام الكريم إلا أن السياق يقتضينا أن نلمح إلى أن حمل الكلام على الدنيا أولى وإن كان العموم كما قال يشمل الآخرة؛ وذلك لما يأتي:

أولاً: أن المشركين مخاطبين بالقرآن، وهم لا يؤمنون بالآخرة كما هو معلوم من

---

[1]- انظر الطاهر بن عاشور "التحرير والتنوير" (٣٩٧/ ٣٠).

حجاجهم للنبي ﷺ، فكان مواجهتهم بما سيرونه في الدنيا أولى من أن يقال سترون في الآخرة مصداق ذلك.

ثانياً: أن الفاء في ﴿ فَتَرۡضَىٰٓ ﴾ في قوله تعالى ﴿ وَلَسَوۡفَ يُعۡطِيكَ رَبُّكَ فَتَرۡضَىٰٓ ﴾ [الضحى:٥] للتعقيب، مما يفيد تأييد النبي ﷺ المباشر بهذه البشريات، وذلك أقرب أن يكون في الدنيا، مع التصديق بوقوع ذلك في الآخرة بلا شك.

ثالثاً: كان في قوله تعالى: ﴿ وَٱلضُّحَىٰ ۝ ﴾ فقد ذكرنا أن ذلك يشير إلى أن نزول الوحي عليه هذه المرة يشبه الإشراق وانبلاج النور وفشوه، ومجيء الصبح المضيء للكون، وذلك في الدنيا.

وعلى أية حال فقد جمع له ربه سبحانه الخير في العاجل والآجل، وبشره بوقوع ذلك ليراه المكذبون على أعينهم في حياتهم، ليهلك من هلك عن بينة، ويحيا من حيَّ عن بينة.

وتستمر المعاني الجميلة تتدفق من الآية تبين رفعة مكانته ﷺ وذلك ما نراه في قوله: ﴿ لَّكَ ﴾ حيث اللام هنا هي لام الاختصاص، أي خير مختص بك[1]، وهو شامل لكل ما له تعلق بنفس النبي ﷺ، فهو ثناء بالغ عليه، وفي ذاته، فكل شيء متعلق بذاته المشرفة في ازدياد من الخير، وكذلك دينه، وفي أمته أيضاً، أي هو في نفس الوقت وعد لا يتخلف من الله - جل وعلا- بأن ينشر دين الإسلام، وأن يمكن أمته من الخيرات التي يأملها النبي

[1]- قال الألوسي: "والاختصاص الذي تقتضيه اللام قيل: إضافي على معنى اختصاصه- عليه الصلاة والسلام- بخيرية الآخرة دون من آذاه وشمت بتأخير الوحي عنه ﷺ ولا مانع من عمومه لجميع الفائزين، كيف وقد علم بالضرورة أن الخير المعد له- عليه الصلاة والسلام- خير من المعد لغيره على الإطلاق، ويكفي في ذلك اختصاص المقام لمحمود به ﷺ على أن اختصاص اللام ليس قصريًا كما قرر في موضعه". روح المعاني (١٦/٢٨٥)

- صلوات الله وسلامه عليه- لهم، وقد تحقق ذلك، فقد ورد أنه عُرِض عليه ما سيفتح الله على أمته من بعده فَسَرَّهُ ذلك[1]، فكان عطاء الله له، وفضله عليه عظيماً، فجاءت الآية التالية لتجلي هذا العطاء، وتبرز ذلك الفضل من الله- جل وعلا- للنبي- عليه الصلاة والسلام- حيث تبين قيمة الفضل درجة المتفضل عليه، وذلك في قوله تعالى: ﴿ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ ﴾ [الضحى:٥] ، والواو للعطف على جملة القسم، وحرف الاستقبال لإفادة أن هذا العطاء الموعود به مستمر لا ينقطع، كما سنعود إليه في سورة الليل في قوله: ﴿ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ ﴿٢١﴾ ﴾ [الليل:٢٣].

ونلاحظ على معانى الآية ما يلي:

• حذف المفعول الثاني لـــ ﴿يُعْطِيكَ ﴾ يشعر بعموم العطاء له ﷺ، أي أنه سيعطيه كل ما يرجوه من خير، فأفادت الجملة هنا تعميم العطاء، كما أفادت التي قبلها عموم الأزمنة، وهذا الخير لنفسه ولا يكمل إلا بخير أمته ودينه- عليه الصلاة والسلام-[2] فهو عطاء من كل شيء في كل الأزمنة، وقد جمعت الآية بين حرف التوكيد، وهو لام الابتداء المؤكدة لمضمون الجملة،والتأخير في سوف ليدل على أن العطاء كائن لا محالة[3]، وإن تراخى لحكمة فزاد هذا العطاء، علاوة على أنه مستمر لا ينقطع، كونه لا محالة في وقوعه.

وما يُعبر بهذه التعبيرات البليغة إلا لكون النبي ﷺ في الدرجة العليا من الثناء والرفعة، وفي المكانة التي لم نسمع بمثلها لأحد.

---

[1]- انظر الطاهر بن عاشور "التحرير والتنوير" (١٩٧، ١٩٨/ ٣٠).

[2]- انظر السابق.

[3]- انظر الفخر الرازي "التفسير الكبير" (٤٧٣/ ١٦)، والبيضاوي "أنوار التنزيل" (٥٠٢/ ٥)، وأبا السعود "إرشاد العقل السليم" (٨٧٩/ ٥).

• وترتفع وتيرة الفضل، وحسن العطاء، ليجيء التعبير بفاء التعقيب في ﴿فَتَرْضَىٰٓ﴾ لتفيد كون هذا العطاء عاجل النفع، بحيث يحصل به رضا المعطَى، فلا يترقب أن يحصل نفعه بعد تربص[1].

• رأينا قوله: ﴿يُعْطِيكَ رَبُّكَ﴾ بإضافة رب دون اسم "الله" العلم إلى ضميره ﷺ لما يؤذن به لفظ الرب من الرأفة واللطف، وللتوسل بإضافته إلى ضمير المخاطب، وهو النبي ﷺ للإشعار بعنايته برسوله، وتشريفه بإضافة "رب" إلى ضميره.

أما هذا العطاء الذي وعد الله رسوله ﷺ به فقد خاض المفسرون والمؤرخون وغيرهم فيه، وما اجتمعوا إلا على أن عطاء الله هذا لنبيه ﷺ قد تحقق كاملاً، ووقع مصداقاً لما أخبر به، أقر بذلك الكافرون والمسلمون.

فما هذا الذي أعطيه- صلوات الله وسلامه عليه- لقد أعطى عدة كريمة شاملة لما أعطاه الله ﷻ في الدنيا من كمال النفس، وعلوم الأولين والآخرين، وظهور أمره بالظفر والنصر على أعدائه يوم بدر ويوم فتح مكة، ودخول الناس في دين الله أفواجاً، وإعلاء الدين بالفتوح الواقعة في عصره ﷺ وفي أيام خلفائه الراشدين وغيرهم من الملوك الإسلامية، وفشو الدعوة والإسلام في مشارق الأرض ومغاربها، علاوة على ما ادخر له في الآخرة من الكرامات التي لا يعلمها إلا هو ﷻ.

ونأتي في نهاية الكلام على هذه الآيات من السورة التي تختص بها نحن بصدده من الثناء على النبي ﷺ إلى مقارنتها بما سبق من الآيات التي تثني على النبي ﷺ وتمدحه، لتتضح بقية جوانب هذا البحث، ذلك الترتيب الزمني الذي تسلم كل سلسلة فيه إلى ما يليها في

[1]- انظر الطاهر بن عاشور "التحرير والتنوير" (٣٩٨/ ٣٠).

تناسق بديع، يجعل من المقارنة هنا مجالاً لاستنباط معانٍ جديدة ومهمة في إبراز جدية البحث وجدته.

فنقارن ما نزل في سورة القلم الذي سبق ذكره بما في سورة الضحى التي وقفنا عندها آنفاً، وأول ما يتبدى من المقارنة هو أن أول ما نزل على النبي ﷺ من الثناء، ذلك الثناء العظيم في قوله:﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝ ﴾ [القلم:٤] في سورة القلم، فإذا ما قارنّاه بقول في سورة الضحى بقوله:﴿ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝ ﴾ [الضحى:٣] نرى التناسب الذى ينبنى بعضه على بعض، فلا يعقل أن يقال له إنك أعلى صاحب خلق وأعظمه، ثم يقال له: لقد ودعك ربك وأبغضك، فكانت الأولى دليلاً على بعد الثانية عقلاً وواقعاً.

الفصل الثاني

حقـــوقه

صلى الله عليه وسلم

المبحث الأول

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا ﴾

وإذا كنا قد اختصرنا الثناء عليه، فقد آن الأوان لذكر حقوقه أو واجبات المؤمنين تجاهه – صلى الله عليه وسلم – ، فمن الواجبات التي تجب له ﷺ، والتي أناطها الله تعالى بالمؤمنين للنبي صلوات الله وسلامه عليه الصلاة عليه ﷺ، حقوق تبين عظيم قدره عند الله تعالى، وقد أُمر بها المؤمنون في الآيات المتأخرة النازلة في سورة الأحزاب بعد الهجرة بزمن غير قصير، وهذا يوضح ردًا آخر على ما كنا بصدده في سورة الضحى من البغض والقلى، إذ كيف يتأتى بعد البغض الأمر من الله تعالى بالصلاة عليه، تعبيرًا عن رفع درجته وعلو منزلته وبعد مكانته، وأنه في ازدياد من معاني التشريف والتبجيل، حتى وصلت إلى هذه الدرجة، وأعلى منها فيما بعد، وإن كانت الآيات الأولى في التشريع تشير بوضوح إلى أن درجته عظمى من بداية البعثة، كما ثبت في آية ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝ ﴾ [سورة القلم: ٤] .

وكيف يخبر الله تعالى الخبر الصادق بأنه وملائكته يصلون على النبي ﷺ، وهناك أدنى شائبة تشوب فعله، أو قوله، أو أخلاقه في الظاهر أو الباطن.

والآية الواردة في ذلك هي قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا ۝ ﴾ [الأحزاب: ٥٦].

ونحلل الآية لنرى ما تحوي من معان تستوقفنا، تمس مسًا رقيقًا شغاف القلب بما له

ﷺ من المنزلة السابقة، وتنبه العقل إلى تصحيح تلك المفاهيم عن قيمة هذا النبي ﷺ ومرتبته السامية عند الله على جميع البشرية، وهي مفاهيم في حاجة إلى تصحيح عند المسلمين قبل غيرهم، إظهارًا لمكانته المشرفة، والتي تفانى المؤمنون الأول في بذل نفوسهم فداء لها من قبل أن يفرض عليهم شيء وما ذلك إلا لمحبتهم له، وتقديمه على أولادهم وأنفسهم وأموالهم.

ونعود إلى تحليل الآية ونلاحظ:

أولاً: أن مقصود الآية هو جملة: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ ﴾ وأن ما قبلها توطئة وتمهيد لها؛ لأن الله لما حَذَّر المؤمنين من كل ما يؤذي الرسول عليه الصلاة والسلام[1] أعقبه بأن ذلك ليس هو أقصى حظهم من معاملة رسولهم أن يتركوا أذاه، بل حظهم أكبر من ذلك وهو أن يصلوا عليه ويسلموا، وذلك هو إكرامهم الرسول عليه الصلاة والسلام فيما بينهم وبين ربهم، فهو يدل على وجوب إكرامه في أقوالهم وأفعالهم بحضرته بدلالة فحوى الخطاب[2].

ثانيًا: أن الآية بينت دوام صلاة الله وملائكته على النبي ﷺ، وثباتها وقتًا بعد وقت، وقراءتنا للآية الآن وقراءتها إلى أن تقوم الساعة دليل على استمرار هذا التشريف العظيم الذي ينبغي التدقيق في فهمه من الآية، وذلك أن الجملة الاسمية دالة على الدوام والاستمرار، وصدر الآية جملة اسمية، وأن الجملة الفعلية تفيد التجدد، وعجز الآية جملة فعلية، فأفادت الآية الأمرين معًا، فيكون مفادها استمرار الصلاة وتجددها وقتًا فوقتًا، وتقوى ذلك وتأكد تأكيدًا لا مرية فيه بـ ﴿ إِنَّ ﴾ وذلك للاعتناء بشأن الخبر، وهذا لم يحدث

---

[1]- في قوله: "وما كان لكم أن تؤذوا رسول الله ولا أن تنكحوا أزواجه من بعده أبدًا".

[2]- انظر ابن عاشور "التحرير والتنوير" (٢٢/ ٩٧).

لأحد من قبل من الأنبياء والمرسلين أن يخبر الله تعالى بقرآن يتلى إلى يوم القيامة، أن الله وملائكته يصلون عليه! وهذا من التشريف العظيم الذي لم يعهد له نظير.

ثالثًا: وقيل ﴿ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ ﴾ ولم يقل الملائكة إشارة إلى عظيم قدرهم ومزيد شرفهم بإضافتهم إلى لفظ الجلالة، وذلك مستلزم لتعظيمه ﷺ حيث إن العظيم لا يصدر منه إلا العظيم، ثم فيه التنبيه على كثرتهم، وأن الصلاة من هذا الجمع الكثير الذي لا يحيط بمنتهاه غير خالقه واصلة إليه ﷺ على مر الأيام والدهور مع تجددها كل وقت وحين، وهذا أبلغ تعظيم وأبهاه وأشمله وأكمله وأزكاه.[1]

رابعًا: أن الآية عبر فيها بالنبي، ولم يقل على محمد كما وقع لغيره من الأنبياء صلاة الله وسلامه عليهم كقوله لآدم: ﴿ يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ ﴾ [البقرة: ٣٥]، و ﴿ يَٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَٰمٍ ﴾ [هود: ٤٨]، ولما ذكر النبي ﷺ مع الخليل ذكر الخليل باسمه وذكر رسول الله بلقبه فقال: ﴿ إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِيُّ ﴾ [آل عمران: ٦٨]، وهذه فضيلة عظيمة قد نوه العلماء بذكرها وشرفها وجعلها من المراتب العلية.

والألف واللام في لفظ النبي يحتمل أن تكون للعهد فقد تقدم ذكر النبي ﷺ من قبل، ولكن الأولى أن تكون للغلبة كالمدينة والكتاب لما أشعر به اللفظ من الفضل والمزية فكأنه هو المعروف الحقيق به المقدم على سائر الأنبياء.[2]

خامسًا: أن قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ ﴾ مع قوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ

---

[1]- انظر السخاوي "القول البديع" (٣٥-٣٦)، والألوسي "روح المعاني" (١٠٨/ ١٢)، وابن عاشور "التحرير والتنوير" (٩٧/ ٢٢).

[2]- انظر شمس الدين السخاوي "القول البديع" (٣٧)، الألوسي "روح المعاني" (١٠٨/ ٢٢).

ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ﴾ إخبار من الله لعباده بمنزلة نبيه ﷺ عنده في الملأ الأعلى إذ يثني عليه، والملائكة المقربون يصلون عليه، ثم أمر أهل العالم السفلي بالصلاة والتسليم ليجتمع الثناء عليه من أهل العالمين العلوي والسفلي جميعًا، فأهل السماء ومؤمنو الأرض مجمعون على الصلاة عليه ﷺ، وهذا من جليل الشرف ورفيع الدرجة التي له والتي لم تكتمل لغيره عليه الصلاة والسلام، والتي لم يصل إليها سواه، يقول الإمام السخاوي: وغاية مطلوب الأولين والآخرين صلاة واحدة من الله تعالى، وأنى لهم بذلك، بل لو قيل للعاقل أيهما أحب إليك أن تكون أعمال جميع الخلائق في صحيفتك أو صلاة من الله تعالى عليك لما اختار غير الصلاة من الله تعالى، فما ظنك بمن يصلي عليه ربنا سبحانه وجميع ملائكته على الدوام والاستمرار فكيف يحسن بالمؤمن أن لا يكثر من الصلاة عليه، أو يغفل عن ذلك . قاله الفكهاني.[1]

سادسًا: يأتي السؤال مستكملين به معنى الآية فهمًا وتحليلاً، ليوضح ما أشرنا إليه من تشريف النبي ﷺ ودرجته العالية وهو ما معنى الصلاة على النبي؟ سواء كانت من الله تعالى أو من ملائكته أومن المؤمنين، وكذا التسليم وعلاقته بالصلاة؟

أما معنى الصلاة لغة فقد ذكر الأصبهاني في "المفردات"[2] أن كثيرًا من أهل اللغة قالوا إنها: الدعاء والتبريك والتمجيد، وهو يجمع ما ذكره العلماء والمفسرون من كونها الدعاء والثناء والرحمة[3]، وإظهار الشرف وتعظيم الشأن[4]، وإشاعة الذكر الجميل له[1].

---

[1]- شمس الدين السخاوي "القول البديع" (٣٥-٣٦).

[2]- الحسين بن محمد الأصبهاني "المفردات في غريب القرآن".

[3]- انظر الألوسي "روح المعاني" (١٠٩/ ٢٢)، ابن جرير الطبرى، جامع البيان فى تفسير القرآن (٢٠/ ٣٢٠).

[4]- ذكره البيضاوي عبد الله بن عمر "أنوار التنزتيل وأسرار التأويل" (٣٨٥/ ٤).

وهذا كله قد اجتمع للنبي ﷺ في الدارين، في الأولى والآخرة يقول الإمام الألوسي: واختلفوا في معنى الصلاة من الله تعالى وملائكته عليهم السلام على نبيه على أقوال، فقيل: هي منه ﷻ ثناؤه عليه عند ملائكته وتعظيمه، ورواه البخاري عن أبي العالية وغيره عن الربيع بن أنس، وجرى عليه الحليمي في شعب الإيمان، وتعظيمه إياه في الدنيا بإعلاء ذكره، وإظهار دينه، وإبقاء العمل بشريعته، وفي الآخرة بتشفيعه في أمته، وإجزال أجره ومثوبته، وإبداء فضله للأولين والآخرين بالمقام المحمود، وتقديمه على كافة المقربين الشهود، وتفسيرها بذلك لا ينافي عطف غيره عليه كالآل والأصحاب عليه؟ لأن تعظيم كل أحد بحسب ما يليق به.[٢]

والمعنى الثاني لصلاة الله تعالى على نبيه ﷺ هو الرحمة كما ذهب إليه جمع من أهل العلم[٣]، وبتدقيق النظر في هذا الاختيار الأول وجدناه الأصوب حيث رأينا بالفعل فروقًا كثيرة بين الصلاة والرحمة – كما ذهب إلى ذلك جمع من المحققين – مما يشي- بتقوية القول الأول، وحسن دليله ورجحانه، ونذكر بعض الأدلة على أن الصلاة ليست الرحمة فمنها:

الأول: أن الله تعالى فرق بين الصلاة والرحمة كما في قوله ﷻ: ﴿ أُوْلَـٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَرَحۡمَةٞۖ وَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُهۡتَدُونَ ١٥٧ ﴾ [البقرة: ١٥٧] حيث عطف الرحمة على الصلاة، فاقتضى ذلك تغايرهما، وهذا أصل العطف.

---

[١]- انظر الحسين بن مسعود البغوي "معالم التنزيل" (٣٦٠/ ١).

[٢]- الألوسي "روح المعاني" (١٠٩/ ٢٢).

[٣]- السابق، وقد ذكر الإمام ابن القيم أنه قد ذهب إلى هذا القول الضحاك والمبرد وهو القول المعروف عند كثير من المتأخرين، وأضاف الألوسي ابن الأعرابي، وهو اختيار الماوردي.

الثاني: أن رحمته سبحانه وسعت كل شيء، أما صلاته فهي خاصة بأنبيائه ورسله وعباده المؤمنين، فليست الصلاة إذن مرادفة للرحمة، لكن الرحمة ثمرة من ثمرات الصلاة، ولازم من لوازمها، وهذا كثيرًا ما يأتي في تفسير ألفاظ القرآن، وألفاظ الرسول ﷺ، حيث تفسر اللفظة بلازمها وجزء معناها، كتفسير الريب بالشك، والشك جزء مسمى الريب، وتفسير المغفرة بالستر، ونظائر ذلك كثيرة.

الثالث: أن الصلاة لا تعرف في اللغة الأصلية بمعنى الرحمة أصلاً، والمعروف عند العرب من معناها إنما هو الدعاء والتبريك والثناء، قال الشاعر:

وإن ذُكِرَت صَلَّى عليها وزَمزَمَا

أي: بَرَّك عليها ومدحها، ولا تعرف العرب قَطُّ "صلى عليه" بمعنى الرحمة؛ فالواجب حمل اللفظة على معناها المتعارف في اللغة.

الرابع: أن أكثر المواضع التي تستعمل فيها الرحمة لا يحسن أن تقع فيها الصلاة، كقوله تعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الأعراف:١٥٦].

وقوله ﷺ عن ربه: "إن رحمتي سبقت غضبي"(١).

وقوله: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ۝٥٦﴾ [الأعراف: ٥٦].

وقوله: ﴿وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ۝٤٣﴾ [الأحزاب: ٤٣].

وقول النبي ﷺ: "لله أرحم بعباده من الوالدة بولدها"(١).

---

(١) - أخرجه البخاري (١٣/ ٣٢٥) في التوحيد: باب قول الله "ويحذركم الله نفسه"، ومسلم (٢٧٥١) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

فمواضع استعمال الرحمة في حق الله تعالى، وفي حق العباد لا يحسن استعمال الصلاة في أكثرها، ومن ثم لا يصح تفسير الصلاة بالرحمة.

وضَّحت هذه الأدلة كما هو مبين إذاً أن القول الأول هو الذي يصار إليه ويعتمد في التفسير عليه، ولا ندعي أنه القول الأوحد، إذ ذهب بعض أهل العلم لما رأوا وتحققوا من كون هذا التفسير هو الأقرب إلى روح المعنى، والأوفق بظاهر النص إلى أن يوفقوا بينهما[٢]، يجعل الصلاة هنا الرحمة لكنها رحمة خاصة لائقة بالنبي ﷺ، وفي هذا يقول ابن حجر الهيتمي ما ملخصه: وأن مآل هذا القول والذي قبله إلى شيء واحد، والتخالف بينهما إنما هو في اللفظ فقط؛ إذ لا يسع أحد أن يقول: إن صلاة الله على نبيه أو رحمته له بمعنى صلاته على بقية المؤمنين أو رحمته لهم؛ لأن القدر اللائق به ﷺ من ذلك أرفع مما يليق بغيره، فالرحمة وإن شملت الأمرين لكنها بالنسبة للأنبياء أجل وأرفع، وهذا الأجل الأرفع فيه من الخصوص ما ليس في مطلق الرحمة فخص باسم الصلاة، وخص اسمها باستعماله في الأنبياء تمييزًا له ولهم، وتنويهًا لشرفه وشرفهم.

ويستكمل ابن حجر القول بأنه رأى "عياضًا القاضي" صرح بما ذكره نقلاً عن أبي بكر القشيري حيث يقول: الصلاة على النبي ﷺ تشريف له وزيادة تكرمة وعلى من دون النبي رحمة، وبهذا التقرير يظهر الفرق بين النبي ﷺ وبين سائر المؤمنين في أن الله وملائكته يصلون على النبي، مع قوله قبله: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ ﴾.

ومن المعلوم أن القدر الذي يليق به ﷺ من ذلك أرفع مما يليق بغيره، والإجماع منعقد

---

[١]- أخرجه البخاري (٣٦١،٣٦٠/ ١٠)، ومسلم (٢٧٥٤) من حديث عمر بن الخطاب ﷺ.

[٢]- انظر على سبيل المثال ابن حجر الهيتمي "الدر المنضود" (٢٥)، الألوسي "روح المعاني" (١٠٩-١١٠/ ٢٢) وغيرهما.

على أن في هذه الآية من تعظيم النبي ﷺ، والتنويه به ما ليس في غيرها. انتهى ملخصًا.[1]

وهذا ما أشار إليه بعضهم بقوله: صلاة الله على خلقه خاصة وعامة، فهي على أنبياءه الثناء والتعظيم، وعلى غيرهم الرحمة فهي التي وسعت كل شيء.[2]

ذكرنا فيما سبق من حقوقه ﷺ -الصلاة والسلام -عليه حيًا وميتًا؛ وأن ذلك لتحصيل جزيل الثواب وعظيم الأجر، وكان هذا الحق سيرة أصحابه الكرام - حيًا وميتًا، وكذلك ديدن المؤمنين المتقين إلى يوم القيامة، وكان هذا الحق أثرًا من آثار محبته التي هي من محبة الله تعالى وقد شاع بين المؤمنين بسببه حينئذ تعظيم الرسول ﷺ واحترامه في ندائه وخطابه وجميع معاملات المؤمنين معه من قبل، ولكن كان لابد من توثيق هذه الحقوق والآداب، والتأكيد عليها، ليقوم بها الموجود وليعلمها من لم يعايشها، والمؤمنون من بعد، وكان ما ارتكبه جفاة الأعراب من وفد بني تميم من نداء الرسول ﷺ من وراء الحجرات سبب نزول هذه الآيات تحمل بيان تلك الآداب في سورة تسمت بذلك — سورة الحجرات — لتكون منشور تلك الأخلاق السامية إلى يوم الدين، وكانت هذه السورة من أواخر ما نزل إذ نزلت سنة تسع للهجرة، قرب ختام البعثة المحمدية لتكون دليلاً على علو درجة النبي ﷺ، وأن دنو لحوقه بالرفيق الأعلى لا يمنع من نزول قرآن يتلى، ويتردد على مسامع الخلق يؤكد صحة النبوة وصدق الرسالة في تبيين الرب سبحانه لحقوق نبيه وخلودها، وإظهارًا لسمو منزلته، ورفعة مكانته، إذ لا يمكن أن تكون تلك التوجيهات لمن هم في عالم

---

[1]- ابن حجر الهيتمي "الدر المنضود" (٢٥-٢٧).

[2]- ابن قيم الجوزية "جلاء الأفهام" (١٥٧) ط٢ دار العروبة تحقيق عبد القادر وشعيب الأرناؤوط ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م.

الغيب إلا برهانًا على أنها من حكيم خبير، هو عالم الغيب والشهادة.

ونبدأ بعد هذا التقديم في تحليل تلك الآيات الكريمات لتوضيح ما احتوت عليه من حقوق النبي ﷺ .

المبحث الثاني

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ۝١ ﴾

أما الآية الأولى فقوله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ۝١ ﴾ [الحجرات: ١].

ونلاحظ ما يلي:

• افتتاح الآية الكريمة بالنداء، للتنبيه على أهمية ما يرد بعد ذلك النداء لتترقبه أسماعهم بشوق؛ لأن ما في حيزه أمر خطير يستدعي مزيد اعتنائهم بشأنه، وفرط اهتمامهم بتلقيه ومراعاته، وهذا يدل على إجلال الله تعالى لنبيه ﷺ وعلو منزلته عنده إذ أحاط أوامره للمؤمنين عند إظهار حقوق النبي ﷺ بهذه الآداب فما بالك بالآداب معه ﷺ، لقد أمر الله تعالى المؤمنين بالقيام بحقوقه في صورة لم تك لأحد من العالمين، وهذا منتهى الفخر، وغاية الشرف.

• ووصف المخاطبين بوصف الإيمان؛ لتنشيطهم للمسارعة إلى الامتثال لهذا النهي، لأن وصفهم بالإيمان يؤذن بأنه داع للمحافظة على هذا الخطاب ووازع من الإخلال به، وأن ما يحملهم على المبادرة لذلك علامة إيمانهم، ومن ثم كان دليلاً على المحافظة والمسارعة للقيام بحقوقه ﷺ، وأنه كلما ازداد الإيمان، زاد التفاني في القيام بهذه الحقوق والمثابرة على التخلق بها في معاملتهم معه ﷺ، وفيه أعظم الدليل على أنه ما نقص حق القيام بواجباته إلا من نقص الإيمان، ولذا وجب على المؤمنين في هذه الأيام تفقد إيمانهم فيما يتعلق بالرسول

ﷺ إذ يخشى عليهم في هذه المحن أن يذهب إيمانهم لعدم المبالاة بحقوقه ﷺ، وله مزيد اتضاح عند قوله: ﴿أَن تَحۡبَطَ أَعۡمَـٰلُكُمۡ﴾ [الحجرات: ٢].

أما قوله تعالى: ﴿لَا تُقَدِّمُواْ﴾ فقد جمع كل التقديم المناسب في حقه، إذ له ثلاثة معان:

الأول: لا تقدموا بمعنى لا تفعلوا التقديم كقولنا: فلان يعطي ويمنع، أي يفعل الإعطاء والمنع، ويكون ترك المفعول للقصد إلى نفس الفعل[١] فيكونون منهيين أبدًا عن فعل التقديم كائنًا ما كان بين يديه ﷺ، خاصة وأن التقدم حقيقته المشي قبل الغير.

الثاني: لا تقدموا أمرًا من الأمور، ويكون حذف المفعول للتعميم أي لا تقدموا أي أمر من قول أو فعل حتى تعلموا فيه حكم رسول الله ﷺ، فكأن المؤمنين مرتبطون برسول الله ﷺ لا ينفكون عنه في كل أحوالهم بخصوص الشرع وعمومه لأن ذلك هو فوزهم في الأولى والآخرة، لأنه كما بين بعد بأنه تقوى الله تعالى.

الثالث: بمعنى التقدم، ومنه مقدمة الجيش، وهو مضارع قَدم القاصر لا مفعول له فكان بهذا الأدب قد جمع له المولى سبحانه ما ينبغي له من أدب المؤمنين كافة معه، وقصر عليه وحده هذه الآداب كافة، لأنه عُلِم من حال البشر أن ذلك لم يكن إلا له ﷺ وللأنبياء من بعده، وحسبك بذلك شرفًا وعلو قدر، يوحي هذا العلو من الشرف بأنه لا يعطيه إلا مالك الملك ﷻ، إذ لو كان وهب هذه المنازل السابقة لبشر لكان أولى أن يلصقوها بأنفسهم، ويدعوها لذواتهم، ومع ذلك لا تلبث أن تفنى أو تنسى بمضي أصحابها، ولكن انظر إلى بقائها مع رحيل النبي ﷺ بغير سلطان يفرضها أو حاكم يجبر الناس عليها، وما ذلك إلا لكونها الرسالة الصادقة، والنبوة الموحى بها من الله ﷻ.

---

[١] –تفسير أبى السعود (إرشاد العقل السليم) طبعة دار الفكر (٥/ ٦٠٧).

ويبين هذا قوله: ﴿ لَا تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ﴾ ، وإن المؤمنين لم يعرفوا مراد الله إلا من جهة الرسول ﷺ، ويكون المعنى: لا تقدموا بين يدي رسول الله ﷺ وإنما ذكر قبله اسم الله للتنبيه على أن التقديم بين يديه ﷺ إنما هو تقديم بين يدي الله تعالى، وتهجين هذا الفعل واستقباحه وهو أن تفعل بين يدي المعظم ما تقدم به فعلك أو قولك.

ويكون المقصود من الآية النهي عن إبرام شيء دون إذن من رسول الله ﷺ نفسه، ويحصل معنى آخر وهو الأمر باتباع رسول الله ﷺ في كل أمر من أمور المؤمن، ولا ينفرد عنه، وهو ما يبرهن عليه التركيب، إذ هو تمثيل بتشبيه حال من يفعل فعلاً دون إذن من الله ورسوله ﷺ بحال من يتقدم مماشيه في مشيه ويتركه خلفه، ووجه الشبه الانفراد عنه في الطريق، فهو أدب إذا باق إلى نهاية الدنيا مع النبي ﷺ.

ولا بأس من ذكر سبب نزول هذه الآيات الكريمات أولاً: لنبرهن به على ما كان عليه أصحاب رسول الله ﷺ في التنافس على اتباع تعاليمه والتأدب بأحسن الأدب معه ليكون في ذلك قدوة للمصدقين بنبوة النبي ﷺ المؤمنين به، وعلامة بارزة على أنهم إنما كانوا يفعلون ذلك طاعة لله ﷻ، عندما صدقوا بنبوة الرسول ﷺ، وأيقنوا بصحة الوحي وصدقه إليه ﷺ وهو ما يدل على أنه رسول الله حقًا. ثانيًا: لنمهد به للأدب الثاني وهو عدم رفع الصوت عنده وهذا السبب لنزول الآية له شقان:

الأول: المتعلق بالأعراب من بني تميم الذين نزلت الآيات لترشدهم مع التوبيخ إلى أصول الأدب مع الرسول ﷺ.

الثاني: وهو المتعلق بالخيرين أبي بكر وعمر رضي الله عنهما.

وسنقتصر على ما رواه البخاري في صحيحه؛ لأنه أيا ما كان السبب فهو يدور حول أدب التعامل مع النبي ﷺ، والتحذير الشديد من مخالفة ذلك، روى البخاري بسنده إلى ابن

الزبير ﷺ قال: "قدم ركب من بني تميم على النبي ﷺ، فقال أبو بكر: أمر عليهم القعقاع بن معبد بن زرارة، وقال عمر: بل أمر الأقرع بن حابس، قال أبو بكر: ما أردت إلا خلافي (أو إلى خلافي)، قال عمر: ما أردت خلافك أو إلى خلافك فتماريا حتى ارتفعت أصواتهما في ذلك فنزل: ﴿لَا تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ۝ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرْفَعُوٓاْ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُواْ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَـٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ۝﴾ [الحجرات: ١،٢].

جعلت هذه الآية توطئة للنهي عن رفع الأصوات عند رسول الله، والجهر بالقول، ونداءه من وراء الحجرات؛ لأن من خصه الله تعالى بهذه الحظوة والمرتبة العالية من جعل إبرام العمل بدون أمره كإبرامه بدون أمر الله حقيق بالتهيب والإجلال أن يخفض الصوت عنده.

ومن ثم جعلت هذه الآية في صدر السورة مقدمة على توبيخ وفد من بني تميم حين نادوا النبي ﷺ من وراء الحجرات حيث ذلك من قبيل رفع الصوت عنده، وإن مماراة أبي بكر وعمر رضي الله عنهما كانت في نفس قصة بني تميم فكانت الآية تمهيدًا لقوله تعالى: ﴿لَا تَرْفَعُوٓاْ أَصْوَٰتَكُمْ﴾ [١]

وباستكمال تحليل الآية الكريمة نصل إلى ختامها في قوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ۝﴾ .

أما العطف في قوله ﴿وَٱتَّقُواْ﴾ فهو تكملة للنهي عن التقدم بين يدي الرسول ﷺ ليدل

١- انظر أبا السعود "إرشاد العقل السليم" (٥/ ٦٠٧)، والطاهر بن عاشور "التحرير والتنوير" (٢٦/ ٢١٧)، والفخر الرازي "التفسير الكبير" كل ذلك بتصريف.

على أن ترك إبرام شيء دون إذن الرسول ﷺ من تقوى الله وحده، وأن ضده ليس من التقوى، ليرد ذلك قول مدعي التقوى اليوم، وأنها في القلب يريدون بذلك هدم الإسلام بالتحلل من اتباع النبي ﷺ والتزام تعاليمه والاقتداء به، فيه الرد إذًا عليهم بأن ما فيه (هم)مضاد للتقوى، وهم ليسوا منها في شيء.

وكانت جملة ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ۝ ﴾ في موضع العلة للنهي عن التقدم بين يدي الله ورسوله، والأمر بتقوى الله[1]، وهي كناية عن التحذير من المخالفة لكون الله تعالى سميعاً بما يقولون عليماً بما يدبرون من مخالفته ليرعوي ولينزجروا بذلك، ففي ذلك تأكيد للنهي والأمر.

وجاء الأدب الثاني الذي انتظمته الآيات الكريمات، وهو عدم رفع أصواتهم فوق صوت النبي ﷺ في قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرۡفَعُوٓاْ أَصۡوَٰتَكُمۡ فَوۡقَ صَوۡتِ ٱلنَّبِيِّ ﴾ وذلك في مجلسه وحضرته إذا كلم بعضكم بعضًا.

وقد تحصل من هذا النهي معنى الأمر بتخفيض الأصوات عند رسول الله ﷺ وكان الصحابة عنوان هذا الاحترام والأخذ بأحكامه، فما كان يفد أحد من البادية على رسول الله ﷺ، إلا نبهوه على هذا الأدب.

قال صفوان بن عسال ﷺ – فى حديثه الطويل – : كنا مع النبى ﷺ فى سفر، إذ ناداه أعرابى بصوت له جهورى: يا محمد فأجابه رسول الله ﷺ نحواً من صوته: هاؤم! فقلنا له: ويحك! أُتغضض من صوتك، فإنك عند النبى ﷺ ، وقد نهيت عن هذا... .[2]

---

[1] – التحرير والتنوير (ابن عاشور) الدار الجماهيرية، المجلد(٢٥-٢٦/ ٢١٩).

[2] – رواه الترمذى(٣٤٥٨)، وقال هذا حديث حسن صحيح، وقد أقتصرنا على موضع الشاهد.

ونعود إلى تحليل الآية:

• الآية في النهي عن التجاوز في كيفية القول عند النبي ﷺ بعد النهي عن التجاوز في القول والفعل، كأنه تفصيل لشيء من مفردات النهي الأول وضرب المثل له.

• وإعادة النداء مع قرب العهد بالنداء الأول للمبالغة في إيقاظ المؤمنين وتنبيههم، مع إظهار الاهتمام بهذا الغرض الجديد، والإشعار باستقلال كل من الكلامين لأنه كان يمكن أن يكون السياق: لا تقدموا بين يدي الله ورسوله ولا ترفعوا أصواتكم ... ولكن حتى لا ينغمر الغرض الثاني في الأول، إذا هذا الثاني من آداب سلوك المؤمنين في معاملة النبي ﷺ، والتي تدل بدلالة الفحوى على ما هو آكد من المعاملات مع النبي صلوات الله وسلامه عليه من باب الأولى، لذلك أفرد بالتنبيه مرة أخرى[1].

• وحقه ﷺ ألا يرفع عنده الصوت حيًا ولا ميتًا، فكان عمر ﷺ يزجر من يرفع صوته عند مقام النبي ﷺ تأدبًا بهذا الأدب، وسلوكًا لهذا الواجب وكذا لا يرفع الصوت على سنته ميتًا، فما دام قد تحقق من كون الأمر سنة من سنته فمن واجب التأدب أن يقول قول المؤمنين المتقين: ﴿ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ﴾ [البقرة: ٢٨٥].[2]

• والرفع مستعار لجهر الصوت جهرًا يتجاوز معتاد الكلام، وهو إما من تشبيه جهر الصوت بإعلاء الجسم في أنه أشد بلوغًا إلى الأسماع كما أن إعلاء الجسم أوضح له في الإبصار، أو من تشبيه إلقاء الكلام بجهر قوي بإلقائه من مكان مرتفع كالمئذنة، فالأول على سبيل الاستعارة المكنية والثاني على طريقة الاستعارة التبعية.

---

[1] -انظر أبا السعود "إرشاد العقل السليم"، والطاهر بن عاشور "التحرير والتنوير" (٢١٩/ ٢٦).

[2] -انظر ابن القيم "بدائع التفسير"، ... وغيره.

ويكون قوله ﴿ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِيِّ ﴾ ترشيح لاستعارة ﴿ لَا تَرْفَعُوٓاْ ﴾ ، وهو فوق مجازي ويكون موقع قوله: ﴿ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِيِّ ﴾ موقع الحال من أصواتكم، أي متجاوزة صوت النبي ﷺ أي متجاوزة المعتاد في جهر الأصوات إذ ذلك جهر النبي ﷺ ولا شك أنه نهي مخصوص بغير المواضع التي يؤمر فيها بالجهر، كالأذان وتكبير العيد، وما أذن فيه النبي ﷺ إذنًا خاصًا كإذنه للعباس يوم حنين[1] وهذا يدل على علو مكانة الرسول ﷺ إذ يأمر المولى ﷻ عباده بمراعاة النبي ﷺ، وحسن معاملته إلى درجة ألا يرفع أحد صوته عنده، فما بال المؤمنين المتقين بغير ذلك من الآداب، قد جمعت له كل وسائل الأدب إذاً على أكمل الوجوه واتمها ظاهرًا وباطنًا، حيًا وميتًا، مرتبة عظيمة تلك التي أنبأنا الله تعالى عن رسوله ﷺ لم يبلغها أحد من الخلق طرًا، والمقارنة بين ما أمر الله به، وبين ما وصلنا إليه في معاملتنا للرسول ﷺ مما يدعو إلى الأسى والحزن، والخوف من عقاب أليم ينزل لا يبقي ولا يذر، كما أكد سبحانه بقوله: ﴿ فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾ ﴾ [النور: ٦٣]، وإن نظرة لما هبطنا إليه في سلم العلو والحضارة ليخبرنا بالبون الشاسع بيننا وبين رسول الله ﷺ الذي كان الاقتداء به سببًا للعلو والمجد وانتشار الهداية والنور ورفع راية الحق والعدل، والرحمة والمساواة، والسمو المادي والأخلاقي الذي لم يعهد مثله من قبل.

إن ما سبق من الكلام في الأدب الثاني مع رسول الله ﷺ إنما كان بعدم رفع الصوت في مجلسه وحضرته، وبالتالي يأتي الأدب الواجب المتعلق بمكالمته ومشافهته إذ هذا لصيق الصلة بذلك، حيث كانت مجالسه مجالس الهداية والتعليم والإرشاد والرحمة ونزول السكينة وغيرها من سبل الرشاد مما يستدعي أن يخاطبه الصحابة رضوان الله عليهم سؤالاً

---

[1]- انظر الطاهر بن عاشور "التحرير والتنوير"، (٢٢٠/ ٢٦).

واستفهامًا واستفتاءً واسترشادًا، هل ترك الله جل وعلا لهم مخاطبة النبي ﷺ بأي قول أو بأي هيئة بغير أن يبين لهم السلوك الواجب في ذلك تعظيمًا لأبهة النبوة وإظهارًا لعظم المكانة وتبجيلاً له ﷺ ليعلموا بخطابه أنهم يخاطبون المهيب العظيم المتدثر بالنبوة والذي تقديره وإعزازه من تقدير مرسِله وتوقيره ﷻ؟ نعم بين لهم ذلك وأوضح لهم في نفس الوقت جزاء المخالفة لذلك وعاقبته المخزية في الأولى والآخرة هذه بداية حروف الأدب الواردة في القرآن الكريم: ﴿ وَلَا تَجْهَرُوا۟ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ۝ ﴾ [الحجرات: ٢].

بين هذا الجزء من الآية شقين من الكلام؛ الأول حقه ﷺ، والثاني العقاب المترتب على المخالفة والتقصير في هذا الحق.

لما عطف هذا النهي -عن الجهر- على الجهر بالصوت عند خطابهم الرسول ﷺ دل على أنه جهر آخر للتغاير بين مقتضى قوله: ﴿ لَا تَرْفَعُوٓا۟ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِىِّ ﴾ ومقتضى قوله: ﴿ وَلَا تَجْهَرُوا۟ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ ﴾ خاصة وقد تعدى الفعل ﴿ تَجْهَرُوا۟ ﴾ باللام في قوله ﴿ لَهُۥ ﴾ ، فدلت اللام هنا على أن هذا الجهر يتعلق بمخاطبته، وزاده وضوحًا التشبيه في قوله: ﴿كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ﴾ .[1]

ومعنى الكلام المعظم: ولا تجهروا له بالقول إذا كلمتموه كالجهر الجاري فيما بينكم، بل اجعلوا صوتكم أخفض من صوته عليه الصلاة والسلام، وليس غض الصوت فقط هو المطلوب وإنما ما يدل عليه من الأدب في المحادثة كالتعهد في مخاطبته اللين القريب من الهمس، كما هو الدأب عند مخاطبة المهيب المعظم، محافظة على مراعاة أبهة النبوة وجلالة

١- انظر الطاهر بن عاشور "التحرير والتنوير" (٢٢١-٢٢٢/ ٢٦).

مقدارها.

وهذا ما يدلنا عليه تأكيد سابق في سورة النور لتوضيح هذا الأدب وهو في قوله تعالى: ﴿ لَّا تَجۡعَلُواْ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيۡنَكُمۡ كَدُعَآءِ بَعۡضِكُم بَعۡضًا ﴾ حيث إن الآية ذكر لها المفسرون تفسيرين ما يعنينا هنا هو: اعتبار إضافة ﴿ دُعَآءَ ﴾ إلى ﴿ ٱلرَّسُولِ ﴾ من إضافة المصدر إلى مفعوله، المقدر الفاعل ضمير المخاطبين، والتقدير: لا تجعلوا دعاءكم الرسول، فالمعنى نهيهم أن يدعوا الرسول ﷺ كما يدعو بعضهم بعضًا، وقدر الالتفات من الغيبة إلى الخطاب للمسلمين، حيث الخطاب: ﴿ إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾، ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسۡتَـٔۡذِنُونَكَ﴾ ، ليكون حثًا على تلقي هذه الجملة بنشاط فهم، فنهاهم أن يدعوا الرسول – عليه الصلاة والسلام – عند مناداته كما يدعو بعضهم بعضًا في اللفظ أو في الهيئة؛ فأما في اللفظ فبأن لا يقولوا: يا محمد، أو يا ابن عبد المطلب، ولكن يا رسول الله، أو يا نبي الله، وأما في الهيئة فبأن لا يدعوه من وراء الحجرات، وأن لا يلحوا في دعائه إذا لم يخرج إليهم كما جاء في السورة التي معنا نتكلم فيها عن آداب مخاطبة النبي ﷺ، وهي سورة الحجرات. لأن كل هذه الأخلاق من الجلافة التي لا تليق بعظمة قدر الرسول ﷺ فهذا أدب المسلمين، وسد لأبواب الأذى عن المنافقين.[1]

بيد أنه لا يسعنا مع ما وصلت إليه أحوال المسلمين اليوم إلا أن نشير إلى ما كان عليه أصحاب النبي ﷺ من الاستجابة لهذه التوجيهات والعمل بمقتضاها مسارعة لرضا الله تعالى، وتعظيمًا لأوامره، والتي تظهر أول ما تظهر في محبتهم لرسوله وتعظيمهم له ﷺ.

كان أول المسارعين إلى ذلك أبو بكر وعمر رضي الله عنهما، ونذكرهما بالذات أولاً لكونهما خاصة الخاصة عند رسول الله ﷺ، ولورود ذكرهما في أسباب نزول الآيات التي

---

[1]- انظر الطاهر بن عاشور "التحرير والتنوير" (٣٠٩-٣١٠/ ١٨).

نحن بصددها.

أما ما ورد عن أبي بكر ﷺ فعن أبي هريرة: أن أبا بكر قال بعد نزول هذه الآية: «والذي أنزل عليك الكتاب يا رسول الله لا أكلمك إلا كأخي السرار حتى ألقى الله».[1]

وزاد أنه ﷺ كان يرسل إلى الوفود إذا قدموا على رسول الله ﷺ من يعلمهم كيف يسلمون، ويأمرهم بالسكينة والوقار عند رسول الله ﷺ.

أما عمر ﷺ ففي صحيح البخاري: قال ابن الزبير: فما كان عمر يسمع رسول الله ﷺ بعد هذه الآية حتى يستفهمه.[2]

وكان على هذا الأدب أصحاب النبي عليه الصلاة والسلام حيث كان يأتي الأعرابي فيرفع صوته بحضرته فيعلمونه ويرشدونه بقولهم اخفض صوتك إنك عند رسول الله ﷺ.[3]

مضى على تلك الأخلاق الحسنة الأجيال الفاضلة التي علت ودانت لها الدنيا، حتى ظهرت هذه الأخلاق الآثمة من الكفرة ومدعي الإسلام، تتنقص الرسول وتسيء إليه، وترفع صوتها فوق صوته، بل ترد قوله، وتمجد قول غيره وتعظمه وتنعق به، وتسير وراءه، وهنا مكمن الخطر، وموضع الزلل، وهو الشق الثاني في الآية الكريمة، الذي يبين عاقبة

١- رواه الحاكم (٣٧٢٠) وقال على شرط مسلم ووافقه الذهبي (٥٠١/ ٢)، والبزار (٤٥)، (١١٠)، والبيهقي (١٥٢٠) (١٩٧/ ٢)، انظر الطاهر بن عاشور "التحرير والتنوير" (٢٢٠/ ٢٦)، وأبا السعود "إرشاد العقل السليم" (٦٠٨/ ٥).

٢- البخاري (٤٨٤٥)، (٦٨٧٢)، والترمذي (٣٢٠٩)، وأحمد (١٥٧٧٣)، (١٥٧٤٦)، وإرشاد العقل السليم، والتحرير والتنوير (المصدران السابقان).

٣- انظر أبا السعود "إرشاد العقل السليم" (٩٢/ ٣).

الجهر له كالجهر لغيره بمعتاد القول، فكيف بما هو أشنع وأسوأ، وهو ما جلاه قوله تعالى: ﴿أَن تَحۡبَطَ أَعۡمَٰلُكُمۡ وَأَنتُمۡ لَا تَشۡعُرُونَ ۝٢﴾ .

وهذا العقاب الشديد معناه أن التقصير في هذا الأدب مع رسول الله ﷺ يؤدي إلى الكفر الذي تحبط به الأعمال، ومعنى كلام الله تعالى: أن الجهر بالقول له يفضي بكم إن لم تكفوا عنه أن تحبط أعمالكم، ويكون التقدير عند البصريين لا تجهروا له بالقول خشية أن تحبط أعمالكم، وتقدير الكوفيين بتقدير ﴿لَا﴾ النافية فيكون أن لا تحبط أعمالكم.[1]

والحَبَط: تمثيل لعدم الانتفاع بالأعمال الصالحة بسبب ما يطرأ عليها من الكفر مأخوذ من حبطت الإبل إذا أكلت الخضر فنفخ بطونها واعتلت أو ربما هللت، وقد جاء في الحديث ما يدل عليه في قوله: (وإن مما ينبت الربيع لما يقتل حبطًا أو يلم)، ومنه قوله تعالى: ﴿وَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلۡإِيمَٰنِ فَقَدۡ حَبِطَ عَمَلُهُۥ﴾ [المائدة: ٥][2].

ومما سبق يتضح شيء من المقصود من القيام بسلوك واجب الأدب، وحسن المعاملة التي تحقق بها الصحابة رضوان الله عليهم، خشية أن يحل عليهم عذاب الله أو تصيبهم الفتنة من الوقوع فيما يحرجه ﷺ، فيغضب له الرب، فيعد لهم هذا السيئ من العذاب، ومن ثم جاء التحذير من الله لمن بعدهم إلى أن تقوم الساعة أن يقعوا في ذلك أو أن يتساهلوا فيه ويستمرئوه وأنهم إذا وقع منهم ذلك مهما كانت لهم من أعمال صالحة – يظنون – فإنها لن تجديهم نفعًا، بل هي هباء قد ذهب منثورًا، وهو حال الذين يزعمون اليوم أنهم مسلمون صادقون، فكيف بحال من يبطن الكفر ويدعي الإسلام، إن مآل إليه حال المسلمين اليوم

١- المفردات حَبِطَ، انظر الطاهر بن عاشور "التحرير والتنوير" (٢٢١/ ٢٦).

٢- الحديث البخاري (١٣٧٩).

ليدلنا على صحة الرسالة، وصدق النبوة إذ أخبر القرآن بذلك، وليس الكلام في إحباط الأعمال من شأن البشر، وما كان ليقال، ويخبر به إلا من لدن حكيم خبير، حيث لما ظهرت ما حذر منه من أسباب تؤدي إليه.

إن ظاهر الآية التحذير من حبط جميع الأعمال، لأن الجمع المضاف من صيغ العموم ولا يكون ذلك الحبط إلا في حالة الكفر، لأن من الأعمال الإيمان، فمعنى الآية: أن عدم الاحتراز من سوء الأدب مع النبي ﷺ بعد هذا النهي قد يفضي بفاعله إلى إثم عظيم، يأتي على عظيم من صالحاته، أو يفضي به إلى الكفر.

قال ابن عطية في "المحرر الوجيز" أي يكون ذلك سببًا إلى الوحشة في نفوسكم فلا تزال معتقداتكم تتدرج القهقري حتى يؤول ذلك إلى الكفر فحبط الأعمال.

يقول الإمام ابن عاشور في "التحرير والتنوير" تعقيبًا على كلام ابن عطية: لأن عدم الانتهاء عن سوء الأدب مع الرسول ﷺ يعود النفس بالاسترسال فيه، فلا تزال تزداد منه، وينقص توقير الرسول ﷺ من النفس، وتتولى من سيء إلى أشد منه حتى يؤول إلى عدم الاكتراث بالتأدب معه وذلك كفر، وهذا معنى قوله تعالى: ﴿ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ۝ ﴾ لأن المتنقل من سيء إلى أسوأ لا يشعر بأنه آخذ في التملي من السوء بحكم التعود بالشيء قليلاً حتى تغمره المعاصي، وربما كان آخرها الكفر حين تضري النفس بالإقبال على ذلك.[1]

على عكس ذلك كان أصحاب رسول الله ﷺ يشعرون بالمخالفة اليسيرة ويستعظمونها، ويحزنون لوقوعها منهم حتى ولو بغير قصد وعمد؛ خوفًا من أن يتنزل عليهم غضبه، أو يحل عليهم عذابه، لذلك عظم الله قدرهم، ورفع منزلتهم وأثابهم أجزل

١- الطاهر بن عاشور "التحرير والتنوير" (٢٢١-٢٢٢/ ٢٦).

المثوبة في الدنيا والآخرة، فكانوا خير أمة أخرجت للناس، هذا ثابت بن قيس بن شماس - خطيب رسول الله ﷺ - وكان في أذنه وقر وكان جهوري الصوت، لما نزلت هذه الآية افتقده النبي ﷺ فأخبر بشأنه فدعاه فسأله، فقال يا رسول الله: أنزلت عليك هذه الآية وأنا رجل جهير الصوت فأخاف أن يكون عملي قد حبط، فقال له رسول الله ﷺ: «إنك تعيش بخير، وتموت بخير، وإنك من أهل الجنة»[1] وهكذا كانوا في عموم حالهم مع ربهم ورسولهم وقرآنهم ودينهم اعتقادًا وأخلاقًا وسلوكًا ودعوة.

تصديقًا لمثل ذلك، جاءت الآية التالية لما سبق تبين عظيم البشريات وأجمل العواقب لمن كان في سلوكه على مثل هذا النهج الحسن فقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصۡوَٰتَهُمۡ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمۡتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡ لِلتَّقۡوَىٰۚ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٌ عَظِيمٌ ٣ ﴾ [الحجرات: ٣].

ونحلل هذه الآية الكريمة نختم بها بعد الترهيب المخوف السابق، بالترغيب المُطَمئِن للنفس، الباعث فيها لروح الرجاء الدافع بالمرء إلى أقصى- درجات المحبة لرسول الله ﷺ، لتتفجر منه أقوى طاقات الاتباع والسلوك والاقتداء والتأدب معه ﷺ، مع بذل النفس والمال، وهجرة الأهل والوطن لنصرته والذود عنه.

إن أول ما يصادفنا في الآية هو:

- افتتاحها بحرف التأكيد، فالكلام استئناف بياني لأن التحذير في قوله تعالى ﴿أَن تَحۡبَطَ أَعۡمَٰلُكُمۡ﴾ يثير في النفس سؤالاً عن جزاء من حاله ضد هذه الحال المخزي الذي حبط عمله.

١- انظر أبا السعود "إرشاد العقل السليم" (٦٠٨/ ٥)، وحديث ثابت ﷺ عند أبي يعلي (٣٨٤٦)، والطبراني (١٣٠٥) وهو حديث حسن.

• فجاء هذا الاستئناف بالتأكيد بـ﴿أن﴾ للاهتمام بمضمونه من الثناء عليهم وجزاء عملهم.

• وتفيد الجملة تعليل النهيين ﴿لَا تَرۡفَعُوٓاْ﴾ و ﴿وَلَا تَجۡهَرُواْ﴾ بذكر الجزاء عن ضد المنهي عنهما، وأكد هذا الاهتمام باسم الإشارة في قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمۡتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡ لِلتَّقۡوَىٰ﴾ مع ما في اسم الإشارة من البعد الدال على بعد مكانتهم وعلوها، والتنبيه على أن المشار إليهم جديرون بالخير المذكور بعد اسم الإشارة، لجل ما ذكر من وصفهم قبله.[1]

• والغض حقيقته: خفض العين، أي لا يحدق بها إلى الشخص، وهو هنا مستعار لخفض الصوت والميل به إلى الإسرار، والامتحان: الاختبار والتجربة، وهو افتعال من محنة، إذا اختبره.

• واللام في قوله ﴿لِلتَّقۡوَىٰ﴾ لام العلة، أو لام الاختصاص، ويكون التقدير على الأولى: امتحن الله قلوبهم لأجل التقوى، لتكون فيها التقوى، فيكونون أتقياء، يقال:امتُحِنَ فلان للشيء الفلاني كما يقال: جُرِّب للشيء، ودُرِّبَ للنهوض بالأمر، أي فهو مضطلع به، فيكون قد ضَرَبَ قلوبهم بضروب المحن، والتكاليف الشاقة لأجل التقوى، فإنها لا تظهر إلا بالاصطبار عليها، وكل ذلك موافق لما عليه المتقون المحمودون في علاقتهم بالنبي ﷺ في كل زمان ومكان، صابرين على تكاليف التقوى يقومون بها بخالص المحبة متقبلين لنتائجها، لأن كل ذلك في رضا الله، ووقوع ذلك منهم يدل عليه جواز أن يجعل الامتحان كناية على تمكن التقوى من قلوبهم، وثباتهم عليها، بحيث لا يكونون في

١- انظر لما سبق أبا السعود "إرشاد العقل السليم" (٦٠٨-٦٠٩/ ٥)، الرازي "التفسير الكبير"، والطاهر بن عاشور "التحرير والتنوير" (٢٢٢-٢٢٣/ ٢٦).

حالٍ ما غير متقين، وهي كناية تلويحية لكون الانتقال بعدة لوازم وفي هذه المعاني درس المسلمين اليوم.

- ويجوز أن يجعل فعل ﴿ ٱمۡتَحَنَ ﴾ مجازًا مرسلاً عن العلم، أي علم الله أنهم متقون، وعليه تكون اللام من قوله ﴿ لِلتَّقۡوَىٰ ﴾ متعلقة بمحذوف حال من قلوب، أي كائنة للتقوى، فاللام للاختصاص وهو القول الثاني.

- أو هو سبحانه علم كون هذه القلوب مفعمة بالمحبة لرسوله تستحق ذلك بفضله، فأخلصها للتقوى كامتحان الذهب لتمييز إبريزه من خبثه، وهذا من فضل الله تعالى ومنته على أولئك المستجيبين لله وللرسول إذا دعاهم لما يحييهم، ويكون فيه فوزهم في الآخرة، ورفع رايتهم في الدنيا.

- وجملة "لهم مغفرة وأجر عظيم" جعلت جزاء للغاضين أصواتهم، الملتزمين بالشرع المؤدب مع رسول الله ﷺ، في مقابل عقاب أولئك المنحرفين عنه المتعاملين معه على هذا الحال النكد، فهؤلاء لم يغفر لهم؛ لأنهم كفروا بذلك الفعل، وذلك شرع الله القائل: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ مَاتُواْ وَهُمۡ كُفَّارٞ فَلَن يَغۡفِرَ ٱللَّهُ لَهُمۡ ﴿٣٤﴾ ﴾ [محمد: ٣٤] وبالتالي حبط عملهم فلم يستفيدوا منه بشيء على عكس أولئك المؤمنين المتقين، حيث غفر لهم ما يمكن أن يفلت منهم من تقصير بمقتضى البشرية، وأثيبوا على عملهم الصالح، وخص منه سلوك الأدب مع الرسول ﷺ بالأجر العظيم مبالغة في تقدير عملهم هذا وتنويهًا برفعة قدره، وعلو شأنه.

- والجملة ﴿ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ ﴾ للمفسرين فيها إعرابان، الأول: أنها خبر إن، وذهب الزمخشري إلى أن خبر أن هو اسم الإشارة مع خبره، وجعل جملة ﴿لَهُم﴾ مستأنفة.

فعلى القول الأول فإن ﴿لَهُم مَّغۡفِرَةٞ﴾ هو المقصود من هذا الاستئناف، وما بينهما

اعتراض للتنويه بشأنه.

وفي القول الثاني نختم بكلام الزمخشري ذاته حيث يقول في "الكشاف": (وهذه الآية بنظمها الذي رتبت عليه من إيقاع الغاضين أصواتهم اسمًا لـ﴿إِنَّ﴾ المؤكدة وتصيير خبرها من مبتدأ وخبر معرفتين معًا، والمبتدأ اسم الإشارة، واستئناف الجملة المستودعة ما هو جزاؤهم على عملهم، وإيراد الجزاء نكرة مبهمًا أمره؛ ناظرة في لدلالة على غاية الاعتداد والارتضاء لما فعل الذين وقروا رسول الله ﷺ، وفي الإعلام بمبلغ عزة رسول الله ﷺ وقدر شرف منزلته.)[1]

وهذا الوعد والثناء يشملان ابتداء أبا بكر وعمر إذ كان كلاهما يكلم رسول الله ﷺ كأخي السرار[2]، والباقي كل حسب سلوك واجب الأدب معه ولا تعليق بعد هذا الكلام إلا بالأسى والحزن مرة أخرى لما وصل إليه حالنا، وما ينبغي للمؤمنين فيه من معاودة الكرة بالرجوع إن كانوا صادقين إلى محبته وسنته وتعظيم قدره، ورفع راية شريعته، ليعود إليهم مجدهم، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡ﴾ [الرعد: ١١].

١- الزمخشري محمود جار الله "الكشاف" (٦/ ٣٦٤).

٢- انظر الطاهر بن عاشور "التحرير والتنوير" (٦/٢٢٣).

الفصل الثالث

عصمته

صلى الله عليه وسلم

المبحث الأول

معنى العصمة

والعصمة مما اختص الله تعالى رسوله ﷺ بها، كذلك الأنبياء من قبله، ونقصد بالعصمة: أن الله جل وعلا حفظه من المعاصي والسيئات صغيرها وكبيرها بعد البعثة، وحفظه أيضًا مما يكون سببًا للشين أو التنقص قبل البعثة، ألا يقع منه قبل البعثة ما يكون سببًا لازدرائه أو الوقوع في عرضه بأن يقال له بعد البعثة قد كنت تفعل هذا الذي تنهانا عنه الآن، وكذلك من كل ما يكون منفرًا من قبول الدعوة عند أصحاب الطباع السليمة.

إن الرسول ﷺ لابد أن يكون متميزًا عمن يدعوهم إلى الله تعالى، فهو يدعوهم إلى مكارم الأخلاق وأحاسن الصفات، وصحيح الاعتقادات وجميل العبادات، فهو أسوتهم إذن في ذلك وقدوتهم في أقواله وأفعاله وأخلاقه، فلا يجوز أن يكون كذلك ويصدر عنه ما يخالف قوله أو فعله، مما يسقطه من أعينهم أو يقلل قيمته وشأنه في نظرهم، فيكون حائلاً عن وصول دعوة الحق إلى الناس، وصادًا لهم عنها، بدلاً من أن يكون هاديًا لهم فيها معينًا لهم عليها، وهذا قادح في مرسله ﷻ- حاشا له- إن ذلك يناقض هدف الدعوة ومقصودها.

وقد أخذنا أنفسنا في أول الفصل بأن يكون الكلام على الرسول صلى الله عليه وسلم مما نزل به القرآن الكريم أي- رسول الله ﷺ في القرآن- ترجمة أمينة له لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها، لما ذكرناه هناك من أسباب، فكذلك القول فى العصمة.

وسوف نعالج موضوع عصمته ﷺ بطريقة مختلفة عن طريقة التقرير العادية للقضايا، بطريقة تعتمد على قراءة النصوص القرآنية كلها الواردة في الموضوع، والربط بينها لنخرج بنتيجة نطبقها من باب الأولى على النبي ﷺ وقد اخترنا قصة يوسف عليه السلام لنقرأ نصوصها، وندرسها، ونقارن بينها وبين بقية النصوص، ثم نستخلص منها النتيجة التي تؤدي إليها، وحينها ندلل بها على عصمة ﷺ من باب الأولى بمقارنتها بما ورد فيها وفي غيرها من النصوص التي تشير إلى النبي عليه الصلاة والسلام.

المبحث الثاني

عصمة الأنبياء

(قصة سيدنا يوسف عليه السلام)

وقد اختار الباحث قصة يوسف – عليه السلام – بعينها لكونها مما ثار حوله الأخذ والرد، والقبول والرفض، وأثيرت حوله الشبهات بين معارض للعصمة، وبين مدافع عنها، وبين مفصل فيها، ما يقبل وما يرد. والقصة مع ذلك غنية بالمواقف والمشاهد والمعاني، التي تصلح لدراسة النصوص ومقارنتها، وهذه هي الآيات التي تصور القصة نسوقها ونحللها مع بقية الآيات الكريمات التي لم نسقها.

يقول الله ﷻ: ﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٢٢﴾ وَرَٰوَدَتْهُ ٱلَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَ ۖ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ ۖ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ ۚ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٢٤﴾ وَٱسْتَبَقَا ٱلْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلْبَابِ ۚ قَالَتْ مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٥﴾ قَالَ هِىَ رَٰوَدَتْنِى عَن نَّفْسِى ۚ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٢٦﴾ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٧﴾ فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّ ۖ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا ۚ وَٱسْتَغْفِرِى لِذَنۢبِكِ ۖ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلْخَاطِـِٔينَ ﴿٢٩﴾ ۞ وَقَالَ نِسْوَةٌ فِى ٱلْمَدِينَةِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفْسِهِۦ ۖ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا ۖ إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ ﴾[يوسف: ٢٢-٣٠] إلى آخر الآيات التي سنتعرض لها بمشيئة الله.

أطلت في نقل تلك الآيات وإن اقتصرت عليها لتكون بداية دراسة حديث العصمة للأنبياء خاصة رسولنا محمد ﷺ، وهى من منهجنا الجديد فى البحث، وهو ذكر الأنبياء وما حدث لهم مع المقارنة بالنبى صلى الله عليه وسلم. ونبدأ بقوله تعالى:﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ﴾ أي لما بلغ يوسف عليه السلام منتهى اشتداد جسمه وقوته- أي ما بين الثلاثين والأربعين- آتيناه حكمًا وعلمًا وتنكيرهما للتفخيم من شأنهما أي حكمًا وعلمًا فخمًا لا يقادر قدرهما إلا الله، والحكم هو العليم المؤيد بالعمل، أو حكمًا بين الناس أو النبوة، وكل ذلك متحقق فيه عليه السلام، وكذلك العلم هو التفقه العالي في الدين[1]، ويحسن هنا أن نشير إلى قول آخر للإمام الفخر الرازي في المسألة الثالثة- في تفسير الحكم والعلم أقوال:

القول الأول:

أن الحكم والحكمة أصلها حبس النفس عن هواها، ومنعها مما يشينها، فالمراد من الحكم الحكمة العملية، والمراد من العلم الحكمة النظرية، وإنما قدم الحكمة العملية هنا على النظرية، لأن أصحاب الرياضات يشتغلون بالحكمة العملية، ثم يترقون على الحكمة النظرية ... وهي طريقة يوسف عليه السلام،لأنه صبر على البلاء والمحنة ففتح الله عليه أبواب المكاشفات، فلهذا السبب قال:﴿ ءَاتَيۡنَٰهُ حُكۡمٗا وَعِلۡمٗا ﴾. [2]

وكذلك هذا القول يبين مدى ما وصل إليه يوسف عليه السلام من الحكمة والعلم الحافظين له عما يشين النفس، أو يعرضها للتهمة، أو يجعلها غرضًا لسهام النقد أو التنقص،

---

[1] - أبا السعود "إرشاد العقل السليم" (٣/ ٩٢).

[2] - انظر الفخر الرازي "التفسير الكبير"(٩/ ٢٠). الناشر دار الغد العربي ط الأولى ١٤٩٢هـ٠ ١٩٩٢م، ويقول العلامة الطاهر بن عاشور: "والحكم والحكمة مترادفان، وهو:علم حقائق الأشياء والعمل بالصالح، واجتناب ضده" التحري والتنوير(١٢/ ٢٤٨).

ويدل لهذا القول وما سبقه قوله تعالى: "وكذلك نجزي المحسنين" وفيها معانٍ:

الأول: وصف يوسف عليه السلام بالإحسان، وإذ هو نبي فلابد أن يكون في الدرجة العالية من الإحسان، لأن تعليق الجزاء المذكور بالمحسنين إشعار بعلية الإحسان له، وتنبيه على أنه سبحانه إنما آتاه ما آتاه لكونه محسنًا في أعماله، متقيًا في عنفوان أمره.

الثاني: أن ذلك الإحسان جزاء على ما كان من يوسف في تحمل الشدائد والأحزان،والثبات على طاعة الله ومرضاته، واجتناب مساخطه وما يغضبه تعالى:﴿ هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَـٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَـٰنُ ﴿٦٠﴾ ﴾ [الرحمن: ٦٠]، وقد رأينا ذلك سجنه وشدته من نظرة السجناء معه عند طلبهم منه أن يؤول لهم الرؤيا بقولهم:﴿ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٦﴾ ﴾ ، وهي شهادة من الكفرة له، بدون سابق معرفة إلا مطالعة محياه الطاهر عليه السلام.

الثالث:﴿ كَذَٰلِكَ﴾ الكاف للتشبيه، أي ومثل ذلك الجزاء العجيب نجزي كل من يحسن في عمله، حيث اسم الإشارة للبعيد دليل على بعد منزلة هذا الجزاء وعظمها.[1]

وذلك كله يوضح في ضمن ما سيذكر أن سيدنا يوسف عليه السلام كان في المنزلة الرفيعة من حفظ النفس ومرضاة الرب، وأن جزاء الله له محيط به يحفظه بحفظه، ويكلؤه بكلاءته. وذلك كله قبل ذكر مراودة امرأة العزيز له.

ولقد ذكرت سورة يوسف في الآيات المبكرة منها أن يوسف عليه السلامفي محل اجتباء الله له واصطفائه إياه، من حيث قص رؤياه وهو غلام صغير على أبيه يعقوب عليهما السلام، وذلك فى قوله تعالى:﴿ وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ

١- انظر الزمخشرى "الكشاف" (٣/ ١٥٧)، البيضاوى "أنوار التنزيل" (٣/ ١٤٠)، أبا السعود "إرشاد العقل السليم" (٣/ ٩٢).

ءَالِ يَعۡقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيۡكَ مِن قَبۡلُ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَۚ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ۝٦﴾ [يوسف: ٦].

وهذه الآية الكريمة تشتمل على محاسن من المعاني التي تشترك مع غيرها فيما بعد لتكون الصورة المشرقة عن عصمة النبي ﷺ، وعصمة الأنبياء عليهم السلام.

وأول ذلك: العناية الربانية بهؤلاء المصطفين الأخيار من صغرهم، وذلك في قوله تعالى ....وكذلك فالواو عاطفة لهذا الكلام على قوله :﴿لَا تَقۡصُصۡ رُءۡيَاكَ﴾ إعلامًا ليوسف عليه السلام بعلو قدره ومستقبل كماله، كي يزداد تمليًا من سمو الأخلاق، فيتسع صدره لاحتمال إخوته، صفحًا عن غيرتهم وحسدهم، وليكون كلام الأب نصحًا خالصًا تنفي عنه البغضاء ونحوها، وهي حكمة نبوية عظيمة، وطب روحاني ناجح، وقد آتى ذلك ثمرة كما هو يتضح من نهاية القصة في تعامل يوسف عليه السلام مع إخوته.

والكاف للتشبيه، وهو ما يلفت النظر ويثير الانتباه، أي مثل هذا الاصطفاء الذي دلت عليه الرؤيا من العناية الربانية به يجتبيك ربك في المستقبل، والتشبيه هنا تشبيه تعليل لأنه تشبيه أحد المعلولين بالآخر لاتحاد العلة. وموقع الجار المجرور موقع المفعول المطلق لـ "يجتبيك" المبين لنوع الاجتباء ووجهه.

والاجتباء: هو الاختيار والاصطفاء، ومعنى ذلك أن الله قد اجتباه واختاره واصطفاه فى صغره، وهو حال الأنبياء قبل البعثة؛ ليرشدنا ذلك إلى تحليل أحوالهم على هذا المنوال بعد البعثة.

ثانى ذلك: أن هذا الاجتباء والاصطفاء قبل البعثة، وتلك العناية الربانية دليل رفعة شأن في المستقبل وذلك يؤذن بنبوته، وإنما علم يعقوب عليه السلام أن رفعة يوسف عليه السلام في مستقبله رفعة إلهية لأنه علم أن نعم الله تعالى متناسبة فلما كان ما ابتدأه به من النعم اجتباء وكمالاً نفسيًا تعين أن يكون ما يلحق بها من نوعها.

ثالثه: أن هذا الاجتباء يتبعه لا شك ارتقاء نفسي من الواردات الإلهية إلى أن يصل إلى النبوة لأنه ذكر بعد ذلك:﴿ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ ﴾ فهو في تدرج في هذه النعم إلى تمامها، وتمامها هو إعطاؤه أفضل النعم، وهي نعمة النبوة، مما يدل عند الكلام على مراودة امرأة العزيز أن يوسف عليه السلام في الترقي إلى الكمال، قد وصل منتهاه، هذا تحليل وسياق الآيات والواقع ليكون الباحث على ذكر من ذلك حال بحثه في آيات العصمة، ليرد مخالفها بهذا التحليل القاطع.

ويمكن أن يكون إتمام النعمة كذلك بضميمة الملك إلى النبوة والرسالة، فيكون المراد إتمام نعمة الاجتباء الأخروي بنعمة المجد الدنيوي. ولذلك كان المعنى في قوله تعالى:﴿ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ ﴾ إن كان المراد من إتمام النعمة النبوة فالتشبيه تام، وإن كان المراد من إتمام النعمة الملك فهو إتمام النعمة على الإطلاق فقد تمت كل النعم عليه عليه السلام فأنى يقع بعد ذلك فيما يتنزه عنه غيره ممن لم يصل إلى شيء من تلك النعم، وهو يمكن أن يعيش وأن يموت ولا يقع في شيء من تلك الرذائل.

رابع ذلك: وهو جملة:﴿ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ ، ولها تعلق كبير بما نحن بصدده إذ هي تذييل بتمجيد هذا النعم، وأنها كائنة على وفق علمه وحكمته، فعلمه هو علمه بهذه النفوس التي تصلح لهذه الفضائل، لأنه خلقها لقبول ذلك، وحكمته وضع النعم في مواضعها المناسبة، وذلك تعريض بالثناء على يوسف عليه السلام لعلم الله تعالى بكونه من هذه النفوس الصالحة التي يصلح لهذه النعم الكاملة وحكمته التي اقتضت وضع هذه النعم موضعها المناسب.

نعود إلى بداية الآيات التي بدأنا بها لنستكمل تحليلها، وهي من قوله تعالى:﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ﴾.

لما بلغ يوسف عليه السلام أشدة آتاه ربه سبحانه وتعالى العلم والحكمة، ووصل إلى أعلى

درجات الرقى الدينى والأخلاقى؛ بتمام تلك النعم عليه، وبدأ فصل جديد هو مراودة امرأة العزيز له عن نفسه.

ويبدأ هذا المقطع بمراودة امرأة العزيز ليوسف عليه السلام، وقد أُوتي العلم والحكمة، وبلغ عنفوان الشباب والقوة، وهو في بيتها، وغلقت الأبواب، وننظر في هذه الآيات نظرة تحليلية دقيقة فاحصة لنرى ما يأتي:

أولاً: إن قوله تعالى:﴿ وَرَٰوَدَتۡهُ ٱلَّتِي هُوَ فِي بَيۡتِهَا ﴾ رجوع إلى شرح ما جرى عليه في منزل العزيز بعدما أمر امرأته بإكرام مثواه، فكان قوله تعالى:﴿ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ ﴾ استطراد اعتراض بين الأمر بإكرام مثواه وبين المراودة جيء به أنموذجًا للقصة ليعلم السامع من أول الأمر أن ما لقيه عليه السلام من الفتن التي ستحكى بتفاصيلها له غاية جميلة، وعاقبة حميدة، وأنه عليه السلام محسن في جميع أعماله، لم يصدر عنه في حالتي السراء والضراء، ما يخل بنزاهته[1]، إذ كيف يكون ذلك وملخص القصة في بدايتها التمكين والإنجاء، وبل التمكين البالغ المستفاد من قوله تعالى:﴿ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا ﴾ لأننا لو أجرينا اسم الإشارة على قياس كثير من أمثاله في القرآن الكريم، كقوله تعالى:﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَٰكُمۡ أُمَّةٗ وَسَطٗا ﴾ [سورة البقرة: ١٤٣]، كان التمكين المستفاد منه ﴿ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ ﴾ تنويهًا بأن ذلك التمكين بلغ غاية ما يطلب من نوعه، بحيث لو أريد تشبيهه بتمكين أتم منه لما كان إلا يشبه بنفسه بنحو قول النابغة:

والسفاهة كاسمها

فيكون الكاف في محل نصب على المفعول المطلق. والتقدير: مكنا ليوسف تمكينًا كذلك التمكين، وإن أجرينا اسم الإشارة على ما يحتمله اللفظ كان الحاصل هو المذكور

---

[1]- انظر أبا السعود "إرشاد العقل السليم" (٩٢/ ٣).

آنفًا، وهو ما يفيده من الإنجاء العجيب له قبل ذلك من كيد إخوته، ومن إخراجه من الجب، أي مكنَّا ليوسف تمكينًا من صنعنا مثل ذلك الإنجاء الذي نجيناه، فتكون الكاف في موضع الحال من مصدر مأخوذ من﴿ مَكَّنَّا ﴾، والتمكين هنا مراد به ابتداؤه وتقدير أول أجزائه؛ لأنه بحلوله ﷺ محل العناية من عزيز مصر قد خُطَّ له مستقبل تمكينه في الأرض على الوجه الأتم الذي أشير له بقوله تعالى بعد ذلك:﴿ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ ﴾ .

وعطف على ﴿ وَكَذَٰلِكَ﴾ قوله تعالى:﴿ وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ﴾ وهي علة كذلك لهذا التمكين؛ لأن الله تعالى لما قدر في سابق علمه أن يجعل يوسف ﷺ عالمًا بتأويل الرؤيا، وأن يجعله نبيًا أنجاه من الهلاك، ومكن له في الأرض تهيئة لأسباب مراد الله تعالى[1]، ثم بعد هذه العناية، وتحقيق ذلك التمكين، وذلك العلم وتلك الحكمة، يأتي هذا المجتبى بأمور الخيانة ومخالفة الرب، والوقوع فيما تنزه عن الوقوع فيه من ليسوا بهذه العناية من البشر العاديين وهذا ما يأباه السياق وينعى على عقول أصحابه، ويدفع أفكارهم.

ثانيًا: قوله تعالى:﴿ وَرَٰوَدَتْهُ ٱلَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ﴾ ونلاحظ تقديم المراودة على تغليق الأبواب، والتهيؤ له، وطلب المبادرة منه؛ لأن المراودة هي المقصودة من إحكام إغلاق الأبواب والتهيؤ، والمراودة: مفاعلة مستعملة في تكرير المحاولة معه ﷺ من راد يرود، إذا جاء وذهب فشبه حال المحاول أحدًا على فعل شيء مكررًا ذلك بحال من يذهب ويجيء في المعاودة إلى الشيء المذهوب عنه، وكأنها أخذت تراوده، وتحاول معه.

---

[1]- انظر العلامة الطاهر بن عاشور "التحرير والتنوير" (٢٤٦/ ١٢).

يقول العلامة ان عاشور: و﴿ عَن ﴾ للمجاوزة، أي راودته مباعدة له عن نفسه، أي بأن يجعل نفسه لها. والظاهر أن هذا التركيب من مبتكرات القرآن، فالنفس هنا كناية عن غرض المواقعة، قاله ابن عطية، أي فالنفس أريد بها عفافها وتمكينها منه لما تريد والتعبير عن امرأة العزيز بطريق الموصولية في قوله تعالى:﴿ ٱلَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا ﴾ لقصد ما تؤذن به الصلة من تقرير عصمة يوسف عليه السلام لأن كونه في بيتها من شأنه أن يطوِّعه لمرادها.

﴿ هَيْتَ لَكَ ﴾ : اسم فعل أمر بمعنى بَادرْ، واللام في ﴿ لَكَ ﴾ لزيادة البيان بالمقصود بالخطاب أي بادر أنت، وهِئْتُ لك أنت، كما في قولهم سقيا لك.

أشارت هذه العبارات إلى عصمة يوسف عليه السلام كما سبق من معنى السياق، وكذلك لم يكن منه بعد ذلك كله إلا أن قال ﴿ مَعَاذَ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَ ۖ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾ وذلك ما نحلله في ثالثًا.

ثالثًا: قال معاذ الله: أي أعوذ عوذًا بالله، وهو مصدر أضيف إلى اسم الجلالة إضافة المصدر إلى معموله، أي أعتصم بالله مما تحاولين، مما تدعينني إليه، وهذا اجتناب منه على أتم الوجوه، وإشارة إلى التعليل بأنه منكر هائل يجب أن يعاذ بالله للخلاص منه[1]، لأنه شيء في حد ذاته في غاية القبح والسوء، وأنه ممتنع عنه أشد الامتناع، وعلل ذلك الامتناع والاستعصام بتعليلين:

الأول: بقوله:﴿ إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَ ﴾ ، وهذا من الكلام الموجه توجيهًا بليغًا حكي به كلام يوسف عليه السلام إما لأن يوسف عليه السلام أتى بمثل هذا التركيب في لغة القِبط، وإما لأنه أتى بتركيبين لعُذرين لامتناعه فحكاهما القرآن بطريقة الإيجاز والتوجيه، وأيا ما كان فالكلام

---

[1]- انظر العلامة أبا السعود "إرشاد العقل السليم" (٩٣، ٩٤/ ٣).

تعليل لامتناعه، وتعريض بها في خيانة عهدها[1]، وفيه عبرة عظيمة من العفاف والتقوى وعصمة الأنبياء، إذ يذكر هذه الموعظة في هذا الموقف الصعب، والمزلة الدحضة، مع الاعتصام بالله واللجوء إليه.

وكان هذا التعليل ببعض الأسباب الخارجية- بعد أن ذكرها بقبح الزنا وسوئه في ذاته- مما عسى أن يكون مؤثرًا عندها وداعيًا لها إلى اعتباره، والضمير للشأن كأنه قال إن الشأن الخطير هذا وهو ربي. على احتمال إنه خالقه، أو أنه العزيز، فإن كان العزيز هو المراد فالمعنى إن الشأن الخطير هذا وهو ربي العزيز أحسن مثواي حيث أمركِ بإكرامي فكيف يمكن أن أسيء إليه بالخيانة في حرمه، وإن قيل إن الضمير راجع إلى الله ﷻ فالمعنى أن الحال هكذا فكيف أعصيه بارتكاب تلك الفاحشة الكبيرة، وفيه تحذير لها من عقاب الله تعالى.

وعلى التقديرين ففي الاقتصار على ذكر هذه الحالة إيذان بأن هذه المرتبة من البيان كافية في الدلالة على استحالته، وكونه لا يدخل تحت الوقوع أصلاً[2]، هذا تركيب وسياق ومعنى الكلام في اللغة فكيف يمكن أن يقع منه شيء بعد ذلك سبحانك هذا بهتان مبين.

الثاني:﴿ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ وهو التعليل الثاني لإبائه وامتناعه واعتصامه، وضمير ﴿ إِنَّ ﴾ ضمير الشأن وهو يفيد أهمية الجملة المجعولة خبرًا عنه؛ لأنها موعظة جامعة، وأشار إلى أن إجابتها لما راودته ظلم، لأن فيها ظلم كليهما نفسه بارتكاب معصية مما اتفقت الأديان على أنها كبيرة، وظلم سيده الذي آمنه على بيته، وآمنها على نفسها إذ اتخذها زوجة وأحصنها.

---

[1]- انظر العلامة ابن عاشور "التحرير والتنوير" (٢٥١، ٢٥٢/ ١٢).

[2]- انظر المرجع السابق.

وصلنا إلى نهاية هذا المشهد الذي جسد إباء يوسف عليه السلام واعتصامه بالله ووعظ المرأة بكون ذلك سوءًا وقبيحًا وظلمًا وخيانة لله ولزوجها، وأنه لا يفلح أصحابه في الدنيا والآخرة، مما كان بيانًا واضحًا منه عليه السلام باستحالة وقوع ذلك منه، هذا موقفه عليه السلام فما موقف المرأة؟ كأنها لم تسمع من ذلك شيئًا مما يدل على سيطرة الشهوة عليها، وتغييب العقل والمنطق والأخلاق، والذي بدا فيها أقدمت عليه حيث قال:﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ ﴾ عزمت على الفعل عزمًا محققًا، أكده القرآن الكريم بـــ ﴿ وَلَقَدْ ﴾ ولام القسم، وجملة ﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ ﴾ مستأنفة استئنافًا ابتدائيًا، والمقصود من ذكر همها به تبيين ثبات يوسف عليه السلام على موقفه، وتمهيد إلى ذكر انتفاء همه لبيان الفارق بين الحالين بين حالة من سيطرت عليها الشهوة، ومن حكم عقله ودينه وخلقه وخوفه من ربه، واستبشاعه للخيانة والجرم، مع تعوذه والتجائه إلى الله من الوقوع في شيء من ذلك.

وجملة:﴿ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَـٰنَ رَبِّهِۦ ﴾ معطوفة على جملة ﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ ﴾ كلها، وليست معطوفة على جملة ﴿ هَمَّتْ﴾ والتي هي جواب القسم المدلول عليه باللام؛ لأنه لما أُردفت جملة ﴿ وَهَمَّ بِهَا ﴾ بجملة شرط ﴿ لَوْلَآ ﴾ المتمحض لكون من أحوال يوسف عليه السلام وحده لا من أحوال امرأة العزيز تعين أنه لا علاقة بين الجملتين، فتعين أن الثانية مستقلة لاختصاص شرطها بحال المسند إليه فيها، والتقدير ولولا أن رأى برهان ربه لهم بها فلم يقع من يوسف هم أصلاً بهذا المعنى اللغوي الصحيح[1].

ومع ذلك فإن الهم الذي لم يقع أصلاً سواء قدمنا جواب ﴿ لَوْلَآ ﴾ على شرطه، أم لم نقدمه فإن السياق واللغة وبقية الأدلة التي ذكرها القرآن تبين لنا أن هم يوسف عليه السلام ليس

---

[1]- الطاهر بن عاشور (٢٥٢، ٢٥٣/ ١٢)، انظر رده على الطبري، وكذا رد الزمخشري وأبي السعود وغيرهم على من قال بأقوال لا تتلاءم مع السياق واللغة والعصمة للأنبياء.

كهم امرأة العزيز وذلك لما يأتي:

أولاً: السياق السابق ذكرنا فيه كيف أن الله تعالى مكن ليوسف عليه السلام واتاه العلم والحكمة وبين فضله ومرتبته وظهر ذلك جليًا في رده على مراودة المرأة والذي ملخصه أنه مستعصم بالله، وأنه يستحيل أن يقع منه ذلك أصلاً، وحذر المرأة ووعظها، وذكرها بمغبة ذلك وسوئه، هل يعقل بعد ذلك أن تهمَّ به فيهم وهو المجتبى الذي يُذكرها بذلك، أن يقع في الخيانة وأن يهمَّ بالسوء، بعد أن يقول هذا حرام لا يجوز اتقى الله، هذه خيانة وظلم ولا يفلح أهله إنني أخاف الله ثم إذا به يقول هيا إليَّ أيتها المرأة، أين العقل إذًا أو الفهم أو الواقع، هل تقول له بادر فيقول لها لبيك! عجيب.

ثانيًا: إن الهم في اللغة له معانٍ أُخر جاء بعضها في القرآن الكريم من مثل قوله تعالى: ﴿وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ﴾ [غافر:٥]،وقوله تعالى:﴿وَهَمُّواْ بِإِخْرَاجِ ٱلرَّسُولِ﴾ [التوبة: ١٣]، وجاء في الحديث: «أن رجلاً من الكفار شتم عمر بن الخطاب، فهمَّ به عمر رضي الله عنه...».[1]

وعليه فلا شك أن هذا الهم الذي لم يقع أصلاً لابد يكون مخالفًا لهمَّ المرأة التي أغلقت عقلها وأقفلت قلبها على الشهوة فلم تر ولم تحس إلا من خلالها، والذي يقبله السياق أنه هم بها ليدفعها عن نفسه لما بدأت في مقدمات السوء، أو هم بها زجرًا وهو مقبول مع السياق، فالسياق دل على الموعظة بالرفق،والتبيين للخطأ والخيانة بالوجوه اللطيفة فإذا استمر الطاغي في طغيانه، والمعتدي في اعتدائه لابد أن ينتقل المنكر إلى درجة أعلى من الوعظ والتذكير ليدفع عن نفسه السوء كالزجر أو الدفع أو الضرب، خاصة وأن الباغي بدأ يأخذ في خطوات سوء أشد، وهذه وظيفة الأنبياء من الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر

١- زاد الميسر (٢/ ١٦٩)، ابن الجوزى (٢/ ١٦٩).

إذن ما فائدة البرهان الذي رآه يوسف ﷺ، فلم يقع به هم أصلاً؟ هذا البرهان هو ما وقع في علم الله السابق من شهادة الشاهد بقطع القميص، فلعله لو دفعها لانقطع ثوبه من أمام فكان هو المتهم والمدان في هذه القضية، لذلك رأيناه يترك هذا الدفع، ويجري هاربًا، وهو متسق تمام الاتساق مع الواقع، وقرائن الأحوال، وبيان ذلك أيضًا لأنه لم يهم بها كما ذكرنا، وهو يتلاءم مع الهرب لا مع غيره مما ذكر الجهال، إذ قالوا قعد منها مقعده الذي ذكروا، فليس هذا همّاً، بل انتقل من الهمَّ إلى الفعل، وهو لا تناسب منه مع الهرب الذي أكده السياق مع ترك الهم، فخالفوا بذلك السياق نفسه.

ثالثًا: لا يعقل أن يكون هم من أوتي العلم والحكمة والاصطفاء، كهم امرأة تريد أن تقضي شهوتها بأي سبيل بالترغيب والترهيب، والسجن والتعذيب، إن ذلك إهدار للعقل، ومساواة للشهوة بالحكمة، وللجهل بالعلم، وللخيانة والغدر بالوفاء والأمانة،ولم يعد هناك ميزان يتبين به الصلاح والفساد، ولا الهدى والضلال، واختلت الأمور، واختلفت الأحوال. ومن معاني ذلك أنه لو قيل إن الأستاذ المحترم الذي لم يؤثر عليه خيانة ولا سوء خلق يراود تلميذته عن نفسها، أو إن الطبيب الفلاني الماجد المؤدب صاحب التاريخ الناصع يراود مريضته، لن يكون الرد، لا، لا يمكن ذلك، ولا يحدث، ويصعب تصديقه، وسيكون الرد هذا عادياً.

تكملة الآية مما يؤكد ما نحن بصدده،نشير إليه سريعًا لأننا سنعود إليه، وهو قوله تعالى:﴿ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٢٤﴾ ﴾ فأشار القرآن بهذه الألفاظ إلى أنه صرف السوء والفحشاء عنه، ولو كان هو المتلبس بالسوء والفحشاء لكان التعبير كذلك لنصرفه عن السوء والفحشاء- الزنا والمقدمات- ثم ختم ذلك بالثناء عليه والمدح له ﴿ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾ أي الذين لا يهمون بالسوء والفحشاء سبحانك هذا بهتان عظيم، بل هو من المخلصين الذين لا سبيل لمثل هذه الادعاءات إليه،

بل هم أعظم وأجل.

وهذا يرد على قول من خالف هذا، ويطعن فيه كائنًا من كان، ومن أجل ذلك قال الإمام الرازي:

القول الثاني:

إن يوسف عليه السلام كان بريئًا عن العمل الباطل والهم المحرم، وهذا قول المحققين من المفسرين والمتكلمين، وبه نقول وعنه نذب... ثم قال بعد ذلك تعليل: إلا أن نزيد هاهنا وجوهًا نقتصر على أحدها وهو:

الوجه الأول: أن الزنا من منكرات الكبائر، والخيانة في معرض الأمانة أيضًا من منكرات الذنوب،وأيضًا مقابلة الإحسان العظيم بالإساءة الموجبة للفضيحة التامة والعار الشديد من منكرات الذنوب، .... وأيضًا الصبي إذا تربى في حجر إنسان، وبقى مكفي المؤنة مصون العرض من أول صباه إلى زمان شبابه وكمال قوته، فإقدام هذا الصبي على إيصال أقبح أنواع الإساءة إلى ذلك المنعم من منكرات الأعمال.

إذا ثبت هذا فنقول: إن هذه المعصية التي نسبوها إلى يوسف عليه السلام كانت موصوفة بهذا الجهات الأربع، ومثل هذا المعصية لو نسبت إلى أفسق خلق الله تعالى، وأبعدهم عن كل خير لاستنكف منه، فكيف يجوز إسنادها إلى الرسول- عليه الصلاة والسلام- المؤيد بالمعجزات القاهرة الباهرة؟![1]

وزاد "العلامة أبو السعود" في تعليقه على الأقوال الشنيعة المنسوبة لسيدنا يوسف

[1]- الفخر الرازي "التفسير الكبير" (٢٥، ٢٦/ ٩).

عليه السلام: "إن كل ذلك إلا خرافات وأباطيل تمجها الآذان، وتردها العقول والأذهان، ويل لمن لاكها ولفقها أو سمعها وصدقها"[1].

ونثنى عنان الكلام إلى وجهة أخرى، لنحرر بها بقية الكلام الموصل إلى تلك النتيجة من عصمة يوسف لنردفها بما يتعلق بعصمة النبي ﷺ، ونبين بها بقية الأدلة على ذلك، بتحليل بقية الآيات ومقارنتها ببعضها، لتستنير بذلك الصورة كاملة أو تضيء كافة جوانبها بما لا يدع مجالاً للشك في عصمة الأنبياء، ومقدمهم في ذلك سيدنا رسول الله ﷺ، وهي تحمل في ظاهرها ومطاويها الردود الجازمة على المستشرقين، حيث قررت أن أضرب صفحًا عن ذكر كلامهم، لعدم موضوعيته ولعدم حيدته، مع شدة تهافته، إلا ما كان جديرًا بالنظر فنشير إليه في حينه.

نبدأ هذه الأدلة بكلام الإمام الرازي رحمه الله حيث يقول: القول الرابع: أن كل من كان له تعلق بتلك الواقعة فقد شهد ببراءة يوسف عليه السلام من المعصية.

واعلم أن الذين لهم تعلق بهذه الواقعة: يوسف عليه السلام، وتلك المرأة وزوجها، والنسوة، والشهود، ورب العالمين شهد ببراءته عن الذنب، وإبليس أقر ببراءته أيضًا عن المعصية[2].

أما بيان أن يوسف عليه السلام ادَّعى البراءة عن الذنب فهو فيما يلي:

أولاً: قوله:﴿ هِيَ رَاوَدَتْنِي عَن نَّفْسِي ﴾ والمراودة قبل الهم، فهو تبرئه لنفسه في هذا المقام عن المراودة، وعن الهم من باب الأولى، أي هي راودتني، أنا لم أراودها، أنا لم أفعل شيئًا، أنا نصحتها لم ترتدع، أنا جريت منها كما ترون عندما همت بي، ولو كان هناك أدنى تعلق يتعلق

[1]- العلامة أبو السعود "إرشاد العقل السليم" (٩٥، ٩٦/ ٣).

[2]- انظر الفخر الرازي "مفاتيح الغيب" (٢٦-٢٨/ ٩).

به العزيز ليلصق التهمة بيوسف عليه السلام لتعلق به درء للتهمة عن عرضه، وللخيانة عن أهله، ولكنه قال:﴿ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَـٰذَا ﴾، خاصة وعلامة الخيانة بادية عليها من تزينها وتهيئها بأعظم الزينة، وكيف يؤذيها وهو يجري عنها، وقد قُدَّ قميصه، ولم تسبق عليه عليه السلام أي أمارة من أمارات عبيد السوء.

ثانيًا: قوله:﴿ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ ﴾ وهذا استئناف بياني، لأن ما حُكِيَ قبله من مقام الشدة على يوسف عليه السلام من شأنه أن يسأل سامعه عن حال تلقي يوسف عليه السلام لكلام امرأة العزيز بسجنه وصغاره إذا لم يفعل ما تأمره، وهذا الكلام مناجاة لربه الذي هو شاهدهم، ويحتمل أن جهر به فى ملأهن تأييسًا لهن من أن يفعل ما تأمره به.

ولا يحتمل هذا النص من يوسف عليه السلام سواء كان مناجاة لربه، أو مواجهة لهن إلا أن يكون بريئًا من أي شين قبل هذه المناجاة، إذ كيف يناجي ربه الذي هو شاهده ومطلع عليه، وناظر إليه بما يعلم خلاقه منه. أي تجرؤ هذا، ويؤكد ذلك أنه واجه النسوة بتقديم السجن مع ما فيه من الألم والشدة وضيق النفس على ما يدعونه إليه من الاستمتاع بالمرأة الحسنة النفيسة؛ لأن ذلك مما يكرهه الله تعالى ويحرمه، فكيف يكون قد صدر منه شيء قبل ذلك يمكن أن يُعَيَّرَ به، أو أن يقال هلمَّ قد هممت من قبل أيها الناسك الشريف!؟ وهنا ملحوظة أخرى في النص، وهي إسناد فعل ﴿يَدْعُونَنِيٓ ﴾ إلى نون النسوة، على ضمير جمع الإناث مع أن التي دعته امرأة واحدة! وكأن ذلك لأن تلك الدعوة من رغبات صنف النساء، أو أن النسوة اللاتي جمعتهن امرأة العزيز لما سمعن كلامها تمالأن على لوم يوسف عليه السلام وتحريضه على إجابة سيدته وتحذيره من وعيدها بالسجن، وهذا مما يدل على ما كان فيه من الشدة والمقاساة عليه السلام ومدى تحفظه وصيانته وعفافه من قبل،وهذا يسلمنا إلى الثالث.

ثالثًا: من إظهار يوسف عليه السلام لبراءته، وهو قوله تعالى: ﴿ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ

إِلَيۡهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ ﴾ .

ومعنى أصب، أي: أمل، يعني يناجي ربه بقوله: ﴿ وَإِلَّا تَصۡرِفۡ عَنِّي كَيۡدَهُنَّ أَصۡبُ إِلَيۡهِنَّ ﴾ يعني أميل إليهن، فدل على أن الميل مع كل أسبابه لم يحدث، ويدعو ربه أن يصرف عنه هذا الكيد الشديد، وفكيف يكون قد وقع منه هم، والميل نفسه لم يحدث إلى وقت مناجاته تلك؟ وهذه الجملة من المناجاة خبر مستعمل في التخوف. والوقع التجاء إلى الله تعالى، وملازمة للأدب نحو ربه بالتبرؤ من الحول والقوة والخشية من تقلب القلب،ومن الفتنة بالميل إلى اللذة الحرام التي قدم السجن عليها، فالخبر مستعمل في الدعاء، ولذلك فرع عنه جملة ﴿ فَٱسۡتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ ﴾ [1].

وكذلك مما يدل على إبراء (تبرئه) يوسف عليه السلام لنفسه أنه لو وقع منه شيء من ذلك لبادر عليه السلام بالتوبة والاستغفار، ولأن الأنبياء إذا صدر منه شيء على خلاف مراد الله اجتهادًا منهم مثلاً- لأننا نقول بعصمتهم جميعًا بهذه الأدلة التي نسوق- استعظموا ذلك، وبادروا إلى الله تعالى بإظهار الندامة والتوبة وطلب المغفرة والتواضع حتى كأن ما حدث ذنب عظيم، كما حدث في قصة آدم عليه السلام في أكله من الشجرة لأنه لم يأكل منها مخالفة لله تعالى، وإنما اجتهاد منه ليكون من الخالدين عند الله تعالى، أو ليكون ملكًا مقربًا لديه، ومع ذلك جاء عنه وزوجه﴿ رَبَّنَا ظَلَمۡنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمۡ تَغۡفِرۡ لَنَا وَتَرۡحَمۡنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾ ﴾.

أما في قصة يوسف فلم يحدث من ذلك شيء أصلاً، فدل على أنه لم يقع منه هذا لا خطأ ولا اجتهادًا فضلاً عن الذنب والمعصية، بل على العكس جاءت كلماته التي حكاها القرآن الكريم عنه عليه السلام لتدل بوضوح على هذا المعنى، وذلك في قوله لإخوته بعد أن

[1]- انظر الطاهر بن عاشور "التحرير والتنوير" (١٢/ ٢٦٦)

عرفوه:﴿ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصۡبِرۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾ ، ولذا كان ردهم- وهو رد كل مخطئ خاطئ-: ﴿ قَالُواْ تَٱللَّهِ لَقَدۡ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيۡنَا وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ ﴾ .

وما بلغ المنزلة التي هو فيها بالذنب والمراودة، ولكن بلغها وحصلها بالتقوى والصبر، وإنها لأعظم تقوى، وإنه لأعظم صبر، ولسنا في مجال الكلام على التقوى والصبر.

هناك دليل آخر على تبرئة يوسف عليه السلام فإن كان ما سبق براهين تبرئته بالنطق والسكوت، فهذا البرهان يمكن أن نسميه بالفعل لتجتمع له عليه السلام كل أدلة وبراهين البراءة وهو في قوله لما أرسل إليه الملك ليأخذه من السجن، أبى ورفض حتى يتحقق الملك بنفسه من الواقعة، مَن البريء ومَن المتهم، وذلك في قوله تعالى عن يوسف لرسول الملك:﴿ فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ قَالَ ٱرۡجِعۡ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسۡـَٔلۡهُ مَا بَالُ ٱلنِّسۡوَةِ ٱلَّٰتِي قَطَّعۡنَ أَيۡدِيَهُنَّۚ إِنَّ رَبِّي بِكَيۡدِهِنَّ عَلِيمٞ ﴾ . فلو كان عليه السلام قد صدر منه ذنب وفحش، أو كان متهمًا لاستحال عرفًا وعادة أن يطلب من الملك أن يتفحص عن تلك الواقعة، وألا يخرج من السجن إلا بعد النظر فيها، وتبيين الخاطئ من البريء، وإلا لو كان فعل ذلك لكان قد أقدم على فضح نفسه، وتجديد عيوبه التي صارت خفية مندسة، والعاقل لا يفعل ذلك، وهب أنه قد وقع الشك لبعضهم في عصمته إلا أنه لا شك بما سمعنا أنه كان عاقلاً، والعاقل يمتنع أن يسعى في فضيحة نفسه، وفي حمل الأعداء على أن يبالغوا في إظهار عيوبه[1].

أما بيان المرأة تبرئته عليه السلام فهو:

أولاً: اعترافها للنسوة بذلك حيث قالت:﴿ وَلَقَدۡ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفۡسِهِۦ فَٱسۡتَعۡصَمَ ﴾ فقد باحت لهن بأنها هي التي راودته فعلاً؛ لأنها رأت منهن الافتتان به فعلمت أنهن قد عذرنها،

---

[1]- انظر الفخر الرازي، التفسير الكبير (٩/ ٩٨).

فقالت:﴿ وَلَقَدۡ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفۡسِهِۦ ﴾ حسبما سمعتن وقلتن، فاستعصم وهي للمبالغة في عصم نفسه، أي اعتصم اعتصام معصوم، جاعلاً المراودة خطيئة عصم نفسه منها، بل دل هذا البناء كذلك، وهو استعصم وهو بناء مبالغة على الامتناع الشديد والتحفظ البليغ، كأنه في عصمة وهو يجتهد في الاستزادة منها مثل استمسك واستجمع الرأي، وفي ذلك برهان نير على أنه لم يصدر عنه ﷺ شيء مخل باستعصامه من الهم وغيره بقوله:﴿ مَعَاذَ ٱللَّهِ ﴾ ويدل على ذلك أيضًا ترتيب كلامها بأنها اعترفت لهن أولاً بما كُنَّ يسمعنه من مراودتها له، وأكدته بقولها:﴿ وَلَقَدۡ ﴾ بالقسم ولام التوكيد إظهارًا لابتهاجها بذلك، ثم زادت على ذلك أنه أعرض عنها على أبلغ ما يكون الإعراض، ولم يمل إليها قط، وزادت أيضًا أنها مستمرة على ما كانت عليه غير مرعوية عنه لا بلوم العواذل ولا بإعراض الحبيب بل قالت:﴿ وَلَئِن لَّمۡ يَفۡعَلۡ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسۡجَنَنَّ وَلَيَكُونٗا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴾[1].

ثانيًا: قولها: ﴿ ٱلۡـَٰٔنَ حَصۡحَصَ ٱلۡحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفۡسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾. الآن: ظرف للزمان الحاضر، وحصص: أي ثبت واستقر، والحق: هو براءة يوسف ﷺ مما رمته به، وإنما ثبت الآن؛ لأنه كان محل قيل وقال فزال ذلك باعترافها بما وقع،وتقديم اسم الزمان للدلالة على الاختصاص، أي الآن لا قبله للدلالة على أن ما قبل ذلك الزمان زمن باطل وهو زمن تهمة يوسف ﷺ.

والتعبير بالماضي في حصحص، مع أنه لم يثبت إلا من إقرارها الآن فهو لتقريب زمن الوقوع من الماضي، أو لأن الحق ثابت من قبل في براءة يوسف ﷺ من المراودة[2]، وكل ذلك يدل على انتفاء أي تعلق لاتهام يوسف ﷺ بأي أمر مشين.

---

[1]- انظر أبا السعود" إرشاد العقل السليم" (٣/١٠٣)، والطاهر بن عاشور "التحرير والتنوير" (١٢/٢٦٦).

[2]- انظر الطاهر بن عاشور "التحرير والتنوير" (١٢/٢٩١).

وأما قولها:﴿ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴾ فهو دليل بليغ على صدق يوسف ﷺ وطهارته ونزاهته، فقد أكدت ذلك بـــ﴿ إِنَّ ﴾ واللام والجملة الاسمية[1] لتبرهن على صدقه في أنه لم يراودها، ولم يصدر منه من ذلك لا قليل ولا كثير لا ميل ولا هم وأنها هي التي راودته، ﴿ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ ﴾ هو صادق، وقد عبرت بقولها:﴿ لَمِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴾ لأنها أبلغ من لو قيل هو صادق، كذلك تختم القضية بالنسبة لها بهذه البراءة المؤكدة بكل هذه المؤكدات البليغة التي لا راد لها، ولا ناقض.

أما بيان تبرئة زوج المرأة ليوسف ﷺ فهو قوله تعالى:﴿ إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّ ۖ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَـٰذَا ۚ وَٱسْتَغْفِرِى لِذَنۢبِكِ ۖ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلْخَاطِـِٔينَ ﴿٢٩﴾ ﴾ [يوسف: ٢٨-٢٩].

فقوله إنه من كيدكن من كلام العزيز بعد أن استبان له براءة يوسف ﷺ من الاعتداء على المرأة وإلا كان الكلام مختلفًا، وكان اللوم وما فوقه متوجهًا إلى يوسف ﷺ فيه شهادة من العزيز أكدت براءة يوسف ﷺ بدليل قوله بعد ذلك مخاطبًا الاثنين معًا ﴿ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَـٰذَا ﴾ بأن يكف عن الخوض في هذا الموضوع لئلا ينتشر وتظهر الفضيحة، وعطف على ذلك خطابه لزوجه:﴿ وَٱسْتَغْفِرِى لِذَنۢبِكِ ﴾ فقد أثبت لها الذنب والسوء، بما ينفيه عن يوسف ﷺ وطلب منها الاستغفار عن ذلك، بما يدل على انتفاء أي هفوة في حق يوسف ﷺ خاصة وهو ينتظر أن يكون يوسف هو المخطئ ليحفظ عرضه وزوجه عن قالة السوء والفضيحة بها.

وهذا الأسلوب من مخاطبة المرأة بأن ما دبرته من كيد النساء ثم توجيه الخطاب إلى يوسف ﷺ ثم عودة الخطاب إلى المرأة يسمى بالإقبال، أو الالتفات للمعنى اللغوي عند

---

[1]- انظر الطاهر بن عاشور "التحرير والتنوير (١٢/٢٩٢).

الالتفات البلاغي، وهو عزيز في كلام البليغ[1]، فالقرآن الكريم يبين بهذا الأسلوب البلاغي العزيز تبرئه يوسف والالتفات إلى المرأة باللوم والتقريع، وطلب الاستغفار، ونسبة المكر والكيد إليها، على أبلغ كلام وأحسنه.

أما بيان الشاهد في القضية فقد دل على براءة يوسف أيضًا.

وقد أوردناه هنا بعد بيان العزيز لكونهما في نفس الوقت،وكذلك لبناء العزيز حكمه ببراءة يوسف على كلام الشاهد، وقد جاء ذلك في قوله تعالى:﴿ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٢٦﴾ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٧﴾ فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّ ۖ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾ ﴾ [يوسف: ٢٦-٢٨].

هذا الشاهد بسياق القرآن رجل من أهل المرأة كان بصحبة زوجها العزيز، وسمي قوله شهادة لأنه يؤول على إظهار الحق في إثبات اعتداء يوسف عليه السلام على سيدته أو دحضه، وقوله:﴿ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ ﴾ إلى آخره، لما لم يكن له به سابق علم دل على أن الاستدلال بكيفية تمزيق القميص نشأ عن ذكر امرأة العزيز وقوع تمزيق القميص؛ تحاول أ، تجعله حجة على أنها أمسكته لتعاقبه، ولولا ذلك ما خطر على بال الشاهد أن تمزيقًا وقع، وإلا فمن أين علم الشاهد تمزيق القميص؟ والظاهر أن الشاهد كان يظن صدقها فأراد أن يقيم دليلاً على صدقها، فوقع عكس ذلك كرامة ليوسف عليه السلام[2].

وهذا برهان لا ريب فيه على أن صدق يوسف عليه السلام ونزاهته لم يكن من ترتيب أحد إلا الله سبحانه وتعالى فما دُعوا إلى جلسة ومحاكمة وشهادة، واستعداد لتقديم البينات والمرافعات، بل

[1]- انظر العلامة ابن عاشور "التحرير والتنوير" (٢٥٨، ٢٥٩/ ١٢).

[2]- انظر العلام ابن عاشور "التحرير والتنوير" (٢٥٧/ ١٢).

كان ما أراد الله بحكمته في توها ولحظتها، مع قيام كافة جوانب القضية واضحة جلية، لا تحتاج لغير الحكم بالحق، وكان من تمام توفيق يوسف ﷺ وحفظ الله له، أن جاء القميص شاهدًا له، من حيث أريد أن يكون الشاهد عليه، لو حاول البشر أن يرتبوا محكمة وشهادة وواقعة على هذا النحو لما تمكنوا، إلا محاكاة وتمثيلاً لها.

أما بيان تبرئة النسوة ليوسف ﷺ فكما يلي:

أولاً: وهو قول النسوة لما رأين يوسف ﷺ وهن متكئات، وقد أمرته امرأة العزيز بأن يخرج عليهن وقطعن أيديهن:﴿ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا ﴾ على إعمال﴿ مَا ﴾ بمعنى ليس في لغة أهل الحجاز، تنزيهًا لله سبحانه عن صفات النقص والعجز،وتعجبًا من قدرته على هذا الصنع البديع، ونفيًا للبشرية عنه؛ لما شاهدن فيه من الجمال العبقري الذي لم يعهد مثاله في البشر، وقصر ذلك على الملك بقولهم:﴿ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴾ بناء على ما ركز في العقول من أن لا حي أحسن من الملك، كما ركب فيها أن لا كائن أقبح من الشيطان، فوصفهن بأنه ملك لا شك يدل على مفارقة الشيطان، وهو وصف كريم يدل على جميل الصفات، وأحاسن الشيم، التي تدل على أن مثله ليس أهلاً لسوء الشيطان، ولا الأعمال اللائقة بالشيطان وهذه تبرئه واضحة لم يتمالكن أنفسهن عنها حيث خرجن عن الأفعال الاختيارية بتقطيع أيديهن عند رؤيته، وقولهن ذلك.

ثانيًا: قول النسوة عن إحضار الملك لهن وسؤاله إياهن ﴿ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ قُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ ﴾ ، و﴿ حَٰشَ لِلَّهِ ﴾ مبالغة في النفي والتنزيه، والمقصود: التبرؤ مما نسب إليهن من المراودة، وجملة﴿ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ ﴾ كما يقول الأصوليون نكرة في سياق النفي فتعم كل سوء أي ما علمنا عليه أي سوء، ومن للتبعيض، ومعناه كائنًا ما كان السوء ولو صغيرًا، وهو يدل على أنه لم تقع منه كذلك أي مراودة، لأن

الحالتين منه أو منهن من أحوال السوء،والجملة جامعة لنفي ذلك كله، وقد أشرنا إلى ذلك بنفي العلم وهو كناية عن نفي دعوتهن إياه إلى السوء، ونفي دعوته إياهن إليه؛ لأن ذلك لو وقع لكان معلومًا عندهن، وفي ذلك أبلغ الأدلة على تبرئة النسوة ليوسف عليه السلام بعدم العلم، وعدم الوقوع.

وأما شهادة الله تعالى ببراءة يوسف عليه السلام فمن أوجه:

الأول: في قوله تعالى: ﴿ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾. الكاف منصوب المحل، وذلك إشارة على التثبيت اللازم له، أي مثل ذلك التثبيت ثبتناه، لنصرف عنه السوء على الإطلاق فيدخل فيه الهم، وخيانة السيد، وكافة وأنواع السوء كافة لكون السوء هنا معرفًا فيشمل كل سوء، وكذلك الفحشاء لأنها مفرطة في القبح، وقول الله تعالى ذلك آية بينة، وحجة قاطعة على أنه عليه السلام لم يقع منه همٌّ بالمعصية و لا توجه إليها قط، وإلا لقيل لنصرفه عن السوء والفحشاء، وعما يتوجه إليه من السوء وغيره من الخارج فصرفه الله تعالى عنه بما فيه عليه السلام من موجبات العفة والعصمة، ولذلك عقب بقول:﴿ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾ ليعلل ذلك الصرف عنه، فهو تعليل لما سبق من مضمون الجملة بطريق التحقيق.

وقد قرئ المخلصين بصيغة المفعول وصيغة الفاعل، فأما صيغة المفعول فهم الذين أخلصهم واصطفاهم الله تعالى لطاعته بأن عصمهم عما هو قادح فيها، وصيغة الفاعل وهم اللذين أخلصوا دينهم لله تعالى، وعلى كلا المعنيين فهو عليه السلام منتظم في سلكهم داخل في زمرتهم، والتعبير بالجملة الاسمية والتأكيد دليل على كونه كذلك من أول أمره، لا أن ذلك حدث له بعد أن لم يكن كذلك، فانحسم بذلك مادة احتمال صدور الهم بالسوء منه عليه السلام

بالكلية[1].

الثاني: أن قوله ﷻ: ﴿ كَذَٰلِكَ لِنَصۡرِفَ عَنۡهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلۡفَحۡشَآءَۚ إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُخۡلَصِينَ ﴾ ثناء ومدح من الله تعالى ليوسف عليه السلام سواء في اجتباء الله واصطفائه السابق له، أو في إخلاص يوسف عليه السلام لربه جل وعلا، ولا يليق بحكمة الله تعالى أن يحكي عن إنسان إقدامه على معصية عظيمة فيها كل الصفات السيئة التي أشرنا إليها من قبل، ثم يمدحه ويثني عليه بأنه من المصطفين الأخيار، أو الذين أخلصوا دينهم لله تعالى[2] فدل ذلك على أن يوسف لم يصدر منه شيء.

الثالث: في قوله تعالى: ﴿ فَٱسۡتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنۡهُ كَيۡدَهُنَّۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿٣٤﴾ ﴾ ونركز على المراد من الكلام الذي يؤيد ما نقول وهو في قوله تعالى: ﴿ فَٱسۡتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ ﴾ وذلك بعد قوله: ﴿ وَإِلَّا تَصۡرِفۡ عَنِّي كَيۡدَهُنَّ أَصۡبُ إِلَيۡهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ ﴾ ، ﴿ فَٱسۡتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ ﴾ وهذا السياق يدل على أن يوسف عليه السلام كان مستعصمًا طاهرًا منزهًا، وزادت عليه الضغوط من كل الجوانب وبكافة الأساليب فلجأ إلى الله تعالى ليصرف عنه ذلك الكيد، وهو علم من سنة الله تعالى معه من قبل صرف السوء والفحشاء عنه، فاستجاب له ربه، والفاء للتعقيب، ودل على أن قوله: ﴿ وَإِلَّا تَصۡرِفۡ عَنِّي ﴾ دعاء بطلب ذلك، ترى استجابة الله له بهذه السرعة بعد وقوعه في الهم والمراودة، وغير ذلك، أن ذلك دليل من الله تعالى على تبرئة يوسف عليه السلام بسرعة إجابته، وصرف الكيد والمكر، وتلك الشدائد عنه، وزيادة تثبيت قلبه في مواقف الزلزلة تلك، وما يكون ذلك الصرف والإجابة إلا لطاهر يريد العصمة، لا متلوث قد وقع في الذنب، إذ الواقع في ذلك يصرف عن السوء والفحشاء، لا تصرف عنه

[1]- انظر أبا السعود "إرشاد العقل السليم" (٩٦/٣).
[2]- انظر الفخر الرازي "التفسير الكبير" (٩/٢٦).

الفحشاء والمكيدة بإيقاعه في ذلك، والتعبير بالكيد يدل عليه إذ هو محاولة المخاتلة بيوسف لإيقاعه، لا أنه تحقق وذلك ظاهر بتأمل السياق ومقارنته وتحليله.

وثمة شيء آخر تبينه الآية الكريمة وهو تلك الصلة بين يوسف عليه السلام وربه جل وعلا، إذ تدل على قلب موصول بالله تعالى، بينه وبين ربه عمار، يدعوه ويتضرع إليه، فيسارع إلى إجابته، بل ويدعوه بما يدل على كمال ثقته في ربه، ووفور إقباله عليه ومحبته له: ﴿ وَإِلَّا تَصۡرِفۡ عَنِّي كَيۡدَهُنَّ ﴾ من ذا الذي يقول لله تعالى: وإلا تصرف عني كذا وكذا أقع في كذا، وكذا فيستجيب له، إلا وقلبه مفعم باليقين التام في الإجابة بأن ينجيه مما وقع فيه، ترى تلك قلوب العصاة المذنبين، إن أقصى أملهم أن يغفر لهم، ويتوب عليهم، أم هي قلوب العارفين بالله الذين هم في الدرجة العالية من توحيده وطاعته، وكذلك في إضافة الرب لضمير يوسف ﴿ لَهُۥ رَبُّهُۥ ﴾ دليل عناية الرب بمربوبه، ورعايته له جل وعلا، وإظهار شأنه في انتسابه إلى الله تعالى بمعنى الربوبية.

الرابع: وهو قوله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَتَبَوَّأُ مِنۡهَا حَيۡثُ يَشَآءُۚ نُصِيبُ بِرَحۡمَتِنَا مَن نَّشَآءُۖ وَلَا نُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٥٦﴾ وَلَأَجۡرُ ٱلۡأٓخِرَةِ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾ [يوسف: ٥٦-٥٧]، والكاف هنا منصوبة بالتمكين، وذلك: إشارة إلى ما تقدم يعني ومثل ذلك الإنعام الذي أنعمنا به على يوسف في تقريبنا إياه من قلب الملك، وإنجائنا إياه من غم السجن نمكن له في الأرض، أي نقدره على ما يريد، وان ينزل منها أي منزل أحب لا يدافعه أحد ولا ينازعه منازع، والمقصد من ذلك أن الله مكن ليوسف عليه السلام في الأرض، وما كان هذا التمكين الجاري على سنة الله في كونه إلا لأنه كما أفاد السياق من المحسنين، وأن الله لا يضيع في الدنيا أجرهم، وهذا أكبر دليل على أن يوسف كان وما زال حين تبوأ هذا المركز من الله تعالى محسنًا، ولو صدق على يوسف عليه السلام بأنه وقع في شيء مما ذكره الجهال لكان ذلك تكذيبًا لله في حكمه على يوسف عليه السلام بالإحسان وهو عين الكفر بالله، ولكان ذلك

شهادة على الله تعالى- حاشا لله- أنه يمكن للعصاة له ويمدحهم بذلك، وأنه يكافئهم على مخالفته بالتمكين لهم في الأرض.

ويزيد على ذلك ما أعده له في الآخرة في قوله تعالى:﴿ وَلَأَجْرُ ٱلْآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾ وهذا يدل على أمرين:

الأول: أن يوسف عليه السلام وصل إلى المنازل العالية والدرجات الرفيعة في الدنيا، إلا أن الثواب الذي أعده الله له في الآخرة خير وأفضل وأكمل.

الثاني: أن المراد من الآية كذلك شرح حال يوسف عليه السلام فوجب أن يصدق في حقه أنه من الذين آمنوا وكانوا يتقون، وليس ها هنا زمان سابق ليوسف عليه السلام يحتاج إلى بيان أنه من المتقين إلا ذلك الوقت الذي قال فيه تعالى:﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ ۖ وَهَمَّ بِهَا ﴾ هذا شهادة من الله تعالى أنه كان في ذلك الوقت من المتقين، فأنى يكون ذلك الهم وغيره منه.

وتضاف هذه إلى شهادة الله له بأنه من المحسنين ومن المخلصين[1]، فثبتت براءة الله تعالى له، بهذه الشهادات الإحسان والإخلاص والتقوى، وماذا بعد؟

وهناك وجوه كثيرة أخرى في تحليل الآيات نكتفي بهذا القدر منها لتبيين المطلوب.

وأما بيان أن إبليس أقر بطهارة يوسف عليه السلام وبراءته فهو في قوله تعالى:﴿ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾ [ص:٨٢-٨٣] فأقر بأنه لا يمكنه إغواء المخلصين، ويوسف عليه السلام قد مدحه الله تعالى بقوله:﴿ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾ فكان هذا إقرار من إبليس بأنه ما أغواه وما أضله عن طريق الهدى.

---

[1]- انظر الفخر الرازي "التفسير الكبير" (٩٠، ٩١/ ٩).

يقول الإمام الرازي[١] عن ذلك: وعند هذا نقول للجهال الذين نسبوا إلى يوسف عليه السلام هذه القضية إن كان من أتباع دين الله تعالى فليقبلوا شهادة الله على طهارته، وإن كان من أتباع إبليس وجنوده فليقبلوا شهادة إبليس على طهارته، ولعلهم يقولون: كنا في أول الأمر تلامذة إبليس إلى أن تخرجنا عليه في السفاهة، كما قال الخوارزمي:

وكنتُ امرءًا من جُندِ إبليسَ فارْتَقَى ... بيَ الدهرُ حتى صارَ إبليسُ من جُندي

فلو ماتَ قَبْلي كنتُ أُحسنُ بَعْدَهُ ... طرائقَ فسقٍ ليس يُحسنها بَعْدي

وإذ قدمنا بهذه المقدمة لتكون بين يدينا في التدليل على عصمة النبي ﷺ، وكذلك لتكون الأصل الثابت، والأساس الراسخ المتين في اعتقاد عصمة الأنبياء، وعلو منزلتهم بهذه القواطع من النصوص القرآنية، التي تقوم عليها هذه الدارسة، وندخل منها إلى إثبات عصمة الرسول ﷺ من باب الأولى، وكذلك بدراسة وتحليل ومقارنة بقية الآيات النازلة في حقه ﷺ مع رد كل ما أثير من شبهات إلى هذه النصوص الراسخة لتتضح الصورة كاملة في هذه القضية، وتظهر بها الجديد من منهج البحث، وهو المقارنة بين النبى صلى الله عليه وسلم وبين الأنبياء السابقين.

ونبدأ ببيان عصمة النبي ﷺ عن الذنوب كافةً، صغيرها وكبيرها، بعد البعثة وقبل البعثة، وكذلك عن ما يمكن أن يقع قبل البعثة فيكون مشينًا بعد البعثة، وذلك من حيث انتهى الكلام السابق وهو أن إبليس قد أقر بطهارة يوسف عليه السلام وعليه فإن الرسول ﷺ ليس للشيطان عليه سبيل البتة، فإذا كان إبليس فيما حكي القرآن الكريم عنه يقول: ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾﴾ فإن الرسول ﷺ أعلى الأنبياء درجة، بل

[١]- انظر الفخر الرازي "التفسير الكبير" (٩٠، ٩١/ ٩).

أرفعهم درجات، كما في قوله تعالى: ﴿تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ....﴾ [البقرة: ٢٥٣] فكان هو ﷺ بهذا التقسيم للآية ممن رفع الدرجات، وقصة الإسراء والمعراج في القرآن نفسه تبين أن أحدًا منهم عليهم الصلاة والسلام لم يصل إلى درجته، علاوة على أنه ﷺ أفضل أولي العزم، ويوسف عليه السلام ليس من أولي العزم أصلاً، فكان ذلك دليلاً على أنه ﷺ أولى من يوسف عليه السلام والأنبياء كافة ألا يكون للشيطان عليه أدنى سبيل، وأولو العزم من الرسل المذكورون في القرآن الكريم جمعتهم الآية الكريمة: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ۝﴾ [الأحزاب: ٧] ودل سياق الآية لتقديم النبي ﷺ في الذكر على تقديمه في المرتبة، بدليل الترتيب الزمني بعد ذلك لبقية النبيين عليهم جميعاً أفضل الصلاة والسلام، ونبادر فنقول إن الدراسة والأدلة التي أدت إلى تقديمه وتفضيله عليه وعليهم أفضل الصلاة والسلام – ليس تنقيصاً لأحدهم عياذاً بالله – ولكنها تقرير لذلك الواقع الذي أدى إليه البحث، وقاد إليه الدليل[1] بإعطاء كل منهم ما أعطاه الله تعالى من الفضل، مع استوائهم جميعاً في العصمة محل البحث.

وفي سياق إيراد ما يشابه ذلك الآيات نرى قوله تعالى عن إبليس: ﴿لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۝ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ۝﴾، وهذا تأكيد جديد بقوله لأحملنهم جميعاً على الغَواية إلا عبادك الذين أخلصتهم لعبادتك وطاعتك، وطهرتهم من الشوائب فلا يعملُ فيهم كيدي، أو هم (بفتح اللام) الذين أخلصوا نفوسهم وعبادتهم

---

١ – لذلك قال: "لا تخيروا بين الأنبياء..."، رواه البخارى (٢٢٣٥)، ومسلم (٤٣٧٨)، وأبوداود (٤٠٤٨)، كلهم عن أبى سعيد رضى الله عنه.

وتوحيدهم لله تعالى[1]، ورسول الله محمد ﷺ هو أول المصطفين الأخيار، والمجتبين الأبرار، وهو أتقاهم لله تعالى، وأشدهم إخلاصًا لهم، ولا شك أنه أول السالمين من كيده وإغوائه[2]، وهذا ما ينقلنا إلى ما ذكر المولى سبحانه عن عباده، وعن حفظه لهم من كيد الشيطان حيث قال تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾ [الحجر: ٤٢] أي أن عبادي ليس لك عليهم تصرف ولا تسلط، وهم المشار إليهم سابقًا بالمخلصين، وقد أكدت حقيقة الجملة (إنَّ والجملة الاسمية)، ونفي السلطان بالتنكير ليفيد أنه ليس له عليهم أي سلطان، صغيرًا كان أو كبيرًا.

وتصدير الجملة بعبادي يشمل أول ما يشمل النبي ﷺ لأنه أعلى العباد مقامًا في العبودية، حيث جاء التشريف بذلك من ربه ﷻ في كافة الأحوال التي تبين فخامة منزلته، فذكر بذلك في الإسراء فقال تعالى: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا﴾ [الإسراء: ١] وفي مقام التحدي لإثبات النبوة بإعجاز القرآن الكريم فقال تعالى: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ﴾ [البقرة: ٢٣] وفي مقام الدعوة إلى توحيد الرب ﷻ: ﴿وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا﴾ [الجن: ١٩] وفي إنزال الفرقان عليه ﷺ: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ﴾ [الفرقان: ١] فرأينا هذه الآيات الكريمات علاوة على تشريفه بمقام العبودية لله تعالى، تشير إليه بأعظم الإضافات وأكملها إلى الله تعالى مثل بعبده، وعبدنا، وعبد الله، وما تعنيه تلك الإضافات وتنوعها باختصاصه بذلك وعلو درجته في عبودية الله تعالى، مما يوضح لنا أن تلك الدرجة أعلى الدرجات التي لا سبيل للشيطان على صاحبها، مما يؤكد

---

[1]- انظر أبا السعود "إرشاد العقل السليم (٢٢٨/ ٣).

[2]- وقد ورد فى حديث ابن مسعود رضى الله عنه الذى رواه مسلم (٥٠٣٤) قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: (... إلا أن الله أعانني عليه فأسلم، فلا يأمرني إلا بخير).

عصمته ﷺ من أي غواية من غواية الشيطان.

مع ملاحظة أخرى في الآية في قوله تعالى: ﴿ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿٤٢﴾ ﴾ ، وهي أن الغواية وقعت باختيارهم حيث اتبعوا الشيطان بمحض إرادتهم، وذلك لا يقع للأنبياء – عليهم السلام – أن يختاروا اتباع الشيطان؛ إذ ينافي ذلك عبوديتهم لله تعالى، وخلع عبودية ما سواه ويزيد في إيضاح ما سبق من آيات تبين عصمة النبي ﷺ من كيد الشيطان وتسلطه، قوله تعالى: ﴿ إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾ ﴾ [النحل: ٩٩] وذلك بعد قوله تعالى: ﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾ ﴾ فقوله: ﴿ إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ ﴾ تعليل للأمر بالاستعاذة، لأنها تمنع من تسلط الشيطان على المستعيذ لأن الله منعه من التسلط على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون، وجملة ﴿ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾ ﴾ صفة ثانية للموصول، وقدم المجرور على الفعل للقصر، أي لا يتوكلون إلا على ربهم، وجعل فعلها مضارعًا لإفادة تجدد التوكل واستمراره، وعطف الجملة دون إعادة اسم الموصول للإشارة إلى أن الوصفين كصلة واحدة لموصول واحد، لأن المقصود اجتماع الصلتين، فنفي سلطان الشيطان مشروط إذًا بالأمرين: الإيمان والتوكل، ومن هذا تفسير لقوله تعالى في الآية الأخرى: ﴿ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ ﴾ .

ويكون المعنى: أن الإيمان مبدأ أصيل لدفع سلطان الشيطان في نفس المؤمن، فإذا انضم إليه التوكل على الله اندفع سلطان الشيطان عن المؤمن المتوكل.

ولا حاجة بنا أن نقرر أن رسول الله ﷺ أعظم المؤمنين إيمانًا، بل لا يتم إيمان أحد بالله إلا بالإيمان بالرسول ﷺ، وكل توكل في المؤمنين إنما هو من جراء تعليمه قولاً وفعلاً، وكما قال تعالى: ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿٤٨﴾ ﴾ [الأحزاب: ٤٨] وفي الحديث: «عبدي

ورسولي سميته المتوكل»[1] وآيات القرآن الكريم مليئة بالكلام على التوكل والمتوكلين، الذي يؤكد أن رسول الله ﷺ هو معلمهم التوكل كما علمهم الإيمان وغيره من أمور الدين اعتقادًا وعملاً وسلوكاً.

وإذا أشرنا إلى ما يوضح عصمة النبي ﷺ والأنبياء - عليهم الصلاة والسلام — من كيد الشيطان وتسلطه، نأتي إلى ما يتعلق بوسوسة النفس، أو بأمرها الإنسان بالسوء، ترى ينطبق على الإنسان المؤمن الكامل فضلاً عن الرسل - عليهم الصلاة والسلام - أن توسوس له نفسه بما يخالف الشرع، ويوقع في غضب الرب ﷻ، أو في التقصير في حقوقه، لنرجع إلى قصة يوسف عليه السلام ننظر فيها ما يتعلق بالنفس، ومدى حملها الإنسان على المخالفة، وذلك في قوله تعالى: ﴿ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفۡسِيٓۚ إِنَّ ٱلنَّفۡسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓۚ إِنَّ رَبِّي غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴾ [يوسف: ٥٣].

ظاهر ترتيب الكلام أنه من كلام امرأة العزيز[2]، مضت في بقية إقرارها فقالت: ﴿ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفۡسِيٓ ﴾ وذلك كالاحتراس مما يقتضيه قولها عن يوسف عليه السلام: ﴿ ذَٰلِكَ لِيَعۡلَمَ أَنِّي لَمۡ أَخُنۡهُ بِٱلۡغَيۡبِ﴾ من أن تبرئة نفسها من هذا الذنب ادعاء بالبراءة العامة فقالت: ﴿ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفۡسِيٓ ﴾ ، فالواو استئنافية، والجملة ابتدائية، وجملة: ﴿ إِنَّ ٱلنَّفۡسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ ﴾ تعليل لجملة ﴿ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفۡسِيٓ ﴾ ، أي لا أدعي براءة نفسي من ارتكاب الذنب؛ لأن النفس كثيرة الأمر بالسوء، ثم

---

[1]- انظر الطاهر بن عاشور (٢٧٨، ٢٧٩ / ١٤)، والحديث رواه البخارى (١٩٨١) عن عبد الله بن عمرو رضى الله عنهما.

[2]- انظر العلامة بن عاشور "التحرير والتنوير" (٥/ ١٣)، والاحتمال الثاني في الآية - وقد ذكره جمع من المفسرين منهم ابن عاشور نفسه - أنه من كلام يوسف في قوله "ذلك ليعلم أني لم أخنه بالغيب" وهذا لا يستقيم مع ما قدمنا من أن العزيز في وقتها قال ليوسف: "أعرض عن هذا" وقال لزوجه: "واستغفري لذنبك" فأين عدم علمه بخيانة يوسف، بل هو متأكد من خطأ زوجه أمام يوسف، وبراءة يوسف في نفس الآن، وكان يوسف عليه السلام فى السجن والنسوة فى حضرة الملك، فكيف يصح؟!

استثنت فقالت: ﴿إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓ﴾ وهو استثناء من عموم الأزمان، أي أزمان وقوع السوء بناءً على أن أمر النفس به يبعث على ارتكابه في كل الأوقات إلا وقت رحمة الله عبده، وهو مقصودنا من ذلك كله لنبين عصمة النبي ﷺ من أمر النفس بالسوء، فإذا كان لا يعصم من اتباع وسوسة النفس في الوقوع في السوء والهم به إلا رحمة الله بعبده في بعض الأزمان، فكيف يقع من نفس الرسول ﷺ هم أو وسوسة بسوء، وهو نفسه الرحمة المهداة كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ١٠٧﴾ [الأنبياء: ١٠٧] فقصر إرساله على الرحمة للجن والإنس كافة، والآية دليل في غاية الوضوح والنصاعة، ليست على كونه مرحومًا في بعض الأوقات لتتحقق له بذلك العصمة فيها، بل هو الرحمة نفسها في كل الأوقات، ليس لنفسه، بل للعالمين، ليوضح القرآن الكريم بذلك درجة النبي ﷺ التي لم يصل إليها أحد لتكون شاهدًا على عصمته من النفس بعد اتضاح عصمته من الشيطان، فلا الشيطان ولا النفس إذاً لهما عليه سبيل.

ومما يزيد هذا الدليل وضوحًا قوله تعالى في وصف الرسول ﷺ: ﴿وَرَحۡمَةٞ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ﴾ [التوبة: ٦١]، ليجمع البحث ما قيل في كونه رحمة من جميع نواحيها، فكلها حق، ولكن يبقى المعنى الظاهر أن الرسول ﷺ رحمة عامة، ورحمة للمؤمنين خاصة، فأنى تكون لصاحب هذه الرحمة للمؤمنين في باطنه شيء يأمر بالسوء، وهذا السوء لا يقع في أوقات الرحمة، وكيف يرحم المؤمنين، وله أوقات لا رحمة فيها، أوقات الأمر بالسوء، والله يقول عنه: ﴿بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ ١٢٨﴾ [التوبة: ١٢٨] وهي عامة لكل المؤمنين شاملة لكل الأوقات والأحوال، حيث لقنه ربه أن يقول: ﴿قُلۡ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحۡيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٦٢ لَا شَرِيكَ لَهُۥۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرۡتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ١٦٣﴾ فحياته ومماته وعبادته وتوحيده لله وحده لا شريك له من نفس ولا شيطان ولا هوى، ولا غيره. ولنا عود لهذه الآية.

من جهة أخرى فقد ذكر القرآن الكريم أن هناك نفسين أخريين، هما النفس اللوامة،

والنفس المطمئنة، والمطمئنة قال الله تعالى فيها: ﴿ يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفۡسُ ٱلۡمُطۡمَئِنَّةُ ٢٧ ٱرۡجِعِيٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةٗ مَّرۡضِيَّةٗ ٢٨ فَٱدۡخُلِي فِي عِبَٰدِي ٢٩ وَٱدۡخُلِي جَنَّتِي ٣٠ ﴾ [الفجر: ٢٧-٣٠] ونحن نروم الاختصار فنشير في تحليل الآية ومقارنتها إلى موضع البحث فقط، فالنفس المطمئنة الراضية المرضية موجودة في المؤمنين، وأول المؤمنين هو ﷺ في الأولى والآخرة، وهو أعلاهم درجة، فأعلى النفوس المطمئنة إذن وأجودها وأكرمها على الله نفس النبي ﷺ، وفي الآية دليل آخر: أن النفس المطمئنة يقال لها: ﴿ فَٱدۡخُلِي فِي عِبَٰدِي ٢٩ ﴾ ، وأشرف عباده وأسماهم منزلة - كما ذكرنا من قبل - هو الرسول ﷺ، فالنفوس المطمئنة تدخل في زمرته صلوات الله وسلامه عليه، وتشرف بالانضواء تحت رايته، فكان هذا برهاناً – على أقل تقدير – على خروج نفس النبي ﷺ عن حد النفس الأمارة والنفس اللوامة، ووصوله إلى أكمل درجات النفوس المطمئنة، وأما صفة النفس المطمئنة المذكورة في الآية فهي الساكنة الهادئة – لأنها اسم فاعل من الاطمئنان – غير مضطربة ولا منزعجة، وهذا يجوز أن يكون من سكون النفس بالتصديق لما جاء به القرآن دون تردد، ولا اضطراب بال، ويجوز أن يكون من هدوء النفس بدون خوف ولا فتنة في الآخرة والاطمئنان مجاز كذلك في طيب النفس وعدم ترددها في مصيرها بالاعتقاد الصحيح، حين أيقنوا في الدنيا بأن ما جاءت به الرسل حق فذلك اطمئنان في الدنيا، ومن أثره اطمئنانهم يوم القيامة حين يرون مخايل السعادة والرضا نحوهم، ويرون ضد ذلك نحو أهل الشقاء، وقد فسر الاطمئنان بيقين وجود الله ووحدانيته، وفسر باليقين بوعد الله، وبالإخلاص في العمل ولا جرم أن ذلك كله من مقومات الاطمئنان المقصود فمجموعه مراد وأجزاؤه مقصودة[1].

ومما سبق تتضح مرتبة النبي ﷺ المنيفة السامقة.

---

[1]- انظر العلامة الطاهر بن عاشور "التحرير والتنوير" (٣٤٢-٣٤٣/ ٣٠).

ومما ينبغي الوقوف عنده من الآيات التي ذكرها القرآن الكريم، والتي تؤكد عصمة النبي ﷺ، من المخالفات والمعاصي كافة، وكررها القرآن في أكثر من موضع؛ لينوه بفضله وعلو مرتبته - عليه الصلاة والسلام - والتي تبين من تغاير السياق التي سيقت فيه تعدد جوانب العصمة، واكتمالها في النبي ﷺ، وبالتالي تضيف إلى ما سبق تأكيدات مهمة بشأن عناية الله به، تصديقاً للرسالة، وتأييداً للنبوة التي جاء بها صلوات الله وسلامه عليه، وهذه الآيات ثلاث آيات:

الأولى: ﴿ قُلْ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ۝ مَّن يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُۥ ۚ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ ۝ ﴾ [الأنعام: ١٥-١٦]

الثانية: ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ ۙ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ ۚ قُلْ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآئِ نَفْسِىٓ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ۝ ﴾ [يونس: ١٥]

الثالثة: ﴿ قُلْ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ۝ ﴾ [الزمر: ١٣] وقبلها قوله تعالى: ﴿ قُلْ إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ۝ وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلْمُسْلِمِينَ ۝ ﴾ [الزمر: ١١-١٢] وبعدها: ﴿ قُلِ ٱللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُۥ دِينِى ۝ ﴾ [الزمر: ١٤].

والمتأمل لهذه الآيات الكريمات يلاحظ ما يلي:

- أن قوله ﴿ قُلْ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى ﴾ مصدر في موضعين من المواضع الثلاثة، والموضع الثالث محتمل لها، وهذا التلقين للنبي ﷺ من الله تعالى يدل على عنايته بالنبي ﷺ، وحفظه له، ورده عنه، وتثبيته إياه في تلك المواقف العصيبة، لم يترك له أن يرد هو، بل علمه الرد الذي لا مدفع له، في الوقت الذي يمدحه، ويثني عليه بهذا التلقين، وهو من الإيجاز والإعجاز القرآني العالي، إذ تجمع هذه الجملة العديد من المعاني التي لا تحصل بغيرها، وإن

حصلت من البلغاء فبأضعاف هذه الجملة، مع عدم تأدية كل المعاني التي تحتويها.

• إن كلمة ﴿ قُلۡ ﴾ هنا تنفي نسبة الوحي إلى النبي ﷺ، مع رفع الاحتشام عنه – عليه الصلاة والسلام – في تزكية نفسه، مع تأكيد المعنى الذي سيقت لأجله، بالتكرار له إلى يوم القيامة وهو – مثلاً – كما في الآية الأولى يرفض الشرك امتثالاً لأمر الله ﷻ وإن أتباعه المؤمنين مطالبون أيضًا بهذا القول، معلنون به، غير راجعين عنه أو مداهنين فيه.

• وقوله: ﴿ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنۡ عَصَيۡتُ رَبِّي ﴾ أي بمخالفة أمره ونهيه أي عصيان كان، ويدخل فيه ما ذكر في السياق دخولاً أوليًا، وهذا بيان من الله تعالى بحال نبيه المعظم، وهو كمال اجتنابه – عليه الصلاة والسلام – عن المعاصي على الإطلاق[1]، إذ لا معنى لخوفه العظيم هذا ﷺ، مع الوقوع في أي معصية كانت؛ لأن قدر الخوف على قدر العذاب، وبمقدار ما يخاف المرء يمتنع عن الأسباب المفضية لهذا العذاب المهول، وتلك تدل على العصمة الكاملة لرسول الله ﷺ[2]، والآية رد واضح جلي على من يخالف هذا المعتقد، وتوضيح بليغ لما تُوهمه بعض الآيات القرآنية[3] بخلاف هذا الرأي السديد، وبالتالي تحمل هذه الآيات على ما يليق بالنبي ﷺ، وما يوافق آيات العصمة؛ جمعًا بين الآيات الكريمات كلها في هذا الصدد.

• وفي العدول عن لفظ الجلالة إلى قوله ﴿ رَبِّي ﴾ في الآية إيماء إلى أن عصيانه أمر قبيح، لأنه ربه الذي يربيه، ويقوم على شؤونه فكيف يعصيه[4].

١- انظر العلامة أبا السعود "إرشاد العقل السليم" (١٣١/ ٢).

٢- لأن وجود الخوف حينئذ يكون مانعًا من أي معصية بغير تفريق بين صغيرة وكبيرة.

٣- سنذكرها إن شاء الله بعد تقرير آيات العصمة.

٤- انظر أبا السعود "إرشاد العقل السليم"، والعلامة ابن عاشور "التحرير والتنوير" (١٦١/ ٦).

• وتوضيحًا لعذاب العصيان، وهو ما يدل على شدة الامتناع من المخالفة أضيف العذاب إلى ﴿ يَوۡمٍ عَظِيمٍ ﴾ تهويلاً له، إذ في معتاد العرب أن يطلق اليوم على يوم نصر فريق، وانهزام آخر، والهزيمة تعني التنكيل بهم، وإكثار القتل والأسر فيهم، وإسامتهم سوء العذاب، فذكر ﴿ يَوۡمٍ ﴾ يثير الخيال من مخاوف مألوفة لديهم، قال تعالى: ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمۡ عَذَابُ يَوۡمِ ٱلظُّلَّةِۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٍ ١٨٩ ﴾[1]، ولم يقل عذاب الظلة، وبهذا الاعتبار حسن جعل إضافة العذاب إلى اليوم العظيم كناية عن عظم ذلك العذاب.

• ما سبق من المعاني لتلك الكلمات القليلة المضيئة، يظهر بجلاء هذا العلو، وتلك الدرجة المُنيفة للنبي ﷺ التي يقطع العقل بحصولها له.

وتمضي ألفاظ الآية الكريمة في توضيح جانب آخر يدل على عصمة النبي ﷺ لتكتمل جوانب الصورة وذلك قوله: ﴿ مَّن يُصۡرَفۡ عَنۡهُ يَوۡمَئِذٖ فَقَدۡ رَحِمَهُۥۚ وَذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡمُبِينُ ١٦ ﴾ فقوله: ﴿ مَّن يُصۡرَفۡ عَنۡهُ يَوۡمَئِذٖ فَقَدۡ رَحِمَهُۥ ﴾ جملة من شرط وجزاء وقعت موقع الصفة لـ﴿ عَذَابَ ﴾ ، ومعنى وصف العذاب بمضمون جملة الشرط والجزاء، أي من وفقه الله لتجنب أسباب ذلك العذاب فهو قد قدر الله له الرحمة، ويسر له أسبابها، وبالتأمل يتضح أن المقصود من هذا الكلام إثبات مقابل قوله: ﴿ قُلۡ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنۡ عَصَيۡتُ رَبِّي عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ ١٥ ﴾ كأنه قال أرجو إن أطعت أن يرحمني ربي، لأن من صرف عنه العذاب فقد ثبتت له الرحمة، فجاء في إفادة هذا المعنى بطريقة المذهب الكلامي، وهو ذكر الدليل ليعلم المدلول، وهذا ضرب من الكناية، وأسلوب بديع بحيث يدخل المحكوم له في الحكم بعنوان كونه مفردًا من أفراد العموم الذين ثبت لهم الحكم.[2]

---

[1]-انظر الطاهر ابن عاشور "التحرير والتنوير" (٦/١٦١).

[2]- انظر الطاهر ابن عاشور "التحرير والتنوير" (٦/١٥٨).

ولما كان رجاؤه الرحمة بطاعته دل على عصمته؛ لأنه ﷺ أول المرحومين، وأعظمهم تحصيلاً لرحمة الله سواء بعنايته في الدنيا؛ بالوحي له، واختصاصه به، أم في كونه أول المسلمين، كما أمرته الآية السابقة أن يقول بذلك، وهى قوله: ﴿ قُلْ إِنِّيَ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ﴾ ، أو بكونه هو الرحمة نفسها كما مر معنا فى قضية يوسف عليه السلام.

وقوله: ﴿وَذَٰلِكَ[1] ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٦﴾﴾ تعقيبًا على صرف العذاب، دليل أن من صرف عن العذاب، أو صرف عنه العذاب على حسب عود الضمير فقد دخل في النعيم في ذلك اليوم، قال تعالى: ﴿ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾ [آل عمران: ١٨٥] ومعلوم أن النبي ﷺ في الدرجة العليا من النعيم في الفردوس الأعلى، ليس ممن يصرف عنه العذاب، بل هو صاحب الوسيلة[2] التي ليست لأحد من الخلق إلا هو – عليه الصلاة والسلام – فكان ذلك برهان كونه المنزه الأول عما يشوب هذه المنزلة من المعصية، أو يخدش تلك الدرجة من الرحمة بالمخالفة، ويؤيد ذلك أن في الآية تعريضًا بأنهم عصاة، مستحقون لعذاب يوم عظيم أولئك المخالفون للنبي ﷺ، فكيف يقع منه هو أدنى مخالفة أو معصية.

ما زالت الآيات الثلاث تبوح بشيء من معانيها، تجود بها:

من ذلك شمولها للتوحيد والعبادة، والخوف من المعصية، مع التأكيد على دلائل الوحدانية التي لا يمكن معها إلا التسليم للرب عقلاً وسمعًا، وتكون المخالفة ساعتها أقبح القبائح، خاصة إذا اقترنت هذه الآيات بأمر النبي ﷺ أن يقول ذلك، مبلغًا إياه عن ربه.

---

[1]– وذلك فيه من معنى البعد ما يؤذن بعلو درجته، وبعد مكانه في الفضل.

[2]– إشارة إلى حديث الوسيلة الذى رواه مسلم (٥٧٧).

في الآيات نرى ذلك بأوضح صورة، حيث يقول جل وعلا:﴿ قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا ﴾ [الأنعام: ١٤] ثم يقول: ﴿ قُلْ إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ ﴾ فجاءت هذه الآية الثانية، لتبين بدلالة السمع – وهو الوحي – بعد الأولى التي تحوم حول الدلالة بدلالة العقل، الأمر باتباع دين الإسلام، بل وأن يعلن النبي بناء على أمر ربه أنه أول من أسلم، وهي الكناية التي خاطب العرب بها، إذ هم يعلمون أنه أول من التزم دينه الذي يدعو إليه، ومن ثم كان المعنى المكنى عنه هنا هو كونه الأقوى والأمكن في الإسلام، لأن الأول في كل شيء هو الأحرص على الشيء، والأعلق به، فالأولية تستلزم الحرص والقوة في العمل، كما حكي الله عن موسى عليه السلام قوله: ﴿ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٤٣﴾ ﴾ [الأعراف: ١٤٣] فإن كونه أولهم معلوماً، وإنما أراد: إني الآن بعد الصعقة أقوى الناس إيمانًا، وفي الحديث: «نحن الآخرون الأولون يوم القيامة»[١].

وعليه فالرسول ﷺ هو الأول إسلامًا وإيمانًا وإحسانًا، في الدنيا والآخرة، وبأمر الله أن يقول ذلك، وفي نفس الآن فإن في الآية تأييسًا للمشركين من اتباع دينهم، أو الرجوع إلى دين آبائهم، والذي من معناه التمسك بتوحيد ربه، والالتزام بعبادته، وترك عصيانه، وهو ما يبين في الآيات الأولى المعنى الذي تدور عليه الآيات كافة من كونه في توحيده لربه، والتزامه بعبادته، والاتصاف بأعلى الصفات هو الأول فى ذلك.

ونربط ما سبق من سورة الأنعام بما نزل في سورة الزمر، نظرًا لأن الزمر متأخرة النزول عن الأنعام، وهى من قوله تعالى:﴿ قُلْ إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿١١﴾ وَأُمِرْتُ لِأَنْ

[١]- رواه البخاري ومسلم، وهذا اللفظ لمسلم (٨٥٥).

أَكُونَ أَوَّلَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٢﴾ قُلْ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣﴾﴾ [الزمر: ١١-١٣].[١]

ونلاحظ في ربط الآيتين قبل الخوض في شيء من التفسير ما يلي:

أولاً: أن سورة الأنعام ذكرت قوله: ﴿ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾﴾ ، أما في سورة الزمر فجاء قوله: ﴿ وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٢﴾﴾ وتعني في الأنعام عندما عبرت بالفعل أن ذلك يفيد التكرار والدوام منه ﷺ، أي كلما تكرر أمر من الله له، أو نهي فإنه يكون المبادر للاستسلام وللامتثال ومن ناحية أخرى يكون هو الأقوى والأكمل في الامتثال والخضوع، أما آية الزمر، وهى المعبرة بالجملة الاسمية ﴿ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾﴾ فدلت على كون الاستسلام والقوة فيه والحرص عليه سجية للنبي ﷺ، وهيئة راسخة لا ينفك عنها ولا يتحول، وأنه - عليه الصلاة والسلام - يتقبل تلك الأوامر والنواهي ويسارع إليها بسماحة ويسر، بغير مشقة على النفس ولا عنت، وبغير ملل أو ضجر أو استثقال، مهما كلفته تلك الأوامر والنواهي، وقد رأينا تلك القدوة في أصحابه رضوان الله عليهم عندما تركوا أهلهم وأوطانهم وديارهم وأموالهم في سبيل الله تعالى، وما كانوا ليفعلوا ذلك إلا ولهم أسوة فيه ﷺ وهذه تدل على عصمته، لأنه كلما أُمر بأمر امتثل، وكلما نهي انتهى[٢].

ثانيًا: أن الآيات هنا زادت الإخلاص لله تعالى في عبادته، حيث يتناسب ذلك مع السياق، إذ في الأنعام قوله: ﴿ قُلْ إِنِّيٓ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ ۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٤﴾﴾ ، وهو علاوة على أن أمره بأن يكون أول من أسلم فهو تأييس للمشركين من طلبهم العودة إلى دينهم، أما هنا فهو الأمر بالعبادة ولا تكون مقبولة إلا بالإخلاص لله تعالى فيها،

---

[١]- حيث الأنعام في ترتيب السيوطي (٥٤)، والزمر (٥٨)، وكذا في بقية المصاحف، فإن الزمر متأخرة مع اختلاف في رقمها.

[٢]- فلم يكن ثم مجال للمخالفة على الإطلاق، وذلك واضح من أمر الله له بالثناء على نفسه ﷺ، بثناء الله عليه، فأنى تأتي المخالفة المؤكد عدم خطورها بباله فضلاً عن وقوعها، وذلك بقوله: "إني أخاف إن عصيت ربي عذاب يوم عظيم".

فجاء الأمر على هذا النحو فزاد السياق هنا بزيادة هذه الألفاظ معان أخرى تشير إلى ما ذكرنا منها كونه ﷺ مأمورًا بأن يكون أول من أسلم في كل أموره في توحيده في عبادته في إخلاصه، في أعماله الباطنة، وفي أعماله الظاهرة، وهذا ما بينته سورة الأنعام شاملاً قبل ذلك في أواخر آياتها بقوله تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝ لَا شَرِيكَ لَهُ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ۝ ﴾ [الأنعام: ١٦٢-١٦٣]، وهذا واضح تمام الوضوح في البرهنة على عصمته ﷺ، إذا من كان أول من أسلم، وكانت صلاته ونسكه ومحياه ومماته لله، حتى مماته فمتى يكون للشيطان وأنى يكون له عليه أدنى سبيل أو سلطان، فمتى يعصى ربه؟!

ذكر الفخر الرازي، وهو بصدد تفسير هذه الآيات معنى شبيهًا فقال: «في قوله تعالى: ﴿ وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ ۝ ﴾ التنبيه على كونه رسولاً من عند الله واجب الطاعة، لأن أول المسلمين في شرائع الله لا يمكن أن يكون إلا رسول الله، لأن أول من يعرف تلك الشرائع والتكاليف هو الرسول المبلغ.»[١]

ثالثًا: ذهب جمع من المفسرين بأن الأمر بعبادة الله تعالى مخلصًا فيها؛ إنما هو علة ليكون أول المسلمين، فمتعلق ﴿ أُمِرْتُ ﴾ محذوف لدلالة قوله: ﴿ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ ۝ ﴾، والنبي ﷺ كان قد بالغ أشد المبالغة في العبادة من قبل نزول هذه الآيات عليه – كما في سورة طه – وهي متقدمة على كل هذه السور التي فيها الأمر بأن يكون أول المسلمين[٢] حتى واساه ربه بقوله: ﴿ مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَىٰ ۝ ﴾ [طه: ٢] كما سيأتي في موضعه إن شاء الله تعالى وقد علمنا من سورة المزمل والمدثر اجتهاد النبي عبادة ودعوة من أول يوم بعثه

١- الفخر الرازي "التفسير الكبير" (١٣/ ٤٠٣).

٢- ترتيبها عند السيوطي مثلاً (٤٤) فهي متقدمة على الأنعام ويونس والزمر اللاتي معنا.

الله تعالى فيه.

وهذا يبين الأسوة الحسنة للمؤمنين المتقين من وجهين:

الأول: إذا كان النبي في هذا المقام العالي، وأمر بذلك فمن باب الأولى أن يكون المؤمنون سالكين سبيل الاجتهاد كذلك.

الثاني: وهو خوفه ﷺ من المعصية الواحدة لهول العذاب - كما تدل عليه الآيات - فكيف الحال بباقي الخلق المؤمنين فمن دونهم من المشركين.

ولذلك رأينا تكرير قوله ﴿ وَأُمِرْتُ ﴾ تنويهًا بشأن المأمور به الثاني، وإظهارًا لأهميته، حيث عطف على ﴿أُمِرْتُ﴾ الأول، وليس ذلك تكريرًا محضًا لسببين:

الأول: أن أمرت الأول لبيان المأمور، وذكر الأمر الثاني لبيان المأمور لأجله بضميمة قيد التعليل.

الثاني: أن قوله في الأول: ﴿ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ ﴾ أن العبادة لها ركنان عمل القلب، وعمل الجوارح، وعمل القلب أشرف فقدم على عمل الجوارح، وهو قوله ﴿ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿١١﴾ ﴾ ، وأما قوله ﴿ وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٢﴾ ﴾ فمن معاني الإسلام الأعمال الظاهرة كالصلاة وبقية الأركان كما في حديث جبريل عليه السلام فكان أمرت الأول بعمل القلب، والثاني بعمل الجوارح فلا تكرار إذن.

وكل ذلك يدلنا على اكتمال ما به يكون النبي ﷺ في نهاية العصمة، حيث أشارت الآيات إلى أمرين عظيمين:

الأول: يشاركه فيه غيره، وهو أن يعبد الله مخلصًا له الدين.

الثاني: يختص به، وهو أن يعبده كذلك ليكون أولَ المسلمين.

فأمره يبلغ الغاية القصوى في عبادة الله مخلصًا له الدين، والتي لم يبق معها فكر في معصية أو مخالفة فضلاً عن الهم والوقوع، فجعل وجوده متمحضًا للإخلاص على أي حال كان كما في الآية التي أشرنا إليها: ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾ ﴾ [الأنعام: ١٦٢-١٦٣][١] وتبقى معنا الآية الثالثة وهي: آية سورة يونس، لننظر فيها إذ هي تغطي زاوية أخرى في سياق العصمة، لتكتمل بذلك جوانب الموضوع من حفظ النبي ﷺ وهو الجانب المتعلق بالقرآن الكريم، وتبليغه كما هو، وأنه ليس له أن يقدم فيه أو يؤخر، فضلاً عن أن يزيد أو ينقص، أو يبدل، أو يغير، وما كان له ذلك، وهذا الموضع هو قوله تعالى: ﴿ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَٰذَا أَوْ بَدِّلْهُ ۚ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِي ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ ۖ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ ﴾ [يونس: ١٥].

ونلاحظ في الآية ما يلي:

أولاً: أن سورة يونس في ترتيب النزول قبل سورتي الأنعام والزمر[٢] وذلك موافق للسياق العام لدعوة النبي ﷺ فبعد تقرير أن القرآن الكريم من عند الله، تأتي الأوامر بالتوحيد، والعبادة وغيرها، وساعتها يؤمر النبي بقوله: ﴿ قُلْ إِنِّي أَخَافُ ﴾ ، ﴿ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ ﴾ ، وغير ذلك من الآيات التي تنبني في محاجتها للمشركين، بل

---

[١]- انظر لما سبق الفخر الرازي، "التفسير الكبير" (١٣/٤٠٣)، وانظر أبا السعود "إرشاد العقل السليم" (٢/٤٦١)، الألوسي "روح المعاني" (١٣/٣٦٨-٣٧٠)، والطاهر بن عاشور "التحرير والتنوير" (٢٤/٣٥٧)، وغيرهم كأبي حيان "البحر المحيط" (٤/٤٥٤).

[٢]- هي السورة رقم (٥٠) في ترتيب السيوطي، انظر عزة دروزة (١/١٥٥).

وللعالمين على صحة رسالته، وصدق نبوته، إذ أثبت قبل ذلك بالتحدي الذي لم يرد لم يبق إلا العمل والتمسك به، والدعوة إليه.

ثانيًا: إن المشركين طلبوا تغيير هذا القرآن، أو تبديله، وكان من اليسير عليه لو كان ذلك بيديه ﷺ أن يفعل ذلك بدلاً من هذا العناء والشقاء، ولكنه رد عليهم ردًا واضحًا لا لبس فيه، وواجههم مواجهة لا مواربة فيها، حاسمة قاطعة لا رجوع عنها، بل لا انثناء لها بأمور هي أركان دعوته وأساسها، وأنه لا يمكن له تحت أي سبب أو ضغط أن يحيد عنها، ولا قيد أنملة، هذه الأمور هي:

الأول: قوله: ﴿ مَا يَكُونُ لِيَ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآيِٕ نَفْسِيٓ ﴾ ليستنبطوا ما يريد أن يؤكده لهم وهو، أن هذا القرآن ليس من عنده، إذ اقتراحهم أن يغيره أو يبدله له معنى صريح هو، الإتيان بقرآن آخر، ومعنى كنائي التزامي وهو، أنه غير منزل من عند الله ﷻ، فكان تلقين الله إياه يحمل الردين معًا، ويثبت في ذات الوقت، وكل وقت أن ذلك لم يحدث، ويتلى إلى أن تقوم الساعة أنه ليس من تلقاء محمد ﷺ، ويبين هذا الكلام معنى دقيقًا أنه لم يكن له ﷺ أن يبدل ولا حرف واحد من هذا القرآن، أو يغيره، أو يحذفه، أحب أو كره، تحت أي ظرف من الظروف، أو حدث من الأحداث، مما يبين على صحة القرآن جملة وتفصيلاً، وأنه منزل من عند الله كما بلغه النبي ﷺ.

الثاني: من أمور رد الرسول ﷺ في الآية قوله: ﴿ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ ﴾ فهو مبلغ عن الله تعالى ما يوحِي إليه به،شاءوا أم أبوا، آمنوا أو كفروا، لن يغير ذلك من موقفه شيئًا، وهو منتظر في ذلك حكم الله بينه وبين العالمين، وهو ما يدل على عصمته في تبليغ كلام الله، أوامره ونواهيه، توحيده وعبادته، سلمه وحربه، حياته ومماته، لا يستطيع، وما كان له أن يقول حرفًا واحدًا من عنده لأنه يدخل في التبديل، وذلك أبلغ ما يكون في إظهار عصمته،

وهي علامة باقية إلى يوم القيامة، وبعد مماته ﷺ، ما استطاعت الدنيا - كما أخبر أن تغير مما قال شيئًا - ومن ادعى القول فضح به وظهر كذبه.

والكلام يشير إلى عصمته بإشارة أخرى، وهو في جملة: ﴿ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ ﴾ حيث هي تعليل لجملة ﴿ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ ﴾ أي ما أتبع إلا الوحي، وليس لي تصرف بتغيير[1]، واتباع الوحي: تبليغ الحاصل به وعدم تجاوزه في الاقتفاء، أي عملاً وتبليغًا، إذ الاتباع مجاز في عدم التصرف، بجامع مشابهة ذلك للاتباع الذي هو عدم تجاوز الاقتفاء في المشي.

وإن دل ذلك دل بوضوح على أنه في التزامه أوامر الله وتبليغها لا يتزحزح فيها قيد شعرة عما يوحى إليه، وما كان، وبالتالي لن يكون، وهي العصمة الكاملة للنبي ﷺ باتباعه التام والكامل والدائم للوحي المنزل عليه والذي لا حول له فيه ولا تصرف، ومن ثم قال في الآية التالية: ﴿ قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ ۖ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦﴾ ﴾ [يونس: ١٦][2].

الثالث: وهو في قوله جل وعلا: ﴿ قُلْ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ ﴾ وهي واقعة في موضع التعليل لقوله: ﴿ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ ﴾ وهي قاطعة لأطماع المشركين، ولكل أحد يروم محادة الإسلام، سواء بتغيير هذا القرآن أم تبديله أم العودة إلى دين المشركين كما طلبوا منه ﷺ، أم بمهادنتهم بترك الاستهانة بآلهتهم، أم بعصيان الله تعالى أي

---

[1]- انظر الطاهر بن عاشور "التحرير والتنوير" (١١٨-١١٩/ ١١).

[2]- وجملة "من تلقاء نفسي" ليس معناه أنه يجوز أن يبدل من تلقاء الله تعالى التبديل الذي يرومونه، ودل السياق أن الإتيان بقرآن آخر بمعنى إبطال هذا القرآن وتعويضه بغيره، وأن تبديله بمعنى تغيير معاني وحقائق ما اشتمل عليه ممتنع. انظر لذلك الطاهر بن عاشور "التحرير والتنوير" (١١٨-١١٩/ ١١).

معصية كانت لأن ذلك مؤداه إلى عذاب لا قبل لأحد به، فهو مانع أي العذاب لمن كان في مقام الرسول القدوة أن يخالف أي مخالفة أو أدنى مخالفة كانت لذلك الوحي، مما يؤكد بما لا شية فيه عدم وقوع ذلك منه، وهو الصادق الأمين ﷺ كما سماه المشركون أنفسهم، وتلك هي العصمة الكاملة.

الباب الثاني

الرســـــول

صلى الله عليه وسلم

في مكــــــة

الفصل الأول

من المولد إلى البعثة

تمهيد

وهذا أوان البحث فى سيرته العطرة ﷺ، وقد اعتمدت على النقد التاريخي الذي سبق إليه المسلمون في تمحيص صحة الأخبار ونقدها، مع مقارنة تلك الأخبار بالوارد في القرآن الكريم، مع الدراسة النصية والتحليلية لهذين المصدرين، لاستنباط ما تشير إليه النصوص في كلٍّ، مع الاتكاء على التفسير الموضوعي لآيات القرآن الكريم فيما يعد جديدًا – في ظني – لبحث السيرة، مع إضافة جديد آخر كرر بعد ذلك وهو دراسة ما حدث للأنبياء من قبل، وما وقع لهم ليكون دليلاً صادقًا فيما يمكن أن يقع للرسول ﷺ وأصحابه.

ركزت على نقد "مونتجمري وات"[1] – في النقد التاريخي، وبينت خطأه وخطله لتكون إضافة تتسم بالجدة، ليكتمل بذلك هذا التصور لرسالة حديثة في بحث السيرة، حاولت أن تلم بعناصر البحث كافة – ما وسعها الجهد – وتوفرت لها الطاقة.

وقد اختار الباحث هذا (العنوان) لهذا المبحث، لكون كثير من الكاتبين في السيرة من مسلمين ومستشرقين، جعلوه عنوان هذا الجزء من حياته، وما شمل من سيرته ﷺ وليكون متناسبًا أو موافقًا لهم، خاصة مع المستشرقين منهم، في الرد عليهم وتبيين الحق فيما انتهوا إليه، مما يخالف ما انتهيت إليه، معتمدًا على التحليل التاريخي الذي زعموا، ليظهر بذلك عدم الإنصاف وضعف الأمانة العلمية فيما وصلوا إليه، أو بتحري الدقة – كما سيتضح – فيما أرادوا أن يصلوا إليه.

---

1 – تم ترجمته فى الباب الأول.

وإن هذا الفصل كسابقه يأخذ التنزل التاريخي للقرآن الكريم في الاعتبار وذلك أدعى لمواءمة هذا التدرج في السيرة من المولد إلى البعثة... وليوضح تلك العلامات البارزة وغير البارزة في سيرته ﷺ كما يقولون.

من الجدير أن أقول – بحق هنا –: إنني لم أمتثل لعقدة الخواجة التي روج لها في بلاد الإسلام ذيول المستشرقين والمستغربين في دراسة السيرة وغيرها من علوم الإسلام، ولكنني ملت إلى الحق والإنصاف – واضعًا نصب عيني البحث ما وصل إليه المسلمون من صحيح الأخبار، آخذًا بها، ضاربًا عرض الحائط بما يخالفها مما لا وجه له من كلام المستشرقين خاصة إذا كان يظهر العلم والأمانة، ويبطن التعصب الذميم، والتحامل الفج، مع سوء التوجيه للأخبار والمواقف، والتطاول وعدم الأدب مع القرآن الكريم والرسول المعظم ﷺ، مع نقد هذا الكلام و هذه الآراء في نفس الوقت نقدًا نزيهًا، يرمي إلى تبيين الصواب ودحض الخطأ والباطل.

ثمة عنصر جديد آخر قد أضيف إلى البحث، وهو الاستدلال بما وقع للأنبياء وأتباعهم على كون مثله يمكن أن يحدث للنبي ﷺ وأصحابه، إذ إن الله قد أمره بأن يصبر كما صبر أولو العزم من الرسل، كما سنبين ذلك في مواضعه إن شاء الله تعالى، علاوة على أن قصصهم كان عبرة لأولي الألباب، وبالتالي فمن باب الأولى أن تكون سيرته العطرة كذلك، ومن ثم كان إثبات أن مثل هذه الأحداث قد وقعت للنبي ﷺ وأصحابه مما لا جدال فيه، ودليله كما يبدو إجمالاً الآن، وتفصيلاً بعد ذلك في غاية القوة. وفيه كذلك رد من القرآن الكريم نفسه على نفاة تلك الوقائع أو الاعتراض تاريخيًا أو غيره على صحة هذه الأحداث.

ونبدأ بعرض السيرة النبوية، مع ما ذكرنا:

المبحث الأول

نسـبه ﷺ

أما نسبه الذي يسوقه علماء النسب ﷺ فهو: "محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصي بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة بن خزيمة بن مُدركة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معدّ بن عدنان".

وأما أمه فهي: "آمنة بنت وهب" من بني زهرة، ويلتقي نسبها مع نسب أبيه في كلاب بن مرة.

وقد أجمع النسابون على نسبه ﷺ إلى عدنان - وإن لم ينقل على طريقة نقد المحدثين المسلمين للروايات التاريخية وغيرها حديث صحيح بكامل نسبه[1] ولكن صحت أحاديث ببعضها.

على أن اهتمام العرب في تلك الفترة الشديد بمعرفة أنسابها، يؤكد أن سلسلة نسبه إلى عدنان موثقة، لكونها معلومة بالضرورة في ذلك العصر، خاصة وأن علماء النسب والأخبار متفقون عليها، ولم يخرج أحد منهم أو من غيرهم يتكلم ولو في واحد من نسبه

1 - سوف نعتمد على نقد الروايات على طريقة المحدثين المسلمين، إذ هي بعد بحث في نظرنا أقوى وأصح ما يعتمد عليه من قواعد في تصحيح وتزييف أي نقل كان حيث لم يسبقهم إلى ذلك أحد، ولم يدانيهم في الوصول إليه أحد.

بإثبات أو حذف، ومثل ذلك توثيق لا يحتاج معه لغيره.

أما نسبه ﷺ من عدنان إلى آدم عليه السلام فمختلف فيه، وليس فيه ما يعتمد عليه، وأما ما لا خلاف عليه أن عدنان من نسل إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام.[1]

ورسول الله ﷺ مصطفى نسبًا وزمنًا ونبوة، فالنبوة قال تعالى: ﴿ ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ ﴾، وأما اصطفاء النسب فقوله ﷺ في الحديث الصحيح: «إن الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل، واصطفى قريشًا من كنانة، واصطفى من قريش بني هاشم، واصطفاني من بني هاشم»[2].

ولم يستطع أبو سفيان بن حرب إلا أن يعترف مع عداوته له بأنه ﷺ من أعلى وأطهر أهل الأرض نسبًا وأشرفهم قبيلة، وذلك أمام هرقل لما سأله عن رسول الله ﷺ: «كيف نسبه فيكم؟ قال أبو سفيان: هو فينا ذو نسب فقال هرقل: فكذلك الرسل تبعث في نسب قومها»[3].

1- انظر لما سبق صحيح البخاري (٢٣٨/ ٤)، ود. أكرم ضياء العمري "السيرة النبوية الصحيحة"، مكتبة أضواء البيان (٩٠) ط٥ ١٤٢٤هـ، ٢٠٠٣م، "السيرة النبوية" مهدي رزق الله (١٠٥)ط١ ١٤١٢هـ، ١٩٩٢م وغيرها.

2- مسلم (٢٢٧٦) كتاب الفضائل، باب فضل نسب النبي ﷺ وتسليم الحجر عليه قبل النبوة.

3- صحيح البخاري بدء الوحي (٣١/ ١).

المبحث الثاني

مولـــــده ﷺ

وقد ولد ﷺ عام الفيل حيث حاول أبرهة الحبشي أن يهدم الكعبة عندما بنى كنيسة باليمن ليحجها العرب بدلاً منها، وكان ذلك عام ٥٧٠م أو ٥٧١م[1]، وقد ولد ﷺ يوم الاثنين الثاني عشر من ربيع الأول، أو التاسع على رأي بعض الدراسات الحديثة[2]، وهذا أمر مجمع عليه[3] إذ حادثة الفيل مذكورة في القرآن الكريم بقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ ﴿١﴾ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِى تَضْلِيلٍ ﴿٢﴾ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ﴿٣﴾ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ﴿٤﴾ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ﴿٥﴾﴾ [الفيل: ١-٥].

لا تكاد الروايات التاريخية تخرج عن الوصف القرآني إلا في تحديد جزئيات يسيرة رواها بعض صغار السن من الصحابة عمن عاصر تلك الفترة كابن عباس وعبيد بن عمير من الصحابة وغيرهما، فقد رأت السيدة عائشة رضي الله عنها قائد الفيل وسائسه أعميين يستطعمان الناس بمكة[4].

1- جواد علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام (٤٤٣/ ٩).

2- الباحث محمود باشا الفلكي فيما ذكره الخضري في محاضرات في تاريخ الأمم الإسلامية (٦٢/ ١)، كتاب محمود باشا: "نتائج الأفهام في تقويم العرب قبل الإسلام" (٢٨-٣٥)، ط بيروت.

3- تاريخ خليفة وكل كتب السيرة تذكر مولده عند حادث الفيل؟!

4- ابن هشام "السيرة" (٧٥/ ١)، خليفة، "التاريخ" بسند حسن.

ذهب بروكلمان إلى التشكيك في مولده ﷺ حيث ذكره أنه قبل عام الفيل بعشر سنوات محيلاً ذلك على الأب هنري لامانس، حيث وصف "وات" نفسه هذا الهنري بشدة التطرف في تناول السيرة، وكتاباته وغيره تثير الغثيان[1]، وما ذلك منه إلا لسلب دعوى النبوة عنه ﷺ حيث لا يكون سنه عند الرسالة أربعين عامًا، والرسل تبعث في سن الأربعين؛ مما يدل على عدم صحة النبوة، هكذا بغير بينة ولا برهان يغير هذا المؤلف التاريخ ويخترع روايات لا أصل لها، ليصل بها إلى ضلاله كل ذلك باسم العلم[2] وقد صح بما لا شك فيه أن رسول الله ﷺ صدع بالدعوة عند سن الأربعين، ولم يخالف في ذلك أحد من العالمين حتى جاء لامانس فاخترع هذا الكذب على الله وعلى التاريخ وعلى الناس[3].

ولد رسول الله ﷺ يتيمًا، فقد مات والده وأمه حامل به، وهو المشهود الذي تقطع به الآية القرآنية الكريمة: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ ۝﴾[الضحى:٦] وهو أبلغ اليتم وأعلى مراتبه[4]، وبذا شاء الله تعالى أن ينشأ ﷺ كذلك ليتربى بعيدًا عن أبيه وأمه وجده، وأن يقضي معظم طفولته في بادية بني سعد مسترضعًا فيهم لإبعاد الريبة، وإيهام الناس أن نبوته إنما هي توجيه وإرشاد آبائه حيث مكانة جده العالية في مكة حينئذ.

وإنما يتمه كذلك أسوة في كل زمان ومكان ليعرفوا أن اليتم ليس بلاء يمنع صاحبه من الوصول إلى أعلى المراتب دنيا وأخرى، ولنفرض أن عبد الله أباه ﷺ بقي حيًا! فماذا عسى كان

1- "وات"، "محمد في مكة" (٤٤)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ترجمة عبد الرحمن الشيخ، وحسين عيسى، مراجعة د.أحمد شلبي.

2- بروكلمان، "تاريخ الشعوب الإسلامية المعرب" هامش (٣٢).

3- انظر ابن سعد: "الطبقات الكبرى" طبعة الطبري (٢٠٢/ ٢)، ابن حزم: "جوامع السيرة"، تحقيق إحسان عباس وناصر الدين الأسد(٥)، وابن القيم "زاد المعاد" ط الرسالة (١/ ٨٤)، ابن سيد الناس، "عيون الأثر"، مجلد ١، (١١٠)، وغير ذلك.

4- انظر ابن كثير "السيرة النبوية" (٢٦٠/ ١).

يفعل لابنه؟ هل كان يمكن أن يهب له النبوة لو كانت كسبًا فكيف وهي اصطفاء؟ نعم الأب عنصر من عناصر شتى تؤثر في الطفل، وتحفر له في الحياة مجراه.[1]

وكان من عجيب الشأن أن سمي محمدًا حيث وردت روايات ضعيفة عن أمه وجده أنهما اللذان سمياه محمدًا، ولكن عموم سنة العرب مغنيًا عن النقل، حيث قيام عبد المطلب بابن ابنه اليتيم، وسروره به، سلوى عن عبد الله بن عبد المطلب مما لا يحتاج إلى إثبات، خاصة وأن تسميته محمدًا أعظم وأشهر شيء في تاريخ الإنسانية إلى زوال الدنيا، وختنه وعمل له وليمة على عادة القوم، لم تصح بذلك روايات نعم مع أنه ثابت مشهور مما يحتاج معه إلى نظر وتأمل في إثبات التاريخ مع منهجنا الذي سرنا عليه في التدقيق وإخضاع السيرة للنقد الحديثى إن ذلك يحل مشاكل كثيرة في نقد الرواية، وإثبات التاريخ والسيرة وغيرها بذلك[2].

إرهاصات مولده - صلى الله عليه وسلم:

وهي إرادة الله تعالى في الأمور العظام التي يقضيها شرعًا وقدرًا أن يُوَطِّئَ لها بين يديها مقدمات وتوطئات تؤذن بها، وتدل عليها، وسنضرب لها أمثلة تبينها وتوضحها إن شاء الله تعالى[3].

أولى هذه الأمور العظام في الدنيا والآخرة هي ولادته عليه الصلاة والسلام وقد تناول كتَّاب السيرة من مسلمين ومستشرقين هذه الإرهاصات وغيرها كلٌّ بحسب منهجه في

1- انظر مهدي رزق الله "السيرة النبوية" (١٠٩)، وكذلك محمد الغزالي "فقه السيرة"(٥٩).

2- نقد الروايات، ضعفها مع اشتهار الوقوع، فهل للواقع،والشهرة، وموافقة عادات القوم وغيرها لها تأثير في تصحيح وقوع الحادثة بغض النظر عن السند؟!

3- انظر ابن القيم، زاد المعاد، (٣٠٩ / ٣)، تحقيق شعيب الأرنؤوط، وعبد القادر الأرنؤوط، طبعة الرسالة.

معالجة السيرة، لأن المصادر مثلاً هي التي تشكل الرؤية المعرفية للباحث، مع قيمة البحث، أو بالاعتقاد المسبق فيما يكتب حيث يصل بنتيجة بحثه إلى ما يصبو إليه مما كان يعتقد، أو بنظرته وآرائه المكونة ابتداء، مع يقينه بصحة الموضوع في الجملة، والأخير هذا فعل المسلمين من المدرسة العقلية، كـ"محمد الغزالي" في"فقه السيرة"، حيث تحمل من عوامل التهافت والسقوط أكثر مما تحمل من عوامل العقل والإقناع والثبات، وسنبين ذلك في هذا المبحث وغيره، أما الأولون فيمثلهم المستشرقون، إذ ناقشوا وكتبوا بمنهج آخر لا يمت إلى إثبات الوحي بصلة، ونفي علاقة السماء برسول الله ﷺ مما حوّل البحث إلى بحث مادي علماني وإن ادعوا التوحيد، وظهر بالتالي أن مقصود بحثهم هو الطعن في محمد والإسلام، وتجريده من صفات المرسلين ودعوة النبيين، ونسف النبوة عنه، والتشكيك في كل ما يدور حول ذلك، لابسين في ذلك سرابيل العلمية والإنصاف، وأمثلهم في هذا السوء هو "وات" الذي يسمي قول وبحث إخوانه من المستشرقين بالغثيان وشدة التطرف فجاء ليقول قولهم ويصل بنا إلى نتائجهم، ولكن بدون غثيان يذكر، أو شدة يلحظها غير المدقق والمحقق.

وباقي الكاتبين المسلمين فمدرستان:

الأولى: قبلت كل ما جاء في كتب المتقدمين من هذه الإرهاصات ودافعت عنها وبعضهم رد على المستشرقين في إثبات ذلك[1]، وقد جمعوا ما صح وما لم يصح من الروايات والآثار، حيث هالهم سوء صنيع هؤلاء، ومخالفتهم للعقل والواقع، وتشكيكهم فيما ارتضوا هم أنفسهم من مصادر السيرة الإسلامية حيث لا يملكون في بحثهم سواها، مع اختراعهم في آخر الزمان لأحداث لم تقع وبنوا عليها للأسف ما أرادوا التوصل إليه من نتائج.

1- منهم عبد الله محمد الأمين في أطروحته للماجستير "الاستشراق في السيرة النبوية".

الثانية: وهي مدرسة جد حديثة تقوم على تمحيص الروايات، وقبول الصحيح، ورد الضعيف مهما كان مساعدًا في إثبات قضايا التاريخ والسيرة، إظهارًا للحق وإنصافًا للحقيقة، حتى وإن تهلل لها المستشرقون، لأن اعتقادهم في صحة منهجهم، وإثباته بالصحيح من القول ينتهي بهم إلى نزاهة النتيجة وقوة برهانها، وهي مغايرة تمامًا لنتيجة المستشرقين لأن هذه منبنية على التضليل مع الترصد وسبق الإصرار وغير ذلك، بل هي نتيجة معدة سلفًا بخلاف تلك.

قبل بداية البحث في هذه النقطة نذكر بما زدناه جديدًا في الرسالة من المقارنة مع القرآن الكريم لنندلل على صحة ما نود الوصول إليه، وكان التأمل في هذه النقطة بالذات مثار عجب الباحث، إذ كانت وحدها كافية في إثبات إرهاصات المولد النبوي الشريف، بأكثر مما ادعى أصحاب المدرسة الأولى نفسها التي جمعت الغث والسمين، وبالتالي ردت على أصحاب المدرسة العقلية من المسلمين، ومتبوعيهم من المستشرقين (نسميها بالحق مدرسة الادعاء العقلي) وسيكون القرآن الكريم عمدتنا في السيرة مع ما صح من نقد الروايات بعد ذلك في هذه الرسالة بفضل الله تعالى، إذ هو الدليل والمدلول عليه.

ونبدأ بما روي عند ولادته ﷺ وما بعدها من إرهاصات، نذكرها بترتيبها الزمني بعد ذلك كما التزمنا، وكما هو يتناسب مع كُتَّاب السيرة.

لقد رويت قصص وأخبار حول صفة حمل أمه به، وأنها لم تر أخف ولا أيسر منه، وأنها رأت بشارة بجليل مقامه، وأُمرت بتسميته محمدًا، كما وردت أخبار ذكروها تفيد أنه "وقع حين ولادته معتمدًا على يديه، رافعًا رأسه إلى السماء"، وأنه ولد مختونًا، أو ختنه جبريل عليه السلام.

ورويت روايات حول هواتف الجان في ليلة مولده، وتبشيرها به، وارتجاس إيوان

كسرى وسقوط أربع عشر شرفة من شرفاته، وخمود نيران المجوس، وغيض بحيرة ساوة. وهذه هي الأخبار الضعيفة والموضوعة مع الخلاف في صحة بعضها.

أما ما احتف بمولده ﷺ من صحيح الأخبار وحسنها، فمنها قوله هو ﷺ: «أنا دعوة أبي إبراهيم، وبشرى عيسى، رأت أمي حين حملت بي كأن نورًا خرج منها أضاءت له قصور بصرى من أرض الشام».

وإخبار يهود بليلة مولده وكذلك قصة الفيل توطئة وإرهاصًا لظهوره، حيث دفع الله تعالى نصارى الحبشة عن الكعبة دون حول من العرب المشركين تعظيمًا لبيته[1].

بقي النظر وتحليل هذه الأخبار..

ذهب أصحاب المدرسة الإسلامية الأولى إلى ورود وصحة بعض هذه الروايات، خاصة بسبب وقوع الاجتهاد في التصحيح والتضعيف مع أصحاب المدرسة الإسلامية الثانية، مما جعلهم يحتجون بهذه الروايات على المستشرقين، خاصة وأن المستشرقين يعتمدون نفس المصادر، ومن ثم تجاهل "وات":

أولاً: هذه الأخبار كلها، وليس له من دوافع إلا أنه لا يمكن أن ينكر مصادره التي يتكأ عليها في أبحاثه.

ثانيًا: أنه أعتمد المنهج الانتقائي فما يشعر من بعيد أنه يؤيد دعواه - ولو كان غير صحيح - يذكره ويبني عليه قصصه الكوميدية والتراجيدية، كتفسير آيات سورة النجم، وما ينكر دعواه ويغلق قضيته إما أن يتعامى عنه أو يشكك في صحته، ومن هذا تلك الإرهاصات عند ولادته الشريفة ﷺ لأنه بإثباتها يثبت ما سعى حثيثًا في كل أبحاثه، بل

1 - ابن القيم، "زاد المعاد" (٧٦/ ١)، القسطلاني، "شرح المواهب اللدنية" (١٣٠/ ١).

بطول حياته وعرضها أن يدحضه، وهي دعوى نبوة النبي ﷺ.

كان رد أصحاب المدرسة الأولى مع ذلك قويًا[1].

أما أصحاب مدرسة التدقيق في قبول الروايات فيكفيهم ذلك الصحيح، وإن كانوا يعتقدون بوقوع إرهاصات عمومًا تمهيدًا لمجيء النبي ﷺ؛ لأن تلك سنة الله تعالى في إرسال رسله، ثم هم يؤمنون بمحمد نبيًا ورسولاً بما لا يحتاج معه إلى تأكيد.

ومعركتنا العقلية والعلمية إذاً والتي سنطيل القول فيها، هي مع العقلانيين - زعموا - ومتبوعيهم من المستشرقين لتبين الأساس الحق لهذه القضايا عمومًا.

زعم الشيخ محمد الغزالي، وهو مؤمن بالرسالة والوحي الإلهي لرسول الله ﷺ أن محمدًا ولد بمكة ولادة معتادة، لم يقع فيها ما يستدعي العجب أو يستلفت النظر.

وقال أيضاً: (وقد روى البعض أن إرهاصات بالبعثة وقعت عند الميلاد، فسقطت أربع عشرة شرفة... إلخ).

(وهذا تعبير غلط عن فكرة صحيحة، فإن ميلاد محمد كان حقًا إيذانًا بزوال الظلم واندثار عهده واندكاك معالمه).

(ورسالته أخطر ثورة عرفها العالم للتحرر العقلي والمادي).

(ومحمد غني عن هذا كله، فإن نصيبه الضخم من الواقع المشرف يزهدنا في هذه الروايات وأشباهها).[2]

---

1 - عبد الله النعيم، "الاستشراق في السيرة النبوية"، (٦٠).

2 - انظر محمد الغزالي، "فقه السيرة"، (٥٨-٥٩).

وهذا الملخص هو اعتقاد الشيخ في هذه القضايا وأشباهها، مع زيادة تعبيرات طفيفة لدوافع ذلك هنا أو هناك، وكل ذلك لا يزيد عن كونه التأثر بعقدة الخواجة بل هو كلامه خاصة عند تفسيره الإنشائي بأسلوبه الخطابي لعلم النبي ﷺ بما أطلعه عليه سبحانه من الغيب، وبما أيده به من معجزات.

ونحن نرد عليه ردًا لمن تبع من المستشرقين دفاعًا عن السنة، وبالتالي عن الإسلام وإن كان لا يحتاج دفاعًا خاصة من أمثالنا، إذ هو لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وقد يرى بعض فى ذلك إظهارًا للتلبيس في ثوب العقل، والتضليل في سربال العلم، وإن كان هو لا يقصد ذلك، وقد وجدنا مغبة ذلك وعاقبته في مسلمين بكل سهولة يدفعون الدين، ويردون السنة بدعوى مخالفتها للعقل، وإن فلانًا قد قال، ورد ذلك، وإن ذلك مخالف للعقل، ولا يمكن أن يأتي الإسلام بهذا أو أن يأمر بذاك... إلى آخره مما صار الدين معه متعلقًا بعقول الناس وأصبح التشريع أصولاً وفروعًا موكولاً إليها، لا إلى الله ورسوله ﷺ مما سهل الغزو الفكري لأهل الكفر، وصارت التبعة والعمالة الفكرية لهم فيما ذهبوا إليه، حيث وفر ذلك عليهم الغزو العسكري، وإن كان فقد سبقه الاستسلام الفكري والخواء الروحي، حيث دمرت حصون المسلمين من الداخل.

نعود لنناقش الشيخ من كلامه هو أولاً، ثم نبين كيف عالج القرآن الكريم هذه القضايا.

يقول الكلام في الإرهاصات تعبير غلط عن فكرة صحيحة، فإن ميلاد محمد كان حقًا إيذانًا بزوال الظلم...

وهذا كلام متهافت مغالط للواقع للأسف، فبحثنا هل حدثت إرهاصات عند مولده أو لا؟ ولم نقل هل كان مولده إيذانًا بزوال الظلم... أم لا؟ لأن هذا رجم بالغيب ادعيته

وأنت المنكر لعلم الغيب للرسول فضلاً عن غيره.

ثانيًا: من الذي أدرى الموجودين أيامها أن هذا المولود الذي ولد ولادة عادية سيزول الظلم على يديه، ومن كان يستطيع أن يدعي ذلك إلا ضاربو الودع الذين يمقتهم الشيخ، أي بعد أن زال الظلم بدينه ودعوته وجهاده في سنين طويلة تجيء لتقول كان مولده كذا، تراك لو كنت موجودًا حال مولده كنت ستقول بأن هذا الآتي إلى العالم سيدك معالم الظلم، على أحسن الأحوال ستجد من يردك تكذيبًا لك.

ثم يواصل مسلسل الإنشاء بأن رسالته أخطر ثورة... وهي ألفاظ غريبة على الحس الإسلامي نفسه بعد ذلك، وهو كلام في غير محله، يراد به كلامٌ في محله ولو قلنا بقولك لكان أصحاب الإرهاصات أقوم قيلاً، لأنهم لو قالوا هذا المولود الذي صاحبته هذه الإرهاصات سيكون له شأن، لكان لهم دليل على قولهم يوم لم يكن لقولك شبهة دليل.

وتستحكم عقدة الخواجة بقوله محمد غني عن هذا كله، فإن نصيبه الضخم من الواقع المشرف يزهدنا في هذه الروايات وأشباهها.

إن النصيب الضخم له من الواقع المشرف هنا أشبه بكلام "وات" عندما أراد أن ينفي عنه ﷺ أنه أرسل لكسرى وقيصر للدخول في الإسلام فيقول: (إن مثل هذا الحكيم والسياسي الداهية لا يمكن أن يدعو قيصر الروم والإمبراطور الفارسي للدخول في الإسلام)[1]. وهو يحاول بذلك هدم فكرة عالمية الدعوة.

هذه المقولة تُشعر أيضًا بعدم دخول النبوة واصطفائها في حسابه وإن البشر العاديين يمكن أن يكون لهم نصيب ضخم ... إذاً ما الفارق؟!

---

1 - انظر عبد الله النعيم "الاستشراق في السيرة" (٤٥).

ثم نعود فنسأل متى عرفت هذا النصيب الضخم ومن الذي أدراك به، وبحثنا هل حدث ذلك عند ميلاده أم لا؟ إن الذين نقلوا لك هذا النصيب الضخم هم في مجملهم من نقلوا هذه الإرهاصات فلماذا التحكم؟ وما التحكم إلا بالهوى المغلف بالعقل المدعوم بعقدة الخواجة.

ونعود إلى القرآن الكريم لنبين أن الإرهاصات العظيمة مع مولد عظماء الدنيا والآخرة هي إرادة الله تعالى المتبعة، وأن ذلك واقع لا خلاف عليه، وما يمكن ليقع ذلك في خلقه سبحانه عبثًا لا حكمة فيه أو لا معنى له، وإن ذلك الواقع الذي ذكره القرآن الكريم مع بعضهم لا شك وقع مع سيدهم وسيد البشر سيدنا محمد رسول الله ﷺ، ونذكر اثنين من رسل الله وقع في ميلادهم شيء من عظيم الإرهاص، عيسى وموسى عليهما وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام، ندلل بهما على ذلك.

ونبدأ بعيسى عليه السلام لقرب عهده من النبي ﷺ، ولكثرة المتنسبين إليه اليوم ولنرد من خلاله على "وات" حيث يدعي هنا التوحيد، حتى إذا جاء لرسول الله ﷺ انقلب التوحيد إلى مادية وعلمانية، وهي إحدى أسس "وات"[1] وغيره في التعامل مع السيرة، ونحن نغفل من بحثنا من اتسموا بالوقاحة والتدني الخلقي.

أوائل الآيات التي نشير إليها هي في سورة مريم لقوله تعالى: ﴿ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَـٰبِ مَرْيَمَ إِذِ
ٱنتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ﴿١٦﴾ فَٱتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿١٧﴾ قَالَتْ
إِنِّىٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَـٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ﴿١٨﴾ قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَـٰمًا زَكِيًّا ﴿١٩﴾ قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى
غُلَـٰمٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴿٢٠﴾ قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَىَّ هَيِّنٌ ۖ وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا ۚ
وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴿٢١﴾ ۞ فَحَمَلَتْهُ فَٱنتَبَذَتْ بِهِۦ مَكَانًا قَصِيًّا ﴿٢٢﴾ فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ قَالَتْ
يَـٰلَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَـٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴿٢٣﴾ فَنَادَىٰهَا مِن تَحْتِهَآ أَلَّا تَحْزَنِى قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴿٢٤﴾ وَهُزِّىٓ

1 – وهي تعامل "وات" المادي والعلماني مع السيرة، بعد أن أشرنا إلى الهدم والبناء وإلى التشكيك.

إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴿٢٥﴾ فَكُلِي وَٱشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا ۖ فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِيٓ إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا ﴿٢٦﴾ فَأَتَتْ بِهِۦ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُۥ ۖ قَالُوا۟ يَٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا ﴿٢٧﴾ يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴿٢٨﴾ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ ۖ قَالُوا۟ كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا ﴿٢٩﴾ قَالَ إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَٰنِي بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴿٣٣﴾ ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ۚ قَوْلَ ٱلْحَقِّ ٱلَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٣٤﴾ ﴾ [مريم:١٦-٣٤].

ونحن فقط نقرأ النص نتلمس فيه مواضع الإرهاص، مع المقارنة عند الضرورة ببقية النصوص، إذ ليس المقصود تفسير هذه الآيات إلا ما يتعلق بالسيرة ولولا إقرار هذا الأساس الثابت في فهم سيرة النبي ﷺ، لم يكن لهذه القصة بنا تعلق.

إن أول ما يصادفنا في الآيات الكريمات هو تمثل الملك – روح القدس – المعبر عنه بروحنا[1] بشرًا وفيها أن الله جل وعلا يمكن أن يرسل لامرأة فضلاً عن رجل يوحي إليه بملك، وأن يكون الملك هو جبريل ويأتي في صورة الإنسان السوي، يخاطب فيها الإنس جهارًا بما شاء من أمر الله، أو أن يوقع بهم مراد الله تعالى، وفي حق مريم يقول: ﴿ قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا ﴿١٩﴾ ﴾، أفلا يُعد مجيء جبريل على هذا النحو إرهاصًا يبشر بعيسى وإيذانًا بحلوله هذا العالم، حيث يؤكده أنه جاء ليهبها الغلام الزكي عليه السلام، فهو توطئة لمجيء السيد المسيح وقد هالها عليها السلام وكبر عليها أن تلد لغير زوج وهي من هي شرفًا وطهرًا وقنوتًا لله تعالى، وكان رد جبريل عليه السلام الذي يجب أن يصفع به في وجه العلمانيين والماديين والعقلانيين،(كذلك قال ربك هو علي هين)، فمثل هذه الإرهاصات وغيرها يعد بعيدًا في نظرهم العقلي القاصر سهل على أمر الله، لا راد لقوله ولا معقب لحكمه، إذا أراد شيئًا أن يقول له كن فيكون.

1- التحريم: ١٢.

وأن ما يقع فهو الدليل بين يدي الآية العظيمة التي ستملأ الدنيا بعد ذلك:

﴿ وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا ۚ ﴾، بين يدي النبأ العظيم الذي له حكمته، والفعل المبين الذي يدل به الرب على رسالته ونبوته ﷺ، وهو أمر قد قضى رحمة بالحكمة لا عبث فيه ولا لهو به.

ثم بعد ذلك يظهر من يرفع عقيدته ليقول لقد كانت ولادة محمد ولادة معتادة، ليس فيها وفيها، لا تفرق عن أي ولادة، وكأنه لو قال صاحبت ولادته مجيء جبريل، وحدث وحدث سيكفر بالله، ويمرغ بكرامة العقل التراب، ماذا تساوي تلك الإرهاصات في قوة الله وقدرته وعلمه وحكمته حتى يجادل فيها، وتنفي معانيها، إنها كانت لحكمة كما أراد الله الأولى معرفتها، بدلاً من التشكك في قوته التي لا تقهر، وعلمه الذي أحاط بكل شيء، وما هي إلا عقدة الخواجة والتبعية.

ونذكر هنا ما لا يصح بعد ذلك أن يغيب عن الذهن، بل يثبت في ذكر الباحث وغيره ويكون منه دائمًا على ذكر، ما وقع في سيرة النبي ﷺ من مثل ذلك، وأنه ليس خارجًا عن علم الله تعالى وقوته وحكمته وقدرته، وتمام رحمته، ومثاله الذي سيصادفنا توًا هو شق صدره الكريم ﷺ في ديار بني بكر عندما كان عند مرضعته حليمة السعدية وغير ذلك من المرات التي حدث له فيها ذلك.

ترى بعدما حدث مع مريم - عليها السلام - يمكن أن ننكر شيئًا من ذلك؟! بل أكثر منه وأعظم، وإن حدوث ذلك من المعتاد في أفعال الله تعالى، وأن الصحيح مقابلته بالتسليم، وفهم غايته وسمو وجاهته ووجهته، لا أن يتبع فيه الباحث وغيره المبشرين الذين كل همهم نفي الوحي وإلغاء النبوة ووصم النبي ﷺ بما لا يعقل رفعًا لثقة المسلمين عن دينهم، ورمي الصادق الأمين بالكذب.

فكانت القاعدة أن ما ثبت صحيحًا عنه ﷺ وجب تلقيه بالقبول والإذعان، فكل ما حدث له إذاً ﷺ إلى أن لقي الله تعالى لا يخرج عن أمر الله وقدرته وحكمته ورحمته إلى آخر أسمائه الحسنى وصفاته العليا، مما يعد التشكيك فيه أو الرد له، إنما هو رد لما هو آت عن الله جل وعلا وتشكيك فيه.

نعم تحتاج أمور الشريعة إلى مهرة في الكتاب والسنة ومقاصد الشرع ليكون زمام العلم والفهم والتوجيه والإرشاد بأيديهم بعيدًا عن عبث العابثين والأدعياء الجاهلين ليظهروا نور الشريعة المشرق وبعدها عن أي اضطراب وتناقض.

نستكمل نظر بقية آيات قصة عيسى ؑ إجلاء لبعض العبر التالية لما ذكرنا، بقول الحق تعالى: ﴿ فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ قَالَتْ يَٰلَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴿٢٣﴾ فَنَادَىٰهَا مِن تَحْتِهَآ أَلَّا تَحْزَنِى... ﴾.

إن مناداة هذا المولود لأمه لحظة ولادته بها يثبت قلبها، ويذهب حزنها، ويقويها على ما ستواجه من قومها في شرفها وسمعتها، أليس هذا إرهاصًا بأن لهذا المولود شأنًا، يواجه به الدنيا، مستندًا لخالقه، هذا المولود الذي ليس لها فيه أي اختيار إلا البكاء لمنع مجيئه، وإلا كونها المبتلاة بحمله ليس إلا، والتي تتمنى من كل قلبها حال المخاض أن تموت ولا تراه.

أي عقل يدعي عدم إرهاص ذلك الأمر، وأنه إيذان بحدث جليل يملأ الدنيا ويكون علامة من علاماتها البارزة والشاغلة إلى يوم القيامة، إن الآيات تصحبنا مع المولود ليواصل كلامه لأمه بأنه سيتصدى هو لما يعترضها من متوقع المحن، وسيتكفل بالتوضيح والشرح والرد، إظهارًا لمن هو، ليس دفاعًا عن أمه، كأنها لا تحتاج إلى دفع ومناقشة، وإنما تصوم هي عن الكلام لينطق هو، تعرض هي عن من يقابلها من القوم ويتصدر هو، ﴿ فَأَتَتْ بِهِۦ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُۥ ﴾... ﴿ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ ﴾... ﴿ قَالَ إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِىَ ٱلْكِتَٰبَ ﴾... ﴿ وَجَعَلَنِى مُبَارَكًا أَيْنَ مَا

كُنتُ وَأَوۡصَٰنِي بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمۡتُ حَيّٗا ﴿٣١﴾﴾. ﴿وَبَرَّۢا بِوَٰلِدَتِي﴾... ﴿وَٱلسَّلَٰمُ عَلَيَّ يَوۡمَ وُلِدتُّ﴾...، ونلتقط كلامه من آخره، إذ لم يبرئ أمه من شيء، بل كان قوله وبرًا بوالدتي يحمل أعظم معاني التبرئة فإذا به لم يشر إلى براءة أمه مع التقديس لها، والرحمة بها، إن هذا المعجز في كل شيء بار بوالدته، وهذا دليل براءتها، إذا لو كانت متهمة لنطق بإتهامها كما نطق فى غيره، لأن الملهم والحامل والقاضي له بذلك هو الله ليس من نفسه أن يتكلم بها شاء، بل بما أراد الله سبحانه وتعالى أن يجريه على لسانه، لأن الله ما يقول إلا الحق وما يسكت عن باطل فضلاً عن أن يقره، أو يقف بجواره، إن ما أجري على لسانه وبدنه وحاله وقلبه هو فعل الله ومراده إلى أن رفعه إليه، إنه ما كان يتكلم أو يفعل إلا ما يمليه عليه ربه، ما ينطق عن هوى، ودليله أنه ما كان ليتكلم حين تكلم في المهد إلا بكلام الله، فلما صار نبيًا هل كان يتكلم أو يمر أو يجري على قلبه ولسانه غير مراد الله؟ لا يمكن، وما كان.

تلك حال النبي ﷺ من باب الأولى إنه جاء ليبلغ كلمة الله تعالى، فما كان ليقول غيرها، وما كانت عناية الله إلا أن ترعاه، صبيًا وليدًا تدل عليه، وتشير إليه، وشابًا كهلاً، ورسولاً نبيًا إلى أن يلقى ربه، ليس له من نفسه، ولا من كلامه وفعله حظ أو نصيب؛ إذ كل ذلك توجيه الله سبحانه له، لذا يقول: ﴿قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمۡ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمۡ إِنِّي مَلَكٌۖ إِنۡ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّۚ قُلۡ هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡبَصِيرُۚ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ﴿٥٠﴾﴾ [الأنعام: ٥٠].

فمفتاح شخصية الرسول إذاً أنه يقول عن الله ويجاهد لتتحقق كلمة الله، ويأخذ أهبته، ويستعد بكل سبب من الأسباب المشروعة للتبليغ عن الله لا يبالي بشيء ولا يروعه شيء ولا يوقفه شيء، لأن مصدر كل ذلك هو الله جل وعلا، فلا يمكن أن يزيد على قوله أو ينقص أو يخفي، أو أن يعصي في شيء، نحن نؤمن به إذاً لأنه مصطفى من الله تعالى الاصطفاء الذي يرهص له، ويلازمه، ولأن كلمة الله هي المقولة على لسانه.

وذلك ما قاله عيسى عليه السلام في المهد. إني عبد الله آتاني الكتاب وجعلني نبيًا. ومن ثم صح أن إتباع النبى ﷺ إتباع لله، وبيعته بيعة لله، وطاعته طاعة لله، فقال: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [النساء:٨٠]، وقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ۚ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٠﴾﴾ [الفتح:١٠]، وقال: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ [آل عمران:٣١]، إن مفتاح شخصيته هو النبوة التي ثبتت له بلا مرية ولا شك وكل شيء يقع منه يفسر بحساب النبوة، لا بتدابير البشر وحدها، وإلا ما الفارق بين من يوحى إليه وهو مرتبط بأمر السماء، وبين سائر البشر: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ﴾ [الكهف:١١٠].

فإذا صح عندنا بالواقع والعقل وغيرهما أنه نبي تغيرت الحسابات، وتبدلت الموازين، وصرنا إلى حال جديد، وسرنا في طريق آخر له قيمه وأخلاقه واعتقاداته ومعاملاته وبدأنا في دفع ضريبة هذا التمسك بذلك الطريق.

إذا نظرنا إلى كلمات أخرى تفسر النبوة في قصة عيسى عليه السلام رأيناه يقول: ﴿وَجَعَلَنِى مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ﴾ وهو يجلي هذه البركة التي سمعنا عنها في سيرة النبي ﷺ ويصدقها، إن قصة رضاعه في ديار بني بكر وما حدث بمجيئه من خصب بعد الجدب، وري بعد الظمأ، وشبع بعد الجوع، وطيب عيش بعد اللأواء والجهد حتى كان البدو يقولون لأولادهم ارعوا في المكان الذي ترعى فيه حليمة، من عظم ما رأوا من البركة، ليدلنا على كلمات الله التي نطق بها عيسى عليه السلام، وتحققت في موصولي الأرض بالسماء من أنبياء الله تعالى وخاتمهم محمد ﷺ.

إن حلول بركته ﷺ التي ينفي لها "وات" وأمثاله القصة من أولها أو يشكك فيها ليس إلا لنفي النبوة، ومع ذلك فقد صرحت بها كلمات الله التي فاه بها عيسى عليه السلام عن الله جل وعلا في المهد بما لا يمكن تكذيبه أو دفعه أو تأويله.

ومن ثم إذا صادفنا شيء صحيح من ذلك في سيرته - وهو كثير - فدليل صدقه موجود في قصة عيسى عليه السلام، وأصل وجوده عمن بيده ملكوت كل شيء سبحانه، ولا يكبر عليه شيء.

وتواصل الآيات حديثها بهذا القول الجامع: ﴿ وَٱلسَّلَـٰمُ عَلَيَّ يَوۡمَ وُلِدتُّ وَيَوۡمَ أَمُوتُ وَيَوۡمَ أُبۡعَثُ حَيًّا ﴿٣٣﴾ ﴾ [مريم: ٣٣]

إنَّ أهم اللحظات التي تمر على المرء هي لحظة ولادته، ولحظة موته، ولحظة بعثه فإن وفق ونجا ختمت له بخاتمة السعادة في الآخرة، وكان في دنياه على رعاية الله وحفظه وعنايته، فما أحرى الأنبياء أن يحوزوا في ذلك الدرجة الأعلى، ومن ثم كان قوله:﴿ وَٱلسَّلَـٰمُ عَلَيَّ يَوۡمَ وُلِدتُّ ﴾ إلى آخره تنويه بكرامته عند الله، أجراه الله على لسانه ليعلموا أنه محل العناية من ربه وجيء بالسلام معرفًا باللام على الجنس مبالغة في تعلق السلام به، حتى كان جنس السلام بأجمعه عليه.

وإن كان يجوز جعل اللام للعهد أي سلام إليه، وهو كناية عن تكريم الله عبده بالثناء عليه في الملأ الأعلى وبالأمر بكرامته، ومن هذا القبيل السلام على رسول الله ﷺ في قوله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا ﴾ [الأحزاب: ٥٦].

ومؤذن كلامه بالتعريض بما سيقوله اليهود طعنًا فيه وشتمًا له في أحواله الثلاثة إذ قالوا: ولد من زنا، وقالوا: مات مصلوبًا، وقالوا: يحشر مع الملاحدة والكفرة لأنهم يزعمون أنه كفر بأحكام من التوراة.[1]

نكتفي من قصة عيسى عليه السلام بهذا المقدار الذي يبين قضية النبوة والاصطفاء، وعناية الله تعالى ورعايته لمن يجتبيهم، وإظهار الإرهاصات بين يدي مجيئهم إلى الدنيا، وتجلى كلام

1 -انظر الطاهر بن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، (١٠١/ ١٦)، دار سحنون للنشر والتوزيع، تونس

الله تعالى على لسانهم وأفعالهم، وإلى آخر ما ذكرنا لنعود إلى سيرة النبي ﷺ نوضح جوانبها على المنهج الذي أخذنا به أنفسنا في تلك الرسالة.

المبحث الثالث

رضاعته ﷺ

كانت عادة الحضر من العرب أن يسترضعوا أبناءهم في البدو؛ رغبة في تقوية أبدانهم وبعدًا بهم عن أمراض المدن، وتعويدًا لهم على الاعتماد على النفس منذ الصغر، وتقويماً وحفظًا لألسنتهم من مفسدات اللغة[1].

صح أن ثويبة – مولاة أبي لهب – أرضعته[2]، وثبت أن عمه حمزة بن عبد المطلب أخوه من الرضاعة[3].

خبر إرضاع حليمة السعدية له ﷺ:

اشتهر عند أهل المغازي والسير أن ممن أرضعنه حليمة بنت أبي ذؤيب السعدية، وكانت أخذته عند ولادته ﷺ إلى بادية قومها في ديار بني سعد فأقام معها نحو أربع سنين ثم ردته إلى أمه.

ولقد تفرد ابن إسحاق برواية خبر الإرضاع الطويل، وذكر فيه تلك الأحداث التي وقعت لحليمة، منذ أن أخذت النبي ﷺ لإرضاعه، وما حدث حينها من بركات النبي ﷺ

---

1 -انظر مهدي رزق الله، السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية، (١١٥-١١٦).

2 - صحيح البخاري، فتح الباري، (١٤٠/ ٩).

3 - صحيح البخاري، فتح الباري، (١٤٠/ ٩)، وصحيح مسلم بشرح النووي، (٢٣، ٢٤/ ١٠).

التي حلت عليها في تلك السنة الشهباء، وما عاشوا فيه من بركاته إلى أن ردته إلى أمه.

وبركاته الحالة عليهم بغض النظر عن صحة هذه الرواية بالذات ليست مما ينكره الواقع والعقل والشرع، فقد ذكرنا في قصة عيسى عليه السلام الشرع الذي لم ينكره الواقع، ولم يدفعه العقل في قوله عليه الصلاة والسلام: ﴿ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ ﴾ [مريم: ٣١] فتلك بركات السيد الجليل عيسى عليه السلام فما بالك ببركات النبي الخاتم الذي بشر به عيسى نفسه عليهم صلوات الله وسلامه، وعليه يمكن أن نقول بظهور تلك البركات، فخلال حياته ﷺ في رعاية حليمة السعدية وقعت للنبي ﷺ إرهاصات دلت على تلك البركات، وعلى عناية الله به، وحفظه إياه، حيث درَّ ثديها باللبن بمجرد حلول الرسول ﷺ عليها، فارتوى هو وابنها الذي كانت تحمله بعد أن كان يبكي من الجوع لجفاف ثدي أمه، ولا ينام هو وأهله، وامتلأ ضرع راحلتها باللبن بعد أن كان يابسًا، فشبعت هي وزوجها، وسبقت راحلتها الركب بعد أن كانت عجفاء تسير في مؤخرة الركبان، وحيثما حلَّت أغنام حليمة تجد مرعى خصبًا، ولا تجد أغنام غيرها شيئًا، وكان ينمو نموًا سريعًا لا يشبه نمو الغلمان، وكل ذلك كما أشرنا شيءٌ يسير في قدرة الله، ووقوعه لأصفيائه من البشر.

نعود إلى حديث حليمة، فقد ذكر المحدثون المحققون أن الحديث ضعيف السند مع أنه خبر مستفيض في كتب السيرة، قديمها وحديثها.[1]

وأقدم من أورده من كتَّاب السيرة ابن إسحاق (ت١٥١هـ)[2]، وقال فيه الإمام الذهبي: "هذا حديث جيد الإسناد"[3]، وقال الحافظ بن كثير: "وهذا الحديث قد روي من

1- أكرم العمري، "صحيح السيرة"، (١٠٢/ ١) وغيرها.

2- ابن هشام "السيرة" (١٤٩-١٥٣/ ١)، وابن حبان "موارد الظمآن" (٥١٢، ٥١٣)، وأبو نعيم "دلائل النبوة" (١٩٣-١٩٦ / ١) وغيرها.

3- السيرة النبوية (٨).

طرف آخر، وهو من الأحاديث المشهورة المتداولة بين أهل السير والمغازي"[1]، وقد ذكر الإمام ابن عبد البر شهرته كذلك[2].

وهذا مما احتج به (محمد بن رزق بن طرهوني)[3]، مع ما اختطه لنفسه بالاجتهاد في تصحيح وتضعيف روايات السيرة، وبه يتأيد قول من ذهب إلى صحة إرهاصات مولده ﷺ التي تُنبأ عما سيكون لهذا المولود العظيم من شأن يمت إلى أسباب السماء بأعظم صلة، ممن ردوا على المستشرقين ومن تبعهم من المسلمين، وبذا يكون لهؤلاء المؤيدين لهذه الإرهاصات سلف من الحفَّاظ والمحققين يدعم موقفهم، ويقوي استدلالهم، ومنهم من هو من المراجع والمصادر للسيرة كتابة ونقدًا.

ثم نورد هنا سؤالاً هو: ما المفسدة في إثبات هذه الوقائع التاريخية على المنهج العلمي المزعوم من المستشرقين؟ خاصة وهي ثابتة، مما يؤكد عدم التزامهم ما وضعوا من منهج بالذات فيما يتعلق بسيرة النبي ﷺ والإسلام، لا من قريب ولا من بعيد من ناحية، ومن ناحية أخرى لا يوجد ما يعتمد عليه هؤلاء المستشرقون سواها، إذ ليس لهم مصادر عاشرت الأحداث، وعايشتها، ولا لهم كُتَّاب كتبوا في السيرة في إبانها حتى يحمل قولهم محمل العلم والجد، بل كل ما هنالك أن ناسًا جاءوا بعد أربعة عشر قرنًا من الزمان، وبكل وقاحة قالوا هذا حدث وهذا لم يحدث، وهذا لا يمكن أن يحدث تاريخيًا[4]، وإن صح، قالوا: وهذا إن صحت الرواية فله معنى آخر، لدوافع ونوازع اخترعوها ملفقة لا علاقة لها بالبحث العلمي، ولا تمت إلى الواقع بأدنى صلة، بل تخالفه وتصادمه، ثم قالوا هذا هو المنهج التاريخي.

1- ابن كثير "السيرة النبوية" (٢٢٨/ ١).

2- ابن عبد البر "الاستيعاب مع الإصابة" (٢٦١/ ١٢)، وانظر د. أكرم العمرى، السيرة النبوية الصحيحة(١٠٢).

3- محمد بن رزق بن طرهوني، صحيح السيرة النبوية المسماة بـ"السيرة الذهبية" (٣٣٢/ ١)، الطبعة الأولى ١٤١٠هـ.

4- وهذا ما ذكره "وات" سواء في رؤية جبريل، أو قضية الوحي أوغيرها.

وبناءً على منهجهم في فهم دوافع الكاتب ونوازعه، نقول: فما هي نوازع "وات" في ذلك؟ والمطالع لذلك يرى أظهر دافعين لذلك هما نزع صفة النبوة الإلهية عن النبي ﷺ، والثاني أن ما في الإسلام من مبادئ لها قيمة فهي مقتبسة من اليهودية والنصرانية، وكل ذلك لدافع أكبر وأعظم، وهو كيفية هزيمة المسلمين فكريًا إذ لم يستطيعوا هزيمتهم عسكريًا، مع تحصين بني جلدتهم ضد الإسلام، وتشويه صورته من أوله إلى آخره في أعينهم اعتقادًا وسلوكًا، وأنه تلفيقات من اليهودية والنصرانية، مع محاربة المسلمين في عقيدتهم وعبادتهم بمحو الصورة الصحيحة للإسلام ونبيه في عقولهم وواقعهم، وما كانوا كذلك إلا لكونهم رأس حربة التبشير والاستعمار، حيث كانت كل دوائر الاستشراق تعمل بتدبير وترتيب الاستعمار والتبشير في دوائر مخابراتهم، وتراجمهم حافلة طافحة بتأكيد ذلك، وبالتالي كانت كلها تصب في تيار محاربة الإسلام وإخراج أهله منه؛ ليتم لهم احتلال أرضه ونهب ثرواته بدون مقاومة عسكرية، وما استتب لهم ذلك إلا بقيام أركانهم التي شيدوها بمن تسموا بأسماء إسلامية ليقوموا بهذا الدور خير قيام نيابة عن هؤلاء المستشرقين.

ونحن إذ نذكر ذلك هنا إنما ذلك لتأكيد المعنى الذي لا ينبغي أن يغيب أبدًا عن ذهن المسلمين في التعامل مع ما يأتي من كتابة في البحث، ومع جميع ما كتب ويكتب من كلام المستشرقين، وصنائعهم في ديار المسلمين، ومن قلدهم من حسني النية؛ يحسبون أن في اتباعهم التطور والتقدم، إن المتفحص المنصف للواقع يرى إننا ما تأخرت حضارتنا وانهارت قيمنا إلا باتباع هؤلاء المجرمين، والعاقل يقول متى أراد عدوك المتربص بك خيرًا؟! والواقع خير شاهد على هذا التدهور.

نعود إلى السؤال الذي طرحناه، وهو ما الضرر من إثبات هذه الإرهاصات على المنهج المزعوم، والإجابة إن إثباتها لا مفر من أن يثبت به نبوة الرسول ﷺ، وتنهدم قضيتهم كلها

من أولها، وحينئذ إما أن يسلم "وات" وغيره ويدعو قومه إلى الإسلام[1]، وإما أن يلتزم الصمت، ولكنه التزم الطريق الثالث، طريق كفار مكة في قوله تعالى: ﴿ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴾ [الأنعام: ٣٣]، وما كان ليختار هذا الطريق ظلمًا إلا من وراء دافع أقوى، وهو محاربة الإسلام، الذي ذكرناه آنفًا.

وقد يقال إن بحثه العلمي قد أداه إلى ذلك، والرد أن يقال كما أشرنا إلى بعضه إنه ليس بحثًا ولا شيئًا، إنه قد جهز وأعد نتيجة المسمى بحثًا أعدها سلفًا، ثم سعى بكل طريق ليثبتها، إن مراده من البحث أن يقدم للمسيحيين فى الغرب المادة التاريخية التي يجب أن تؤخذ في الاعتبار عند تكوين الرأي اللاهوتي إذ إن موقفه ماض به بقوله: "فإن على المسيحيين أن يتخذوا من محمد – عليه الصلاة والسلام – موقفًا لابد أن يكون قائمًا على أسس دينية لاهوتية"[2].

هذا هو "وات" هل تراه قدم لبني وطنه ودينه ما جعلهم يعظمون محمدًا ويؤمنون به أو ينصفونه فقط؟! إذن فهل يعتبر أحد أن ذلك الضلال الذي شربه بنو دينه بحثًا؟ وهل أسلم أحد؟ أو نظر نظرة إنصاف بعد أن قرأ كلام "وات" عن رسول الله ﷺ،أم ازداد غلوًا وثبتت أقدامه على الضلال، وعلى النظرة السيئة لرسول الله ﷺ التي لا تمت إلى الله بصلة.

1 – كبعض الأوربيين من أمثال رينيه.

2 – "وات"، محمد في مكة، (٤٠)، ترجمة د. عبد الرحمن الشيخ وحسين عيسى، الهيئة المصرية للكتاب.

المبحث الرابع

منهج «وات» وغيره فى تعامله مع السيرة

تكملة للكلام مع بعض الإطالة والتوضيح، يحسن أن نذكر منهج "وات" وغيره في تعامله مع السيرة لأنها كانت جل اهتمامه؛ حتى تتكامل أركان هذا الجزء من البحث[1]، وحتى إذا جاء لها موضع من البحث نذكر بها، لا نكررها، ونسوقها على ترتيب آخر غير ما ذكره الكاتبون في ذلك مركزين على ما ذهب إليه "وات".

المنهج الأول:هو منهج التأثر والتأثير:

والذي ذهب بمقتضاه من يدعي العلمية والإنصاف إلى تفريغ سيرة الرسول والإسلام كله من الوحي الإلهي، وذلك بإحالته إلى عناصر خارجية كاليهودية والمسيحية بل والفارسية والبوذية، فقد أرجع "وات" الإسلام إلى أفكار (ورقة بن نوفل)، حيث بلا شك تحدث ﷺ مع ورقة المسيحي، إلى آخر هذا الهذيان الذي يغني فساده عن إفساده، حيث يدعي وقوف (ورقة وخديجة)خلف النبي ﷺ يشد أزره مما اعتراه من الخوف، ثم يزعم أن لقاءات متتابعة قد تمت بينه وبين النبي ﷺ تبين تأثره (بورقة) ونقله لما كان يدرسه من

1- ذكر ذلك عبد الله النعيم، الاستشراق في السيرة،(٣٦)، وقد نقل مثله عن د. عبد العظيم الديب، المنهج في كتابات الغربيين عن التاريخ الإسلامي،(٩٩-١٠٠)، وتبعهم د. طارق عبد الحميد، شبهات المنصِّرين، رسالة دكتوراه، (٦٤)، مركز التنوير الإسلامي، ذي الحجة ١٤٢٦، يناير ٢٠٠٦.

الإنجيل والكتاب الأول لمحمد ﷺ[1]، وهذه النظرية تحتاج أن يكون قد نزل قرآن كما يزعم قبل سورة ﴿ ٱقۡرَأۡ ﴾ فهو بهذا الخلط، والتجني على التاريخ، وحشود سوء القصد، وسوء الفهم وسلسلة الجنايات على الواقع وتغييره، يجهز خشبة مسرح الضلال للوصول إلى النهاية التعيسة التي رسمها أولاً ضاربًا عرض الحائط بالعقل وعقول القارئين وبالمنهج العلمي، فإذا كان محمد يا سيد "الوات" قد تعلم وقعد (لورقة) فما الذي حمله على الخوف والرجوع بعد ذلك لورقة - متخوفًا أن يكون قد أصيب بأذى – إذا كان قد علَّمه ذلك من قبل وشجعه، وكلمة الناموس التي ذكرها ورقة وكانت محل فلسفة من "وات" لا علاقة لها بالمنهج التاريخي، كيف لم تُذكر فى الوحي ولو لمرة واحدة في سياق التأثر المزعوم؟ ومتى استكمل (ورقة) الطريق مع محمد ﷺ يعلمه وقد مات مباشرة بعد ذلك، ولم يدرك يومه لينصره نصرًا مؤزرًا، ترى "ورقة" كان سينصر محمدًا ﷺ باليهودية والمسيحية، أم بالناموس الذي جاء "وات" ليعطيه معانى غريبة متأخرة من اللغة اليونانية، وهي لا خلاف بين الكفرة المستشرقين قبل المسلمين أن محمدًا ﷺ لم يعرفها من قبل ولا من بعد.

ثم إن ورقة قد مات مسلمًا[2]، وذلك في المصادر التي لا يملك "وات" سواها فإذا به يخترع تاريخًا لا أصل له، ويبني عليه استنباطات الإفك، ثم يأتي سؤال من الأسئلة التي لا حصر لها تحاصر "وات"، وهو لماذا لم يدع (ورقة)ذلك لنفسه؟ وهو الشيخ الكبير الذي له قيمة في قومه، ومتميز بما يعتقده الحق، ويكون لدعوته أثر في مكة، إن المصادر التي تحت أيدينا، وقد ازدادت آلاف المرات عن مصادر "وات" لم تذكر واحدًا فقط دعاه (ورقة)

1- Muhammad at Mecca p. 51-52 - الطبعة المترجمة (١١٩-١١٢) د. عبد الرحمن الشيخ وحسين عيسى، الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة ٢٠٠٢.

2- أحمد، الفتح الرباني(٢/ ١٠٤)، وحسن الساعاتي إسناده، ابن كثير عن أبي يعلى وحسنه فى البداية(٣/ ١٠)، والحاكم فى المستدرك وصححه ووافقه الذهبي من حديث عائشة(٢/ ٤٠٩).

للنصرانية، وإن ما ذكره "وات" من تشابه بين بعض أحكام اليهودية والمسيحية، لم يقرها القرآن الكريم إلا بعد استقرار الشرع في المدينة المنورة فأنى لورقة وقد مات مبكرًا جدًا بعد البعثة أن يوحي بها لمحمد ﷺ أو يعلمه إياها، إنه ضلال وخطل ومغالطة، وقل ما شئت من وصف في هذا كلام، نختصر هذا الكلام لنستأنف ما بعده[١].

المنهج الثاني: المنهج العلماني أو التاريخي:

وهو ما اتبعه المستشرقون ومدعو التوحيد منهم كـ "وات" في عدم إمكان وقوع الظواهر الدينية التي لا تخضع لقوانين الأجسام المادية المعروفة، إذ يقول: " إن العديد من القصص ذات الطابع الديني يكاد يكون من المتيقن أنها ليست حقيقية من وجهة نظر المؤرخ العلماني الواقعية"[٢] من تلك القصص – كما يلفظ سوءًا – إرهاصات النبوة وشق الصدر، ورؤية جبريل، والوحي الإلهي، وكثير سنذكره في حينه مع الرد عليه إن شاء الله تعالى.

المنهج الثالث: المنهج المادي (الاقتصادى):

هو العامل الحاسم في الإيمان، أو لابد من اعتبار هذا العامل[٣]، حيث يعزو "وات" ظهور الإسلام بأن ذلك كان ردًا على مرض العصر الذي سببه التطور الذي انتقل بالعرب من حياة بدوية إلى اقتصاد حضري[٤]، وأن القبائل الممثلة في العقبة الأولى كانت مؤلفة من البروليتاريا[٥]، وأن الطمع في الغنيمة جاء بالكثيرين إلى المدينة.

---

1 – عبد الله النعيم، الاستشراق في السيرة النبوية،(٣٨-٣٩)، د. طارق عبد الحميد، شبهات المنصِّرين، (٦٤-٦٥).

2 – عبد الله النعيم، الاستشراق، (٣٩-٤٠).

3 – جعفر شيخ إدريس، منهج "مونتجمري وات" في دراسة نبوة محمد، (٢٣٦)!

4– "وات"، محمد في المدينة (٣٩٨).

5– "وات"، محمد في المدينة (٢٦٨).

كان هناك مرض إذن يشمل العرب، حيث تطوروا إلى اقتصاد حضري، يعني افتراض مرض، وهو مرض العصر أيامها، وأن البدو قد أصابهم التطور، والنظر الفاحص يضحك الثكلى من هذا الكلام، العرب أصابهم التطور إلى اقتصاد حضري قبل مجيء الإسلام فدخلوا في الإسلام، وأن التطور قد شمل هؤلاء البدو مع أنهم لا يزالون بدوًا إلى وقت "وات" هذا، إلا أن يكون قد أصابهم التدهور بعد دخولهم الإسلام فعادوا بدوًا كما كانوا، في أي المصادر ذكر هذا الوباء العصري قبل مجيء "وات" لقد اخترع على أسلوب وأمراض القرن العشرين هذه المسميات لواقع لم يره، بل قد ألفه تأليفًا، وإلا ما هذه البروليتاريا التي يسم بها أصحاب العقبة الأولى الذين آمنوا بمحمد ﷺ، ونشروا الإسلام في المدينة، أين ما كان يطلب هؤلاء "البلاشفة" البروليتاريا (أقصد هداة الإسلام وحملة مشاعل الهداية)؟، إنهم على خلاف ما يذكر حملوا أنفسهم وأموالهم على أكفهم يبذلون كل شيء في سبيل هذا الدين، وهؤلاء الكثر الذين جاءوا المدينة طمعًا في الغنيمة، تركوا أولادهم وأزواجهم وأموالهم وأوطانهم، ومنهم من حمل ماله معه، خلفوا ذلك كله وراء ظهورهم في مجتمع العزوة فيه والبأس والمنعة لتلك العوامل، أين الطمع في ذهابهم إلى مجتمع لا يجدون فيه ما يأكلونه ليقيم أودهم، ولم يكونوا يعلمون على مذهبك العلماني أو غيره، أن هناك غزوة تسمى "بدرًا" سيحصلون فيها شيئًا من متاع الدنيا، حتى ولو علموا فقد كان مرادهم وتشوفهم إلى اليوم وغد وإلى يوم القيامة أن يحصلوا إحدى الحسنيين النصر لدين الله والتمكين له، أو الموت دونه، وقد علم القاصي والداني حبهم للشهادة والمسابقة إلى الموت مما أدهش معه المستشرقين بله العالمين.

وإذا كان لنا أن نضرب مثلاً فهذا (مصعب بن عمير)[1] أنهد شباب مكة هاجر إلى المدينة تاركًا ذلك الغنى، وتلك الرفاهية، ومات شهيدًا في أحد لم يجدوا ما يكفنونه به،

1- الإستيعاب (١/ ٤٦٣)، سير أعلام النبلاء (١/ ١٤٦).

وكثير كانوا كذلك، فأين هجرتهم فضلاً عن إسلامهم للعوامل الاقتصادية، أهذا هو المنهج يا "وات" وقد علمت وذكرت، والكاذب ينسى ما يقول، أن القرآن الكريم كان في بداية ما نزل يحث على النفقة، وعدم كنز المال إلى آخر ما سطرت شمالك، فكيف يعلم قوم بذلك ثم هم يسلمون ويهاجرون لخلافه، والإسلام يطلب منهم المسارعة إلى الخير، وكثرة البذل، وبيع النفس والمال لله تعالى، لقد قالوا بعد فتح خيبر سنة ست للهجرة قبل نهاية الدعوة لم نشبع من التمر حتى فتحت خيبر[1].

وهذا المنهج في تفسير وقائع التاريخ – وهو هَمُّ المستشرقين – يفرغ الإسلام من جانبه الروحي، من الإيمان بالله، وتقديم ما عند الله من ثواب على تحصيل الدنيا الزائلة، والإيمان بالآخرة، والتصديق بالوحي، وبموعود الله لهم، إنها إذن من أخبث الأفكار ألا يكون وراء الدنيا دار للجزاء والحساب، وأنه ليس ثم إلا الدنيا واللهث وراء شهواتها، وإنكار كامل للوحي.

أما المنهج التالي الذي استخدمه المستشرقون فهو..

المنهج الرابع: منهج البناء والهدم:

وهو أن يمدح المستشرق الإسلام ونبيه ﷺ في جانب من جوانبه إذا ما كان القارىء مسلماً أو يعرف الإسلام حتى يظن به الاقتناع والنزاهة والموضوعية في أحكامه، ولكنه سرعان ما يهدم ما بناه؛ حتى يعمي على القارئ ليستسلم لكتاباته، ويثق فيها وذلك واضح في كتابات "وات" الذي جعل كثيرًا يظنون به الإنصاف والموضوعية والعلمية، فمثلاً عندما أراد أن يهدم عالمية الدعوة، وأن يثلم ثلمة في الإسلام، مدح الرسول ﷺ ليكون طريقًا لذلك حيث

1 -البخاري (١٣/ ١٣٦).

لم يجد ما يرد به ردًا علميًا على إرسال الرسل إلى الملوك والحكام يدعوهم رسول الله ﷺ بدعاية الإسلام فيقول: "لا يمكن قبول هذه القصة كما هى، لأن محمداً كان رجل دولة حكيماً، بعيد النظر، ولم يفقد عقله، بعد النجاح الذى حققه فى صلح الحديبية، ودعوته هؤلاء الأمراء فى هذا الوقت تُسىء إليه أكثر مما تفيده[1]"، فهو يصف الرسول ﷺ بهذه الأوصاف، حتى يقول القائل ها هو ذا "وات" ونظرته إلى الإسلام والرسول فلماذا تهاجمونه، ولكن سرعان ما تتضح لهم الحقيقة لكلام المدح هذا، في نفس الوقت يحمل التكذيب لهذه الوقائع من الرسول، والتي لا مرية فيها، ولا شك في فعل النبي لها، وهكذا بطول كتبه وعرضها، ما رأينا كلامًا فيه مدح إلا وهو مقدمة الذم تتبعها حشود التضليل والتكذيب.

ننتقل سريعًا لتكملة الحديث والبحث في بقية المنهج، فيصادفنا

المنهج الخامس: منهج النفي والتشكيك والافتراض واعتماد الضعيف الشاذ:

وقد أسرف المستشرقون في استخدام هذا المنهج بكل بجاحة، مع أنه علم وتاريخ، ولا علاقة لهم به، ولا يد لهم في صنعه، ولا قدرة لهم بأدوات بحثه وتمحيصه، لكن ما يجب أن يأخذوا به هو صحيح هذا التاريخ، ودراسته في بيئته، ووقته وزمانه، وأخلاقه وعاداته، فإذا بهم قد أتوا بتاريخ جديد قد افتروه من ضعيف شاذ وتعاملوا معه بعقلية مجافية ومخالفة لعقليته، في بيئة غير بيئته، في زمن بعد زمنه بقرون متطاولة، وما خالف ذلك نفوه ولو كان صحيحًا، فيأخذون من تاريخ الإسلام ما يوافقهم، ويردون تاريخًا لا يناسب قضيتهم وما يريدون أن يصلوا إليه، وإن حالت بينهم وقائع أخرى تشككوا فيها فكثر التشكك حتى صار مبدأ في تعاملهم مع الإسلام، فإن لم يجدوا ما يسعفهم افترضوا تاريخًا من عند

1 - محمد فى المدينة (٥٢٠-٥٢١)

أنفسهم، وبنوا عليه آراءهم الفاسدة، ولمزوا وغمزوا وأنكروا ما هو صحيح واقع، انظر إلى "وات" في صفحة واحدة(١) "يصعب تصديق ذلك" و"إذا أمكن قبول هذه الرواية" و"مما يدعو إلى الشك" و"من الممكن أو يبدو" ومن العبارات أيضًا التي استخدمها "وات" "لو صدقنا الرواية(٢)" و"الرواية موضوعة(٣)" وبعد ذلك يصل إلى ما يريد من نتيجة حيث يقول "لا شيء يثبت أمام النقد والتخمين اللذين مررنا بهما(٤) " و"ولا يمكن الاطمئنان إلى التفاصيل(٥)" هذا "وات"، وهذا منهجه، إمام العلميين المستشرقين!!، فهذا في التشكيك فماذا بقي من شيء يبحث أو ينقد وأما اعتماد الضعيف فيكفينا اعتماده الآيات الإبليسية في قصة الغرانيق مع الشعور بعلمه أنه يعلم ذلك.

المنهج السادس: المنهج الاسقاطي:

وملخصه أن ينسب المرء في اللاشعور عيوبه ونقائصه وذنوبه أو مخاوفه إلى غيره، كالأشخاص والأشياء وسوء الطالع وغيرها، وهو صلة لا شعورية، لكنها عند المستشرقين على سبيل التعمد وسبق الإصرار والترصد، ولا يمكن عقلاً أو واقعًا أن تفصلهم عن شعورهم واعتقادهم وبيئتهم حال بحثهم، ولكن أن يتعمدوا ذلك فهو موضع المساءلة والاتهام الذي لم يخل منه أحد منهم، هذا ما يعتمده "وات" من مناهج في تعامله مع سيرة النبي ﷺ، والإسلام ككل وسوف نبين إن شاء الله تعالى مواضع كثيرة تؤكد ذلك، وتبرهن عليه أكثر مما ذكرنا.

1- Muhammad at Medina p. 22

2- Muhammad at Medina p. 20

3- Muhammad at Medina p. 54

4- Muhammad at Medina p9 ٩

5- Muhammad at Medina p. 13

نعود إلى المقصود الأصلي وهو سيرة النبي ﷺ..

ذكرنا ما قدمنا من مناهج المستشرقين ليكون توطئة للكلام على ما يأتي من تعاملهم مع السيرة، وإن كان استطرادًا إلا أنه لا بد منه طالما قرر في البحث الرد عليهم، خاصة وأن تلك المناهج لصيقة الصلة بما سيأتي مباشرة من سيرته ﷺ كحادث شق الصدر، ورحلته إلى الشام وغير ذلك.

المبحث الخامس

حادثه شق الصدر

ونبدأ بحادث شق الصدر تكملة للسياق الذي سرنا عليه فنبدأ بذكر ما وقع في بادية بني سعد حيث كان ﷺ مسترضعًا، وإن كنا قد ذكرنا في بحث الثناء عليه من قبل شرح قوله سبحانه ﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۝١ ﴾ (لم أجد هذا الشرح) وخضنا فيه شيئًا ما يليق بجلال الحدث، مع جلالة النبي ﷺ، ومن ثم نقتصر هنا على السنة الشريفة الواردة في هذا المقام في تلك السني الأولى من عمره الشريف مع ما يحيط بها مما يجب ويلزم البحث فيه، ويتوافق مع منهجنا الجديد الذي أسسنا عليه بحثنا في سيرة النبي ﷺ وأشرنا إليه من قبل.[1]

وقعت للرسول ﷺ وهو في بادية بني سعد حادثة شق الصدر[2]، وسنذكرها بنصها هنا، وإن كان "وات" قد ذكر نص ابن إسحاق بأطول من ذلك لحاجة في نفسه سنشير إليها إن شاء الله تعالى أما نص ابن كثير فيقول ﷺ "كانت حاضنتي من بني سعد بن بكر، فانطلقت أنا وابن لها في بهم لنا، ولم نأخذ معنا زادًا، فقلت يا أخي اذهب فائتنا بزاد من عند أمنا، فانطلق أخي ومكثت عند البهم، فأقبل طائران أبيضان كأنهما نسران، فقال أحدهما لصاحبه: أهو هو؟ فقال: نعم! فأقبلا يبتدراني، فأخذاني فبطحاني للقفا، فشقا بطني، ثم

---

1 - عند تفسير سورة الشرح بالفصل الأول.

2- كما جاء صريحًا في رواية أبي نعيم عند ابن كثير، البداية والنهاية (٢/٢٩٢)، وقال عنه الإمام الذهبي في سيرته،(٤٨) "وهو صحيح"، مهدي رزق الله، السيرة النبوية، (١١٦-١١٧).

استخرجا قلبي فشقاه، فأخرجا منه علقتين سوداوين، فقال أحدهما لصاحبه: ائتني بماء ثلج فغسلا به جوفي، ثم قال: ائتني بماء برد، فغسلا به قلبي، ثم قال: ائتني بالسكينة فذرها في قلبي، ثم قال أحدهما لصاحبه: خطه فخاطه، وختم على قلبي بخاتم النبوة، فقال أحدهما لصاحبه: اجعله في كفة واجعل ألفًا من أمته في كفة، فإذا أنا أنظر إلى الألف فوقي أشفق أن يخر عليَّ بعضهم، فقال لو أن أمته وزنت به لمال بهم، ثم انطلقا فتركاني، وفرقت فرقًا شديدًا، ثم انطلقت إلى أمي فأخبرتها بالذي لقيت، فأشفقت أن يكون قد لبس بي، فقالت أعذك بالله، فرحلت بعيرًا لها، وحملتني على الرحل، وركبت خلفي حتى بلغنا أمي، فقالت أديت أمانتي وذمتي، وحدثتها بالذي لقيت فلم يرعها، وقالت: "إني رأيت حين حملت به أنه خرج مني نور أضاءت منه قصور الشام[1]".

وروى مسلم قصة الشق باختصار عن أنس بن مالك ﷺ بما نصه: «أن رسول الله ﷺ أتاه جبريل عليه السلام وهو يلعب مع الغلمان، فأخذه فصرعه، فشق عنه قلبه، فاستخرج القلب، فاستخرج منه علقة، فقال: هذا حظ الشيطان منك، ثم غسله بطست من ماء زمزم، ثم لأمه، ثم أعاده مكانه، وجاء الغلمان يسعون إلى أمه (يعني مرضعته) فقالوا إن محمدًا قد قتل، فاستقبلوه وهو منتقع اللون، قال أنس: وقد كنت أرى أثر ذلك المخيط في صدره»[2].

وقد تكرر شق الصدر كما سنشير فيما بعد عند الكلام على قوله تعالى: ﴿ أَلَمۡ نَشۡرَحۡ لَكَ صَدۡرَكَ ۝ ﴾ إن شاء الله تعالى.

ونذكر قبل الخوض في بحث المسألة حكمة شق الصدر، فشق الصدر لا ريب إرهاص مبكر للنبوة؛ لأنه تطهير من حظ الشيطان، وتهيئة للعصمة وإعداد لها وللوحي من صغره؛

1 - ابن كثير، السيرة النبوية(١/ ٢٢٩)

2- مسلم، الصحيح (١٤٧/ ١)، وابن كثير، البداية والنهاية)، ( )، والبيهقي، دلائل النبوة، (١٣٦/ ١).

فيعتصم من الشر وعبادة غير الله تعالى، والاستعداد للتلقي عن السماء مصدر الطهارة، فلا يحل في قلبه إلا التوحيد، ومحبة الرب سبحانه، وقد دلت أحداث صباه على تحقق ذلك، فلم يرتكب إثمًا ولم يسجد لصنم، رغم شيوع ذلك في قومه، ومن ثم لم نجد أمرًا واحدًا عَيَّره به الكفرة بأنه كان يعمله مثلهم من قبل أن يقول ما قال، وقد كانت هذه التهيئة كما نطقت الأحاديث بوسائل مادية؛ ليكون ذلك أقرب إلى إيمان الناس به، وتصديقهم برسالته، واتخذت هذا الشكل المادي الحسي كذلك؛ ليكون الإعلان الإلهي بذلك بين أبصار الناس وأسماعهم، وقد أشارت القصة إلى تعهد الله تعالى لنبيه ﷺ من مزالق الطبع الإنساني، ووساوس الشيطان، وهي الحصانة التي تبين القصة إضفاء الله لها على نبيه ﷺ.[1]

وذلك ليعلم المؤمنون على الأقل شيئًا عن قيمته وقدره ﷺ، وكيف هيئه سبحانه لدعوته ولسياسة البشر دينًا ودنيا لا يريد منهم جزاءً ولا شكورًا إنما ينفذ أمر الله وينتظر في الآخرة ثوابه ﷻ.

ونضيف إلى كلام السُنَّة الشريفة هذا ما ذكر علم شُرَّاح البخاري الإمام "ابن حجر" حيث يقول في تعليقه قولاً موجزًا يحمل ردًا علميًا عميقًا: "إن جميع ما ورد من شق الصدر واستخراج القلب وغير ذلك من الأمور الخارقة للعادة مما يجب التسليم له دون التعرض لصرفه عن حقيقته لصلاحية القدرة، فلا يستحيل شيءٌ من ذلك"[2]

ومعنى كلامه: أن قدرة الله تعالى صالحة لئن يحدث بها ذلك، والموحدون قبل غيرهم يعلمون أن كونًا هو خالقه، لا يستحيل عليه فيه شيء، ومن ثم فهذه الأمور لا تقع تحت

1- انظر البوطي، فقه السيرة، صـ٥٢، ومهدي رزق الله، السيرة النبوية،(١١٨-١١٩)، وأكرم العمري، السيرة النبوية الصحيحة، (١٠٤/ ١).

2- ابن حجر، فتح الباري (٣٨٨٧).

الاستحالة، فلا يتعرض أحد لصرفها عن حقيقتها بظاهر لفظها، وكأن أتباع المدرسة العقلية المدعاة من المسلمين لا يفقهون أو يعلمون ما وقعوا فيه من إنكار القدرة لله تعالى برد الروايات، أو تأويلها تأويلاً ممجوجًا، والخنوع لقدواتهم الجهلة من المستشرقين، فيما يخالف الشرع الإسلامي، بل ويحاربه، ويكذبون أو يردون كلام العلماء المسلمين الأثبات، فانظر إلى ما أداهم إليه هذا الفكر المنحرف إما بقصد، أو بغير قصد.

المبحث السادس

ألم نشرح لك صدرك.. التعليق على «وات»

وإذا كانت سورة الضحى من أوائل ما نزل في سياق ثناء الله تعالى على النبي ﷺ، وفي سياق ما ذكرنا من معان يحملها هذا الثناء، فقد نزل الوحي بعد سورة الضحى بسورة ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ﴾ تالية لها مباشرة في التنزيل على النبي ﷺ حيث عدت الثانية عشر في (ترتيب السيوطي)[1] بذكر الفاتحة، وهي تحمل أيضًا – علاوة على ما سنذكره في السيرة – تحمل ثناء بالغًا من الله تعالى على رسوله يدل على صحة الرسالة وصدق النبوة مع المعاني المهمة التي تضبط الدعوة، وتشرح الصدر، وتثبت الأقدام في تلك المرحلة الصعبة في مكة المكرمة.

وثناء الله تعالى عليه هو ما يهمنا ذكره الآن؛ لأنه مقامه، ولربطه بسورة الضحى إذ إن مضمون ألم نشرح شبيه بأنه حجة على مضمون سورة الضحى، تثبيتًا للنبي ﷺ بتذكيره سالف عنايته سبحانه به، وإنارة سبيل الحق، وترفيع الدرجة؛ ليعلم أن الذي ابتدأه بنعمته، ما كان ليقطع عنه فضله، وكان ذلك بطريقة التقرير بماض علمه النبي ﷺ علمًا لا شية فيه ولا ريب، أظهر كذلك بهذا التقرير عناية الله تعالى بالرسول ﷺ، ولطفه به، وإزالة الغم والحرج عنه، وتيسير ما عسر عليه، وتشريف قدره لينفس عنه، وكل ذلك يحمل بين طياته حجة لا تدفع أو تدفع، وبرهانًا لا يخبو على أن القرآن من الله جل وعلا، وأنه رسوله الصادق الأمين.

1- محمد عزة دروزة، "سيرة الرسول ﷺ" (١٥٣/ ١) طبعة ثانية ١٣٨٤هـ-١٩٦٥م عيسى الحلبي وشركاه.

ونشرع في المقصود من السورة مما يتعلق بثناء الله تعالى على النبي ﷺ، تحليلاً وتفسيرًا.

إن أول ما يصادفنا لنلقي عليه ضوء التحليل هو قوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾.

• فالاستفهام تقريري على النفي، والمقصود التقرير على إثبات المنفي وهو شرح الصدر، ثم إن ثبوت شرح الصدر بالاستفهام للإيذان بأن ثبوته من الظهور، بحيث لا يقدر أحد على أن يجيب عنه بغير بلى، فخطاب الله تعالى لنبيه ﷺ فيه تذكير إذن للنبي ﷺ بأمر يعرفه حق المعرفة، يحمل منة عظمى من الله جل وعلا له ﷺ، وسنعود إلى هذا الأمر بعد قليل إن شاء الله تعالى.

• ولكن لماذا يقرره ربه سبحانه بأنه قد شرح صدره؟ المتبادر من الفهم أن يقال لِمَ يضيق صدره؟ ألم نشرحه؟ وكأنه قد وقع له ﷺ من أسباب ضيق الصدر ما جعل المولى سبحانه يذكره ﷺ بهذه المنة، وتلك الفضيلة التي وسمه بها من قبل، لتحمله على سعة الصدر، والتحمل وكظم الغيظ، ولا بد أن ذلك الضيق حصل له من شدة أذى قوم يريد صلاحهم، وإنقاذهم من النار، ورفع شأنهم بين الأمم في الأولى والآخرة فقابلوه بذلك الإيذاء الشديد مما سطرته صادقة كتب السيرة والتواريخ، إذاً نحن أمام أمر الله المستفاد من هذه الجملة، وهو طالما قد شرح لك صدرك، فدم على دعوتك العظيمة نشيطًا واسع الصدر، غير ضائق ولا عابئ بأذاهم، غير ذي أسف ولا كمد[1]، وقد نزل عليه مثل ذلك ﷺ بعد هذه الآيات كما في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٩٨﴾﴾ [الحجر: ٩٧،٩٨].

• نلاحظ في الآية الكريمة - كما ذكرنا – أن شرح الصدر لا يمكن إنكاره، ولا يُرَدُّ على الاستفهام إلا ببلى، فهل هذا الجواب من الرسول ﷺ وحده، أو من كل من يسمع

1- انظر الطاهر بن عاشور، "التحرير والتنوير"، (٤٠٨/ ٣٠)، وكذلك أبا السعود، "إرشاد العقل السليم"، (٨٨١/ ٥)، الألوسي، "روح المعاني" (٢٩٧/ ٣٠).

ساعتئذ هذا الاستفهام! لا يمكن الجواب في حق الرسول صلوات الله عليه إلا بنعم، لا خلاف فيها على أي معنى كان هذا الشرح، وإنما الأخذ والرد على الحاضرين من قريش وأهل مكة المعاندين للنبي ﷺ، والذين ذكَّر الله تعالى نبيه بقرآن يتلو عليهم فيه هذا الاستفهام الإنكاري، وفي شيء يتعلق بهم؛ وهو شدة إيذائهم له ﷺ، هل علموا هذا الشرح ومعناه هل وهم مسلمون به؟ هذا يجرنا إلى ما وعدنا به آنفا من تبيين معنى شرح الصدر الذي امتن الله به سبحانه على النبي ﷺ؛ لنستطيع أن نجيب على هذا السؤال فأقول:

ذكر العلماء أن الصدر المقصود به الإحساس الباطني الجامع لمعنى العقل والإدراك حيث هو محل أحوال النفس ومخزن سرائرها من العلوم والإدراكات والملكات والإرادات وغيرها، فعبر بشرحه عن توسيع دائرة تصرفاتها، وذلك بأمرين بتأييدها بالقوة القدسية، والثاني: تحليتها بالكمالات الأنسية.[1]

وكلا الأمرين مشاهد في أحوال البشر، فكان شرح الصدر كناية عن الإنعام عليه بكل ما تطمح إليه نفسه الزكية؛ لأنه لما قرره سبحانه على شرح صدره ﷺ فكأنه أعطاه ما تطلع إليه نفسه من كل ما يشرح الصدر، فقيل له ألم نعطك ذلك؟ وإن مما تهفو إليه نفسه في مثل هذا الحال هو الكمالات النفسية العلية، وإعلامه برضى الله تعالى عنه، وبشارته بما سيحصل للدين الذي جاء به من النصر والرفعة[2].

هذا هو المعنى الأول لشرح الصدر، وقد فسره به ابن عباس رضي الله عنهما حيث قال شرح قلبه بالإسلام، وعن الحسن، شرح صدره أن مُلِئَ علمًا وحكمًا، وقال سهل بن عبد الله التستري: شرح صدره بنور الرسالة، وعلى هذا المعنى أو هذا الوجه حمل شرح الصدر

1 – انظر أبا السعود، "إرشاد العقل السليم" (٨٨١/ ٥)، روح المعاني، (٢٩٨/ ٣٠).

2 – انظر الطاهر بن عاشور "التحرير والتنوير" (٤٠٨/ ٣٠).

كثير من المفسرين، ونسبه ابن عطية للجمهور.

الشرح الثاني: وهو جواز أن يجعل الشرح شرحًا بدنيًا، إذ لما كان الامتنان عظيمًا من الله تعالى على رسوله ﷺ، فلا مانع أن يشمل الشرح المعنوي والمادي معًا ليكتمل له الفضل ﷺ الذي قرره الله سبحانه عليه، والشرح البدني ابتداء ليس فيه غرابة هذه الأيام حتى يقع تحت طائلة الإنكار، إذ أطباء البشر يقومون به، وإن كان ابتداء وانتهاء ليس ثم شيء خارج عن قدرة الله وقوته.

ونلخص هذا الشرح ونبدأ بالإمام الترمذي - لأن الإمام الترمذي هو من ذكر شق الصدر في تفسير الآية - حيث أخرج حديث شق الصدر في تفسير هذه السورة[1]، فتكون الآية إشارة إلى مرويات في شق صدره شقًا قدسيًا، وهو المروى مطولاً في السيرة والمسانيد[2]، وفي الصحيحين أنه كان يقظة وهو ظاهر ما في البخاري[3]، وفي صحيح مسلم[4] أنه يقظة وبمرأى من غلمان أترابه، وقال أنس بن مالك ﷺ راوى الحديث: وقد كنت أرى أثر ذلك المخيط فى صدره، وفي بعض الروايات أن النبي ﷺ كان بين النائم واليقظان[5].

- والروايات مختلفة في زمان ومكان شق صدره الشريف ﷺ مع اتفاقها أنه كان بمكة.
- وإن اختلاف الروايات حمل بعض أهل العلم على القول بأن شق صدره الشريف تكرر مرتين إلى أربع[6].

---

1 - الترمذى، السنن، باب(ومن سورة ألم نشرح) وقال حديث حسن صحيح(٣٣٥٧)

2 - أحمد، المسند(١٦٩٩٠-٢٠٢١١-١٣٥٥٥)، ابن كثير، السيرة النبوية(١/ ٢٢٩).

3 - البخارى، الصحيح(٣٨٨٧)، باب المعراج.

4 - مسلم، الصحيح(٢٣٦).

5 - البخارى، الصحيح(٣٢٠٧)، باب ذكر الملائكة صلوات الله عليهم، الصحيح(٢٣٨)، باب الإسراء برسول الله ﷺ.

6 - الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير(٣٠/ ٤٠٩).

- وفي الصحيح عن أبي ذر ﷺ أنه كان عند المعراج به إلى السماء[1].
- ووقع له – عليه الصلاة والسلام – أيضًا عند مجيء جبريل عليه السلام بالوحي في غار حراء، وممن روى ذلك الطيالسي والحارث في مسنديهما، وكذا أبو نعيم ولفظه؛ أن جبريل وميكائيل عليهما السلام شقا صدره وغسلاه، ثم قال: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ﴾ الآيات.
- يقول العلامة الألوسي بعد تفسيره للآية: "نعم حمل الشرح في الآية على ذلك الشق ضعيف عند المحققين".[2] ونقول نعم حمل الآية عليه بخصوصه لا غير ضعيف، أما أن يدخل في عموم المنة بشرح صدره الشريف فلا مانع أن يكون الرب جل وعلا قد جمع له – كما جمع له من قبل الأخلاق الكاملة – كافة كل شرح يكون سبب علوه ورفعته، وسبب صبره وتحمله، واستمراره في دعوته، ومن ثم بعد أن ذكر العلامة ابن عاشور مثل كلام العلامة الألوسي رحمهما الله، عقب بما يدل على أن الآية تفيده فقال رحمه الله: " وليس في شيء من هذه الأخبار على اختلاف مراتبها ما يدل على أنه الشرح المراد في الآية، وإذ قد كان هذا الشق معجزة خارقة للعادة يجوز أن يكون مرادًا، وهو ما نحاه أبو بكر بن العربي في الأحكام، وعليه يكون الصدر قد أطلق على حقيقته، وهو الباطن الحاوي للقلب."[3]
- وعلى أي حال فإن كلا المعنيين للشرح يفيد أنه إيقاع معنى عظيم في غاية العظمة لنفس النبي ﷺ إما مباشرة، وإما باعتبار مغزاه كما لا يخفى.[4]
- وقد أيد سياق الآية الكريمة باستخدام الجار والمجرور في قوله تعالى: ﴿لَكَ﴾ ما سبق من ثناء، حيث اللام في قوله ﴿لَكَ﴾ للتعليل، وهو يفيد تكريمًا للنبي ﷺ بأن الله جل وعلا فعل ذلك لأجله، ومن وجهة أخرى يفيد زيادة الجار والمجرور، وتوسيطه بين الفعل

1- البخارى، الصحيح(٣٤٩،٣٣٤٢)، مسلم، الصحيح(٢٣٧).

2- الألوسي، "روح المعاني" (٣٠١/ ٣٠).

3- العلامة ابن عاشور "التحرير والتنوير" (٤٠٩/ ٣).

4- السابق.

ومفعوله بأن الشرح من أول الأمر من منافعه عليه الصلاة والسلام ومصالحه، مسارعة إلى إدخال المسرة في قلبه الشريف، مع استخدام طريقة الإبهام للتشويق، فإنه لما ذكر فعل ﴿نَشْرَحْ﴾ علم السامع أن ثم مشروحًا، فلما وقع قوله ﴿لَكَ﴾ قوي الإبهام فازداد التشويق، لأن ﴿لَكَ﴾ يفيد معنى شيئًا لأجلك، فلما وقع بعده قوله ﴿صَدْرَكَ﴾ تعين المشروح المترقب، فتمكن في الذهن تمام التمكن، وعلم منه كل تلك الأفضال[1].

- وإسناد الفعل إلى ضمير العظمة للإيذان بعظمة ذلك الشرح وجلالة قدره ليظهر ما أشرنا إليه من قبل من دلالة الشرح على شيء عظيم بالغ العظمة للنبي ﷺ.
- نخلص مما سبق إلى وقوع شرح صدر عظيم لا يقادر قدره إلا الله للرسول ﷺ.
- وأن هذا الشرح لصدره الشريف لا خلاف بين العلماء جميعًا أنه وقع معنويًا، وأنه وقع حسيًا عدة مرات، وإنما الخلاف بينهم في كون السورة تدل على الشرح البدني بالذات أو لا؟ فذهب المحققون منهم إلى ضعف ذلك، وذهب البعض إلى أنها تدل عليه، ومن ذهب إلى أن الشرح البدني معجزة خارقة للعادة – وهي كذلك – أكد على أن الآية تدل عليه، ونعود إلى السؤال المفترض أولاً، وهو هل المستمعون من قريش يجيبون ببلى عندما يقرع أسماعهم لأول مرة هذا الاستفهام الإنكاري ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۝١﴾ أم لا؟

فالإجابة أنه على القول الأول بأن الشرح هو المعنوي نجد أنفسنا مضطرين إلى أن نقول نعم! وذلك لما كانوا يطلقونه عليه ﷺ من حميد الصفات قبل البعثة حتى لقبوه بالأمين، وقد ازدادت أمام أعينهم تلك الصفات بعد البعثة خاصة ما يتعلق بشرح الصدر ككظم الغيظ، وتحمل الأذى، والعفو، وعدم مقابلة السيئة بالسيئة مما لا يحصى وقائعه،

1- انظر أبا السعود، "إرشاد العقل السليم" (٨٨١/ ٥)، الألوسي، "روح المعاني" (٣٠١/ ٣٠)، الطاهر بن عاشور، "التحرير والتنوير" (٤٠٩-٤١٠/ ٣٠)، برهان الدين البقاعي، "نظم الدرر" (٨/٤٦٠).

ولا يمكن إنكاره أو دفعه.[1]

أما الشرح البدني..

فما وقع منه إلى وقت نزول الآية كان قبل البعثة، وأن يصل إلى علم أهل مكة فهذا أمر غير مستغرب ولا مستبعد؛ في مجتمع صغير على هذا النحو، وقد ذكرنا شيئًا من هذا في سورة الضحى، حيث تأخر الوحي على النبي ﷺ فإذا بهذا الأمر قد بلغ لكل أحد ساعتها.

فشيوع هذا الأمر بين أهل مكة حال طبيعي من أحوال البشر في نشر وانتشار مثل هذا الخبر، وإنما النقاش الآن في عدم الاهتمام الكافي به، وما يكون ذلك إلا لأنه خبر لا ينبني عليه ما يهم الناس وقتها، ولا هو مؤثر في حيز اهتمامهم وانشغالهم، أما وقد جاء خبر النبوة الصعب، فمن السهل التذكير بما كان مما له علاقة بما هم فيه من أمر الرسول ﷺ والرسالة، وهم يذكرون ذلك جيدًا لعدم دفعهم إياه، أو تكذيبهم به، التكذيب المتعلق فعلاً بعدم الوقوع، ليس الشغب والجحود والمكابرة.

فالقرآن الكريم خاطبهم إذن بأخبار وأحداث يعلمونها، وإلا فإن الكذب في خبر واحد في مثل هذا إنما ينسف الرسالة من أصلها، ويدلل على اختلاقها وأنها ليست من عند الله، وما كان المشركون حينئذ في حاجة لردها بالحديد والنار حيث اختاروا هذا الطريق.

1- أخرج أبو يعلى فى مسنده(١٥/ ١٤٦)، وابن حبان فى صحيحة(٢٧/ ١٨١)، وأبو نعيم فى الدلائل(١/ ١٨١)، وذكره الحافظ فى الفتح(١١/ ١٧٥)، من حديث عمرو بن العاص قال«ما رأيت قريشاً أرادوا قتل رسول الله ﷺ إلا يوم أئتمروا به وهم جلوس فى ظل الكعبة رسول الله ﷺ يصلى عند المقام، فقام إليه عقبة بن أبى معيط فجعل رداءه فى عنقة، ثم جذبه حتى وجب لركبتة، وتضايح الناس، وظنوا أنه مقتول، قال: وأقبل أبو بكر يشتد حتى أخذ بضبع رسول الله ﷺ من ورائه وهو يقول: أيقتلون رجلاً أن يقول ربى الله؟ ثم إنصرفوا عن النبى ﷺ فلما قضى صلاتة مر بهم وهم جلوس فى ظل الكعبة فقال: «يا معشر قريش، أما والذى نفس بيده ما أرسلت إليكم إلا بالذبح» وأشار بيدة إلى حقلة، قال له أبو جهل «يا محمد ما كنت جهولاً» وفى روايه«إنصرف يا أبا القاسم راشداً فوالله ما كنت جهولاً»قال ﷺ «أنت منهم».

• والنبوة لها إرهاصات تسبقها تؤكد صدقها، يدلل عليها الواقع، والحوادث التاريخية، وسير الأنبياء، باستقراء ذلك كله، واطراده فيما جاء التاريخ به من وقائع صحت نسبتها إلى أولئك الذين ادعوا صلتهم بالسماء، وارتباطهم بالوحي، وإن ذلك من إرهاصاتها التي رأى المشركون غيرها في الرسول ﷺ، كالغمامة التي رأوها تظلله وخبر بحيرى الراهب[1] وغير ذلك، مما جعل يَقِر في وجدانهم مثل هذه الأمور الخارقة للعادة التي حدثت لرسول الله ﷺ، والتي ذكرنا أنها من عناية الله تعالى قبل البعثة بمن سيكون رسوله إلى العالمين.

ويمكن أن نصل بافتراضنا إلى أبعد من ذلك، وهو أن الشرح وَقِفَ علمه على الرسول ﷺ، وأن هذا ثناء بينه سبحانه وبين عبده لم يطلع عليه أحد، ليكن ذلك، ولكن يأتي السؤال ألم يواجه النبي ﷺ بذلك الناس جميعًا مخبرًا بهذا الخبر في جملة ما أنبأهم به، وكان داخلاً هذا الشرح في جملة ما تحدى به البشر إلى يومنا، وإلى قيام الساعة؟ لم ينكر ذلك معاصروه، ولا قاموا في وجهه جاحدين له، معترضين عليه، بين مكذب راد عليه ومصفق مستهزئٍ به، بل سلموا ذلك الأمر يوم كانوا كفرة محاربين، وآمنوا وازدادوا تسليمًا بعد ذلك.

لقد أطلت شيئًا ما في هذا الموضوع؛ للنظر الموضوعي المجرد لقضية النبوة، إذ كل

---

1 - اخرج الترمذى(١٢/ ٦٨)، والحاكم فى المستدرك(١٠/ ٨)، وقال صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه، عن أبى بكر بن أبى موسى عن أبيه قال«خرج أبو طالب إلى الشام وخرج معه النبى ﷺ فى أشياخ من قريش فلما أشرفوا على الراهب هبطوا فحلوا رحالهم فخرج إليهم الراهب وكانوا قبل ذلك يمرون به فلا يخرج إليهم ولا يلتفت قال فهم يحلون رحالهم فجعل يتخللهم الراهب حتى جاء فأخذ بيد رسول الله ﷺ قال هذا سيد العالمين هذا رسول رب العالمين يبعثه الله رحمة للعالمين فقال له أشياخ من قريش ما علمك فقال إنكم حين أشرفتم من العقبة لم يبق شجر ولا حجر إلا خر ساجداً ولا يسجدان إلا لنبى وإنى أعرفه بخاتم النبوة أسفل من غضروف كتفه مثل التفاحة ثم رجع فصنع لهم طعاماً فلما أتاهم به وكان هو فى رعية الإبل قال أرسلوا إليه فأقبل وعليه غمامة تظله فلما دنا من القوم وجدهم قد سبقوه إلى فيء الشجرة فلما جلس مال فيء الشجرة عليه فقال انظروا إلى فيء الشجرة مال عليه».

ذلك يدلل عليها، وأن شيئًا من ذلك كله لا يمكن نسبته إلى الرسول ﷺ وما كان ذلك ليكون إلا من خارج محمد عليه الصلاة والسلام، وبقوةٍ قوى البشر بجانبها لا شيء، قوة من بيده الخلق والأمر، والملك والملكوت، بما لا يستطيع عاقل منصف عنده شيء من علم، أو تقدير للحقيقة إلا أن يسلم بنبوة الرسول ﷺ.

وهذا قطرة مما يرد به على "مونتجمري وات" وأذنابه ممن يدعون الحياد أو البحث العلمي، الذين ينفون هذه الروايات[1] وليس الإطالة الآن إلا لهذا الرد على ذلك الهجر وتلك الترهات، من براق القول الخادع، الذي لا يحمل تحته إلا عكسه مع سوء القصد، وفساد النية.

والآن نستكمل البحث مع "وات".

ونبدأ بالقول بملحوظات نسوقها إتمامًا لما سبق

- **الملحوظة الأولى:**

وهي أن "وات" قد بيض كتابه لذكر حديث ابن إسحاق بطوله، وبمنهج "وات" نفسه ما الدافع وراء ذلك؟ - وهو المختصر لمثله – بل للقرآن الكريم حيث يذكر في كثير من الآيات رقم السورة والآية فقط لا يذكر منطوقها، وله دافع وراء ذلك، وهو التلبيس على قرائه، وحذف ما يريد إخفاءه، وتقطيع أوصال النصوص وبترها؛ لينتقي منها ما يظن أنه حجته، أما هنا فأراد أن يطلع القارئ الأوروبي، المادي العلماني على مثل هذا الكلام، قائلاً بلسان حاله هذا محمد ﷺ وهذا دينه، ليقرر هذا القارئ من أول وهله رده للرسول ﷺ وللإسلام، ومن ناحية أخرى يتحصن هذا القارئ أمام استخدام العقل في فهم الإسلام،

---

1 - محمد فى مكة(٣٣-٣٤).

بتصيير هذه القصة حجر عثرة أمام تفكيره وفي كل مناقشاته، إذ يصبح سؤاله دائمًا ألم تذكر روايات الإسلام كذا وكذا عن محمد، وهذا من خبث مقصده ودوافعه في كتاباته عن الإسلام ونبيه – عليه الصلاة والسلام – والرد سهل كما أشرنا لمن يعقل.

- **الملحوظة الثانية:**

أنه لم يقف به التعصب والانحياز السيئ عند هذا الحد، إنه قطع الطريق تمامًا على القارئ أو الباحث أن يفكر في كلامه مجرد تفكير فضلاً عن البحث أو التمحيص وذلك بأمرين مُلِئا غشًا وخداعًا وتدليسًا وكل ما يُستحى من ذكره.

الأمر الأول: بنفي صحة الروايات بحجة أنها غير حقيقية عند المؤرخ العلماني حيث يقول: "لا شك أنها غير حقيقية عند المؤرخ الذي لا يؤمن بالغيب"[1]، وهذا كلام في منتهى السقوط والتهافت لهذه الأسباب:

١. أن صحة الروايات وعدمها ليست لغير المتخصصين في علم الرواية، إذ كيف يتكلم من لا يحسن فيما لا يحسن، إنه حينئذ يتكلم بالكذب، أي بالظن والتخمين – وهو أكذب الحديث – وهو علم خاص بالمسلمين لم تتكلم فيه ولم تبحثه أي أُمَّة غيرهم؛ حيث به حفظ الدين وكلام الرسول ﷺ، بالثقة عن الثقة إلى أن يؤدي آخر ثقة ما سمعه عن رسول الله ﷺ كما هو، واضعين نصب أعينهم قوله ﷺ: «من كذب عليَّ متعمدًا فليتبوأ مقعده من النار[2]» فلا يقبلون أي رواية، خاصة رواية الكذابين وهذا العلم لا حظَّ لغير المسلمين فيه؛ لأن سلسلة الإسناد - حدثنا فلان حدثنا فلان إلى الرسول ﷺ - تعتمد الإسلام والإيمان بنبوة محمد ﷺ، و"وات" يعلم ذلك جيدًا وأنه لا يزيد عن كونه مؤرخًا،

1 - محمد في مكة (٣٣-٣٤).

2 - البخاري، الصحيح(١/ ١٠٦)، باب: إثم من كذب على النبي ﷺ.

لا علاقة له من قريب أو بعيد بالروايات وصحتها، وكل عمله أن يأخذ الرواية ليرى دوافعها وما تنطوي عليها، لا ليردها ما دام نص العلماء على أنها رويت بطريق صحيح، والذي لا يعرفه هو وأمثاله فضلاً عن أن يجيده، وهو لا يشك أنه لا يمت لذلك العلم بصلة، وتلك آراؤه وهذه كتبه لا ترى في أي منها كلمة واحدة نقلاً في هذا العلم.

٢. ثم ننتقل إلى نقطة أخرى، وهي كيف تأخذ هنا بقول المؤرخين العلمانيين، وأنت تتدعي التوحيد[1]، لا شك لأنك لو لم تنقل رد العلمانيين ما كان عندك من رد تدفع به تلك الإرهاصة من إرهاصات النبوة ولكنت سلَّمت فيها بنبوة النبي ﷺ، وهدمت حينئذ دعاويك كافة في ذلك، أو على الأقل سلمت بأمر من أمور السماء المؤيد للنبي ﷺ وبالتالي فلا التوحيد المزعوم اتبعت، ولا الإنصاف والحياد التزمت، فكيف تقبل منك أدنى كلمة؟ قد تقول أنا رددت الرواية تاريخيًا، قلنا أخذت برأي العلمانيين يا أيها الموحد؛ لأنه ليس لك إلا منهجهم لرد الرواية، إذ ليس لك منهج آخر ترد به الرواية صحيحة كانت أو ضعيفة.

٣. اتبع "وات" منهج الانتقاء تأريخًا ورواية، كما ذكرنا في عناصر منهجه فهو يأخذ من المناهج والروايات ما يؤيد قوله، حتى لو كان مخالفًا لما اختطه لنفسه، وهو أن يكتب كموحد، ويأخذ الروايات الضعيفة والمردودة، ويترك الصحيحة مادامت تؤيد ما ذهب إليه، كل ذلك حدث هنا كما ترى، معرضًا عن الحق والنزاهة العلمية، وإلتزام الحياد، واضعًا تحت قدميه كل ذلك.

الأمر الثاني: الذي قطع به طريق البحث، وهو التشكيك واللمز، مع قلب الحقائق التاريخية الثابتة، وتغيير الزمن الذي وقعت فيه، وهذا من عجيب البحث.

---

1 - محمد فى مكة(٤٠).

يقول "وات" عن الروايات التي نحن بصددها عندما قرر أنها ليست حقيقية عند المؤرخ العلماني قال: "لأنها تحاول وصف وقائع يمكن نسبتها لفترات لاحقة من حياة محمد، لكن المؤكد أن هذه الروايات تعبر عن شيء بالنسبة للمسلمين المؤمنين، وبالتالي فهي حقيقية بالنسبة له، ومناسبة لإطالة حياة نبيهم"[1].

وانظر إلى التشكيك، والإفك وقلب الزمان.

المصادر التي ليس له سواها في سيرة النبي ﷺ تذكر لشق الصدر وغيره زمن الرضاع والصبا، ثم يأتي "وات" فيقول هذه يمكن أن تكون بعد أن أصبح نبيًا، أي غير تاريخ الواقعة حوالي أربعين عامًا هكذا؛ حتى يستطيع بذلك التشكيك والتضليل، علاوة على اللمز في أنها تطيل حياة نبيهم، وكأنهم كانوا يسمرون بها في مجالسهم ليس لهم غيرها لتطيل هذه الحياة، مع ذكره أن محمدًا في المدينة انشغل انشغالاً شديدًا بإعداد هؤلاء لما يود أن يقوم به[2].

هذه رواية شق الصدر للرسول ﷺ، وقفنا فيها طويلاً شيئًا ما حيث ذكرنا ما ورد فيها نقلاً وصحة ذلك عقلاً، وأخذنا ورددنا ممجوج الآراء السمجة التي رأينا، وأما غيرها من الآراء فهي لا تعدو هذيانًا، جعلت "وات" نفسه الناصح الأمين للمستشرقين يصفها بالغثيان وشدة التطرف[3] لأنها لا تحمل آراء بقدر ما تحمل سخائم القلوب المريضة التي ظهرت على الألسنة القبيحة بنفس نتن تلك القلوب، وهو يعلمهم كيف يردون بإلباس

1- محمد في مكة (٣٣-٣٤) الطبعة الإنجليزية، عبد الرحمن الشيخ، وآخر(٩٤).

2- محمد في المدينة(٤) تعريب شعبان بركات، منشورات المكتبة العصرية – صيدا – بيروت.

3- محمد في مكة (٨٢)، حيث وصف كلام المستشرقين في العلاقة بين المصادر اليهودية والمسيحية وتعاليم الإسلام، أما شدة التطرف فقد وصف بها آراء "لامانس" نفس المصدر،(٤٤)، وهي أوصاف هينة من "وات" لا تعبر عن الحقيقة أو شيء منها عند هؤلاء الكتاب المستشرقين الذين يشكلون جزءًا هامًا من مراجعه المعتمدة.

هذه السخائم والنقائص ثوب العلم والحياد؛ ليصلوا إلى مطلوبهم بغير ظاهر الشتم والقبائح والمنكر.

قصة بحيرى الراهب:

ونتنقل إلى الحادثة الثانية التي نفاها "وات" مع قصة شق الصدر في قرن واحد متعللاً بأن العلمانيين المؤرخين لا يقبلونها، وقد أورد متنها من إبن إسحاق مع سياق شق الصدر ومن ثم كان ردنا فيها عليه واحدًا، وإن كنا سنزيد شيئًا قليلاً هنا.

وأفردناها هنا لاتصال سيرة النبي صلوات الله وسلامه عليه.

كانت كفالة الرسول ﷺ عندما ولد يتيمًا لجده عبد المطلب، تحت رعاية أمه آمنة بنت وهب[1].

وكانت وفاة والده عبد الله بالمدينة عند أخواله بني عدي بن النجار، عندما أرسله والده عبد المطلب إليها ليشتري منها تمرًا[2].

وكانت حادثة شق الصدر السبب في إعادة حليمة السعدية للرسول ﷺ إلى أمه لأنها خافت عليه، ورغبت في إنهاء مسؤليتها عنه، مع حبها له، وتعلقها به، وبقائه عندها[3].

ظل الرسول ﷺ في رعاية أمه – آمنة – وكفالة جده عبد المطلب بعد إرجاع حليمة له من حضانتها في بادية بني سعد.

1- محمد بن رزق بن طرهوني، صحيح السيرة (السيرة الذهبية)، حواشي، ١٣، ١٤١، وغيرها.

2- ابن عبد البر، الاستيعاب (١٤/ ١)، وروى ابن إسحاقعن شيخه الواقدي قصة أخرى.

3- مسند أحمد (١٨٤،١٨٥/ ٤)، وسند الدارمي (٨،٩/ ١)، ومستدرك الحاكم (٦١٦/ ٢) ويؤيده مرسل الزهري في مصنف عبد الرزاق (٣١٧،٣١٨/ ٥).

وعندما بلغ من العمر ست سنين توفيت والدته آمنة بـ"الأبواء"[1]، وهي راجعة به إلى مكة بعد زيارته لأخوال أبيه في المدينة المنورة، بني عدي بن النجار.

وحملته مولاته حاضنته أم أيمن إلى جده عبد المطلب بمكة فأحاطه بعنايته وبلغت به شفقته عليه، ومحبته له مبلغًا عظيمًا حتى إن عبد المطلب أرسل محمدًا في طلب إبلٍ له، ولم يبعثه في حاجة إلا أنجح فيها، وقد أبطأ عليه، فجعل عبد المطلب يطوف بالبيت وهو يرتجز:

يا رب رد راكبي محمدًا   يا رب رده واصطنع عندي يدًا

فلم يلبث أن جاء محمد ﷺ والإبل، فاعتنقه، وقال: يا بني لقد جزعت عليك جزعًا، لم أجزعه على شيء قط، والله لا أبعثك في حاجة أبدًا، ولا تفارقني بعد هذا أبدًا.

توفي هذا الجد الشفوق عبد المطلب وللنبي ﷺ ثمانى سنوات، فأوصى به جده إلى عمه أبي طالب أخي أبيه.

وكان أبو طالب قبل البعثة وبعدها شديد العناية بابن أخيه ﷺ، فكان لا ينام إلا ومحمد إلى جنبه، ولا يخرج إلا معه، وقد صح ذلك في رحلته إلى الشام ومقابلته لبحيرة الراهب، وظل يحوطه بعنايته إلى أن توفي قبل الهجرة بثلاث سنين.

وكان في صباه ﷺ يرعى الغنم، وقد ثبت أنه عمل في رعيها لأهل مكة مقابل

---

1 - الأبواء: قرية نت أعمال الفُروع من المدينة بينها وبين الجحفة مما يلي المدينة ثلاثة وعشرون ميلاً، معجم البلدان (١/ ٧٩)، معجم البلدان(١/ ٤٤)، باب الهمزة والباء وما يليها وانظر طرهوني، صحيح السيرة، (١٥٧/ ١)، وحواشيه في تصحيح هذه الروايات وتحسينها.

قراريط[1]، وقال في ذلك عليه الصلاة والسلام: «ما من نبي إلا وقد رعى الغنم، قالوا: وأنت يا رسول الله؟ قال: نعم، كنت أرعاها على قراريط لأهل مكة» وكان يرعى غنم أبي طالب، وكان في ذلك يساعده لكثرة عياله، ومراعاة لحاله.

وإن من أبرز الحِكَمِ في رعي الغنم كما قال ابن حجر[2]: "قال العلماء الحكمة في إلهام الأنبياء من رعي الغنم قبل النبوة أن يحصل لهم التمرن برعيها على ما يكلفونه من القيام بأمر أمتهم، ولأن مخالطتها ما يحصل لهم الحلم والشفقة؛ لأنهم إذا صبروا على رعيها وجمعها بعد تفرقها في المرعى، ونقلها من مسرح إلى مسرح، ودفع عدوها من سبع وغيره كالسابق، وعلموا اختلاف طباعها، وشدة تفرقها مع ضعفها واحتياجها إلى المجاهدة ألفوا من ذلك الصبر على الأُمَّة..." ثم قال: "وفي ذكر النبي ﷺ لذلك بعد أن علم كونه أكرم الخلق على الله ما كان عليه من عظيم التواضع لربه، والتصريح بمنته عليه، وعلى إخوانه من الأنبياء".

وقد تجلى في ذلك إحساسه الدقيق، مع ذوقه العالي ﷺ إذ إنه ما إن أنس في نفسه القدرة على الكسب حتى أقبل عليه ليرفع شيئًا من مؤنة الإنفاق على عمه، وقد اقتضت حكمة الله أن نفهم أن خير مال الإنسان ما اكتسبه بجهده وعرقه وأن قيمة الإنسان فيما يقدمه لمجتمعه من نفع قدر طاقته.

وأصحاب الدعوات لا قيمة لهم إذا كان كسبهم من عطايا الناس وصدقاتهم، بل يجب ألا يكون لأحد عليه منة تمنعه من القيام بدعوته والصدع بكلمة الحق[3].

1- رواه البخاري (فتح الباري ٤/١٤١، ٦/٤٣٨)، وصحيح مسلم بشرح النووي ٥-١٤/٦، وقد ذكر ابن حجر أن للعلماء قولين في معنى قراريط، أولهما: القيراط جزء من الدينار أو الدرهم، وثانيهما: أن قراريط اسم موضع بمكة.

2- ابن حجر، الفتح، (٥٤٥٣)، مهدي رزق الله، السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية،(١٢٤).

3- البوطي، فقه السيرة،(٥٤-٥٥).

بناء على ما تقدم جاءت قصة بحيرى..

فمن محبة أبي طالب للنبي ﷺ وظهور هذه الصفات النبيلة فيه، اصطحبه أبو طالب في سفرة تجارية له إلى الشام، وكان ثمَّ راهب يدعى بحيرى في طريقهم، فلما حلوا رحالهم نزل إليهم، وكان قبل ذلك لا يكلمهم ولا يلتفت إليهم، وصنع لهم طعامًا، وأخبرهم أن رسول الله ﷺ هو سيد العالمين، وأشار إلى الغمامة التي تظله، وفيء الشجرة الذي مال عليه، ونظر خاتم النبوة بين كتفه الشريف، وعرفه بأوصافه المبشر بها عنه في كتبهم، وأمر وليه أبا طالب أن يرجع به خوفًا من يهود ومن الروم[1].

ونميل للحق مع من ذهبوا لتصحيح هذا الحديث من العلماء نظرًا للردود العلمية التي فيها مقنع كاف بذلك، وردود - حسب نقد الروايات الشديدة عند علماء المسلمين - قوية على حجج أولئك الذاهبين إلى إنكار الرواية من العلماء.

والآن نعرج على بعض الآيات القرآنية – كما هو منهجنا في هذه الدراسة – ثم نعود إلى مناقشة "وات"، وهذه الآيات هي دراسة شيء ما جاء في القرآن الكريم يؤيد هذه الجزئية،

1_ اختلف العلماء في هذا الحديث قديمًا وحديثًا، فقد حسنه الترمذي وصححه الحاكم (٦١٦/ ٢)، والألباني في حاشية فقه السيرة للغزالي(٦٨)، ودفاع عن الحديث النبوي(٦٢-٧٢)، قال "وإسناده صحيح كما قال ابن الجزري"، ومحمد الصادق عرجون، محمد رسول الله، (١٦٩-١٧١/ ١)، وشعيب وعبد القادر الأرناؤوط على حاشية زاد المعاد (٧٦/ ١)، وابن القيم صاحب الزاد (٧٦/ ١)، وابن حجر، وقال: "رجاله ثقات، وليس فيه سوى هذه النقطة – أي ذكر أبي بكر وبلال – فيحتمل أن تكون مدرجة فيه منقطعة من حديث آخر وهمًا من أحد رواته" نقلاً عن شرح الزرقاني على المواهب اللدنية (١٩٦/ ١). وأنكر هذا الحديث الإمام الذهبي وغيره وقال: "وهو حديث منكر جدًا" تاريخ الإسلام السيرة،(٥٧)، وترى مما سبق الإطالة فيه مدى النزاهة والحياد والعلمية في النقد، وليست لكونها تثبت نبوة النبي مثلاً ﷺ يصححونها، أو لأنها مما يرد به على النصارى فيدافع عنها، ولم يكن قول أحدهم إذ عرض عليه أن يقول دعها نرد بها عليهم وإنما كان قولهم هو موضوع، لأنهم يراعون بعلمهم وجه الله تعالى، وكما لا يكذبون عليه ﷺ لا يكذبون له، وإنما رائدهم ما صح عنه فيسلمون به، خلافًا لهؤلاء المستشرقين في افتراء الأقاويل، وتصحيح الأباطيل ليصلوا إلى النتيجة المحسومة عندهم سلفًا.

ويكمل صورة السيرة، لتكون قرآنًا وسنة، مع مسح رأى المستشرقين الذين أرادوا تشويهها.

وسنقتصر هنا على آيتين كريمتين تؤيدان القصة، ومن ناحية لو لم تكن القصة موجودة لكانتا مع غيرهما من الآيات التي أرجأنا ذكرها لمكان آت كفيلة بتوضيح أو رسم هذا الجانب من سيرته المشرفة كسيرة قرآنية، نسوق الآيتين أولاً ثم ننظر في تحليلهما ودلالتيهما:

الأولى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٤٦]

الثانية: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمُ ۘ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠﴾﴾ [الأنعام: ٢٠]

بالنظر في تحليل وتفسير الآيتين رأيناهما يستدلان على أن المقصود بهما هو النبي ﷺ ولكن من وجهين لا كما يبدو من أول وهلة؛ ففي الآية الأولى الضمير المنصوب في ﴿يَعْرِفُونَهُۥ﴾ عائد على النبي ﷺ لما علم من الكلام السابق، وتكرر خطابه فيه من قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ﴾ [البقرة: ١٤٣]، وقوله: ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ﴾، وقوله: ﴿فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً﴾، وقوله: ﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ﴾ [البقرة: ١٤٤].

فالإتيان بالضمير بطريق الغيبة من الالتفات، وهو على تقدير مضاف أي يعرفون صدقه، أو يعرفونه بصفاته وأخلاقه وزمانه ومبعثه ومهاجره إلى آخره معرفة لا تقبل اللبس كما يعرفون أبناءهم معرفة جلية متحققة، وأن معرفة هذا الحق ثابتة لجميع علمائهم، كمعرفة الأبناء بسبب تعلق الآباء بهم، فيكون التملي من رؤيتهم كثيرًا فتتمكن معرفتهم تمام التمكن.

وهؤلاء الذين آتاهم الله الكتاب ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ﴾ هم أحبار اليهود والنصارى

الذين أوتوا علم التوراة والإنجيل كبحيرى هذا وغيره.

وقوله تعالى: "وإن فريقًا منهم ليكتمون الحق وهم يعلمون"، وهم معظم الذين أوتوا الكتاب، ثم بقي فريق آخر يعلمون الحق ويعلنون به، وهم الذين آمنوا بالنبي ﷺ من اليهود قبل عبد الله بن سلام الحبر اليهودي الذي أسلم، وتميم الداري النصراني الذي أسلم أيضًا.

ودلت الآية على أنه لا يعبأ ولا يلتفت لهؤلاء الذين لا يعلمون الحق فضلاً عن أن يكتموه إذ لم يدخلوا في قوله: "الذين آتيناهم الكتاب" [الأنعام: ٢٠]، ولا يشملهم قوله: "يعرفونه كما يعرفون أبناءهم".

أما الآية الثانية:

فالضمير في قوله: "يعرفونه" عائد إلى القرآن الكريم؛ إذ لم يسبق ذكر للنبي ﷺ، وهو المخاطب، بل جرى ذكر القرآن الكريم في قوله تعالى: "لأنذركم به ومن بلغ" في قوله تعالى: "قل الله شهيدٌ بيني وبينكم وأوحي إلي هذا القرآن"[الأنعام: ١٩].

وقد جاءت جملة: "الذين آتيناهم الكتاب" مستأنفة، انتقل بها أسلوب الكلام من مخاطبة الله تعالى المشركين على لسان الرسول ﷺ إلى إخبار عام كسائر أخبار القرآن الكريم، وهذا الانتقال ليثبت استشهادًا جديدًا على صدق القرآن الكريم وهو الآية المعجزة العامة الدائمة المتضمن صدق من جاء به وهو النبي ﷺ وذلك بعد شهادة الله في قوله: "قل الله شهيد بيني وبينكم".

وقد كان المشركون يقدرون أهل الكتاب ويثقون بعلمهم، وربما اتبع بعض المشركين دين أهل الكتاب كورقة بن نوفل إلى أن بعث النبي ﷺ فكانت شهادتهم عند المشركين موثوقاً بها إذا أدوها ولم يكتموها.

وفي الآية بالتالي تسجيل على أهل الكتاب بوجوب أداء هذه الشهادة إلى الناس وفي ذلك دعوة لإسلامهم، ولذا ختمت الآية بقوله تعالى: "الذين خسروا أنفسهم" من المشركين، ويصح أن تكون بدلاً من "الذين آتيناهم الكتاب" الخسران المبين بعدم إسلامهم، فكلاهما هالك برد الحق أو كتمه بعد شهادة الله، وشهادة الأحبار والعلماء من أهل الكتاب.

وإن من دواعي إسلامهم الأكيدة أنهم يعرفون هذا الكتاب، وأنه الحق من ربهم، ومن حقه وما تضمنه صدق رسالة محمد ﷺ وصدق ما جاء به حيث بشَّرت كتبهم به أيضًا وبصفاته وغير ذلك ﷺ يعرفونه معرفة أبنائهم، معرفة التحقق والجزم، إذ لا يضل المرء عن معرفة شخص ابنه وذاته إذا لقيه، وأنه هو ابنه المعروف[1]، وما ينكر ولده حينئذ إلا جحدًا وعنادًا وغيرهما، وهو في قرارة نفسه يعلم أنه ابنه بلا شك.

بهذا العرض الموجز للآيتين الكريمتين وهما قليل من كثير يتبين كيف وضح القرآن الكريم تمام التوضيح صورة النبي ﷺ في الكتب السابقة وجلاها على أبهى سيرة وأحسنها ليقطع العذر وليقيم الحجة.

وكانت الآيتان الكريمتان مما توافق فيه قصة السيرة – قصة "بحيرى" الراهب– مع القرآن الكريم، فثبتت قرآنًا وسُنَّة.

ونلاحظ أن الرواية كانت والنبي ﷺ يبلغ من العمر اثني عشر سنة، ولم يكن ثَمَّ نبوة ولا وحي ولا قرآن، فعندما يأتي القرآن بمثل ما أتى به ذلك القصص فلا شك أن ذلك القصص صحيح، وجاء القرآن الكريم ليؤكده ويثبت وقوعه.

1- انظر لما سبق بتصرف كبير الطاهر بن عاشور "التحرير والتنوير" (٣٩-٤٠/ ٢)، (١٧٠-١٧٢/ ٧).

نعود لنناقش "وات" حيث ذكرنا قوله بعدم صحة القصة، مع قصة شق الصدر تاريخيًا، وأنه احتج بالعلمانيين في إنكار ما يود إنكاره وتضطره نتيجة البحث المسبقة إلى نفيه، وقد نفاه هنا بما لا يعتقده حيث يدعي أنه يكتب كموحد، ومعنى ذلك أنه إذا لم يسعفه التوحيد، أسعفه الكفر! للأسف! فكلاهما حق عندما ينظر إلى الإسلام، وكما وعدنا سنزيد ردًا قليلاً هنا حيث رددنا هنالك عقب قصة شق الصدر ردًا مطولاً، أما ما نزيده هنا:

فأوله: أن إنكار "وات" للقصة فإنه لما تحمله من مضامين دينية، إذ هي اعتراف مسيحي بنبوة النبي ﷺ من حبر من أحبارهم، أو راهب من رهبانهم انتهى إليه علم النصارى، وهو ما سعى "وات" في كل كتاباته لنفي نبوة الرسول ﷺ بل حاول كذلك في كل كتاباته أن يثبت التأثير المسيحي اليهودي على تعاليم الإسلام، وأنه ليس إلا خليطًا منها متوائماً مع البيئة العربية كما أشرنا من قبل[1].

الملحوظة الثانية:

وهي قضية "وات" أيضًا، وهي التأثير اليهودي - المسيحي على تعاليم الإسلام، فقد ذكر بعض المستشرقين هذه الأضحوكة، وهي أن الرسول ﷺ في هذه الرحلة تلقى علم التوراة من بحيرى في هذا اللقاء العابر، ومأدبة العمل هذه، وهو في سن الثانية عشر على الأكثر، بعد أن تأكد بحيرى أن محمدًا ﷺ هو سيد العالمين، ورحمة الله للعالمين، كيف لغلام في الثانية عشر من عمره أن يتلقى علم التوراة، ويكون له أثره عليه وعلى تعاليم دينه في ساعة من الزمان، وهم يأكلون، ليس هناك إذن أسوأ من الاستخفاف بالعقل وقلب الحقائق بسبب التعصب الأعمى.

---

1 - انظر عبد الله النعيم "الاستشراق في السيرة النبوية" (٦١-٦٢).

ذكرت القصة أن الراهب لم يبق محمدًا معهم إلا حال تعرفه على أوصافه، وأنه النبي المبعوث، ثم ناشد عمه أبا طالب أن يرده سريعًا إلى مكة؛ خشية من إيذاء اليهود والروم له، فلم يبقه في الركب معهم حتى نقول جلس عنده أو قابل غيره بل أمر برجوعه توًا إلى مكة، وأين قوله «هذا رحمة الله للعالمين»، «وهذا سيد العالمين»، وبعد ذلك يجلس ليعلمه التوراة، أبعد أن علم نبوته، يقول له هيا لأعلمك ما لن يعلمه الله لك؟! أو ما سوف يعلمه الله لك بعد سنين متطاولة، هذه عجائب المخلوقات ولولا أن هذا الكلام قد قيل ما سودنا به تلك الأسطر.

ومحمد ﷺ في هذه الفترة – تنزلاً معهم – هؤلاء المتعصبين – لا يعرف القراءة ولا الكتابة فكيف تعلم؟ وإن عرفها لم تكن الكتب السابقة قد ترجمت للعربية، فإنها لم يترجمها أصحابها إلا قريبًا بعد انتقاله إلى الرفيق الأعلى بقرون طويلة، الكلام كثير في الرد عليهم وأما مقصودهم ففي النهاية هو رد أصول الإسلام إلى التوراة، فأين ذلك في تعاليمه؟ وهل حارب اليهود وأجلاهم عن المدينة، وأبقى تعاليمهم في كتابه وسيرته، إلا إذا كان مؤدى تلك التعاليم أن هؤلاء قوم لا بد أن يقاتلوا، وأن يجلوا عن المدينة، وعن جزيرة العرب، وأن يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون، وأنهم قوم بهت وسوء، لا عهد لهم ولا ذمة، قد بدت البغضاء من أفواههم، وما أخفت صدورهم أكبر، وودوا لو تكفرون، كانت فرية إذن أن رسول الله ﷺ قد تأثر بهؤلاء، والعجب أن يأتي مدعو العلم والمنهجية ليرددوها بكل برود تقليدًا لأخلاق أسلافهم تلك، وما استحيوا أن يرددوا كذبًا ممجوجًا يعلمونه، ولكنهم استخفوا بعقول مريضة، أو عقول ممسوحة، أو عقول لا تفكير فيها ولا نظر لها، كل ذلك ليحموا بني جلدتهم ويحصنوهم ضد الإسلام ويعموا على أبصارهم وعقولهم حتى لا ترى النور، مع تشكيك المسلمين في دينهم.[1]

[1] – وات، محمد فى مكة (٤٠).

المبحث السابع

حفظ الله تعالى لنبيه ﷺ قبل البعثة

إن رجوعًا إلى حادث شق الصدر، وما سبقه من إرهاصات عند مولده ﷺ — وما تبعه من وقائع خارجة عن العادة حدثت للنبي ﷺ، خاصة في سفره إلى الشام ليدل دلالة قاطعة على عناية الله به، ورعايته إياه، وأنه كما قيل لموسى عليه السلام: ﴿وَلِتُصۡنَعَ عَلَىٰ عَيۡنِيٓ﴾ [طه: ٣٩] وقوله: ﴿وَٱصۡطَنَعۡتُكَ لِنَفۡسِي﴾ [طه:٤١] فهو إذًا ﷺ يصنع على عين الله تعالى، لنفسه وما يريده له، وما يأمره به ويطلبه منه، ومن ثم كان منطقيًا أن نراه ﷺ محفوظًا عن رجس الجاهلية وأقوال الكفرة، وأفعالهم وصفاتهم، خاصة ما يكون منها متعلقًا بعبادتهم أو معبوداتهم، وكذلك مما يؤكد عليه فى هذا المقام أنه كان معصوما قبل البعثة بما يشين بعد البعثة، وهذا يوافق العقل.

وعليه نشير إلى أمور وقعت له في سيرته المشرفة ﷺ نستدل بها ونعلق عليها تدل على هذه الصيانة من الله تعالى، وكيف أنه لم يصدر من المشركين مع شدة الأذى، وتلمسهم أي صغيرة ينفذون بها إلى شينه، لم يصدر منهم ما يعيرونه به، أو يلمزونه به، بل على العكس كان يحظى في تلك الأخلاق بكامل الاحترام قبل البعثة وبعدها، إلا ما كان منهم قبل إيمان من آمن من مجابهة الرسالة والرسول ﷺ.

من هذه الأمور التي عصم منها وهي تشير إلى ما وراءها، فنبدأ بها لذلك.

الأمر الأول: وهو أن الله عصمه من سماع ومشاهدة الأعراس، والسمر واللهو كما يلهو أمثاله في صباه أيام كان يرعى الغنم في مكة.[1]

الأمر الثاني: ثبت أنه نهي عن رفع إزاره وهو رجل عند نقله الحجارة مع عمه العباس عند تجديد قريش لبناء الكعبة، فقد اقترح عليه العباس ﷺ أن يرفع إزاره، ويجعله على رقبته ليقيه أثر الحجارة، مادام بعيدًا عن الناس فلما فعل خر مغشيًا عليه، فلما أفاق طلب أن يشدوا عليه إزاره[2] والعري لم يكن مستنكرًا إذ كان هناك من يطوف بالبيت عريانًا، وقد استمر ذلك حتى منعه النبي ﷺ بعد فتح مكة في حجة الصديق سنة تسع للهجرة، حيث أمر الصديق بإبلاغ الناس ألا يحج بعد هذا العام مشرك، وألا يطوف بالبيت عريان[3].

وقد علق شارح البخاري الحافظ بن حجر على هذا الحديث بقوله: "وفي الحديث أنه ﷺ كان مصونًا عما يستقبح قبل البعثة وبعدها".[4]

وبالنظر في الأمرين يتجلى بوضوح ما كان من تربية الله له، وبحفظه من تلك القبائح التي تُعد في نظر المعاصر لها من الأمور العادية، بل والناظر لها الآن، وهذا يدلنا على حفظه لما هو أكبر منها، فإذا كان محفوظًا في الصغير فمن باب الأولى أن يكون محفوظاً في الكبير.

---

1 - اختلف العلماء في تصحيح هذا الخبر، فصححه الحاكم فى المستدرك (٤/ ٢٥٤)، والذهبي وغيرهما، وضعفه الإمام بن كثير في البداية والنهاية (٢/ ٢٨٧)، وكذا الشيخ الألباني في تخريجه لفقه السيرة لمحمد الغزالي (٧٢)، وقال الحافظ بن حجر: إسناده حسن متصل ورجاله ثقات، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٩/ ٢٢٩) رواه البزار وإسناده ثقات كما ذكر ذلك محققًا دلائل النبوة لأبي نعيم (١/ ١٨٦).

2 - البخاري (٣٥١)، ومسلم (٥١٥) من حديث جابر رضي الله عنه.

3 - البخاري (١٥١٧) ومسلم (٢٤٠١) عن أبى هريرة رضى الله عنه.

4 - ابن حجر، "فتح الباري" (١/ ٤٧٥).

فوجدنا مكانة النبي ﷺ الأدبية في المجتمع القرشي لا يدانيها مكانة سموًا وعلوًا تدل على ما وصل إليه توفيق الله له، وحفظ الله إياه، ومن ذلك اختلافهم في وضع الحجر الأسود عند تجديد بناء الكعبة، إذ انتهوا بالرضا بتحكيم أول داخل من باب بني شيبة، فإذا هو رسول الله ﷺ فقالوا: «أتاكم الأمين»[1]، أما ما كان من عبادة قريش ووثنيتها، فكان يفيض عن عرفة في الحج، كما ذكره جبير بن مطعم حين رآه واقفًا بعرفة فقال: هذا والله من الحمس فما شأنه ها هنا؟!![2]

علي حين تفيض الحمس، وهم قريش من مزدلفة، وكان يستمسك بإرث إبراهيم وإسماعيل في حجهم وبيوعهم ونكاحهم[3]وهذا من توفيق الله له قبل البعثة أما أصنامهم فلم يمس صنمًا فضلاً عن الطواف به، أو السجود له والاعتكاف عنده، فيذكر مولاه زيد بن حارثة رضي الله عنه أنه كان يطوف مع الرسول ﷺ أي قبل البعثة بالبيت العتيق، فلمس زيد بعض الأصنام فنهاه رسول الله ﷺ عن ذلك، ثم عاد زيد لمسها ليتأكد من الأمر، فنهاه ثانية فانتهى حتى كانت البعثة، وقد حلف زيد بن حارثة بأن رسول الله ﷺ ما مس منها صنما حتى أكرمه الله بالوحي[4]. وكذلك ما كان يأكل ما ذبح على النصب، حيث التقى بزيد بن عمرو بن نفيل وهو أحد الحنفاء الذين تركوا دين قريش بأسفل مكة، وقدمت للنبي ﷺ سفرة فخشي أن يكون مما ذبح على النصب فأبى أن يأكل، ولم يكن يعلم ذلك عن رسول الله ﷺ، وقد بين شراح الحديث أنه ما كان يأكل ما يذبح على النصب[5]، وهذا قليل من كثير في سيرته وأخلاقه ومعاملاته قبل البعثة مما يبين الإعداد الإلهي له ﷺ لتحمل هذا العبء

1- أحمد، "المسند" (٤٢٥/ ٣)، والحاكم، "المستدرك" (٤٥٨/ ٣).

2- البخاري (١٥٥٣)، ومسلم (٢١٤٢).

3- البيهقي، "دلائل النبوة" (٣٧/ ٢).

4- الطبراني، "المعجم الكبير" (٨٨/ ٥)، والبيهقي، "دلائل النبوة" (٣٤/ ٢) والحاكم في المستدرك وحسنه الذهبي في السيرة النبوية من تاريخ الإسلام راجع د.أكرم العمري، "السيرة النبوية الصحيحة" (١١٧/ ١).

5- صحيح البخاري (فتح الباري ١٤٢/ ٧، ٦٣٠/ ٩).

الضخم من تبليغ رسالة الله تعالى، والقيام بمشاقها.

وكان منطقيًا كما رأينا أن تتم العناية به ﷺ والصيانة له على أحسن حال وأتم وجه، وكان متسقًا ومتوافقًا تمام الاتساق والتوافق فى كل هذه الأخلاق الحسنة وغيرها مع الإرادة الربانية التي اختارته؛ إذ ما سمعنا عن مثل ذلك لغيره، لو كانت الأمور بالتدريب والمجاهدة ورياضات النفوس، أو بالثقافة التي يدعيها "وات" لكان لغيره خاصةً الحنفاء ومن تنصر كورقة اليد الطولى إذ كان يقرأ ويكتب من الكتاب العبراني ما شاء الله له، وعلى علم بحال قومه وزاد بعلمه بأحوال النصارى واليهود من حرف منهم وزاغ، ومن بقى على الدين الأول، فلا مرد لذلك، ولا مرجع له إذن إلا اتصال الأرض بالسماء لإعداد هذا النبي المنتظر.

وإن بيئة تساوى الجميع فيها مع محمد ﷺ ولم تكن بالعالية كالملأ المكي، ولا المتدنية كالمقابل لهم، لم تكن لتخرج هذا الشخص العظيم الذي علا الجميع بغير محاولة منه بما هم مشتركون فيه.

إن ذلك دليل خارج عن نطاق البشر، ويستدل به ويبرهن على نبوة ذلك الأمين الصادق ﷺ.

المبحث الثامن

زواجه ﷺ من خديجة رضى الله عنها.. التعليق على «وات»

وكان زواجه ﷺ من خديجة بنت خويلد بن أسد أحد العلامات البارزة في رعاية الله تعالى له، وإظهار فضله وشرفه، وإعداده لهذه المهمة النبيلة، إذ كان هذا الزواج بعرض من خديجة نفسها، وذلك لما بلغها من صدق حديثه، وعظيم أمانته، وحسن أخلاقه حيث قد انتشر ذلك وذاع عنه في مكة مما يدل على أنه لم يبلغه آخر في نفس ظروفه ﷺ، ثم تابعت ذلك بالتأكد والتحري بنفسها، وهي من هي حزمًا وشرفًا، فقد كانت في أوسط قريش نسبًا وأعلاهم فضلاً وأكثرهم مالاً، ولقد نودي عليها بالعفيفة الطاهرة، وكانت امرأة لبيبة حرص رجال كثير من علية قومها على الزواج منها.

كانت خديجة تضارب في مالها الكثير، وتنتقي من الرجال أشرافهم وأمناءهم ليتجروا لها فيه نظير معلوم من المال، فما أن سمعت بمحمد ﷺ حتى بعثت إليه، وعرضت عليه أن يخرج متاجرًا في مالها إلى الشام، مع إضعاف الأجر له عن غيره فوافق، وخرج مع غلام لها يدعى ميسرة، ولقد رأى من الآيات التي جرت للنبي ﷺ والمعجزات ما حكاه لسيدته خديجة، فرغبت في الزواج منه.[1]

وأن يكون لهذا الزواج أسبابه الوجيهة القوية هو منطق الأشياء، وواقع الأمر وطبائع

1- الطبراني في الأوسط،، وقال الهيثمي في المجمع (٨/٢٥٦) وإسناده حسن.

الناس، وعاداتهم من قديم، مما يؤكد أقرب الأسباب المذكورة التي لم يجادل فيها أحد بما يثبت بها لا يدع مجالاً للقول أو منفذًا للشك أن أخلاقه وسيرته كانت مشتهرة بين القوم، وتناقلها الإخباريون كلهم والرواة، ولم يردها أحد، أو يجادل ويشكك في وجودها حينئذ أحد[1].

وقد خطب رسول الله ﷺ خديجة من أبيها خويلد بن أسد[2] فزوجه منها، وذهب ابن إسحاق إلى أن خديجة كانت في الثامنة والعشرين من العمر، وذهب الواقدي[3] إلى أنها كانت في الأربعين، وأن الذي تولى زواجها هو عمها عمرو بن أسد لأن أباها قد هلك قبل يوم الفجار، وهي الحرب بين قريش وحلفائها من جهة، وقيس عيلان من جهة أخرى، ولكن الراجح أن أباها هو الذي ولى نكاحها، لأن الأحاديث في ذلك أقوى، ويعتضد بعضها ببعض.[4]

تزوج رسول الله ﷺ بخديجة، وسكن في بيتها، وولدت له أولاده جميعًا، ذكرين القاسم - وبه يكنى - وعبد الله الملقب (بالطيب والطاهر) وأربع بنات هن زينب وأم كلثوم وفاطمة ورقية وهذا يرجح رواية ابن إسحاق في أنها كانت في الثامنة والعشرين من

---

1 - ابن اسحاق، وابن هشام، "السيرة النبوية" (١٢١-١٢٢/ ١).

2 - الزهري، "المغازي النبوية"(٢٤)، وابن إسحاق، السيرة النبوية لابن هشام، (١٢٢/ ١).

3 - ابن سعد، الطبقات (١٣٢-١٣٣/ ١)، الطبري (٢٨٢/ ٢)، ووافقه على ذلك السهيلي، "الروض الأنف" (٢١٣/ ١) وابن سيد الناس، "عيون الأثر" (٥٠/ ١)، وابن عبد البر، "الاستيعاب" (٢٨٠/ ٤)، والشامي، "سبل الهدى والرشاد" (٢٢٤/ ٢)، وانظر د. مهدي رزق الله، "السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية"(١٣٤-١٣٥)، وأيد ابن حجر أن أباها زوّجها "فتح الباري" (١٣٤/ ٧)،وانظر د. أكرم العمري، "السيرة النبوية الصحيحة" (١١٣/ ١)، وذهب محمد بن رزق بن طرهوني، "صحيح السيرة النبوية" (السيرة الذهبية) إلى صحة تزويج أبيها إياها، وهو سكران (٢١٥-٢١٦/ ١).

4 - د. مهدي رزق الله، "السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية"(١٣٥).

عمرها، إذ الغالب أن المرأة تبلغ سن اليأس من الإنجاب قبل الخمسين.[1]

فأما القاسم وعبد الله فماتا قبل الإسلام، وأدركت البنات الإسلام فأسلمن وهاجرن مع النبي ﷺ.[2]

توفيت خديجة قبل هجرة النبي ﷺ إلى المدينة بثلاث سنوات[3]، وذلك قبل حادثة الإسراء والمعراج، في نفس البيت، ولم يتركه الرسول ﷺ إلا بعد الهجرة حيث أخذه عقيل بن أبي طالب فيما أخذ[4].

كانت خديجة رضي الله عنها أول من تزوج رسول الله ﷺ ولم يتزوج عليها حتى ماتت وإن كانت هي قد تزوجت قبله مرتين، فكانت ثيبًا وأكبر سنًا منه مما يدل على عدم اهتمام النبي ﷺ بما يهتم به أقرانه من متعة الجسد، وإلا لابتغى من هي أصغر منه سنًا، وبكرًا تلائمه ولكنه رغب في خديجة رضي الله عنها التي كانت تلقب بالعفيفة الطاهرة، وظل هذا الزواج قائمًا حتى ناهز هو ﷺ الخمسين من عمره الشريف، مما يدل دلالة قاطعة على أن التعدد ما كان بعد ذلك لدوافع الشهوة والمتع الزائلة، ولو شاء لوجد الكثير دون خروج عن عادة وقيم ومألوف القوم حينئذ.

إن الثابت في الصحيحين وغيرهما من دواوين السنة والسيرة تؤكد المكانة التي حلتها خديجة من الرسول ﷺ قبل البعثة وبعدها إلى يوم القيامة، وعلى تلك الدرجة العالية لها عند

1- د. أكرم العمري، "السيرة النبوية الصحيحة" (١١٣/ ١).

2- ابن حجر، "فتح الباري شرح صحيح البخاري" (٢٩١/ ١٤)، ابن كثير، "البداية والنهاية" (٣١٨-٣١٩/ ٢)، ابن إسحاق، ابن هشام، "السيرة النبوية" (١٢٢-١٢٣/ ١).

3- ابن هشام، "السيرة النبوية" (٤٦-٤٧/ ٢).

4- الفاكهي، "أخبار مكة" (٧/ ٤).

ربها، وعلى فضلها في دين الإسلام وفي عنق المسلمين. حيث ورد منه ﷺ الثناء الضخم عليها، والوفاء الجميل عند ورود ذكرها، أو مرور شيء من سيرتها، أو عند رؤية أحد من صدائقها وخليلاتها، مع إظهار النبي ﷺ لمحبتها، وتأثره عند ذكرها بعد وفاتها، وإشهار حسن موقفها منه ووقوفها وراءه تؤمن به، وتشد أزره، حتى قال ﷺ:"خير نسائها مريم، وخير نسائها خديجة"[1] مما يؤكد في الإسلام تلك الأخلاق الحسنة من جهة، ومن جهة أخرى أن النساء شقائق الرجال، وفيهن من وصلت إلى هذه الدرجة العالية الرفيعة، مما يجعلها القدوة والأسوة لنساء المسلمين اللاتي يبتغين رضا الله، ويردن رفعة أوطانهن، وبالتالي فإن في التصفح لسيرتها وسيرة بقية المسلمات القانتات لزادًا عظيمًا تتزوده المرأة المسلمة في هجير المادة اللافح الذي نعيشه اليوم.

نعود لتعليق "وات" على هذا المبحث..

ولولا أن ذلك من منهج هذا البحث لما أعدنا النظر فيه، ولا الالتفات إليه، إذ هو مسخ من العقل، وتناقض من القول، وتلاعب بالألفاظ، فهو يستغفل القارئ، ويوهمه – يخبره – بالشيء ونقيضه، وللأسف هو قول طويل، ونقله والتعليق عليه ثقيل على النفس، ولأن فساده يغني عن إفساده، لأن عواره ظاهر لمن عنده مسكة من العقل، ولكن نقل بعضه حجة وبرهانًا على ذلك السوء البالغ المسمى بحثًا ومنهجًا تاريخيًا وغيره من مهول

---

1 - البخاري، الصحيح (٣٨١٥)، مسلم (٢٤٣٠)، وانظر في فضل السيدة خديجة رضي الله عنها، البخاري أيضًا "الفتح" (٣٨١٨-٣٨٢٣/ ح)، ومسلم بشرح النووي (٢٠٢/ ١٥)، والبداية والنهاية لابن كثير (٣١٨-٣٢٠/ ٢) ومن تلك الأحاديث أيضًا ما رواه أبو هريرة قال: " أتى جبريل النبي ﷺ – فقال: يا رسول الله، هذه خديجة قد أتت معها إناء فيه =إدام أو طعام أو شراب، فإذا هي أتتك فاقرأ عليها السلام من ربها ومني، وبشرها ببيت في الجنة من قصب لا صخب فيه ولا نصب البخاري (٣٨٢١) ومسلم (٢٤٣٢).

القول الذي ليس تحته شيء، وإنما هو جعجعة يدخل بها في روع من أمامه.

يقول[1]: من وجهة نظر المجتمع المكي، كان محمد ﷺ قد وضع قدمه على أول درجة – على الأقل – من درجات النجاح الدنيوي.

وربما لم تكن خديجة – رضي الله عنها – من الثروة كما يقال عنها أحيانًا.

ولكننا نستطيع أن نفترض أن محمداً ﷺ قد أصبح لديه رأس مال يكفيه للحصول على نصيب متوسط من الأعمال التجارية.

وأول ما يفجعنا به " وات " من التهويل الذي لا علاقة له بالبحث – لأنه لا يستند إلى الواقع – هو قوله: من وجهة نظر المجتمع المكي؛ هكذا بكل سهولة! ينظر جميع المكيون على أن محمداً ﷺ بهذه الزيجة، قد وضع قدمه على أول درجات النجاح الدنيوي!.. ترى من الذي أخبر "وات" بذلك؟! في أي كتاب، أم من أي مصدر استقى "وات" هذه المعلومة؟! دعك من هذا، بل من أي دليل استنبط "وات" هذه النتيجة؟! تراه كان يعيش بينهم؟!، أم أجرى هذا الاستطلاع في مكة؟!، أم أجراه أحد الموثقين وأخبر به "وات" خفية لم يطلع عليه غيرهما؟!... وهل هذا الاستطلاع شمل المكيين كافة في مجتمعهم كما يزعم؟!... كل ذلك – للأسف – لم يكن؛ بل هو من تأليف "وات" للتاريخ، وبنى عليه هذا التهويل.

ثم إليك هذا الرد، وهو أن الرسول ﷺ – ما وضع قدمه على أولى درجات النجاح كما يدعي "وات" إلا لأنه سيستحوذ – لأنه لم يستحوذ بعد – على مال خديجة – رضي الله عنها –، والسؤال منذ متى كانت البيئة والطبيعة العربية، تسمح للزوج بأن يحوز مال امرأته إليه، بل إن الحياء والشهامة تأبى إلى اليوم أن يأخذ الرجل شيئًا يخص زوجته أو يطمع فيه، ومنذ

1 – "وات"، محمد في مكة (١٠٠)، ترجمة د. عبد الرحمن الشيخ وآخر.

متى أيضًا كان رسول الله ﷺ ينتظر مال خديجة أو ينظر إليه.

وردًا آخر رده "وات" على نفسه، وهو من عجائبه أو قل سخائمه، وهو قوله بعد إن الرسول ﷺ – كان يتحنث في غار حراء هربًا من حر مكة؛ لأن النبي ﷺ لم تكن له القدرة المالية التي تتيح له الذهاب إلى الطائف[1]. أي ليصطاف كما يصطاف ميسورو مكة في الصيف (سنعود إلى التحنث في غار حراء مرة أخرى إن شاء الله) وإنما هذا رد سريع على هذا الإفك، كيف نوافق على هذا التناقض أو نوقفه.

ثم تزداد حدة التناقض بقوله ربما لم تكن خديجة من الثروة كما يقال عنها أحيانًا، فإذا لم تكن كذلك، فمن أين وضع الرسول ﷺ قدمه على الأقل على أولى درجات النجاح الدنيوي كما تدعي، وانظر إلى الأسلوب العلمي الفذ الذي يلاحقنا به، ويلاحق القرَّاء والباحثين، حيث لا يملك عند محاولة تفريغ السيرة من مضمونها ووحيها وكمالها وجلالها وجمالها إلا العجز الذي يسميه البحث التاريخي، فلا تخلو جملة، وصفحاتها من قوله، «وربما»،«ومن المحتمل»، «ويمكن»، «ولعله»، ولو «افترضنا»، «ولا يمكن» فهل ربما ومن المحتمل ولا يمكن وغيرها، هل هذا بحث، أو هو تشويش وشغب على الحقائق يلويها بعيدًا عن الواقع الحق لها لتصل إلى بغيته لا إلى نتيجة البحث.

وهذا اللفظة التي وضعها في الجملة، وهى وقوله أحيانًا، أي كما يقال أحيانًا عن خديجة إنها ثرية ولها ثروة تجعلها من أصحاب التجارات إلى الشام وغيرها، فهذا ليٌّ صريح لعنق الحقيقة ورد كاذب للواقع، بل كان يقال عنها دائمًا إنها من أصحاب الثروات وإنها غنية وإنها تستأجر التجار ليتاجروا لها في مالها، ولم تسمع أن ذلك يقال أحيانًا، إنما كان ذلك

1 – "وات"، "محمد في مكة"(١٠٩)، هذه ترجمة شعبان بركات، أما ترجمة المصرية العامة للكتاب التي ننقل غالبًا منها فهي قول "وات"، وربما كان ذلك وسيلة للهروب من حرارة مكة في موسم متعب لمن كانوا لا يستطيعون الذهاب إلى الطائف.

دائمًا فقلبها بقدرة باحث ضال إلى أحيانًا يقال عنها إنها صاحبة ثروة، وهذا تغيير للتاريخ وقلب لحقائقه لم ينطق به لسان معاصر لها ولا من أتى بعد ذلك، وليس له وجود إلا في عقل "وات" الآسن وسنبينه من كلامه الآتي إن شاء الله حيث صدَّره بجملة لا قيمة لها في البحث، وهي ربما لم تكن، كيف يزيف الواقع ويُمسح بكلمة ربما، ثم يزداد إيغالاً في التضليل بقوله أحيانا، مع أنه الدائم، يقف الباحث المتجرد حائرًا في وصف هذا الهراء الضال.

ونواصل على مضض التعليق على بقية كلام مستر "وات"!، يقول: ولا يعنى عدم وجود أخبار عن أنه سافر إلى الشام مرة ثانية أنه لم يذهب.

وهذا هو التناقض الممل، والتزييف المتعمد، والجمل التي لا صلة بها بالبحث بل باستغفال القارئ.

إذ ما معنى هذا الخبط؟ لا يعني عدم وجود أخبار بالسفر أنه لم يسافر، فيرجع بنا:

أولا: إلى ربما ومن المحتمل... إلى آخر ألفاظه.

ثانيًا: إن من قال إنه سافر، لم يقل على أقل تقدير إنه سافر مرة أخرى فمن أخبرنا بالسفر أخبرنا بعدمه بعد ذلك فمن أين لك هذا؟

ثالثًا: كفانا "وات" مؤونة الرد عليه لأن الاضطراب عادة المتناقضين فقال في السطر التالي مباشرة: مع الوضع في الاعتبار أنه من الممكن دائمًا أن يكلف آخرين بالإشراف على تجارته، فلما وضعنا أيها المستشرق في اعتبارنا أنه دائمًا من الممكن أن يكلف آخرين بما ذكرت أنتج لنا هذا الوضع أنه لم يسافر أبدًا بعد ذلك، لأن هذا ما يعنيه كلمة دائمًا التي ذكرتها.

ومازال "وات" مصممًا على أن يكون عنوان فضح المستشرقين أمثاله بكلامه الذي لا ندري له وصفًا فيقول: كذلك يجب أن نتذكر دائمًا احتمال أن التجار قد استبعدوه من مجالسهم، ومن معظم العمليات المربحة. ومع ذلك فمن المحتمل أنه لم يستبعد تمامًا، لأنه كان قادرًا على أن يزوج ابنته زينب لأحد أفراد عشيرة عبد شمس، وهو ابن أخت خديجة، والتي لاشك في أنه كان لها دور بارز في هذه الزيجة، كما أن خطبة ابنتيه الأخريين لابني أبى لهب، الذي ربما كان ينظر إليه على أنه الزعيم التالي لبنى هاشم، تدل على أن محمدًا ﷺ كان ينظر إليه أيضًا على أنه أكثر شباب بني هاشم رجاء[1].

ونبدأ بمقدمة كلامه التي عللها بالباقي من القول، حيث أوجب علينا دائما أن نتذكر احتمال أن التجار قد استبعدوه من مجالسهم ومن معظم العمليات المربحة.

وكذلك من المحتمل أنه لم يستبعد تمامًا.

ونحن معه في هذه الاحتمالات لنصل إلى الاحتمال الحق، فنقول له: يا مستر "وات" قد تذكرنا دائمًا أنه مستبعد، ثم ذكرتنا بالثاني أنه غير مستبعد تمامًا قد أمرتنا أن نتذكر دائمًا أنه مستبعد، فليس ثم استثناء للاستبعاد فلا يمكن أن نقول بعد دائمًا هذه إنه غير مستبعد تمامًا، فلم أمرتنا أيها الفهامة بذلك الاستبعاد الدائم التذكر فإذا به غير دائم ولا تام، فأي الاحتمالين تريدنا أن نتذكر إلا أن تقصد الاحتمال الثالث وهو أنه مستبعد وغير مستبعد.

ولا نجد في هذا الكلام إلا الكوميديا التراجيدية ل "وات" المضحكة المبكية في آن واحد ثم نحن نذكرك بأن الاستبعاد وعدمه غير ثابت تاريخيًا، ولا هو واقع التجار أيامئذ، فلم نسمع أن التجار وقفوا لأحد أخذ تجارته إلى الشام أو غيرها فوقفوا له قائلين ارجع أيها

1- " وات"، محمد في مكة(١٠٠)، ترجمة عبد الرحمن الشيخ وآخر..الهيئة المصرية العامة للكتاب٢٠٠٢.

المستبعد، وها هي ذي خديجة كانت ترسل التجار ليتاجروا ويضاربوا لها في كل الأسواق المعلومة في ذلك الزمن شامية كانت أو يمانية أو غيرها.

ووصولاً إلى الاحتمال الحق الذي قامت عليه الحجة، وأيده البرهان، وسيكون من كلام "وات" نفسه للنزاهة العلمية، ونبدأ فنقول إن الاحتمال الأول قد زيفه "وات" نفسه فبعد أن أمرنا أن نتذكر دائمًا أنه مستبعد، أنبأنا أنه ليس مستبعدًا تمامًا فمحا كلامه، فلم يعد التذكر الدائم للاستبعاد حقًا بل هو باطل منقوص مشكوك فيه، وكذلك الاحتمال الثالث أن نتذكر دائمًا أنه مستبعد وغير مستبعد تمامًا فهذا كوميديا تراجيديا، فلم يبق إلا الاحتمال الثاني وهو أنه غير مستبعد، وهو الحق، وقد أقام "وات" نفسه البرهان والحجة على أنه لم يستبعد بهذه الوجوه التي ذكرها بنفسه.

الأول: أنه ﷺ كان قادرًا على أن يزوج ابنته لأحد أفراد قبيلة عبد شمس، وكأنه يريد أن يقول إن محمدًا ﷺ كان قد وصل إلى درجة من الغنى يصاهره بها أحد أفراد هذه القبيلة الغنية من التجار الأثرياء. فكيف يناسبهم وهم مستبعدوه؟

الثاني: يقول أن لخديجة دورًا بارزًا في هذه الزيجة لأنه ابن أختها، فكأنها هي الأخرى من الأثرياء اللاتي يتدخلن فتكون لهم الكلمة، ويمضي قولهم، وبالتالي يعود ذلك في هذا الحين على موقف سيدنا محمد ﷺ لأنه بلا أدنى شك رجل هذا الموقف.

الثالث: أن أبا لهب المفترض كما يذكر "وات" أن يكون زعيم بني هاشم، خطب ابنتين من بنات النبي ﷺ لابنيه، وما ذلك إلا لموقفه الحالي ومستقبله الواعد ﷺ في بني هاشم، ثم يريدنا "وات" بعد أن هدم كلامه بكلامه، وأظهر دجله وحيفه وظلمه، وعدم نزاهته وأمانته فيما يسميه بحثًا، أن نتذكر دائمًا أن محمدًا ﷺ كان مستبعدًا كما يدعي

ويفترض، نعم صحيح، ولكن في تاريخه الذي نسجه من وحى شياطينه.

والجزء الأخير الذي لابد من ذكره في زواج النبي ﷺ من خديجة، كما ذكره "وات"، هو قوله: فإن لدينا الكثير من الأسباب التي تجعلنا نعتقد أن خديجة رضي الله عنها قد أدركت بعضًا من قدرات محمد ﷺ الروحية، وأنها انجذبت إليها.

ونقول: بعيدًا عن قدراته الروحية ﷺ فهذه آيات أخرى ذكرنا شيئًا منها نقلاً عن كُتَّاب السيرة، ومصادرها، وسنذكر غيضًا من فيض في الباقي من البحث إن شاء الله.. ولكن العجيب أن "وات" يتكلم عن القدرات الروحية التي نفاها فيما سقنا من قصص في شق الصدر وإظلال الغمامة، وحديث بحيرى الراهب، وأنه بعد لم يكن قد بدأ التحنث والتعبد في غار حراء حتى نقول قد حصل شيئًا روحيًا من تلك الخلوات والرياضات النفسية والتأملات الروحية والأفكار العقلية، فما الذي قلب عقله فجأة ليثبت للنبي ﷺ قدرات روحية جاذبة، خاصةً أنه لا يؤمن بالوحي للنبي ﷺ وإنما بمخزون اللبيدو الذي ادعاه، ولم يذكرنا كعادته بالاحتمالات التي حصل بها هذه القدرات الروحية في تلك المرحلة المبكرة من سني عمره الشريف ﷺ، ولم يبين لنا بربما ومن الممكن ويحتمل وغيرها كيف راقبت خديجة هذه القدرات الروحية، كيف تتبعت محمدًا ﷺ سفرًا وحضرًا في دروب مكة وأنديتها حتى اكتشفت الروحية هذه ورأتها فيه وتيقنت أنها روحية حتى اطمأنت إليها فطلبت الزواج منه، ومنذ متى سمعنا في البيئة العربية بهذه القدرات الروحية التي تنجذب إليها النساء وكما يذكر "وات" التاجرات في القرن السادس الميلادي، وهل كانت النساء التاجرات العربيات يبحثن عن أصحاب القدرات الروحية للزواج منهم أو هو منهج الإسقاط حيث تسقط ما علمته في القرن العشرين على بيئة القرن السادس التي لا علاقة لها به ثم ما هي القدرات الروحية وعلاماتها التي ظهرت على سيدنا محمد ﷺ في هذه المرحلة، وكان عند خديجة سابق علم بهذه

العلامات، وأخذت تبحث عنها حتى تميزتها في رسول الله ﷺ[1].

ألم تطبق من قبل ومن بعد المنهج المادي على مثل هذه الأحداث التي تريد نفيها، وبها تنفى نبوة الرسول، وكمالها وجلالها وجلال رسالة الرب سبحانه وتعالى، فتأتى هنا وتثبتها وما تريد إلا أن تخفي من طرف خبيث صفاته وأخلاقه وشيمه وكمالاته التي لا توجد في مثله حتى حملت خديجة على طلب الزواج منه فتخفيها بأمور روحية أنت تنفيها من أصلها، ثم بعد ذلك تعاود الكرة لتنفى هذه أيضا مرة أخرى كما طمستها من قبل فيتم لك الأمران لا أخلاق، ولا نبوة، وإنما هو مشروع عربي إصلاحي، الدين عنصر من عناصره، وهو ديدنك في كتاباتك كافة، إن المرء ليضرب كفًا بكف لمثل هذا، وأعجب منه أن يصدقه أحد للأسف ظانًا منه أنه وأمثاله من منصفي المستشرقين، بل إن الاستشراق لم يصنع أو يولد للإنصاف بل لمحاربة الإسلام، فأنى ينصفون، ومدّعو الإنصاف والحياد والعلمية منهم أخبثهم وأمعنهم تضليلاً وأشدهم فسادًا وإفسادًا في الدين والعقل والفكر، لم تغز أراضى الإسلام إلا بهم، ولكنها لم تغز بالشتّامين الوقحين منهم لأن ذلك منهم حاجز يحجب عنهم قبول الناس لكلامهم.

المبحث التاسع: مشاركته فى بناء الكعبة ووضع الحجر الأسود.

وهذا المبحث من سيرته المشرفة ﷺ نسوقه لأمرين:

الأول: هو ارتضاء قريش كلها لتحكيمه ورأيه ﷺ قبل البعثة وقد كانوا يسمونه الأمين مع ذكر أمانة الرسل في القرآن الكريم، ومقارنة ذلك بحال النبي ﷺ وهو منهجنا في عرض السيرة ومقارنتها.

---

1 - جمهره الأمثال لأبى هلال العسكرى(١/ ٢٠٥)

الثاني: توضيح مشاركة النبي ﷺ لأهل مكة، وحضوره في قضاياها حضورًا بناء يؤكد إيجابيته ﷺ في التعامل مع من حوله من أهل مكة كافة، حتى وصل إلى هذه الدرجة العالية في فصله في قضاياهم، والتحمل معهم لما ينزل بهم وهي نقطة الانطلاق في الرد على "وات" ومن لف لفه من المستشرقين، من تعتيمهم على هذه الفترة من حياته الشريفة ﷺ محتجين بما ورد في سورة الضحى، بطمس الواقع وليِّ الحقائق.

وبداية الحديث التي اخترناها في بناء الكعبة موغلة في القدم إلى إبراهيم عليه السلام لربط الوقائع واتصال الأحداث.

وهي كما ذكر أصحاب السير والمحدثون[1] أن الله تعالى أوحى إلى إبراهيم عليه السلام ببناء الكعبة، وعرض عليه السلام الأمر على ولده إسماعيل عليه السلام الذي نشأ في هذا الموضع حيث تركه رضيعًا مع أمه في هذا المكان حتى حفر لهم جبريل زمزم بعد أن كادوا يهلكون من العطش، وشب إسماعيل في جُرهم التي نزلت بجوارهم لما رأوا الماء وتزوج منهم، وكان إبراهيم عليه السلام يطالع تركته تلك بين الحين والآخر حتى أمره الله سبحانه في هذه المرة ببناء بيته، ورفع قواعده وعرفه مكان البيت كما قال تعالى: ﴿وَإِذۡ بَوَّأۡنَا لِإِبۡرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلۡبَيۡتِ﴾ [الحج: ٢٦]، وساعده إسماعيل عليهما السلام في ذلك، وفي هذا يقول الله تعالى: ﴿وَإِذۡ يَرۡفَعُ إِبۡرَٰهِـۧمُ ٱلۡقَوَاعِدَ مِنَ ٱلۡبَيۡتِ وَإِسۡمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلۡ مِنَّآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾ [البقرة: ١٢٧]، وكان يبني ساقًا كل يوم، حتى إذا بلغ مكان الحجر، قال لابنه: ابغني حجرًا، فالتمس حجرًا حتى أتاه به، فوجد الحجر الأسود قد ركب، فقال له ابنه: من أين لك هذا؟ قال جاء به من لم يتكل على بنائك، جاء

١- البيهقي، "دلائل النبوة" (٢/ ٥٥)، والطبري في تفسيره (٣/ ٦٩-٧١)، والحاكم في المستدرك (٩/ ٢٧٣)، باب ذكر إبراهيم النبي ﷺ وقال صحيح على شرط البخارى و مسلم، ولم يخرجاه ووافقه الذهبي، ورواه الأزرقي في تاريخ مكة (٢٤-٢٥/ ١).

به جبريل عليه السلام من السماء حتى أتمه.

وروى البيهقي أيضًا أنه عندما انهدم البيت بنته العمالقة، وعندما انهدم للمرة الثانية بنته جرهم، وعندما انهدم للمرة الثالثة بنته قريش ورسول الله ﷺ رجل شاب..."[1]، فلما أرادوا أن يرفعوا الحجر الأسود إلى مكانه اختصموا فيه، فقالوا نحكم بيننا أول رجل يخرج من هذه السكة فكان رسول الله ﷺ، وقد أكد ذلك ما رواه الإمام أحمد وأصحاب السير أن قريشًا اختلفت في وضع الحجر الأسود في مكانه، قالوا: اجعلوا بينكم حكمًا، فقالوا أول رجل يطلع من الفج، فجاء رسول الله ﷺ فقالوا أتاكم الأمين، فقالوا له، فوضعه في ثوب، ثم دعا بطونهم، فرفعوا نواحيه، فوضعه النبي ﷺ في مكانه المطلوب، هذا علاوة على ما كان منه في نقل الحجارة مع العباس في بناء الكعبة إذ شاركهم بأعظم جهد ممكن وأخلصه ﷺ، إلى أن جاء دور الحجر الأسود كما في القصة الآنفة الذكر ولولا حكمة الله وهداية النبي ﷺ لهذا الحل، بعد اختيارهم وارتضائهم لقضائه بينهم لسفكت الدماء، فقد روي أنهم اختلفوا إلى حد أن قرَّب بنو عبد الدار جفنة مملؤة دمًا، ثم تعاهدوا هم وبنو عدي على الموت، وأدخلوا أيديهم في ذلك الدم، ومكثت قريش على ذلك أربع ليال أو خمسًا دون أن يردها إلى الوفاق رأي أو تدبير، حتى كان خمود نار الفتنة على يد رسول الله ﷺ[2].

ونعود إلى ما دعانا إلى ذكر هذا المبحث، وهما الأمران اللذان ذكرنا في البداية:

والأول: هو ارتضاء قريش عن بكرة أبيها لتحكيمه ممثلة في رؤساء بطونها وقبائلها، والعمل بما رأى، لكونه كان الأمين عندهم.

---

1 - البيهقي، "دلائل النبوة" (٥٦-٥٧/ ٢)، وأخرجه الحاكم في المستدرك (٤٥٨/ ١) وصححه وأقره الذهبي.

2 - انظر ابن اسحاق، ابن هشام، "السيرة النبوية" (١٢٦-١٢٧/ ١)، تحقيق محمد فهمي السرجاني وخيري سعيد ط المكتبة التوفيقية.

أما كونه ﷺ محل رضا هؤلاء الكفار آنئذ فهو دليل على كونه قد ساهم في أعمال كثيرة، وقام فيها بالأداء العالي، ولم يقصر فيما أسند إليه، بل بلغ فيه الدرجة القصوى التي تدل على أعلى درجات الأمانة؛ لأن الدرجة العادية كانت – لا شك – لكثير من قريش، ولم يطلق على واحد منهم هذه التسمية، بدليل أنه لو طلع آخر غير النبي ﷺ وارتضوا حكمه فرضًا، فإنهم لن يقولوا جاءكم الأمين.

أما أمانة الرسل عليهم وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام في القرآن الكريم، فقد صرح بها في غير لبس على لسان الرسل عليهم السلام أنفسهم، فقد جاء في ذكر سيدنا نوح عليه السلام قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتۡ قَوۡمُ نُوحٍ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴿١٠٥﴾ إِذۡ قَالَ لَهُمۡ أَخُوهُمۡ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٠٦﴾ إِنِّي لَكُمۡ رَسُولٌ أَمِينٞ﴾ [الشعراء:١٠٥- ١٠٧] وكذلك في حق هود وصالح ولوط وشعيب وموسى[1] عليهم السلام ونستدل بها على أمانة النبي ﷺ من وجوه نذكر اثنين لأهميتهما:

الأول: أن سياق القرآن الكريم يدل على أن الله تعالى أمر المرسلين بأن يذكروا وينبهوا أقوامهم بأنهم أمناء في قوله: ﴿إِنِّي لَكُمۡ رَسُولٌ أَمِينٞ﴾ [الشعراء: ١٢٥]، أما الرسول ﷺ فلم يوجه إليه ذلك الأمر، بل الكفار هم المخاطبون له ابتداء بالأمانة، ومن ثم لم نجد في القرآن الكريم قوله للرسول: إني لكم رسول أمين، لأنهم هم من أطلقوه عليه فلم يكن بحاجة إلى تذكيرهم به فكان ﷺ بذلك أعلى درجة بتوفيق الله ورعايته سبحانه.

والوجه الثاني: أن رسول الله ﷺ سيد ولد آدم، فكان بالبرهان أعظمهم أمانة وأعلاهم خلقًا.

1 – فى قصص الرسل السابقين فى سورة الشعراء، أما موسى عليه السلام ففى سورة الدخان ﴿أَنۡ أَدُّوٓاْ إِلَيَّ عِبَادَ ٱللَّهِۖ إِنِّي لَكُمۡ رَسُولٌ أَمِينٞ ﴿١٨﴾﴾.

فدل هذان الوجهان فقط على أنه ﷺ أعظم الرسل وأعلاهم على الإطلاق أمانة، وبالتالي سيد الدنيا والآخرة في ذلك وغيره.

وهذا الكلام غصة في حلق المستشرقين قبل غيرهم بالبرهان العقلي والدليل المادي الواقع الذي لا ينكره أولو الألباب من غير تعصب ولا هوى.

وأمانة الرسل يراد بها أمران:

الأول: أمانتهم بين أقوامهم قبل تبليغهم الرسالة، وهي دليل على الصدق.

الثاني: الأمانة يحتمل أن يراد بها أنه أمين من جانب الله على الأمة التي أرسل إليها، إذ لا يرسل الرب من ليس أمينًا عنده ليبلغ أمانته سبحانه إلى الناس.

ويَجمُل أن نشير إلى حاصل كلام الطاهر بن عاشور في تفسيره لتلك الآيات حيث يقول: وجملة: "إني لكم رسول أمين" تعليل للإنكار أو التحضيض وهو في قوله: ﴿ أَلَا تَتَّقُونَ﴾ فإن ﴿أَلَا﴾ هنا للإنكار أو التحضيض على الإيمان، أي كيف تستمرون على الشرك، وقد نهيتكم عنه وأنا رسول لكم أمين عندكم.

وكان نوح موسومًا بالأمانة لا يتهم في قومه، كما كان محمد ﷺ يلقب الأمين في قريش. قال النابغة:

فألفيت الأمانة لم تخنها .. كذلك كان نوح لا يخون

وتأكيده بحرف التأكيد ﴿ إِنِّي ﴾ مع عدم سبق إنكارهم أمانته؛ لأنه توقع حدوث الإنكار، فاستدل عليهم بتجربة أمانته قبل تبليغ الرسالة، إذ أن الأمانة دليل على صدقه فيما بلغهم من رسالة الله، كما قال هرقل لأبي سفيان – قبل إسلامه -: فهل كنتم تتهمونه

بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ - يعني رسول الله ﷺ - قال أبو سفيان: قلت: لا!... إلى أن قال هرقل: وسألتك هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ فذكرتَ أن لا! فقد أعرف أنه لم يكن ليذر الكذب على الناس ويكذب على الله[1].

فكانت حكاية نوح تسلية للنبي ﷺ مما حدث من قومه، ولكنهم مع ذلك لم يكونوا يكذبونه كما ذكر القرآن الكريم تثبيتًا للنبي ﷺ وإذهابًا للحزن عنه حيث قال تعالى: ﴿فَإِنَّهُمۡ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجۡحَدُونَ﴾ [الأنعام: ٣٣]، ويحتمل أن يراد به أمين من جانب الله تعالى على الأمة التي أرسل إليها، والتأكيد أيضًا لتوقع الإنكار منهم[2]، تلك الأمانة التي تدلنا على صدق الرسول في الوحي وغيره مما أخبر به، هي رد قاطع على "وات" في هذيانه من بدايته إلى نهايته.

الأمر الثاني: الذي سقنا بسببه هذا المبحث، وهو مشاركته أهل مكة حتى وصل إلى هذه الدرجة بينهم.

أشرنا في الأمر الأول إلى أن ارتضاءهم لرأيه ﷺ وتنفيذهم له لم يكن من فراغ، أو انكفاء على الذات، أو مقاطعة أو انشغال عن أحداث المجتمع، بل جاء إسهام النبي ﷺ في القضايا الكبرى وغيرها التي عاشتها مكة آنذاك مغطيًا شتى مساحات العمل البشري، عاملاً في كل اتجاه، حتى قالت له خديجة - رضي الله عنها - «والله لا يخزيك الله أبدًا، فوالله إنك لتصل الرحم، وتَصْدُقُ الحديث، وتحمل الكلَّ، وتَكسِبُ المعدوم، وتقري الضيف وتعين على نوائب الحق»[3] فكان يبني كل هذه النشاطات عبر شخصية قادرة على التصدي

---

1 - رواه البخاري (٦)، كتاب بدء الوحي.

2 - انظر العلامة بن عاشور، "التحرير والتنوير" (١٥٨-١٥٩/ ١٩).

3 - البخاري، (٤٥٧٢).

لكل مشكلة، والإسهام الايجابي الفعال الذي من شأنه أن يعيد حقًا، أو يقيم عدلاً، أو يواسي ويقف ويعين إلى آخر ما ذكرت خديجة عن إسهاماته الفذة غير المعهودة في تلك البيئة حتى لقبوه بذلك، وأودعوه أماناتهم، وهم يخالفونه في الدين، فقد ترك علي بن أبي طالب في الهجرة ليرد للكفار أماناتهم التي استودعوه إياها إذ لم يكن مثله أحد يمكن الثقة فيه مع مخالفتهم له.

وكان عمله في بناء الكعبة، وإيقاف نزيف الدم المنتظر، ووأد الفتنة أحد الأنشطة التي قام بها.

نأتي لتعليق "وات" على هذه الجزئية لنناقشه فيها:

و"وات " كما دللنا بالمواضع التي ذكرنا من قبل لم يترك شيئًا من حقائق السيرة إلا حاول بكل ما أوتي أن يلويها ويغيرها، ويذهب بها بعيدًا عن سياقها، ويدمر معانيها، وما لم يستطع أخفاها كأن لم تكن، ولم يقرأها كأن على بصره كما على قلبه غشاوة، ونبرهن على قليل من فيضه بهذه الجزئية، فهو لم ير في الفترة من زواج النبي ﷺ بخديجة – رضي الله عنها – إلى أن أتاه الوحي إلا ثلاث آيات من سورة الضحى، وتلخيص كلام "وات"، وهو نفس كلام "بروكلمان"[1] أنه لا يصح في هذه الفترة من معلومات نستدل بها عليها، إلا ما حدث فيما بعد، مثال ذلك آيات في سورة الضحى، وهي قوله تعالى: ﴿أَلَمۡ يَجِدۡكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ ۝٦ وَوَجَدَكَ ضَآلاًّ فَهَدَىٰ ۝٧ وَوَجَدَكَ عَآئِلاً فَأَغۡنَىٰ ۝٨﴾ ويقول وستأتي إشارات أخرى عن هذه السنين المجهولة في سياق الحديث.

1 – ولد بمدينة روستوك بألمانيا، درس الآرامية والسريانية والعربية والحبشية، درس على يد نولدكه ومارتن فيلبى، ظهرت الطبعة الأولى من كتابه«تاريخ الشعوب الإسلامية»، عام ١٩٣٩ م، والطبعة الإنكليزية ١٩٤٧ م، له العديد من الدراسات خاصة فى مجال التحقيق.

فقل لي بربك بأي شيء يوصف هذا الكلام، لم ير "وات" في هذه السنين المجهولة إلا يتمه وضلاله وفقره، أكثر من خمسة عشر عامًا.

ويقال، كيف يكون الرسول ﷺ قد تزوج ويطلق عليه يتيم، هذا هزل وتنكيت في مقام الجد والبحث، ثم نعيد ما قال في الوصف الثالث، وهو فقره كيف يكون فقيرًا بعد الزواج كما يدعي أن هذه الآيات هي التي توضح تلك الفترة من عمره الشريف، وهو القائل قبل قليل في الصفحة السابقة، إنه بزواجه قد وضع قدمه على أول درجة على الأقل من درجات النجاح الدنيوي.[1]

ثم أنّى له الضّلال، وقد ذكر أنه بزواجِ بخديجة، بدأ الانتظام في التردد على ورقة بن نوفل وظهرت آثار التعاليم المسيحية على اتجاهه فيما بعد[2]، إلا أن يكون هذا التأثير المسيحي الذي يهلّل له هو ذلك الضَّلال الذي ظنَّ وقوعه فيه في هذه الفترة، وكيف يشجعه ورقة، وتشد خديجة من أزرهِ ليثبت على هذا الضَّلال.

ثم ننظر من وجهة أخرى تكشف جانبًا غريبًا من تفكير "وات" ومنهجه وهي أنه بعد أربعة عشر قرنًا من الزمان يخبرنا بهذا البحث أقصد الهذيان، ولم يأخذ بقول من عاشروه ونقلوا سيرته، وتتبعوا أخباره، وهو يعتمد كتبهم وينقل منها، ألم يتكلم محمد ﷺ بشيء خمس عشرة سنة، ولم يبع ولم يشتر ولم يعاشر، ولم يشارك في شيء حتى سمي بالأمين، ترى هذا الوصف يوسم به في يوم وليلة، أم أنه نتيجة احتكاكات طويلة، ومعاشرات ومعاملات ومصادقات، وإعطاء وأخذ ورد ومواقف كلامية ونفسية، وعلاقات اجتماعية واقتصادية، حتى يقال ذلكم الأمين الذي ليس مثله أحد.

---

1 - "وات"، "محمد في مكة"(١٠٠)، ترجمة د.عبد الرحمن الشيخ وآخر.

2 - Ibid pp 51-52 انظر عبد الله النعيم، "الاستشراق في السيرة"(٦٥).

إن لقب الأمين علامة على مشاركته، وعلامة كذلك على المدى الذي أوصلته إليه هذه الإسهامات والأخلاق فيها، وإلى أي علو وصل سموه الخُلُقي والسلوكي، قد يقال إن المسلمين في ترجمتهم له وكَتَبِهم لسيرته هم من أطلقوه، والرد إن "وات" يعلم قبل غيره أن من أطلق هذا الوصف هم الكفرة المناوئون له.

وقد أشرنا إلى أن هذا الوصف إنما هو من تربية الله للمصطَفينَ من عباده، وإلا كيف ذكر عن الأنبياء السابقين، وأشار أهل الجاهلية إليه كما ذكره النابغة في شعره عن نوح ﵇ والقرآن الكريم كتاب هداية عقيدة وشريعة ليس كل اعتنائه منصبًّا على ذكر تفاصيل حياة النبي ﷺ لحظة بلحظة لا يعقل هذا له وإنما يترجم بقدر العون على الدعوة بعد التصديق بالرسالة والإيمان بالوحي إذ هو الوسيلة لتلك الأهداف، ومن ثم يشير إلى رؤوس القضايا والملامح العامة والتي تدل على ما تحتها وما وراءها دلالة باهرة لتلك الوسيلة مع الإسهاب في الهدف والغاية.

ومن ذلك ما صادفه "وات" لا محالة في أول ما نزل من الوحي قوله تعالى للرسول ﷺ ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٥] فهذا الثناء الجامع يدل على ما تحته من جزئيات الأخلاق كافة، فهو ﷺ كما شرحنا في الفصل الأول حاز بهذه الآية جميع الأخلاق الفاضلة، وفي نفس الوقت حصل من كل خلق أعظمه وأعلاه، وهذا الخلق العظيم يضادّ تمامًا أن تكون هذه السنوات الطويلة مجهولة، والتي توازي أكثر من ربع عمره الشريف حتى آتاه الوحي بإرهاصاتها، ومشاركاته وإسهاماته دون أن يَرُدَّ هذا الثناء مشركو عصره، ومقاتلوه ومناوئوه، وأن يُظهروا كذبه بأدنى مخالفة، وأقل تكلفة من ثمن اللجوء لحربه والتنكيل والاستهزاء والإيذاء له ولأصحابه، إذ لو ثبت كَذِبُهُ حاشا له ﷺ في خلق واحد لقضي على الرسالة في مهدها، ولعيَّره المشركون بذلك ولصُدَّ كلُ الناس عن الإيمان بدعوته بإثبات

اختلاق القرآن الكريم، وادعاء الوحي.

لا أظن في هذه العجالة يمكن أن يبقى لـ"وات" متنفس يهذي به مرة أخرى ولكنها الاستماتة في الدفاع عن الباطل، وإن حماية الكفرة من أمثاله أن يدخلوا في الإسلام ما زال يحمله على نفث سمومه في كل شيء من الرسالة والرسول، وبكل صفاقة يهز إيمان المسلمين مع ذلك، ولا يرعوي عن استمراره في الكتابة بما يعلم تناقضه واضطرابه ومجافاته للحقيقة.

الفصل الثاني

البشارات بالنبي

صلى الله عليه وسلم

إرهاصًا بنبوته

تمهيد

وهي البشارات التي جاءت عمن سبق من الأنبياء عليهم السلام، أو من أهل الكتاب، أو من العرب، وهذه البشارات نذكر منها شيئًا مما ذكرته كتب أهل الكتاب، أو جاء في السُنَّة المشرفة، ثم نذكر ما ورد في القرآن الكريم ليؤكد ذلك كله الرد على "وات" في إثبات الرسالة وصحة النبوة لسيدنا محمد ﷺ.

المبحث الأول

بشارات الأنبياء بالرسول ﷺ والمصادر

يقول الدكتور أكرم العمري: وقد وقع التحريف في نسخ التوراة والإنجيل وحذف منهما التصريح باسم محمد ﷺ إلا توراة السامرة، وإنجيل برنابا الذي كان موجودًا قبل الإسلام، وحرَّمت الكنيسة تداوله في آخر القرن الخامس الميلادي، وقد أيدته المخطوطات التي عثر عليها في منطقة البحر الميت حديثًا، فقد جاءت في إنجيل برنابا العبارات المصرحة باسم النبي محمد ﷺ مثل ما جاء في الإصحاح الحادي والأربعين منه، ونص العبارة: ([٢٩] فاحتجب الله وطردهما الملاك ميخائيل من الفردوس [٣٠] فلما التفت آدم رأى مكتوبًا فوق الباب: لا إله إلا الله محمد رسول الله) وفي موضع آخر منه هذه العبارة (١٦٣ : ٧)، أجاب التلاميذ: يا معلم من عسى أن يكون ذلك الرجل الذي تتكلم عنه الذي سيأتي إلى العالم، أجاب يسوع بابتهاج قلب: إنه محمد رسول الله).

ونذكر مثل هذه البشارات في إنجيل برنابا في مواضع كثيرة – وهو مطبوع – وهذه العبارة المشهورة عند النصارى اليوم لم تترجم من السيريانية إلى العربية الترجمة الصحيحة كما حقق ذلك الأستاذ / عبد الأحد داؤد، وهي في إنجيل لوقا (٢: ١٤).

والحق إذن أن نسخ الكتب السماوية المتداولة خلال القرون الثمانية بين علماء أهل الكتاب من لدن القرن السادس الهجري، وما قبله كذلك تعرضت لحذف اسم النبي ﷺ وحذف النصوص الواضحة الدلالة على صفاته، كما يتضح ذلك من النقول التي أوردها

العلماء المسلمون في كتبهم مثل ابن قتيبة والماوردي والقرافي وابن تيمية وابن القيم؛ مما يشير إلى محو أهل الكتاب ذلك من كتبهم إثر المجادلات الدينية، واحتجاج المسلمين بها عليهم، ولكن الكلام كما هو معلوم قد حوته مجلدات ضخام لا تعد ولا تحصى، تبين ما نحن بصدده وهو ما رواه البخاري عن عبد الله بن عمرو بن العاص ﷺ - وكان يقرأ في الكتب المتقدمة – كان يقول إن هذه الآية التي في القرآن: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَـٰكَ شَـٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ [الأحزاب: ٤٥] هي في التوراة: (يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهدًا ومبشرًا ونذيرًا وحرزاً للأميين، أنت عبدي ورسولي، سميتك المتوكل، ليس بفظ ولا غليظ ولا سخاب بالأسواق، ولا يدفع السيئة بالسيئة، ولكن يعفو ويصفح، ولن يقبضه الله حتى يقيم به الملة العوجاء، بأن يقولوا لا إله إلا الله فيفتح به أعيناً عمياً، وآذاناً صماً، وقلوباً غلفا)[1].

قد يرد أحدهم هذا تحيز من مسلم لرسوله، والرد الأول إنهم ما كانوا ليكذبوا له، ومن فعل ذلك ردت روايته، وتبوأ مقعده من النار، والكذب لم يكن بتاتاً من أخلاقهم كما هي شهادة أعدائهم قبل علمائهم وعوامهم، وإنما يرمي به من يرمي غيره بالكذب لتأصل ذلك فيه.

الثاني: أن ذلك انتشر بين أهل الكتاب وردهم على شخص غير شخص الرسول ﷺ أسهل بكثير من ردهم على الرسول ﷺ، خاصة وقد نقلت كتب التاريخ حريتهم في المناظرة والرد والكتابة ضد الإسلام من أيامه الأولى.

---

1 - صحيح البخارى(٤٨٣٨)، كتاب تفسير القرآن الكريم، باب إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً، سورة الفتح(٩١٢)، (٢١٢٥) كتاب البيوع، باب كراهية السخب فى الأسواق(٣٧٠)، طبعة ابن حزم.

المبحث الثاني

إرهاصات النبوة الواردة فى السنة المشرفة

حيث نذكر شيئًا منها..

١. روى ابن إسحاق في ضمن ما أخبر به اليهود برسول الله ﷺ أن يهوديًا كان من جيران بني عبد الأشهل - من الأنصار - حدثهم عن البعث والجزاء فاستنكروا ذلك، وطالبوه بآية عليه، فقال: نبي مبعوث من نحو هذه البلاد، وأشار بيديه جهة مكة واليمن، فقالوا: ومتى تراه؟ فنظر إلى سلمة بن سلامة بن وقش وكان أحدثهم سناً، فقال: إن يستنفد هذا الغلام عمره يدركه، فما ذهب الليل والنهار حتى بعث الله محمدًا ﷺ[1].

٢. ونذكر هذه القصة لحبر آخر من أحبار اليهود، ونسردها كلها لما تحتويه من الأمور المهمة التي تظهر صدق الرسالة، وفي نفس الوقت الرد على شبهات المستشرقين والمبشرين والدجالين، تاركين موضع الاستدلال والاعتبار لحروفها ومعانيها، وقد ذكر أيضًا ابن اسحاق في السيرة أنها كانت من أسباب إسلام "ثعلبة بن سعية، وأسيد بن سعية، وأسد

1- ابن هشام "السيرة النبوية" (٢٧٠/ ١) وسنده حسن، حيث صرح ابن اسحاق بالتحديث، وقد رواه غير واحد من طريقه، مثل: أحمد (٤٦٧/ ٣)، والهيثمي "مجمع الزوائد" (٢٣٠/ ٨)، والبيهقي "دلائل النبوة" (٧٨-٧٩/ ٢)، وهو في سيرة الذهبي (٧٤)، وقد صحح الخبر كل هؤلاء وغيرهم، وقد نقله د.مهدي رزق الله "السيرة النبوية"(١٤٢-١٤٣) كما قدمنا. وانظر محمد بن رزق طرهوني "السيرة الذهبية (٢٣٨-٢٣٩/ ١).

بن عبيد" من يهود بني هدل، إخوة بني قريظة، وذلك عندما حاصر رسول الله ﷺ بني قريظة في غزوة الأحزاب عندما غدروا بالنبي ﷺ والمسلمين، حتى كادت أن تستباح المدينة المنورة، ويقضوا على الدعوة وصاحبها، وها هي ذي الرواية، يقول ابن اسحاق بسنده عن شيخ من بني قريظة: قدم علينا رجل من يهود أهل الشام يقال له ابن الهيِّبان، وذلك قبيل الإسلام بسنين، فحل بين أظهرهم، فما رأينا رجلاً لا يصلي الخمس أفضل منه، فأقام عندنا، فكنا إذا قحط عنا المطر قلنا له: اخرج يا ابن الهيِّبان فاستق لنا، فيقول لا والله، حتى تقدموا بين يدي مخرجكم صدقة، فنقول له: كم؟ فيقول: صاعًا من تمر، أو مدين من شعير، ثم يخرج بنا إلى ظاهر حَرَّتنا، فيستقي الله لنا، فوالله ما يبرح مجلسه، حتى يَمُرَّ السحابُ ونسقي، قد فعل ذلك غير مرة ولا مرتين ولا ثلاث، قال: ثم حضرته الوفاة عندنا، فلما عرف أنه ميِّت، قال: أيا معشر يهود، ما ترونه أخرجني من أرض الخمر والخمير إلى أرض البؤس والجوع؟ قال: قلنا: إنك أعلم، قال: فإني قدمت هذه البلدة أتوكَّف خروج نبي قد أظل زمانه وهذه البلدة مهاجَرُه، فكنت أرجو أن يبعث فأتبعه، وقد أظلكم زمانه، فلا تُسْبَقُنَّ إليه يا معشر يهود، فإنه يبعث بسفك الدماء، وسبي الذرارى والنساء ممن خالفه، فلا يمنعكم ذلك منه.

فلما بعث رسول الله ﷺ وحاصر بني قريظة، قال هؤلاء الفتية، وكانوا شبابًا أحداثًا: يا بني قريظة، والله إنه للنبي الذي كان عهد إليكم فيه ابن الهيِّبان، قالوا: ليس به، قالوا: بلى والله، إنه لهو بصفته، فنزلوا فأسلموا، وأحرزوا دماءهم وأموالهم وأهليهم[1].

1- ابن هشام "السيرة النبوية" (١٣٧-١٣٨/ ١)، ونسب المحققان صحة الحديث للشيخ الألباني "صحيح السيرة" (٦١)، وكذا ذكره الطرهوني "السيرة الذهبية" (٢٣٩-٢٤٠/ ١) وصححه وذكره د. مهدي رزق "السيرة النبوية" (١٤٢)، وذكر في هامشه ما يقوي الحديث ويجعله محتجًا به.

٣. وجاء في صحيح الأخبار أن الله تعالى لما أراد هدى "زيد بن سعنة" – الحبر اليهودي – قال: "إنه لم يبق من علامات النبوة شيء إلا وقد عرفتها في وجه محمد ﷺ حين نظرت إليه إلا اثنتين لم أخبرهما منه: يسبق حلمه جهله، ولا يزيده شدة الجهل عليه إلا حلمًا"، وجهل على رسول الله ﷺ حتى تأكد من هاتين الخصلتين.[1]

٤. ومما يجدر الإشارة إليه أيضًا إسلام الحبر الكبير "عبد الله بن سلام" واسمه في اليهودية الحصين بن سَلاَم، حيث قال فيه اليهود قبل أن يعلموا بإسلامه لما سألهم رسول الله ﷺ: "أي رجل الحصين بن سلام فيكم؟" قالوا سيدنا وابن سيدنا، وحبرنا وعالمنا، فخرج عليهم، وقال: يا معشر يهود اتقوا الله واقبلوا ما جاءكم به، فوالله إنكم لتعلمون أنه لرسول الله، تجدونه مكتوبًا عندكم في التوراة باسمه وصفته، فإني أشهد أنه رسول الله وأومن به وأصدقه وأعرفه، فقالوا كذبت ثم واقعوا بي، قال: فقلت لرسول الله ﷺ: ألم أخبرك يا رسول الله أنهم قوم بهت، وأهل غدر وكذب وفجور! قال: فأظهرت إسلامي وإسلام أهل بيتي، وأسلمت عمتي خالدة بنت الحارث فحسن إسلامها[2].

ونختم هذه العجالة عن اليهود بآية أخرى من القرآن الكريم، تثبت علم اليهود بالنبي ﷺ، وانتظارهم له، وأن ذلك كان مشهورًا بينهم، وما أخفاه بعد ذلك إلا كبراؤهم حسدًا وبغيًا، ويأتلف بذلك الوارد من القرآن الكريم مع السنة النبوية، وتتأيد به الروايات، وهذه الآية الكريمة هي قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمۡ كِتَٰبٞ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٞ لِّمَا مَعَهُمۡ وَكَانُواْ مِن قَبۡلُ يَسۡتَفۡتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِۦۚ فَلَعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٨٩]، وقد نزلت في يهود المدينة، حيث كانوا يعرفون أن زمان بعثة النبي ﷺ قد اقترب،

1 – انظر الذهبي "السيرة" (٩١-٩٣)،ود. مهدي رزق الله راجع ما نقله من هامش سيرة الذهبي (١٤٣).

2 – ابن هشام "السيرة النبوية" (١١٤-١١٥/ ٢)، وقد أخرج البخاري هذه القصة مختصرة برقم (٣٣٢٩)، وقد رواها ابن هشام عن ابن إسحاق أيضًا.

وكانوا يزعمون أنه منهم، ويتوعدون به العرب، وقد بين الله تعالى كما ذكرنا من قبل أنهم يعرفونه بصفاته التي ذكرت في كتبهم كما يعرفون أبناءهم، وإنما أنكروا نبوته بعد ظهوره، كما قال تعالى: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۖ فَقَدْ ءَاتَيْنَآ ءَالَ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَٰهُم مُّلْكًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٥٤].

وقد ورد في ذلك قول رجل من الأنصار: "إن مما دعانا إلى الإسلام مع رحمة الله تعالى وهداه، لما كنا نسمع من رجال يهود، كنا أهل شرك أصحاب أوثان، وكانوا أهل كتاب عندهم علم ليس لنا، وكانت لا تزال بيننا وبينهم شرور، فإذا نِلنَا منهم بعض ما يكرهون قالوا لنا: إنه تقارب زمان نبي يبعث الآن، نقتلكم معه قتل عاد وإرم"[1].

1 - ابن هشام "السيرة النبوية" (١/ ١٣٦)، وحسنه الشيخ الألباني في فقه السيرة (١٤٦).

المبحث الثالث

إخبار النصارى به ﷺ والمصادر التى اعتمد عليها «وات»

ونذكر شيئًا مما ورد في السنة عن النصارى في البشارة به، لنعود به إلى منهجنا في ذكر ما ورد في القرآن الكريم، ومقارنة ذلك وتحليله لنستكمل بكل جزئية ما أخذنا به أنفسنا من دراسة السيرة:

١. وأول ما نبدأ به لطرافته مع الاختصار قصة سلمان الفارسي رضي الله عنه فقد أخبر رضي الله عنه في قصة إسلامه الطويلة أن راهب النصارى في عمورية عندما حضرته الوفاة طلب منه سلمان أن يوصيه، فقال الراهب: أي بني والله ما أعلمه بقى أحد على مثل ما كنا عليه آمرك أن تأتيه، ولكن أظلك زمان نبي يبعث من الحرم، بين كتفيه خاتم النبوة، يأكل الهدية ولا يأكل الصدقة، فإن استطعت أن تخلص إلى تلك البلاد فافعل فإنه قد أظلك زمانه". ثم قص سلمان خبر قدومه إلى المدينة واسترقاقه، ولقائه برسول الله ﷺ حين الهجرة، وإهدائه له طعامًا على أنه صدقة فلم يأكل منه الرسول ﷺ ثم إهدائه له طعامًا على أنه هدية وأكل منه، ثم رؤيته خاتم النبوة بين كتفيه، وإسلامه على إثر ذلك.[1]

---

1 - إسناده حسن، وهو عند ابن إسحاق (ابن هشام ١٣٨-/ ١، ومسند أحمد(٤٤١-٤٤٤/ ٥)، وطبقات ابن سعد(٧٥-٨٠/ ٤)، والحاكم في المستدرك (١٦/ ٢)، وصححه على شرط مسلم ووافقه الذهبي، وأما البخاري فقد ذكره عند أمره سلمان أن يفك نفسه من الرق بالمكاتبة (الفتح)(٢٨٠/ ٩)، ك البيوع/ ب، شراء المملوك من الحربي، وقد ذكره د. أكرم العمري "السيرة النبوية الصحيحة" (١٢١-١٢٢/ ١)، وسقط منه بعد: ولكنه أظلك زمان نبي، وهو مبعوث بدين إبراهيم عليه السلام، يخرج بأرض العرب، وكذا ذكره مهدي رزق الله "السيرة النبوية"(١٤٢)، وغيرهم.

٢. قصة هرقل ملك الروم، وقد رواها البخاري ومسلم وغيرهما، فقد أرسل الرسول ﷺ كتابًا مع دحية الكلبي ﷺ إلى قيصر الروم يدعوه إلى الإسلام، فلما قرأ رسالة النبي ﷺ بحث عمن يعرفه، فدعاهم لمجلسه مع الترجمان فقال: أيكم أقرب نسبًا بهذا الرجل الذي يدعي أنه نبي؟ فقال له أبو سفيان: أنا أقربهم نسبًا، فأدناه وقرب أصحابه منه لئلا يستحيوا أن يواجهوه بالتكذيب إن كذب، فأخذ يسأله عن صفات النبي ﷺ وأحواله، كما ورد في الحديث الطويل المشهور، ومنها علم أنه النبي المرسل ﷺ فقال في ختام كلامه لأبي سفيان: إن كان ما تقول حقًا فسيملك موضع قدمي هاتين وقد كنت أعلم أنه خارج ولم أكن أظن أنه منكم، فلو أني أعلم أني أخلص لتجشمت لقاءه، ولو كنت عنده لغسلت عن قدمه".[١]

٣. إسلام ورقة بن نوفل، وهو ما يصدم "وات" في آرائه التي يؤكد بها تأثر النبي ﷺ باليهود والنصارى، وكذلك تأثر تعاليم الإسلام باليهودية والنصرانية، وقد ذكرنا هذه القصة في منهج التأثير والتأثر، أما إسلام ورقة الذي تعامى عنه "وات"، والذي يمثل منهج الانتقاء مع التدليس والغش للقارئ، فقد جاء في مسند أحمد، وهو من المصادر التي رآها واعتمدها "وات" فيما كتب، ولا شك قرأ فيه ما يتعلق بسيرة ورقة التي اخترع جزءًا كبيرًا منها من بنات أفكاره، ووحي شيطانه، ولم يستح وهو يذكر ذلك، وسنشير إليه مرة أخرى في بدء الوحي.

يقول الرسول ﷺ فيما يثبت أن ورقة من المسلمين الأوائل: «قد رأيته فرأيت عليه ثياب بياض، فأحسبه لو كان من أهل النار لم يكن عليه ثياب بياض»[٢]، وفي رواية أخرى: «قد

1- البخاري "الصحيح" ١/ ٦ بدء الوحي، ومسلم "الصحيح" ٣/ ١٣٩٥ كتاب الجهاد والسير، باب كتاب النبي إلى هرقل، ورواه ابن حبان في صحيحه، و"موارد الظمآن" ١٦٢٨/ ؟ بإسناد صحيح، كما قال محقق زاد المعاد طبعة الرسالة، وسنعود في الكلام على عالمية الدعوة إلى هذا الموضوع، والرد على "وات" فيه إن شاء الله تعالى.

2- أحمد "الفتح الرباني" (١٧٤/ ٢٠) وحسّن الساعاتي إسناده.

رأيته فرأيت عليه ثياب بياض أبصرته في بطنان الجنة وعليه السندس»[1]، وقال ﷺ: «لا تسبوا ورقة فإني رأيت له جنة أو جنتين»[2] وقال: «يبعث يوم القيامة أُمَّة وحده»[3] ويبدو من سياق الأحاديث أنَّ الرسول ﷺ قد سئل عن ورقة ذلك الذي تنصر ثم أدرك أول البعثة المحمدية وظنوا عدم إسلامه فكأنهم سبّوه على تنصره، وقالوا هو من أهل النار، فإذا بالنبي يوحى إليه في المنام - ورؤيا الأنبياء حق - أن ورقة من أهل الجنة فبشرهم بإسلامه وأخبرهم بالبرهان على ذلك عن الله تعالى، وهو ما يؤيده قول ورقة للرسول ﷺ: وإن يدركني يومك أنصرك نصرًا مؤزرًا، تُرَى بنصره على تعاليم النصرانية والوثنية، أم ينصره كما قال فيما جاء به أي من الإسلام ونضيف إليها:

أ- مفاجأة ورقة بن نوفل بكلام النبي ﷺ حيث قال له: هذا الناموس الذي نزّل الله على موسى، يا ليتني فيه جذعًا، ليتني أكون حيًا إذ يخرجك قومك، فقال ﷺ: «أو مخرجي هم؟» قال: نعم، لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عودي وأوذي، وإن يدركني يومك حيًا أنصرك نصرًا مؤزرًا.

وافتراض المفاجأة بسبب كلام ورقة نفسه، حيث قال من ضمن ما قال إن هذا هو الناموس، ولم يحدث حتى في قول "وات" أن ورقة أخبر النبي ﷺ عندما كان يتردد عليه هذا التردد المزعوم المفترى من "وات" كما سنبين إن شاء الله ذلك ذكر هذا الناموس، وإنما فوجئ به ورقة في كلام النبي ﷺ عندما ذكر له أوصاف ذلك الذي أتاه، فلم يتمالك ورقة نفسه أن أخبره أن هذا الملك هو الذي كان ينزل بالوحي على الأنبياء.

1- ابن كثير "البداية والنهاية" (٣/١٠) عن أبي يعلى وحسنه.

2- رواه البزار من طريق عائشة رضي الله عنها وقال ابن كثير عن إسناده: وهذا جيد الإسناد، وأخرجه الحاكم في المستدرك (٢/٤٠٩) من حديث عائشة رضي الله عنها وصححه ووافقه الذهبي.

3- الطبراني كما في المجمع (٩/٤١٦) وقال الهيثمي ورجاله رجال الصحيح، وانظر د. مهدي رزق "السيرة النبوية"(١٥٩).

ب- أما المفاجأة الأخرى فهي التمني، حيث كان رد فعل ورقة على كلام النبي ﷺ أن يكون جذعًا عند إخراج قومه له من مكة، ولو كان له به علم أو سبق حديث بينه وبين النبي ﷺ لكان رد فعله عاديًا لا تمني فيه ولا رجاء إذ هو قد علم محمدًا ذلك من قبل وشد أزره، ولما فوجئ النبي ﷺ أيضًا بهذا الخبر الذي لا مدخل للعقل والفهم فيه، بل هو مما يعلمه ورقة من الكتاب أي الإنجيل الذي كان يقرأه.

وهاتان المفاجأتان قد وضعتا ورقة في مكانه الصحيح الذي يبحث عنه، وهو الدين الحق الذي يود اتباعه، حيث وجد من نزل عليه ناموس الأنبياء، ودلت أوصافه على صدقه وعلى كونه هو النبي المنتظر الذي يود ورقة أن يفديه بروحه ويقف دونه بنفسه.

وهكذا يتضح من كلام ورقة الذي يعرفه "وات" ويستدل به لكن للأسف على طمس الحقائق وإخفاء إسلامه، وإيمانه بالنبي ﷺ، ولنا عود نستكمل به كلام ورقة في الاستدلال على الوحي حيث ذكر ذلك "وات" مستدلاً به على باطله بما يخالف العقل والنقل، أين الإشارة فقط إلى إسلام ورقة في كلام "وات"؟

وهنا سؤال نذكر به، وهو على أي المصادر إذن يعتمد "وات"؟ إذا تفحصنا بتأمل هذا الهراء منه ثبت أنه لا مصادر له، وأن ما رتب من مصادر إسلامية فهي غير معتمدة عنده مع أنه لا مصادر له سواها لأنه لم يكن هناك خواجات يكتبون السيرة ويؤرخون أيام النبي ﷺ وبعده لأن الصحيح منها يرده "وات" ولا يحتج به، لأنه لن يصل به إلى النتيجة المعدة سلفًا، وأن الشاذ الباطل، والموضوع غير الصحيح هو مرتكزه بعد شيء آخر من التحريف والتلفيق ليخرج كما يريد، إذ ليس كل الباطل أيضا يسعفه في إثبات قضاياه.

فماذا نقول في هذا البحث العلمي؟!! ومصادره..

نعود لاستكمال البحث..

٤. إسلام النجاشي ملك الحبشة، وهو غير النجاشي الذي أرسل إليه رسول الله ﷺ يدعوه إلى الإسلام، وقد أسلم هذا الملك بعد هجرة المسلمين إلى الحبشة وإحساس قريش بالخطر من الأمان الذي أعطاه النجاشي للمسلمين حيث أقاموا مع خير جار في خير دار – كما تقول السيدة أم سلمة[1] رضي الله عنها والرواية الصحيحة تذكر أن القسيسين والرهبان الذين حضروا مجلس النجاشي وسمعوا القرآن انحدرت دموعهم مما عرفوا من الحق فأنزل الله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٨٢﴾ وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾[2] [المائدة: ٨٢، ٨٣] ولا شك أن مثل هذا الذي اجتمع عليه القرآن الكريم والسنة النبوية، والروايات الإخبارية لا يعدل عنه إذ لا يتطرق إليه ريب في صحته ولا تردد. وإلا تركنا الاحتجاج بكل أخبار هذا العالم.

ويدل هذا الخبر بطوله حيث ذكره ابن إسحاق وابن هشام وغيرهما من المفسرين وحفاظ السير على إسلام هذا الملك العادل، وقد صلى الرسول ﷺ صلاة الغائب (الجنازة) عندما جاءه خبر موته، وما كان ليصلي إلا على مسلم[3].

ولم يكن العرب بأقل من غيرهم انتظارًا لمجيء النبي ﷺ إلى هذا العالم، وقد كان فيهم رفقاء ورقة بن نوفل في طلب الحق، مثل زيد بن عمرو بن نفيل، وقس بن ساعدة الإيادي، وكان هناك غيرهم كأبي ذر الغفاري، وعمرو بن عبسة وسواد بن قارب، وكان منهم كسواد من له علاقة بقضايا الجن إذ كانت معلومة عندهم، كما قال تعالى: ﴿وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ

---

1 – ابن إسحاق، "السير والمغازي" (٢١٣-٢١٧)، ابن هشام، "السيرة النبوية" (٢١٧-٢١٩/ ١) بإسناد حسن إلى أم سلمة رضي الله عنها، وقد حسن إسناد الحديث الحافظ بن كثير، "السيرة النبوية" (١١/ ٢)، والحافظ بن حجر، "فتح الباري" (١٨٩/ ٧) وغيرهما د. أكرم العمري، "السيرة النبوية الصحيحة" (١٧٤/ ١).

2 – الرواية في تفسير الطبري بإسناد صحيح.

3 – ابن القيم، "زاد المعاد"، ابن هشام، "السيرة النبوية" (٢٢٢/ ١)، وقال المحقق إنه ثابت في الصحيح.

ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾ [الجن: ٦] وسمع منهم ما يدل على إرسال الرسول ﷺ وهؤلاء مترجم لهم في الهامش(١).

ونعلق على ما ذكرنا قبل الاتجاه إلى القرآن الكريم ما نبين به ذلك الموضوع وما ورد فيه فنقول:

لقد أطلنا ذيل الحديث ببحث ما سبق حتى يكون دليلاً له قيمته عند مناقشة "وات" وغيره، حتى لا يقال إنها حادثة أو اثنتين لا يمكن البرهان بهما على ما نحدو بصدده، أما تعاضد الأدلة بكثرتها فإنه لا يدع مجالاً للّمز أو التهوين أو التأويل حتى لا يجد المنصف المتبع للأمانة العلمية إلا التسليم بصحة القضية.

إن هذه الأخبار تفسر ما جاء في القرآن الكريم من ذكر هذه البشارات، وأن تعددها يظهر بما لا مجال للشك فيه صحة تفسيره لكثرة ما ورد في الكتاب العزيز وهذا فيه من الإفحام للمجادلين، وإظهار الحق ما يحملهم على الإيمان بنبوته ﷺ وهو مقصد الكتاب الكريم من هداية البشر إلى الحق سبحانه وتعالى.

1- زيد بن عمرو بن نفيل العدوى أبو سعيد، مات قبل البعثة بخمس سنين وكان يوحد الله تعالى على دين إبراهيم وينكر على قريش ذبحهم لغير الله(انظر الإصابة)، قس بن ساعدة الإيادى البليغ الخطيب المشهور، كانت العرب تعظمة فى الجاهلية وقد سمع النبى ﷺ حكمتة وهو أول من آمن بالبعث من أهل الجاهلية وأول من تؤكأ على العصا فى الخطبة وأول من قال أما بعد (انظر الإصابة)، أبو ذر الغفارى: أصح ما قيل فى إسمه جُندَب بن جناده من بنى غِفَار وأمه رملة بنت الوقيعة الغفارية وهو من أكابر الصحابة، أسلم بعد ثلاثة أو أربعة ثم إنصرف إلى بلاد قومه وأقام بها حتى قدم رسول الله ﷺ فى المدينة بعد الخندق خرج بعد وفاه أبى بكر إلى الشام ولما ولى عثمان إستقدمة وأسكنة الربذة فمات بها سنة إثنين وثلاثين(انظر الإستيعاب)(١-٣٩٦)، عمرو بن عبسة السلمى، أبو نجيح، قدم مكة على النبى ﷺ وهو بعاظ =وكان يقول أنا رابع الإسلام، ثم رجع إلى قومه بنى سليم ثم قدم المدينة بعد الخندق وكان يعتزل الأصنام فى الجاهلية(معرفة الصحابة بتصرف)، سواد بن قارب الدوس كذا قال بن الكلبى وقال بن أبى حيثمة السدوس، قال أبو حاتم له صحبه، وكان شاعراً ويتكهن فى الجاهلية قبل أن يسلم(انظر الإصابة).

وهذه الروايات كذلك تُثبّت إيمان الموحدين في كل زمان بصحة تلك الرسالة، وأنها غضة كما أنزلت لم يمسسها من رجس المعاندين ما يدنسها أو يشينها، وأنها كالصخرة تتحطم عليها قرون الناطحين بالباطل، الرادين بالزور من القول لهذا الحق الباهر الصامد لهذه الهجمات المخبولة طوال هذا التاريخ.

ونلاحظ أن هذه الروايات، خاصة من أسلم من أصحابها أنهم كانوا ذوي علم وشرف في أهلهم، علاوة على أن سيرهم قد وافقت إيمانهم، وأنهم افتدوا هذا الإيمان وذلك الرسول الداعي إليه بأرواحهم وأولادهم وأرضهم وأموالهم ورأيناهم في تلك المواقف التي تطير فيها الرءوس، وتزهق فيها المهج والأرواح ثابتي الجنان راسخي الأقدام يدفعون بصدورهم العارية عن هذا الدين، وذلك معلوم في الفتوحات وحروب الرسول ﷺ، وقتال من ارتد عن هذا الدين بعد وفاة الرسول ﷺ.

وإنه لمن سوء طالع "وات" ألا يسوق شيئا من هذه الروايات، ومصادره إسلامية – بالطبع – وقد ذكرتها – حتى يتبين للقاصي والداني حقده الدفين على الإسلام، وكذلك يتضح لكل ذي عينين أنه لا إنصاف ولا حياد ولا علم وإنما هو يكيل التضليل بالمكيال الأوفى، ومن ثم نسوق هذه الأدلة من ضمن ما نسوقها له، تدليلاً على منهج المستشرقين في إخفاء الحقائق.

وتبين هذه البراهين الدوافع لرفض الإسلام، والاعتراض عليه؛ ليتميز للقارئ قبل المؤرخ الأسباب المانعة من الدخول في الإيمان ليكون على بينة من أمره، وأمر أولئك الجاحدين المنكرين، وأقرب الأمثلة لليهود والنصارى قصة عبد الله بن سلام، وهرقل قيصر الروم، فالأول بين أن اليهود قوم بهت وغدر وخيانة وأنهم إن علموا بإسلامه بهتوه، وهذا ما صح به الحديث فكان المانع هو الكبر والمعاندة والجحود لهذا الحق، وأما قيصر فكما

قال الرسول ﷺ، ضن بملكه[1] فكان الملك وأبهته وبقاؤه في كرسي حكمه هو الحائل بينه وبين الدخول في الإسلام وبذا ينجلي خبث "وات" عند تغييره لهذه المعاني، وقلبه لتلك الحقائق مصورًا الواقع المعاش على خلاف ما هو عليه بدون أدنى خجل.

ونختم هذا الكلام ببعض ما ورد في القرآن الكريم عن النصارى ليتوافق مع السيرة كما بينا به منهجنا، وقد ذكرنا بعض الآيات المتعلقة باليهود، وإن كانت الآيات تتعلق بأهل الكتاب عند بدء النبوة وإرهاصاتها، إلا أن اليهود كانوا قليلاً في مكة مقارنة بالنصارى، ولكن على أي حال، فإنّ خطاب القرآن لهم أي النصارى يدل على وجودهم بمكة أيامئذ، سواء كانوا مقيمين أو تجارًا مسافرين يسمعون تلك الأخبار التي تهم العالم، وتهمهم من مقدم الرسول المنتظر ﷺ.

- وأول هذه الآيات هي قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيَسْتَيْقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِيمَـٰنًا ۙ وَلَا يَرْتَابَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ...﴾ [المدثر: ٣١].

والآية الكريمة في أول ما نزل من سور القرآن الكريم، فقد نزلت مبكرًا جدًا، ومن مضامين هذه الآية الكريمة:

أولاً: وجود كتابيين مخاطبين في أول بعثة النبي ﷺ في مكة، وسواء كانوا مقيمين أو أتوا كتجار كما ذكرنا، ولكن يجمعهم أنهم ممن يشغلهم هذا الأمر من النبوة، وقد بينت الآية أن ما جاء به النبي ﷺ يوافق ما عند هؤلاء الكتابيين ليستيقنوا بصدق النبوة، ولا يكون عندهم ريب ولا شك في صحتها، لأن مثل هذه الأخبار كعدة ملائكة النار لا يستطيع اُمرؤ أن

1 - قال الرسول ﷺ في رواية بن حبان عندما أرسل قيصر للنبي ﷺ أنه مسلم: كذب عدو الله وهو على دين النصرانية، ابن حبان، "موارد الظمآن" (١٦٢٨/ح) بإسناد صحيح كما ذكره محققا زاد المعاد (١٢٨/ ١) انظر د. مهدي رزق، "السيرة النبوية" هامش (٥١٨).

يقولها إلا أن يكون اطلع عليها أو أُخبر بخبر الله الصادق عنها، ولا يكون ذلك إلا لنبي مرسل يؤيده ربه بذلك الصدق في الإخبار والقول، ومن ثم عندما يتيقن أولو الكتاب من صحة ما جاءهم به الرسول ﷺ لكون ما في أيديهم يوافق ذلك عندها يكون هذا الأمر سببًا من أسباب ازدياد إيمان المؤمنين وثباتهم، خاصة وأن شهادة أهل الكتاب وعلمهم مما يقدره الكفرة وله عندهم المحل الأوثق.

ثانيا: وما تضمنته الآية الكريمة وأشارت إليه هو الرد على السؤال الاستشراقي التشكيكي، وهو أليس إجابة النبي ﷺ بما يوافق ما عند أهل الكتاب دليلاً على تعلم ذلك منهم؟

وهذا السؤال ممن لا يمعن العقل والفكر فيما يلقى إليه، هذا إذا كانت نية الملقي سليمة. وهو أقل ما يوصف به ذلكم السؤال.

أما الرد فهو..

أولاً: وهو كيف تطلب الآية من أهل الكتاب الاستيقان - وهو العلم بالدليل والبرهان - وترك الريب والشك ممن هو قد تعلم منهم ونقل عنهم، إنه لمضحك حقًا.

ثانيًا: لماذا لم ينبر صاحب التعليم ليرد على النبي ﷺ ذلك، وهم في حالة استضعاف يخطفهم الناس – قائلاً أنا الذي أخبرتك وعلمتك ولم يحتاجوا إلى طعن في الإسلام أكثر من ذلك حتى يهدموه من أول الأمر بكذب صاحبه، وادعائه.

ثالثًا: كيف يلقن الكتابيون النبي ﷺ الحجة على صدق ما يدعو إليه ليحاربهم بعد ذلك به، ويتخذهم حجة له على إيمان الناس به، ودخولهم في الإسلام، وفهم كما ذكرت بعض

الروايات[1] أن أهل الكتاب سألوا هذا السؤال للمؤمنين عن خزنة النار تبكيتًا لهم، وتعجيزًا للمسلمين أمام الكافرين فأنى يكون ذلك؟

- والآيتان التاليتان هما قوله تعالى في سورة الأعراف، وهي كذلك من السور المبكرة النزول:

﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٦، ١٥٧].

هاتان الآيتان الكريمتان جاءتا في سياق قصة موسى عليه السلام، استطرادًا بذكر النبي ﷺ،وتنبيهًا على أوصافه التي يعرفونها، وأمرًا بالإيمان به؛ إذ فيه بقاؤهم وظفرهم في الدنيا والآخرة.

وقد خاطبت هذه الكلمات المنيرة أولئك الكتابيين في مكة، وهو خطاب لكل أحد من الناس جميعًا إلى يوم القيامة بأن هدايتهم، ورحمتهم وفلاحهم في اتباع هذا النبي ﷺ والتزام شريعته ونلاحظ ما يلي:

أولاً: أن الآية الأولى قررت أن الرسول ﷺ مكتوب عند اليهود والنصارى في التوراة والإنجيل، وأنه معلوم لديهم معروف عندهم، وأن صفاته يجدونها في التوراة والإنجيل، حيث يأمرهم بمكارم الأخلاق التي افتقدوا، ويحملهم على عظيم الصفات التي تصلح بها

1 - الترمذي عن جابر (٣٣٣٩)، وصححه ابن العربي، باب ومن سورة المدثر.

الدنيا والآخرة.

ثانيا: قررت الآية وهو ما انبنى على أولاً، أن الكتابيين يهودًا ونصارى قد اتبعوا هذا النبي ﷺ العربي الأمي في مكة – على أي حال كانوا – في هذا الزمن المتقدم من عمر الدعوة الإسلامية، وقد نوهت الآية وامتدحت أولئك المؤمنين الذين عظموه واحترموه ونصروه واتبعوا القرآن والوحي النازل معهم.

ولم يجادل أحد من المشركين أو أهل الكتاب من غير المؤمنين في هذه الآية، وصحة هذا القول والخبر، مما يدل على كونه واقعا غير قابل للرد، ثم يأتي مشككو آخر الزمان، ملفقو البهتان والقول الجزاف ليماروا فيما لم يمار فيه الكفار المشركون، ولا سلفهم إن كان من المعاندين اليهود والنصارى.

وقد قررت الآية أنه النبي الأمي لئلا يكون لمبطل ممن يقول بعدم خروج النبوة من بني إسرائيل – خصامًا ومكابرة – لئلا يكون له وجه، أو لكلامه صفة، هذا من ناحية ومن ناحية أخرى للتأكيد على أنه محمد ﷺ لا سواه هو ذلك النبي الذي تحققت فيه تلك الصفات.

والآية الثانية تضمنت الدعوة الصريحة إلى الناس جميعًا للإيمان بالنبي ﷺ الذي يؤمن بالله وكتبه، وأول مدعو إلى ذلك هم أولئك الكتابيون الذين عرفوا صفاته، وذكر في كتبهم، وعرفوه كما يعرفون أبناءهم، بحقائق وبشارات هي بشارات ونعوت النبي العربي ﷺ.

والآيات كثيرة في هذا السياق، مع تقريرات جديدة، وصور مختلفة ذكرها محمد دروزة في كتابه (سيرة الرسول ﷺ صور مقتبسة من القرآن الكريم)[1]، وإن كان استشهادنا بالآيات

---

1 – محمد عزة دروزة، "سيرة الرسول صور مقتبسة من القرآن الكريم" (١/٣٣٥).

في محاولة لإعطائها وجوها أخرى من التفسير يحتملها النص العربي وموافقة الواقع، وإن كان هناك تفسيرات غير تلك التفاسير ذكرها المفسرون، وظن الباحث أنها من إثراء النص القرآني وإعجازه مهما اختلفت وتباينت عما نحن فيه.

وتفسير جميع ما ورد ذكره يطول به البحث، وإنما نسوق ما يؤدي الغرض وتطمئن به نفس الباحث والقارئ، ولذا نختم بآيتين أو ثلاثة تعضيدًا لما سبق، وإظهار لإسلام أهل الكتاب في مكة.

- والآية التي معنا هي قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَمِنْ هَٰٓؤُلَآءِ مَن يُؤْمِنُ بِهِۦ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٧].

والآية الكريمة مما نزل بمكة وهي متأخرة بعض الشيء وهو مناسب لمعناها إذ هي تصوير وتقرير لواقع مشاهد معلوم حين نزلت الآية الكريمة بوصفه، وهو أن الكتابيين يؤمنون بما جاء به النبي ﷺ، وإن كانت ألفاظ الآية أن الذين آتاهم ربهم الكتاب يؤمنون به، وإن جادل مجادل بأن ليس كل أهل الكتاب آمنوا وأن ذلك مخالف للواقع، وطبائع البشر.

فالرد أنه ليس كذلك بل كانت مكة بعد الفتح كلها مسلمة بدون استثناء، ومع ذلك يقال نعم ليس كل الكتابيين قد آمنوا بمعنى دخولهم الإسلام واتّباعهم النبي ﷺ ولكن بمعنى التصديق فمن صدق واتبع فهو مؤمن، ومن صدق وعاند، أو كتم فلا شك أنه يؤمن به، ولكن منعه من الاتباع ما منع الكفرة من ذلك كما أشرنا، فالكل يؤمن به بغض النظر عن اتباعه التصديق بما يدل عليه أو لا.

ثم إن من آمن حجة لمزيد علمه وتبين الدلائل له على من لم يؤمن، فكأن الحجة بالإيمان قد شملت الجميع إذن، إذ ظهرت لهم براهين الصدق وعلامات البشارة به.

- الآية التالية هي قوله تعالى: ﴿قُلْ ءَامِنُواْ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓاْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا﴾ [الإسراء: ١٠٧-١٠٩].

من سورة الإسراء، وهي من السور المبكرة في النزول نوعًا ما، وهي تحكي على تفسير ظاهرها مشهدًا واقعًا قبل نزولها، يبين حالة أهل العلم من الكتابيين عند تلاوة القرآن الكريم وسماعه، وهي توكيد لما قلناه من استجابة الكتابيين خاصة علماءهم للدعوة في هذا الوقت المبكر، وهي وصف لموقف هؤلاء الكتابيين من القرآن الكريم في سجودهم وبكائهم وخشوعهم إيمانًا به وتصديقًا لما جاء فيه وتلك الآيات جاءت في مقام التحدي والتقريع للكفار؛ معلنة أن جحودهم ومواقفهم من الإيمان بدعوة النبي ﷺ لا قيمة لها ولا اعتبار، إذ إن من له قيمة بالعلم يقف موقفًا تصديقيًا خاشعًا، ولموقفهم القيمة المهمة والاعتبار الكبير لأنهم هم من تصدقونهم، وهم موضع ثقتكم، وهذا يدل على أن هذه المواقف من الكتابيين كانت تقع على مرأى أو علم من الكفار؛ مما يعطي قوة صمود واستعلاء يؤيد الله بها الدعوة في مثل هذا الوقت العصيب[1].

ولابد في نهاية ما أشرنا إليه من آيات من ذكر تلك الآية التي يحتج بها المهووسون المتعصبون من المستشرقين وأذيالهم هذه الأيام، ومنذ أن بدأ الاستشراق نفث سمومه، وهي قوله تعالى: ﴿فَإِن كُنتَ فِى شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكَ ۚ لَقَدْ جَآءَكَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾ [يونس: ٩٤].

وننوه بداية بهذه الحقيقة، وهي أن القرآن الكريم نزل بلسان عربي مبين، مفهوم تمام الفهم عند عموم المخاطبين، وبالتالي لو كان في هذه الآية مطعن على النبي ﷺ أو الإسلام

1- محمد عزة دروزة، "سيرة الرسول ﷺ صور مقتبسة من القرآن الكريم" (٣٤٦-٣٤٧/ ١).

معنى أو لفظًا لسمعنا بهذا الطعن، ولما سكتوا عنه في جملة ما يواجهون به هذه الدعوة؛ بل على العكس هو يواجههم بها دليلاً على صدق الدعوة، ولو كان فيها ما يمكن تصيده، والتعكير به على صفو الدعوة لما تأخروا أبدًا خاصة وقد حكى القرآن الكريم بدون ما وجل أو تردد كل اتهاماتهم للنبي ﷺ، وللإسلام.

ومن ثم نجابه هؤلاء بالتفسير العربي للآية – والذي لا شك أنهم بعجمتهم لا يفهمونه من تلقاء ما تعلموه من العربية – إذ مهما تعلموا فلن يصلوا إلى عشر معشار سليقة العرب التي نزل القرآن بلسانهم، ولذا كان جهلهم بالأساليب العربية السبب الأول في هذا الخلط علاوة على سوء النية وفساد الطوية التي ظهرت على ألسنتهم في كتاباتهم ونقاشهم.

وإلى تفسير الآية كما أشار إليه العلامة ابن عاشور حيث هو من توسع في ذكر ذلك فنذكره ملخصًا [1]، يقول:

الفاء في قوله ﴿فَإِن كُنتَ﴾ تفريع على سياق القصص التي جعلها الله موعظة لأهل مكة وتعريض أن يحل بهم ما حل بالمكذبين من أمثالهم، وانتقل بهذا التفريع إلى أسلوب آخر تعريض لهم بشهادة أهل الكتاب على تلك الحوادث، وما في الكتب السابقة من الأنباء برسالة محمد ﷺ، فالمراد ما أنزلنا هو المنزل الذي تفرع عليه هذا الكلام، وهو القصص الذي أنزل في هذه السورة.

ثم إن الآية تحتمل معنيين، سواهما عرضة للتعكير عليه، والأخذ والرد والمعنيان اللذان تحتملها الآية وهما في قوله ﴿فِي شَكٍّ﴾، فإما أن تبقى الظرفية التي دلت عليها ﴿فِي﴾ على حقيقتها، أو أن تكون ﴿فِي﴾ للظرفية المجازية.

---

1 – الطاهر بن عاشور، "التحرير والتنوير" (٢٨٤-٢٨٦/ ١).

ويكون المعنى على الاحتمال الأول أن الشك أطلق وأريد به أصحاب الشك؛ أي فإن كنت في قوم أهل شك مما أنزلنا إليك، أي يشكون في وقوع هذه القصص، كما يقال: دخل في الفتنة أي في أهلها، إذ لا يعقل أن يكون الرسول في شك مما أنزل إليه، فكيف يدعو لما هو شاك فيه، وذلك من وجهة أخرى ينافي عصمته في التبليغ عن الله تعالى، وقد علمنا قوله عن الله جل وعلا: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ [النجم: ٤]، وقوله تعالى: ﴿قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ﴾ [يونس: ١٦]، وقوله: ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [السجدة: ٢].

ويكون معنى ﴿فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكَ﴾ أي سؤال تقرير وإشهاد لأنه لا يمكن أن يسألهم استفسارًا أو تعلمًا لنفي القرآن الكريم لذلك، ولأن القرآن الكريم نزل مهيمنًا على تلك الكتب، وشاهدًا للصحيح منها بالصحة، وللباطل منها بالبطلان، والقرآن ممتلئ من تلك التقريرات والشهادات، وكم بيّنَ بطلان عقائد اليهود والنصارى، وأظهر ضلالهم، فكيف يستفسر منهم عن علم شيء إلا أن يكون صحيحا عنده أنه في كتبهم بمثل ما جاء به القرآن الكريم، وأنهم لا يمكن في الواقع أن يكتموه، بل بدا من حالهم أنهم يشهدون بما علموه حقا، ومن ثم توجه إليهم طلب الشهادة.

ويكون المقصود من الآية حينئذ إقامة الحجة على المشركين بشهادة أهل الكتاب من اليهود والنصارى قطعًا لمعذرتهم.

والمعنى الثاني أن تكون ﴿فِى﴾ للظرفية المجازية كالتي في قوله تعالى: ﴿فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ [هود: ١٠٩]، ويكون سوق هذه المحاورة للنبي ﷺ على طريقة الإلقاء التعريضي التي يسلكها الحكماء وأصحاب الأخلاق، متى كان توجيه الكلام إلى من يظن نفوره منه كما في قوله تعالى: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [الزمر: ٦٥].

وهذا لا شك غير موجه للنبي ﷺ وإنما موجه للكفار على طريقة الحكيم فيمن يخشى

أن ينفر من سماع الحق، وكذلك يستخدم هذا الكلام رفقا بمن يقصد سوق الكلام إليه.

وكلا الاحتمالين يلاقي قوله ﴿ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِكَ ﴾ فإنه يقتضي أن المسؤول عنه مما لا يكتمه أهل الكتاب، ولا يتحرجون من إعلانه والشهادة به كما ذكرنا.

أما جملة ﴿ لَقَدْ جَآءَكَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ ﴾ فهي استئناف بياني لجواب سؤال ناشئ عن الشرط وجوابه، وهو فإن كنت في شك فاسأل، وكأن السامع يقول فإذا سألتهم ماذا يكون فيأتي كلام جديد مؤكد بلام القسم وقد "﴿ لَقَدْ جَآءَكَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ ﴾ ، وما تأكد هذا الكلام بهذين المؤكدين إلا لدفع إنكار المعرضين، إذ الرسول ﷺ ليس بحاجة لإعلامه بأنه على الحق، لأن من وحي الله له قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ﴾ [النمل: ٧٩] وهو إعلام السائلين بطريق التعريض.

وقوله ﴿ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿٩٤﴾ ﴾ تعريض بالمشركين أيضًا بأنه يحذر أن يكون منهم والامتراء هو الشك فيما لا شبهة للشك فيه.

والآية التالية تزيد ما سبق توضيحا إذ هي أصرح في التعريض بالمشركين، وهي قوله تعالى ﴿ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴿٩٥﴾ ﴾ وهي تقتضي أن الذين كذبوا وشكوا في آيات الله هم الكفار، وهم خاسرون في الدنيا إن بقوا على ذلك وخاسرون في الآخرة، وهي تقتضي أنهم هم المكذبون الشاكّون فلا يكونن أحد منهم؛ لأنه يكون حينئذ خاسرًا خسرانا مبينا.

ويكون في النهاية حاصل المعنى: فإن كنتم شاكّين في صدق ما أنزلنا على محمد ﷺ مما أصاب المكذبين قبلكم، فاسألوا أهل الكتاب يخبروكم بأن ذلك صدق فذلك هو الحق الذي جاءكم من رب محمد ﷺ فلا تكونوا شاكين، ولا تكذبوا بآيات الله فتكونوا خاسرين.

وهكذا يتضح ما جاء به النبي محمد ﷺ من الحق الذي يشهد به أهل الكتاب ولا يستطيعون كتمه وإلا لما طلب من المشركين أن يطلبوا خبر ذلك منهم، وما كتم أو أخفى شيئا ﷺ وما أصيب من أصيب إلا من قلة فهمه لكلام العرب وأساليبهم، ولكانوا أول راد له معترض عليه لو وجدوا مغمزًا في عربيته أو معناه.

وهي في النهاية شهادة من أهل الكتاب على صحة رسالته ﷺ وصدق نبوته وأنها من عند الله جل وعلا، وقد جاء قوله تعالى دليلاً لذلك حيث يخبر بفرح أهل الكتاب بكلام الله، فيقول ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ ۖ وَمِنَ ٱلْأَحْزَابِ مَن يُنكِرُ بَعْضَهُۥ ۚ قُلْ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ وَلَآ أُشْرِكَ بِهِۦٓ ۚ إِلَيْهِ أَدْعُوا۟ وَإِلَيْهِ مَـَٔابِ﴾ [الرعد: ٣٦].

ونذيل هذا المبحث بكلام الإمام ابن تيمية حيث يقول: (والأخبار بمعرفة أهل الكتاب بصفة محمد ﷺ عندهم في الكتب المتقدمة متواترة عنهم).[1]

ثم قال: (ثم العلم بأن الأنبياء قبله بشروا به يعلم من وجوه..)

أحدها: ما في الكتب الموجودة اليوم بأيدي أهل الكتاب.

الثاني: إخبار من وقف على تلك الكتب ممن أسلم وممن لم يسلم بما وجدوه من ذكره بها.

وهذا مثل ما تواتر عن الأنصار أن جيرانهم من أهل الكتاب كانوا يخبرون بمبعثه، وأنه رسول الله وأنه موجود عندهم، وكانوا ينتظرونه، وكان هذا من أعظم ما دعا الأنصار إلى الإيمان به لما دعاهم إلى الإسلام حتى آمن الأنصار به وبايعوه.

وقد أخبر الله بذلك عن أهل الكتاب في القرآن، قال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ

1 - ابن تيمية، "الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح" (١/ ٣٤٠).

ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمۡ وَكَانُواْ مِن قَبۡلُ يَسۡتَفۡتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِۦۚ فَلَعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٨٩].

ومثل ما تواتر عن إخبار النصارى بوجوده في كتبهم، مثل إخبار هرقل ملك الروم، والمقوقس ملك مصر، والنجاشي ملك الحبشة.

الثالث: نفس إخباره بذلك في القرآن مرة بعد مرة، واستشهاده بأهل الكتاب، وإخباره بأنه مذكور في كتبهم مما يدل العاقل على أنه كان موجودا في كتبهم فلو لم يعلم ﷺ أنه مكتوب عندهم بل انتفى ذلك لامتنع أن يخبر بذلك مرة بعد مرة، ويُظهر ذلك لموافقيه ومخالفيه وأوليائه وأعدائه[1].

ونعود لنلم سريعًا بما ينبغي التعليق على "وات" فيه:

وأوله: إخفاء كل ما ذكرنا من بشارات بالنبي ﷺ وهي عادته في إخفاء الحق الذي يدينه، وذلك من أصول منهجه، وهو بلا شك مع تدقيقه قد مر عليه ذلك لأنه أثبت في بداية كتابه المصادر التي لجأ إليها في أبحاثه.

ثانيًا: قلبه للحقائق، فإذا اضطر لذكر بعض الحوادث التي يظن أنها تؤيد ما ذهب إليه في بحثه، وبعضها يخالفه قلب ما يخالف بكل بجاحة إلى ما يوافق كقصة ورقة، وهرقل وغيرهما، أو حملها معان لم يحلم أي ضال بالوصول إليها، لا علاقة لها من قريب أو من بعيد بسياق النص، أو بالجو العام أو الواقع التي حدثت فيه الحادثة وسنزيدها إن شاء الله مناقشة جديدة في كل موضع استدل بها، وهو يدل من وجهة أخرى على تقطيعه لأوصال الموضوعات والحوادث، ليستدل بها ويبرهن بها في أماكن مختلفة بوجوه مختلفة، لو جمع النص كما هو لما اختلف عقلان على إرادة غير ما ذهب "وات" إليه.

1- وانظر د. أكرم العمري، "السيرة النبوية الصحيحة" (١٢٠/ ١).

ثالثًا: اختراعه لوقائع لم تحدث يظن أنه كمؤرخ لابد أن يفترضها هكذا بكل صفاقة حتى يستقيم له بحثه، فلا يبحث في الواقع كما هو وحيثما وجهه البرهان والدليل توجه وإنما يؤلف تاريخًا لم يحدث ولم يقع ليصل به إلى النتيجة التي أعدها قبل الشروع في البحث فليس بحثًا ذلك وإنما تذكرة مشاكلة، فهو نتيجة قد أعدها يريد أن يصل إليها بغير مشروع من البحث ولا مقبول من الموضوعية المدعاة، والحياد المزعوم ومثل ذلك افتراض أن وحيًا قد نزل قبل سورة اقرأ التي هي أول ما نزل من القرآن الكريم[1]، وكل كتاباته كذلك، ولذا سنعقب على كل كلام في حينه بما يزيده توضيحًا إن شاء الله تعالى.

---

1 - "وات"، محمد في مكة (١٢١)، ترجمة عبد الرحمن الشيخ وآخر.

الفصل الثالث

بدء الوحى

المبحث الأول

إرهاصات (البعثة - النبوة)

ومن إرهاصات النبوة قبيل البعثة، أمور كثيرة وقعت له تدل على عناية الله به في إعداده وتأهيله لما سيفاجأ به من تحمل الرسالة لإنقاذ البشرية الضالة:

١. تقول السيدة عائشة رضي الله عنها: "إن أول ما بدئ به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصادقة، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح"[1].

٢. ثم حبب إليه العزلة، فكان يخلو بغار حراء يتحنّث – يتعبد – فيه الليالي ذوات العدد، ويطعم من أتاه من المساكين، قبل أن يرجع إلى أهله، ويتزود لذلك، ثم يرجع إلى خديجة فيتزود لمثلها، حتى جاءه الحق وهو في غار حراء بجبل حراء، وهو جبل يطل على الكعبة، ويحتاج صعوده إلى جهد.[2]

والتحنث من بقايا دين إبراهيم عليه السلام وكان هذا الاعتكاف مما تحنث به قريش في الجاهلية وقد ورد ذلك في الرواية الصحيحة عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال: يا رسول الله إني نذرت في الجاهلية أن أعتكف ليلة في المسجد الحرام فقال له النبي ﷺ: "أوف بنذرك"

1- روى البخاري عن أبي سعيد رضي الله عنه أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: "الرؤيا الصالحة جزء من ستة وأربعين جزءًا من النبوة" (٦٩٨٩)، وورد: "رؤيا المؤمن...." البخاري (٧٩٨٧)، ومسلم (٢٢٦٤).

2- البخاري (٣)، ومسلم (١٦١). ويقول ابن أبي جمرة: "الحكمة في تخصيصه بالتخلي فيه أن المقيم فيه يمكنه رؤية الكعبة، فيجتمع لمن يخلو فيه ثلاث عبادات: الخلوة، والتعبد، والنظر إلى البيت" فتح الباري (٣٥٥/ ١٢)، وانظر د. أكرم العمري، "السيرة النبوية الصحيحة" (١٢٣).

فاعتكف ليلة[1]. وقال ابن هشام: تقول العرب: التحنُّث والتحنُّف، يريدون الحنيفية فيبدلون الفاء من الثاء كما قالوا: جَدَف وجَدَث يريدون: القبر قال رؤبة بن العجاج:

لو كان أحجاري مع الأجداف

يريد الأجداث، وقال أيضًا: وحدثني أبو عبيدة أن العرب تقول: فمَّ في موضع ثمَّ يبدلون الفاء من الثاء.[2]

أما الرؤيا في القرآن الكريم فهي تصديق لما ورد في السنة – مما ذكرنا – ومن قوله ﷺ: "رؤيا الأنبياء وحي"[3] فما يرونه فهو من وحي الله لهم، ويجب عليهم المسارعة إلى امتثاله، قال تعالى في قصة إبراهيم عليه السلام: "يا بني إني أرى في المنام أني أذبحك فانظر ماذا ترى". فما كان رد إسماعيل عليه السلام إلا أن وافقه برضا على امتثال ذلك الوحي قائلاًكما ذكر القرآن الكريم: ﴿يَـٰٓأَبَتِ ٱفۡعَلۡ مَا تُؤۡمَرُۖ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّـٰبِرِينَ﴾ [الصافات: ١٠٢]، وكذلك رؤيا يوسف عليه السلام حيث قال في نهاية القصة: ﴿يَـٰٓأَبَتِ هَـٰذَا تَأۡوِيلُ رُءۡيَـٰيَ مِن قَبۡلُ قَدۡ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّاۖ﴾ [يوسف: ١٠٠] ورؤيا يوسف عليه السلام كانت قبل البعثة.

ومن هنا رأينا تواطؤ الكتاب والسنة وما ورد عن الأنبياء عليهم السلام على صحة ذلك إذ تلك الرؤى من علامات وحي الأنبياء، وبالتالي فإنها من إرهاصات نبوته ﷺ، إذ جاءت رؤاه كفلق الصبح تصديقًا لما يرى، فيراها ويحكيها فإذا هي تقع كما قال ﷺ.

أما الاعتكاف، واعتزال الناس لفترات زمنية فذلك مما يصفي النفس والقلب والفكر، ويساعد المرء على حسن النظر في أموره وأمور من حوله، ليتمكن من إصلاح

1- البخاري (٢١٣٢)، ومسلم (١٦٥٦)

2- ابن هشام، "السيرة النبوية" (١٥٢/ ١).

3- البخاري، الصحيح، باب التخفيف فى الوضوء (١٣٨).

الخلل الواقع مع شحذ الهمة واستجمام النفس للتحمل ومواصلة السير، مع النظر في ملكوت السموات والأرض، وربط الدنيا بالآخرة؛ إن طريق المصلحين لأنفسهم وغيرهم طريق طويل وَعِر، ومن ثم يحتاج إلى أخذ النفس بعيدًا عن أهواء المجتمعات، وفسادها، ومشاكلها، ليستطيع المرء أن يضع الدواء المناسب للأدواء المختلفة والعلل المتناقضة، ليساهم بعد خروجه في حل تلك المعضلات، بعد أن أصلح نفسه، وصفى فكره، وفتح عقله وقلبه، ليخالط الناس مرشدًا مصلحًا، لا إمّعة منساقًا، وإن المصلحين المسلمين ليزيدون في اعتكافهم ذلك عن غيرهم بقربهم من ربهم ﷻ، والتفكر في آخرتهم، مع إعداد الزاد الذي يلاقون به ربهم ﷻ، مع التفتيش عن آفات النفس والعمل والطريق إلى الله ﷻ، ليرشدوا سَيرَهُم وأخلاقهُم وعباداتِهم ومعاملاتهم. إنها فرصة لنقاء النفس ومحبة الرب والتعلق ببابه ﷻ، والتزود بزاد روحي قوي يواصل به المرء رحلته في الدنيا.

جاء ذكر الاعتكاف في القرآن الكريم، سواء في إعداد مكانه، أو في تبيين أهم آدابه التي تعين على تحقق مقصوده، فقال ﷻ في الأول: ﴿وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَـٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾ [البقرة: ١٢٥] فكان الاعتكاف إذًا معلومًا، وقام به الأنبياء منذ فجر الرسالات، وإنه في محل التشريف إذ مكانه فيما أضيف إلى الله ﷻ "بيتي". وما كان ذلك إلا لكونه من مقصود الشرع في إصلاح النفس والإقبال على الرب، ولذا جاء في الثاني ليبين أهم آدابِهِ من تخلص النفس من شهواتها، وأهمها شهوة النساء فقال ﷻ: ﴿وَلَا تُبَـٰشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَـٰكِفُونَ فِى ٱلْمَسَـٰجِدِ﴾ [البقرة: ١٨٧]. وإنَّ ما بعد ذلك من الشهوات أخف وأيسر حتى تصفو النفس مما يكدرها، أو يمنع صفاءها.

ومن عجيب التنزيل في هذه الفترة المبكرة من الوحي أن نزلت تلك الآية الكريمة في سورة المزمل، وهي قوله ﷻ: ﴿وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا﴾ [المزمل: ٨]، حيث أمره ﷻ بالتبتل أي: بالانقطاع إلى الله ﷻ، ويلاحظ على ذلك الأمر ملاحظتان:

الأولى: أنه جاء بعد نزول الوحي مباشرة، ولم يكد الرسول ﷺ أن يخرج من غار حراء - حيث كان متحنثًا معتزلاً -، وكأنه تأكيد على أهمية ذلك، وأن الإسلام جاء بالتأكيد عليه، وطلبه منه، واستمراره عليه، ولكن على طريقة الإسلام، وتراتيب الإيمان.

الثانية: أنه جاء في سياق مقومات تربية القرآن الكريم للنبي ﷺ، وأتباعِهِ حتى يتأهلوا للفوز في الأولى والآخرة، ولكي يتحملوا تبعات ومسئوليات الدعوة، ومشاقها، وما سوف يلاقون جراء هداية الناس إلى الله ﷻ من مصاعب عظامٍ، ويتجشموا من أعباء ضخمة، لا يتحملها إلا من وقف في هذا المحراب متحققًا بتلك الصفات، قال ﷻ: ﴿قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلاً ﴿٢﴾ نِّصۡفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصۡ مِنۡهُ قَلِيلاً ﴿٣﴾ أَوۡ زِدۡ عَلَيۡهِ وَرَتِّلِ ٱلۡقُرۡءَانَ تَرۡتِيلاً ﴿٤﴾ إِنَّا سَنُلۡقِى عَلَيۡكَ قَوۡلاً ثَقِيلاً﴾ [المزمل: ٢- ٥]... إلى آخر التوجيهات والأوامر والوصايا، التي لما قام بها هذا الرعيل الأول رأينا كيف تحمّلوا ودَانَت لهم الدنيا. وكلما تحقق بها المؤمنون في أي زمن ومكان سادوا وانتصروا.

أطلتُ في هذه الجزئية لتكون ردا مسبقًا على تعليق "وات" على الاعتكاف، حيث فرغ اللفظ من معناه، والاعتكاف من هدفه ومضمونه، وغيره. فأما اللفظ فملأه بمعان لا علاقة لها بالواقع فضلا عن النبي ﷺ، فقد جعل "وات" أن أفضل الآراء أنها مشتقة من العبرية[1] والتي تعني التعبد لله ﷻ ؛ أو أنها أصيلة في العربية وتعني فعل ما يخرج به من الخطيئة أو الجريمة ؛ ومعنى هذا أنها إذا كانت تعني التعبد فهي مشتقة من العبرية، وإذا كانت تعني الخروج من الخطيئة فهي عربية الأصل، مع أنه صَدَّر الكلام بقوله: المعنى الدقيق والاشتقاق غير مُؤَكّد لكلمة التحنث.

فإذا كانت عن خطيئة فهي ملصقة بالرسول ﷺ وإذا كانت رياضة تعبدية فهي عبرية وتبين كما قال قبلها التأثيرات اليهودي-مسيحية على الرسول ﷺ فِعلُهُ فيها مثل الرُّهبان في

١ - "وات"، "محمد في مكة" (١٠٩) مع الهامش.

العزلة والخطيئة التي ذكرها هي الرجوع في قَسَم أو عدم القدرة على الوفاء به، فما علاقة ذلك بالنبي ﷺ كان في كل مرة يذهب إلى مكة فيقسم على شيء أو لا يستطيع الوفاء به فيذهب إلى حراء ليخرج من هذه الخطيئة ثم يعود إلى مكة فيتزود خطيئة أخرى ثم يرجع إلى حراء ليخرج منها وهكذا لا يحتاج ذلك تعليقًا يخط به القلم ما يضيق به الصدر.

لذا أطلنا سابقًا في شرح ذلك وأن الكلمة لها معناها كما ذكر أساطين اللغة إذ المرجع فيها إليهم لا إلى "وات" وغيره عربًا أو عجمًا، وذكرنا سبقها للتأثيرات اليهودي- مسيحية إذ هي معروفة في الجاهلية، وقد وردت عن إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام في فجر الرسالات. وليعرف "وات" ذلك فما حجته ليحتج بـ"هـ. هيرشفيلد" في اشتقاق الكلمة.

أما تفريغ الاعتكاف والعزلة من مضمونه فهو من كوميديا "وات" إذ جعل الاختلاء في حراء وسيلة لهروبه من حرارة مكة لمن لا يستطيع الذهاب إلى الطائف – للاصطياف طبعًا.

ومعنى كلام "وات" أن سيدنا محمد ﷺ لا يستطيع الذهاب إلى الطائف لضعف الإمكانات المادية مع أنه القائل قبلها إنه أصبح لديه رأس مال يكفيه للحصول على نصيب متوسط من الأعمال التجارية، وأنه وضع قدمه على أول درجة على الأقل من درجات النجاح الدنيوي، وأن التجار لم يستبعدوه تمامًا من معظم العمليات المربحة، فمثل هذا لا يستطيع أن يذهب إلى الطائف؟! وهو الذي يذهب وقتًا طويلاً كما يدعي "وات" إلى الشام.

لنترك ذلك جانبًا فأين الغار الذي يتسع لفقراء مكة وهم الكثرة الكاثرة في الصيف، ليصعدوا إليه ليتخففوا من قيظ مكة، وهو غار كما هو معلوم لا يسع أكثر من فرد قائمًا، ثم أين محمد ﷺ طوال سنين القيظ والحر قبل أن يهتدي إلى هذا المصيف الآمن وأين ذلك كله

في الكتب التي نقل منها سيرة النبي ﷺ أم هي عادة "وات" في تأليف تاريخ يليق به.

وما اسم بقية المغارات التي كان يأوي إليها المكيون غير القادرين على جبال مكة في الصيف؟ بل ما اسم مغارة واحدة؟

بل هو منهج "وات" فلا رسالة ولا رسول ولا وحي، وإنما هي خلطة يهودية – مسيحية تتفق مع عادات العرب ليجعل بهم الرسول هذا المشروع. الذي لم يعرف اسمه ولا وصفه بعد.

المبحث الثاني

البعثة والنبوة

ثم بعث رسول الله ﷺ وعمره أربعون سنة[1]، وثبت أن الوحي نزل عليه أول ما نزل يوم الاثنين[2]، والمشهور أن نزول القرآن بدأ في شهر رمضان[3] حيث كان يخلو رسول الله ﷺ في غار حراء، وجاءه جبريل بغتة لأول مرة داخل الغار قالت عائشة رضي الله عنها: "حتى جاءه الحق وهو في غار حراء فجاءه الملك فقال: اقرأ، فقال له النبي ﷺ: «ما أنا بقارئ»، قال: فأخذني فغطني حتى بلغ مني الجهد، ثم قال: اقرأ، قلت: ما أنا بقارئ، فأخذني فغطني الثانية حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني فقال: اقرأ، فقلت: ما أنا بقارئ، فأخذني فغطني الثالثة، ثم أرسلني فقال: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ۝ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ۝ ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ۝﴾ [العلق:١-٣]، فرجع بها ترجف بوادره[4] حتى دخل على خديجة فقال: زملوني، فزملوه حتى ذهب عنه الروع، فقال: يا خديجة مالي! وأخبرها الخبر، وقال: قد خشيت على

1- البخاري "فتح الباري" (٦/٥٦٤، ٧/١٦٢،٢٢٧)، وصحيح مسلم (٤/١٨٢٤،١٨٢٧)، وسيرة ابن هشام (١/١٥١،١٥٢).

2- مسلم "الصحيح" (٨/٥١،٥٢)، أبو داوود "السنن" (٢/٨٠٨،٨٠٩)، وانظر د. أكرم العمري، "السيرة النبوية الصحيحة" (١٢٤)ـ وما بعدها.

3- جاء التصريح به الآية الكريمة: "شهر رمضان الذي أنزل القرآن...." [البقرة: ١٨٥]، وابن هشام " السيرة النبوية" (١/١٥٣)، ورجح المباركفوري، صفي الرحمن، أنه يوم الحادي والعشرين من رمضان "الرحيق المختوم" (٧٥،٧٦)، وانظر د. مهدي رزق الله "السيرة النبوية" (١٤٨).

4-البخارى، الصحيح، أول ما بدىء به رسول ﷺ(٢١/ ٣٢٩).

نفسي، فقالت له: كلا فوالله لا يخزيك الله، إنك لتصل الرحم وتصدق الحديث وتحمل الكلَّ وتعين على نوائب الحق، ثم انطلقت به خديجة إلى ابن عمها ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى، وكان امرأ تنصر في الجاهلية، وكان يكتب الكتاب العبراني، فيكتب من الإنجيل بالعبرانية ما شاء الله أن يكتب، وكان شيخًا كبيرًا قد عمي، فقالت: اسمع من ابن أخيك فقال: يا ابن أخي ما ترى؟ فأخبره فقال ورقة: هذا الناموس الذي أنزل على موسى، يا ليتني فيها جذع أكون حيًا حين يخرجك قومك، قال: أومخرجيَّ هم؟ قال: نعم، لم يأت أحد بما جئت به إلا عودي وأوذي، وإن يدركني يومك أنصرك نصرًا مؤزرًا، ثم لم يلبث ورقة أن توفي."(1)

يقول "الزهري" من رواة الحديث: "وفتر الوحي فترة حتى حزن النبي ﷺ - فيما بلغنا – حزنًا غدا منه مرارًا كي يتردى من رءوس شواهق الجبال، فكلما أوفى بذروة جبل لكي يلقي منه نفسه تبدى له جبريل فقال: يا محمد إنك رسول الله حقًا، فيسكن لذلك جأشه، وتقر نفسه فيرجع، فإذا طالت عليه فترة الوحي غدا لمثل ذلك، فإذا أوفى بذروة الجبل تبدى له جبريل، فقال له مثل ذلك."(2)

وقد أوضح هذا الحديث أن ﴿ٱقۡرَأۡ﴾ هي أول ما نزل من القرآن الكريم، وأن الرسول ﷺ فوجئ بالوحي دون أن يتوقعه فراعه الموقف وأرعبه وأفزعه حتى خشي على نفسه، وقد أخذت خديجة رضي الله عنها – بعد رجوعه إليها – في طمأنته والتسكين من روعه، وفي ذات الوقت سعت معه لمعرفة أو تفسير ما جرى له ﷺ ولم يكن هناك مثل ورقة له باع في تفسير ذلك وتأويله، إذ هو كما ذكر الحديث قد تنصر وقرأ الإنجيل ويكتب منه ما شاء الله

1- البخاري (٦٩٨٢)، وفتح الباري (٢٠٤/٢٦)، ومسلم (١٦٠)، وشرح النووي (١٣٩-١٤٠/١)، أحمد "الفتح الرباني" (٤٧/١٨).

2- نفس المصدر.

له، ومنطق العقل والواقع يدعي أنه لو كان هناك غير ورقة لاحتمل الذهاب إليه، أو من هو أعلم من ورقة لذهبت إليه قطعًا، وبالتالي كان دخول ورقة في الأحداث وظهوره في الصورة أمرًا عارضًا، ساقته الأقدار في لحظتها، خاصة وقد ذكر ابن سعد أنها المرة الأولى التي تأتي خديجة رضي الله عنها ورقة بن نوفل[1]، علاوة على أن المصادر كلها لم تشر من قريب أو بعيد إلى اهتمام المرأة المكية بالدين قبل الإسلام حتى تترك تجارتها أو تفرط فيها لتذهب إلى ورقة لتتعلم منه!

وكان من حكمة الله تعالى أن انقطع الوحي بعد ذلك عن النبي ﷺ فترة من الزمن وذلك حتى تتأكد تلك الحقيقة التي سنؤكدها فيما بعد من أن الوحي ظاهرة خارقة للعادة، منفصلة تمام الانفصال عن شخصية النبي ﷺ وأيضًا حتى يتشوق النبي ﷺ لنزول الوحي وتتابعه عليه.

وقد استمرت هذه الفترة كما ذكر ابن عباس رضي الله عنهما أربعين يومًا[2]، وقيل أنها كانت أيامًا[3] وإن كانت لا تعلم بوجه صحيح، وجزع النبي ﷺ من هذا الانقطاع حتى ذكر الزهري[4] أن النبي ﷺ كان يحاول أن يتردى من شواهق الجبال، ولكن هذا الكلام من الزهري ضعيف لعدم صحة سنده، ولكون ذلك يتنافى مع عصمة الأنبياء[5].

بعد مدة الفتور هذه نزل الوحي مرة أخرى فيقول الرسول ﷺ: "بينا أنا أمشي إذ سمعت صوتًا من السماء، فرفعت بصري، فإذا الملك الذي جاءني بحراء جالس على كرسي

1 -ابن سعد "الطبقات" (١٩٥/ ١).

2 - الزرقاني "شرح المواهب اللدنية" (٢٣٦/ ١)، والشامي "من معين السيرة"(٢٩).

3 - ابن حجر العسقلاني "فتح الباري" (٦٩٨٢/ج).

4 - محمد بن شهاب الزهري أحد رواة نزول الوحي السابق ذكره.

5 -انظر ناصر الدين الألباني "دفاع عن الحديث النبوي والسيرة" (٤٠).

بين السماء والأرض، فرعبت منه، فرجعت فقلت: زملوني زملوني، فأنزل الله ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ ۝١ قُمۡ فَأَنذِرۡ﴾ إلى قوله: ﴿وَٱلرُّجۡزَ فَٱهۡجُرۡ﴾ [المدثر: ١-٥] فحمي الوحي وتتابع"[1].

هذا مختصر شديد لما ورد في السيرة في قضية الوحي، وقد بلغنا بها أمرين: عرض الموضوع كما هو، والثاني: الرد على "وات" فيما ادعى، استكمالاً لما رددنا عليه فيها وقلنا سنزيده إيضاحًا كلما عرض لنا من كلام "وات" شيء ذو بال.

1- ابن عاشور، التحرير والتنوير(٢٩/ ٢٩٨).

المبحث الثالث

مراتب الوحى

وتتميمًا للكلام على الوحي نذكر صوره التي كان يوحي للنبي ﷺ عليها قبل عرضنا لسيرة الوحي في القرآن الكريم مع الرد على "وات".

يقول الإمام "ابن القيم" إن الله تعالى قد كمل لنبيه من مراتب الوحي مراتب عديدة:

أحدها: الرؤيا الصادقة، وهي أول ما بدئ به الوحي، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح[1].

الثانية: ما كان الملك يلقيه في روعه وقلبه من غير أن يراه كما قال ﷺ: "إن روح القدس نفث في روعي أنه لن تموت نفس حتى تستوفي أقصى رزقها، فاتقوا الله وأجملوا في الطلب....".[2]

الثالثة: كان يتمثل الملك للنبي ﷺ رجلاً فيخاطبه فيعي ما يقول، وفي هذه المرتبة كان

1- البخاري (٦٩٨٢)، ومسلم (١٦٠)، أحمد "الفتح الرباني" (١٨/٤٧).

2- الحديث صححه الألباني في التعليق على فقه السيرة لمحمد الغزالي، (٩٦)، قائلاً أخرجه الحاكم (٢/٤) عن ابن مسعود ﷺ، والطبراني في الكبير وأبو نعيم في الحلية (١٠/٢٦-٢٧) عن أبي أمامة، والبزار عن حذيفة كما في مجمع الزوائد للهيثمي (٤/٧١) كما في الترغيب والترهيب، ولهذا جزم ابن القيم في زاد المعاد بذلك، واتفق محققًا الزاد شعيب وعبد القادر الأرناؤوط (١/٧٩) مع الألباني على تصحيحه، وزاد بعض الشواهد التي تؤكد ذلك، وانظر د. مهدي رزق الله "السيرة النبوية" (١٥٢).

يراه الصحابة أحيانًا[1].

الرابعة: أنه كان يأتيه في مثل صلصلة الجرس، وكان أشده عليه فيتلبس به الملك حتى إن جبينه ليتفصد عرقًا في اليوم الشديد البرد، وحتى إن راحلته لتبرك به إلى الأرض...."[2].

الخامسة: أن يرى الملك في صورته التي خلق عليها، فيوحي إليه ما شاء الله أن يوحيه، وهذا وقع له مرتين كما ذكر في سورة النجم.[3]

السادسة: ما أوحاه الله تعالى من فوق سماواته ليلة المعراج من صلاة وغيرها.

السابعة: كلام الله له منه إليه بلا واسطة ملك، كما كلم الله تعالى موسى عليه السلام، وهذه المرتبة ثابتة لسيدنا موسى عليه السلام بنص القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمًا﴾ [النساء: ١٦٤]، وثبوتها للنبي ﷺ في حديث المعراج حيث عرج به إلى أن كلم الله تعالى[4].

وبالتأمل في هذا التلخيص للوحي نشير إلى أمور مهمات تعين على توضيح تلك الظاهرة الخارقة، وفي نفس الوقت نرد منها أو هي تحمل الرد على "وات" علاوة على ما سيأتي من الكلام على الوحي في القرآن الكريم:

أولاً: يتبين من الحديث أن الرسول ﷺ رأى جبريل بعينه، وأنه ضمه ثلاث مرات، وأنه سمعه يقول اقرأ، وقرأ عليه آيات ما زالت تتلى إلى يوم القيامة، وهذا يدل على أنه ليس

1- وقد ورد ذلك في حديث جبريل، لما قال النبي ﷺ: "هذا جبريل أتاكم يعلمكم أمور دينكم" وروى النسائي بإسناد صحيح عن ابن عمر رضي الله عنهما: "كان جبريل يأتي في صورة دحية الكلبي" زاد المعاد، حاشية (٧٩/ ١).

2- البخاري (٣٢١٥/)، ومسلم (٢٣٣٣).

3- مسلم (١٧٧).

4- مسلم (١٦٣).

أمرًا ذاتيًا، ولا تأملاً باطنيًا، وأنه لا تعلق له باللاوعي، أو الوعي والليبيدو الذي يدعيه "وات"، بل إن الوحي يتم من خارج الذات المحمدية المتلقية له، خاصة وأنه متضح لكل عاقل أن ظاهرة الوحي لم تأت منسجمة أو متممة لشيء مما قد يتصوره أو يخطر بباله، وإنما طرأت طروءًا على حياته وفوجئ بها، إذ ليس من شأن التدرج في التأمل والتفكير[1] بطريقة الكشف التدريجي المستمر أن يأتي له من يضمه ويكلمه، ثم يتركه ويذهب، فلم يكن إذن للرسول من أثر سوى حفظ هذا الوحي وتبليغه، أما بيانه وتفسيره فيتم بأسلوب النبي ﷺ وهو أفصح العرب، ومع ذلك وجدنا أسلوبه مغايرًا تمامًا لأسلوب القرآن الكريم.

وإن محاولة "وات" تعليل اختلاف أسلوب القرآن الكريم عن أسلوب الحديث عن طريق علم النفس التحليلي، بدعوى أن القرآن الكريم صدر عن منطقة اللاشعور في حالة ضعف الوعي الخارجي ونشاط العقل الباطن، وأن الحديث صدر عن العقل الظاهر لا شك تبدو متهافتة مجافية للحقيقة مخالفة للواقع، إن ما صدر عن النبي ﷺ في حالة الضعف المزعومة قرآن وكلام إلهي لم يستطع بشر أن يأتي به أو بمثله ولو مفترى لا حقيقة له، سواء في حالة الضعف ونشاط والعقل أو في خلاف ذلك، وإن تهافت هذا التفسير يظهر إذا تأملنا فيما صدر عن الحكماء والشعراء والبلغاء من آثار أدبية تتضح فيها الوحدة الأسلوبية مع مرورهم بتجارب تأملية واستنباطية، بل صار الأسلوب أساسًا لتحديد السرقات الأدبية إلى جانب سرقة المعاني.[2]

إن طمأنة السيدة خديجة رضي الله عنها للنبي ﷺ بأخلاقه الحميدة، وأن مثله لا يؤذيه جنٌّ ولا غيره، لدليل على مفاجأتها بما حدث، وإلا لكان ردها هذا هو المتوقع والمنتظر نعم

1- كما يدعي كارادفو الفرنسي. انظر حاضر العالم الإسلامي (٣٩/ ١)، وانظر د. مهدي رزق الله "السيرة النبوية من مصادرها الأصلية" (١٤٩-١٥١).

2- انظر د. أكرم العمري "السيرة النبوية" (١٢٩-١٣٠/ ١).

قد وصلنا إلى النتيجة المرجوة، ولما ذهبت به إلى ورقة ليقول لها: إن هذا هو الناموس الذي نزل على الأنبياء، وذلك منه من أكبر الأدلة على كون الوحي ليس أمرًا ذاتيًا كما ذُكر إذ هو تنزل ملاك الرب على المصطفين من عباده لا علاقة لذواتهم به، بل هو شيء خارج عن النفس هم الوسيلة في تبليغه لا غير، ولو كان الأمر ذاتيًا مع ضعف الوعي أو قوته أو غير ذلك من المفتريات لكان ورقة أولى به، وإن مثل هذا الحدث الجلل، والشأن العظيم لجدير بأن ينسبه المرء إلى نفسه ليحوز به الفخار الذي يعلمه، والشرف الذي لا يدانيه شرف.

ذكرت الروايات التي أشرنا إلى بعضها أن الرسول ﷺ بعد فترة الوحي وانقطاعه سمع صوتًا فرأى الملك الذي جاءه بحراء جالسًا على كرسي بين السماء والأرض فرعبت منه... إلى آخر الحديث، وهذا يدل على رؤية الملك جبريل عليه السلام، ووقع "وات" هنا في مأزقين

الأول: أنه اختار رواية واحدة هي رواية الزهري في قول السيدة عائشة رضي الله عنها أنه جاءه الحق وهو في غار حراء، وبنى عليها ما يأتي من كلامه.

الثاني: أنه اخترع رواية من عنده في رؤية الملك أنه رأى الحق جالسًا على العرش بين السماء والأرض.

ثم خلص إلى أن الرسول ﷺ لما تعلم بعد ذلك من أهل الكتاب أن الله لا يُرى ذكر أنه رأى جبريل، وبالتالي فهو غير صادق في ادعاء الوحي.

وهذا الكلام الغريب المخترع يبين ميل "وات" عن الحياد الذي يدعي، ويوضح في نفس الوقت الأسلوب الانتقائي الاستشراقي ل"وات" والذي أوقعه في تلك المآزق، يؤكد كذلك على منهج اختراع التاريخ الذي بيناه من قبل، ثم يرد على التاريخ المخترع الذي لا علاقة له بالرسول ﷺ بما يكذب به الرسول ﷺ ، وإلى شيء من تفصيل ذلك:

أولاً: أن الرسول ﷺ ذكر أن الملك جاءه وضمه، ثم رأى الملك ذاته على كرسي بين السماء والأرض.

ثانيًا: أن الحق الوارد في رواية "وات" المنتقاة يكون معناه إذن الرسالة والنبوة ليس الحق هو الله كما يحلو ل"وات"، لأنه مناف للواقع وللحديث مع النبي ﷺ بدليل قول الله تعالى على لسان الملك: "اقرأ باسم ربك الذي خلق" لا باسم غيره، وأن الملك مبلغ له ذلك عن الله تعالى الذي خلق.

ثالثًا: أن "وات" أَلَّفَ رواية أنه ﷺ رأى الملك جالسًا على العرش هكذا بتعريف العرش، وذلك لا يكون إلا لله وجميع ما ورد في ذلك مما يعلمه "وات" هو أنه ﷺ رأى الملك جالسًا على عرش أو كرسي بين السماء والأرض فماذا نقول في هذا الكلام من "وات"، هذا الملفق ثم يأتي بعد ذلك لينسبه للنبي ﷺ ويكذبه به.

رابعًا: بعد هذا الكلام كله يقول "وات" إن محمدًا عندما يقرأ "اقرأ" يشعر بالدين في رقبته لورقة، خاصة وأنه لكي يستقيم له تخيله وما يدعيه يفترض نزول قرآن قبل اقرأ، لأنه كان يتردد على ورقة، وأن خديجة لا يستبعد أن تكون هي الأخرى مسيحية.

وقد ظهر بالكلام السابق أن ذلك إنما هو عقدة "وات" في عدم ذكر الحقيقة وتحليلها، فضلاً عن تقطيع أوصال الحقائق في أماكن مختلفة ليؤكد الانتقائية في بحثه، فإن لم يجد اخترع تاريخًا وأخذ يحلله لنا ويستخرج منه ما لا علاقة له ببحثه أو بما يتكلم فيه، وذلك كما أشرنا من قبل أحد معالم بحث "وات" على مدار السيرة من أولها إلى آخرها، وقد رددنا ضمنًا فيما سبق على هذا الكلام العلمي النزيه المحايد من "وات" كما يحلو لنفسه أن يلقبه به.

وفي نهاية المبحث يحسن أن نذكر كلام كاتبين نصرانيين هما "سال" و"تايلور" يدلان على أن النصرانية التي وراء ادعاء النبي ﷺ للرسالة والوحي كانت في أسوأ عصور

انحطاطها، بحيث لم يجد ﷺ نموذجًا أخلاقيًا، أو دينيًا ليحتذيه أو لينقله إلى الإسلام، ودليل على أن ورقة بن نوفل لا علاقة له بالنبي ﷺ فضلاً عن أن يتردد إليه، وبرهان ساطع على ما وصل إليه ورقة من علم لم يكن ليزيد عن المعلوم السائد، اللهم إلا قراءته في الإنجيل ونقله منه ما شاء الله بالعبرانية، وما كان ذلك مقنعًا للناس أن يدخلوا في النصرانية خاصة وأنه لم يدع لشيء من ذلك أو تعرض لدخول أحد فيه كما ذكرنا من قبل المهم يقول سال: "إذا قرأنا التاريخ الكنسي بعناية، فسنرى أن العالم المسيحي قد تعرض منذ القرن الثالث لمسخ صورته، بسبب أطماع رجال الدين والانشقاق بينهم والخلافات على أتفه المسائل، والمشاجرات التي لا تنتهي، والتي كان الانقسام يتزايد بشأنها. وكان المسيحيون في تحفزهم لإرضاء شهواتهم، واستخدام كل أنواع الخبث والحقد والقسوة قد انتهوا تقريبًا إلى طرد المسيحية ذاتها من الوجود، بسبب جدالهم المستمر حول طريقة فهمها، وفي هذه العصور المظلمة بالذات ظهرت بل وثبتت أغلب أنواع الخرافات والفساد."[1]

أما "تايلور" فيقول: «إن ما قابله محمد وأتباعه في كل اتجاه لم يكن إلا خرافات منفرة ووثنية منحطة ومخجلة، ومذاهب كنسية مغرورة، وطقوسًا دينية منحلة وصبيانية».[2]

فأنى إذن لمحمد ﷺ أن يقتدي بتلك التعاليم التي وصفها أصحابها بتلك الأوصاف ونعتوها بتلك النعوت، إذا كان العوام قد رفضوها هم والخواص، ورسول الله ﷺ هو من هو أرجح الناس عقلاً وأعظمهم احترامًا في محيطه، ومحيط من عرفه أو خالطه، كما ذكرنا شيئًا من أوصافه التي وصفه بها أهل الجاهلية، ووسمته بها سيرته في الكتب السابقة (السماوية).

1- د. محمد عبد الله دراز، "مدخل إلى القرآن الكريم"، (١٣٦) نقلاً عن كتاب سال "ملاحظات تاريخية ونقدية عن الإسلام" (٦٨-٧١).

2- د. محمد عبد الله دراز، "مدخل إلى القرآن الكريم" (١٣٧)، نقلاً عن "المسيحية القديمة" لتايلور (٢٦٦/ ١).

نسارع خطى البحث لنعود إلى ذكر الوحي في القرآن الكريم على المنهج الذي اخترناه لهذا البحث.

ونلاحظ الآية الأولى في هذا المعلم وقد قدمناها لكونها تجمع الأنبياء جميعًا الذين ورد ذكرهم في القرآن الكريم والذين لم يرد ذكرهم وهي قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ كَمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ نُوحٖ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعۡدِهِۦۚ وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيۡمَٰنَۚ وَءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ زَبُورٗا ١٦٣ وَرُسُلٗا قَدۡ قَصَصۡنَٰهُمۡ عَلَيۡكَ مِن قَبۡلُ وَرُسُلٗا لَّمۡ نَقۡصُصۡهُمۡ عَلَيۡكَۚ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمٗا﴾ [النساء: ١٦٣-١٦٤]، وقد أضفنا إليها الآية التالية لها لتعلقها بها.

ففي هذا التنزيل القرآني نرى الآتي:

أولاً: أن وحي الله تعالى للنبي ﷺ إنما هو كوحيه لجميع الأنبياء، أي إنه وحي من الله إلى موحى إليه من البشر منفصل تمام الانفصال عن الموحَى إليه، فهو ليس من ذاته بل من الله جل وعلا.[1]

ثانيًا: أن وحي النبي لا يفترق عن وحي الأنبياء من قبله، فأصول هذه الرسالات واحدة من الله تعالى، وإن اختلفت في أمور تتفق وبعثة الأنبياء وأزمانهم رعاية من الله ورحمة بالناس.

ثالثًا: أن وحي النبي ﷺ ليس حالة نفسية أو حالة من حالات الوعي واللاوعي وغير ذلك، إذ لم ينسب لنبي من قبل مثل هذا البهتان فمن باب الأولى فالرسالة الخاتمة الشاملة الخالدة الأعظم لا يكون مبلغها إلا على أفضل كمالات الأنبياء من قبله.

رابعًا: أن الأنبياء الأقرب من الرسول برسالاتهم كموسى وعيسى عليهما السلام لم

---

1 – انظر مالك بن بني، "الظاهرة القرآنية".

يعلم أو ينقل عنهم مثل ذلك اللبيدو الذي يدعيه "وات" في القرن العشرين، وقد بينت الآية أن الرسول ﷺ قد أوحي إليه كما أوحي إليهما أيضًا فما الفارق إذن؟

خامسًا: أن الله تعالى لم يمن على رسوله بالوحي، وأنه أرسل إليه رسولاً وأنه اصطفاه لذلك إلا لأنه أوحى له بذلك حقًا، وأنه سبحانه ما يقول هذا القول إذا كان هذا الوحي المعظم النازل إليه إنما هو من نفسه ﷺ يستدعيه بالوعي واللاوعي كيف يليق ذلك بالله تعالى مع أنبيائه؟!

ونسرد فقط عددًا من الآيات تدل على المطلوب، فعلى سبيل المثال يقول المولى سبحانه: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ [النجم: ٣-٤] وسنعود إلى هذه الآية بالذات في قصة الغرانيق إن شاء الله تعالى، وقوله سبحانه: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالاً نُّوحِىٓ إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰٓ﴾ [يوسف: ١٠٩] وقوله: ﴿وَأُوحِىَ إِلَىَّ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ ومن بَلَغَ﴾ وقوله تعالى: ﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ﴾ [الأحقاف: ٩] وقوله: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ۝ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ۝ فَإِذَا قَرَأْنَـٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ﴾ [القيامة:١٦-١٨][1] وهي آيات مكية يخاطب بها أهل مكة، وأنه لا يتبع إلا الوحي، وأنه منذر مبلغ للعالمين ليس له من أمر الوحي شيء، ولا من أمر نفسه ولا غيره شيء.

ونبدا بذكر ما نزل من الوحى فى أول البعثة نبين به سيرة النبى ﷺ فى دعوته وأهداف الدعوة من أول أيامها، والسيرة التى ينبغى أن يسلكها الرسول ﷺ - ليصل او ليحقق تلك الاهداف بها ينير الطريق لاتباعهم لالتزام تلك السيرة فى دينهم، وكان أول ما نزل قوله: ﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝ خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝ عَلَّمَ ٱلْإِنسَـٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝ ﴾.

---

١ - وانظر لما سبق: عبد الله النعيم، "الاستشراق في السيرة النبوية"(٧٤-٧٥).

وبالنظر فى تلك الآيات وتحليلها نلاحظ:

أن هذا أول ما أوحي به من القرآن إلى رسول الله ﷺ لِما ثبت عن عائشة عن النبي ﷺ مما سيأتي قريباً.

وافتتاح السورة بكلمة ﴿ ٱقۡرَأۡ ﴾ إيذان بأن رسول الله صلى الله عليه وسلم سيكون قارئاً، أي تالياً كتاباً بعد أن لم يكن قد تلا كتاباً قال تعالى: ﴿ وَمَا كُنتَ تَتۡلُواْ مِن قَبۡلِهِۦ مِن كِتَٰبٖ ﴾ [العنكبوت: ٤٨]، أي من قبل نزول القرآن، ولهذا قال النبي صلى الله عليه وسلم لجبريل حين قال له اقرأ: " ما أنا بقارىء ".

وفي هذا الافتتاح براعة استهلال للقرآن.

وفي حديث «الصحيحين» عن عائشة رضي الله عنها[1] قولها فيه: « حتى جاءه الحق وهو في غار حراء فجاءه الملك فقال: اقرأ. قال: فقلت: ما أنا بقارىء فأخذني فغطني حتى بلغ مني الجَهْد ثم أرْسَلَني فقال: اقرأ. فقلت: ما أنا بقارىء فأخذني فغطّني الثانيةَ حتى بلغ مني الجَهد ثم أرسلني فقال: اقرأ فقلت: ما أنا بقارىء فأخذني فغطني الثالثة حتى بلغ مني الجَهد، ثم أرسلني فقال: ﴿ ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ۝١ ﴾ إلى ﴿ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ ۝٥ ﴾ .

وقوله ﴿ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ﴾ فيه تعريض بتحميق المشركين الذين ضلوا عن توحيد الله تعالى مع أن دليل الوحدانية قائم في أنفسهم.

وفي قوله: ﴿ مِنۡ عَلَقٍ ۝٢ ﴾ إشارة إلى ما ينطوي في أصل خَلْق الإنسان من بديع الأطوار والصفات التي جعلته سلطانَ هذا العالم الأرضي.

---

1 - البخارى، الصحيح، باب بدء الوحى(١/ ٥).

فإذا نظرتَ إلى الآية مستقلة عما تضمنه حديث عائشة في وصف سبب نزولها كان الاستئناف ناشئاً عن سؤال يجيش في خاطر الرسول صلى الله عليه وسلم أن يقول: كيف أقرأ وأنا لا أحسن القراءة والكتابة، فأجيب بأن الذي علم القراءة بواسطة القلم، أي بواسطة الكتابة يعلمك ما لم تعلم.

وإذا قرنت بين الآية وبين الحديث المذكور كان الاستئناف جواباً عن قوله لجبريل: « ما أنا بقارىء » فالمعنى: لا عجب في أن تقرأ وإن لم تكن من قبل عالماً بالقراءة إذ العلم بالقراءة يحصل بوسائل أخرى مثل الإملاء والتلقين والإلهام وقد علم الله آدم الأسماء ولم يكن آدم قارئاً.

ووصف ﴿ٱلۡأَكۡرَمُ﴾ مصوغ للدلالة على قوة الاتصاف بالكرم وليس مصوغاً للمفاضلة فهو مسلوب المفاضلة.

والكرم: التفضل بعطاء ما ينفع المعطَى، ونعم الله عظيمة لا تُحصى ابتداء من نعمة الإيجاد، وكيفية الخلق، والإمداد وتخصيص الكرم بربك هنا للدلالة على النعم الخاصة بالنبى ﷺ علاوة على ما سبق من مثل النبوة والرسالة ولبلاغ العلم مع الاصطفاء والتشريف بإضافة الرب سبحانه وتعالى إلى كاف المخاطب وهو النبى ﷺ.

جمعت هذه الآيات الخمسُ من أول السورة أصول الصفات الإلهية فوَصفُ الرب يتضمن الوجود والوحدانية، ووصف ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴾ ووصف ﴿ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ ۝ ﴾ يقتضيان صفات الأفعال، مع ما فيه من الاستدلال القريب على ثبوت ما أشير إليه من الصفات بما تقتضيه الموصولية من الإيماء إلى وجه بناء الخبر الذي يذكر معها. ووصف ﴿ ٱلۡأَكۡرَمُ ﴾ يتضمن صفات الكمال والتنزيه عن النقائص وفيه إفحام للمشركين من أول آية على ان آلهتهم ليست من تلك الصفات فى شئ فلا يستحق التوحيد والعبادة إذن إلا الله

وحده وهو أساس الدعوة وهدفها من أول آية، مع ما فى قوله باسم ربك أنت أى الواحد الموصوف بصفات الكمال المنزه عن صفات النقص لا أى رب آخر يدعوه المشركون أو غيرهم.

وجملة: ﴿عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ﴾ خبر عن قوله: ﴿وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ﴾ وما بينهما اعتراض.

وتعريف ﴿ٱلۡإِنسَٰنَ﴾ يجوز أن يكون تعريف الجنس فيكون ارتقاء في الإعلام بما قدره الله تعالى من تعليم الإنسان بتعميم التعليم بعد تخصيص التعليم بالقلم.

وفي ذلك طمأنة لنفس النبي صلى الله عليه وسلم بأن عدم معرفته الكتابة لا يحول دون قراءته لأن الله علّم الإنسان ما لم يعلم، فالذي علّم القراءة لأصحاب المعرفة بالكتابة قادر على أن يعلمك القراءة دون سبق معرفة بالكتابة.

وأشعر قوله: ﴿مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ﴾ أن العلم مسبوق بالجهل فكل علم يحصل فهو علم ما لم يكن يُعلَم من قبل، أي فلا يُؤْيِسَنَّك من أن تصير عالماً بالقرآن والشريعة أنك لا تعرف قراءة ما يكتب بالقلم. وفي الآية إشارة إلى الاهتمام بعلم الكتابة وبأن الله يريد أن يُكتَب للنبى ﷺ ما ينزل عليه من القرآن فمن أجل ذلك اتخذ النبي صلى الله عليه وسلم كتاباً للوحي من مبدأ بعثته.

وفي الاقتصار على أمر الرسول صلى الله عليه وسلم بالقراءة ثم إخباره بأن الله علّم الإنسان بالقلم إيماء إلى استمرار صفة الأمية للنبى ﷺ لأنّها وصف مكمِّل لإعجاز القرآن قال تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ تَتۡلُواْ مِن قَبۡلِهِۦ مِن كِتَٰبٖ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَۖ إِذٗا لَّٱرۡتَابَ ٱلۡمُبۡطِلُونَ ﴿٤٨﴾﴾ [العنكبوت: ٤٨].

وهذه آخر الخمس الآيات التي هي أول ما أنزل على النبي صلى الله عليه وسلم في غار حراء.

وبناء على ما سبق كان معنى الآيات، أن الله سينزل على نبيه مايتلوه على الدنيا، وأن الذى سيتلوه هو دعوتهم إلى ربه، وترك غيره لأنه الواحد الأحد الذى له الخلق والأمر، ومتصف بصفات الكمال منزه عن صفات النقص، وأن له الرجعى والقيامة اليه، فهو إذا الإله الذى يجب أن يفرده المرء بالعبادة والسجود له والتقرب إليه (واسجد واقترب).

ومن ثم ردت الآيات على "وات" فى الدعوة وبواعثها وأركانها لا كما يدعى وردت عليه فى كونها وحيا من الله إذ لا يتصور ولا يمكن أن يكون اللبيدو أو الوعى الخلاق كما يزعم مصدرا للوحى فيما سيكون إذ هو عنده تخزين فقط لما كان يستدعيه بالوعى أو اللاوعى، ثم إن قوله اقرأ لم تكن من اللاوعى لأنه لم يسمع من حكاها أونقلت له من قبل إذ هى مفاجأة بما لم يحتمله واقعا.

ونعود إلى"وات" لنذكر رأية فى موضوع النبوة ونبين الرد عليه.

- إن "وات" يرجع أمر النبوة إلى التخيل الخلاق[1]، بمعنى إنها إبداع من عقلية النبي ﷺ، وليست اصطفاء من الله لسيدنا محمد ﷺ لأداء رسالته، ولذلك استبعد رؤية جبريل عليه السلام من الناحية التاريخية[2].

وننقل شيئًا من كلام "وات" بنصه فيما يخص ما نحن فيه يقول: "لقد تملكت محمدًا منذ وقت مبكر أن الكلمات التي تصل إليه هي وحي من الله مهما كانت الصورة الدقيقة لتجربته الأولى في تلقي الوحي، وقد ظهر الإيمان بذلك منذ البداية في دعوته العامة"، ويقول "على المؤرخ أن يعترف بصدق محمد المطلق في اعتقاده بأن الوحي كان يأتيه من الخارج يمكن أن يكون قبل الوحي قد سمع من بعض الأشخاص قسمًا من القصص التي

1- Creative imagination.

2- محمد في مكة.

يذكرها القرآن، وعندئذ يترك المؤرخ الموضوع للمتكلمين[1]، ليقوموا بنوع من التوفيق"، ويمعن في إظهار اعتقاده فيهذي قائلاً: "فالقول بأن محمدًا كان صادقًا لا يعني أن القرآن وحي حق، وأنه من صنع الله، إذ يمكن أن نعتقد بدون تناقض أن محمدًا كان مقتنعًا بالوحي ينزل عليه من الله وأن نؤمن في نفس الوقت بأنه كان مخطئًا"[2].

ويخدع قارئه الواثق فيه، أو الساذج بقوله بعد ذلك بأن: "مصدر الوحي المحمدي هو اللاوعي الجماعي، الذي هو مصدر كل وحي ديني سواء كان الإسلام أو النصرانية أو اليهودية"[3].

ولما كانت هذه الدراسة تعتمد على القرآن الكريم، والسنة النبوية المشرفة دراسة نصية مقارنة ونقدًا، فإننا نرد على "وات" وغيره من هذا المنحى غير المسبوق فيما نعلم، حيث يتبين به سوء الفهم، وسوء القصد، وضعف العلم، وتغيير الحقائق بنية مسبقة تضع الأحكام وتفصل لها الوقائع لتأتي على وفق الاعتقاد السابق الذي يلوي به رقبة البحث في الاتجاه الذي يريده له، ضاربًا عرض الحائط بكل ما له صلة بالبحث العلمي، خاصة فيما يتعلق بالإسلام ونبيه ﷺ وهذه المسألة جعلناها مثلاً يحتذى، لذلك نزيدها توضيحًا وتدليلاً كلما مر معنا من كتابات "وات" ما يتعلق بها من جديد الإفك، وسيء القصد.

كان ينبغي أن نبدأ بها مع أول قضية، وكل قضية سطرناها من قبل، ولكن آثرنا وضعها هنا؛ لإدخال "وات" لها في إنكار النبوة، وهو يشير إلى تلك القضايا التي سودها في هذا الموضع.

ونبدأ بنقد كلام "وات"..

1- Theologions.

2- محمد في المدينة (٣٢٥).

3- Watt. Mohammad prophet and stateman p.238.

وسوف نبري قلم النقد بمبراة التهذيب بريًا عظيمًا، مع شدة الاستفزاز التي وصلت إلى أسوأ دركاتها، بما ليس في طاقة الحليم أن يتحمله أو أن يمسك نفسه ويتمالك أعصابه حتى يرد عليه.

- نبدأ بهذا الاعتقاد المضحك، الذي يدل على الاستخفاف بالعقل وعدم احترامه، وإظهار ذلك في ثوب الحياد، في محاولة مكشوفة لكي يقبل العقل التناقض، ويسلم به، يقول "وات": "على المؤرخ أن يعترف بصدق محمد المطلق في اعتقاده بأن الوحي كان يأتيه من الخارج" ثم يهدم ذلك بأمرين.

الأول: يستكمل به هذا الكلام قائلاً: "يمكن أن يكون قبل الوحي قد سمع من بعض الأشخاص قسمًا من القصص التي يذكرها القرآن"[1].

الثاني: "أن مصدر الوحي المحمدي هو اللاوعي الجماعي، الذي هو مصدر كل وحي ديني سواء كان الإسلام أو النصرانية أو اليهودية"[2] ولا أظن أن هذا التهافت يحتاج إلى بيان من وجوه نصوصه هو وهاك الرد.

الأول: أن محمدًا ﷺ صادق صدقًا مطلقًا بأن الوحي يأتيه من الخارج وفي نفس السطر ينقلب على عقله، ليقول يمكن أن يكون قد سمع من بعض الأشخاص قسمًا من القصص التي يذكرها القرآن قبل الوحي.

وهذا كاف في الرد، ولكن نفصل شيئًا في كلام "وات" فنقول: إذا كان الرسول ﷺ صادقًا في أن الوحي يأتيه من الخارج، فممن كان يأتيه الوحي الذي يسمعه ويبلغه بعد ذلك، لم تطاوع "وات" نفسه في أن يعترف بالحق إنصافًا للعلم، بل غالط نفسه وعقله

1- Ipid p128.
2- محمد في مكة (٣٢٥).

وعقل القارئ والسامع فقال إن قسمًا من هذا القصص يمكن أن يكون سمعه قبل الوحي، نحن مسلمون بهذا ولكن كيف يتفق ذلك مع قولك بصدق النبي ﷺ في أن الوحي يأتيه من الخارج، ترى يأتيه من الداخل قسم قد خزنه في اللاوعي، ثم عند ادعاء الوحي يأتيه من الخارج من يستدعي هذا القسم من الداخل ليحدثه به على أنه من الخارج هذا كلام "وات"، فأي عقل هذا وأي علم ذلك، هل يدخل في عقل طفل صغير هذه الأغلوطات.

الثاني: قوله إن قسمًا من هذه القصص سمعه قبل الوحي، سلمنا ولكن من الذي أوثر عنه أثرًا صحيحًا في أنه كان يحكي قصصًا سمع النبي ﷺ قسمًا منه ثم استدعاه بما يسميه "وات" اللاوعي الجماعي ليدعي وهو الصادق أن ذلك وحي من الخارج، ولم يكذبه صاحب القصص.

الثالث: هذا القسم من القصص الذي سمعه ﷺ ما هو تحديدًا أو تقريبًا.

الرابع: بقية الوحي "القرآن الكريم" مما لا قصص فيه من أين جاء به وهو صادق صدقًا مطلقًا في أن الوحي يأتيه من الخارج كالتوحيد والنبوات والأحكام والعبادات والأخلاق والسلوك.

الخامس: ترى من كان يقص هذا القصص ألم يكن الأعقل أن ينسبه لنفسه بدلاً من ادعاء غيره تملكه، ما دام أنه كان يمكن أن يكون وحيًا.

السادس: هذه البناء القرآني الضخم الذي نزل منجمًا على ثلاث وعشرين سنة، اختزل في قسم من القصص يحتمل سماعها قبل الوحي، في كل مرة يتنزل القرآن الكريم ليعلق على حادثة وقعت يتحرك اللبيدو ليصنع الأحداث التي وقعت، بأشخاصها ومواقعها، وتصرفاتها، ثم يخزن الأحداث ثم يأتي يستخرجها من اللاوعي إلى الوعي. هذا ليس لبيدو إذن بل هو الله تعالى، لأن موقعة بدر مثلاً قد جرت بترتيب الله تعالى، وفي مكان معين،

وبين أشخاص معلومين، وانتهت إلى نتيجة محسوسة، وعاقبة واضحة، ونزل القرآن الكريم ساعتها ليعلق التعليق الإلهي عليها، وكان اللاوعي من الرسول ﷺ لا شك فارغًا عما يحدث، فضلاً عما سيكون، أين سمع ﷺ قصة بدر، ثم خزنها جعلها في داخله ثم أذاعها وحيًا خارجيًا عندما جاء وقتها. هل كانت من قصص الأقدمين من اليهود والنصارى وغيرهم، وسمعها من القصاص، ثم ذكرها وحيًا ونترك لصاحب العقل التعليق!

- ويبدو أن "وات" علم أن كلامه لا يخفى على أحد تناقضه، فبادر مخالفًا كل القواعد العلمية والبحثية بقطع الطريق على مناقشة بأن كلامه متناقض وهو ما يسميه أهل العلم المصادرة على المطلوب، وكأنه يقول ستقول هذا تناقض، فيقول لا: إذ يمكن أن نعتقد بدون تناقض أن التناقض ليس بتناقض! هذا هو البحث العلمي.

أما قوله بنصه وقد أشرنا إليه من قبل: "فالقول بأن محمدًا كان صادقًا لا يعني أن القرآن وحي حق، وأنه من صنع الله، إذ يمكن أن نعتقد بدون تناقض أن محمدًا كان مقتنعًا بالوحي ينزل عليه من الله، وأن نؤمن في نفس الوقت بأنه كان مخطئًا".(١)

ولإظهار التناقض الذي لا مفر منه مهما حاول "وات" أن يرده في صدره بكلتا يديه لا بعقله لثقله الجاثم على ذهنه، فلا يدعه يسلم بالعلم والإنصاف نقول:

قلت: "على المؤرخ أن يعترف بصدق محمد المطلق في اعتقاده بأن الوحي كان يأتيه من الخارج".(٢)

فهل هنا تناقض أكثر من ذلك أن نقول إنه صادق، ولا تناقض في اعتقاد أنه كان مخطئًا، سلمنا جدلاً لأننا لو عكسنا الفرض فقلنا أن محمدًا حاشا له ﷺ كان كاذبًا كانت

---

1 – محمد في المدينة (٣٢٥).

Ipid, p128 .-2

النتيجة هي هي نفس نتيجة أنه صادق فاستوى أن يكون صادقًا أم كاذبًا في أنه كان مخطئًا في اعتقاد الوحي، فهل هناك تناقض أعظم من أن يستوي الكاذب والصادق، أو الصدق والكذب.

ولعل "وات" أدرك هذه النتيجة فسارع كاذبًا مضللاً بنفي التناقض قبل أن يكتشفه العقل الضعيف لأي طالب.

وتمويهًا على بعض قرائه من المسيحيين فى الغرب، وضعفاء العقل من المسلمين بادر بإثارة الغبار على الأديان الثلاثة حتى لا يتهم بالانحياز للمسيحية أواليهودية وأن مصدرها جميعاً واحد، ولكنه ليس الوحي، فقال ما يسلي المرء ضاحكًا في هذا الهم حيث يقول: "مصدر الوحي المحمدي هو اللاوعي الجماعي[1]، الذي هو مصدر كل وحي ديني سواء كان الإسلام أو النصرانية أو اليهودية"[2]، ولا نملك إلا الضحك الباكي على هذا الكذب، حيث لم يكن ذكورًا لما كتب فيما سبق إذ ما الذي جعلك تنقد الإسلام ونبيه بكل ما لا يجوز النقد به ثم تكون مسيحيًا موحدًا، مع أن مصدر وحيهما واحد هو اللاوعي كما تزعم، أما أن اللاوعي اليهودي والمسيحي أفضل من اللاوعي الإسلامي، أما إن اللاوعي اليهودي والمسيحي – وهو لا وعي – مصدره إلهي تعالى الله عما يقول الظالمون علوًا كبيرًا.

1- لخص "وات" رأى يونغ: وهو أن ما ينبثق من اللاوعى إلى الوعى فى رؤى الأفراد المنامية وأحلام اليقظة وكذلك فى الأساطير الدينية لمجتمع كامل تأتى من "اللبيدو" أو طاقة الحياة وهو ينبوع المناشط فى كل الناس. فى الشخص الواحد يكون"الللبيدو" فى أحد أجزائه شيئاً خاصاً وفى الجزء الآخر شيئاً مشتركاً بينه وبين أفراد جماعته وهو"اللاوعى المشترك" وتعزى له الأساطير الدينية. ولتطبيق النظرية على الوحى المحمدى يقول "وات" إن هذا يعنى أن كلمات الوحى كانت لها صلة بمحمد قبل أن يصير واعياً لها"ويمكن أن نقول أن الملك وضع الكلمات فى ناحية من نواحى الوجود المحمدى يسمى اللاوعى وأنها برزت من هنا إلى وعيه" انظر شيخ ادريس: مناهج المستشرقين(١/ ٢٣٤)، وكذلك Islamic Revlation, p. 109 وكذلك Muhammad Prophet and Statesman, p. 238.

2- محمد النبي ورجل الدولة (٢٣٨).

بل إن "وات" يزيد على ذلك محاربة للإسلام ونبيه، بدعوة المسيحيين لاتخاذ موقف ديني من محمد، ويذكر أنه يضع بين أيدي المسيحيين المادة التاريخية التي يجب اعتبارها في تحديد الحكم الديني.[1]

ترى "وات" منصفًا إذن وهو يضع بين يدي بني جلدته أسوأ مادة علمية كما يدعي عن الإسلام وأهله، بحسن قصد ليسلموا، ويعلنوا دخولهم في دين محمد ﷺ أم أنه يضع بين أيديهم ما يُسَوِّؤ صورة الإسلام ورسوله أمام أعينهم، وفي فكرهم واعتقادهم، تراه يوضح لهم سبيل أن يكونوا مسلمين، أم أن يتحصنوا ضد الإسلام، ويحول بينهم وبين انضمامهم إليه، ترى هل أسلم واحد فقط بعد قراءة كتب "وات"؟ دعك من "وات" نفسه أو أن المستشرقين والمستغربين يتخذون كتب "وات" المعتمد المعتبر في نقد الإسلام ونبيه، والحجة الدامغة للاوعي الذي يُغَيِّبُ به "وات" عقولهم عن فهم الإسلام على ما كان عليه.

هل يقول "وات" ويعتقد إذن كلامًا يتفق مع المنطق والعقل، أو مع الحال والواقع، أم إنه يقول ذلك ذرًا للرماد في العيون باتفاق الديانات الثلاث بكون اللاوعي مصدر وحيها.

ونأتي لقضية من قضايا "وات" التي نفى بها نبوة النبي ﷺ، وهي استبعاده تاريخيًا لرؤية جبريل، وقد ألقى بهذه القضية إلقاء من يظن به البحث المجرد الخالي من أي اعتبارات أخرى، والذي يفترض في صاحبه البساطة وحسن النية، بحيث لا يتطرق للسامع والقارئ شك في صاحبه كأنه إلقاء للقول على عواهنه ولكن للأسف الشديد هو كلام مقصود الهدف منه، بادي الترتيب، يعلم من يخاطب، وبما يخاطب، وما الذي يؤدي إليه خطابه، إنه بهذه الجملة القصيرة يهدم في اعتقاد من أمامه نبوة الرسول ﷺ "لا يمكن أن تكون تاريخية" وبسهولة يقول القائل: لقد قال "وات" إن رؤية جبريل التي تزعمون لا

1- Ibid.,p @.

يمكن أن تكون تاريخية، انتهت النبوة، أي بحث هذا؟ أي مكر ودهاء هذا؟ ونقلب عليه كلامه أي لاوعي هذا الذي يبثه، ينسف به من صدور المسيحيين أمثاله نبوة الرسول ﷺ ويزعزع على أقل تقدير إيمان المسلمين الواثقين في علمه أو بحثه.

ومنهج "وات" كما سنشير إلى عناصره في حينها، أحد أركانه هذا الركن السيئ، وهو التفسير المادي للتاريخ وليته للأسف طبقه كما قرره هو بنفسه، بل طبقه بركن آخر أشد سوءًا وهو المنهج الانتقائي خاصة فيما يتعلق بالإسلام ونبيه ﷺ.

وسنترك قضيته توضح ذلك مثالاً له، ودليلاً عليه، اختصارًا، وبدلاً من ضرب أمثلة أخرى، وهي قوله "لا يمكن أن تثبت تاريخيًا" رؤية النبي ﷺ لجبريل عليه السلام[1]، والرد أن هذه قضية دينية لا يمكن أن ترد إلى التاريخ والتفسير المادي البحت فقط إذ يدخل فيها التفسير الديني لتلك الظواهر، لأن الحديث ليس عن التاريخ والنظرة المادية خاصة وأن التفسير المادي وحده ليس كافياً في توضيح ما لا علاقة له به من الأخلاق والقيم وما وراء المادة، فكيف يصلح المنهج المادي لتفسير ما وراء المادي، وما لا يتعلق بالمادة فهذا لا عقل فيه ولا واقع، إذ وجدت أمور وقف العقل والمادة عاجزين عن تفسيرها، وإن لتغير الزمان عاملاً مهمًا في تغير الموازين المادية، فما كان لا يمكن أن يكون، صار ممكنًا، ينتظر أن يتغير هو الآخر، فكيف تحاكم ظواهر تلك السنين الدينية لمتغيرات في السنين الآنية، لقد أوشك إن لم يكن قد هدم التفسير المادي من كثرة ما وجه إليه من انتقادات، فما بال هؤلاء المستشرقين متمسكين به، مستخفين وراءه، وهم يعلمون تهافته وسقوطه، إن ذلك لكيد الإسلام وهدمه.

وأما قوله لا يمكن تاريخيًا وغيره من هذه الألفاظ فتلك عادة "وات" في تضخيم

---

[1] – انظر الاستشراق فى السيرة النبوية د. عبد الله محمد النعيم.Muhammad at mecca, p. 43

ألفاظه التي تحط من الإسلام، وتعظم الضلال في صدور أتباعه حتى يقول قائلهم لا يمكن أن يرى محمد هذا جبريل، ويتبع ذلك سيل من الشتائم للرسول الكريم ﷺ ودينه بالكذب والهوس وكذا، وكذا.. مما لسنا في صدد تسويد الرسالة به.

والرد على التفسير التاريخي والمادي أسهل من كتابته، لأنه كما ذكرنا انتقائي، ف"وات" نفسه هو الذي جعل اللاوعي المسيحي إلهي، واللاوعي الإسلامي إنساني بدون أي دليل؛ لأن الإنسان واحد، "وات" هو نفسه ذلك الشخص الذي جعل رؤية جبريل تاريخيًا غير ممكنة، ورؤية روح القدس وهو جبريل من السيد المسيح عليه السلام ثابتة يؤمن بها ويؤيدها، مع أن التاريخ واحد ينبغي أن يرد الاثنين لأنه تاريخ أو يقبل الاثنين، فأي تناقض أعظم من هذا؟ وأي استغفال واستخفاف بالعقل يمكن أن يكون مثل هذا؟

ثم يا سيد "وات" إن رؤية جبريل يمكن أن تكون قد حدثت، ويمكن ألا تكون قد حدثت فما الذي رجح عندك عدم الوقوع، ما الدليل؟ أي دليل كان يؤيد احتمالية عدم الوقوع، فضلاً عن عدم الإمكانية التي تدعي القطع بها، قاطعًا طريق النقاش فيها كأنك حزت الحق الذي لا مرية فيه، والذي يجب أن يقبله الكون كافة؟

وعلى أية حال فإن نقد هذا الكلام ورده وتفنيده وإلقائه في المكان الذي يستحق موجود في كلام "وات" نفسه، ولكن لأنه متناقض، يدافع عن تناقضه فكأنه نسي ما كتبت يداه.

حيث يقول: "على المؤرخ أن يعترف بصدق محمد المطلق بأن الوحي كان يأتيه من الخارج...".

وكرر في أكثر من موضع صدق محمد وإخلاصه، وإن عاد على كلام نفسه بالنقض والتكذيب أي لنفسه.

ونقول له قد آمنا بصدق محمد كما أمرتنا، بغض النظر عن إيمانك أنت فكان صدقه إذاً المُقَرّ به مرجحًا قويًا لإثبات رؤية جبريل، لأنه لا يمكن أن نقول له أنت صادق ثم نقول له أنت كاذب، هذا ليس علمًا ولا بحثًا ولا شيئًا إنما هو للهزل وتضييع الوقت والاستخفاف والحمق أقرب، ومثل ذلك لا ينبغي للعاقل أن يخاطبه فضلاً عن أن يباحثه ويناقشه الحجة بالحجة والمنطق بالمنطق.

الرد التالي: وهو الرد التاريخي على "وات" كما نسميه نحن، وهو من وجهين:

الوجه الأول: القرآن الكريم فقد أثبت الوحي برؤية جبريل، والقرآن قاطع بالنسبة إلى الرسول ﷺ، وقد قال في الرؤية: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ۝ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ۝﴾ [النجم: ١٣] وقد وقف "وات" عند سورة النجم، وقصة الغرانيق وقفة طويلة يبدي ويعيد، ووقفتنا معه إن شاء الله في حينها.

الوجه الثاني: وهو الروايات الصحيحة المتواترة في رؤية جبريل عليه السلام من يوم أن نزل عليه ﷺ بالرسالة، إلى أن انتقل إلى الله تعالى، وهذا التواتر يفيد العلم اليقيني الذي لا مدفع له، ولا يمكن رده باعتراف الموافق والمخالف، ليس كعدم الإمكانية التي لا تستند إلى أي برهان عند "وات"(1)، وبعد ذلك يتضح من هذه الردود السريعة المختصرة شيء من موقف "وات" في كتابته عن الإسلام ونبيه، وتتجلى كذلك منهجيته التي تتسم بالعلم إلا فيما يتعلق بالرسول ودينه حيث يمحي تمامًا كل ما له صلة بالبحث العلمي وقواعده، وينقلب "وات" شيئًا آخر لا يمت للعقل بأدنى علاقة ليس ذلك مبالغة، إن الكاتب المنصف ليرى في كل صفحة كتبها عن الإسلام ما يحتاج إلى نقد، حيث يفغر المرء فاه متعجبًا أهذا "وات"، أهذا عقل، أهذا علم، إنه كم عجيب من الركام.

---

1 – تعليق "وات" على ارهاصات النبوة نذكرها في الجزء الثاني شق الصدر والغمامة والراهب بحيرا وغيرها إن شاء الله تعالى.

المبحث الرابع

مراتب الدعوة

جاء هذا الوحى ليكون أساساً للرسالة من الله تعالى، وبالتالى كان مرشداً للنبى ﷺ بمراحل دعوته، وهى المراحل التى ينبغى ذكرها لنعلم الأطوار التى مرت بها الدعوة، وكذلك شمول وعالمية هذه الدعوة، مما يؤكد ارتباطها الوثيق بالسماء، وبالوحى الإلهى للنبى المختار لها ﷺ، وأن الرسول ﷺ لم يكن له فى أمر ترتيبها شئ.

يقول الإمام ابن القيم[1] ملخصاً:

فللدعوة خمس مراتب:

الأولى: النبوة.

الثانية: إنذار عشيرته الأقربين.

الثالثة: إنذار قومه.

الرابعة: إنذار قوم ما أتاهم من نذير من قبله، وهم العرب قاطبة.

الخامسة: إنذار جميع من بلغته دعوته من الجن والإنس إلى آخر الدهر.

1 - زاد المعاد (١/ ٨٦)، طبعه الرسالة.

مراحل الدعوة خلال حياة الرسول ﷺ:

ذكر الدكتور البوطى[1] - وتبعه جمع من كُتَّابِ السيرة اعتماداً على فهمهم لكلام ابن اسحاق[2] - أن مراحل الدعوة فى حياة النبي ﷺ أربع مراحل:

المرحلة الأولى: الدعوة سرا واستمرت ثلاث سنين.

المرحلة الثانية: الدعوة جهرا، والكف عن القتال. واستمرت إلى الهجرة.

المرحلة الثالثة: الدعوة جهرا مع قتال المبتدئين بالقتال واستمرت إلى صلح الحديبية.

المرحلة الرابعة: الدعوة جهرا، مع قتال من يقف فى سبيل سير الدعوة[3].

ولابد من وقفة مع الدعوة قبل النظر فى تلك المراحل، فيما تدعو إليه، ووسائلها، وما ينبغى أن يتسلح به الدعاة إلى الله تعالى ليحققوا دعوتهم وينجحوا فيها، وذلك ما أدته الآيات الأولى النازلة من الله تعالى إلى رسوله ﷺ فى سورة المزمل والمدثر وغيرهما مما نشير إليه لأنه منهج هذه الدراسة.

ونشير فى هذا السياق إلى سورتى المزمل والمدثر، فإن قلنا بقول جمهور المفسرين إن المزمل نزلت قبل المدثر، فيكون فيها الأمر بالتهيؤ وإعداد النفس لتحمل أعباء الرساله حيث بينت وسائل ذلك وطرقه، ونبدأ بما بدأت به السورة حيث يقول المولى سبحانه:

---

1 - البوطى، فقة السيره، (٧٦).

2 - ابن هشام، السيرة النبويه (١/ ١٦٧).

3 - ذهب محمد عزة دروزة الى أن الدعوة بدأت علنية وبقوة خلافا لما روى من أنها بدأت سرية (محمد عزة - سيرة الرسول) (١ / ١٦٢) قد دلل على ذلك بدراسته القرانية للسيرة، ويذهب الباحث الى هذا الرأى وإن كان هناك توفيقا بينهما فليس إلا أمر النبى ﷺ لمن أمن به أن يخفى إيمانه خشية أن تفتنه قريش فى دينه، وكان يدعو ﷺ مستخدما الحيطة والحذر فى خطواتة.

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُزَّمِّلُ ۝١ قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلاً ۝٢ نِّصۡفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصۡ مِنۡهُ قَلِيلاً ۝٣ أَوۡ زِدۡ عَلَيۡهِ وَرَتِّلِ ٱلۡقُرۡءَانَ تَرۡتِيلاً ۝٤ ﴾ .

وننظر فى تحليل هذه الآيات وأول ما يصادفنا نداء النبي بـ ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُزَّمِّلُ ۝١ ﴾ نداء تلطف وترفق ومثله قوله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ ۝١ ﴾ [المدثر:١].

وهذا التزمل الذي أشارت إليه الآية قال الزهري وجمهور المفسرين: إنه التزمل الذي جرى في قول النبي ﷺ «زَمِّلُوني زَمِّلُوني» حين نزل من غار حراء بعد أن نزل عليه. ﴿ ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ﴾ [العلق: ١] الآيات كما في حديث عروة عن عائشة في كتاب بدء الوحي من «صحيح البخاري» وإن لم يذكر في ذلك الحديث نزول هذه السورة حينئذٍ، وعليه فهو حقيقة.

ومحملها على أن التزمُّل حقيقة، وقال عكرمة[1]: معناه زُمِّلْتَ هذا الأمر فقم به، يريد أمر النبوءة فيكون قوله: ﴿ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلاً ۝٢ ﴾ مع قوله: ﴿ إِنَّ لَكَ فِى ٱلنَّهَارِ سَبۡحًا طَوِيلاً ۝٧ ﴾ [المزمل: ٧] تحريضاً على استفراغ جهده في القيام بأمر التبليغ في جميع الأزمان من ليل ونهار إلاّ قليلاً من الليل وهو ما يضطر إليه من الهجوع فيه. ومحمل التزمل عنده على المجاز.

فإذا كانت سورة المزمل قد أنزلت قبل سورة المدثر كان ذلك دالاً على أن الله تعالى بعد أن ابتدأ رسوله بالوحي بصدر سورة ﴿ ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ ﴾ [العلق: ١] ثم أنزل عليه سورة القلم لدحض مقالة المشركين فيه التي دبرها الوليد بن المغيرة[2]، أن يقولوا: إنه ساحر.

---

1 – ابن كثير، تفسير القرآن (٤ / ٤٣٤).

2 – انظر ابن هشام، السيرة النبوية(١٧٢-١٧٣).

أنزل عليه التلطف به على تزمله بثيابه لما اعتراه من الحزن من قول المشركين فأمره الله بأن يدفع ذلك عنه بقيام الليل، ثم فتر الوحي فلما رأى المَلَكَ الذي أرسل إليه بحراء تدثر من شدة وقع تلك الرؤية فأنزل عليه ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ ۝ ﴾.

فنداء النبي بوصف المزمل باعتبار حالته وقت ندائه وَليس المزمل معدوداً من أسماء النبي ﷺ قال السهيلي: ولم يعرف به وذهب بعض الناس إلى عدّه من أسمائه.

﴿ وَٱلَّيۡلِ ﴾: زمن الظلمة من بعد العشاء إلى الفجر.

وأمْر الرسول بقيام الليل أمْر إيجاب وهو خاص به لأن الخطاب موجه إليه وحده مثل السور التي سبقت نزولَ هذه السورة، وأما قيام الليل للمسلمين فهم اقتدوا فيه بالرسول صلى الله عليه وسلم كما سيأتي في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَعۡلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ ﴾ إلى قوله: ﴿ وَطَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَ ﴾ [المزمل: ٢٠] الآيات ولعل حكمة هذا القيام الذي فرض على الرسول ﷺ في صدر رسالته هو أن تزداد به سريرته زكاء يقوي استعداده لتلقي الوحي حتى لا يحرجه الوحي[1] كما ضغطه عند نزوله كما ورد في حديث البخاري:

« فغطني حتى بلغ مني الجَهد »ثم قال: ﴿ ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ﴾ [العلق: ١] الحديث، ويدل لهذه الحكمة قوله تعالى عقبه: ﴿ إِنَّا سَنُلۡقِي عَلَيۡكَ قَوۡلاً ثَقِيلاً ۝ ﴾ [المزمل: ٥].

وقد كان النبي ﷺ يتحنث في غار حراء قبيل بعثته بإلهام من الله تعالى، فالذي ألهمه ذلك قبل أن يوحي إليه يجدر بأن يأمره به بعد أن أوحى إليه فلا يبقى فترة من الزمن غير متعبد لعبادة، وهو قوله:﴿ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي ﴾.

وقد استمر وجوب قيام الليل على رسول ﷺ بعد فرض الصلوات الخمس تعظيماً

---

1 – ابن عاشور، التحرير والتنوير (٢٩ / ٢٥٨).

لشأنه بكثرة الإقبال على مناجاة ربه في وقت فراغه من تبليغ الوحي وتدبير شؤون المسلمين وهو وقت الليل فكان هذا حكماً خاصاً بالنبي ﷺ وقد ذكره الفقهاء في باب خصائص النبيﷺ ولم يكن واجباً على غيره ولم تفرض على المسلمين صلاة قبل الصلوات الخمس[1].

وقال ﴿أَوۡ زِدۡ عَلَيۡهِ﴾ وهو عود إلى الترغيب في أن تكون مدة القيام أكثر من نصف الليل ولذلك لم يقيد ﴿أَوۡ زِدۡ عَلَيۡهِ﴾ بمثل ما قيد به ﴿أَوِ ٱنقُصۡ مِنۡهُ﴾ لتكون الزيادة على النصف متسعة، وقد ورد في الحديث أن النبي صلى الله عليه وسلم أخذ بالعزيمة فقام حتى تورمت قدماه وقيل له في ذلك: «إن الله غفر لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر» فقال: «أفَلا أكونُ عبداً شكوراً[2]».

والقول الثقيل هو القرآن وإلقاؤه عليه: إبلاغه له بطريق الوحي بواسطة الملَك.

والثقل الموصوف به القول ثقل مجازي لا محالة، مستعار لصعوبة حفظه لاشتماله على معان ليست من معتاد ما يجول في مدارك قومه فيكون حفظ ذلك القول عسيراً على الرسول الأمّي تنوء الطاقة عن تلقّيه.

وأشعر قوله: ﴿إِنَّا سَنُلۡقِي عَلَيۡكَ قَوۡلٗا ثَقِيلًا ۝﴾ أن ثقله متعلق ابتداء بالرسول صلى الله عليه وسلم لقوله قبله: ﴿إِنَّا سَنُلۡقِي عَلَيۡكَ﴾ وهو ثقل مجازي في جميع اعتباراته وهو ثقيل صعب تلقيه ممن أنزل عليه. قال ابن عباس: «كان رسول الله ﷺ إذا نزل عليه الوحي ثقل عليه وتربَّد له جِلده » (أي تغير بمثل القشعريرة) وقالت عائشة: «رَأَيْتُهُ ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد فيفصم عنه وإن جبينه ليرفَضُّ عرقاً[3]».

---

1 - ابن عاشور، التحرير والتنوير(٢٩/ ٢٥٨).

2 - البخاري، باب قيام النبي ﷺ(٤/ ٢٩٢).

3 - البخاري، باب بدء الوحي(١/ ٤).

ويستعار ثقل القول لاشتماله على معان وافرة يحتاج العلم بها لدقة النظر وذلك بكمال هديه ووفرة معانيه . وحسبك أنه حوى من المعارف والعلوم ما لا يفي العقل بالإِحاطة به فكم غاصت فيه أفهام العلماء من فقهاء ومتكلمين وبلغاء ولغويين وحكماء فشابه الشيء الثقيل في أنه لا يقوى الواحد على الاستقلال بمعانيه.

﴿ إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيۡلِ هِيَ أَشَدُّ وَطۡـًٔا وَأَقۡوَمُ قِيلاً ﴿٦﴾ ﴾ ..

والمعنى: أن في قيام الليل تزكية وتصفية لسرّك وارتقاء بك إلى المراقي الملكية.

والوِطاء: الوفاق والملاءمة، قال تعالى: ﴿ لِّيُوَاطِـُٔواْ عِدَّةَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ ﴾ [التوبة: ٣٧]. والمعنى: أن صلاة الليل أوفق بالمصلي بين اللسان والقلب، أي بين النطق بالألفاظ وتفهم معانيها للهدوء الذي يحصل في الليل وانقطاع الشواغل وبحاصل هذا فسر مجاهد[1].

والأقوم: الأفضل في التقوي الذي هو عدم الاعوجاج والالتواء واستعير ﴿ وَأَقۡوَمُ ﴾ للأفضل الأنفع.

فالمعنى: أن صلاة الليل أعون على تذكر القرآن والسلامة من نسيان بعض الآيات، وأعون على المزيد من التدبر[2].

﴿ إِنَّ لَكَ فِي ٱلنَّهَارِ سَبۡحًا طَوِيلاً ﴿٧﴾ ﴾ ..

يفيد تأكيداً للمحافظة على قيام الليل لأن النهار لا يغني غَناءه فيتحصل من المعنى: قم الليل لأن قيامه أشد وقعاً وأرسخ قولاً، لأن النهار زمن فيه شغل عظيم لا يترك لك خلوة بنفسك. وشغل النبي ﷺ في النهار بالدعوة إلى الله وإبلاغ القرآن وتعليم الدين

1 – ابن عاشور، التحرير والتنوير(٢٩/ ٢٦٣).

2 – ابن عاشور، التحرير والتنوير(٢٩/ ٢٦٣).

ومحاجة المشركين وافتقادَ المؤمنين المستضعفين، فعبر عن جميع ذلك بالسبح الطويل، وفيه إرشاد إلى أن النهار ظرف واسع لإِيقاع ما عسى أن يكلفه قيامُ الليل من فتور بالنهار لينام بعض النهار وليقوم بمهامه فيه[1].

وقد ثبت أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يصلي في النهار من أول البعثة قبل فرض الصلوات الخمس كما دل عليه قوله تعالى: ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ۝ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ۝﴾ [العلق: ٩، ١٠]. وقد تقدم في سورة الجن أن استماعهم القرآن كان في صلاة النبي صلى الله عليه وسلم بأصحابه في نخلة في طريقهم إلى عكاظ. ويظهر أن يكون كل هذا مقصوداً لأنه مما تسمح به دلالة كلمة ﴿سَبْحًا طَوِيلاً ۝﴾ وهي من بليغ الإِيجاز[2].

انقطاع مجازي، أي تفرغ البال والفكر إلى ما يرضي الله، فكأنه انقطع عن الناس وانحاز إلى جانب الله فعدي بـ﴿إِلَىٰ﴾ الدالة على الانتهاء، قال امرؤ القيس:

والتبتيل: مصدر بتَّل المشدد الذي هو فعل متعد مثل التّقطيع.

المراد بالانقطاع المأمور به انقطاع خاص وهو الانقطاع عن الأعمال التي تمنعه من قيام الليل ومهام النهار في نشر الدعوة ومحاجّة المشركين ولذلك قيل ﴿وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ﴾ أي إلى الله فكل عمل يقوم به النبي ﷺ من أعمال الحياة فهو لدين الله فإن طعامه وشرابه ونومه وشؤونه للاستعانة على نشر دين الله. وكذلك منعشات الروح البريئة من الإِثم مثل الطِّيب، وتزوج النساء، والأنس إلى أهله وأبنائه وذويه، وقد قال: «حُبّب إليّ من دنياكم النساء والطيب[3]». وهو حال مأمور به المؤمنون القائمون بأمر الدعوة التي ينبغي الاتصاف بها.

---

1 -ابن عاشور، التحرير والتنوير(٢٩/ ٢٦٣- ٢٦٤).

2 - ابن عاشور، التحرير والتنوير(٢٩/ ٢٦٤).

3 - ابن عاشور، التحرير والتنوير(٢٩/ ٢٦٥-٢٦٦).

وليس هو التبتل المفضي إلى الرهبانية وهو الإعراض عن النساء وعن تدبير أمور الحياة لأن ذلك لا يلاقي صفة الرسالة.

ومن أكبر التبتل إلى الله الانقطاع عن الإشراك، وهو معنى الحنيفيّة، وهو التعلق بالله وحده فى كل أموره – ومن معانى التبتل ذلك الاعتكاف على الله تعالى، والخلوة به تزودا بزاد جديد يصفى النفس ويقويها على القيام بمهمات الدعوة.

ولذلك عقب قوله: ﴿ وَتَبَتَّلۡ إِلَيۡهِ تَبۡتِيلاً ﴿٨﴾ ﴾ بقوله: ﴿ رَّبُّ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ﴾.

وخلاصة المعنى: أن النبي ﷺ مأمور أن لا تخلو أوقاته عن إقبال على عبادة الله ومراقبته والانقطاع للدعوة لدين الحق، وإذ قد كان النبي ﷺ من قبلُ غير غافل عن هذا الانقطاع بإرشاد من الله كما ألهمه التحنّث في غار حراء ثم بما أفاضه عليه من الوحي والرسالة. فالأمر في قوله: ﴿وَٱذۡكُرِ ٱسۡمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلۡ إِلَيۡهِ﴾ مراد به الدوام على ذلك فإنه قد كان يذكر الله فيها قبل فإن في سورة القلم (٥١) (وقد نزلت قبل المزمل) ﴿ وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَيُزۡلِقُونَكَ بِأَبۡصَـٰرِهِمۡ لَمَّا سَمِعُواْ ٱلذِّكۡرَ﴾ على أن القرآن الذي أنزل أولاً أكثره إرشاد للنبي صلى الله عليه وسلم إلى طرائق دعوة الرسالة فلذلك كان غالب ما في هذه السورِ الأوللِ منه مقتصراً على سَن التكاليف الخاصة بالرسول صلى الله عليه وسلم، ويتبعه فى ذلك الداعون بدعوته المتمسكون بسنته ﷺ.

وعُقِّب وصفُ الله تعالى بـ﴿ رَّبُّ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ﴾ بالإخبار عنه أو بوصفه بأنه لا إله إلاّ هو لأن تفرده بالإلهية بمنزلة النتيجة لربوبية المشرق والمغرب فلما كانت ربُوبيته للعالم لا ينازع فيها المشركون أعقبت بما يقتضي إبطال دعوى المشركين تعدد الآلهة بقوله:﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ تعريضاً بهم في أثناء الكلام وإن كان الكلام مسوقاً إلى النبي صلى الله عليه وسلم

ولذلك فرع عليه قوله: ﴿ فَٱتَّخِذۡهُ وَكِيلٗا ۝٩ ﴾ وإذ كان الأمر باتخاذ وكيلاً مسبباً عن كونه لا إله إلاّ هو كان ذلك في قوة النهي عن اتخاذ وكيل غيره، إذ ليس غيره بأهل لاتخاذه وكيلاً.

والوكيل: الذي يُوكَل إليه الأمور، أي يُفوض إلى تصرفه، ومن أهم التفويض أمر الانتصار لمن توكل عليه، فإن النبي ﷺ لما بلغه قول المشركين فيه اغتم لذلك، وقد روي أن ذلك سبب تزمله من مَوْجدة الحزن فأمره الله بأن لا يعتمد إلاّ عليه، وهذا تكفل بالنصر ولذلك عقب بقوله تعالى: ﴿ وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ ﴾ [المزمل: ١٠].

﴿ وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهۡجُرۡهُمۡ هَجۡرٗا جَمِيلٗا ۝١٠ ﴾ ..

وهو كذلك من عظيم زاد الدعوة، التوكل فى النصر على الله سبحانه، وهو الشأن للدعاة فى كل زمان ومكان.

عطف على قوله: ﴿ فَٱتَّخِذۡهُ وَكِيلٗا ۝٩ ﴾ [المزمل: ٩]، والمناسبة أن الصبر على الأذى يستعان عليه بالتوكل على الله.

ومن هذا المعنى قوله: ﴿ فَصَبۡرٞ جَمِيلٞ ﴾ [يوسف: ١٨]، وقوله: ﴿ فَٱصۡبِرۡ صَبۡرٗا جَمِيلًا ۝٥ ﴾ [سورة المعارج: ٥].

فالهجر الجميل هو الذي يَقتصر صاحبه على حقيقة الهجر، وهو ترك المخالطة فلا يقرنها بجفاء آخر أو أذى، ولما كان الهجر ينشأ عن بغض المهجور، أو كراهية أعماله كان معرَّضاً لأن يعتلق به أذى من سبّ أو ضرب أو نحو ذلك. فأمر الله رسوله بهجر المشركين هجراً جميلاً، أي أن يهجرهم ولا يزيدَ على هجرهم سَبّاً أو انتقاماً.

وهذا الهجر: هو إمساك النبي عن مكافاتهم بمثل ما يقولونه مما أشار إليه قوله تعالى: واصبر على ما يقولون.

وليس منسحباً على الدعوة للدين فإنها مستمرة ولكنها تبليغ عن الله تعالى فلا ينسب إلى النبي[1].

وقد انتزع فخر الدين من هذه الآية منزعاً خُلُقياً بأن الله جمع ما يحتاج إليه الإنسان في مخالطَة الناس في هاتين الكلمتين لأن المرء إما أن يكون مخالطاً فلا بد له من الصبر على أذاهم وإيحاشهم لأنه إن أطمع نفسه بالراحة معهم لم يجدها مستمرة فيقع في الغموم إن لم يَرضْ نفسه بالصبر على أذاهم، وإن ترك المخالطة فذلك هو الهجر الجميل[2].

وفى الآيات الرد القوى على " وات " فى أنه وحى من الله إذ من يقول لنفسه ويخزن ويستدعى ذلك من الأمر بقيام الليل وترتيل القرآن أين الوعى أو اللاوعى أو اللبيدو فى ذلك من أين سمع ذلك من قبل ﷺ، وكيف يخبر به نفسه وكيف يقول لها ذلك؟! وكذلك الهجر الجميل والأمر بالتوكل وأن التوكل مع الصبر من أسباب النصر.

وإذ كنا قد بينا فى سورة المزمل زاد الدعوة والصفات التى على الرسول ﷺ ودعاته من بعده أن يتصفوا بها والتعبد القلبى والبدنى اللازم لتحمل تبعات الدعوة ومسؤلياتها، فإن سورة المدثر تبين هدف الدعوة وحقيقتها فهو التوحيد لله وطريقة رفع ذلك، وتجنب عبادة غيره ونبذها والتبرؤ منها...مع التركيز على صفات جديدة يلزم التحلى بها أو التخلى عنها وهاهى ذى الآيات الكريمات:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ ۝١ قُمۡ فَأَنذِرۡ ۝٢ ﴾ ..

نوديّ النبي ﷺ بوصفه في حالة خاصة تلبس بها حين نزول السورة. وهي أنه لما رأى الملك بين السماء والأرض فرق من رؤيته فرجع إلى خديجة فقال: دثروني دثروني، أو قال:

---

1 - ابن عاشور، التحرير والتنوير(٢٩/ ٢٩٤)

2 - الفخر الرازى مفاتيح الغيب (١٥/ ٨٠٨-٨٠٩).

زملوني، أو قال: زملوني فدثروني، على اختلاف الروايات، والجمع بينها ظاهر فدثرته فنزلت: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝ ﴾.

وقد مضى عند قوله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ۝ ﴾ [المزمل: ١] ما في هذا النداء من التكرمة والتلطف.

والقيام المأمور به ليس مستعملاً في حقيقته فى الغالب وإنما هو مستعمل في الأمر بالمبادرة والإقبال والتهمُّم بالإنذار مجازاً أو كناية.

وأفادت فاء ﴿فَأَنذِرْ﴾ تعقيب إفادة التحفز والشروع بالأمر بإيقاع الإنذار[1].

ففعل ﴿قُمْ﴾ منزَّل منزلة اللازم، وتفريع ﴿فَأَنذِرْ﴾ عليه يبين المراد من الأمر بالقيام.

والمعنى: يا أيها المدثر من الرعب لرؤية مَلَك الوحي لا تخف وأقبل على الإنذار.

والظاهر: أن هذه الآية أول ما نزل في الأمر بالدعوة لأن سورة العلق لم تتضمن أمراً بالدعوة، وصدر سورة المزمل تضمن أنه مسبوق بالدعوة لقوله فيه ﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْكُمْ رَسُولاً شَـٰهِدًا عَلَيْكُمْ ﴾ [المزمل: ١٥]، وقوله: ﴿ وَذَرْنِى وَٱلْمُكَذِّبِينَ ﴾ [المزمل: ١١]. وإنما كان تكذيبهم بعد أن أبلغهم أنه رسول من الله إليهم وابتدىء بالأمر بالإنذار لأن الإنذار يجمع معاني التحذير من فعل شيء لا يليق وعواقبه فالإنذار حقيق بالتقديم قبل الأمر بمحامد الفعال لأن التخلية مقدمة على التحلية ودرء المفاسد مقدم على جلب المصالح، ولأن غالب أحوال الناس يومئذٍ محتاجة إلى الإنذار والتحذير.

﴿ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝ ﴾ ..

---

1 – المصدر السابق.

فالتقدير: مهما يكن شيء فكبّرْ ربّك.

والمعنى: أن لا يفتر عن الإِعلان بتعظيم الله وتوحيده في كُل زمان وكل حال وهذا من الإِيجاز.

فمعنى ﴿ وَرَبَّكَ فَكَبِّرۡ ﴾ صِف ربّك بصفات التعظيم ربك أنت الاله الواحد،الحق، وهذا يشمل تنزيهه عن النقائص فيشمل توحيده بالإلهية وتنزيهه عن الولد، ويشمل وصفه بصفات الكمال كلها. وتعريض بأن الآلهة لاتستحق الالوهية بل هى مخلوقات زائلة.

ومعنى ﴿ فَكَبِّرۡ ﴾ : كبره في اعتقادك: وكبره بقولك تسبيحاً وتعليماً. ويشمل هذا المعنى أن يقول: «الله أكبر» لأنه إذا قال هذه الكلمة أفاد وصف الله بأنه أكبر من كل كبير، أي أجلّ وأنزه من كل جليل، وهذا تنبيه على أن الدعوة إلى الله ومعرفة تنزيهه مقدمة على سائر أنواع الدعوات، ولذلك جعلت هذه الكلمة افتتاحاً للصلاة.

وأحسب أن في ذكر التكبير إيماء إلى شرع الصلاة التي أولها التكبير وخاصة اقترانه بقوله: ﴿ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرۡ ﴾ [المدثر: ٤] فإنه إيماء إلى شرع الطهارة، فلعل ذلك إعداد لشرع الصلاة[1].

﴿ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرۡ ﴾ ..

هو في النظم مثل نظم ﴿ وَرَبَّكَ فَكَبِّرۡ ﴾ [المدثر: ٣] .. أي لا تترك تطهير ثيابك.

وللثياب إطلاق صريح وهو ما يلبسه اللابس، وإطلاق كنائي فيكنى بالثياب عن ذات صاحبها، كقول عنترة:

---

1 - ابن عاشور، التحريروالتنوير، مصادر أخرى أبو السعود، ارشاد العقل اسليم(٥ / ٧٨٧)، الفخر الرازى، التفسير الكبير (١٥/ ٨٢٥).

فشككت بالرمح الأصم ثيابه   ليس الكريم على القنا بمحرم[1]

وللتطهير إطلاق حقيقي وهو التنظيف وإزالة النجاسات وإطلاق مجازي وهو التزكية قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ [الأحزاب: ٣٣].

والمعنيان صالحان في الآية فتحمل عليهما معاً فتحصل أربعةُ معان لأنه مأمور بالطهارة الحقيقية لثيابه إبطالاً لما كان عليه أهل الجاهلية من عدم الاكتراث بذلك. وقد وردت أحاديث في ذلك يقوّي بعضها بعضاً وأقواها مَا رواه الترمذي «إِن الله نظيف يحب النظافة». وقال: هو غريب[2].

والطهارة لجسده بالأولى.

﴿وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ﴾ ..

﴿وَٱلرُّجْزَ﴾: يقال بكسر الراء وضمها وهما لغتان فيه والمعنى واحد عند جمهور أهل اللغة. وقال أبو العالية والربيع والكسائي: الرّجز بالكسر العذاب والنجاسة والمعصية، وبالضم الوثن[3]. ويحمل الرجز هنا على ما يشمل الأوثان وغيرها من أكل الميتة والدم.

وتقديم ﴿وَٱلرُّجْزَ﴾ على فعل ﴿فَٱهْجُرْ﴾ للاهتمام في مهيع الأمر بتركه.

والهجر: ترك المخالطة وعدم الاقتراب من الشيء. والهجر هنا كناية عن ترك التلبس بالأحوال الخاصة بأنواع الرجز لكل نوع بما يناسبه في عرف الناس.

---

1 – عنترة بن شداد بن عمرو بن معاوية بن قراد العبسى، من أشهر فرسان العرب فى الجاهلية، وأحسنهم شيمةً وأعزهم نفساً. والبيت من معلقته.

2 – ابن عاشور التحرير والتنوير، أبا السعود، ارشاد العقل السليم(٥/ ٧٨٧).

3 – أبو حبان البحر المتوسط، ابن عاشور، التحرير والتنوير(٢٩/ ٢٩٨).

والأمر بهجر الرجز يستلزم أن لا يعبد الأصنام وأن ينفي عنها الإلهية.

ومناسبة عطف ﴿وَلَا تَمۡنُن تَسۡتَكۡثِرُ ۝٦﴾ على الأمر بهجر الرجز أن المنّ في العطية كثير من خُلق أهل الشرك فلما أمره الله بهجر الرجز نهاه عن أخلاق أهل الرجز نهياً يقتضي الأمر بالصدقة والإِكثار منها بطريق الكناية فكأنه قال: وتصدق وأكثر من الصدقة ولا تمنن، أي لا تعدّ ما أعطيته كثيراً فتمسك عن الازدياد فيه، أو تتطرق إليك ندامة على ما أعطيت.

والسين والتاء في قوله: ﴿تَسۡتَكۡثِرُ﴾ للعدّ، أي بعد ما أعطيته كثيراً.

وهذا من بديع التأكيد لحصول المأمور به جعلت الصدقة كالحاصلة، أي لأنها من خلقه ﷺ إذ كان أجود الناس وقد عرف بذلك من قبل رسالته لأن الله هيأه لمكارم الأخلاق فقد قالت له خديجة في حديث بدء الوحي «إنك تحمل الكل وتكسب المعدوم». ففي هذه الآية إيماء إلى التصدق، كما كان فيها إيماء إلى الصلاة، ومن عادة القرآن الجمع بين الصلاة والزكاة.

والمنّ: تذكير المنعِم المنعَمَ عليه بإنعامه.

والاستكثار: عدّ الشيء كثيراً، أي لا تستعظم ما تعطيه.

وهذا النهي يفيد تعميم كل استكثار كيفما كان ما يعطيه من الكثرة[1].

﴿وَلِرَبِّكَ فَٱصۡبِرۡ ۝٧﴾ .. تثبيت للنبي ﷺ على تحمل ما يلقاه من أذى المشركين وعلى مشاقّ الدعوة.

والصبر: ثبات النفس وتحملها المشاق والآلام ونحوها. ومصدر الصبر وما يشتق منه يتضمن معنى التحمّل للشيء الشاقّ.

1 - انظر ابن عاشور، وانظر أبا السعود، ارشاد العقل السليم، وغيرها

ويعدّى فعل الصبر إلى اسم الذي يتحمله الصابر بحرف ﴿ عَلَى ﴾، يقال: صبر على الأذى. ويتضمن معنى الخضوع للشيء الشاق فيعدى إلى اسم ما يتحمله الصابر باللام. ومناسبة المقام ترجح إحدى التعديتين، فلا يقال: اصبر على الله، ويقال: اصبر على حكم الله، أو لحكم الله. فيجوز أن تكون اللام في قوله ﴿ وَلِرَبِّكَ ﴾ لتعدية فعل الصبر على تقدير مضاف، أي اصبر لأمره وتكاليف وحيه كما قال: ﴿ وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ﴾ [سورة الطور: ٤٨] وقوله: ﴿ فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا ﴿٢٤﴾ ﴾ [سورة الإنسان: ٢٤] فيناسب نداءه بـ ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ﴿١﴾ ﴾ [المدثر: ١] لأنه تدثر من شدة وقع رؤية المَلك، وتركُ ذكر المضاف لتذهب النفس إلى كل ما هو من شأن المضاف إليه مما يتعلق بالمخاطب.

وتقديم ﴿ وَلِرَبِّكَ ﴾ على ﴿ فَٱصْبِرْ ﴾ للاهتمام بالأمور التي يصبر لأجلها مع الرعاية على الفاصلة، وجَعل بعضهم اللام في ﴿ وَلِرَبِّكَ ﴾ لام التعليل، أي اصبر على أذاهم لأجله، فيكون في معنى: إنه يصبر توكلاً على أن الله يتولى جزاءهم، وهذا مبني على أن سبب نزول السورة ما لحق النبي صلى الله عليه وسلم من أذى المشركين.

وفي التعبير عن الله بوصف ﴿ وَلِرَبِّكَ ﴾ إيماء إلى أن هذا الصبر برّ بالمولى وطاعة له.

فهذه ست وصايا أوصى الله بها رسوله صلى الله عليه وسلم في مبدإ رسالته وهي من جوامع القرآن أراد الله بها تزكية رسوله وجعلها قدوة لأمته.تبين بواعث الدعوة وأهدافها وطرائق القبول لها، والزاد الذى يُقَوى على تحملها، وأسباب النصر فيها وكل ذلك مما يراد من المؤمنين – المتقين – اليوم ليعودوا لرفع راية الاسلام ونشر دعوته، وقد رأينا فى ذلك الحكمة،والتعامل الحسن والصبر، والعبادة.

وتحمل فى طياتها كثير الرد على "وات" وأمثاله فى بواعث الدعوة التى أخترعها ونسج حولها مالم يأت به كتاب، أو يتفوه به كاتب.

وفى توضيح تلك المعانى ما يغنى عن إيراد الردود.

مما سبق من شرح الآيات الأولى المنزلة على الرسول ﷺ تم تأكيدها بآيات كثيرة نزلت لتدل دلالة واضحة على مضمون الدعوة وأسبابها، وبواعثها، وما ينبغى على حامل هذه الدعوة أن يكون عليه من أخلاق وصفات، ثم على جراء هذه الدعوة وأن ليس للداعى أو عليه إلا بذل جهده فيها فقط ليتحقق له أسباب نجاتة فى الدنيا والآخرة.

المبحث الخامس

بواعث الدعوة

ونأتى بعد ذلك لمناقشة سريعة مع "وات" وان كان يفضل أن نطول بسبب آرائه فى الدعوة وبواعثها، ولكن الاختصار دعانا لأن نرد على ما يهم فقط.

أول ذلك: بواعث الدعوة. ونلخص آراء "وات" فى بواعث الدعوة الاسلامية فيما يلى:

١ - أن الدين الجديد جاء ردا على مرض العصر حيث تطور العرب من حياة البداوة إلى اقتصاد حضارى،وقد ذكر ذلك فى كتابة "محمد فى المدينة" ومعنى ذلك أن باعث الدعوة اقتصادى مادى بحت[١].

٢- ذكر فى كتابة " محمد فى مكة" ما يناقض ذلك فيقول ما ملخصه: إنه ولو كان محمد على علم واسع بالأمراض الاقتصادية... فإنه كان يعد الناحية الدينية أساسية ولهذا حصر اهتمامه بهذه الناحية "[٢].

٣- ذكر أن الجانب الدينى صحيح فى حركة محمد التى تزعمها ولكنه وثيق الصلة بالجوانب الاخرى[٣] أى السياسية والاجتماعية والاقتصادية.

---

1 - "وات"، محمد فى المدينة (٢٦١) الطبعة الانجليزية

2 - "وات"، محمد فى مكة (٩٩)الطبعة الانجليزية

3 - Ibid p.٣٧

وقبل مناقشة "وات" فيما سبق نذكر بأنه بنى كتبه وكلا مه على أن الدعوة الإسلامية لا علاقة لها بالوحى، ولا تعلق لها بالسماء، وهذا ما يدلك عليه نكل ما أوتى حتى يستطيع بنو دينه وجلدته أن يكونوا الرأى اللاهوتى فى سيدنا محمد ﷺ ودينه، إذ هو دافعه الذى نص عليه فى بداية كتابه كما نوهنا أكثر من مرة ليبنى عندهم الخلفية الصلبة فى رد الاسلام، وذلك الذى حدث واقعا، وبناء على ذلك رأينا اضطرابه فى بواعث الدعوة، إذ لو كانت الإلهيه عنده كما هى فى الحقيقة لم نحتج منه أو من غيره إلى ذكر بواعثها، لأنها تكون التنزيل الإلهى الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه فى كل ما يتعلق بها.

ولتوضيح الرد على كلام " وات " نقول:

أولا: إذا كان الباعث ماديا جاء ردا على مرض العصر من انتقال العرب من حياة البداوة إلى الاقتصاد الحضرى، فما أبعد هذا الكلام وأجدره بالإهمال لعدة أمور:

<u>الأمر الأول</u>: لأن العرب لم ينتقلوا إلى الحياة الحضرية متطورين كما يزعم "وات" من الحياة البداوية حين جاءهم رسول الله ﷺ بالرسالة، بل ما زالوا إلى أن انتقل الى الرفيق الأعلى والبداوة هى الغالبة عليهم.

<u>الأمر الثاني</u>: ماهى آثار أو مظاهر أو مكونات وأفكار هذا الباعث المادى الذى دعاهم إليه، وما الذى ظهر عليهم وغلب على تصرفاتهم من اتباعهم لهذا الباعث، لنقول تلك اراء ومبادئ هذا الباعث قد ظهرت عليهم، بل على واحد منهم. هذا الكلام لا أصل له ولا حقيقة، ولا له ذرة قد تحققت فى ذوات الأشخاص أو على الأرض آنئذ.

<u>الأمر الثالث</u>: ما هى أعراض مرض العصر الذى يلصقه "وات" فى القرن العشرين بالقرن السابع ويسقطه عليه إسقاطا، إنه لم يعرف أهل ذلك القرن، ومن بعدهم هذا اللفظ أصلا فضلا عما يعنيه، فكيف نصمهم به ونفرضه عليهم، ثم نحاكمهم باتهامهم به. حيث

لم يذكره مؤرخ واحد منهم إلى يومنا هذا فيما وقع تحت أيدينا من مراجع ومصادر.

ثانيا: إذا كان الباعث ماديا فأين ذلك فى القرآن الكريم الذى دعا إليه رسول الله ﷺ.

وأين ذلك في سيرته المشرفة وسنته المطهرة، ثم قد اتفق المفسرون والمحدثون والعلماء كافة على خلاف ذلك الأمر المادي، حيث جاءت الآيات الكريمات به، والأحاديث الشريفة بتحديد النظرة الصحيحة عند النبي ﷺ للدنيا كلها لا للبواعث المادية فقط، بكونها معبراً للآخرة وأنها زائلة وأن العمل والسعي يكون لما عند الله إلى آخر ذلك، وقد حقق ذلك ﷺبالتطبيقات الحية من كونه نبياً عبداً، لا نبياً ملكًا.

ثالثًا: هاجر النبي ﷺ، وهاجر الصحابة المكرمون يبتغون فضلاً من الله ورضوانًا وينصرون الله ورسوله، ويؤثرهم أهل المدينة على أنفسهم مع ما بهم من خصاصة هل كل ذلك من الباعث المادي، وقد تركوا أرضهم وديارهم وأموالهم وأزواجهم وأولادهم لله ورسوله؟ إنه من أعجب المصائب التي حلت بالبحث العلمي.

والردود كثيرة على "وات" ومقصدنا الأصلي السيرة.

ثم إن كان العامل الديني وهو كما قرره "وات" خليط من النصرانية واليهودية لا علاقة بالله لتصنع المشروع العربي هو الباعث فما باله يتطور في فكر "وات" ليصبح عاملاً ماديًا إذ كيف يلتقيان، ولِمَ يذكر العامل المادي الاقتصادي؟

أما التناقض الثالث وهو إنه ديني جاء لمعالجة الجوانب الاقتصادية..

فنعم على المفهوم الصحيح أن دين الله جاء لتحقيق هداية الناس وأسباب نجاتهم في الدنيا والآخرة وبالتالي لا ينفك أن يكون مصلحًا باتباعهم لتعاليم السماء لكل جوانب حيواتهم، واستقامتها على النهج الأرشد في كل ما يخص البشر.

أما باعث الدعوة وما يتعلق بها من جوانبها كافة مجملاً في بعضه مفصلاً في الباقي فهو كما أكدته الآيات الأولى، حيث لم يتركه الله جل وعلا لتقدير أو تحرير أحد وتنظيره، فمنها قوله تعالى: ﴿قُمْ فَأَنذِرْ ۝ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ﴾ [المدثر: ٢-٣] الدعوة إلى توحيد الرب سبحانه، وإنذار كل من ذكرنا بذلك، وبقية مضامين الدعوة المحصلة لهذا التوحيد الذي ينبني عليه سعادة الدنيا والآخرة بداية بقوم النبي ﷺ في قوله تعالى: ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ فَهُمْ غَـٰفِلُونَ﴾ [يس: ٦] وقوله تعالى: ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾ [السجدة: ٣] وقوله تعالى: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ﴾ [الروم: ٤١].

وذكر عبد الله النعيم في هذا المقام كلام الإمام ابن كثير حيث يقول: "بعث الله محمدًا ﷺ على حين فترة من الرسل وطموس من السبل، وقد اشتدت الحاجة إليه، فقد كان العرب ممسكين بدين إبراهيم الخليل، فبدلوه وغيره واستبدلوا بالتوحيد شركًا وباليقين شكًا، وابتدعوا أشياء لم يأذن بها الله، وكذلك كان أهل الكتاب، قد بدلوا كتبهم وحرفوها، فبعث الله محمدًا بشرع عظيم شامل كامل فيه الهداية والبيان لكل ما يحتاج إليه الناس من أمر معاشهم ومعادهم، وجمع له تعالى جميع المحاسن، وأعطاه ما لم يعط أحدًا من الأولين والآخرين"[1] فجاءت الدعوة لتكون للناس كافة حتى قيام الساعة، وبحيث يكون محمد عليه السلام خاتمًا للنبيين: ﴿وَلَـٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ [الأحزاب: ٤٠][2].

1 – مختصر ابن كثير(٤٧٨/ ٣).

2 – انظر عبد الله النعيم، "الاستشراق في السيرة النبوية" (٧٦).

المبحث السادس

عالميــة الدعـــوة

وقبل أن ننتقل عما سلف من نقد لـ"وات" في الدعوة، فلا بد من الإشارة إلى موضوع مهم، وهو من مواضيع "وات" والمستشرقين[1] وهو تجريد دعوة الإسلام من عالميتها، مع أنه أمر كفلق الصبح واضح لكل أعمى أن الإسلام منتشر في المشارق والمغارب من الدنيا، وأن من نشروا الإسلام في أقاصي الأرض من أوربا وآسيا وغيرهما كان كثير منهم غير عرب وهذا الواقع لا يحتاج لأدنى بيان، حتى يشكك في أصله، وأن هؤلاء جميعًا دخلوا في دين لم يأمرهم بذلك، ولم يدعهم إليه.

ونبدأ هنا بذكر الدوافع والبواعث التي جعلت "وات" وغيره يستبعد فكرة عالمية الرسالة الإسلامية.

ويمكن للباحث – وهو في غاية الإنصاف – أن يقول إن الاستشراق بحكم انتمائه للكنيسة وعمله تحت رايتها، أو المؤسسات السياسية المرتهنة للكنيسة في الغالب ليس في استطاعته أن يتقبل فكرة العالمية الإسلامية أو حتى مجرد إثباتها بحثيًا فضلاً عن الترويج لها في كتاباته، إذ معنى ذلك أن تحارب الكنيسة نفسها، وتفقد أحد مبررات وجودها، أو المبرر الأقوى (الأوحد) إن صحت الدعوة الإسلامية عند أحد منهم، وفي ذلك نهاية الوجود

---

1 – كبروكلمان، وفلهاوزن، الأول في تاريخ الشعوب الإسلامية، والثاني في تاريخ الدولة العربية، ترجمة عبد الهادي أبي ريدة (٤–٥)، وانظر عبد الله النعيم، "الاستشراق في السيرة النبوية" (٧٧–٨٢).

المسيحي، فلا يستطيع المستشرق ذو العقلية والثقافة المسيحية أن يتحدث إذن عن عالمية الإسلام، خاصة وأن هذه الدراسات الاستشراقية هي التي تشكل العقلية الغربية، وتحدد موقفها من الإسلام، يكفي إبراز بعض حقائق الإسلام بعد تشويهها حتى تظل الكنيسة محتفظة برعاياها.[1]

ونعود فنناقش عالمية الدعوة مع "وات" وأشباهه لأن الحديث عن إقليمية الدعوة تعني إسقاط الطابع الوضعي العلماني عليها، ولذا رأيناه يقرر أن القول بأن الرسول ﷺ دعا الإمبراطور البيزنطي والفارسي وغيرهما للدخول في الإسلام قول خاطئ،لأنه من غير المعقول أن يوجه سياسي حكيم كمحمد مثل هذا النداء، وأن تقارير السفراء الذين أرسلهم مملوءة بالتناقضات.[2]

ويواصل "وات" كلامه معترضًا على كتب الرسول ﷺ للملوك يدعوهم إلى الإسلام، زاعمًا بواعث أخرى لهذه الرسائل إذا قبل بوجودها فيقول: "وهذا شيء غير معقول إذا كانت الرسائل دعوة للدخول في الإسلام، والاعتراف بمحمد كزعيم ديني، لأنه لا يمكن تصور نجاشي الحبشة وإمبراطور الروم يستجيبان لمثل هذه الدعوة لكن إذا قبلنا بأن الأشخاص المذكورين حملوا فعلاً رسائل من محمد إلى أصحابها، وأنهم استقبلوا استقبالاً حسنًا فليس من المستحيل أن يكون محتوى الرسائل قد تبدل نوعًا ما خلال النقل... تسمح لنا هذه الفرضية أن ندعي أنه إذا كان محمد قد ألمح إلى معتقداته الدينية، فإن المشكلة الحقيقية كانت سياسية، ربما اقترح عقد محالفة حياد ربما أراد مجرد منع المكيين من الحصول على المساعدة الخارجية، لأنه يستبعد من محمد دعوة هؤلاء الحكام الأقوياء للدخول في الإسلام."[3]

1- بتصرف من عبد الله النعيم، "الاستشراق في السيرة النبوية" (٨٢)، مع نقله عن العقيقي، "المستشرقون" (١١٣-١٢٠/ ١).

2- "وات"، "محمد في المدينة" ().

(3) Ibidpp4-42 عبد الله النعيم، "الاستشراق في السيرة النبوية"(٧٨).

نحن مضطرون لاستكمال عرض بقية كلامه الذي يبين بوضوح موقفه لأنه وجه كل ما يمت لعالمية الدعوة من قريب أو بعيد بصلة، نافيًا ومؤولاً، ومخترعًا لفرضيات يفسر بها هذا الأمر، فيدعي فيما سنذكر أن دعوة الرسول ﷺ كانت خاصة بقريش، ثم يلمز ما جاء في القرآن مفيدًا غير ذلك فيقول: "اعتبر محمد نفسه أول الأمر مرسلاً إلى قومه القرشيين، ثم أخذ شيئًا فشيئًا وبدرجات لا تبدو بوضوح في القرآن يتراءى له هدف أوسع لرسالته، دعا قبل الهجرة بعض أفراد القبائل البدوية إلى الإيمان بالله عدا مفاوضة سكان المدينة، ثم احتلت فكرة الأمة القائمة على أساس ديني مكان الصدارة بحلول الهجرة."[1] ويذكر توسع النبي ﷺ في الدعوة، ولكن يلبسها ثوبًا آخر فيقول: "نحن نعتقد بأن محمدًا بعد عودته من الطائف أخذ يدعو أفراد القبائل البدوية للدخول في الإسلام، وإن وراء هذا النشاط فكرة غامضة في توحيد العرب جميعًا."[2]

كلام "وات" السابق، وكلام غيره من المستشرقين في ذات المسألة مليء بالتناقض الصارخ والحشد الهائل من تعمد الخطأ، وكما ذكرنا نعزوه لانتمائه الكنسي، ولتطعيم رعايا الكنيسة بالواقي من التفكير في الإسلام أو النظرة الموضوعية له، بل لتكوين آراء رفضه ومقت نبيه ﷺ ومحاربته.

ونبدأ في النظر في كلام "وات" من حيث انتهى، لأنه يوافق الترتيب التاريخي للسيرة، ونشير إلى هذه المغالطة أولاً: وهي قوله: "غير أن قول بعض المصادر، وهي ليست أقدم المصادر أنه نظر للإسلام على أنه دين شامل وعام"[3]

وهذه المغالطة المكشوفة نذكر شيئًا منها في هذا السطر من كلامه لنرى العجب:

---

(1) "وات"، "محمد في مكة" (١٣٨)، "وات"، "محمد في المدينة" (١٤٣).

(2) "وات"، "محمد في مكة" (١٤١).

(3) "وات"، "محمد في المدينة" ().

أولها: فقوله بعض المصادر، ولم يذكر شيئًا منها طبعًا، هذه واحدة أنه على العكس ليس بعض المصادر ذكرت ذلك، بل كل المصادر، إذ لا يمكن لمصدر يدعي الإسلام أن يقول إنه دين غير شامل – ناقص هو – أو غير كامل لكل أحد، وندلل على ذلك بالسؤال، لو قيل لأي أحد من هؤلاء الصحابة المقدمين فضلاً عن أبي بكر ﷺ مثلاً هل الإسلام الذي تدعون إليه دين شامل وعام؟ لا يظن من ساعتها أن يقول لا، بل نعم بغير تردد ولا روية ولا تفكير ولا نظر، وهذا يجرنا إلى:

ثانيها: وهي المغالطة المفضوحة في قوله بأنها ليست أقدم المصادر، فبعد عدم ذكره إياها نعتها بأنها ليست أقدم المصادر وهذا من التشويش والشغب بالباطل على الحق الواضح بادعاءات لا أصل لها، لو سألنا "وات" نفسه دلنا على مصدر من ذلك لما استطاع، فهل ترى مصدر أقدم من أبي بكر والصحابة ومن نقلوا عنهم، ودونوا السنة من ورائهم، كلهم نقلوا أن الإسلام دين عام وشامل.

ثالثها: أن مصدر ذلك كله هو الرسول ﷺ فيما يأمره به ربه، وبما أرسله به إلى الناس ليبلغهم إياه، وذلك في قوله ﷺ: "بعثت إلى الناس كافة"[1] ومصدقًا قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةٗ لِّلنَّاسِ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا﴾ [سبأ:٢٨] وسنفصل ذلك بعد قليل إن شاء الله.

نعود إلى "وات" لنكر على كلامه من آخره، فنراه يذكر أن محمدًا بعد عودته من الطائف أخذ يدعو أفراد القبائل البدوية للدخول في الإسلام، ويصعب عليه أن يقول إنه مأمور، أو مرسل إليه بدعوة غير قريش وأن الدعوة عامة لكل الناس، بل وجه ذلك بباعث لا علاقة له بالدين، أو بشخصية الرسول ﷺ، أو بواقع الأحداث، وإنما هو اختراع من اختراعات "وات" التي لا تنتهي لتفسير التاريخ بما لا يتفق مع وقائعه وهو أن وراء

---

(1) البخاري (٤٣٨) من رواية جابر بن عبد الله.

هذا النشاط فكرة غامضة في توحيد العرب جميعًا.

سنوافق "وات" في أن وراء ذلك ليس عالمية الدعوة ولكن ما الغموض في فكرة توحيد العرب جميعًا، وما الذي يمكن أن يكون غامضًا عندما يعرض محمد فكرة توحيد العرب، وما الذي سيثقل على قريش فهمه حينئذ، ولا يمكن إدراكه لخفائه وغموضه، بل لو عرضت هذه الفكرة على قريش – وسنستخدم ألفاظ "وات" – فما المانع أن يرحبوا بها، وتلاقي صدى عندهم في أن يتوحد العرب جميعًا وراء قريش، إنه إذًا تهويل من القول لا معنى تحته، ولا طائل من ورائه، إلا قطع الطريق على محاولة فهم الإسلام من عرب ومن عجم بصراخ ليس غير.

ونلتفت إلى ما بعد هذا الكلام، وهو قوله بأن الدعوة كانت لقريش، وأن محمدًا اعتبر نفسه في أول الأمر مرسل إليهم، وتراءى له بدرجات لا تبدو واضحة في القرآن أن له هدفًا أوسع لرسالته فدعا هذه القبائل البدوية عدا سكان المدينة ومفاوضتهم، ثم احتلت فكرة الأمة على أساس ديني الصدارة قبل الهجرة مباشرة.

وهذا كلام متناقض جدًا ينسف بعضه بعضًا، وأوله ألم تقل يا مستر "وات" أن ليس ثم وحي وأن أجزاء من القرآن سمعها النبي ﷺ واستدعاها بعد ذلك، وأنه اللبيدو، وغير ذلك من تعليم ورقة وقد مات ونحوه مما زعمت وادعيت فأين ذهب ذلك كله؟ حتى تقول إنه في أول الأمر اعتبر نفسه مرسلاً لقريش فمن الذي أرسله، ثم تراءى له في القرآن هدف أوسع لرسالته وبدرجات لا تبدو بوضوح فأنى له وهو الذي يستدعي ذلك أو يقال له ثم يتراءى له بغير وضوح كيف وهو الذي قاله ويحفظه وبلغه، ثم يتراءى له عدم وضوحه، ثم يتلقى الكفار من قريش وغيرهم هذا الكلام منه ويؤمنون به، لا يجادلون فيه ولا يمارون ولا يتراءى لهم مع أنه كان الأولى بهم إذا مبلغهم يتراءى له، ويتناقض، ولا

يعلم ما يقول كاملاً واضحًا، يبلغه البلاغ المبين؛ الذي لا إبانة بعده، ولا وضوح مثله، وهو السياسي الحكيم كما تدعي في سياق الموضوع.

كيف انقلب بك الحال إذن في نظرتك للرسالة والوحي والرسول إلى هذا الحد من تهافت البحث وتناقضه وتكذيب اللاحق من قولك للسابق.

ثم تزيدنا إيمانًا بما نقول فيك، عندما تملأنا يقينًا بذكرك إن قيام الأمة على أساس ديني كان له مكان الصدارة بحلول الهجرة، فعلى أي أساس كان يدعو القبائل وأفرادها كما زعمت، وبماذا ردوا قوله، وعلى أي شيء بايعه أهل المدينة (يثرب) فهو من أول يوم – كما سنذكر شيئًا عن المسلمين الأوائل – كان يدعوهم للدين لتوحيد الرب لنبذ عبادة الأوثان للصلاة والصلة والعفاف وهذا من تكاليف الدين إلى آخره لم يتضح له ما كان يتراءى في القرآن الكريم إلا بحلول الهجرة، ترى لو لم يهاجر، فما عسى أن يكون عليه الموقف؟ وما موقف من آمنوا مبكرين برسالته قبل الهجرة بزمن طويل، ألم يبلغهم بكل وضوح وبيان أن الدعوة عامة شاملة من أول يوم ليدعوا أقوامهم كذلك إليها، وبكل وضوح وثقة.

ثم نورد الآن بعض ما تلاه النبي ﷺ على العالم كافة من آيات الذكر الحكيم وأحاديثه النبوية المشرفة التي تدل على عالمية الدعوة من أول أيامها ردًا على ما سبق قبل أن نناقش "وات" في رسائل النبي ﷺ للملوك والحكام يدعوهم إلى الدخول في الإسلام لا لشيء آخر.

يقول المولى جل وعلا: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [سبأ:٢٨] وقوله تعالى: ﴿أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧] وقوله تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان:١] وقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ [الفرقان: ٥٦] وقوله تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٧﴾ لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ﴾ [التكوير:

٢٧-٢٨] وقوله تعالى: ﴿وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ﴾ [القلم: ٥٢] وقوله تعالى: ﴿وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ﴾ [يوسف: ١٠٤] وقوله تعالى: ﴿قُل لَّآ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام: ٩٠] ونقتصر على هذه الآيات إذ هي وافية تمامًا بالغرض والرد على "وات" في ذات الوقت ونلاحظ ذلك فيما يلي:

أولاً: أن هذه الآيات كلها – من سوء طالع "وات" – كلها مكية، وإن مطالعته للقرآن كمصدر أول عنده ليصادف هذه الآيات ويصطدم بمعانيها، وبدلاً من التسليم بما لا مجال في إنكار، ثم بعد ذلك إعمال الفكر والنظر والتحليل فيه إذ به يتجاهل هذه الآيات كلها، أو يؤولها هذه التأويلات المتعسفة المجافية للحقيقة المخالفة للواقع، وبكل سهولة ومن غير غضاضة، وبدون أسف على المنهج العلمي المدعى، وهو يبين في نفس الوقت المنهج الانتقائي لـ"وات"(١)، حيث يتجاهل الآيات والروايات الإسلامية، مؤلفًا تاريخًا يناقشه ويبحث له عن دوافع.

ثانيًا: إن مكية هذه الآيات ليؤكد مبدأ عالمية الدعوة منذ ظهرت، وجاءت تلك العالمية في أول سورة نزلت بعد قوله "اقرأ" على قول جمهرة من المفسرين، وهي سورة القلم حيث ذكرنا الآية الكريمة وهي قوله تعالى: ﴿وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ﴾ وهذا له مغزاه ودلالاته العقيدية، إذ لم تظهر في العهد المدني فيكون حجة بأن عالمية الرسالة جاءت تطورًا للجماعة الإسلامية وقيام دولتها، بل لما قامت هذه الدولة بدأت تدعو لمعتقداتها التي تدرجت في الدعوة إليها، وتهيأت الظروف للقيام بأعبائها والتوسع فيها، فانفتحت على العالم الخارجي.

ثالثًا: مما نلاحظه في هذه الآيات تلك النظرة المتكاملة المتسقة للنبي ﷺ ورسالته، فهي

(١) عبد الله النعيم، "الاستشراق في السيرة النبوية" (٨٠).

للبشارة والإنذار والرحمة والذكر والذكرى، وكل ذلك متوائم مع دعوة مكة ومن حولها وأهل الكتاب والناس كافة، وجميع العالمين، وأنه النبي الخاتم به ختم النبيون ﷺ.

ويدل في ذات الوقت على التدرج المناسب لقبول الدعوة وانتشارها، وأن ذلك إنما كان عن أمر الله به في أمره بما سبق كله، وما يبرهن ذلك إلا على أن هذه دعوة الله تعالى وهدايته التي أسداها إلى جميع خلقه، فكيف تكون ناقصة أو غير عامة، سواء في تفصيلاتها أو في كلياتها العامة الصالحة لكل زمان ومكان.

وآخر ذرائع "وات" التي تذرع بها ليمنع عالمية الدعوة، هي رسائل النبي ﷺ إلى الحكام والملوك، ما برح "وات" أن يكون كعهدنا به كما هو ينكر الروايات الصحيحة، وينشر الضعيفة الشاذة، ويخترع تاريخًا لم يكن، ويوجه له دوافع وبواعث ما كانت ولن تكون، وهذا ما حدث لرسائل الرسول ﷺ للملوك وحكام الدنيا آنئذ، فهو ينكر الرسائل أولاً، وهي ثابتة في مصادره التي لا يملك سواها، فإن قبلها فهي مليئة بالتناقضات، أو قد تبدلت هذه الرسائل قبل وصولها لمحطتها، وإلا فهي سياسية ألمح فيها محمد ﷺ إلى معتقداته الدينية مجرد تلميح وسياستها أن محمداً ﷺ اقترح عقد محالفة حياد، أو ربما أراد منع المكيين من الحصول على المساعدة الخارجية، لأنه لا يمكن أن يدعو هؤلاء الحكام الأقوياء لأن يكونوا من أتباعه – أي بالدخول في الإسلام – خاصة وهو السياسي الحكيم – عليه أفضل الصلاة والسلام.

ونناقشه سريعًا – ونحن حزانى ندامى – أن مثل هذا يناقش.

ونبادره القول بأن هؤلاء الحكام الأقوياء الذين لا يمكن لمحمد ﷺ أن يدعوهم إلى الإسلام هزمهم أتباع سيدنا محمد ﷺ شر هزيمة في التاريخ من أوله إلى آخره، وكما يعلم القاصي والداني، لم يهزمهم بسياسة ولا عدد ولا عدة ولكن كما هو ثابت عند "وات"

والمستشرقين أنهم هزموهم بذلك الدين الذي عرضوه عليهم فإذا كان هؤلاء الأقوياء قد هُزموا وليس أمام محمد ﷺ فما بالك لو كان القائد لذلك هو ﷺ إذا كانت قيادتهم لبعض أتباعه، وفعل بهم ذلك ثم يجيء منهج "وات" في البناء والهدم فيبني على كون محمد ﷺ سياسيًا حكيمًا هدم عالمية الدعوة ليقول إن محمدًا السياسي الحكيم لا يمكن أن يفعل ذلك؟ لِمَ أيها العبقري وهو يدعو بدعوة الله، وبأمر الله، لا يهمه أحد لأنه يعلم تمام العلم أن النصر من عند الله تعالى، وأنه مطالب بتبليغ دعوة الله إلى الناس كافة وهي ملخصة في قوله لهم: "أسلم تسلم"[1]، ولا يستطيع إلا أن يأتمر بأمر الله جل وعلا: ﴿بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ [المائدة: ٦٧] وقد تحقق ذلك كله بفضل الله تعالى.

فأين أولاً بعد ما سبق عقد محالفة حياد، أو منع المكيين من وصول المساعدة الخارجية لهم، وقد ذكر أصحاب السير وقرأها "وات" أن أهل مكة كانوا في هدنة مع النبي ﷺ وتركوا حربهم، بعد أن نهكتهم المعارك، وأضرت بهم الحروب بحيث انتهت الحروب بين النبي ﷺ وأهل مكة، ولم يبق إلا فتح مكة كما هو معلوم بغير قتال، فما حاجته لافتراضات "وات"، أو إنها توهمات "وات" وخيالاته التي يفترض فيها أمرين:

الأول: التناقض في الرسائل، **الثاني**: تبدلها مع وصولها إلى المرسل إليهم.

وكلا الافتراضين لا دليل عليه إلا تشويه أمر الدعوة في عقل القارئ بدون أي برهان، لما في نفس المستشرقين من حاجات يقضونها من دين الله تعالى، وإلا فما الدليل على أي من ذلك، إلا النفث في روع المتهمين بأن الإسلام دعوة قومية، لا علاقة لها بالسماء لتناقضها، وأن الدين – أي اللبيدو – عنصر فيه.

---

(١) البخاري، صحيح، بدء الوحي(١/ ٨).

وقد ذكر عبد الله النعيم في كتابه الاستشراق في السيرة النبوية أن الدكتور "محمد حميد الله الحيدر آبادي" قد قام بتحقيق رسائل النبي ﷺ في كتاب سماه "مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي"[1] ولم يتبين أو يُثِر فيها شكًا ولا تناقضًا – ليس دفاعًا عن رسائل النبي ﷺ – لأنه لم يرد بها على أحد، وإنما أورد الرسائل كما وردت في السنة المشرفة كبحث من بحوثها، وليس أمامنا إلا افتراض أن تلك النصوص التي نقلت هي ما قيل ما دام ذلك صحيحاً، ما لم يكن عندنا طعن في سندها أو متنها من المتخصصين في هذا العلم، فما كان إذن على "وات" إلا التسليم بصحة الرسائل، ثم بعد ذلك ينظر في فهمها وتحليلها، وهو ما لم يحدث بل ألقى القول على عواهنه، ومن غير متخصص فيه، بعد عدم نجاحه في تكذيب أو رد تلك الرسائل.

إذا نظرنا في تلك الرسائل رأيناها جميعًا ذات صبغة دعوية إسلامية: "إني أدعوك إلى الله وحده، وأن تتبعني وأن تؤمن بالذي جاءني، فإني رسول الله"[2] أو قوله فإني أدعوك بدعاية الإسلام، أسلم تسلم" وليس فيها إشارة من قريب أو من بعيد أو قول أصلاً لعقد محالفات سياسية، أو منع مكة من المساعدات الخارجية.

إن مما لا شك فيه أن تعامل النبي ﷺ مع كل أولئك لم يكن من منطلقات سياسية، لأن الوضع السياسي للنبي ﷺ وهو كما يقول "وات" السياسي الحكيم ما كان يسمح بالسياسة والتحالفات مع كل أولئك بأي حساب من حسابات القوى، ومن ثم لم تكن له إلا الوجهة

1- مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوى، رسالة النبى إلى النجاشى(٢٤)، انظر رد النجاشى عليها(٢٦-٢٨)، الاستشراق فى السيرة النبوية، عبدالله النعيم(٨١).

(2) عبد الله النعيم، "الاستشراق في السيرة النبوية" (٨١-٨٢)، ونقل في الهامش، الحيدر آبادي، "مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي" رسالة النبي إلى النجاشي، (٢٤)، وانظر رد النجاشي عليها (٢٦-٢٨)، ورسالة النبي إلى هرقل (٢٩-٣٠)، وانظر رد قيصر عليها (٣١)، وانظر رسائل النبي إلى المقوقس (٥٠)، وكسرى (٥٤)، والحارث بن أبي شمر، وجبلة بن الأيهم الغساني (٤١)، والمنذر بن ساوي (٥٥-٥٦).

الواحدة الدعوة إلى الله تعالى مخاطبًا إياهم من منطلق ديني محض، وهو قوله تعالى كما ذكرنا ﴿بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ وَإِن لَّمۡ تَفۡعَلۡ فَمَا بَلَّغۡتَ رِسَالَتَهُۥۚ وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ [المائدة: ٦٧].

ونورد في نهاية هذا المبحث شيئًا مما ورد عن الرسول ﷺ يردده على مسامع الناس كافة إلى يوم القيامة بدون تردد، مبينًا لهم البيان المبين، بأنه أُرسل إلى جميع الثقلين فمن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام: "بعثت إلى الأحمر والأسود"(١)، وحديث: "بعثت إلى الناس كافة"(٢)، وحديث: "أرسلت إلى الناس كافة وبي ختم النبيون"(٣)، وحديث: "كان النبي يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس عامة"(٤).

وهذه الأحاديث تبين عالمية الرسالة، وهذه الأحاديث تدحض كلام المخالفين، بحيث يكون تصديق الواقع لها من أكبر دليل على صحة نسبتها إلى الرسول ﷺ مع صدق المنبني عليها من كون هذه الرسالة عالمية شاملة عامة، ودليل على معجزة النبوة وصحتها في وقت لم يكن لرسول الله أن يقول هذا القول إلا وهو مؤيد من السماء.

بدأت الإسلامية سراً - كما ذكر من أهل السير - يعنى يدعو الناس ﷺ خفية إلى التوحيد، ونبذ مظاهر الشرك.(٥)

وكان المجتمع المكى - شأن سائر الجزيرة العربية - يعتمد فى تنظيمه على القبيلة، فهى الوحدة الاجتماعية، ولما كانت مكة تخضع لقبيلة واحدة هى قريش

---

(1) أحمد بن حنبل، "المسند" ( )، الطبعة اليمنية، والهيثمي، "مجمع الزوائد" (٦٥/ ٥٨،٦/ ٨)، التقي الهندي، "كنز العمال" (٣٢٠٩٤)، وابن عبد البر، "التمهيد" (٢١٨/ ٥).

(2) أحمد بن حنبل، "المسند" (٣٠٤/ ٣)، ومجمع الزوائد (٢٥٩، ٢٦١/ ٨)، والبيهقي، "السنن الكبرى" (٤٣٣/ ٢).

(3) أحمد بن حنبل، "المسند" (٢٤٨، ٢٥٦/ ٥)، البيهقي، "السنن الكبرى" (٤٣٣/ ٢)، وابن سعد، "الطبقات" ().

(4) أحمد بن حنبل، "المسند" (٣٠٤/ ٣)، ابن أبي شيبة، "المصنف" (٤٣٢/ ١)، دار الفكر.

(5) د. مهدى رزق الله، السيرة النبوية(١٥٦).

بفروعها(عشائرها) فقد بدت هذه العشائر ككيانات خاصة لكنها متحالفة داخل الكيان العام لقريش، وكان المتوقع أن ينتشر الإسلام فى بنى هاشم - قبيلة الرسول ﷺ - إلا أن نصيب بنى هاشم لم يكن أوفر حظاً، بل كان منه أقرباء شديد والعداوة للرسول ﷺ والإسلام كأبى لهب وأبى سفيان بن الحارث وغيرهم، وكان منهم المتعاطفون مع الرسول ﷺ أكثر من سواهم وإن لم يحملهم هذا التعاطف على الإسلام، حيث مات أكبر مناصرى النبى ﷺ على الكفر، وهو عمه أبو طالب.

إن الإسلام قد انتشر بصورة متوازنة بين عشائر قريش، فلم يكن لأى منها ثقل كبير فى الدعوة، وهذا ما شهد به الواقع، وهو مخالف لطبيعة الحياة القبلية آنذاك.

وإذا كان هذا الوضع قد أفقد الإسلام الاستفادة الكاملة من التكوين القبلى لنشر الدعوة وحمايتها، فإن هذه الدعوة لم تؤلب عليه العشائر بحجة تحقق مصالح عشيرة على حساب بقية العشائر.

ولعل هذا التوازن أعان على انتشار الإسلام فى العشائر القرشية دون تحفظات متصلة بالعصبية، فأبو بكر الصديق من «تيم»، وعثمان بن عفان من «بنى أمية»، والزبير بن العوام من «بنى أسد»، ومصعب بن عمير من «بنى عبد الدار»، وعلى بن أبى طالب من «بنى هاشم»، وعمر بن الخطاب من «بنى عدى»، وعبد الرحمن بن عوف من «بنى زهرة»، وعثمان بن مظعون من «بنى جمح»، بل إن عدداً ممن أسلموا فى تلك الفترة لم يكونوا من قريش، فعبد الله بن مسعود هذلى، وعتبة بن غزوان من مازن، وعبد الله بن قيس من الأشعريين، وعمار بن ياسر من مذحج، وزيد بن حارثة من كلب، والطفيل بن عمرو من دوس، وأبو ذر من غفار، وعمرو بن عبسة من سُليم، وعامر بن ربيعة من عنز بن وائل،

وصهيب النمرى من النمر بن قاسط، كان واضحاً من الوهلة الأولى أن الإسلام ليس خاصاً بمكة وقريش.[1]

أما المسلمون الاوائل فمنهم:

١- السيدة خديجة – رضى الله عنها – زوج النبى ﷺ فهى أول من آمنت بالله ورسوله ﷺ إذ يدل حديث بدء الوحى على أنها أول من عرفت خبر النبوة وتنزل وحى السماء، وأنها صدقت الرسول ﷺ وواسته وآزرته وخففت عنه، وهونت عليه أمر الناس فلا غرابة أن تكون أول من آمن، وكذلك كانت أول من أمر الرسول ﷺ بتبشيره بالجنة، حيث قال – صلوات الله وسلامه عليه –:«أمرت بأن أبشر خديجة ببيت من قصب، لا صخب فيه ولا نصب»[2]، وأخباره فضائلها جمة رضى الله عنها.

٢- على بن أبى طالب، فقد أسلم فى هذا الوقت المبكر، فقد كان فى حجر النبى ﷺ كما ذكرنا تخفيفاً على أبى طالب ورداً لجميله، وهو يومئذ ابن عشر سنين على أصح الأقوال فكان أول الذكور إسلاماً وقد كثرت الروايات الواهية والموضوعة حتى تحديد يوم إسلامه وصلاته، وفضائله الكثيرة الثابته لا تحتاج لهذا الكذب والمغالاة.[3]

1 – د. أكرم العمرى، السيرة النبوية الصحيحة(١٣٢-١٣٣).

2 – د. أكرم العمرى، السيرة النبوية الصحيحة(١٣٣-١٣٤)، د. مهدى رزق الله(١٥٦-١٥٧)، والحديث البخارى، فتح البارى(ج٣٨٢٢)، ومسلم(ج ٢٤٣٣-٢٤٣٥)، وابن اسحاق، بإسناد حسن، وابن هشام السيرة(١/ ١٥٥-١٥٦)، محمد أبو شهبة، السيرة النبوية(١/ ٢٨٣).

3 – روى ابن اسحاق فى السيرة خبر عفيف الكندى لصلاة النبى ﷺ وخديجة وعلى فى مكان واحد وقوله«فياليتنى آمنت وكنت أكون ثانياً»، وإسناده حسن من رواية يونس بن بكير، وهى رواية البيهقى فى الدلائل(٢/ ١٦٢-١٦٣)، من طريق يونس هذا، قال الدكتور قلعة جى فى تخريجه لها: حديث صحيح أخرجه البخارى فى التاريخ، وابن كثير فى التاريخ والحاكم فى المستدرك وقال هذا صحيح الاسناد ولم يخرجاه ووافقه الذهبى، انظر الدلائل، وهامشة(٢/ ١٦٢-١٦٣)، ابن هشام(١/ ١٥٧).

٣- مولاه زيد بن حارثة، وهو الذى اختار البقاء والإقامة مع الرسول ﷺ على أن يرجع لأبيه وأهله عندما جاء أخوه يطلبه من النبى ﷺ، فأقام عند النبى ﷺ وتبناه الرسول ﷺ وعرف بـ «زيد بن محمد»، فأقام عند النبى ﷺ، وصدقه وأسلم وصلى معه، فلما نزل قوله تعالى:﴿ ٱدۡعُوهُمۡ لِأٓبَآئِهِمۡ ﴾ [الأحزاب: ٥]، قال: أنا زيد بن حارثة.[1]

٤- أبو بكر الصديق ﷺ، فقد استنبط الحافظ ابن كثير أنه أول الناس إسلاماً من حديث صحيح فيه:«إن الله بعثنى إليكم، فقلتم: كذبت، وقال أبو بكر: صدق وواسانى بنفسه وماله»[2]، وقال هو عن نفسه عندما اختير خليفة للمسلمين: ألست أول من أسلم[3]، وقد أسلم أهل أبى بكر بإسلامه، قالت عائشة – رضى الله عنها - «لم أعقل أبوىّ إلا وهما يدينان الدين». وقد ذهب الزهرى إلى أن أول الناس إسلاماً زيد بن حارثة[4]، ونظراً لأقوال الزهرى فى أن أول من أسلم خديجة فقد توالت محاولات التوفيق بين الأقوال، وأول من وفق بين أقوال الزهرى هو الواقدى.

تحرك أبو بكر ﷺ وسط أقاربه ومواليه وأصدقائه ومن يثق به من قومه، فاستجاب له نفر كريم منهم: طلحة بن عبيد الله وعثمان بن عفان والزبير بن العوام وسعد بن أبى وقاص وعبد الرحمن بن عوف[5]وعثمان بن مظعون وأبو عبيدة بن الجراح وأبو سلمة بن

1- رواه ابن هشام(١/ ١٦٠-١٦١)، والترمذى، صحيح الترمذى للالبانى(ج ٤٠٨٥)، ورواه الحاكم فى المستدرك(٣/ ٢١٤)، وقال:«صحيح الاسناد ولم يخرجاه»، وقال الذهبى: صحيح، وفى كتب السيرة مثل عيون الاثر(١/ ٩٤)، وسيرة الذهبى(١٣٧-١٣٨)، وانظر د. مهدى رزق الله، السيرة النبوية(١٥٧).

2- د. أكرم العمرى، السيرة النبوية(١٣٤-١٣٥)، والحديث أخرجه البخارى(ج ٣٦٦١)، وقال ابن كثير فى البداية(٣/ ٣٠)، وهذا كالنص على أنه أول من أسلم ﷺ وانظر السيرة النبوية لابن كثير(١/ ٤٣٤).

3- رواة الترمذى وصححه، وهو فى صحيح الترمذى(٣/ ٢٠١)،حيث صححه الألبانى، وابن حنبل، فضائل الصحابة(١/ ٢٢٣-٢٣١).

4- عبد الرزاق، المصنف(٥/ ٣٢٥)، من مرسل الزهرى.

5 – إلى هنا ذكره ابن اسحاق فى السيرة(١٤٠)، سيرة ابن هشام(١/ ١٦٢-١٦٣)، وذكر من بعدهم.

عبد الأسد، والأرقم بن أبى الأرقم.

ومن خلال هؤلاء وغيرهم أخذ الإسلام ينتشر فى مكة وخارجها، ودخل فيه أناس من بطون قريش ومواليها كافة، وممن اشتهروا بين السابقين إلى الإسلام من الموالى: بلال بن رباح وصهيب بن سنان وعمار بن ياسر ووالده وأمه سُمية بنت خباط.[1]

٥- ورقة بن نوفل، كان من المسلمين الاوائل وفقا الاحاديث التى بينت ذلك.[2]

وفى فترة وجيزة وصل عدد الذين سبقوا إلى الإسلام من بطون قريش إلى أكثر من أربعين كما عدهم ابن هشام[3]، وأكثر من خمسين كما عدهم اليعمرى[4].

ونلاحظ على السابقين الأولين إلى الإسلام ما يلى:

أولاً: من أكثر الملاحظات انتشاراً قديماً وحديثاً، ثم بعد ذلك أخذاً ورداً لتبيين الحكمة فيها، هى أن الغالب على الداخلين الأولين فى الإسلام أنهم خليط من الفقراء الضعفاء العبيد الذين رأوا فى الإسلام إحساساً بقيمتهم أو استعادة لحريتهم وكرامتهم.

والنظرة المدققة الفاحصة لهذا الرأى نجده مخالفاً للواقع، إذ رأينا أن السابقين إلى الإسلام عندما كان عددهم ثلاثة وستين شخصاً، فإن الفقراء والمستضعفين والموالى

1 - ابن حنبل، فضائل الصحابة(١/ ٢٣١)، عن مجاهد بسند صحيح، وعن ابن مسعود ﷺ(١/ ١٨٢)، بسند حسن متصل، والحاكم، المستدرك(٣/ ٨٤)، وقال صحيح الإسناد ولم يخرجاه ووافقه الذهبى وغير ذلك، وانظر د. مهدى رزق، السيرة النبوية(١٥٩).

2 - روى أحاديثه أحمد، المسند، الفتح الربانى(٢٠/ ١٧٤)، وحسن اسناده الساعاتى، وابن كثير، البداية والنهايه(٣/ ١٠)، عن أبى يعلى وحسنه، وانظر تخريج هذه الاحاديث عند الالبانى على فقة السيرة لمحمد الغزالى(١٠٠)، وانظر مهدى رزق الله، السيرة النبوية(١٥٩).

3 - ابن هشام، السيرة(١/ ١٦١-١٦٧).

4 - اليعمرى، عيوت الاثر(١/ ٩٣-٩٨)، وانظر ابن حزم، جوامع السيرة(٤٤-٥١).

والأخلاط من الأعاجم ثلاثة عشر فقط لا يزيد مجموعهم على الخمس[1]، وإذا علمنا أن معظم أصحاب السير إن لم يكن كلهم كانوا مع ذلك الرأى المنتشر علمنا، أنهم لم يكن لهم قصد فى تقليل العدد، وإن كانوا لا يقللون أو يكثرون لطبيعة الدين الذى اعتنقوه، والذى لم يكن ليدعو لسوى الحقيقة مع الصدق والأمانة.

ثانياً: أن سبب انتشار هذا القول هو أن الذين تحملوا القسط الأكبر من التعذيب الظاهر على ملأ من الناس هم الأرقاء والموالى، ولذلك انتشر أمرهم أما من عذب ضمن قبيلته فلم يذكروا كثيراً لينتشر أمرهم[2]، وسنشير إلى شيء من ذلك إن شاء الله تعالى.

ثالثاً: أوضح ابن حجر رحمه الله معنى كلمتى «الضعفاء»،«الشرفاء»، اللتين وقعتا فى حديث هرقل عندما سأل أبا سفيان أيتبعه أشراف الناس أم ضعفاؤهم، فمعنى الأولى عنده أن أتباع الرسل هم أهل الاستكانة لا أهل التكبر الذين أصروا على الشقاق بغياً وحسداً كأبى جهل وأتباعه، ويكون الشرف فى الثانية مرادفاً للكبر والعلو، وهذا هو التفسير الملائم إذ ما ذكرنا من أسماء المؤمنين الأولين، وهم الأغلبية ليسوا أرقاء ولا عبيداً، وإنما كانوا أهل الإنصاف وترك الكبر والمعاندة والجحود.[3]

ونشير إلى ذكر بعض هؤلاء الذين تقدم إسلامهم وما علمته بهم قبائلهم سواء كانوا من صميمها أو من مواليها وأرقائها. وكذلك لنذكر من قيل إنهم من السابقين الأولين إلى الإسلام.

---

1 - الشامى، من معين السيرة(٣٧-٣٩)، ود. مهدى رزق الله حيث ذكر أن كلام الشامى من أروع ما كتب فى ذلك، السيرة النبوية هامش(١٦١).

2 - المصدر السابق، الصالحى، من معين السيرة(٣٥-٣٦).

3 - ابن حجر، فتح البارى(١/ ٣٥-٣٦/ج ٦)، ط دار القلم ترقيم محمد فؤاد عبد الباقى، وفى هذا الرد على د.البوطى وغيره قديماً وحديثاً فى هذه القضية، انظر البوطى، فقة السيرة(٧٧-٧٩).

تدل رواية صحيحة على تقدم إسلام سعد بن أبى وقاص، وأنه بقى أسبوعاً ثالث مسلم ثم أسلم آخرون.[1]

وقد نزل القرآن الكريم فى خبر إسلامه كما أخبر عن نفسه قال: حلفت أم سعد أن لا تكلمه أبداً حتى يكفر بدينه، ولا تأكل ولا تشرب قالت: زعمت أن الله وصاك بوالديك، وأنا أمك وأنا آمرك بهذا. قال: مكثت ثلاثة أيام حتى غشى عليها من الجهد، فقام ابن لها يقال له عمارة فسقاها، فجعلت تدعو على سعد فأنزل الله عز وجل فى القرآن هذه الآية:﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا ۖ وَإِن جَـٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِى ﴾ [العنكبوت: ٨]، وفيها:﴿ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ﴾ [لقمان: ١٥]، قال فإذا أرادوا أن يطعموها شجروا فاها بعصا ثم أو جروها.

والحادثة تدل على صلابة موقف المؤمنين الأولين أمام الفتن التى تعرضوا لها.

وأسلم عثمان بن عفان ﷺ فى وقت مبكر، وروى أنه قال إنه الرابع فى الاسلام[2]، وأسلم طلحة بن عبيد الله التيمى وأسلم الزبير بن العوام، وكان ابن ست عشرة سنة[3]، وتشير الرواية إلى تعذيب عم الزبير له بالنار بسبب إسلامه.[4]

وممن بكَّر فى الدخول فى الإسلام خالد بن سَعد بن العاص.[5]

وأمَّا قصة عبد الله بن مسعود حيث يروى أنه أسلم قبل دخول الرسول ﷺ دار الأرقم فيحكيها فيقول: كنت غلاماً يافعاً أرعى غنماً لعقبة بن أبى معيط بمكة فأتى علىَّ رسول الله ﷺ وأبو بكر وقد فرا من المشركين، فقال: يا غلام هل عندك لبن تسقينا؟ قلت: إنى مؤتمن

1 - البخارى، الصحيح، فتح البارى(٧/ ٨٣-١٧٠)، ابن حنبل، فضائل الصحابة(٢/ ٧٤٩).

2 - ابن أبى شيبة، المصنف(١٢/ ٥٣)، واسلام طلحة عند ابن سعد، الطبقات(٣/ ٢١٤-٢١٥).

3 - ابن سعد، الطبقات(٣/ ١٠٢).

4 - الهيثمى، مجمع الزوائد(٩/ ١٥١).

5 - ابن سعد، الطبقات(٤/ ٩٤-٩٥)، والحاكم، المستدرك(٣/ ٢٤٩).

ولست بساقيكما قالا فهل عندك من جذعة لم ينز عليها الفحل بعد؟ قلت: نعم فأتيتهما بها، فاعتقلها أبو بكر وأخذ لرسول الله ﷺ الضرع فدعا، فحفل الضرع، وأتاه أبوبكر بصخرة منقعرة، فحلب ثم شرب هو وأبو بكر ثم سقياني. ثم قال للضرع: اقْلُص فقلص، فلما كان بعد أتيت رسول الله ﷺ، قلت علمني من هذا القول الطيب – يعني القرآن – فقال رسول الله ﷺ: «إنك غلام معلم فأخذت من فيه سبعين سورة ما ينازعني فيها أحد».[1]

وذكرت رواية أنه كان سادس من أسلم.

ولا شك في تقدم إسلام خباب بن الأرت، وروى أنه السادس في الاسلام[2]، وكذلك تقدم إسلام بلال الحبشي، وكان عبداً رقيقاً فاشتراه أبو بكر وأعتقه.[3]

وقد ثبت أن عمار بن ياسر أسلم مبكراً فقد قال عن نفسه: «رأيت رسول الله ﷺ وما معه إلا خمسة أعبد وامرأتان وأبو بكر».[4]

ونذكر تكملة لذلك من غير قريش ومن خارج مكة قصة عمرو بن عبسة السلمي، فقد كان يرى نفسه رابع أربعة، هم أول المسلمين حيث يقول: «فلقد رأيتني إذ ذاك ربع الإسلام».[5]

---

1 – أحمد، المسند(١/ ٣٧٩)، وابن أبي شيبة، المصنف (١١/ ٥١٠)، وابن سعد، الطبقات (٣/ ١٥٠)، وصحح الذهبي إسناد الحديث في سير أعلام النبلاء (١/ ٤٦٠).

2 – ابن أبي شيبة، المصنف (١٢/ ١٤٩).

3 – أحمد، فضائل الصحابة(١/ ١٨٢–٢٣١)، بأسانيد صحيحة، وابن سعد، الطبقات(٣/ ٢٣٣)، والحاكم، المستدرك(٣/ ٢٨٤)، وصححه ووافقه الذهبي. وحديث العتق في البخاري، فتح الباري(٧/ ٩٩).

4 – البخاري، فتح الباري(٧/ ١٨–١٧٠)، أما الأعبد فهم بلال وزيد بن حارثة وعامر بن فهيرة وأبو فكيهة، ويحتمل أن الخامس شقران، وأما المرأتان فخديجة رضي الله عنها، وأم أيمن أو سمية، ابن حجر فتح الباري(٧/ ١٨).

5 – أحمد، المسند (٤/ ١١٢)، وطبقات ابن سعد (٤/ ٢١٥)، وتاريخ الطبري (٢/ ٣١٥)، بإسناد حسن، وانظر د. أكرم العمري لما سبق، السيرة النبوية (١٦٠).

ويحكى قصته فيقول: «كنت وأنا فى الجاهلية أظن أن الناس على ضلالة، وأنهم ليسوا على شيء وهم يعبدون الأوثان، فسمعت برجل بمكة يخبر أخباراً، فقعدت على راحلتى فقدمت عليه، فإذا رسول الله ﷺ مستخفياً جرءاء عليه قومه، فتلطفت حتى دخلت عليه بمكة، فقلت له: ما أنت؟ قال: أنا نبى. فقلت: وما نبى؟ قال: أرسلنى الله. فقلت: وبأى شيء أرسلت؟ قال: أرسلنى بصلة الأرحام وكسر الأوثان، وأن يوحد الله لا يشرك به شيء. قلت له: فمن معك على هذا؟ قال: حر وعبد قال: ومعه يومئذ أبو بكر وبلال ممن آمن به. فقلت: إنى متبعك. قال: إنك لن تستطيع ذلك يومك هذا، ألا ترى حالى وحال الناس! ولكن ارجع إلى أهلك فإذا سمعت بى قد ظهرت فأتنى، قال: فذهبت إلى أهلى، وقدم رسول الله ﷺ المدينة وكنت فى أهلى، فجعلت أتخبر الأخبار واسأل الناس حين قدم المدينة حتى قدم علىَّ نفر من أهل يثرب، من أهل المدينة، فقلت: ما فعل الرجل الذى قدم المدينة؟ فقالوا: الناس إليه سراع، وقد أراد قومه قتله فلم يستطيعوا ذلك، فقدمت المدينة، فدخلت عليه....».[1]

ويبدو أن رسول الله ﷺ لم يخبره بجميع من أسلم، إذ هو قد سأله عمن معه قبل أن يعلن الإسلام، وكذلك حرصاً من الرسول ﷺ على سلامة من أسلم من الأذى، لذلك ذكر أنه كان رابع الإسلام، وما ذلك إلا بحسب ما بدا له، وإلا فإن أبا ذر أيضاً قد أعلن يوم أسلم أنه كان كذلك رابع الاسلام مما يدل على أن المسلمين كانوا متكتمين فى أمر إسلامهم حرصاً على مصلحة الدعوة بحيث لم يكن كلاهما يعلم بإسلام الآخر.[2]

---

1 - مسلم، الصحيح(١/ ٥٩٦).

2 - الطبرى، التاريخ(٢/ ٣١٥)، ويؤيد ابن كثير وابن حجر أن سرية الدعوة هى السبب فى تعارض دعاوى السبق إلى الإسلام، إذ يخفى عليهم من سبقهم إلى الإسلام، ابن كثير، السيرة النبوية(١/ ٤٤٣)، وفتح البارى لابن حجر(٧/ ٨٤)، د. أكرم العمرى، السيرة النبوية(٢١٦).

لقد أجمع الفقهاء على أن المسلمين إذا كانوا فى قلة من العدد، أو الضعف فى العدة بحيث يغلب على الظن أنهم سيقتلون من غير أى نكاية فى أعدائهم إذا أجمعوا على حربهم أن يقدموا مصلحة بقاء النفس على مصلحة الدين الموهومة أو المنتفية، إذ ذلك أيضاً فى الواقع مصلحة للدين، لأنه أن تبقى أرواح المسلمين سليمة فيمكن أن يتقدموا ليجاهدوا فى الميادين الأخرى المفتوحة، وإلا فإن هلاكهم يعتبر إضراراً بالدين ذاته، وفسحاً للمجال أمام الكافرين ليقتحموا ما كان مسدوداً أمامهم من السبل.[1]

والكلام عن المسلمين الأوائل يأخذ إلى هذه الأمور، وهى:

١- أن الاضطهاد لم يكن ليفرق بين الأرقاء والموالى، وبين الاحرار من بيوتات مكة العالية، إلا فى ظهوره فى الاوائل على روءس الأشهاد.

٢- أن أولئك الذين أسلموا قد نالهم قسط وافر من التعذيب ليرجعوا عن دينهم، ومع ذلك صبروا وثبتوا، ومنهم من هاجر فراراً بينهم إلى الحبشة، كما سنذكر فى مبحث الاضطهاد إن شاء الله تعالى.

٣- أن الإسلام لم يقف عند حد دعوة الفقراء إلى الإسلام بدليل أن الأكثرية من معتنقيه فى تلك الفترة الحرجة والظروف الصعبة كما أشرنا كانوا من أشراف قريش.

وكانوا بعد ذلك القوة الضاربة فى أية ملاقاة مع أية عدو، إذ لم يشهد التاريخ أن جيوش سيدنا محمد ﷺ من بدء الجهاد كان الغالب عليهم أنهم من العبيد والموالى، بل كان القادة والفرسان والمشاة كانت أكثر يتهم من أولئك الجند الأبرار من الأشراف، لا يستطيع

1 - انظر البوطى، فقه السير(٧٦-٧٧)، وضوابط المصلحة فى الشريعة الاسلامية(٢٦١)، وقواعد الاحكام فى مصالح الأنام(١/ ١١١-١١٢)، د. مهدى رزق الله، السيرة النبوية(١٦٢).

أن يبارى فى هذا أحد، إذ سجلات التاريخ شاهده بذلك، مع بذلهم وتضحياتهم بأموالهم إنفاقاً فى سبيل الله فجمعوا بذلك بين النفس والمال.

ومن ثم نعود إلى القرآن الكريم كمنهج للدراسة، نذكر فيه سيرة أولئك، ثم نرد على "وات" فى هذا البحث.

ونذكر آية واحدة فى هذا السياق كفيلة بتبين سيرتهم فى الكتاب المعظم، وهى قوله تعالى:﴿ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٠٠﴾ ﴾ [التوبة: ١٠٠].

يقول سيد قطب ما ملخصه مشيراً إلى مراحل بناء المجتمع المسلم، وتكون طبقاته الإيمانية: لقد ولدت الحركة الإسلامية فى مكة على محك الشدة، إذ أحست قريش – ممثلة الجاهلية – بالخطر الحقيقى الذى يتهددها من دعوة:«لا إله إلا الله محمد رسول الله»، وما تمثله من تمرد على كل طاغوت فى الأرض لا يستمد سلطانه من سلطان الله، والفرار منه إلى الله، وبالخطر الجدى من هذا التجمع العضوى الذى أنشأته هذه الدعوة تحت قيادة الرسول ﷺ، هذا التجمع الذى يدين منذ يومه الأول بالعبودية والطاعة لله ورسوله ﷺ لم تكد الجاهلية تستشعر هذا الخطر حتى شنتها حرباً شعواء على الدعوة الجديدة وتجمعها وقيادتها، وأصدرت لها كل ما فى جعبتها من أذى ومن كيد ومن قتنة ومن حيلة. وهو دأب أعداء الاسلام فى كل آن وزمان عندئذ تعرض كل فرد فى التجمغ الإسلامى الجديد للأذى والفتنة بكل صنوفها إلى حد إهدار الدم فى كثير من الأحيان. ويومئذ لم يكن يقدم على شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، والانضمام إلى التجمع الاسلامى الوليد إلا كل من نذر نفسه لله، وتهيأ لاحتمال الأذى والفتنة والجوع والغربة والعذاب، والموت فى أبشع الصور فى بعض الأحيان.

وبذلك تكونت للإسلام قاعدة صلبة من أصلب العناصر عوداً فى المجتمع العربى، فلم يكن يقدم ابتداء على الانتقال من الجاهلية إلى الإسلام، وقطع ذلك الطريق الشائك المرهوب إلا العناصر المختارة الممتازة فريدة التكوين.

وهكذا اختار الله تعالى السابقين من المهاجرين من هذه العناصر الفريدة النادرة ليكونوا هم القاعدة الصلبة لهذا الدين فى مكة، ثم ليكونوا مع السابقين من الأنصار القاعدة الصلبة لهذا الدين بعد ذلك فى المدينة.(١)

لقد بايع أولئك السابقون من الأنصار النبى ﷺ فى العقبة وهم يعلمون عاقبتها وضريبتها وأن يحاربهم الأصفر والأحمر، وأن ليس لهم سوى الجنة إن هم وفوا بذلك، فلا جرم أن يكونوا مع السابقين من المهاجرين الذين بنوا هذا البنيان وأعدوا هذا الإعداد.

إن تلك النواة الصلبة كانت السبب المباشر فى تماسك وصلابة المجتمع فى وجه الاعراض والظواهر والخلخلة أحياناً التى كانت وراء تفاوت طبقات المجتمع الايمانية.

لا شك إذن أن المهاجرين – على أى تعريف كانوا – كانت خلاصتهم والكمل منهم أولئك السابقين إلى الإسلام.(٢)

ونظرة أخرى تبين أنهم ما دخلوا الإسلام طمعاً فى غنم يغنمونه فى هذا الوقت، ولا كان ينتظرونه، ولا إلى شيء يسعون لتحصيله فى هذه الدنيا الزائلة، إذ كان الواقع والدعوة والنبى ﷺ وما يحيط به يمنع تصور وقوع شيء من ذلك فضلاً عن انتظاره، لم يكونوا ينتظرون إلا رضا الله عنهم وأن يجاوروه فى جنته.

---

1 – سيد قطب، فى ظلال القرآن (١٧٠٢-١٧٠٣).

2 – سيد قطب، فى ظلال القرآن (١٧٠٤-١٧٠٦).

ومن ثم جاء جزاؤهم رضى الله عنهم، وهو أعلى ما ينتظر المؤمن ربه أن يحل عليه رضوانه، فلا يسخط عليه أبداً، وأن يكون من مظاهر هذا الرضا أعظم إكرام وأجزل مثوبة فى الدنيا والآخرة.

وإن من علو مقام هذه الصفوة أن يبادلوا ربهم الرضا اللائق بربهم منهم، أن يرفع الله منزلتهم ودرجتهم ليذكرهم ويمدحهم بأنهم رضوا عن ربهم، فذلك حال وشأن لا تملك الألفاظ البشرية أن تعبر عنه، ذلك حالهم الدائم مع ربهم ﷻ ورضوا عنه، أما علامة الرضا فهى: ﴿ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾.

وبتحليل الآية يتجلى:

أولاً: أن الآية جاءت عقب ذكر الفرق المتلبسة بالنقائص على تفاوت بينهما، لتذكر القدوة الصالحة والمثل الكامل فى الأيمان والفضائل والنصرة فى سبيل الله ليحتذى طالب الصلاح حذوهم، ولئلا يخلو تقسيم القبائل الساكنة بالمدينة وحواليها وبواديها عن ذكر أفضل الأقسام تنويهاً به.

ثانيا: بالتالى جاءت الجملة عطفاً على جملة: ﴿ وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغْرَمًا ﴾ [التوبة: ٩٨].

والمقصود بالسبق السبق فى الإيمان، لأن سياق الآيات قبلها فى تمييز أحوال المؤمنين الخلص، والكفلر الصرحاء، والكفار المنافقين، فكان المراد بالسابقين الذين سبقوا غيرهم من نفس صنفهم أى من المؤمنين.

ويكون من سبقوا غيرهم هم المقصودين سواء المهاجرين قبل أن يهاجر النبى ﷺ إلى المدينة، أو الأنصار الذين سبقوا غيرهم ممن آمن من الأنصار وهم أهل العقبتين الأولى والثانية.

وأن أول مقصود بهذا الخطاب القرآنى هم المسلمون الأوائل بلا دفع، وتلك قيمتهم ومنزلتهم، وهذه عاقبتهم ومآلهم.

والأنصار جمع نصير، وهو الناصر، وهو بهذا الجمع علب على الأوس والخزرج الذين آمنوا بالنبى ﷺ فى حياته أو بعد مماته، وعلى أبنائهم إلى آخر الزمان، ويطلق على أبناء المنافقين الذين نشأوا مسلمين حقاً.

﴿ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ﴾ ..

هم الذين اتبعوا السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار فى الإيمان، وأما الأحسان فهو العمل، والباء للملابسة أى اتبعوهم فى الإيمان وهم متلبسون بالعمل الصالح الممدوحين عليه والذى اقتدوا فيه بالسابقين، وما بعثهم على ذلك إلا إلاخلاص، ومن ثم فهم محسنون، وما ذكر الاحسان هنا إلا لأن من أتى بعد السابقين الأولين منهم من آمن اعتزازاً بالمسلمين لما صاروا كثرة فى المدينة، ومنهم من آمن وفى إيمانه ضعف وتردد كالمؤلفة قلوبهم فربما نزل بهم إلى النفاق وربما ارتقوا إلى الإيمان الكامل، ولذلك قيد الاتباع بالاحسان حتى يدخلوا فى وعد الله لهم بالرضا وإعداد الجنات.

وجملة:﴿ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ ﴾، خبر عن ﴿ وَٱلسَّٰبِقُونَ ﴾، وقدم السابقون المسند إليه، على خبره الفعلى لقصد التأكيد والتقوية.

ورضوا عنه أنه أعطاهم حتى بلغوا الرضا عن الله تعالى، وهو إذ يعطيهم إنما يمدحهم، وهو من أجل الدرجات وأعلى المنازل.

وزادها بالإعداد لهم، أى التهيئة الدالة على العناية والكرامة بهم، الذى يؤذن بكمال الاهتمام حتى لا يكون ماهيأ لهم إلا أكمل نوع.

ولتقديم المسند إليه، والعناية بالمعد لهم، كانت الآية الوحيدة فى نظائرها التى حذف فيها من – من تحتها الانهار – لوجود التأكيد والعناية فلا يحتاج إلى من التى ليست إلا للتأكيد مع أسماء الظروف.[1]

اتضح من الآية سيرة وتحليلاً علو الرتبة لأولئك المسلمين الأوائل فى الدنيا والآخرة، وفى كل مجالات التضحية والبذل لنشر الاسلام ورفع رايته، ونقف الآن مع «وات» بما سور من صفحات فى سيرتهم طمساً لكل أسس السيرة وقواعدها كما فهمنا من منهجه لنبين موقفه مع إسراع الرد وإيجازه عليه، وإن كنا بعد هذا العرض المصغر، لا نحتاج لدفعٍ، ولكن ما باليد حيلة.

ونبدأ كلام "وات" بهذه النظرية التي وضعها، حيث يقول: لما كان النُبل يكون مبدئياً في الإسلام على الإخلاص لقضية الأمة الإسلامية، فقد استغل المسلمون حقوق أجدادهم في النبل والكرامة، ولهذا يجب معالجة أخبار المسلمين الأوائل بحذر. فإذا ما وجدنا أن أحفاد شخص ما، أو المعجبين به يعلنون أنه كان من بين العشرة الأوائل، فمن الحذر الافتراض أنه كان على الأغلب الخامس والثلاثين بينهم[2].

وهذه النظرية من "وات" لا تحمل سوى التشكيك والسخرية التى حملته على التناقض والمغالطة ومخالفة الواقع والادعاء الباطل، إلخ.. ولذا صدق هذا النقد بقولنا:

أولاً: أن المسلمين يقوم إخلاصهم لقضية الإسلام على النبل، فإذا كان النبل هو الحامل على الإخلاص فلماذا لم يؤمن كفار قريش وفيهم من النبلاء كُثُر، فضلاً عن إخلاصهم للإسلام، خاصة وإن من كانوا نبلاء في الجاهلية[3]، كانوا هم النبلاء في الإسلام،

1 – انظر لما سبق ابن عاشور، التحرير والتنوير(١٠/ ١٧-١٩).

Mohammad at Mecca p. 86 - 2

3 – حديث خياركم فى الإسلام خياركم فى الجاهلية إذا فقهوا.

إن ذلك دليل من "وات" على عدم فهم قضايا دين الإسلام، ومقوماته ومبادئه، فكيف يهاجمه مدعياً العلم به، والتخصص فيه.

ثانياً: أن المسلمين استغلوا حقوق أجدادهم في النبل والكرامة، ليلحقوهم بالمسلمين الأُوَل؛ منذ متى كان المسلمون يستغلون حقوق الغير في النبل والكرامة، وكيف تُستغل؟! ولمصلحة من؟!

إن كلام "وات" يدل ابتداء على الجهل مرة أخرى بقضايا الإسلام، إذ أن إسلام شخص أو كفره، إنما هو له أو عليه، وأن المسلمين إنما يثبتون الصدق الذي أمرهم الله تعالى به، وينهون وينفون خلافه، وهو ما نهاهم الله تعالى عنه، ثم – وهي الطامة ل"وات" – فليدلنا على واحد فقط من المؤمنين الموثقين المتقين استغل ذلك ليكذب، وينسب لأهل النبل شيئاً لم يكن.

وإن "وات" لم يأخذ حذره إذ لو قلنا ما مصلحة الحفيد أن يستغل نبل الجد وكرامته يقول "وات" ليثبت بهذا الاستغلال نبل الجد وكرامته نعم العقل إذا أو أنه من السابقين، وماذا فيها فى منطقك ومنهجك أن نثبت للجد النبل بقية النبل ونعده بسبب نبله من المسلمين الأوائل دعنا من ذلك، ولنعكس القضية وهى الأهم مَنْ مِنْ الاحفاد قد استغل موقعه ومنصبه ليثبت لجده الكافر نبلاً وكرامة، أو إسلاماً وإخلاصاً وهذا ادعى وأهم، بل لقد ذكروا أجدادهم بكل ما علموا من كفر كما ذكروا أجداد غيرهم بما حازوا من إيمان.

والمعنى أن كتاب السير الاسلامية بالذات هم أجدر الناس وأحراهم بالكتابة الصحيحة المسندة، التى خضعت للنقد العلمى النزيه، سنداً ومتناً بما لم تشهد له البشرية نظيراً فكيف تتفق الروايات على الباطل وهى مختلفة الأسانيد، ثم هذا يخالف القواعد المنهجية التى وضعها المحدثون ليميزوا الصحيح المسند إلى النبى ﷺ وإلى غيره مما لم يصح

متنه، ولا تصح نسبته[1]، وهذه القواعد لا علاقة لها بالسياسة، ولا بالمجاملة، بل هى قواعد تعتنى بمعرفة الصحيح وغيره من حيث هو بغير علاقات أخرى، والدارسون لذلك من المستشرقين يعلمون ذلك لا يمارون فيه.

ثالثا: نرد على فكاهة "وات" كذلك وهى أن من المعجبين بشخص من يلفق له ويكذب أنه من السابقين الأوائل إلى الإسلام، والرد هو أن الأحفاد أو المعجبين بشخص لا يمكن أن يخفى كلامهم، وبالتالى لابد حسب منطق الاشياء أن يكون مجال أخذ ورد، إذ لابد أن يجد من يقول له كذبت ليس منهم أو أخطأت لم يكن سابقاً إلى الإسلام أما أن يجتمع كل هذه الالاف فى كل الاقطار على ذلك، فلابد أن يكون صحيحاً، ولا نعلم من المعجبين بهم فى ذلك إلا على بن أبى طالب حيث أورد له الشيعة، الصحيح والباطل، لينسبوا إليه ذلك، وهو - رضي الله عنه - ليس فى حاجة إلى ذلك، وإن "وات" نفسه قد أثبت أنه من الأولين، وهى لطيفة من لطائف "وات" أن المعجبين والأحفاد أثبتوا له ذلك، ولم يتحفظ "وات" ولم يحذر كما يطلب منا.

أما الفكاهة الأصلية فهى أن "وات" يزعم أن كل من قيل عنه إنه من السابقين فهو الخامس والثلاثون فى القائمة، ولا يدرى أى بحث هذا أم أنه يريد أن يضحكنا ولمَ الخامس والثلاثون وليس الرابع والثلاثين، حتى سخريته وفكاهته لا تحمل إلا الكذب ومخالفة الواقع إذ أن الخامس والثلاثين فى القائمة ليس أياً ممن ذكر "وات".

أم أن المتقدمين الأوائل رضوان الله عليهم قد حجزوا المقعد الخامس والثلاثين لمن سيأتى من الأحفاد والمعجبين ليضعوا فيه جدهم أو محل أعجابهم!؟ فخالفوا ذلك ووضعوهم فى العشرة الأوائل، أو ضاق المقعد بالمعجبين فوزعوهم على المقاعد الأولى الفارغة!!؟

---

1 - انظر عبد الله النعيم، الاستشراق فى السيرة النبوية(٨٣).

رابعاً: يذكر "وات": ومثلاً قول الطبرى إنه بعد هؤلاء الثلاثة، على وزيد وأبو بكر الذين كانوا أول من انتمى إلى الإسلام يأتى عدد من المسلمين الذين جاء بهم أبو بكر موضع شك؛ لأن هؤلاء الرجال المذكورين هم فى الحقيقة الخمسة الذين أصبحوا القادة على حين وفاة عمر، فقد عينهم لتأمين انتخاب الخليفة. وإنه من الصعب القول بأن هؤلاء الخمسة أنفسهم قد جاؤوا معاً إلى محمد قبل عشرين سنة عند بدء الإسلام. وأسماؤهم هى عثمان بن عفان، والزبير بن العوام، عبد الرحمن بن عوف، سعد بن أبى وقاص، طلحة بن عبيد الله.[1]

والرد على "وات" أين الحذر من الأحفاد والمعجبين فى هذه القصة، وأين هم أصلاً ليضعوا هؤلاء الخمسة فى السابقين إلى الإسلام.

إنهم كانوا من السابقين حقاً إلى إلاسلام، وإلا فأين مصادر "وات" التى تثبت خلاف ذلك وليس له إلا مصادر الإسلام، وقد انتفى حذره من الأحفاد والمعجبين، فماذا بقى له من تخوف لتكون المصادر قد نقلت الحق والواقع كما هو، أم أنه كان يريد أن يلفقوا له مصادر تنفى الحق لتكون حقاً فى نظره عجيبة طريقة البحث هذه ليست بحثاً إنها تشكيك لا سند له ولا منطق ليت لهذا التشكيك – بعد كلامه هو – ذرة من دليل يؤيده والمتصور المعقول هو أن عمر ﷺ قد اختار هؤلاء الخمسة لسبقهم إلى الإسلام إذ تلك عادته فى تقديم الصحابة ومجلس مشورته، فإذا بفعل عمر هذا عند "وات" يصبح مادة الاشتباه فى صحة سبق هؤلاء الخمسة إلى الإسلام، وتلك عجيبة العجائب فى قلب الحقائق رأساً على عقب. فبدلاً من أن تكون الحادثة دليل سبقهم صارت شبهة عدم سبقهم!![2]

---

op. cit pp. 86-87،moh. At mecca 86-87 - 1

2 – انظر عبد الله النعيم، الاستشراق فى السيرة(٨٣-٨٤).

ثم يقال ل"وات"، ما موضع الشك فى الحادثة أى فى اتيان هؤلاء الخمسة ليسلموا قبل عشرين سنة، وهى فى الحساب خطأ من "وات" إذ لو حسبنا عُمْرَ دعوة النبى بثلاث وعشرين سنة وخلافة أبى بكر بسنتين ونصف وعمر أكثر من عشر سنين لكان الحساب الصحيح انهم أتو النبى ﷺ قبل خمسة وثلاثين عاماً ما المانع فى ذلك عقلاً أو عادة أو واقعاً أو على أى نحو من مناحى المنطق، لقد جاء على بن أبى طالب ليُسْلِمَ قبل ثمانية وخمسين عاماً من عند بدء خلافته ﷺ، وهذه لا يمارى فيها "وات".

وما رأى "وات" – وهو يعلم ذلك – أن هؤلاء الخمسة من العشرة الذين بشرهم النبى ﷺ بالجنة فى حياته المكرمة، فليس إذن فى حاجة إلى أحفاد ولا معجبين ليضعوهم فى العشرة الاوائل فى الإسلام بعدما وضعهم الله جل وعلا على لسان نبيه فى هذا الإخبار بالغيب ضمن عشرة لا مقدم عليهم.

ثم النظرة الأخيرة – وليس للكلام مع "وات" آخر – كما ذكرنا إذ فى كل سطر مما كتب ضلال تفنى الحياة ولم يستكمل المرء رده عليه، وهو من قدم على هؤلاء المكرمين أحداً أو قال لقد سبقهم فلان أو فلان إلى يومنا هذا، فلم الشغب بما يهمله الواقع ولا نتيجة له إلا الخزى والباطل بما هذا البحث لا طائل تحته من "وات"، لأنه بحث لم يؤد إلى نتيجة وفائدة، بل على العكس خالف الواقع وفهم هذا الواقع، استخرج لنا"وات"، أو اكتشف سبباً جديداً آخر لسبق هؤلاء إلى الإسلام، ألا وهو الصراع الطبقى، وهو من المناهج التى ظهرت فى القرن الأخير، وطبقها "وات" بمنهج الإسقاط وهو أن يسقط هذا الجديد على ما مضى من خمسة عشر قرناً، إن البيئة القديمة لم تسمع بهذا المصطلح، فضلاً عن أن تطبقه أو أن تدعو إليه، أو أن تفسر الأحداث، أو أن يكون له واقع تفلسف به الأمور حتى عند إهمال المصطلحات والنظر إلى معانيها ومضامينها.

إن تطبيق المصطلحات الجديدة، وفى بيئاتها الجديدة، والتى هى مختلفة عن البيئات القديمة وعن البيئات العربية بالذات، لهو بحث فيما لا علاقة له بالبحث، إنه إمساك بأطراف غريبة أجنبية عن البحث تؤدى إلى نتيجة لا نسب بينها وبين ما بحثت فيه، وليست النتيجة فى النهاية إلا من عمل الباحث وفى عقله، وما يريد ويهوى لا بما يقوده إليه البحث هذا إن اعتبرنا أن البحث فى هذه الطريق لا علاقة بالأبحاث أصلاً.

ذلكم «وات»، وليته جعل إسلام الطبقات الدنيا هى صاحبة المشكلة، فاصطدم بأن وجد السابقين ليسوا كلهم من الفقراء الذين لهم مآرب فى مصارعة الأغنياء للحصول على فرص متكافئة.

ومن ثم ركز صراعه وهو عجيب بين الطبقة الوسطى والتى أعلى منها، وهو على حد علمنا كما بينه أصحابه المحدثون لا علاقة له بالصراع الطبقى الذى ينشأ ونشأ على بحث الغربيين فى الصراع فى أوربا. بعد هذه المقدمة نرجع إلى كلامه "وات" نفسه لنناقشه حيث يقول: إن الإسلام لم يستمد قوته من رجال الطبقة السفلى من السلم الاجتماعى، بل من أولئك الذين كانوا فى الطبقة الوسطى، وأدركوا الفارق بينهم وبين أصحاب الامتيازات فى الذروة، فأخذوا يقنعون أنفسهم بأنهم أقل امتيازاً منهم، فنشأ صراع ليس بين المالكين والمعوزين بل بين المالكين والذين أقل منهم.

وهنا نرى"وات"، يحدثنا عن متناقضات، وأمور لم تحدث، وواقع لم نسمع به مخالف على أقل تقدير لما نقله أصحاب السيرة، فضلاً عن مخالفته لدعوة الإسلام ومبادئه أما الأمور التى لم تحدث فهى أن هذه الطبقة المتوسطة أخذت تقنع نفسها بأنها أقل امتيازاً من الأعلى حتى نشأ الصراع، ولم يخبرنا "وات" كعادته بمصدر واحد استقى منه هذه المعلومات، التى لا شك فى انتشارها إذ هى مبادئ الصراع وأفكاره.

ثانياً: أن شباباً من أفضل العائلات فى مكة قد انتمى للإسلام، وخير مثال هو خالد بن سعيد بن العاص هذا كلام "وات" بنصه فما الذى حمل هؤلاء وهم أعلى درجات السلم الاجتماعى على الإسلام؟ وما هو الصراع الطبقى الذى أخذوا يحدثون به أنفسهم؟ بل أين حظ هذا الكلام من واقع ملموس نتشبث به فى وقوع تفكير من ذلك فضلاً عن حدوثه؟ إن الواقع وانتشاره من الأدلة على أن تلك الأحداث لها حظ من الحقيقة كان على "وات" أن يبحث عن الأسباب الكامنة وراء إسلامهم، ليعطى للبحث شيئاً من القيمة والمصداقية، إن الخواء الروحى، والتطلع إلى ما يملأ القلب ويروى هذا الظمأ الروحى القلبى كان السبب المباشر، إذ لا يعقل أن يترك هؤلاء حياة الرفاهية والعلو الاجتماعى والسياسي، ثم بعد ذلك يحاربون لتحصيلها مرة أخرى هذا شيء أشبه بالخيال والعبث واللامعقول.

أما مخالفة مبادئ هذا الدين فتظهر مما يلى:

١- أن الإسلام جاء ليدعو الناس كافة إلى توحيد الله وعبادته، ولا يعدهم بشيء إلا الجنة كما ذكرت السيرة فى مبايعات الرسول ﷺ، ولم يفرق فى الدعوة إلى الإسلام بين فئة وأخرى وهى دعوته إلى أن لقى الله عز وجل، ودخل من دخل فيها وهو يعلم تبعات ذلك ومشقاته كما أشرنا ونشير إن شاء الله تعالى.

٢- أن تفكير المؤمنين وتحركاتهم كل ذلك مرجعه إلى أمر الله تعالى ورسوله، وأن أفكارهم وحياتهم قد صيغت على نحو جديد لا علاقة له بالموروث الجاهلى المخالف، وما كان ليأمر بذلك ويحدده، ويصير صاحبه مسلماً إلا باتباع النبى ﷺ، فأين ذلك فى دينه وجهاده وحياته حتى انتقاله إلى الرفيق الأعلى؟ إن المسلمين لم يكونوا ليفكروا أو ينشئوا شيئاً من بنات أفكارهم أو علاقتهم دون إذنه أو أمره، إن ذلك من "وات" تفريغ الدعوة من ارتباطها بالسماء وأنها وحى يوحى من الله، كما هو دأبه فى دراسة السيرة.

إن ما ظهر من دراسة السيرة فى السنة النبوية والقرآن الكريم كما وضحنا لتظهر القيمة العليا لأولئك الأبرار الأُول الذين لم يكن لهم هم ولا توقع ولا انتظار لدينا حتى يشغلهم صراع طبقى مدعى، أو غيره مما لا يسير إلى نفس الاهداف وبالطريقة التى حددها لهم الله تعالى.

إنما كان شغلهم الدائم هو:﴿فَذَكِّرۡ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٞ﴾ [الغاشية: ٢١]، مهما لاقوا فى سبيل ذلك لا يثنيهم عن المضى فيه شيء، قدوتهم الرسول ﷺ كل ذلك ابتغاء وجه الله الأعلى.

إن قضية الإسلام كانت تعترضها أفكار الملأ وتخوفاتهم على زعامتهم أن تنقل لسيدنا محمد ﷺ عندما يدينون له بالطاعة لله، وهو ما رفضوه اعتباراً لدين آبائهم وتقاليدهم وخشية على مصالحهم وزعامتهم، أما الشباب فلم يكونوا على هذا الفكر، خاصة مع البحث واللهث عن الحق الذى يدينون به والذى لم يجدوه فى يهودية ولا مسيحية وأصنام.

نكتفى بالرد عند هذا الحد على "وات" خاصة، وأن كلامه لن يغير من الواقع والتاريخ شيئاً، ولا هو يزيد علماً ومعرفة وتبيينا لحقائق التاريخ، فهو لا يزيد على قليل من الغبار الاسود الداكن يود أن يحجب به وجه الشمس المشرق، وأن يلوى به أعناق البحث العلمى الصلب المتأبى على التدليس.

المبحث السابع

الجهر بالدعوة

يبدو أن تكتم النبى ﷺ بأمر دعوة الناس إلى الله تعالى، قد انتهى تقريباً بنزول قوله تعالى:﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾ ﴾ [الشعراء: ٢١٤]، إذ خرج ﷺ إلى جبل الصفا، فهتف: يا صباحاه، فقالوا من هذا: فاجتمعوا إليه، فقال: أرأيتم إن أخبرتكم أن خيلاً تخرج من سفح هذا الجبل أكنتم مصدقى؟ قالوا: ما جربنا عليك كذباً، قال: فإنى نذير لكم بين يدى عذاب شديد، فقال أبو لهب: تباً لك، أما جمعتنا إلا لهذا !! ثم قال: فنزلت هذه السورة:﴿ تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ ﴿١﴾ ﴾ [المسد: ١].

وقال أبو هريرة ﷺ: لما أنزلت هذه الآية:﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾ ﴾ [الشعراء: ٢١٤]، دعا رسول الله ﷺ قريشاً فاجتمعوا فعم وخص، فقال: «يا بنى كعب بن لؤى أنقذوا أنفسكم من النار، يا بنى مرة بن كعب أنقذوا أنفسكم من النار، يا بنى عبد شمس أنقذوا أنفسكم من النار، يا بنى عبد مناف أنقذوا أنفسكم من النار، يا بنى هاشم! يا بنى عبد المطلب!...يا فاطمة فإنى لا أملك لكم من الله شيئاً... ».[1]

كانت هذه الصيحة العالية هى غاية البلاغ، فقد فاصل الرسول ﷺ قومه على دعوته،

---

1 - البخارى، فتح البارى(٤٧٧١)، مسلم(٢٠٤)، واللفظ لمسلم، وسيرة ابن اسحاق(١٤٧)، والطبرى، جامع البيان(١٩/ ١٢٠)، وهناك روايات أخرى أنه جمع أهله وأطعمهم إلى اخره.... ولكنها ضعيفة، انظر د. أكرم العمرى(١٤٢-١٤٣)، وإن كان د. مهدى رزق الله له رأى آخر فى بعضها انظر السيرة(١٦٣).

وأوضح لأقرب الناس إليه أن التصديق بهذه الرسالة هو حياة الصلة بينه وبينهم، وأن عصبية القرابة التى يقوم عليها العرب ذابت فى حرارة هذا الإنذار الآتى من عند الله.(١)

ومن الطبيعى أن يبدأ الرسول ﷺ دعوته العلنية بإنذار عشيرته الأقربين، إذ إن مكة بلد توغلت فيه روح القبلية، فبدء الدعوة بالعشيرة قد يعين على نصرته وتأييده وحمايته، كما أن القيام بالدعوة فى مكة لابد أن يكون لها أثر خاص لما لهذا البلد من مركز دينى خطير فجلبها إلى خطيرة الإسلام لا بد أن يكون له وقع كبير على بقية القبائل، على أن هذا لا يعنى أن رسالة الإسلام فى أدوارها الأولى محدودة بقريش، لأن الإسلام اتخذ قريشاً الخطوة الأولى فى دعوته العالمية حيث نص فى أوائل ما نزل على عالميتة﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ ﴿٨٧﴾ ﴾ [ص: ٨٧](٢)، وكان الموقف السلبى لعشيرة الرسول ﷺ، وقريش من الدعوة دليلاً على المصورين له بدعوة القومية العربية، أو الحزب الهاشمى، إذ كان من رؤساء العشيرة أبو طالب وأبو لهب ممن مات على الكفر.(٣)

ثم يشير ترتيب الدعوة بإنذار الأقربين، إلى هذا الأولويات التى ينبغى أن يراعيها الدعاة إلى الله تعالى وكل داع حال دعوته، ودرجات المسؤلية التى تتعلق بكل مسلم خصوصاً وعموماً.(٤)

ونعود إلى إسلام أبى ذر مرة أخرى، حيث قد أسلم ﷺ على التحقيق فى فترة الجهر بالدعوة.

---

1 – فقه السيرة، محمد الغزالى(٩٦-٩٧).

2 – انظر عماد الدين خليل، دراسة فى السيرة(٦٦).

3 – انظر د. مهدى رزق الله، السيرة النبوية(١٦٤).

4 – انظر د. البوطى(٨١).

حيث استدل الحافظ بن حجر بقصة إسلام أبى ذر، واستضافة على بن أبى طالب ﷺ أجمعين إلى كونها بعد المبعث فى سن يتمكن فيها على معرفة الغريب وسؤاله، والحيطة والحذر فى الكلام معه ثم استضافته.

ونذكر الروايات الصحيحة أن أبا ذر ﷺ كان منكراً لحال الجاهلية، يأبى عبادة الأصنام وينكر على من يشرك بالله، وكان يصلى لله قبل إسلامه بثلاث سنوات دون أن يخص قبلة بالتوجه ويبدو أنه كان متأثراً بالأحناف، ولما سمع بالنبى ﷺ قدم إلى مكة، وكره أن يسأل عنه حتى أدركه الليل، فاضطجع فرآه على ﷺ فعرف أنه غريب، فاستضافه ولم يسأله عن شيء، ثم غادره صباحاً إلى المسجد الحرام فمكث حتى أمسى، فرآه على فاستضافه لليلة ثانية، وحدث مثل ذلك فى الليلة الثالثة، ثم سأله عن سبب قدومه، فلما استوثق منه أبو ذر أخبره بأنه يريد مقابلة الرسول ﷺ فقال له على:«فإنه حق وهو رسول الله فإذا أصبحت فاتبعنى، فإنى إن رأيت شيئاً أخاف عليك قمت كأنى أريق الماء فإن مضيت فاتبعنى، فتبعه وقابل الرسول ﷺ، واستمع إلى قوله فأسلم، فقال له النبى ﷺ:« ارجع إلى قومك فأخبرهم حتى يأتيك أمرى، فقال: والذى نفسى بيده لأصرخنَّ بها بين ظهرانيهم؛ فخرج حتى أتى المسجد، فنادى بأعلى صوته، أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، وثار القوم فضربوه حتى أضجعوه»، فأتى العباسُ بن عبد المطلب فحذرهم من انتقام غِفار[1]، والتعرض لتجارتهم التى تمر بديارهم إلى الشام. فأنقذه منهم.

وهذه الرواية تفيد وجود بعض الأحناف فى البوادى، ولعل ما بدا من حذر على ﷺ وما وقع من ضرب قريش لأبى ذر، ومن وصف أنيس أخى أبى ذر الحالة فى مكة عندما

---

1 - البخارى، فتح البارى()، ومسلم الصحيح(١٩٢٣-١٩٢٥)، ورواية عبادة بن الصامت فى صحيح تذهب إلى أن اللقاء الأول بين أبى ذر والرسول ﷺ ثم قرب الكعبة المشرفة بحضور أبى بكر ﷺ.

دخلها قبل دخول أبى ذر، فقال لأخيه: وكن على حذر من أهل مكة فقد شنقوا له وتجهموا.

كل ذلك يفيد إعلان الدعوة والجهر بها، وزيادة المعاناة والاضطهاد للداخلين فى الإسلام.

وهناك قصص أخرى من قصص دخول غير المكيين فى الإسلام تبين بوضوح وتظهر بجلاء الاعلان بالدعوة، والتبعات العظام التى زادت على المؤمنين وعلى من أسلم فى تلك الفترة، كما سنشير إلى أنواع الاضطهاد والأذى فى معاملة المكيين وغيرهم لمن دخل الإسلام فى مكة، وفى قبائلهم.

ودخل الإسلام فى هذه الفترة ضماد – من أزد شنوءة – فقد تم فى مرحلة الجهر بالدعوة، حيث وصف المشركون الرسول ﷺ بالجنون فجاءه ليرقيه من مس الجنون، فسمع من الرسول ﷺ فأسلم.[1]

وكذلك قصة إسلام الطفيل بن عمرو الدوسى، وأنه دعا الرسول ﷺ للالتجاء إلى حصن المنيع، فأبى الرسول ﷺ ذلك[2]. ولابد أن دعوة الطفيل ﷺ، تلك كانت عند اشتداد المقاومة القرشية.[3]

1 – مسلم، الصحيح(٢/ ٥٩٣).

2 – ابن عبد البر، الاستيعاب(٢/ ٢١٦-٢١٧).

3 – د. أكرم العمرى، السيرة النبوية(١٤٦).

المبحث الثامن

معنى الاضطهاد

نزل قوله تعالى: ﴿ فَٱصۡدَعۡ بِمَا تُؤۡمَرُ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴾ [الحجر: ٩٤]، ومازالت أصداء جهره ﷺ بالدعوة تموج بها جنبات مكة المكرمة، وأسرع – عليه الصلاة والسلام – صادعاً بالحق بعد إنذارهم، داعياً إلى هجر الأوثان، مواجهاً للمشركين بحقائق التوحيد، وبفساد الشرك، داحضاً أباطيل الجاهلية مسفهاً عقول المؤمنين بها، التى توارثوها خلفاً عن سلف، وهم مدركون تمام الإدراك لجدواها فى تحقيق مصالحهم الاجتماعية والاقتصادية، الناجمة عن سدنتهم للكعبة بيت إبراهيم عليه السلام، وما يتبع ذلك من حركات البيع والشراء التى من خلالها يجنون أرباحهم ومكانتهم، ما كانوا إذن ليتركوا من الناحية العقيدية تلك الموروثات، التى هى السبب المباشر فى ثرائهم وسيادتهم، ولو أدى ذلك إلى اتخاذ كل الاجراءات القاسية لوقف هذه الدعوة ووأدها.

بدأ أصحاب النفوذ والسطوة والمصالح إذن مجابهة الدعوة، والوقوف فى وجهها بشتى الأساليب، سواء كان فى مواجهة النبى ﷺ الذى يمثل الخطر الداهم عليهم، أو فى مواجهة من آمن ودخل فى الإسلام.(1)

---

1 – د. أكرم العمرى المصدر السابق، د. مهدى رزق الله، السيرة النبوية(١٦٢-١٦٣).

أذى الرسول ﷺ

ونبدأ بما لقى الرسول ﷺ من الأذى ونتبعه بما لاقى الصحابة ﷺ، كل ذلك مما جاءت به السيرة، ثم نرتب أنواع المحاربة، والمواجهات التى قام بها المشركون لإيقاف الدعوة ومجابهتها، ثم نلخص ما ورد فى القرآن الكريم من هذه السيرة، وبعدها نقف مع "وات" لنذكر كلامه فى هذا البحث«الاضطهاد»، لنرى أنه لا يستحق الرد.

أتخذ الأذى صوراً شتى من السب العلنى بكل أساليبه وألفاظه، ومن الضرر المادى.

وهذا الروايات تعتضد لتثبت الوقوع التاريخى للحدث، ويجيء الاثبات القرآنى الجليل ليؤكد صحة ذلك بما لا يدع مجالاً للشك، دون التعرض لكل الجزيئات إذ ذلك ليس من مقصود القرآن الكريم ككتاب هداية ونور.

من هذه الروايات ما جاء عن أم جميل بنت حرب، امرأة أبى لهب أنها أقبلت عندما نزل قوله تعالى:﴿ تَبَّتۡ يَدَآ أَبِي لَهَبٖ وَتَبَّ ۝١ ﴾ [المسد: ١]، وهى تنشد: مُذَممٌ أبينا، ودينه قلينا، وأمره عصيناً، ورسول الله ﷺ جالس فى المسجد ومعه أبو بكر ﷺ فسألت أبا بكر إن كان النبى قد هجاها، فنفى ذلك[1]. وكان رسول الله ﷺ يفرح لأن المشركين يسبون مذمماً يقول:«ألا تعجبون كيف يصرف الله عنى شتم قريش ولعنهم، يشتمون مذمماً وأنا محمد».[2]

ويحكى عبد الله بم مسعود ﷺ وهو أحد شهود هذه القصة فيقول:«بينما رسول الله ﷺ قائم يصلى عند الكعبة، وجمع من قريش فى مجالسهم إذ قال قائل منهم: ألا تنظرون إلى هذا المرائى! أيكم يقوم إلى جزور آل فلان، فيعمد إلى فرسها ودمها وسلاها، فيجيء به ثم

1 - الحميدى، المسند(١/ ١٥٣-١٥٤)، وأبو يعلى، المسند(١/ ١٥٣)، والحاكم، المستدرك(٢/ ٣٦١)، والحديث حسن لغيره، وانظر د. أكرم العمرى، السيرة النبوية هامش(١/ ١٤٧-١٤٨).

2 - البخارى، الصحيح، فتح البارى(٦/).

يمهله حتى إذا سجد وضعه بين كتفيه؟ فانبعث أشقاهم، فلما سجد رسول الله ﷺ وضعه بين كتفيه. وثبت النبى ﷺ ساجداً، فضحكوا حتى مال بعضهم إلى بعض من الضحك. فانطلق منطلق إلى فاطمة رضى الله عنها – وهى جويرية – فأقبلت تسعى، وثبت النبى ﷺ حتى ألقته عنه، وأقبلت عليهم تسبهم، فلما قضى رسول الله ﷺ الصلاة قال: اللهم عليك بقريش، اللهم عليك بقريش، اللهم عليك بقريش».

ثم تسمَّى: اللهم عليك بعمرو بن هشام وعتبة بن ربيعة وشيبة بي ربيعة والوليد بن عتبة وأمية بن خلف وعقبة بن أبى معيط وعمارة بن الوليد، قال عبد الله بن مسعود: فوالله لقد رأيتهم صرعى يوم بدر، ثم سحبوا إلى القليب – قليب بدر – ثم قال رسول الله ﷺ: «وأتبع أصحاب القليب لعنة».[1]

وقد بينت الروايات الصحيحة الأخرى أن الذى رمى الفرث عليه هو عقبة بن أبى معيط، بتحريض من أبى جهل، وأن المشركين تأثروا لدعوة الرسول ﷺ وشق عليهم الأمر لأنهم يرون أن الدعوة بمكة مستجابة.[2]

وقد ثبت أن الرسول ﷺ دعا على قريش لما كذبوه واستعصوا عليه فقال:«اللهم أعنى عليهم بسبع كسبع يوسف، فأخذتهم سنة فخصت كل شيء حتى أكلوا الميتة والجلود، وجعل الرجل يرى بينه وبين السماء دخاناً من الجوع».

فأتى أبو سفيان إلى رسول الله ﷺ فقال: إنك تأمر بطاعة الله، وبصلة الرحم، وإن قومك قد هلكوا فادع الله لهم، وقد أثبت القرآن الكريم هذا الحادث فقال تعالى:﴿ فَٱرۡتَقِبۡ يَوۡمَ تَأۡتِي ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٖ مُّبِينٖ ۝١٠ يَغۡشَى ٱلنَّاسَۖ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٞ ۝١١ رَّبَّنَا ٱكۡشِفۡ عَنَّا ٱلۡعَذَابَ إِنَّا مُؤۡمِنُونَ

1 – رواه البخارى، الصحيح(٢٩٣٤)، ومسلم، الصحيح(١٧٩٤)، وابن اسحاق، السيرة(٢١١).

2 – ابن حجر، فتح البارى(١/ ٣٤٩).

﴿ أَنَّىٰ لَهُمُ ٱلذِّكْرَىٰ وَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾ ثُمَّ تَوَلَّوْاْ عَنْهُ وَقَالُواْ مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ ﴿١٤﴾ إِنَّا كَاشِفُواْ ٱلْعَذَابِ قَلِيلاً إِنَّكُمْ عَآئِدُونَ ﴿١٥﴾ ﴾ [الدخان: ١٠-١٥].

فلما دعا ربه لهم آملاً فى توبتهم عادوا إلى كفرهم ونسوا ما أخذوا على أنفسهم من الإيمان مما حكاه القرآن الكريم عنهم قالوا: ﴿ رَّبَّنَا ٱكْشِفْ عَنَّا ٱلْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ ﴿١٢﴾ ﴾.[1]

ونلاحظ أن دعاءه عليهم ﷺ لم يكن بسبب أذاهم له، وإنما بسبب الإمعان فى التكذيب والوقوف فى وجه إيمان غيرهم فطالما احتمل أذاهم، ولم يَدعُ عليهم، بل دعا لهم بالهداية بما يدل على أعلى مثل فى الصبر، والاحتمال وإن أوذى فى ماله ونفسه وأهله.[2]

وهو الذى تدل عليه سيرته من أنه لما قال له جبريل هذا ملك الجبال لو أردت أن يطبق عليهم الاخشبين لفعل، فأبى لعل الله أن يخرج من أصلابهم من يقول لا إله إلا الله ولئن كان ذلك فى مكة فلقد كان فى المدينة مثالاً أعلى لذلك أيضاً ففى غزوة أحد وقد شج وجهه الكريم وكسرت رباعيته، وهو يقول والدم يسيل على وجهه اللهم اهد قومى فإنهم لا يعلمون، وما كان ليفسر دعاؤه فى الحالة السابقة، إلا بقوله هو ﷺ اللهم أعنى عليهم يعنى أن دعاءه عليهم كان من باب التدليل على قوة الله ونصره، وأنه نبيه وأنه صاحب رسالة منه فكان تصديق الله له بإنزال شيء من العقوبة بهم سبيلاً لتخويفهم حتى يؤمنوا وفعلاً قالوا: ﴿ رَّبَّنَا ٱكْشِفْ عَنَّا ٱلْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ ﴿١٢﴾ ﴾، فكان ذلك كالعون من الله له على دخولهم فى الإسلام برؤيتهم مصداق دعائه.

ونستكمل تلك الصورة الأليمة فيما لاقاه النبى ﷺ يقول ابن حجر فيما صح عن أنس ﷺ قال: «لقد ضربوا رسول الله ﷺ مرة حتى غشى عليه، فقام أبو بكر فجعل ينادى: ويلكم

1 - البخارى، الصحيح()، ومسلم().

2 - ابن حجر، فتح البارى(٢/ ٥١١).

أتقتلون رجلاً أن يقول ربىَ الله؟ فتركوه وأقبلوا على أبى بكر»[1].

إن حرص الرسول ﷺ على الصلاة فى المسجد الحرام أدى إلى الاحتكاك بالمشركين مراراً، وحرصه على إظهار شعائر الإسلام، واحترام الكعبة، ولقاء الناس لأغراض الدعوة، ومن هنا حاول المشركون صده عن تحقيق ذلك بكل أنواع الأذى، ولم ينقطع التهديد باستمرار الأذى ولو وصل إلى القتل، وذلك على لسان زعماء قريش منذ أن بدأت الدعوة العلنية، وكان يشتد ذلك ويتصاعد مع الأيام، ونذكر شيئاً مما وقع له فى تلك الأيام إلى أن اضطر إلى الهجرة فمن ذلك:

ما حدث من أبى جهل عندما قال: هل يعفر محمد وجهه بين أظهركم؟

فقيل: نعم.

فقال: واللات والعزى؛ لئن رأيته يفعل ذلك لأطأن على رقبته، أو لا عفرن وجهه فى التراب، فأتى رسول الله ﷺ، وهو يصلى، زعم ليطأ على رقبته، فما فجئهم منه إلا وهو ينكص على عقبيه ويتقى بيديه. فقيل له: ما لك؟

فقال: إن بينى وبينه لخندقاً من نار وهولاً وأجنحة.

فقال رسول الله ﷺ: لو دنا منى لاختطفته الملائكة عضواً عضواً.

ولقد خلد القرآن الكريم هذا الحدث، فقال تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَيَطۡغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسۡتَغۡنَىٰٓ ۝٧ إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجۡعَىٰٓ ۝٨ أَرَءَيۡتَ ٱلَّذِي يَنۡهَىٰ ۝٩ عَبۡدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ۝١٠﴾ [العلق: ٦-١٠].

وقد ذكروا فى أسباب النزول أن هذه هى المرة التى جاءه أبو جهل فقال: ألم أنهك عن

---

1 - الفتح(٣٨٥٦)، حيث رواه البزار وأبو يعلى.

هذا؟ ألم أنهك عن هذا؟ فانصرف النبى ﷺ بعد أن نَهَرَ أبا جهل وأغلظ له القول، فقال أبو جهل: إنك لتعلم ما بها نادٍ أكثر منى، فأنزل الله تعالى:﴿ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ ﴿١٧﴾ سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ ﴿١٨﴾ ﴾ [العلق: ١٧-١٨].[1]

وقد سأل عروة بن الزبير وعبَد الله بن عمرو بن العاص: أخبرنى بأشد ما صنع المشركون برسول الله ﷺ: قال: بينا رسول الله ﷺ يصلى بفناء الكعبة إذ أقبل عقبة بن أبى معيط، فأخذ بمنكب الرسول ﷺ، ولوى ثوبه فى عنقه، فخنقه خنقاً شديداً، فأقبل أبو بكر فأخذ بمكبه، ودفع عن رسول الله ﷺ، وقال:﴿ أَتَقْتُلُونَ رَجُلاً أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمْ ﴾ [غافر: ٢٨].

وكان رسول الله ﷺ يذكر شيئاً مما لاقاه من أذى قريش فيقول:«لقد أُخفتُ فى الله عز وجل وما يخاف أحد، ولقد أوذيت فى الله وما يؤذى أحد، ولقد أتت علىَّ ثلاثون ما بين يوم وليلة ومالى ولا لبلال طعام يأكله ذو كبد إلا شيء يواريه إبط بلال»[2]

وقد ختم المشركون أذاهم لرسول الله ﷺ بالشروع والاتفاق والإعداد والقيام بالمحاولة بالمحاولة الآثمة لقتله فى أواخر المرحلة المكية مما عجل وكان سبباً مباشراً فى هجرته ﷺ إلى المدينة المنورة.

وإن محاولة قتله عليه الصلاة والسلام لم تقف عند ذلك الاتفاق قبل الهجرة مباشرة، بل وقع من الملأ من قريش قبل ذلك، إذ يحكى ابن عباس رضى الله عنهما تعاهداً على ذلك

---

1 - مسلم (٢١٥٤)، وأحمد، المسند(٢/ ٣٧٠)، والطبرى، التفسير(٣٠/ ٢٥٦)، وانظر كذلك سنن الترمذى (٥/ ٤٤٣/ ٤٤٤)، والالبانى، السلسلة الصحيحة(٣٧٥)، وقال صحيح على شرط مسلم.

2 - أحمد، المسند(٣/ ٢٨٦)، سنن الترمذى وقال: حسن صحيح، وصححه الألبانى فى الجامع(٥٠٠١)، ومشكاه المصابيح(٣/ ١٤٤٦).

تم فى الحجر من الحرم الشريف حيث يقول: «إن الملأ من قريش اجتمعوا فى الحجر، فتعاهدوا باللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى لو قد رأينا محمداً قمنا إليه قيامَ واحدٍ، فلم نفارقه حتى نقتله فأقبلت فاطمة تبكى حتى دخلت على أبيها. فقالت: هؤلاء الملأ من قومك فى الحجر قد تعاهدوا أن لو رأوك قاموا إليك فقتلوك، فليس منهم رجل إلا قد عرف نصيبه من دمك، قال: يا بنية أدنى وَضوءاً، فتوضأ، ثم دخل عليهم المسجد، فلما رأوه قالوا هذا هو، فخفضوا أبصارهم، وعَقِروا فى مجالسهم، فلم يرفعوا إليه أبصارهم، ولم يقم منهم رجل، فأقبل رسول الله ﷺ حتى قام على رءوسهم، فأخذ قبضة من تراب فحصبهم بها وقال: شاهت الوجوه، قال: فما أصابت رجلاً منهم حصاة إلا قد قتل يوم بدر كافراً».[1]

ولزاماً لابد من الإشارة إلى بقية المواجهات، وأساليب الأذى التى أنزلها المشركون بالنبى ﷺ وجابهوه بها، خاصة وقد ذكرها القرآن الكريم بشيء من التفصيل، كل ذلك قبل أن نبين الاضطهاد الذى حل كذلك بالمؤمنين.

وإننا نخوض بعض الشيء فى تفاصيل ذلك، حتى يكون الدليل الساطع فى الرد على "وات"، فى منهجه وآرائه فى قضية الاضطهاد.

ومن أبرز تلك الأساليب:

١ - كان لجؤوهم إلى إبى طالب ليكف النبى ﷺ عن دعوته، أو رفع يده عن حمايته ونصره حيث ذهبت مجموعة من أشرافهم إلى عمه بتلك المطالب، أو أن ينازلوه وإياه حتى يهلك أحد الفريقين، فكفى ما أتى به من سب آلهتهم، وعيب دينهم وتسفيه أحلامهم، وتضليل آبائهم وإن أبا طالب أرسل عقيلاً - ابن أبى طالب - إلى النبى ﷺ فلما حضر قال له عمه: إن بنى عمك هؤلاء قد زعموا أنك تؤذيهم فى ناديهم ومسجدهم، فانته

---

1 - أحمد، المسند(١/ ٣٠٣-٣٦٨)، بإسنادين صحيحين كما قال أحمد شاكر فى حاشية المسند.

عن أذاهم، فحلق رسول الله ﷺ ببصره إلى السماء، فقال: أترون هذه الشمس؟ قالوا: نعم، قال: فما أنا بأقدر على أن أدع ذلك منكم على أن تستشعلوا منها شعلة، فقال أبو طالب: والله ما كذبنا ابن أخى فارجعوا.

وإن المتأمل فى هذا الموقف ليعلم أمرين:

الأول: عدم تردد أو نكوص أصحاب الدعوة عما أمروا به، وأنهم يجب أن يمضوا فى القيام بواجب البلاغ مهما تحملوا فى سبيله، مستمسكين بذلك، بل إن تركهم ذلك لمن المستحيلات التى لا يمكن أن تكون إلا أن يشاء الله أمراً كان مفعولاً.

الثانى: أن تراتيب حماية ونصرة الدعوة لبيد الله جل وعلا، وتقع من حيث لا يحتسب الدعاة والمصلحون، فهذا الموقف من أبى طالب وهو كافر قد استخدمه الله فيه للذود عن النبى ﷺ وإنها من حكم الله البديعة إذ لو كان مسلماً لنازله الكفار ولآذوه مع النبى ﷺ، وما كان ليكون له من جاه وهيبة واحترام، وإنما كانوا سيتجرأون عليه، ويبسطوا إليه أيديهم والسنتهم بأسوأ السوء.

٢- الاتهامات الباطلة لصد الناس عنه:

ومن هذه الاتهامات:

- الجنون، وفى ذلك نزل قول الله تعالى:﴿ وَقَالُواْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلذِّكۡرُ إِنَّكَ لَمَجۡنُونٞ ﴿٦﴾ ﴾ [الحجر: ٦]، وقوله تعالى:﴿ وَيَقُولُونَ إِنَّهُۥ لَمَجۡنُونٞ ﴿٥١﴾ ﴾ [القلم: ٥١]، وقد رد عليهم بقوله سبحانه:﴿ مَآ أَنتَ بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ بِمَجۡنُونٖ ﴿٢﴾ وَإِنَّ لَكَ لَأَجۡرًا غَيۡرَ مَمۡنُونٖ ﴿٣﴾ ﴾ [القلم: ٢-٣]، حيث بيناه من قبل.
- السحر والكذب، وقد ذكر ذلك القرآن الكريم فى ضمن ما كادوا به النبى ﷺ فقال

تعالى:﴿ وَعَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ ۖ وَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٤﴾ ﴾ [ص: ٤]، ﴿ وَقَالَ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿٨﴾ ﴾ [الفرقان: ٨]، وقد قال الوليد بن المغيرة، عندما جاء موسم الحج للملأ من قريش الذين سيقومون بصد الناس عن دعوة الرسول ﷺ:«يا معشر قريش، إنه قد حضر هذا الموسم، وإن وفود العرب ستقدم عليكم فيه، وقد سمعوا بأمر صاحبكم هذا، فأجمعوا فيه رأياً واحداً ولا تختلفوا فيكذب بعضكم بعضاً.....»، ومع أنه هو نفسه قد أكد لهم أن محمداً ﷺ ليس ساحراً ولا مجنوناً ولا كاهناً ولا شاعراً، إلا إنه ارتضى لنفسه ولهم أن يقولوا إنه ساحر ألا ترون كيف يفرق بين المرء وزوجه والولد ووالده وتفرقوا على هذا القول، وأخذوا يتلقون الناس يحذرونهم من أمر الرسول ﷺ، ومع ذلك شاءت إرادة الله أن ينشر ذكره في بلاد العرب بسبب من ذلك.[1]

وأما اتهامه بالكذب فقد قال الله تعالى عنه:﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ ٱفْتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ ﴾ [الفرقان: ٤].

- واتهموه بالإتيان بالأساطير قال تعالى:﴿ وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٥﴾ ﴾ [الفرقان: ٥].
- واتهموه بأن القرآن من عند البشر، وأن الله لم ينزل عليه شيئاً، فقال تعالى:﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ ۗ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ﴿١٠٣﴾ ﴾ [النحل: ١٠٣]، وقال أيضاً:﴿ وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ ﴾ [الأنعام: ٩١].

٣- السخرية والاستهزاء والضحك والهمز واللمز والتعالي على المؤمنين، لم يقف

1 - ابن هشام، السيرة النبوية(١/ ١٧٢-١٧٣).

المشركون عند حد فى سوء تعاملهم مع النبى ﷺ والمؤمنين، فأخذوا فى أسلوب آخر يواجهون به المؤمنين، ويثبطونهم به عن الدعوة إلى الله تعالى، وشغلهم بشحن نفوسهم بالضيق والحزن عن مواصلة البلاغ المبين، وفى ذلك يقول المولى سبحانه وتعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٥٣﴾ ﴾ [الأنعام: ٥٣]، وقال ذاكراً لمزهم موبخاً لهم عليه: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُواْ كَانُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَضْحَكُونَ ﴿٢٩﴾ وَإِذَا مَرُّواْ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾ [المطففين: ٢٩-٣٠].

وثبت من طرق صحيحة أن أشراف قريش اجتمعوا يوماً فى الحجر يتذاكرون أمر الرسول ﷺ وما جاء به، وبينما هم فى ذلك إذ طلع عليهم رسول الله ﷺ ليطوف بالبيت. فلما رأوه غمزوه ببعض القول ثلاث مرات، فقال لهم: «يا معشر قريش، أما والذى نفسى بيده لقد جئتكم بالذبح.....»[١]، وقد فزعوا من هذا الموقف.

وكان من سخريتهم كذلك واستهزائهم ما قص القرآن الكريم فى قوله: ﴿ وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا ﴿٤١﴾ ﴾ [الفرقان: ٤١].

وقد مَرَّ ﷺ يوماً بجماعة من زعماء قريش فهمزوه، واستهزأوا به، فغاظه ذلك، فأنزل الله عز وجل: ﴿ وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُواْ مِنْهُم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١٠﴾ ﴾ [الأنعام: ١٠].[٢]

وروى البخارى أن امرأة قالت للرسول ﷺ ساخرة مستهزأة: إنى لأرجو أن يكون شيطانك قد تركك، لم أره قربك منذ ليلتين أو ثلاثاً. فأنزل الله تعالى: ﴿ وَٱلضُّحَىٰ ﴿١﴾ وَٱلَّيْلِ إِذَا

---

1 - أحمد، المسند، الفتح البارى(٢٠/ ٢١٩-٢٢٠)، وصحح شاكر إسناده، وابن أبى شيبة، المصنف(١٤/ ٢٩٧)، وابن اسحاق باسناد حسن، ابن هشام(١/ ١٨٥-١٨٦)، وذكره الألبانى فى صحيح السيرة(١٤٨-١٤٩).

2 - ذكره ابن اسحاق، ابن هشام(٢/ ٤٢)، وذكره السيوطى فى الدر المنثور(٣/ ٥).

سَجَىٰ ۝ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝﴾ [الضحى: ١-٣].[1]

وقد نزل قوله تعالى:﴿ إِنَّا كَفَيْنَٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ ۝﴾ [الحجر: ٩٥]، لتدل على وجود هؤلاء المستهزئين، وشدة استهزائهم وأذاهم، بدليل ما فعل الله تعالى بهم، وكان فعله – سبحانه – بهم تسلية للنبى ﷺ وتقوية لعزمه.

وكان من هؤلاء المستهزئين رؤوس الكفر وأئمة الضلال، فأرسل الله سبحانه عليهم جبريلَ عليه السلام، بأنواع العقوبات، حيث أبادهم وقطع دابرهم، بأن عاقبهم عقوبات شديدة فى أبدانهم، ليكونوا عبرة لغيرهم، ويكفى نزول القرآن الكريم بذلك المعنى، وهؤلاء المجرمون هم: الأسود بن عبد المطلب بن أسد، والأسود بن عبد يغوث الزهرى، والوليد بن المغيرة المخزومى، والعاص بن وائل السهمى، والحارث ابن عيطل السهمى[2].

وكان من كبار المستهزئين أبو جهل، وروى عنه البخارى أنه قال مستهزئاً: «اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم.»[3]

واستكمالاً للسخرية والاستهزاء المنبنية على التعالى والكبر، قال المشركون للنبى ﷺ: لا نرضى بمجالسة أمثال هؤلاء، يعنون صهيباً وبلالاً وخباباً فاطردهم عنك، فهم النبى ﷺ بذلك طمعاً فى إسلامهم وإسلام قومهم، فأنزل الله تعالى:﴿ وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن

1 – البخارى(٤٩٥٠)، وانظر ابن حجر، فتح البارى(١٨/).

2 – أبو نعيم فى الدلائل(١/ ٢٦٨)، من رواية ابن اسحاق بإسناد حسن مرسلاً. وأما قصة عقوباتهم فقد رواها أبو نعيم، الدلائل(١/ ٢٦٨-٢٦٩)، وقال المحققان أخرجه ابن اسحاق فى السيرة(١/ ٤١٠)، ورجاله ثقات ولكنه مرسل، وقال السيوطى، الخصائص(١/ ٣٦٥)، أخرجه البيهقى وأبو نعيم عن ابن عباس رضى الله عنهما.

3 – البخارى، الفتح(٧/ ١٨٥)،(٤٦٤٨).

شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٢﴾﴾ [الأنعام: ٥٢].[1]

سب القرآن ومنزله ومن جاء به والتشويش عليه:

ثبت عن ابن عباس – رضي الله عنهما – قوله في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا﴾ [الإسراء: ١١٠]، أنها نزلت ورسول الله ﷺ مختف بمكة، وكان إذا صلى بأصحابه رفع صوته بالقرآن فإذا سمعه المشركون سبوا القرآن ومن أنزله ومن جاء به، فقال الله تعالى لنبيه محمد ﷺ: ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ﴾، أى بقراءتك فيسمع المشركون فيسبوا القرآن.[2]

وزيادة على ذلك، نهى الله المسلمين أن يسبوا أصنام المشركين لئلا يكون ذريعة لهم فيسبوا الله تعالى اعتداء وجهلاً فقال:﴿ وَلَا تَسُبُّوا۟ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّوا۟ ٱللَّهَ عَدْوًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [الأنعام: ١٠٨].

وكان المشركون مع ذلك يتواصون بافتعال الضجة العالية، والصياح المنكر عند قراءة القرآن الكريم، منعاً لسماع الناس له، أو لوصول الهدى إلى أحدٍ عندما كان الرسول ﷺ يقوم بتبليغ دعوة الله تعالى، وفى ذلك نزل قوله سبحانه واصفاً تلك الحالة المنكرة والتواصى بها: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [فصلت: ٢٦].[3]

أسلوب المساومات والترغيب والترهيب:

وكان من أساليب قريش فى صد الدعوة، ومجابهة النبى ﷺ،أسلوب المساومة ، ولم يكن

1 – مسلم والنسائى، من سعد بن أبو وقاص وانظر تفسير الآية فى ابن كثير والقرطبى وغيرهما، وقد جمع الطبرى الآثار الواردة فى أسباب النزول وحققها أحمد شاكر، وانظر د. مهدى رزق الله، السيرة(١٧١).

2 – البخارى(٤٧٢٢)، مسلم(١/ ٣٢٩)،(١٤٥).

3 – انظر ابن الجوزى، زاد المسير(٧/ ٢٥٢).

ذلك إلا لترك الدعوة كما ظنوا فى نهاية المطاف، سواء فى أن يسكت النبى ﷺ عن آلهتهم، وكذلك هم يسكتون عنه، كما فى قوله تعالى:﴿ وَدُّواْ لَوۡ تُدۡهِنُ فَيُدۡهِنُونَ ۝ ﴾ [القلم: ٩]، أو بأن يعبدوا إلاهه يوماً، ويعبد آلهتهم يوماً، كما فى قوله تعالى واصفاً هذا العرض ناهياً عن ذلك:﴿ قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡكَٰفِرُونَ ۝ لَآ أَعۡبُدُ مَا تَعۡبُدُونَ ۝ وَلَآ أَنتُمۡ عَٰبِدُونَ مَآ أَعۡبُدُ ۝ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٞ مَّا عَبَدتُّمۡ ۝ وَلَآ أَنتُمۡ عَٰبِدُونَ مَآ أَعۡبُدُ ۝ لَكُمۡ دِينُكُمۡ وَلِيَ دِينِ ۝ ﴾ [الكافرون: ١-٦].[1]

وعندما اشتكى أبوطالب وزاد ثقله، قال كفار قريش لقد أسلم حمزة وعمر، وفشا أمر محمد ﷺ فى القبائل، فانطلقوا بنا إلى أبى طالب، ليأخذ لنا على ابن أخيه، وليعطه منا، فإنا والله لا نأمن أن يبتزونا أمرنا، وعندما جاء وفدهم إلى أبى طالب قال للنبى ﷺ: «يابن أخى هؤلاء أشراف قومك قد اجتمعوا إليك ليعطوك وليأخذوا منك، فقال رسول الله ﷺ نعم كلمة واحدة يعطونيها يملكون بها العرب وتدين لهم بها العجم. وفى رواية: تدين لهم بها العرب وتؤدى إليهم بها العجم الجزية، ففزعوا لكلمته ولقوله. فقال القوم: كلمة واحدة؟ قال: نعم. فقال أبو جهل: نعم وأبيك عشر كلمات، قال: تقولون لا إله إلا الله وتخلعون ما تعبدون من دون الله. فصفقوا بأيديهم ثم قالوا: يا محمد تريد أن تجعل الآلهه آلهاً واحداً؟ إن أمرك لعجب. ثم قال بعضهم لبعض: ما هذا الرجل بمعطيكم شيئاً مما تريدون، فانطلقوا وامضوا على دينكم حتى يحكم الله بينكم وبينهم، ثم تفرقوا، فأنزل الله فيهم أول سورة «ص» [2]. أما أسلوب الترغيب، فقد استخدمته قريش لإثناء النبى ﷺ عن دعوته، ومن ذلك أنها أرسلت عتبة بن ربيعة للرسول ﷺ فقال له: يا ابن أخى إنك منا حيث قد علمت من

1 - ابن كثير، التفسير(٤/ ٥٦٠)، وغيره.

2 - أحمد، المسند(٣/ ٣١٤-٣١٥)، صحح شاكر إسناده، والترمذى، السنن(٣٢٣٠)، قال: حسن صحيح، والحاكم، المستدرك(٢/ ٤٣٢)، وصححه ووافقه الذهبى، والطبرى، جامع البيان(٢٣/ ١٢٥)، والواحدى، أسباب النزول(٢٠٩)، والسيوطى، الدر المنثور(٥/ ٢٩٥)، وغيرهم.

المكان فى النسب، وقد أتيت قومك بأمر عظيم فرقت به جماعتهم، فاسمع منى أعرض عليك أموراً لعلك تقبل بعضها: إن كنت إنما تريد بهذا الأمر مالاً جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالاً، وإن كنت تريد شرفاً سودناك علينا فلا نقطع أمراً دونك، وإن كنت تريد ملكاً ملكناك علينا، وإن كان هذا الذى يأتيك رئياً تراه لا تستطيع رده عن نفسك طلبنا لك الطب، وبذلنا فيه أموالنا حتى تبرأ.»

فلما فرغ من قوله تلا رسول الله ﷺ صدر سورة «فصلت» إلى قوله تعالى:﴿ فَإِنْ أَعْرَضُواْ فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَـٰعِقَةً مِّثْلَ صَـٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴾ [فصلت: ١٣]، وعندها وضع عتبة يده على فيه، وقام كأن الصواعق ستلاحقه، وعاد إلى قريش مخبراً إياهم، بأن ما سمع ليس شعراً، ولا سحراً، ولا كهانة؛ واقترح على قريش أن تدع محمداً ﷺ وشأنه[١].

ولما لم يأت الترغيب بما اشتهت قريش، وما كان؛ - فتلك دعوة الله تعالى، لا يسألهم النبى ﷺ هم ولا غيرهم عليها أجراً؛ وإنما هو يدعوهم إلى هدايتهم ونجاتهم -؛ لجأت قريش حينئذ إلى الترهيب، واستخدمت فيه كل الوسائل الصادة عن سبيل الله، وقد أشرنا إلى أساليب منها.

وقد ذكر ابن اسحاق فيما ذكر ابن هشام، أن أبا جهل إذا سمع عن رجل قد أسلم، وله شرف ومنعة، أنبه وأخزاه وقال له: «تركت دين أبيك وهوخير منك لنسفهن حلمك، ولنضعفن رأيك ولنضعن شرفك.» وإن كان تاجراً قال له: ولنكسدن تجارتك، ولنهلكن مالك. وإن كان ضعيفاً ضربه وأغرى به.[٢]

1 - ابن هشام، السيرة النبوية (١/ ١٨٧ - ١٨٨)، عبد بن حميد، المنتخب من المسند بتحقيق السامرائي والصعيدي (٣٣٧)،(١١٢٣)، بإسناد متصل، وحسن الألبانى الحديث، فقه السيرة للغزالى(١٠٨).

2 - ابن اسحاق، ابن هشام، السيرة النبوية(١/ ٣٢٠).

طلبهم المعجزات أو المزايا للنبى ﷺ على خلاف البشر:

ومما ظنوا أنه حجر عثرة أمام دعوة النبى ﷺ يكذبونه به، ويشوشون به على الناس لئلا يؤمنوا أن يظهروا الرسول ﷺ بمظهر العاجز عن أن يأتى لهم بها يقدر عليه الرب من خوارق العادات، مما يدل على أنه ليس مبلغاً عن الله تعالى، مع أنه لما جاءهم بشيء من ذلك، أجراه الله تعالى على يديه، قالوا مكذبين: «إن هذا إلا سحر يؤثر».

ومن ذلك قولهم:﴿ وَقَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلاً ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ ﴾ [الإسراء: ٩٠-٩٣].

ورد عليهم سبحانه وتعالى فى الأيه نفسها بأن يقول لهم:﴿ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولاً ﴾ [الإسراء: ٩٣].

وسألوه أن يسير لهم جبال مكة، ويقطع لهم الأرض ليزرعوها، ويبعث لهم من مضى من الآباء الموتى أمثال قصى ليسألوه عن صدق محمد، ورد الله عليهمفى قوله:﴿ وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ ۗ بَل لِّلَّهِ ٱلْأَمْرُ جَمِيعًا ﴾ [الرعد: ٣١].[1]

لقد كانت مطلوباتهم تلك على وجه المعاندة، لا الاستفسار والهداية إن هى وقعت بحيث يتم إيمانهم ودخولهم فى الإسلام بتحققها، ومن ثم لم يجابوا إلى كثير منها، وما أجيبوا إليه ليس لتركهم العناد، بل لإظهار صدق النبى ﷺ وقوة الله وقدرته جل وعلا من ناحية

---

[1] - انظر الطبرى، جامع البيان (١٦/ ٤٤٦-٤٥٠)، أحمد شاكر إلى ابن عباس، وابن هشام، السيرة(١/ ٣٨١)، وانظر الشامى، سبل الهدى والرشاد (٢/ ٤٥٦-٤٥٧)، من خبر أبى يعلى، وأبى نعيم عن الزبير بن العوام، وانظر فى السبل(٢/ ٤٥٢)، من رواية ابن اسحاق وابن جرير والبيهقى.

ولتحذيرهم من الاستمرار فى الغى والاضطهاد من ناحية أخرى، وهو المؤدى إلى إهلاكهم كإهلاك من كانوا أشد منهم قوة وبطشاً. لذلك قال تعالى:﴿ وَأَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَـٰنِهِمْ لَئِن جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا ۚ قُلْ إِنَّمَا ٱلْـَٔايَـٰتُ عِندَ ٱللَّهِ ۖ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٩﴾ وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَـٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُواْ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَـٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١٠﴾ ۞ وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَىْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُواْ لِيُؤْمِنُوٓاْ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ ﴿١١١﴾﴾ [الأنعام: ١٠٩-١١١].

﴿ وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْـَٔايَـٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ ﴾[1] [الإسراء: ٥٩].

وقد روى الإمام أحمد كذلك من حديث ابن عباس ﷺ قال: سأل أهل مكة رسول الله ﷺ أن يجعل لهم الصفا ذهباً، وأن ينحى عنهم الجبال فيزدرعوا، فقيل له إن شئت أن تستأنى بهم وإن شئت أن تؤتيهم الذى سألوا فإن كفروا هلكوا كما أهلكت من قبلهم من الأمم. قال:« لا با استأنى بهم»، فأنزل الله تعالى:﴿ وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْـَٔايَـٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ ۚ وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُواْ بِهَا ﴾[2] [الإسراء: ٥٩].

الاعتداء والتعذيب والاضطهاد لبقية المسلمين:

إذا كان ما مضى ذكره شيء مما حدث للنبى ﷺ، فإن بقية المسلمين ذاقوا من ذلك الأمرين، وقد ذكرت السيرة شيئاً مما كان نذكر بعضه لنكمل به هذا البحث، ولننظر إلى كلام "وات"، المتهافت بعد ذلك.

---

1 - انظر ابن كثير، البداية والنهاية(٣/ ٥٥).

2 - انظر أحمد، المسند وعليه الفتح الربانى للساعاتى(٢٠/ ٢٢٢-٢٢٣)، من طريقين رواهما ابن كثير فى البداية والنهاية(٣/ ٥٧)، بإسناد جيد، وهكذا رواه النسائى من حديث جرير، وأورده ابن كثير فى تفسير الآية، ورواه الحاكم فى المستدرك وقال صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه ووافقه الذهبى وذكر الشامى فى سبل الهدى والرشاد(٢/ ٤٥٨)، انه رواه أيضاً الضياء فى صحيحه عن ابن عباس.

روى أحمد عن ابن مسعود قال:« أول من أظهر الإسلام سبعة: رسول الله ﷺ وأبو بكر وعمار وأمه سمية وصهيب وبلال والمقداد، فأما رسول الله ﷺ فمنعه الله بعمه، وأما أبو بكر فمنعه الله بقومه، وأما سائرهم فأخذهم المشركون فالبسوهم أدرع الحديد وصهروهم فى الشمس...».[1]

وروى ابن اسحاق فى قصة هجرة عمر وقصة عياش معه أن قريشاً منعت هشام بن العاص بن وائل السهمى من الهجرة مع عمر وعياش، وفتنته فافتتن، واحتالوا على عياش فردوه من المدينة إلى مكة مقيداً.[2]

وكان عمر بن الخطاب قبل أن يسلم يوثق سعيد بن زيد، ابن عمه، ويكرهه ليرجع عن الإسلام[3]، ولم يستطع رسول الله ﷺ أن يفعل لهم شيئاً، وحتى عندما استقر بالمدينة لم يملك لهؤلاء إلا الدعاء، حيث كان يقول:«اللهم اشدد وطأتك على مضر واجعلها عليهم سنين كسنى يوسف».[4]

ونال أبا بكر نصيبُه من الأذى حتى خرج مهاجراً فأدركه الاخنس بن شريف ورده فى جواره.

وذات يوم قام أبو بكر خطيباً فى المسجد الحرام، فضربه المشركون ضرباً شديداً، ومن ضربه عتبة بن ربيعة حيث جعل يضربه على وجهه بنعلين مخصوفتين حتى ما يعرف وجهه من أنفه وجاء بنو تيم يتعادون، فأجلت المشركين عن أبى بكر، وحملوه فى ثوب إلى منزله،

---

1 – انظر وصى الله على فضائل الصحابة للإمام أحمد(١/ ١٨٢)، بإسناد حسن.

2 – ابن هشام، السيرة(١/)، عن ابن اسحاق بإسناد حسن، ورواه البزار ورجاله ثقات، مجمع الزوائد للهيثمى(٦/ ٦٢)، البيهقى، الدلائل(٢/ ٤٦١-٤٦٢)، والسنن الكبرى(٩/ ١٣-١٤)، من طريق ابن اسحاق.

3 – البخارى، الصحيح(ح ٣٨٦٢).

4 – أحمد، المسند(ح ٧٢٥٩)، قال شاكر إسناده صحيح، ورواه البخارى()، ومسلم(ح ٦٧٥).

ولا يشكون فى موته، وأقسموا لئن مات أبو بكر ليقتلن عتبة بن ربيعة.[1]

وكان ابن مسعود من أول من جهر بالقرآن بعد رسول الله ﷺ بمكة؛ على الرغم من تحذير المسلمين له من عدوان المشركين، وخشيتهم عليه، فعندما فعل ذلك، ضربوه على وجهه حتى أثروا فيه، وعندما قال له الصحابة هذا الذى خشينا عليك، قال: ما كان أعداء الله أهون منهم الآن، ولئن شئتم لأغادينهم بمثلها غداً، قالوا: لا حسبك قد أسمعتهم ما يكرهون.[2]

وكان عم عثمان بن عفان يلفه فى حصير من أوراق النخيل ثم يدخنه من تحته حتى يرجع عن دينه.[3]

ولما علمت أم مصعب بن عمير بإسلامه أجاعته وأخرجته من بيته، وكان من أنعم الناس عيشاً، فتخشف جلده تخشف الحية، وحتى حمله أصحابه على قسيهم لشدة ما به من جهه.[4]

واعتدوا عَلَىَ عمر بن الخطاب عندما أسلم، وحاولوا قتله إذ سال بهم الوادى مجتمعين يقاتلونه ويقاتلهم حتى أعيا وترك نفسه لهم، وانقذه الله بالعاص بن وائل السهمى وسوف يأتى ذكر إسلام عمر بن الخطاب إن شاء الله تعالى فى موضعه بعد الهجرة إلى الحبشة إن أدركه البحث.[5]

وممن أوذى عثمان بن مظعون، فقد روى أنه عندما رجع من الهجرة الأولى إلى الحبشة دخل فى جوار الوليد بن المغيرة، فلما رأى المشركين يؤذون المسلمين وهو آمن، رد جوار الوليد وعندما قدم«لبيد» بن ربيعة - الشاعر - إلى مكة وكان فى مجلس لقريش ينشدهم

---

1 - انظر ابن كثير، البداية والنهاية حيث ذكر القصة كلها(٣/ ٣٣-٣٤).

2 - ابن اسحاق بسند حسن مرسل، ابن هشام(١/ ٢٨٨)، ورواه كذلك فى السير والمغازى(١٨٦).

3 - المنصورفورى، رحمة العالمين(١/ ٥٢)، الرحيق المختوم، للمباركفورى().

4 - ابن اسحاق، السيرة(١٩٣)، بسند معضل، انظر د. مهدى رزق الله، السيرة النبوية(١٨٣).

5 - يأتى ذكر إسلام عمر ﷺ، من رواية ابن اسحاق، ابن هشام(١/)، وإسناده حسن.

شعره، قال لبيد:«ألا كل شيء ما خلا الله باطل»، قال عثمان بن مظعون: «صدقت»، وعندما قال:«وكل نعيم لا محالة زائل»، قال له عثمان:«كذبت، نعيم الجنة لا يزول»، قال لبيد:«يا معشر قريش، والله ما كان يؤذى جليسكم فمتى حدث هذا فيكم؟»، فقال رجل من القوم:«إن هذا أيضاً فى سفهاء معه، قد فارقوا ديننا، فلا تجدن فى نفسك من قوله، فرد عليه عثمان حتى تفاقم أمرهما فقام إليه ذلك الرجل، فلطم عينه فخضرها، والوليد بن المغيرة قريب يرى ما بلغ من عثمان، فقال:«أما والله يا ابن أخى إن كانت عينك عما أصابت لغنية، لقد كنت فى ذمة منيعة»، قال عثمان:«بل والله إن عينى الصحيحة لفقيرة إلى مثل ما أصاب أختها فى الله، وإنى لفى جوار من هو أعز منك وأقدر يا أبا عبد شمس»، فقال الوليد:«هلم يا ابن أخى، إن شئت فعد إلى جوارك»، فقال:«لا».[1]

وكان عم الزبير بن العوام يعلقه فى حصير، ويدخن عليه النار، ويقول:«ارجع إلى الكفر، فيقول الزبير: لا أكفر أبداً.»[2]

ولم يقتصر هذا الاضطهاد، كما يظن الظان أو يتبادر إلى فهمه على أهل مكة فقط، بل هذا أبو ذر الغفارى ﷺ لما سمع خبر الرسول ﷺ، ودخل مكة وأخذ يسأل حتى عرف موضع الرسول – صلوات الله وسلامه عليه – وأسلم فخرج وأعلن إسلامه فضربه أهل مكة حتى أغشى عليه، وكاد أن يموت، فخلصه العباس ﷺ منهم[3]، محذراً لهم بأن غفار يمكن أن تقطع طريق تجارتهم إلى الشام.

---

1 – الحديث روى من طرق ضعيفة، تدل على أن للقصة أصلاً، خاصة وقد ذكرها الإخباريون، موافقة منهجهم فقد رواها ابن اسحاق، ابن هشام(٢/ ١٠-١٢)، والبيهقى فى الدلائل(٢/ ٢٩٢-٢٩٣)، والطبرانى فى الكبير(٩/ ٢١-٢٤)، ونقله عنه الهيثمى فى مجمع الزوائد(٦/ ٣٢-٣٤).

2 – الحاكم فى المستدرك(٣/ ٣٦٠)، وسكتا عنه، وأبو نعيم فى الحلية(١/ ٨٩)، بإسناد مرسل رجاله ثقات.

3 – وهذا طرف ذكره البخارى(ح ٣٥٢٢)، ومسلم(ح ٢٤٧٣-٢٤٧٤)، فى إسلام إبى ذر .

ولا يحسب القارىء أن هذا التعذيب قد اقتصر على ما ذكر، وأن كل أحد أخذ قسطه وانتهى الأمر، ورجع إلى حياته ودعوته، كلا ولكن التعذيب بقى ما بقيت الدعوة فى مكة، بل كان يزداد ويتنوع على نفس الأشخاص وعلى غيرهم كلما دعوا أفراداً جدداً إلى الإسلام، وكلما رأى المشركون ازدياد عدد المسلمين، حتى آل الحال بهم إلى ترك مكة والهجرة إلى الحبشة، أو التخفى أو الدخول فى جوار الكفرة.

تعذيب الموالى:

لقد نال الموالى القسط الأقسى والأفظع من التعذيب علانية على رؤوس الأشهاد، حيث صب المشركون جام حقدهم كله على هؤلاء الضعفاء لعدم المنعة التى تمنعهم، أو القوة التى يقاومون بها.

وقد وصل الحال بهم فى التعذيب أن عذرهم الله تعالى بالنطق بكلمة الكفر يخففون بها عن أنفسهم سوء العذاب النازل عليهم.

قال سعيد بن جبير لابن عباس:«أكان المشركون يبلغون من أصحاب رسول الله ﷺ من العذاب ما يعذرون به فى ترك دينهم؟ قال:«نعم والله، إن كانوا ليضربون أحدهم ويجوعونه ويعطشونه حتى ما يقدر أن يستوى جالساً من شدة الضرب الذى نزل به، حتى يعطيهم ما سألوه من الفتنة، حتى يقولوا له: اللات والعزى إلهك من دون الله؟ فيقول: نعم، افتداء منهم مما يبلغون من جهده.»»[1]

وقد ذكرنا حديث ابن مسعود أن أول من أظهر الإسلام سبعة إلى قوله فأما الباقون فالبسوهم أدرع الحديد وصهروهم فى الشمس وتكملته، فما منهم من أحد إلا واتاهم على ما أرادوا، إلا بلالاً فإنه هانت عليه نفسه فى الله تعالى،وهان على قومه، فأخذوه فأعطوه

1 - ابن اسحاق، ابن هشام، السيرة(١/)، وابن كثير، البداية والنهاية(٣/ ٦٥).

الولدان، فجعلوا يطوفون به فى شعاب مكة، وهو يقول: أحد أحد.(1)

آل ياســـر رضي الله عنهم:

كانت تلك الأسرة مضرب المثل فيما لاقاه المستضعفون من الأذى والابتلاء فى تاريخ الإسلام، وكان بنو مخزوم يخرجون بهم إذا حميت الظهيرة فيعذبونهم برمضاء مكة، ومر بهم الرسول ﷺ ذات مرة وهم يعذبون فقال لهم: «أبشروا آل عمار وآل ياسر، فإن موعدكم الجنة.»(2)

وكان أول من استشهد فى سبيل الله من هذه الأسرة خاصة، وفى الإسلام عامة: أم عمار – سمية – فقد طعنها أبو جهل بحربة فى قلبها فماتت من جراء هذا الاعتداء الآثم.(3)

وتفننوا فى أذى عمار، حتى أجبروه على أن يتلفظ بكلمة الكفر بلسانه، وذكر جمهور المفسرين أن من أسباب نزول الآية الكريمة: ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَـٰنِ ......﴾ [النحل: ١٠٦]، هو موقف عمار بن ياسر.(4)

بــــلال رضي الله عنه:

كان مولى لبعض بنى جمح، وهو بلال ابن رباح، وأمه حمامة، ذكر أنه كان حبشياً وهو المشهور.(5)

1 – أحمد، المسند(ح ٣٨٣٢/ شاكر)، وقال شاكر: إسناده صحيح، وذكره الذهبى فى السيرة(٢١٧-٢١٨)، وقال: حديث صحيح، وابن ماجه(١/ ٣٠)، الالبانى وحسنه، وابن كثير، البداية والنهاية(٣/ ٦٤)، وغيرها من المصادر.

2 – أخرجه الحاكم فى المستدرك(٣/ ٣٨٨)، وقال صحيح على شرط مسلم ووافقه الذهبى، وابن هشام، السيرة (١/)، وقال الالبانى: حسن صحيح، فقه السيرة للغزالى(١٠٧-١٠٨).

3 – انظر د. مهدى رزق الله، السيرة النبوية(١٨٦).

4 – ذكرها ابن الجوزى، زادالمسير(٤/ ٤٩٥)، وصحح الالبانى سبب نزول الآية فى عمار بن ياسر، فقه السيرة للغزالى (١٠٨).

5 – وقيل كان نوبياً، وانظر ابن حجر، فتح البارى()، فضائل أصحاب النبى ﷺ، باب مناقب بلال.

كان ﷺ صادق الإسلام طاهر القلب، وكان مولاه أمية بن خلف يخرجه إذا حميت الظهيرة، فيطرحه على ظهره فى بطحاء مكة، ثم يأمر بالصخرة العظيمة فتوضع على صدره، ثم يقول له:«لا تزال هكذا حتى تموت، أو تكفر بمحمد، وتعبد اللات والعزى»، فيقول وهو فى ذلك البلاء:«أحد أحد».[١]

وروى أن بلالاً قال:«أعطشونى يوماً وليلة، ثم أخرجونى فعذبونى فى الرمضاء فى يوم حار[٢]، وعندما رأه أبو بكر ﷺ فى هذه الحالة ساوم سادته على شرائه، فاشتراه وأعتقه بخمس أواق، وهو مدفون بالحجارة.»[٣]

وفى الصحيح أن بلالاً قال لأبى بكر:«إن كنت إنما اشتريتنى لنفسك فأمسكنى، وإن كنت اشتريتنى لعمل الله فدعنى وعمل الله.»[٤]

هذا غير بلاء عريض ناله إلى أن أعتقه أبو بكر ﷺ، ومازال الاضطهاد قائماً حتى بعد عتقه إذ كان البلاء نازلاً على غيره وهم أحرار.

خباب بن الأرت:

هو خباب بن الأرت...التميمى ويقال الخزاعى، سُبِىَ فى الجاهلية، فبيع بمكة، وكان مولى لأم أنمار الخزاعية، وقيل غير ذلك، ثم حالف بنى زهرة، كان يعمل قيناً – حداداً – يصنع السيوف، وكان من السابقين الأولين إلى الإسلام.

---

1 – د. مهدى رزق الله، السيرة النبوية(١٨٨).

2 – البلاذرى، أنساب الاشراف(١/ ١٨٦).

3 – ابن حجر، الفتح(٤/ ٢٢٨)، وابن عبد البر، الاستيعاب(٢/ ٣٤)، بسند قوى، وذكره البغوى والخازن()، سورة الليل، والبلاذرى، أنساب الاشراف(١/ ١٨٦).

4 – البخارى، الصحيح(ح ٥٥٣٧).

وعندما أظهر إسلامه وقع عليه شتى أصناف التعذيب والأذى فى المال والنفس، فى ضمن وكانوا يضجعونه على صخور ملتهبة، ثم يضعون عليه حجراً حتى لا يستطيع أن يقوم[1]، وأوقدوا له ناراً ووضعوه عليها فما أطفأها إلا ودك ظهره، كما ذكر خباب نفسه، وقد كشف عن ظهره لعمر بن الخطاب ﵁ وذكر أيضاً أنهم كانوا يضجعونه على الرضف، ومع ذلك لم ينالوا منه ما أرادوا.[2]

وله قصة تدل على أن استباحوا منهم كل شيء، وهى فى المال، مع العاصى بن وائل حيث صنع له خباب سيفاً فأتاه يتقاضاه فقال: لا أعطيك حتى تكفر بمحمد ﷺ، فقلت: لا أكفر بمحمد – عليه الصلاة والسلام – حتى يميتك الله ثم يحييك، قال: إذا أماتنى الله ثم بعثنى ولى مال وولد، فسأقضيك، فأنزل الله تعالى:﴿ أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَـٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالاً وَوَلَدًا ۝٧٧ أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَـٰنِ عَهْدًا ۝٧٨ ﴾ [مريم: ٧٧-٧٨].[3]

ومما يطالعنا فى هذا المبحث من الاضطهاد والأذى، هذا السؤال لمَ يلاقى المؤمنون هذا التعذيب وهم جنده سبحانه وعلى الحق المبين وفيهم رسوله ﷺ؟

والجواب: أن المؤمنين مطالبون بعبودية السراء وعبودية الضراء قياماً بتحقيق أمره: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦ ﴾ [الذاريات: ٥٦]، وخاصة الرسل وأتباعهم القائمين الأوائل بدعوة التوحيد وإفراد الرب بالعبادة، وتحمل تلك المسؤلية والجهاد فى سبيلها، ودفع ضريبتها من مشقة وعنت حتى يكونوا القدوة لمن بعدهم، ولا يقوم بذلك إلا الأحقاء بذلك، ومن ثم ينزل البلاء ليميز الصادقين من الكاذبين قال تعالى:﴿ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝٢ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ

1 – ابن الجوزى، تلقيح فهوم الأثر(٦٠).

2 – أبو نعيم، الحلية(١/ ١٤٤)، بإسناد صحيح.

3 – ابن حجر، فتح البارى (ح ٤٧٣٣)، ومسلم، شرح النووى(ح ٢٧٩٥).

ٱلۡكَٰذِبِينَ ٣﴾ [العنكبوت: ٢-٣]، وإنه لأمر من مهمات هذه الدين، وهو تنقية الصف المسلم ممن لو لم يعلم بحاله، يوشك أن يكون سبب الهزيمة والخسران والانكسار، فلا ينتصر الدين الذى وعد الله بنصره، ومن ثم يحقق فيه سبحانه أسباب النصر وينفى عنه أسباب الهزيمة، قال تعالى:﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعۡبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرۡفٖۖ فَإِنۡ أَصَابَهُۥ خَيۡرٌ ٱطۡمَأَنَّ بِهِۦۖ وَإِنۡ أَصَابَتۡهُ فِتۡنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجۡهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةَ﴾ [الحج: ١١].

وكان أعظم ما يتمايز به المؤمنون من غيرهم هو الجهاد والصبر، ولذا كانا محك الاختبار ومورد الفتنة قال تعالى:﴿ أَمۡ حَسِبۡتُمۡ أَن تَدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ وَلَمَّا يَعۡلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمۡ وَيَعۡلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ ١٤٢﴾ [آل عمران: ١٤٢]، ولا يظن المؤمنون بعد ذلك أن ذلك الفعل من الله يمكن أن يذهب بالدين وبالمؤمنين، بل ذلك من أعظم سبب كسر الكفرة ومحقهم يقول تعالى:﴿ وَلِيَعۡلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَيَتَّخِذَ مِنكُمۡ شُهَدَآءَۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ١٤٠ وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَيَمۡحَقَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ١٤١﴾ [آل عمران: ١٤٠-١٤١].

ولا يعزب وإن حدث ويحدث، عن بال المؤمنين أن طول وشدة البلاء، توقف الدعوة وتؤخر النصر وتشكك فى أمر الله، لأن الله يطمئنهم إلى قرب النصر على عكس الظن وتردد الشك فى النفس بقوله:﴿ أَمۡ حَسِبۡتُمۡ أَن تَدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ وَلَمَّا يَأۡتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلِكُمۖ مَّسَّتۡهُمُ ٱلۡبَأۡسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلۡزِلُواْ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصۡرُ ٱللَّهِۗ أَلَآ إِنَّ نَصۡرَ ٱللَّهِ قَرِيبٞ ٢١٤﴾ [البقرة: ٢١٤].

فكان المؤمنون بعلمهم بتلك القواعد الراسخة التى تثبتهم وتقوى عزائمهم وتشد من أزرهم مستبشرين بالنصر، لا يتطرق إليهم البأس ولا الحزن ولا الضيق، ولا يستوحشون من طول الطريق وكثرة العقبات، صامدين متوكلين على ربهم واثقين فى قرب نصره ونزول فَرَجِهِ.

إن مما يلاحظه – كذلك – المتأمل فى هذا الاضطهاد، أن شدة التعذيب جعلت بعضاً

من المؤمنين، الذين كادت أن تزهق أرواحهم مما لاقوا يوافقون الكفرة على النطق بكلمة الكفر، إبقاء على مهجهم، وقلوبهم مطمئنة بالإيمان، ولم يؤثر ذلك فى إيمانهم أن أخذوا بالرخصة، ولكن آخرين كُثُر ضرب أعلى الأمثال فى الثبات على دينهم، والرضا بجوار ربهم إن هم انتقلوا إليه على تلك الحال، رخيصة هينة أرواحهم فو جنب الله تعالى، متوكلين عليه أحسن التوكل، ولم ينسى التاريخ، ولن ينسى تلك المواقف البطولية الحقة لأولئك الأوائل المصطفين من الصامدين، ليصيروا بذلك القدوة لأصحاب المبادىء فى كل زمان ومكان.

يقول ابن كثير فى تعليقه على موقف عمار بن ياسر من التعذيب:«ولهذا اتفق العلماء على أنه يجوز أن يوالى المكره على الكفر إبقاء لمهجته، ويجوز له أن يستقتل كما كان بلال ﷺ، يأبى عليهم ذلك، وهم يفعلون به الأفاعيل، وكذلك حبيب بن زيد الأنصارى، لما قال له مسيلمة الكذاب:«أتشهد أن محمداً رسول الله؟ فيقول:«نعم»، فيقول:«أتشهد أنى رسول الله؟»، فيقول:«لا أسمع». فلم يزل يقطعه إرباً إرباً وهو ثابت على ذلك... والأفضل والأولى أن يثبت المسلم على دينه، ولو أفضى إلى قتله، كما قال الحافظ ابن عساكر، فى ترجمة عبد الله بن حذافة السهمى.»[1]

ولا شك أن أعداء الإسلام فى كل زمان ومكان عندما يتمكنون منهم يسومونهم سوء العذاب، وخطط الإبادة، وصنوف التعذيب، ولن يكفوا عن استخدام كل الوسائل لإطفاء نور الإسلام، ومحاربة دعاته، ولله الأمر من قبل ومن بعد، والله غالب على أمره.

---

1 - ابن كثير، التفسير(٤/ ٥٢٥-٥٢٦).

الباب الثالث

العهد المدنى

الفصل الأول

أسس بناء المجتمع الإسلامى والدولة الإسلامية فى المدينة

المبحث الأول

بنـــاء المســـجد

كانت إقامة المجتمع الإسلامي المتماسك، الذي تقوم عليه دولة الإسلام، أول ما قام النبي ﷺ ببناء دعائمه، وتشييد أساساته، حتى صارت أعظم دولة عرفها التاريخ، - وإن الاهتمام بقيام تلك الأركان والأصول، كفيلٌ بإعادة تلك الدولة، دولة الحق، والعدل، والهداية، إلى العالمين، تنير الدنيا، وتطلب الآخرة -. وكانت أول خطوة، قام بها النبي ﷺ، في سبيل ذلك، هي بناء المسجد، بؤرة الإشعاع الديني، والسياسي، والثقافي، والاجتماعي، في المجتمع المسلم، لأنه إنما يكتسب صفة الرسوخ، والتماسك، بالتزام نظام الإسلام وعقيدته وآدابه، وما ينبع ذلك كله إلا من روح المسجد ووحيه.

كان رجال من المسلمين، يُصَلُّونَ في المكان الذي بركت فيه ناقة النبي ﷺ، - وكان مربداً للتمر لغلامين يتيمين من بنى النجار، فى حجر أسعد بن زرارة، هما سهيل وسهل-، فقال رسول الله ﷺ : «هَذَا إِنْ شَاءَ الله الْـمَنْزِلُ»، ثم دعا رسول الله ﷺ الغلامين فساومهما بالمربد ليتخذه مسجداً، فقالا: «بل نهبه لك يارسول الله» فأبى رسول الله ﷺ أن يقبله منهما هبة، حتى ابتاعه منهما، ثم بناه مسجدًا [1]، وفى رواية أخرى للبخارى[2]، أنه ﷺ عندما أمر ببناء المسجد أرسل إلى ملأ بنى النجار، فجاؤوه، فقال لهم: «يَا بَنِي النَّجَّارِ ثَامِنُونِي

1 - ابن حجر، فتح الباري شرح صحيح البخاري (١٠١/ ١٥) .

2 - الفتح (٣٢/ ١٥).

بِحَائِطِكُمْ هَذَا»، فقالوا: «لا! والله لانطلب ثمنه إلا إلى الله»؛ وفى الصحيح، أن مكان المسجد كان فيه قبور المشركين، وكان فيه خرب، وكان فيه نخل. فأمر رسول الله ﷺ بقبور المشركين فنبشت، وبالخرب فسويت، وبالنخل فقطع، فصفوا النخل قبلة المسجد، وجعلوا عضادتيه حجارة، وجعلوا ينقلون الصخر ورسول الله ﷺ ينقل معهم وهم يرتجزون:

اللهم إن الخير خير الآخرة .. فانصر الأنصار والمهاجرة[1]

وغير ذلك من الرجز ورسول الله ﷺ يرتجز معهم.

واستغرق البناء اثنى عشر يوماً[2].

ثم فُرض الأذان، بالكيفية التى عليها الآن، فى السنة الأولى على الأرجح، وذلك عندما رأى عبد الله بن زيد رضي الله عنه فى منامه صيغة الأذان، فأمر رسول الله ﷺ بلالاً فأذن بها، وعندما سمعه عمر رضي الله عنه، جاء إلى رسول الله ﷺ وقال إنه رأى ما رأى عبد الله بن زيد.

ظل المسجد على حاله الذى بناه عليه الرسول ﷺ، فلم يزد فيه أبو بكر رضي الله عنه شيئاً، وزاد فيه عمر رضي الله عنه بأن أعاد عُمُدَه وجعلها خشباً، وحمى سقفه من المطر، ثم زاد فيه عثمان رضي الله عنه زيادة كثيرة، وبنى جداره بالحجارة المنقوشة، وجعل عُمُدَه من حجارة منقوشة وسقفة من ساج[3].

ولم يكن له ﷺ منبر يخطب الناسَ عليه فى مسجده، بل كان يخطب وهو مستند إلى جذع

---

1 - المصدر نفسه.

2 - البيهقي، دلائل النبوة (٢/ ٥٠٩) من رواية عبد الله بن الزبير.

3 - البخارى، الفتح (٣/ ١٠٦ و١٠٨/ ح ٤٤٦). والساج: نوع من الأخشاب الهندية، أبو داود (١/ ٣١١/ح ٤٥١/ الدعاس). وقال ابن حجر فى الفتح (٣/ ١٠٨) عن عمل عثمان(رضي الله عنه) هذا: "فحسنه – أي المسجد – بما لا يقتضى الزخرفة".

عند مصلاه، فلما اتُخِذ للرسول ﷺ منبر، وعدل إليه ليخطب عليه،خار ذلك الجذع، وحن حنين النوق العشار، لما كان يسمع من خطب الرسول ﷺ، فوضع يده عليه حتى سكن كما يسكن المولود الذى يسكت. وهذا من دلائل نبوته - عليه الصلاة والسلام -[1].

وإن بالمسجد لتتحقق أنظمة وآداب الإسلام، التى سعى إليها الرسول ﷺ، من أول يوم وصل فيه إلى المدينة المنورة.

• إن من أول نظم الإسلام وآدابه، شيوع آصرة الأخوة والمحبة بين المسلمين، ولا يتم ذلك إلا بتلاقى المسلمين مرات متعددة، فى بيوت الله، تتساقط فيها فوارق الجاه والمال، لتحل بينهم روح التآلف والتآخى والمودة.

• وإن من أعظم ما جاء به الإسلام، وعمل على تحقيقه ونشره، وقد ساد واقعاً وفكراً، هو بث روح المساواة والعدل، بين المسلمين فى مختلف أحوالهم، وعامة شؤونهم، ولا يتم ذلك إلا بوقوفهم صفاً واحداً، متجهين لرب واحد، وقبلة واحدة، لا فرق بينهم إلا بتقوى الله تعالى، ولا يتم ذلك إلا فى بيوت الله، فمهما انصرف الناس إلى بيوتهم يصلون، لا يظهر ذلك، فضلاً عن أن تشيع تلك الروح؛ إلا فى بيوت الله تعالى.

• وكذلك انصهار المؤمنين فى بوتقة من الوحدة الراسخة، يجمعهم عليها حبل الله، الذى هو حكمه و شرعه، فمالم تقم فى أنحاء مجتمع المسلمين مساجد، يجتمعون فيها على تعلم حكم الله، وشريعته ليتمسكوا بهما، ويدعوا إليهما على علم وبصيرة، آلت وحدتهم إلى شتات، وفرقتهم الأهواء والشهوات.

ولقد كان المسجد يقوم بأعظم دور، من صغير الأعمال -كما يتصور البعض- إلى جليلها:

---

1 - البخارى(٣٥٨٥).

- فكان مكاناً لتعليم المسلمين أمور دينهم.

- و كان مكاناً لاستقبال الرسل – السفراء – الذين يفدون على رسول الله ﷺ.

- وكان مكاناً لعقد ألوية وجيوش وسرايا المجاهدين.

- كما كان مكاناً لاعتقال أسير الحرب المشرك، إذا كان فى ذلك عظة لمن يراه، أو عظة له فى سماع القرآن، ورؤية هداية وأخلاق أصحاب هذا الدين.

- وكان أعظم مكان، وأكثر اتساعاً، لكى يجتمع الصغير والكبير بقائدهم، مما يُشْعِر بقرب القائد، وتحمله معهم السراء والضراء، ومعرفة أحوالهم مباشرة، والقيام على حل مشاكلهم، ومناقشة شجونهم وشكواهم، مع التآلف والتواضع الجم بينهم، الذى يزيد فى آصرة هذا الدين، وفدائه بأرواحهم.

- وإن ضعفاء المسلمين، من المهاجرين، والفقراء، ممن عرف بأهل الصفة، وغيرهم لم يكن لهم مأوى إلا المسجد، وكذلك ضعفاء النساء –اللاتى أسلمن من نساء العرب– ولم يجدن محلاً يأوين إليه[1].

لما سبق، بعد التأمل، نبادر بالقول: إنه لما عرف الكفرة والمنافقون أهمية المسجد، في قوة المسلمين، وقيام دولتهم، وثباتها، بدأوا من مطلع الدعوة، إلى يومنا هذا، إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، فى محاربة المساجد، وتقليص دورها فى حياة المسلمين، وإيقاف بنائها، وإغلاقها، وإقامة مساجد للضرار، ترفع راية الفساد، والإفساد في الدين باطناً، وتعلن ظاهراً غير ذلك؛ نكاية في أهل الإسلام، وتفريقاً بينهم، وتشتيتاً لشملهم، والأمثلة لا تحتاج إلى تفصيل.

---

1 – انظر لما سبق د. البوطى، فقة السيرة، ١٥١ وما بعدها، ود.مهدى رزق الله، السيرة النبوية،ص٢٩٥ وما بعدها، والبخارى، فتح البارى (٣/ ١٠٢)، (٣/ ١٠٠)، وانظر د. أكرم العمرى المجتمع المدنى (٨٩–١٠٥) .

وإن أول من فعل ذلك، في حياة الرسول ﷺ -نفسه-، هم المنافقون، الذين أظهروا الإسلام وأبطنوا الكفر، حيث أقاموا وشيدوا مسجد الضرار.

نعود كما هو منهجنا، إلى سيرة المسجد في القرآن الكريم، نتتبع آيات ذكرها، نستشف منها -باختصار سريع- تلك السيرة العطرة للمسجد، ومعانيها، كما أراد الله تعالى، ودعا إليها رسول الله ﷺ، بتحليل هذه الآيات، ومقارنتها مع السيرة المطهرة.

وها هي ذي تلك الآيات المختارة، على ترتيب واقعها.

الأولى: ﴿ فِي بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ ﴿٣٦﴾ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٣٧﴾ ﴾ [الأنفال: ٣٦-٣٧].

الثانية: ﴿ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴾ [البقرة: ١٢٥].

الثالثة: ﴿ وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ﴿١٨﴾ ﴾ [الجن: ١٨].

الرابعة: ﴿ وَأَقِيمُوا۟ وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ﴾ [الأعراف: ٢٩]

الخامسة: ﴿ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ خُذُوا۟ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ ﴾ [الأعراف: ٣١].

السادسة: ﴿ لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ ۚ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا۟ ۚ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ ﴿١٠٨﴾ ﴾ [التوبة: ١٠٨]

السابعة: ﴿ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ فَعَسَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ أَن يَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٨﴾ ﴾ [التوبة: ١٨].

الثامنة: ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًۢا بَيْنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ مِن قَبْلُ ۚ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّا ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٠٧﴾ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا ﴾ [التوبة: ١٠٧]

التاسعة: ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ وَسَعَىٰ فِى خَرَابِهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَآ إِلَّا خَآئِفِينَ ۚ لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١٤﴾ ﴾ [البقرة: ١١٤].

العاشرة: ﴿ وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَمَا كَانُوٓا۟ أَوْلِيَآءَهُۥٓ ۚ إِنْ أَوْلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُتَّقُونَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾ ﴾ [الأنفال: ٣٤].

ونظرة إجمالية، في هذه الآيات الكريمات، نراها تبين -بما نزل منها في المدينة، وبما نزل في مكة، وهو قليل بالمقارنة بما نزل في المدينة، نظراً لظروف الدعوة أيامها- سيرة المسجد على مدار حياة النبي ﷺ، وإلى أن انتقل إلى الرفيق الأعلى. ويوضح التصاق سيرته ﷺ بالمسجد، دليلَ هداية الدعوة، وربانيتها، وتوجيهها إلى الله تعالى، وكيف تكون المساجد، - كما رأينا تطبيق الرسول ﷺ العملي، وتطبيق الصحابة- محل النور، والذكر، والمراكز التي تشع منها كل طرائق الخير، وسبل الرشاد، على العالمين، في الدنيا والآخرة.

ظهر ذلك بأن يتوجه فيها المسلمون، إلى قبلة واحدة، صفاً واحداً، يعبدون إلهاً واحداً، سواء كانت قبلتهم في مكة إلى بيت المقدس، أو قبلتهم في المدينة إلى الكعبة المشرفة، حيث جاءت آيات، توضح ما نحن بصدده، كقوله تعالى: ﴿ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ﴾ [البقرة: ١٤٤]. فدل على أن الله تعالى غيَّر له القبلة، التى أمر بها، والتى لم يكن له أن يغيرها إلا أن يأتيه أمر الله تعالى بذلك.

وبينت الآيات إجمالاً، لزوم رفع هذه المساجد، بناءً وتشييداً، وكذلك رفعها بما يكون فيها من إشهار فضلها وسمو منزلتها. وأمر كذلك - سبحانه وتعالى-، بعد تشييدها، ورفعها، بتطهيرها من كل ما يخالف معنى الطهارة حساً، ومعنىً.

ثم نادى على كل الناس -وكان ذلك في مكة- بألا يدعوا مع الله أحداً في مساجده، وأن دعاءهم وتوحيدهم، له وحده لا شريك له. وأن يقيموا وجوههم مستقيمين له، غير

عادلين به غَيْرَه، مخلصين له، غير مشركين به.

ثم عزز ذلك بالظاهر – إذ كان الإخلاص زينة الباطن- بأن يأخذوا أحسن زينة عند كل مسجد.

وأن أعظم المساجد الذي يجب أن يقوم فيه، - لوجوده ﷺ في المدينة ساعتها - هو مسجده المعظم، لأنه أول مسجد أسس هنالك على التقوى، وأن القائمين فيه من باب الأولى -الذين هم صَحْبُه- هم الذين يحبهم الله لأنهم يحبون أن يتطهروا لله تعالى، ظاهراً وباطناً، وذلك موضوع محبة الله تعالى لأهله.

قد يتردد الناس في القيام بما سبق، فبين لهم أنه لا يقوم بتعمير تلك المساجد -مهما ساءت الظروف وادلهم الخطب- إلا المؤمنون بالله واليوم الآخر، المقيمون صلاتهم، المؤدون زكواتهم، ويتجلى ذلك كله، بعدم خشيتهم وخوفهم إلا من الله تعالى، وأولئك يُرجى أن يكونوا من هؤلاء الذين ﷺ، وهم المهتدون.

ولا يهولنك بعد أن كانت تلك سيرة المسجد، أن يقوم المنافقون والكفرة، بمنع مساجد الله تعالى، أن يُذكر فيها اسمه، سواء ببناء مساجد الضرار، أو بالسعي في تخريب المساجد، بكل ما حدث أو يحدث، من أنواع التخريب، فإن لهم خزياً شديداً في الدنيا، وعظيم العذاب في الآخرة.

وكيف لا يعذبهم الله تعالى كل العذاب المؤلم لهم، ويخزيهم بكل أنواع الخزي، وهم يصدون عن دينه، ومعرفته، وتوحيده -وهو أعظم شيء-، بالصد عن بيوته، وخاصة بيته الحرام.

رأينا بهذا الإجمال، كيف ترتبت تلك الآيات التي اخترناها، لتكون جزءاً من سيرة

المسجد في الإسلام، خاصة إذا علمنا، أنها -وغيرها من الآيات الواردة في نفس الموضوع- لتؤكد بأسباب نزولها اتصال تلك الحلقة، وتسلسلها الزمني، والحكمي، بما يشي بارتباط الدين،ونشره، بالمسجد، وكذلك بشيوع آدابه وأخلاقه، بالمسجد، وبتربية المسلمين على أحسن نظام، - دقيقه وجليله - بالمسجد.

وننظر -استكمالاً لما سبق- في موضعين - توخياً للاختصار - من الآيات السابقة، نفصلهما، نوضح بهما شيئاً من المقصود.

الموضع الأولى: آيته مكية، حيث وردت في سورة الأعراف، وهي في ترتيب السيوطي[1]، الثامنة والثلاثين، حسب الترتيب الزمني لنزول القرآن الكريم، وهى قوله تعالى: ﴿ قُلۡ أَمَرَ رَبِّي بِٱلۡقِسۡطِۖ وَأَقِيمُواْ وُجُوهَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ وَٱدۡعُوهُ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَۚ كَمَا بَدَأَكُمۡ تَعُودُونَ ﴿٢٩﴾ فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُ ﴾ [الأعراف: ٢٩-٣٠].

وبتأمل هذه الآية، وبالنظر فى سياقها، نرى أنها جاءت نفياً، لما سبق ذكره من المشركين، بأن الله جل وعلا - حاشا له - يأمر بالفحشاء، فأنكر عليهم، وبين لهم، ولغيرهم، إلى يوم الدين، ما يأمر به ربهم سبحانه وتعالى، حيث ذكرت الآية مقومات، وأركان الدين الحق، فكراً، وسلوكاً، ودعوة، فجمعت ذلك ملخصاً فى ثلاثة أُمور:

الأول: الأمر بالقسط.

الثانى: إقامة الوجوه عند كل مسجد.

الثالث : دعاء الله تعالى، بالإخلاص فى الدين له.

1- محمد عزه دروزه، سيرة الرسول (١/ ١٥٥).

وقد صَدَّرت ذلك كله بقوله تعالى: ﴿ قُلْ ﴾ توجيه آمر للنبى ﷺ بأن يعلن ذلك، وأن يرسله فى كل ملأ، ليبين دين الله تعالى، مقيماً به الحجة، نافياً عنه اللبس، والإفك، وإن قلنا ثَمَّ دليل على الوحى القرآنى، للرد على "وات"، وعلى التحليل النفسى، فهو هذه الآية الكريمة، والتى تقول للنبى ﷺ: ﴿ قُلْ ﴾ أى: ليس من عنده، وما هو الإ مبلغ، وتوضح له ماذا يقول، مما يستحيل أن يكون قد سمعه قبل ذلك، فخزنه فى عقله الباطن – كما يزعم –، إذ ما قاله ﷺ، لم يكن ليقوله، أو ليستطيع أن يرتبه ذلك الترتيب، بشرٌ حينئذ، من حيث الأسلوب، أو المعنى، أو تَرَتُّبُ هذه المعانى على الواقع، مع الإخبار بالبعث، والهداية والضلال.

وشَرْحُ ذلك ببعض التفصيل، مما يطول بحثاً ونقلاً، ولكن نسوق شيئاً مما ذكره المفسرون، ونخص ابن عاشور بالذكر، لتوضيحه ذلك لغةً، وبلاغةً فيقول ما ملخصه[1]:

بعد أن أبطل زعمهم، – أن الله أمرهم بها يفعلونه من الفواحش – إبطالاً عاماً بقوله: « قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ »، استأنف استئنافاً استطرادياً، بما فيه جماع مقومات الدين الحق، الذى يجمعه معنى القسط، تعليماً لهم بنقيض جهلهم، وتنويهاً بجلال الله تعالى، بأن يعلموا شأن الذي يأمر الله به، ولأهمية هذا الغرض فصلت هذه الجملة عن التى قبلها، ولم يعطف القول على القول، لأن فى إعادة فعل القول، وفى ترك عطفه على نظيره لفتاً للأذهان إليه.

والقسط: العدل، وهو هنا بمعناه الأعم، الذى هو وسط بين الإفراط والتفريط فى الأشياء، وهو الفضيلة من كل فعل، فالله تعالى أمر بالفضائل، وبها تشهد العقول السليمة أنه صلاح محض، وأنه حسن مستقيم، نظير قوله: ﴿ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴿٦٧﴾ ﴾ [الفرقان:٦٧].

1 – انظر ابن عاشور، التحرير والتنوير، (٨/ ٨٤-٨٥).

فالتوحيد عدل بين الإشراك والتعطيل، والقصاص من القاتل عدل بين إطلال الدماء، وبين قتل الجماعة من قبيلة القاتل، والإحسان عدل بين الشح والإسراف، فالقسط صفة للفعل فى ذاته، لكي يكون ملائماً للصلاح، عاجلاً، وآجلاً - أي: سالماً من عواقب الفساد -. فقوله إذن: «أَمَرَ رَبِّي بِٱلْقِسْطِ». كلام جامع، لإبطال كل ما يزعمون أن الله أمرهم به، مما ليس من قبيل القسط.

وإذا كان القسط هو أمر الله تعالى، وكان توحيد الرب، وإجلاله، وتعظيمه، وإظهار هذا كله، من أعظم القسط، أعقبه بقوله: ﴿وَأَقِيمُواْ وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ أى :قل أقيموا وجوهكم.

وإذا كان القصد الأول، إبطالَ بعض ما زعموا من أن الله أمرهم بالالتزام به، ففي هذا الأمر التصريح بما يرضى الله عز وجل. وهو إقامة وجوههم، دليلاً على كمال الإقبال على عبادة الله تعالى، فى مواضع عبادته[1]؛ ولما لم يكن لهم فى مكة حينئذ إلا المسجد الحرام، ونزلت الآية تفيد الجمع: ﴿عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ - أى: عند كل المواضع التى يستخفون بالعبادة فيها – حملت البشارة بأن ستكون لهم مساجد، يقيمون فيها وجوههم لله تعالى، وأعدهم لذلك بالتوجه إليه فى معنى الإقامة، فلا يلتفتون يمنة ولا يسرة. قائمين غير متغاضين ولا متوانين، يعظمون معبودهم الحق، ويعظمون مكان عبادتهم، وأن الإشراك، والتعرى، وما كان على غير سنن التوحيد، والعبادة والنسك، والإقبال على الله تعالى، مناف لذلك مناقض له، كما كان حال المشركين يومئذ.

فكان ذلك تعليماً، وتربية، وإرشاداً، لما ينبغي أن يكون عليه الذين التزموا الدين الحق، ورفعوا راية الإيمان به.

وإن من أشهر ما وقعت عليه أبصارهم، وأبصار المشركين المدعوين للإيمان بالله

---

1 - انظر السابق.

وحده أيام البعثة، - مما يبين لهم هذه المعانى، ويوضحها لهم، ويدعو المشركين أن يتركوا شركهم، ليكونوا حنفاء لله - هو الحج وشعائره، فأمرهم أمراً أولوياً، وهو إقامة وجوههم لله تعالى فى الحج، مسلمين، ودعوة للمشركين، حيث وضعوا أصنامهم عند الكعبة، وفى جوفها، وعند الصفا والمروة، وغيرها، منكراً عليهم بأن الله لا يأمر بتلك الفحشاء، وغيرها من الفواحش، بل يأمر بنقيضها، وهو القسط، وإقامة الوجوه لله عند كل مكان يعبد فيه، إجلالاً له وتعظيماً، ورفعاً لشأن المكان وتبياناً لفضله.

وإذا كانت إقامة الوجوه والتعظيم، مما يظهر على المؤمنين، حال الائتمار بذلك، جاء قوله تعالى: ﴿وَٱدۡعُوهُ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ معطوفاً على قوله: ﴿وَأَقِيمُواْ وُجُوهَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ﴾ ، ليكون القلب، متواطئاً مع الظاهر، فيكون كلاهما عابداً لله، قائماً بحقه، مخلصاً فى ذلك، حيث الإخلاص محله القلب، وهو تمحيض الشيء من مخالطة غيره، وبالتالى تكون طاعتهم متمحضة لله جل وعلا وحده، وذلك ما أمرهم به حيث يقول: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [البينة:٥]. فيجتنبوا بذلك أى إشراك مع الله فى طاعته، فى كل أُمورهم، فما يفعلون من فعل، وما يقولون من قول، وما يعتقدون من فكر فى كل شؤونهم، إلا كانوا مخلصين فيه لله تعالى يرجون رحمته ويخافون عذابه.

كانت تلك السيرة، هى البداية الأولى فى مكة المكرمة، فيما أمر الله به المؤمنين فى قوله النازل قبل هذه الآية فى سورة الجن: ﴿وَأَنَّ ٱلۡمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدۡعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدٗا ١٨﴾ [الجن:١٨]. ثم أخذت سيرة المسجد مع سيرته ﷺ، وسيرة أصحابه، تتوالى آياتها، توضيحاً لما ينبغى، وتفسيراً لما يحدث، وتطوراً مع الدعوة، سلسلة آخذٌ بعضها بحلقات بعض، حتى اكتملت بما أشرنا إليه من آيات نزلت فى آخر حياة الرسول ﷺ، وفى نفس الوقت، نزلت لأسباب نزولٍ تُرْشِدُ المؤمنين إلى مؤامرات الكفرة والمنافقين، وتحذرهم الاغترار بما فى ظاهر تلك الوقائع، وتنير لهم طريق الحق فيما ينبغى أن يحتذوا فيه حذو النبى ﷺ، في القيام برسالة المسجد، وحفظها،

حتى يسلموها تامة، واضحة، متحققة على أرض الواقع، لمن بعدهم، وقد كان! حتى وصلنا إلى ما نحن فيه، من حالٍ سببه البعد عن تلك التعاليم الإلهية، في سيرة النبي ﷺ.

وتجليةً، لاستمرار سيرة المسجد مع النبى ﷺ وأصحابه، نذكر:

الموضع الثاني: وهو من التنزيل المدني، يُظْهِرُ لنا هذا التدرج والبناء، فى سيرة المسجد، وهو قوله تعالى: ﴿ فِي بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ ﴿٣٦﴾ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٣٧﴾ ﴾ [النور:٣٦-٣٧].

بعد ذكر مواضع السجود والعبادة فى التنزيل المكي، واحترامها، وتوحيد الله فيها، تعظيماً له، وتفخيماً لشأنه سبحانه، بَيَّنَ هذا التنزيل المدنى، الأمر ببناء المساجد، وسماها بيوت الله، بإضافتها إليه سبحانه في قوله: ﴿ وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿١٢٥﴾ ﴾ [البقرة: ١٢٥]، تشريفاً لها، وإظهاراً لعطاء الله لهم، من الرحمة، والبركة، عندما يكونون فى بيوته سبحانه، إذ يكرمهم ويحسن نُزُلَهم، وهو حافظ لزيارتهم، حافظ لهم. إلى غير ذلك مما تقصر العبارة عن وصفه.

وبَيَّنَ صفات أولئك الذين يقومون بهذه العمارة لبيوته، كما سنوضحه - إن شاء الله - بَعْدُ، عند تفسير الآيات.

والعاقبة الحسنة ينتظرونها من وراء ذلك، بكونهم رجالاً لاتلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكره، ولا عما افترضه عليهم من صلاة وزكاة، مع ملازمة الخوف من ملاقاة الله، فى يوم تزيغ القلوب والأبصار من أهواله، ومحنه، ليسلموا بذلك، فيجزيهم أحسن الجزاء، ويزيدهم من فضله، فى الأولى والآخرة.

وبالتأمل فى تلك الآيات، يتضح من تحليها تلك المعانى الجليلة:

• هذه الآيات، سبقها قوله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾، إلى قوله تعالى: ﴿ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ ﴾ .

ومعنى ذلك وضحه العلامة أبو السعود[1]، حيث يذكر في تفسيره أن قوله: ﴿ عَلَىٰ نُورٍ ﴾ متعلق بمحذوفٍ، هو صفة له، مؤكدة لما أفاده التنكير من الفخامة، والجملة فذلكةٌ للتمثيل، وتصريح بما حصل منه، وتمهيد لما يعقبه، أي ذلك النور الذى عبر به عن القرآن، ومثلت صفته العجيبة الشأن، بما فصل من صفة المشكاة، نور عظيم كائن على نور كذلك، لا أنه نور واحد معين، أو غير معين، فوق غيره، أو هو مجموع نورين، بل هو نور متضاعف، من غير تحديد لتضاعفه، كما مثله بنور المشكاة؛ لكونه أقصى مراتب تضاعفه، مع ما فى الزيت وصفائه من زيادة النور والإشراق والبهاء[2].

• أما قوله تعالى بعد ذلك: ﴿ فِى بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ ﴾ ..

فإنه يأتى بعدما ذكر الله تعالى شأن القرآن الكريم، فى بيانه للشرائع، والأحكام، ومباديها، وغاياتها المترتبة عليها، من الثواب والعقاب، وغير ذلك من أحوال الآخرة وأهوالها، وأُشير إلى كونه فى غاية ما يكون من التوضيح والإظهار، حيث مُثِّل بما فصل من نور المشكاة، وأنه فى أقصى مراتب الظهور، وإنما يهتدى بهداه من تعلقت المشيئة الإلهية بهدايته، وعَقَّبَ ذلك بذكر الفريقين:

الأول: ﴿ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ ... ﴾، إلى آخر صفاتهم.

الثانى: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعْمَٰلُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً ﴾ [النور:٣٩]. وهى الآية التالية لما سبق.

---

1 - انظر أبا السعود، إرشاد العقل السليم، (٤/ ٩٢-٩٦).

2 - هذا القرآن الذى ذكر الله تعالى شيئاً من صفاته، الذى يقول فيه «وات» بالليبيدو، والتحليل النفسى، وتعليم ورقة!

• أما قوله: ﴿ فِي بُيُوتٍ ﴾ .. فهى المساجد، وأولها ما نزلت فيه الآيات، وهومسجد الرسول ﷺ، ومسجد قباء، فتقديم الجار والمجرور، للاهتمام بتلك البيوت، وللتشويق إلى متعلق المجرور، وهو التسبيح، وأصحابه؛ والتنكير للتفخيم من شأنها، وعلو منزلتها ومكانتها؛ والمراد بالإذن في رفعها: الأمر ببنائها رفيعة، لا كسائر البيوت، وكذلك الأمر برفع مقدارها، بعبادة الله تعالى فيها؛ ويكون عطف الأمر بالذكر على الرفع هنا من قبيل العطف التفسيرى؛ وأياً ماكان! ففى التعبير عن الأمر بالرفع: بالإذن، تلويح بأن اللائق بحال المأمور، أن يكون متوجهاً إلى المأمور به ناوياً لتحقيقه، كأنه مستأذن فى ذلك، فيقع الأمر به موقع الإذن فيه.

وهذه البيوت رُفِعَتْ لذكره سبحانه وتعالى، أو بذكره وعبادته؛ وذكره يعم جميع أذكاره سبحانه وتعالى، وتكون ﴿ فِي ﴾ متعلقةً بقوله: ﴿ يُسَبِّحُ لَهُۥ ﴾ ، و ﴿ فِيهَا ﴾ تكريراً لها، للتأكيد والتذكير بها؛ والتقديمُ: للاهتمام، لا لقصر التسبيح فى هذه البيوت فقط، فتنزيه الله وتقديسه حالُ المؤمن فى كل الأوقات.

لذا قال: ﴿ ٱسۡمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلۡغُدُوِّ وَٱلۡأٓصَالِ ۝ ﴾ [النور:٣٦].

• ثم قال: ﴿ رِجَالٌ لَّا تُلۡهِيهِمۡ تِجَٰرَةٌ ﴾ [النور:٣٧] ..

وهى صفة لـ ﴿ رِجَال ﴾ ، مؤكدة لما أفاده التنكير، من الفخامة؛ وهى تعنى أصحاب رسول الله ﷺ أولاً، ثم من كان مثلهم فى التعلق بالمساجد؛ وهذه الصفة أيضاً مفيدة لكمال تبتلهم إلى الله تعالى، واستغراقهم فيما حكى عنهم من التسبيح، من غير صارف يلويهم، ولا عاطف يثنيهم، كائناً ما كان.

وخص التجارة بالذكر لكونها أشهر أعمالهم، وأقوى صوارفهم، فهم لايشغلهم نوع

من أنواع التجارة؛ ﴿وَلَا بَيۡعٌ﴾ أي: ولا فرد من أفراد البيوع، وإن كان فى غاية الربح، وإفراده بالذكر مع إندراجه تحت التجارة، لتميزه بأن ربحه متيقن ناجز، وربح ما عداه متوقع فى ثانى الحال، وكررت كلمة ﴿لَّا﴾ . لتذكير نفى الإلهاء وتأكيده[1].

ما يلهيهم شئ - كما ذكرنا - عن ذكر الله تعالى بالتسبيح والتحميد، ولا عن إقام الصلاة، فى مواقيتها، من غير تأخير، إقامة تامة، يستكملون فيها آدابها، وسننها، وواجباتها، وأركانها، مع الخشوع فيها لله، وتعلق القلب بها، إذا فرغ منها يود أن يعود إليها، كما فى الحديث: «ورجل قلبه معلق فى المساجد ...»[2].

وكذلك هؤلاء الرجال! لا يلهيهم شئ عن إخراج زكاة أموالهم، وإحسانهم للمستحقين، وكون إخراج الزكاة مما يفعل ايضاً خارج المساجد، ولكنه تنبيه على أن محاسن أعمالهم غير منحصرة فيما يقع فى المساجد، وكذلك بقية الآية: ﴿يَخَافُونَ يَوۡمٗا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلۡقُلُوبُ وَٱلۡأَبۡصَٰرُ ٣٧﴾ فـ ﴿يَخَافُونَ﴾ صفة لرجال أى لاتفارقهم تحملهم على الاسراع إلى طاعة ربهم، والقيام بواجباته، وعدم الوقوع فيما يغضبه، ومن ثم لاتختص بالبيوت أيضاً بل هى حالهم الغالب عليهم، إذ هم يخافون أهوال وفزع ذلك اليوم الذى تضطرب وتتغير فيه القلوب والأبصار.

﴿لِيَجۡزِيَهُمُ ٱللَّهُ﴾ ..

متعلق بمحذوف، يدل عليه ما حكى عنهم من أعمالهم المرضية، فقد فعلوا ذلك كله، ليجزيهم الله تعالى ﴿أَحۡسَنَ مَا عَمِلُواْ﴾ .

أي: أحسن جزاء لأعمالهم بحسب ما وعدهم، ويتفضل عليهم بأشياء لم تُوعَدْ لهم

1 - انظر أبا السعود، إرشاد العقل السليم، (٤/ ٩٣-٩٤)، وابن عاشور، التحرير والتنوير(١٨/ ٢٤٨).

2 - رواه البخاري، كتاب الأذان (٦٦٠)، رواه مسلم، كتاب الزكاة، (١٠٣١).

بخصوصيتها، أو بمقاديرها، ولم تخطر ببالهم كيفياتها، ولا كمياتها، بل وعدت بطريقة الإجمال فى مثل قوله تعالى: ﴿ ۞ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ﴾ [يونس:٢٦]. وقوله ﷺ حكاية عن ربه عز وجل: «أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر»[1].

وهكذا رأينا شيئاً من سيرة المسجد، سجلها التنزيل الإلهي، لتبين جزءاً من سيرة النبي ﷺ ، وسيرة أصحابه المكرمين ﷺ ، في قيامهم بتنفيذ هذه الأوامر، والتحقق بتلك الوصايا، فكانوا خير مثل لتلك السيرة العطرة، خلفاً للنبي ﷺ، ولم يتركهم الوحي الرباني، حتى بَشَّرَهُم، بجميل فعالهم، وبَيَّنَ حُسْنَ عاقبتهم، وما ينتظرهم من عظيم الجزاء والأجر، في الدنيا و الآخرة، وكان مصداق ذلك فى الدنيا هو عاجل بشراهم.

1 - انظر أبا السعود، إرشاد العقل السليم، (٤/ ٩٤-٩٥)، وانظر أيضاً محمود الالوسى، روح المعانى، (١٠/ ٢٦٠-٢٦١)، وانظر الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، (١٨/ ٢٤٥-٢٥٠)، والحديث متفق عليه، البخارى كتاب بدء الخلق(٣٢٤٤)، مسلم كتاب الجنة وصف أهلها ونعيمها (٢٨٢٤).

المبحث الثانى

المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار

وننتقل مسرعين إلى: هذا الأساس الذي وضعه رسول الله ﷺ، عند وصوله إلى المدينة المنورة، بعد الهجرة مباشرة، لبناء المجتمع الإسلامي، وما كان ذلك إلا بتوفيق الله تعالى ورحمته.

وقد كان ذلك لقدوم المهاجرين من مكة إلى المدينة لايملكون شيئاً، تركوا أموالهم، وأولادهم وأرضهم وديارهم، نصرة لله ولرسوله ﷺ ولدينه، ولم يكونوا أهل زراعة، ومع ذلك أعطاهم الأنصارُ، -الذين هم أهل الأرض والعقار- الأرضَ، ليعملوا فيها بنصف ثمارها، ومنهم من أعطيت له منيحة محضة، واستغنوا عنها لما فتح الله عليهم خيبر(١).

وقد رد النبي ﷺ، -نفسُه- ما أعطوه من نخل عندما فتحت عليه قريظة والنضير(٢).

وكان ذلك دليل إيثارهم المهاجرين على أنفسهم، حتى وصل بهم الإيثار إلى أن قالوا للرسول ﷺ: «إن شئت فخذ منا منازلنا». فقال لهم خيراً، وابتنى لأصحابه فى أرض وهبتها لهم الأنصار، وفى أراض ليست ملكاً لأحد(٣).

---

1 - انظر النووى، شرح مسلم (١٣٦٥) كتاب الجهاد والسير باب رد المهاجرين إلى الأنصار منائحهم.

2 - السابق نفس الباب. وانظر د. مهدى رزق الله، السيرة النبوية، (٣٠٠-٣٠١).

3 - د. مهدي رزق، السيرة النبوية، (٣٠١)، ونسبه للبلاذري في أنساب الأشراف (١/ ٢٧٠).

ولم تكتف الأنصار بذلك، بل بذلوا - طيعة- أنفسهم أموالهم للمهاجرين، فقالوا للرسول ﷺ: «اقسم بيننا وبين إخواننا النخيل». قال:«لا» فقالوا «تكفوننا المؤونة ونشرككم في الثمر»، قالوا: «سمعنا وأطعنا»[1]. وهذا منه ﷺ دفع للمهاجرين لاستكمال أجرهم وثوابهم، وألا يكونوا عالة يثقلون كواهل إخوانهم، ولئلا يظنوا بهجرتهم، وتركهم كلَ شيء، أنهم قد صار لهم الحق والعذر فى أن يجلسوا ويستريحوا شيئاً ما، من عناء ما قاسوا، ولكنه كان ﷺ يُعِدّهم لإتمام جهادهم، والثبات على مبادئ البذل والتضحية، ومواصلة مسيرة الهداية، متقدمين فيها الصفوف.

ومن التطبيقات العملية، قصة عبد الرحمن بن عوف ﷺ،حيث آخى رسول الله ﷺ بينه وبين سعد بن الربيع ﷺ، فقال له سعد: «إني أكثر الأنصار مالاً، فأقسمُ لك نصفَ مالي، وانظرْ أيَ زوجتيَّ هويتَ، نزلت لك عنها، فإذا حَلَّتْ تزوجْتَها، فقال له عبد الرحمن: «لا حاجة لي في ذلك، هل من سوق فيه تجارة؟ فَدُلَّ على سوق بنى قينقاع... إلى آخر الحديث، حيث تمكن من الزواج، ودَفْعِ المهر، وقال له الرسول ﷺ: «أَوْلِمْ ولو بشاة»[2]. ولم يكن سعد بن الربيع ﷺ منفرداً عن غيره من الأنصار، فيما عرضه على أخيه، كما يُظَنُّ، فقد طلبوا -كما أشرنا آنفاً- من النبي ﷺ أن يقاسموهم كل شيء، وأن يعطوهم منازلهم، فهو إذاً شأن الصحابة عامة في علاقتهم، وتعاونهم، مع بعضهم البعض، بعد الهجرة خاصةً، وبعد أن آخى النبى ﷺ فيما بينهم[3].

وعلى الرغم من هذا الإيثار، فقد أراد الرسول ﷺ أن يوجد تشريعاً يعالج للمهاجرين أوضاعهم الاقتصادية، فكان أن شرع نظام المؤاخاة فى السنة الأولى من الهجرة، حيث آخى

1 - البخارى (٢٣٢٥).

2 - البخارى، فتح البارى (٢٠٤٨).

3 - انظر د. البوطى، فقة السيرة، (١٥٨).

بين المهاجرين والأنصار على الحق والمواساة، والتوارث بعد المات دون ذوى الأرحام[1].

وروى أنس بن مالك ﷺ، أن رسول الله ﷺ حالف بين قريش والأنصار فى داره[2].

وروى البعض أن المؤاخاة كانت فى المسجد[3].

ومن الجدير بالذكر أن موضوع المؤاخاة قد تم مرتين، مرة فى مكة، والأخرى بعد الهجرة إلى المدينة، كما ذكره ابن عبد البر فى سيرته[4].

وذكر ابن حجر، أن من أغراض المؤاخاة، أن بعض المهاجرين كان أقوى من بعض، بالمال والعشيرة والقوى، فآخى بين الأعلى والأدنى، ليرتفق الأدنى بالأعلى، ويستعين الأعلى بالأدنى، ومِثْلُ هذا مؤاخاته ﷺ، لعلى بن أبى طالب ﷺ، لأنه هو الذى يقوم به من عهد الصبا، قبل البعثة، واستمر إلى ما بعدها، وكذا مؤاخاة حمزة وزيد بن حارثة، لأن زيداً مولاهم، فقد ثبتت أخوتهما وهما من المهاجرين[5].

وقد آخى النبى ﷺ بين أصحابه بعد وصوله المدينة، ليذهب عنهم وحشة الغربة، ويستأنسوا من مفارقة الأهل والعشيرة، ويشد بعضهم أزر بعض، فلما عز الإسلام، واجتمع الشمل وزالت الوحشة، واستطاعوا أن يقوموا بحياتهم وعيشهم، أبطل الله التوارث بالمؤاخاة، وأبقى أخوة الإيمان كما قال تعالى: ﴿وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَٰبِ

---

1 - البخاري، فتح الباري (٤٥٨٠)، وكذا تفسير ابن كثير (٢/ ٢٥٥).

2 - البخارى، فتح البارى (٢٢٩٤)، ومسلم (٢٥٢٩)، وذكره ابن كثير في البداية والنهاية (٣/ ٢٤٥)، وابن سعد، الطبقات، (١/ ٢٣٨-٢٣٩).

3 - لا تعارض بين القولين، كما ذكر شارح البخارى، الفتح (١٥/ ١٣٠). لأن المؤخاة لم تتم مرة واحدة، بل حسب من يدخل فى الإسلام، أو يقدم المدينة، وما في الصحيح يقدم على غيره، حيث ذكر مسلم أن ابتداء المؤخاة كان فى دار أنس بن مالك ﷺ.

4 - ابن عبد البر، الدرر فى اختصار المغازى والسير، (١٠٠)، تحقيق د. شوقى ضيف القاهرة سنة ١٣٨٦هـ - ١٩٦٦ م.

5 - ابن حجر، الفتح (١٥/ ١٢٩).

ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمُۢ ﴿٧٥﴾ [الأنفال:٧٥].

وقوله تعالى: ﴿ وَأُوْلُواْ ٱلۡأَرۡحَامِ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلَىٰ بِبَعۡضٖ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُهَٰجِرِينَ إِلَّآ أَن تَفۡعَلُوٓاْ إِلَىٰٓ أَوۡلِيَآئِكُم مَّعۡرُوفٗاۚ كَانَ ذَٰلِكَ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مَسۡطُورٗا ﴿٦﴾ ﴾ [الأحزاب:٦]. ومن ثَمَّ أُلْغِيَ ذلك بعد بدر أو بعد الأحزاب أو أحد[1].

وقد ذكر ابن عباس –رضي الله عنهما– أن ما ألغاه الإسلام من نظام المؤاخاة هو الإرث فقط، أما النصر والرفادة والنصيحة، وأن يوصى لبعض المتآخين بشيء من الميراث فكل ذلك باق[2]؛ بدليل مؤاخاته ﷺ بين سلمان الفارسى وأبى الدرداء وغيرهما ﷺ، وسلمان إنما أسلم بعد أحد وقبل الخندق.

وأما حكمة نسخ التوارث –علاوة على ما ذكرنا– أن الروح الإسلامية غدت العصب الطبيعي للمجتمع الإسلامي، في ظل الأخوة الإسلامية العامة، وما يترتب عليها من مسؤليات مختلفة، فلا يخشى على هذا النظام من التقصير أو التمييع أو التفكك، فلا غرو ولا ضرر فى أن تعود قرابة الرحم كما كانت؛ وإن أصبح ذلك أثراً بعد عين، فقد ذهبت هذه القضية مع ما ذهب من كثير من أخلاق، ومحاسن، وآداب الإسلام، التي كانت السبب فى ثباته وبقائه، وكانت سر حيويته وقوته، وانتشاره وعدالته، وسر علو المسلمين وحضارتهم.

مما سبق، يتضح لنا أن وحدة الأمة، وتساندها، لا يمكن أن يتم، إلا بعامل التآخى والمحبة، فتنهض حينئذ هذه الأمة، وتأخذ في أسباب الرقى و التقدم، لأن أى أمة لايجمعها هذا العامل لايمكن أن تتحد حول مبدأ ما، وما لم يكن الاتحاد حقيقة قائمة فلايمكن أن تتألف منها دولة.

---

1 - د. أكرم العمرى، المجتمع المدنى، ص ٧٨، ونقله عن لباب النقول، ص ٢٦٠، والشوكاني، فتح القدير، (٢/ ٣٣٠-٣٣١).

2 - البخارى(٤٥٨٠)، فى تفسير قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ عَقَدَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡ ﴾ [النساء: ٣٣].

إن التآخي لابد أن يكون مسبوقاً بعقيدة يتم الالتقاء حولها والإيمان بها، لأن التآخى بين مختلفى العقيدة وَهْمٌ، خاصة عندما تحمل العقيدة أصحابها على أنماط وطرائق وسلوك فى الحياة يميزها عن غيرها.

ومن ثم قدم النبى ﷺ العقيدة، التي جاءت من عند الله تعالى، لتقوم أخوة المؤمنين على ما التقت أفئدتهم عليه، بتلك العقيدة، وفى سبيلها يموتون ويستشهدون، فيقفوا بذلك جميعاً، صفاً واحداً، أمام الله تعالى، عبودية له، واظهاراً للخشوع عنده، والالتزام بتعاليمه، لا اعتبار بينهم لغير التقوى.

إن قيام مبدأ التعاون والتناصر، يطبق ميزان العدل والمساواة، وإن المجتمع السليم، هو الذي يقوم على أساسٍ من العدالة، في الاستفادة من أسباب الحياة والرزق، وإن أول من يضمن سلامة هذه العدالة، وتطبيقها، هو التآخي والتواد، ثم تليها ضمانة السلطة والقانون، فإذا لم تتحقق تلك المباديء، حل محلها الأحقاد والضغائن، بين أفراد المجتمع، والتى تنبيء عن الظلم والطغيان، المؤدى إلى الفتن والضعف والزوال.

من أجل ذلك اتخذ رسول الله ﷺ ، - بأمر الله تعالى - من هذا التآخى بين المهاجرين والأنصار، أساساً لأعظم نظام إجتماعى فى العالم، ثم تدرجت هذه المباديء إلى شكل أحكام وقوانين شرعية ملزمة، ولكن أساسها الأول، الذي لولاه ما قام هذا المجتمع، هو تلك الأخوة العظيمة، المؤسسة على عقيدة الإسلام الخالد، لما كان لها من أعظم الأثر الإيجابي والتطبيقي المستمر في شد أزر المجتمع، وتثبت دعائمه وأركانه[1]؛ ويوم أن أحس الناس بفقد ذلك الميزان للعدالة، وضعفت مقومات الأخوة، بدأ التفكك يأخذ فى أركان المجتمع الإسلامي، إثر تلك الموجات الساخطة التى بدأت تهل على دولة الإسلام.

---

1 - انظر: د. البوطي، فقه السيرة، ص ١٥٧-١٥٨.

النظرة القرآنية لسيرة مبدأ الأخوة في الإسلام:

ونذكر بعض الآيات القرآنية الكريمة، تبين موضوع الأخوة، وما ينبغي أن نستفيده منها؛ - على سبيل الاختصار، حيث أبرز القرآن الكريم جوانبه كافة، وشَرْحُ ذلك كله يخرج بنا عن حد المقصود -، وهذا ما اخترناه من الآيات الكريمات:

- قوله تعالى: ﴿ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ ﴿٤٧﴾ ﴾ [الحجر: ٤٧ وهي مكية].

- قوله تعالى: ﴿ فَمَنْ عُفِيَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَٱتِّبَاعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَٰنٍ ﴾ [البقرة: ١٧٨].

- قوله تعالى: ﴿ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا ﴾ [آل عمران: ١٠٣].

- قوله تعالى: ﴿ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَمَوَٰلِيكُمْ ﴾ [الأحزاب: ٥].

- قوله تعالى: ﴿ لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ﴾ [الحشر: ٨]. قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴾ [الحشر: ٩].

- قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾ [الحشر: ١٠].

- قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ﴾ [الحجرات: ١٠].

- قوله تعالى: ﴿ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ﴾ [الحجرات: ١٢].

- قوله تعالى: ﴿ فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ ﴾ [التوبة: ١١].

- قوله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَابَآءَكُمۡ وَإِخۡوَٰنَكُمۡ أَوۡلِيَآءَ إِنِ ٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡكُفۡرَ عَلَى ٱلۡإِيمَٰنِ﴾ [التوبة:٢٣].

- قوله تعالى: ﴿ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلۡأَوَّلُونَ مِنَ ٱلۡمُهَٰجِرِينَ وَٱلۡأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحۡسَٰنٖ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ﴾ [التوبة:١٠٠].

ونظرة إجمالية على هذه الآيات الكريمات، مع مراعاة الترتيب الزمنى للنزول، نراها تبين، وتؤكد المعاني التالية:

١ . إن ما يجمع المؤمنين، ويربط بينهم، ويُوجِدُ تلك الحقوق لكل أحد، هو الإيمان بالله رباً، وبالإسلام ديناً، وبمحمد ﷺ نبياً ورسولاً، لا شيء غير ذلك، وعظم ذلك بأسلوب القصر، فقال: ﴿ إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ إِخۡوَةٞ ﴾ [الحجرات: ١٠]، وهذه العقيدة والأخوة الإيمانية أظهرت الآيات بها دلائل فى غاية الأهمية.

أولها: أن تلك الأخوة، وهذا التآلف، الذي لم يحدث فى تاريخ البشرية، نعمة محضة من الله تعالى، لم يستطع أحد، ولن يستطيع أن يوجدها، فضلاً عن أن يضعها فى القلوب، لذا قال جل وعلا: ﴿ لَوۡ أَنفَقۡتَ مَا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا مَّآ أَلَّفۡتَ بَيۡنَ قُلُوبِهِمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيۡنَهُمۡ ﴾ [الأنفال: ٦٣]. بل أكثر من ذلك شأناً، ما ذكرته الآية الأخرى، وهو أن هذه الأخوة، بزغت وأشرقت، من جوف ليل العداء الدامس، حيث يقول سبحانه: ﴿ وَٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ كُنتُمۡ أَعۡدَآءٗ فَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِكُمۡ فَأَصۡبَحۡتُم بِنِعۡمَتِهِۦٓ إِخۡوَٰنٗا ﴾ [آل عمران: ١٠٣].

ثم بَيَّن الصورة المقابلة وجلاها، فنفى الولاية بين المؤمنين وبين غيرهم، حتى لو كانوا آباءهم أو إخوانهم، ليؤكد - بما لا يتطرق إليه الاحتمال - أن الأخوة توجد حيث يوجد الإيمان، فقال سبحانه وتعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَابَآءَكُمۡ وَإِخۡوَٰنَكُمۡ أَوۡلِيَآءَ إِنِ ٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡكُفۡرَ عَلَى ٱلۡإِيمَٰنِ﴾ [التوبة: ٢٣].

ثانيها: أن هذه الأخوة – بالتالي – لا تحدها أرض، ولا يقيدها زمن، بل كل مؤمن أخٌ لبقية المؤمنين في سائر بقاع الأرض، وأخٌ لمن كان يترضى عليه، ويدعو له، وأخٌ لمن يكون كذلك، وقد رأينا انجذاب المؤمنين، لمن كان من السالفين منهم، ومحبتهم لهم بغير صحبة، ولا رؤية، وهذا يؤكد ما ذكرناه من عالمية دعوة الإسلام، وشمولها، بما لا يدع ذرةً لتَشَكُّكٍ، أو مجالاً لريب، أو ثغرةً لمستشرق، إلا ثغرات الهوى، وعدم الحياد والإنصاف، والإعراض عن العلم وقواعده، فيما يتعلق بالإسلام وتعاليمه.

وجاء فى سياق ذلك، الآية التي تمهد الطريق لكل أحد، لكي يكون أخاً للمؤمنين، فى بقاع الدنيا كافة، وهى قوله تعالى: ﴿ فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخۡوَٰنُكُمۡ فِى ٱلدِّينِ ﴾ [التوبة: ١١]. ولايعقل أن يكون ذلك للعرب خاصة، فإن أي تائب من الشرك، أقام الصلاة وأدى الزكاة، تشرف وتمتع بإخوة الدين، لا يقف أمامه عائق من وطن، ولا زمن، وهذا يدل على أن كل كافر – في أي بقعة من المشرق – إذا أسلم، صار أخاً لكل مسلم – في مغارب الكون وأقاصيه شمالاً وجنوباً –.

ثالثها: بينت الآيات الكريمات – في جملة ما بينت –، المساواة والعدل كمظهر تام الوضوح، لتلك الإخوة فى الحقوق والواجبات، لافرق فى ذلك بين جليل وحقير، ولا ذكر وأنثى، ولا أحمر وأسود، ولا حر وعبد، كلهم تجمعهم أخوة الإيمان والمحبة والتآلف؛ والتفاضل بينهم إلا بالتقوى، «لا فضل لعربي على أعجمي، ولا لعجمي على عربي، ولا لأحمر على أسود، ولا أسود على أحمر، إلا بالتقوى»[1]، وقوله تعالى: ﴿ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡ ﴾ [الحجرات: ١٣].

وقد ذكرت تلك الآية الكريمة، – التي أوردنا في صدر الكلام – صورة حية لهذه الأخوة، – التي وصى الله تعالى بها، بسبب الإيمان –، لأولئك الذين لاحقوق لهم فى عالم

---

1 – رواه أحمد (٢٢٣٩١).

اليوم إلا الملاجيء، ودور الفشل، التي تساعد في إخراج طفل لا قيمة له،وهى قوله تعالى – عندما أُلغى في الإسلام عادة التبني – : ﴿ فَإِن لَّمۡ تَعۡلَمُوٓاْ ءَابَآءَهُمۡ فَإِخۡوَٰنُكُمۡ فِي ٱلدِّينِ وَمَوَٰلِيكُمۡ ﴾ [الأحزاب: ٥]. وهو تشريع، يوجب لغير معلومى الآباء – فما بال الباحث بمن علم أبوه وفُقِد – يوجب لهم هذه الحقوق المترتبة على أخوة الإيمان، التى شرعها لهم، كما شرعها لأعلى منهم منزلة اجتماعية أو مادية.

وهذا أعلى تشريع وصل إليه العالم، وهو تشريع لم يصل إليه مُشَرِّعُو حقوق الإنسان، والحقوق المدنية وغيرها، وإن كتبوا مثله حقوقاً، فإن الواقع ناضح بممارسات فاضحة فى هذا المجال، لا حصر لها! لا تخطئُها الأعين، بل هى صارخة، فاقئة لكل الأعين، صاخة لكل الأسماع، تهز الوجدان والضمائر الحية، وتدميها، لم تكن فى تشريع الإسلام ولا تطبيقه.

ونواصل تلك السيرة، لذلك الصرح الإيماني، الذي رعاه القرآن الكريم، وطبقه النبي ﷺ، وأصحابه، وعليه، وبه ارتفعت راية الإسلام، حيث التضحية، والبذل، ومحبة كل أحد لأخيه ما يحب لنفسه، بل إيثاره عليها.

نعود إلى النظرة الإجمالية، فنشير إلى سيرة الحقوق، – التي أخذت سنين – تنزيلاً وتطبيقاً، مع آيات قليلة، انتخبناها وافية بالغرض؛ لأنها تدل على ما وراءها:

٢. إن الحقوق التى شرعها الإسلام للمسلمين، بإخوة الدين، تدرجت من حفظ الحقوق التي لا تنازل عنها، في الدم والعرض والمال، وصولاً إلى البذل والإيثار، الذي يقدم فيه المؤمن أخاه على نفسه، بدءاً بعدم التحقير لأي معروف يبذله لإخوانه، ولو كان فى نهاية القلة[١]، مروراً بتفريج الكربات، والتيسير للمصائب العسيرات، وستر العورات، والمساندة والمواساة فى السراء والضراء.

---

1 – شيء من الأحاديث التى تدل على ذلك. قوله ﷺ: «لا تحقرن من المعروف شيئا ولو أن تلقى أخاك بوجه طلق» رواه مسلم (٢٦٢٦).

وتسعفنا الآيات، في الحقوق الأولى بذكر أدناها، تشديداً على أعلاها، ونذكر فى ذلك قوله تعالى: ﴿ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ﴾ [الحجرات: ١٢].

وقد جاء قبلها عدم السخرية، أو سوء الظن به، أو التجسس عليه، مع ترك التفاخر والتنابز بالالقاب، وبالتالي، ما يكون أكثر من ذلك فى عرضه فهو حرام، وكذلك ماله ودمه، قال ﷺ توضيحاً لذلك: « إذا كنتم ثلاثة فلا يتناجى اثنان دون صاحبهما فإن ذلك يحزنه»[١].

فما بالك بأزيد من ذلك، بل ما الظن بضربه وسفك دمه!... ومع ذلك ذكر القرآن الكريم، أنه يمكن أن يحدث ما يعكر صفو هذه الأخوة، بل يجرحها، وإن أعظم الجروح لها هو القتل، ومع ذلك - حتى إن وقع خطأً - لا ينفى الأخوة ولا يهدمها، بل أبقاها الشارع، وندب معها إلى العفو والإحسان، فقال تعالى: ﴿ فَمَنْ عُفِيَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَٱتِّبَاعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَٰنٍ ۗ ذَٰلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ ﴾ [البقرة: ١٧٨]. ولاشك أن الأخوة المذكورة هى أخوة الإيمان، اشارة للإحسان، والفضل، والمعروف.

وكذلك أمر أمراً قوياً، بألا نترك الخصومات، لتقوض جوانب الأخوة، ولم يتركها حتى جعلها تشريعاً، لا يجوز التفريط فيه، أو التغافل عنه، فقال: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ﴾ [الحجرات: ١٠]. وهنا نستشعر هذا المعنى، وهذا الموقع الجليل للصلح، وهو أنه إذا قام المؤمنون المهتمون بأمر إقامة هذا الدين، من الأئمة والعلماء، وأهل الفضل، في فض كل خصام، وإحلال الصلح محل البغضاء، والفرقة، والشحناء، والتدابر، والتربص، وغيرها، وأزيد منها، من أمور السوء بين المسلمين؛ فليتصور المرء حينئذ، قوة

١ - رواه البخاري (٦٢٨٨)، ومسلم (٢١٨٤).

هذا المجتمع وصفاءه، وتراص أفراده جميعاً على كلمة سواء، توحد صفهم، وتقوي بنيانهم، وتجعلهم كالجسد الواحد، والبنيان المرصوص، يستطيع أن يبني نهضته، وأن يرفع رايته، وأن يصمد لأعدائه، وأن يواصل سيرته شامخاً مستعصياً، على كل عوامل الهدم والفناء.

قال تعالى أيضاً: ﴿ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَصۡلِحُواْ ذَاتَ بَيۡنِكُمۡۖ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴾ [الأنفال: ١]. فجعل الإيمان ملهباً لهم، للمسارعة إلى ذلك؛ إذ هو من أهم مميزات الإيمان وعلاماته، وجعله كذلك محور اهتمام المؤمنين جميعاً، عندما أورد الخطاب بصيغة الجمع: ﴿ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَصۡلِحُواْ ذَاتَ بَيۡنِكُمۡ ﴾ [الأنفال: ١].

ونصل إلى الصورة التى جَلَّى القرآن الكريم جوانبها لكل المؤمنين، إلى قيام الساعة، وهى صورة المؤمنين أنفسهم، وارتباطهم، فقال تعالى: ﴿ لِلۡفُقَرَآءِ ٱلۡمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِمۡ وَأَمۡوَٰلِهِمۡ يَبۡتَغُونَ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٗا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ۝٨ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلۡإِيمَٰنَ مِن قَبۡلِهِمۡ يُحِبُّونَ مَنۡ هَاجَرَ إِلَيۡهِمۡ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمۡ حَاجَةٗ مِّمَّآ أُوتُواْ وَيُؤۡثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ وَلَوۡ كَانَ بِهِمۡ خَصَاصَةٞۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفۡسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ۝٩ وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَا تَجۡعَلۡ فِي قُلُوبِنَا غِلّٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٞ رَّحِيمٌ ۝١٠ ﴾ [الحشر: ٨-١٠].

ذكر صاحب الظلال، في الصور الثلاث، التي أبرزت فيها الآيات الملامح المميزة للمهاجرين والأنصار، والذين جاءوا من بعدهم، ما أبرز خصائص الأمة المسلمة على الإطلاق في جميع الأوطان والأزمان.

الصورة الأولى: هي صورة صادقة، تبرز فيها أهم الملامح المميزة للمهاجرين، أخرجوا إخراجاً من ديارهم وأموالهم، أكرههم على الخروج الأذى، والاضطهاد، والتنكر من قرابتهم وعشيرتهم، في مكة، لا ذنب لهم إلا أن يقولوا ربنا الله، وقد خرجوا تاركين

ديارهم وأموالهم، يبتغون فضلاً من الله ورضواناً، لا ملجأ لهم سواه، ومع أنهم مطاردون قليلون، كان خروجهم نصرة لله ولرسوله، بقلوبهم وسيوفهم، في أحرج الساعات وأضيق الأوقات ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾ الذين قالوا كلمة الإيمان بألسنتهم، وصدقوها بعملهم، فكان الصدق مقصوراً عليهم، بضمير الفصل مع علو المكانة، بالإشارة البعيدة إليهم؛ فهم صادقون مع الله في أنهم اختاروه، وصادقون مع رسوله ﷺ في أنهم اتبعوه، صادقون مع الحق في أنهم كانوا صورة منه تدب على الأرض، ويراها الناس.

والصورة الثانية: لأولئك الأنصار الذين تبوأوا الدار والإيمان، كذلك صورة مضيئة، صادقة، تفردت بصفات بلغت الآفاق؛ ولولا أنها وقعت بالفعل لحسبها الناس أحلاماً طائرة، ورؤى مجنحة، وأمثلة عليا، قد صاغها خيال مخلق.

وقد تبوأوا الدار - دار الهجرة، المدينة - قبل المهاجرين، وتبوأوا الإيمان فيها، كأنه منزل لهم؛ وكلمة دار هي أقرب ما تصور موقف الأنصار من الإيمان، أي: لقد كان دارهم ووطنهم، الذي تعيش فيه قلوبهم، وتسكن إليه أرواحهم.

وإن محبتهم للمهاجرين عند استقبالهم لهم، بهذا الحب الكريم، وبهذا البذل السخي، وبهذه المشاركة الرضية، - لم تعرف البشرية كلها حادثاً مثله -؛ ولم يروا أو يحسوا بموجدة فى صدورهم، على أولئك المهاجرين الذين قاسموهم كل شيء، من تفضيل فى بعض المواضع، أو مال يختصون به فى فيء، فلم يكن فى نفوسهم أدنى حسد أو ضيق، بل الإيثار على النفس مع الحاجة، هي القمة العليا التى بلغها الأنصار، وكانوا كذلك في كل مرة، وفى كل حالة، بصورة خارقة لمألوف البشر، مع التوقى من الشح المعوق عن كل خير، لأن الخير بذل فى صورة من الصور، بذل فى المال، وبذل فى العاطفة، وبذل فى الجهد، وبذل فى الحياة عند الاقتضاء، لا يمكن لشحيح أن يصنع خيراً، فهو يهم كل مرة بالأخذ، ولا يهم مرة بالعطاء، فإذا كان المسلم معطياً، باذلاً، كريماً، فهذا هو الفلاح.

ونصل الى **الصورة الثالثة،** التي بينت هذه السيرة المترابطة للمؤمنين، من يوم أن جاء الإسلام إلى نهاية الدنيا، وكان الأولون من أصحاب النبى ﷺ وتابعيهم بإحسان، المثل المدهش لها، وهى الصورة الرضية النظيفة الواعية، التى تبرز أهم ملامح التابعين، بل تبرز أخص خصائص الأمة المسلمة على الإطلاق، في جميع الأوطان والأزمان، والتى وضحت لنا ألوهية هذه الدعوة وربانيتها، فهؤلاء القوم صنع الله، إذ لو كانوا تربية شخص فمن الذى ربى من بعدهم، وإذا كانت تعاليمه، فما الذي حملهم عليها، وربطهم بها، وأقام الوازع فى نفوسهم من مخالفتها، ومن الذى جعل الأول والآخر والقريب والبعيد على نفس النهج.

هؤلاء الذين جاءوا من بعد المهاجرين والأنصار، سمة نفوسهم أنها تتوجه لربها طلباً للمغفرة، لا لنفسها فقط، بل لكل من سبقها بالإيمان، وتتوجه لربها كذلك بطلب براءة القلب من الغل للذين آمنوا كافة.

تتجلى إذن من وراء تلك النصوص، طبيعة هذه الأمة، وصورتها الوضيئة، في هذه الحياة، وتظهر الآصرة الوثيقة، التي تربط أول هذه الأمة بآخرها،وآخرها بأولها، في تضامن وتكافل وود وتعاطف، بل بشعور بوشيجة القربى العميقة، التى تتخطى الزمان والمكان والجنس والنسب، وتتفرد وحدها فى القلوب، ليذكر المؤمن بالحب أخاه، بعد هذه القرون المتطاولة، في إعزاز وكرامة وشوق، كذكره الحي أو أشد[1].

إنها كتيبة واحدة على مدار الزمان، واختلاف الأوطان، تحت راية الله تغذ السير صعداً إلى الأفق الكريم.

تلك صورة الأخوة كما ذكرها القرآن، وبين فيها القول، وفصل وأبدى وأوضح،

---

1 - انظر سيد قطب، فى ظلال القرآن(٦/ ٣٥٢٦-٣٥٢٧)، باختصار.

لتكون السيرة المنيرة، التى وضحها الرسول ﷺ، قولاً وتطبيقاً. لتأتى الآية الأخيرة، في ترتيب تلك الآيات الكريمات، - التي انتخبناها دليلاً ونبراساً لسيرة الأخوة فى القرآن الكريم - وهى قوله تعالى: ﴿ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ (١٠٠) ﴾ [التوبة: ١٠٠].

لتبين عظيم عاقبتهم، وحسن جزائهم، الذى أعده الله لهم، جراء ما قدموا مجتمعين إلى يوم القيامة صفاً واحداً، إنه أعظم الجزاء وأجله، رضا الله عنهم، ومجاورتهم له فى جنته – سبحانه وتعالى – خالدين فيها أبداً، وهو الجزاء الحامل على المسارعة إلى تحقيق هذه الأخوة، وملازمتها فى كل زمان ومكان.

٣. ونعود إلى ثالث الملاحظات، على آيات الأخوة وسيرتها القرآنية، وهى ملحوظة لابد منها في الدراسة القرآنية، وهى أن كل هذه الآيات مدنية، ولم تأت آية واحدة مكية، تشير إلى لزوم الأخوة، أو توصى وتأمر بها، ولاشك أن لها أسباباً، وفى ظن الباحث، أن ما توصل إليه من أسباب – إذ لم تذكر أيٌّ من المصادر التي اطلع عليها شيئاً من ذلك - تتلخص فيما يلى:

- أن أى أقلية توجد فى مكان، يربط بينها رباط العقيدة، أو الجنس، أو غيرها، تستشعر فيما بينها التآلف والمواساة، والقيام بمساعدة بعضهم بعضاً، خاصة عند استشعار الخوف من وقوع مكروه لهم، يهدد حياتهم، أو أموالهم، أو غير ذلك، فيبذلون فيما بينهم ما يدفعون به أي خطر يتهددهم، ويتحدون أمام أي عدو يحاول استباحتهم، ويصير حينئذ ولاؤهم المتضح فى التناصر والمعونة لمجموعتهم أو جماعتهم، بل إنهم يمكن أن يتعاهدوا على الموت جميعاً، في سبيل الذود عن بقائهم، وحماية أرواحهم، وأولادهم، وأموالهم.

ولذلك رأينا الصحابة الأولين فى مكة، لا ينقصهم التكافل والتراحم والمحبة والمودة، وإن كانوا لا يستطيعون في أحوال كثيرة أن يوقفوا، أو أن يقفوا أمام طوفان الظلم، الذي يغشى معظمهم، ومع ذلك لا ينفكون عن مواساة إخوانهم، وجدانياً، وأن يشاركوهم الشعور بما هم فيه؛ إذ لم يتمكنوا أن يدفعوا عنهم شيئاً.

إن المحنة التى حصرتهم، لاشك جمعتهم فى خندق واحد، يدفع كل عن إخوانه، كما يدفع عن نفسه، ويقف فيه عاري الصدر، محتملاً الأذى في سبيل بقاء هذه الجماعة المؤمنة، التي تعبد الله تعالى، حفاظاً على الدعوة، وتضحية بالنفس فما دونها، رخيصاً في سبيل دينه، ينتظر موعود الله بالنصر أو الشهادة، خاصة عندما باشر الإيمان شغاف قلوبهم.

• إن وجود القائد ﷺ يشاركهم، ويقاسمهم ذلك كله، وفى نفس الوقت يبث في قلوبهم ونفوسهم روح الإيمان، كان له أعظم الأثر فى التحامهم وتوادهم وتراحمهم وتعاطفهم. خاصة عندما يكون ﷺ القائم بالمواساة، والتعاطف، مع الضعيف الفقير قبل القوى المليء.

فكان واقعهم كفيلاً بقيام تلك الصورة الفريدة، من صور الأخوة والمحبة، لذا لم يكن ثَمَّ تشريع قرآني بها، إذ يكفى فيها واقع السنة العملى، فلما هاجروا إلى المدينة، ودخل فى الإسلام من لم يعايشوا تلك المرحلة، ويتحملوا مشاقها، نزلت التشريعات والوصايا، تأمر بذلك وتبشر به، وإن كانت النواة القدوة قد تعمقت جذورها، وقويت ساقها، مثالاً حياً وواقعاً حقيقياً، سرعان ما يدور فى فلكه، الآتي الغريب، عن هذا العلو السامق، ليكون أحد لبناته التى تقوى البنيان، وتشد من أزره: ﴿وَنَزَعۡنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنۡ غِلّٖ﴾ [الأعراف: ٤٣].

المبحث الثالث

الوثيقة (الصحيفة)

عندما استقر الرسول ﷺ بالمدنية، نظم العلاقات بين أهلها، وكتب كتاباً بهذا الشأن، أوردته المصادر التاريخية، وكذلك دلت على تفاصيله، وجزئياته، الآياتُ القرآنية، والمصادر الحديثية. عرف هذا الكتاب في المصادر القديمة باسم: (الصحيفة) أو (الكتاب)، وأسماه الكُتَّابُ المحدثون: (الدستور) أو(الوثيقة)، وقد استهدف توضيح التزامات جميع الأطراف داخل المدينة، وتحديد الحقوق والواجبات.

ولأهمية هذه الوثيقة، اعتمد الباحثون المعاصرون عليها، في دراسة تنظيمات الرسول ﷺ في المدينة المنورة، ونُظُم الدولة الإسلامية، وعلاقاتها بالملل والدول الأخرى، والنظام السياسى فى الإسلام، فمن ثَمَّ احتاجت منا لعرض، ودراسة مفصلة، خاصة وقد استهدفها "وات" بالنقد الشديد، على طريقته فى محو، وتأويل حقائق الإسلام الربانية، وسيرة الرسول ﷺ، المرتبط بالسماء[1]، عندما رأى ذلك قادحاً فى مناهج بحثه، التي يطوع التاريخ ويؤلفه لها.

1 - انظر د. البوطي، فقه السيرة، ص ١٥٩، وانظر د. أكرم العمري، السيرة النبوية الصحيحة، ص ٢٧٢ وما بعدها، وانظر د. مهدى رزق الله، السيرة النبوية، ص ٣٠٦ وما بعدها، وانظر محمد حميد الله، مجموعة الوثائق السياسية، ص ٣٩-٤١، وقد ذكر من كتب فى الوثيقة.

مدى صحة الوثيقة:

لتبيين مدى صحة نسبة هذه الوثيقة، إلى الرسول ﷺ، لما لها من أهمية تشريعية وتاريخية، نشير إلى بعض من ذكرها من المحدثين والإخباريين.

إن أقدم من أورد نصها كاملاً هو محمد بن إسحاق دون إسناد[1]، ونقلها كل من ابن سيد الناس في سيرته[2]، وكذلك ابن كثير[3]، أما الإمام البيهقى[4] فقد ذكر إسناد ابن إسحاق للوثيقة، - التي تحدد العلاقات بين المهاجرين والأنصار دون اليهود -، ويبدو أنه رواها من غير طريق ابن إسحاق، وأورد ابن سيد الناس رواية ابن أبى خيثمة[5] في تاريخه، بمثل رواية ابن إسحاق، ولكنه أسندها، ووردت في كتاب الأموال، لأبى عبيد القاسم بن

---

1 - ابن هشام، السيرة النبوية، (٢٢/ ١٠٣-١٠٥)، وهو ابن يَسار بن خِيَار الأخبْارى، العلامة، الحافظ، القرشى، المُطلبى، المدنى صاحب السيرة النبوية، ولد سنه ثمانين، ورأى أنس بن مالك وسعيد بن المسيب وهو أول من دون العلم بالمدينة، انظر سير أعلام النبلاء(٧/ ٣٣).

2 - انظر ابن سيد الناس، عيون الأثر فى فنون المغازى والشمائل والسير، (١/ ١٩٧-١٩٨)، وهو محمد بن محمد بن محمد بن أحمد، اليعمرى الربعى، أبو الفتح، عالم بالأدب، من حفاظ الحديث، له شعر رقيق، أصله من أشبيلية، ولد بالقاهرة ٦٧١ هـ وتوفى بها ٧٣٤ هـ، انظر الاعلام للزِّركلى(٧/ ٣٤).

3 - ابن كثير، البداية والنهاية، (٣/ ٢٢٤-٢٢٦)، وهوإسماعيل بن عمر بن كثير بن ضو بن درع القرشى البصروى الدمشقى، أبو الفداء عماد الدين، حافظ، مؤرخ، فقيه، ولد فى قريه من أعمال البصرى الشام سنة ٧٠٦ هـ وتوفى بدمشق ٧٧٤ هـ انظر الأعلام للزركلى(١/ ٣٢٠).

4 - البيهقى، السنن الكبرى، كتاب الديات، (٨/ ١٠٦)، وهو أحمد بن الحسين بن على، أبو بكر، من أئمة الحديث ولد فى خسر وجرد سنة ٣٨٤ هـ، فى قرى بيهق بنيسابور ورحل إلى بغداد ثم الكوفة ومكة وغيرهما ومات بنيسابور سنة ٤٥٨ هـ، وله تصانيف كثيرة فى الحديث والفقة الشافعى وغير ذلك من فروع العلم.

5 - الامام الحافظ الحجة أحمد بن أبى خيثمة زهير بن حرب النسائى- ٢٧٩ هـ، وهو أبو بكر أحمد بن أبى خيثمة زهير بن حرب بن شداد، نسائى الأصل صاحب التاريخ الكبير عَلِم الحديث عن أحمد بن حنبل ويحي بن معين والأدب عن محمد بن سلام الجُمحى وقال عند الدار قطنى ثقة مأمون، مات فى سنة ٢٧٩ هـ، وقد بلغ ٩٤ عاماً، انظر طبقات الحنابلة لابن أبى يعلى(١/ ٤٢) .

سلام[1] ولكن من طريق الزهري[2] موقوفة عليه، وقد وردت الصحيفة ذاتها من رواية الزهري أيضاً، في كتاب الأموال[3] لابن زنجويه[4].

أما صحة الوثيقة، فلاشك أنها تصلح أساساً للدراسة التاريخية؛ التى لاتتطلب عادة تلك الشروط العالية، من صحة الإسناد التى لابد أن تتوفر فيها، للاستدلال على الأحكام التشريعية، وقد ذكرنا صلاحيتها لذلك، للأسباب الآتية:

١. أنها وردت من طرق كثيرة، تتضافر في إكسابها القوة، والزهري علم من رواد كتاب السيرة، وهو من أوثق أهل العلم والرواية.

٢. أن أهم كتب السيرة والتاريخ، ذكرت موادعة النبى ﷺ لليهود، وأنهم جميعهم – أي: القبائل الكبيرة المعلومة في التاريخ – هي التي نقضت عهودها، وإلا ما معنى أن ترد الروايات التاريخية، المدعومة بالقرآن الكريم فى مهاجمتهم، وإخراجهم من المدينة المنورة، وما ذلك إلا لسبق العهود القوية، التي نقضوها مع النبي ﷺ، كما ذكرت الروايات كتابتها – أيضاً – بين المهاجرين و الأنصار.

---

1 – انظر أبا عبيد القاسم بن سلام، الأموال(٥١٧)، وهو الهروى الأزدى الخزاى، بالولاء، الخرسانى البغدادى، أبو عبيد، من كبار العلماء بالحديث والأدب والفقة ولد بهراة سنة ١٥٧ هـ، وتوفى بمكة سنة ٢٢٤ هـ، انظر الأعلام للزركلى(٥/ ١٧٦).

2 – الزُهْري: (٥٨-١٢٤ هـ)، محمد بن مسلم بن عبد الله بن شهاب الزهرى، من بنى زهرة بن كلاب من قريش، أبو بكر، أول من دون الحديث وأحد أكابر الحفاظ والفقهاء، تابعى من أهل المدينة، كان يحفظ ألفين ومئتى حديث، انظر الأعلام للزركلى(٧/ ٩٧).

3 – ابن زنجويه، كتاب الأموال، ص ٧٥، تحقيق د. شاكر ديب فياض.

4 – ابن زنجويه: حَمِيْد بن زيجوية، أبو أحمد، الإمام، الحافظ الكبير اسمه حميد بن مَخْلَد بن قُتيبة الأَزْدِى النسائى مولده فى حدود سنة ١٨٠ هـ وتوفى سنة ٢٥١ هـ، على الصحيح، حدث عنه أبو داود والنسائى والبخارى ومسلم وإبراهيم الحربى وأحمد بن حنبل كثير الحديث قديم الرحلة إلى الحجاز ومصر والشام والعراقيين، انظر سير أعلام النبلاء(١٢/ ١٩).

٣. أن أسلوب الوثيقة يدل على أصالتها[1]، فأسلوبها وجملها وما تكرر فيها، ينم على مألوف أساليب العصر المدني، وإن تشابهها، بل واستخدام نفس الجمل مع أساليب كتب الرسول ﷺ الأخرى ليعطيها قوة ويكسبها الثقة[2].

شواهد على فقرات الوثيقة قرآناً وسنة وتأريخاً:

نذكر بعض الشواهد التى تدل على صحة الصحيفة، من القرآن والسنة وكتب التاريخ، حتى نرد بذلك على القائلين بخلافه، ونبين تهافت كلام"وات".

ونبدأ بالتاريخ لنصل إلى الأعلى، حيث ذكر المؤرخون فقرات معينة، وردت في الصحيفة كالطبري[3] حيث أشار إلى كتابة المعاقل، و كذلك ابن سعد[4] أشار إلى كتابة المعاقل بين المؤمنين، وأن لايترك مُفرح* في الإسلام، ولا يقتل مسلم بكافر، وعبد الرزاق الصنعاني[5]، أشار إلى العقل على العاقلة، وأن ذلك بلغهم عن الرسول ﷺ، كما في الكتاب

1 - صالح العلى، تنظيمات الرسول الإدارية فى المدينة، ص ٤-٥.

2 - محمد حميد الله، مجموعة الوثائق السياسية، وفيها تلك المقارنات التي تثبت صحة الوثيقة.

3 - الطبري، التاريخ، (٢/ ٤٨٦)، وهو أبو جعفر، محمد بن جرير بن يزيد، المؤرخ، المفسر، الإمام، ولد فى أمل طبرستان سنة ٢٢٤ هـ، واستوطن بغداد وتوفى بها سنة ٣١٠ هـ، قال ابن الأثير: أبو جعفر أوثق المؤرخين، انظر الأعلام للزركلى(٦/ ٦٩).

4 - ابن سعد، الطبقات، دار صادر بيروت، وهو محمد بن سعد بن منيع الزهرى، مولاهم، أبو عبد الله، مؤرخ، ثقة، حفاظ الحديث ولد بالبصرة سنة ١٦٨ هـ وسكن بغداد وتوفى بها سنة ٢٣٠ هـ صحب الواقدى المؤرخ وعرف بكاتب الواقدى قال عنه اعطيت فى تاريخ بغداد: بن سعد من أهل العدالة وحديثه يدل على صدقه، انظر الأعلام للزركلى(٦/ ١٣٦).

* - المفرح: المثقل بالدين كثير العيال.

5 - المصنف (٩/ ٢٧٣-٢٧٤) بإسناد صحيح، لكنه مرسل، تحقيق حبيب الرحمن الأعظمي، طبعة بيروت، المكتب الإسلامي، ١٣٩٢هـ وهو ابن همام بن نافع الحميرى(١٢٦-٢١١ هـ)، مولاهم، أبو بكر الصنعانى، من حفاظ الحديث الثقات من أهل صنعاء، كان يحفظ نحو من سبعين عشر ألف حديث، قال عنه الذهبى: هو خزان علم، انظر الأعلام للزركلى(٣/ ٣٥٣).

الذي بين قريش والأنصار. وذكر المقريزى[1]، وابن حزم[2]، والديار بكري[3]، أن الرسول ﷺ كتب كتاباً وادع فيه اليهود، ذكر بعضهم بنى قينقاع، والنضير، وقريظة، إلى آخر ما ذكر، والآخر ذكر يهود فقط.

وقد ورد أثرٌ يؤكد موادعته ﷺ لليهود، وكتابته ذلك معهم، في قصة بني النضير لما غدروا يقول:

«... صبحهم ﷺ بالكتائب، فحصرهم يومه، ثم غدا على بنى قريظة، فحاصرهم، فعاهدوه، فانصرف عنهم إلى بنى النضير، فقاتلهم حتى نزلوا على الجلاء...[4]» وليس معنى ذلك أن الرسول ﷺ، لم يكن عاهد بنى قريظة، بل كان بينه وبينهم كتاب، فلما انشغل ببني عمومتهم، - يهود بني النضير - خشي غدرهم، فحاصرهم، فأكدوا له بقاءهم على ما كانوا عليه من العهد، فكان ذلك توكيداً.

وأما ما كان من سنة النبى ﷺ، التي تؤيد فقرات فى الوثيقة، فقد روى منها البخاري[5]

---

1 - المقريزي، إمتاع الأسماع، (١/ ٤٩)، أحمد بن على بن عبد القادر، أبو العباس الحسينى العبيدى، تقى الدين المقريزى، مؤرخ الديار المصرية أصلة من بعلبك ونسبتة إلى حاره المقارزة ولد بالقاهرة سنة ٧٦٦ هـ، ونشأ بها ومات بها سنة ٨٤٥هـ، وولى فيها الحسبة والإمامة والخطابة مرات، انظر الأعلام للزركلى(١/ ١٧٧).

2 - ابن حزم، جوامع السيرة ص ٩٥، وه على بن أحمد بن سعيد بن حزم الظاهرى، عالم الأندلس فى عصره، ولد بقرطبة سنة ٣٨٤ هـ، زكانت له ولأبيه من قبلة رياسة الوزاره فزهد فيها وانصرف إلى العلم، انتقد كثير من العلماء فحذروا منه السلاطين فأقصوه إلى بادية ليلة من بلاد الأندلس فتوفى فيها سنة ٤٥٦ هـ انظر الأعلام للزركلى(٤/ ٢٥٤).

3 - الديار بكرى تاريخ الخميس فى أحوال أنفس نفيس (١/ ٣٥٣)، وهو حسين بن محمد بن الحسن، مؤرخ، نسبته إلى ديار بكر، ولى قضاء مكة وتوفى بها حوالى سنة ٩٦٦ هـ، له تاريخ الخميس أجمل به السيرة النبوية وتاريخ الخلفاء والملوك، انظر الأعلام للزركلى(٢/ ٢٥٦).

4 - ابن مردويه، ذكره ابن حجر، في فتح الباري، كتاب المغازي، حديث بني النضير وقال: إسناده صحيح، (١٥/ ٢٠٢). وأخرجه عبد الرازق فى المصنف (٥/ ٣٥٩-٣٦٠)، وأبو داود في سننه (٢٦١٠) مطولاً. والبيهقي في الدلائل(٣/ ١٩٨).

5 - البخارى، (٣٠٤٦)، مع فتح البارى(١٢/ ١٣٧).

وأبو داود[1][2] والنسائي[3]وابن ماجه[4]، ونذكر مثلاً واحداً، وهو قوله ﷺ، فيما رواه النسائي: «المؤمنون تتكافأ دماؤهم، وهم يد على من سواهم، يسعى بذمتهم أدناهم، لايقتل مؤمن بكافر؛ ولا ذو عهد فى عهده».

هذه الروايات تثبت تحرير الكتاب، من النبي ﷺ بين المهاجرين والأنصار، وتؤيد الفقرات التى جاءت فى الصحيفة عن المعاقل، وفداء الأسرى للمهاجرين وبطون الأنصار.

لقد أورد أحد الباحثين، ثمانية أحاديث تثبت أصل الصحيفة، والكتابة بين المهاجرين والأنصار واليهود فى المدينة، وما فيها من تفصيلات، ثم ذكر لها شواهد كثيرة[5].

وأما الآيات القرآنية..

فقد ذكر الباحث نفسه، سبعاً وعشرين آية، توافق فقرات الصحيفة، ولولا خشية الإطالة، لأوردنا طرفاً منها.

ونهاية النظر في هذه الأدلة، توحي بأن جميع فقرات الصحيفة، لها شواهد من القرآن الكريم، والسنة الصحيحة.

إن الحقيقة العلمية، هي التي حملتنا على الكلام على صحة الوثيقة، بهذا التدقيق

---

1 - أبو داود، (٣٠٠٠).

2 - الخطابي، معالم السنن، (٢/ ٣٣٨) بإسناد صحيح.

3 - النسائي، (٨/ ٢٠).

4 - ابن ماجه، (٢٦٥٨-٢٦٥٩-٢٦٦٠).

5 - انظر د. مهدى رزق، السيرة النبوية فى ضوء المصادر الأصلية، ص(٣١٣-٣١٦)، حيث استعان فى الكلام على الصحيفة برسالة ماجستير لهارون رشيد محمد إسحاق، وهو الباحث المشار إليه، واسمها" صحيفة المدينة دراسة حديثية وتحقيق" والنقل هنا بتلخيص شديد من ص ١٣٣ فما بعدها..

العلمي، نظراً لوجود من يشكك فى صحتها، حيث وصلنا إلى أن التشكيك بعد ذلك، يعد مجازفة كبرى، وتَسَرُّعاً في إصدار الأحكام، ومجافاة للأسلوب العلمي، فضلاً عن مخالفة الواقع، كما ذهب إلى ذلك من المعاصرين الأستاذ/ يوسف العش[1]، والأستاذ/ ضيدان اليامي[2].

فالأول ذهب إلى أنها موضوعة، لأنها لم يروها إلا ابن إسحاق، بغير إسناد، والحقيقة - كما ذكرنا وأوردنا - غيرُ ذلك، والثاني: قال بأنها ضعيفة لا تصح، وينبغي عدم الاحتجاج بها، سوى ما ثبت لفظه أو معناه فى أحاديث أخر، وجاء في الصحيفة[3]، ومن ثَمَّ كان مهماً ما أوردناه، لنعلم حسن إسنادها لغيره، وأنها صحيحة صالحة للاحتجاج بها، في إثبات تلك السيرة من الوجهة التاريخية.

تاريخ كتابة الصحيفة:

ونتكلم فيه لأجل "وات"، حيث من طريقته - التي أشرنا إليها من قبل - تقطيع أوصال الحوادث، والاستدلال بكل جزء مبتور على زمان، أو على حكم، بحيث يخرج الحادث أو النص، من سياقه التاريخي، إلى تاريخ لا علاقة للنص به، بل ولم يقع فيه، - ويمكن أن يكون قد وقع قبل أو بعد ذلك بسنين متطاولة - ليصل إلى نتائج من السيرة وبواعث لها، قد أعدها سلفاً.

وهذا يجرنا إلى بحث الدكتور/ أكرم العمري، حيث انتهى فيه إلى أن الوثيقة فى الأصل كانت وثيقتين، ثم جمع المؤرخون بينهما، لتشابه المواقف والأغراض، وكانت الأولى

---

1 - يوسف العش، الدولة العربية وسقوطها، حاشية ٩ ص ٢٠، وهى ترجمة للكتاب المذكور لفلهاوزن.

2 - ضيدان اليامى، بيان الحقيقة فى الحكم على الوثيقة وثيقة- المدينة.

3 -د. مهدى رزق الله، السيرة النبوية، ص ٣١١-٣١٢، حيث ذكر الردود كذلك على هذا الرأي.

بين الرسول ﷺ، يوادع فيها اليهود، والثانية بين قريش (المهاجرين)، والأنصار، تنص على حقوقهم، وواجباتهم، وما يلتزم به كل طرف، وقد ساق أدلته على ذلك، التي منها: أن كتاب اليهود، كان عند قدوم النبي ﷺ المدينة، والكتاب بين المهاجرين والأنصار، كان عند مرجعه ﷺ من بدر منتصراً على قريش، وكان المهاجرون قد كثروا من مكة، ومن غيرها إلى الدرجة التي تُلْزِم – بعد هذا النصر – أن يوضع دستور يحدد تلك العلاقات.

وأما ماورد من كتابةٍ بين النبي ﷺ وبين اليهود بعد قتل كعب بن الأشرف اليهودى، – وكان قتل بعد بدر الكبرى –، فإنما كان توكيداً لما سبق، لأن قتل ابن الأشرف كان بسبب نقضه العهد بينه وبين المسلمين، وإعلان العداوة للنبى ﷺ ، وممالأته لقريش على النبى ﷺ، ورثائه لقتلى بدر، إلى آخر مافعله غادراً بعهده مع النبى ﷺ والمسلمين، وقد نزل من القرآن الكريم، ما يؤيد ذلك بعد بدر، كما في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ عَٰهَدتَّ مِنۡهُمۡ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهۡدَهُمۡ فِي كُلِّ مَرَّةٖ وَهُمۡ لَا يَتَّقُونَ ٥٦﴾[1] [الأنفال: ٥٦]. وهى تشير إلى أكثر من معاهدة تمت بين الرسول ﷺ واليهود، كما بين ذلك أهل التفسير[2].

ونستعرض الآن بنود الصحيفة سريعاً، مع تحليل لايخل بالمقصود؛ لنرى تقدم الإسلام في هذا الباب، وسبقه للدنيا في إقرار الدساتير، والعمل بمقتضاها، ولنرد سريعاً على "وات" في مزاعمهم التي أوردها.

أما نص الوثيقة فهي:

---

1 – انظر د. أكرم العمري، السيرة النبوية الصحيحة، ص ٢٧٦ ،وما بعدها، حيث ذكر كل أدلته. وذهب إلى تأييد هذا الرأى . د. مهدي رزق الله فى السيرة، ص ٣١٣، وقد أورده أيضاً د. أكرم العمري في كتابه (المجتمع المدني في عهد النبوة– خصائصه وتنظيماته)،ص (١١١-١١٧)، وذكر في الهامش أن د. صالح العلى ذهب إلى أن وثيقة معاهدة اليهود كتبت أيضاً بعد بدر، تنظيمات الرسول الإدارية فى المدينة ص ٦، أما الآية فهي نزلت بعد بدر مباشرة تعقيباً وتعليقاً على غزوة بدر.

2 – انظر ابن الجوزى، زاد المسير (٣/ ٣٧٢).

بسم الله الرحمن الرحيم

١ . هذا كتاب، من محمد النبى ﷺ، بين المؤمنين والمسلمين من قريش، (وأهل) يثرب ومن تبعهم، فلحق بهم وجاهد معهم.

٢ . إنهم أمة واحدة من دون الناس.

٣. المهاجرون من قريش، على ربعتهم، يتعاقلون بينهم، وهم يفدون عانيهم بالمعروف، والقسط بين المؤمنين.

٤. وبنو عوف على ربعتهم، يتعاقلون معاقلهم الأولى، كل طائفة تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين.

(٥-١١) كل ذلك نفس بند بنى عوف من الأنصار وهو البند الرابع (٤).

١٢أ. وإن المؤمنين لايتركون مفرَحاً بينهم، أن يعطوه بالمعروف من فداء أو عقل.

١٢ب. وأن لا يخالف مؤمن مولى مؤمن دونه.

١٣- وأن المؤمنين المتقين، أيديهم على كل من بغى منهم، أو ابتغى دسيعة ظلم[1]، أو إثماً، أو عدواناً، أو فساداً بين المؤمنين، وأن أيديهم عليه جميعاً، ولو كان ولد أحدهم.

١٤- ولا يقتل مؤمن مؤمناً فى كافر، ولا ينصر كافراً على مؤمن.

١٥- وإن ذمة الله واحدة، يجير عليهم أدناهم، وإن المؤمنين بعضهم موالى بعض، دون الناس.

١٦- وإنه من تبعنا من يهود، فإن له النصر والأسوة، غير مظلومين ولا متناصر عليهم.

١٧- وإن سلم المؤمنين واحدة، لا يسالم مؤمن دون مؤمن، في قتال في سبيل الله، إلا على سواء وعدل بينهم.

---

1 - دسيعة الظلم: طلب عطية بدون وجه حق.

١٨ – وإن كل غازية غزت معنا يعقب بعضها بعضاً.

١٩ – وإن المؤمنين يبيء بعضهم عن بعض بما نال دماءهم فى سبيل الله.

٢٠ – وإن المؤمنين المتقين على أحسن هدى وأقومه.

٢١ أ– وإنه من اعتبط مؤمناً قتلاً عن بينة فإنه قود به، إلا أن يرضى ولى المقتول بالعقل، وإن المؤمنين عليه كافة، ولايحل لهم إلا القيام عليه.

٢١ ب. وإنه لا يجير مشرك مالاً لقريش ولانفساً، ولايحول دونه على مؤمن.

٢٢– وإنه لايحل لمؤمن أقر بما فى هذه الصحيفة، وآمن بالله واليوم الآخر أن ينصر محدثاً، أو يؤويه، وإن من نصره أو آواه فإن عليه لعنة الله وغضبه يوم القيامة، ولايوخذ منه صرف ولاعدل.

٢٣– وإنه مهما اختلفتم فيه من شيء فإن مرده إلى الله وإلى محمد ﷺ.

ومن هنا تبدأ وثيقة يهود.

٢٤– وإن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين.

٢٥– وإن يهود بنى عوف أمة مع المؤمنين، لليهود دينهم، وللمسلمين دينهم، مواليهم وأنفسهم إلا من ظلم نفسه، وأثم، فإنه لا يوتغ[١] إلا نفسه وأهل بيته.

وما جرى مع يهود بنى عوف يجرى مع بقية قبائل الأنصار حتى البند (٣٦).

٣٦– وإنه لا يخرج منهم أحدٌ إلا بإذن محمد ﷺ.

٣٦ ب– وإنه لا ينحجز على ثأر جرح، وإنه من فتك فبنفسه وأهل بيته، إلا من ظلم وإن الله على أبر هذا.

٣٧– وإن عليهم نفقتهم، وعلى المسلمين نفقتهم، وإن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة، وإن بينهم النصح والبر دون الإثم.

---

1 – أي: لا يهلك إلا نفسه وأهل بيته فهم يتحملون معه الدية مثلاً.

٣٧ ب- وإنه لا يأثم امرؤ بحليفه، وإن النصر للمظلوم.

٣٨- وإن اليهود ينفقون مع المؤمنين ماداموا محاربين.

٣٩- وإن يثرب حرام جوفها لأهل هذه الصحيفة.

٤٠- وإن الجار كالنفس غير مضار ولا آثم.

٤١- وإنه لا تجار حرمة إلا بإذن أهلها.

٤٢- وإن ماكان بين أهل هذه الصحيفة من حدث، أو اشتجار يخاف فساده، فإن مرده إلى الله وإلى محمد رسول الله ﷺ، وإن الله على اتقى ما فى هذه الصحيفة وأبره.

٤٣- وإنه لا تجار قريش ولا من نصرها.

٤٤- وإن بينهم النصر على من دهم يثرب.

٤٥أ- وإذا دعوا إلى صالح يصالحونه ويلبسونه فإنهم يصالحونه ويلبسونه، وإنهم إذا دعوا إلى مثل ذلك، فإن لهم على المؤمنين إلا من حارب فى الدين.

٤٥ ب- على كل أناس حصتهم من جانبهم الذى قبلهم.

٤٦- وإن يهود الأوس مواليهم، وأنفسهم، على مثل ما لأهل هذه الصحيفة مع البر المحض، من أهل هذه الصحيفة، وإن البر دون الإثم، لا يكسب كاسب إلا على نفسه، وإن الله على أصدق ما فى الصحيفة وأبره.

٤٧- وإنه لايحول هذا الكتاب دون ظالم أو آثم، وإنه من خرج آمن، ومن قعد آمن، بالمدينة، إلا من ظلم وأثم، وإن الله جار لمن بر واتقى، ومحمد رسول الله ﷺ[1].

وبالتأمل في هذه الصحيفة:

---

1 - اختصرنا هذه النصوص، ولهذه الوثيقة يمكن مراجعة. محمد حميد الله، مجموعة الوثائق السياسية،ص ٤١-٤٧، د. اكرم العمرى، السيرة النبوية ص ٢٨٢-٢٨٥، ود. البوطي، فقه السيرة، ص ١٥٩-١٦٣، د. مهدى رزق الله، السيرة النبوية، ص ٣١٦-٣١٧ وغيرها.

نراها تشتمل على مبادئ دستورية، إما واضحة وشاملة، أو يمكن استنباطها من تلك المبادئ المنصوصة، مع انطواء كل ذلك على أحكام شرعية، ذلك كله يجعل كلمة «دستور» هي أقرب إطلاق مناسب من المصطلحات الحديثة على الوثيقة، ومن ثَمَّ تكون هذه الوثيقة أقدم دستور مكتوب فى العالم، وإذا كانت بمثابة إعلان دستور، فإنها شملت على ما يمكن أن يعالجه أي دستور حديث، يوضح الخطوط الكلية لنظام الدولة فى الداخل والخارج؛ فيما يتعلق بأفراد الدولة مع بعضهم البعض، أو يتعلق بعلاقة الدولة مع الآخرين، ولكن هذه الوثيقة تختلف، أو تزيد عن دساتير اليوم بما يلى:

أولاً: الدولة الإسلامية دولة دستورية، والكلمة العليا فيها للشرع؛ فهى ليست كالدول الدينية فى القرون الوسطى فى أوربا، والتي حاولوا أن يصموا بها الدولة الإسلامية.

ثانياً: الدولة الإسلامية بدأت حضارتها التى سادت الدنيا، باتباعها لتلك التعاليم والمباديء، وتطبيقها على أرض الواقع، فى حين كانت أوربا تحارب العلم، وتحرق العلماء باسم الدين.

ثالثاً: العدالةُ، والمساواةُ، وحريةُ العقيدةِ، التي تمتع بها أفراد الدولة الإسلامية لا تحتاج لدليلٍ، إذ كان يمكن ليهوديٍ – مثلاً – أن يقاضى رئيس الدولة رأساً، ويأخذ حقه منه، فى حين أن العنصرية والتمييز ما زالا قائِمَين إلى وقت قريب فى أوربا وأمريكا رسمياً، فما زال الواقع يعج أفراداً ومؤسسات بتلك التفرقة وهذه العنصرية والنازية.

رابعاً: هذا الدستور (الوثيقة)، ينطوي على الجانب الأخلاقي، المتمثل في مخاطبة المؤمنين المتقين، بمطالبتهم أن يكونوا قوامين بالقسط شهداء لله، ولو على أنفسهم أو الوالدين والأقربين، رجاء الحذر من حساب اليوم الآخر، بما لا نظير له في الدساتير الوضعية.

خامساً: وفي الجانب الاجتماعي، جعلت الوثيقة الجميع - من الأسرة إلى العشيرة - مسئولاً عما يقع لأفرادها؛ ليقوموا به، من تكافل وتضامن، وإن لم يتمكنوا من ذلك، قامت به الدولة، من بيت مالها، فلا تدع مفرحاً، مثقلاً بالدين، كثير العيال، أو لا عشيرة له، ولا قوم، إلا قامت هي به، تقضي دينه، وتقوم بأولاده، على خلاف واقع اليوم، في الغرب كله، حيث المدين ينتظره الخراب والسجن.

سادساً: هذه المقومات الدستورية - في مجموعها - إنما تقوم على فكرة وحدة الأمة الإسلامية، وما يتعلق بها من المواد التنظيمية الأخرى، المنبثقة من العقيدة الواحدة، فالمسلم له تلك الحقوق، في أي بقعة كانت من بقاع الأرض، بغض النظر عن الجنسية أو الأرض أو غيرها.

سابعاً: تُمَيِّزُ هذه الوثيقة (الدستور) الإسلامَ بأنه دين شامل، لا يقتصر - كما يريد له المستشرقون وأذنابهم - على علاقة المرء بين الإنسان وربه، أو أنه دين يختص بالعرب، أو لا يخرج عن الحدود الإقليمية، ويكفى تكذيب الواقع لكل ذلك، وما حاولوا نشر هذه الغربة إلا لإيقاف المد الإسلامي المتنامي، وحيوية الإسلام المدهشة، أمام دخول الغرب فيه.

وبعد ذلك نقول: إن هذا الدستور قد وضعه الرسول ﷺ، بوحي الله له، لأنه: ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ۝٤ ﴾ [النجم: ٣-٤]. وكتبه أصحابه رضوان الله عليهم، وإن تطبيق المسلمين له أيام النبوة وبعدها، وفى أيام تولى الحكم، كان وفقاً لشرع الله. رأينا ذلك كله دليلاً على صحة الوثيقة، ولاشك أن هذه الأصول الدستورية العامة، تؤيد ما جَدَّ مما يحقق مصالح المسلمين، ونفعهم، ولا يتعارض مع أسس الإسلام، ومبادئه، مما يدل على مرونة الشريعة، وسعتها، وصلاحيتها لكل زمان ومكان. لأننا ما سمعنا بإهدار هذه النصوص، أو التفلت من الالتزام بها، إلا حين خالف الناس الشرع، وأداروا ظهورهم له،

متوجهين شرقاً وغرباً، وما انتكست تلك الحضارة إلا بالبعد عن تعاليم الإسلام الصحيحة[1].

وبذلك يظهر الفارق الضخم، بين هذا الدستور والدساتير الأخرى، من حيث إنه يعتمد في تطبيقه على الجانب الدينى، المتعلق بالإيمان بالله وباليوم الآخر، ليؤكد تلك الأسس الإلهية، في الوازع الحامل للناس على الانقياد لتلك القوانين.

إن تحليلاً سريعاً لبنود الوثيقة يظهر لنا:

- أنها بين المسلمين المؤمنين، من قريش ويثرب، ومن تبعهم فلحق بهم، فكان أن بينت – من أول بند – أنها اتفاق شامل لكل مسلم فى كل مكان، مما يدل على أن المسلم حيث كان، مرتبط بذلك الكيان الواحد، «فإنهم أمة من دون الناس»، مما يؤكد على رباط العقيدة، فوجهتهم وولاؤهم، لله تعالى ورسوله ﷺ، وليس للقبيلة ولا للدم، فاتحدت قبلتهم مع شعورهم وأفكارهم؛ وإن احتكامهم كذلك للشرع، وليس لعرف أو تقليد، لا يقرهما الشرع، وكان ذلك يستهدف اعتزازهم بذاتهم، حتى نهاهم أن يتشبهوا بغيرهم، فقال ﷺ: «من تشبه بقوم فهو منهم»[2]، مميزاً لهم عن غيرهم تميزاً واستعلاء، لا يشكل حاجزاً بينهم وبين غيرهم، ليدخلوا في الإسلام.

- ومع ذلك ذكرت بنود فى الوثيقة عشائر الأنصار، ولم تذكرهم ليكون الولاء لغير الله تعالى، – للقبيلة – وإنما بينت بغير لبس أسباب ذلك، في تدرج نظام التكافل من ناحية، والتنظيمات الإدارية من ناحية أخرى، ففى نظام التكافل، بَيَّنَتْ حقوق وواجبات العشيرة الواحدة، من التضامن فى إعانة المحتاجين، وفكاك الأسرى، وتحمل الديات، وغيرها، مما

1 – انظر لما سبق د. البوطي، فقه السيرة، ص ١٦١.

2 – رواه أحمد (٤٨٦٨)، وأبو داود (٣٥١٢).

هو موجود، أو مما يفرضه الواقع؛ وأما التنظيمات الإدارية، فكثيرة في مسئولية كل عشيرة، في مشاركتها الدولة فى القيام بشؤونها، وإعداد رسلها، وجنودها ونقبائها، مع القيام بتنفيذ أمور الدين، وإبلاغ أعمال الرسول ﷺ، وأموره ونواهيه، ووصاياه إلى غيرها، والقيام بمصلحة كل فئة، وترتيب كل الأمور، الترتيب اللائق بها فى مثل هذا الواقع، ولمثل هذه الأعمال، تحت القيادة العامة لرسول الله ﷺ.

• وكما أكدت الوثيقة ما سبق، فقد أكدت على المسؤلية الجماعية، وأن سائر المؤمنين مسؤلون عن تحقيق الأمن، والعدل، في مجتمع المدينة، خاصة، وأن الحدود الشرعية، وأوامر الشرع، وما يتعلق بشيوع المعروف فى المجتمع، كل ذلك من الله تعالى، فكان تطبيقه واجباً دينياً على جميع المؤمنين، ومن ثَمَّ نَصَّت الوثيقة على أن أيدي المؤمنين المتقين، على كل من بغى منهم، أو ابتغى دسيعة ظلم، أو إثماً، أو عدواناً، أو فساداً بين المؤمنين، وأيديهم عليه جميعاً، ولو كان ولد أحدهم، وبذلك كان المؤمنؤن المتقون - لكمال إيمانهم عن غيرهم من المؤمنين، الذين يمكن أن يقعوا فى مثل ذلك - أحرص من سواهم على القيام بواجبات الدين تلك، وكان مثلاً لذلك، القتلُ، حيث فيه القصاص، إلا أن ينزل أولياء القتيل إلى الدية أو العفو، بينت الوثيقة فيه أنه إن اختار أولياء القتيل القتل أو الدية، فإن المؤمنين جميعهم، بمن فيهم أولياء القاتل، يتعاونون في تطبيق الحكم عليه، وعدم حمايته أو إيوائه، ومن خالف ذلك فعليه لعنة الله، وغضبه يوم القيامة، لا يُقْبل منه صرف ولا عدل.

• وأقرت الوثيقة مبدأ الجوار[1]، وجعلته حقاً للرجل والمرأة على السواء، وهو من دقة المساواة الواقعة بين المؤمنين، بحيث لا يجوز لأحد أن يخفر مسلماً فى جواره، إذ ذمة المسلم - أياً كان – محترمة، لا يتعدى عليها حاكم أو محكوم، ولكنها منعت من بقى على شركه من الأوس والخزرج أن يجير قريشاً، أو تجارتها، التي تمر غربي المدينة، إذ في إجارة العدو شيوع

1 - جوار بكسر الجيم وضمها والكسر أفصح، جاور بنى فلان أى تَحَّرم بجوارهم، لسان العرب باب«جور».

عدم الاستقرار، والعداوة، التي جعلت الوثيقة الأمن بها لجوف المدينة، ومن قعد ومن رحل كل ذلك آمن. إن ذلك تهديد مباشر ونقض لهذه الوثيقة، حيث أقرت الوثيقة العيش فى سلام، لكل أهل المدينة، كما قرأنا في بنودها، ولكن الموالاة التي ينبني عليها المحبة والنصرة والمعونة والتأييد، فهي محصورة فقط فى المؤمنين؛ إذ لا يجوز لمسلم أن يوالى كافراً، كما قال تعالى: ﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾ [التوبة: ٧١] وقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ ۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ﴾ [المائدة: ٥١] وقال تعالى: ﴿ لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [آل عمران: ٢٨]. وإن كان الإسلام لا يمنع البر والقسط، مع أهل الكتاب المسالمين له.

• ومع ما تقدم، يصح إذن البند (١٧) القائل: إن سلم المؤمنين واحدة، ولكن لا يسالم مؤمن لنفسه من دون المؤمنين، بل إن إعلان الحرب من اختصاص النبي ﷺ، وعليه فإن المسلمين جميعاً يكونون فى حالة حرب مع ذلك العدو، فلا يمكن لفرد أن يهادنهم، لارتباطه بسياسة المسلمين الواحدة تجاه عدوهم، وإن عبء الحرب يقع على كل المؤمنين، بحيث تعقب كل غازية أخرى متناوبين فى الجهاد.

وفى ختام كلام الوثيقة بين المهاجرين والأنصار، كان المرجع الأعلى لكل خلاف يقع بين المسلمين، مرده إلى الله جل وعلا ورسوله ﷺ[1].

وبفراغنا من نظرة عجلى، على ما كان بين المسلمين، من شروط فى الوثيقة، نشرع فى نظرة أخرى، تلقي – كذلك – الضوء سريعاً على شروط المعاهدة بين المسلمين واليهود، مع تحليل ما يهمنا منها لنرد بكليهما على "وات":

---

1 – ينظر لما سبق، د. البوطي، فقه السيرة، ص ١٦٢، د. أكرم العمري، السيرة النبوية، ص (٢٩٢-٢٩٨)، د. مهدي رزق، السيرة النبوية، ص (٣١٦-٣١٨)، وبعض ما سبق لأبي عبيد، القاسم بن سلام، الأموال، ص ٢٩٤.

- إن بنود تلك المعاهدة، التي تنظم هذه العلاقات، بين المسلمين واليهود، تبدأ من البند الرابع والعشرين، إلى السابع والأربعين.

- وإن أول ما يطالعنا فى تلك النصوص، هو الحرية الدينية لليهود، وإنهم ما زالوا على ذلك، حتى لما غدروا وأخرجهم الرسول ﷺ من المدينة، بنقضهم تلك المواثيق، خرجوا وهم يهود، ومن بقى منهم – من غير القبائل الثلاث اللاتى نكثت أيمانها، ومزقت كتب مواثيقها –، ظل يتمتع بتلك الحرية الدينية، والبقاء فى المدينة، حتى إن الرسول ﷺ توفي ودرعه مرهون عند يهودي[1].

- لم يقتصر الأمر على ذلك، بل جعل ﷺ ذلك لليهود، ولحلفائهم ولمن تهود من المشركين، فقالت الوثيقة: لليهود دينهم وللمسلمين دينهم ومواليهم وأنفسهم(٢٥-٣٥،٤٦).

- وأكدت كذلك، أن المسؤلية الجنائية، لا تخص إلا صاحبها، فلا يأثم امرؤ بحليفه، وأن النصر للمظلوم، وأن من ظلم وأثم لايوتغ إلا نفسه وأهل بيته، كما هو الحال مع المسلمين، أو يتركون المدينة، فهم كذلك. (٣١، ٣٧ب).

- وإن أجار اليهود أحداً، فهو كالنفس غير مضار ولا آثم، ولكن لاتجار حرمة إلا بإذن أهلها، فلا يفتئت أحد على أحد بجوار إلا أن يوافق أهل المستجير.(٤١،٤٠).

- ثم جعلت الوثيقة المدينة حرماً آمناً، حرام جوفها لأهل هذه الصحيفة، فلا يحل انتهاكه، فلا يقتل صيده، ولا يقطع شجره، وحرم المدينة بين الحَرَّة الشرقية والحرة الغربية، وبين جبل ثور فى الشمال، وجبل عير فى الجنوب، ويدخل وادى العقيق فى الحرم، وبذلك

1 – البخارى(٢٩١٦).

أحلت هذه المادة الأمن فى المدينة، ومنعت الحروب الداخلية[1]، وبناء عليه جاءت نصوص التعاون والتناصر، وتتلخص فى أن بين أهل هذه الصحيفة، النصر والنصح والنصيحة، والبر دون الإثم، وتفصيل بعضه فيما يلى:

- أن بينهم النصر على من دهم يثرب، وعلى كل أناس حصتهم التى من قبلهم، (٤٤، ٤٥) فعلى اليهود نفقتهم، وعلى المسلمين نفقتهم.

- ومهما كان المؤمنون محاربين، فإن اليهود ينفقون معهم ما داموا كذلك.

- وأنهم إذا دعوا صالح فإنهم يصالحونه، وكذلك المؤمنؤن إلا من حارب فى الدين، ومن ثَمَّ لا تُجَار قريش ولا من نصرها. لما بينها وبين المسلمين من حرب، وأذى شديد بسبب الإسلام.

- ولوجود هذه الوثيقة، فإنه لا يخرج من المدينة أحد، إلا بإذن رسول الله ﷺ، لسلطانه على المسلمين، ولعهده مع اليهود؛ وذلك لما يراه من مصلحة، كأمن المدينة، أو اقتصادها، أو غير ذلك من المصالح العامة، فإن الجميع يخضع للنظام العام، حيث أقر اليهود بسلطة عليا تحاكم فيما يعن من شجار، بين المسلمين واليهود، وهى الرجوع إلى الله تعالى وإلى رسوله ﷺ، إن كان ما يدخل في ذلك، ليس مما يختصمون فيه من قضاياهم الشخصية، فهم يردون فيها إلى التوراة، ليقضى لهم فيها أحبارهم، إلا حيث يحكمون فيها الرسول ﷺ، فإن شاء قضى بينهم، وإن شاء أعرض عن ذلك، كما قال تعالى: ﴿ فَإِن جَآءُوكَ فَٱحۡكُم بَيۡنَهُمۡ أَوۡ أَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡۖ وَإِن تُعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ فَلَن يَضُرُّوكَ شَيۡـٔٗاۖ وَإِنۡ حَكَمۡتَ فَٱحۡكُم بَيۡنَهُم بِٱلۡقِسۡطِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ ﴿٤٢﴾ ﴾ [المائدة: ٤٢].

---

1 - انظر النووي، شرح مسلم، باب فضل المدينة(١٠٣٠)، ومحمد حميد الله، الوثائق السياسية، ص(٤٤١، ٤٤٢)، وأشار إلى ذلك د. أكرم العمري، السيرة النبوية، ص ٢٩٢.

والتزام ذلك جعل من خرج فهو آمن، وأكد على البر والصدق والتقوى، في تنفيذ تلك العهود، فجاءت تلك الكلمات المنيرة، وإن الله على أتقى ما في هذه الصحيفة، وأصدق ما فى هذه الصحيفة وأبره، وإن الله جار لمن اتصف بذلك، ومحمد رسول الله ﷺ.

توضح كتابة الصحيفة – نفسها –، وما حوت من بنود، أن السلطة العليا فى المدينة، كانت لرسول الله ﷺ، وأن الواقع الذى لا يستطاع دفعه، أنه لم يكن يُنطق بسلطة أخرى لأحد، يقرر علاقات المدينة الخارجية، وشئونها الداخلية، أمنية واجتماعية واقتصادية من المنطلق الإسلامى، وإعلانها الحرب والسلم، إلا رسول الله ﷺ، مما يؤكد على علو مكانة الرسول ﷺ، التي لا مراء فيها من ناحية، وعلى صحة بنود هذه الوثيقة من ناحية أخرى.

كما تبرز الوثيقة علاقات هذا الدين الحق، وعلوها ورقيها، وهذا ما كان ينبغى أن نقارنه بآيات من القرآن الكريم لاستكمال المنهج ولكن الإختصار دعانا لذلك.

وات والوثيقة:

لابد من مناقشة المستشرق "وات"، ولو على أقصى سرعة، لإيقافه على محطات الخطأ فى سيره مع الوثيقة، وتبيين مواقف الصواب، مع علمنا بدوافعه وبواعثه، التى ذكرناها أكثر من مرة، ولكن بدون تكرار.

إن نقد "وات" الشديد للوثيقة، كان من ثلاث نقاط:

الأولى: دستور المدينة صحةً وتاريخاً.

الثانية: معنى الأمة فى هذا الدستور.

الثالثة: مكانة النبى ﷺ فى المدينة.

ونبدأ بالقضية الأولى؛ ونناقش "وات" فيها من زاويتين، حيث تتلخص رؤيته فيهما

للوثيقة؛ وهما صحة الوثيقة، وتاريخ كتابتها.

أما صحة الوثيقة فإن "وات" يرى:

أولاً: صحة الوثيقة لأسبابٍ متهافتة؛ منها استحالة التزوير في العصرين الأموى والعباسى، فلا يمكن لأي مزور أن يجعل لمحمد ﷺ هذه المكانة المتواضعة، وأن يحتفظ ببنود ضد قريش، أو أن يجعل غير المسلمين أمة مع المسلمين؛ إذ أن كل ذلك بأسلوب لا شك قديم[1].

ثانياً: نراه شَكَّكَ فى صحة الوثيقة، منقلباً على رأيه السابق، ولكن مع تمسكه الشديد بأدلة عدم التزوير فى الرأى السابق، – وهذا من عجيب البحث أن ينقض الرأى، ويحتفظ بأدلته، يبدى فيها ويعيد، مفرداً لها صفحات عديدة – وما ذلك إلا لأنه يرى أن هذا الكلام[2]، هو مقصوده الذى أورده ابتداءً، سواء صح الخبر أم لم يصح، وما يهدف إليه من توجيه السيرة، وجِهَتُه التى أراد منها كون النبى ﷺ – فى النهاية – لم يوح إليه، وأن مكانته كذا وكذا، وأن كلام الصحيفة المتناقض يدل على ذلك.

وقد بعدنا – بالاستطراد – عن دليل تشكيكه فى الصحيفة، فلنعد إليه؛ وهو أن ابن إسحاق لم يذكر الطريقة التى وصلت بها الوثيقة إليه[3].

تاريخ كتابة الوثيقة:

يرى "وات" أن بنوداً من الوثيقة كتبت فى وقتين مختلفين، أو أوقات مختلفة، وذلك

1- Mohammad at Medina p225

2 – الذى لاشك اخترعه، لأن ذلك ليس من أدلة الصحة والبطلان فى أسانيد الأخبار.

3- op.cit. p 221، وانظر عبد الله النعيم، الإستشراق فى السيرة، (١١٢).

لفروق لغوية، وبعض البنود تكرار لبنود أخرى، وتعالج نفس المسائل[1].

مع افتراض أن البنود ٢٣،١٩،١٦،١٥ تمثل نص اتفاق أصلى، وقع بين محمد ﷺ وقبائل المدينة فى العقبة (مكة)، ثم أضيفت بنود جديدة إلى هذه البنود، بين وقت وآخر حسب الحاجة، كما حذفت البنود القديمة... **هناك مسائل كثيرة غامضة خاضعة للفرضيات**[2].

هذه اعتراضات "وات" كما هى، ونبدأ من آخرها، فيتبين لنا شيئ جديد عن "وات" فى عرضه للتاريخ، وبحثه فى بواعث الأحداث، وأسبابها، فنبدأ بقوله: **هناك مسائل كثيرة غامضة خاضعة للفرضيات**، وعلى هذا القول، ما يلى:

١- هذا دليل الإفلاس فى عرض الوقائع، لأن "وات" لم يدع شاردة ولا واردة، يدين بها السيرة وصاحبها - مهما كانت موضوعة لا قيمة لها - إلا وذكرها وأشاد بها، وأكد بكل سبيل من سبله صحتها، وهنا لم يذكر واحدة من الكثير الغامض الذى ادعاه، لأنه لو كان لذكره، وما تغاضى عنه، حتى وإن لم يكن لاخترعه كما قال بلسانه: **خاضعة للفرضيات**، وكم رأينا افتراضه الكثير مما خطه، يكتب به تاريخاً من عنده، يعينه على استنباط ما أراد سلفاً وأعد.

٢- لما لم يستطع دفع صحة وقائع وأحداث الوثيقة، بالأدلة التى تفصل القضايا، شكك فيها بهذا القول المجمل، والذى يستطيع كل أحد أن يرد به أى قول لا يتمكن من التصدى لصحته، فيرمى بقوله، ويجرى هناك **مسائل** كثيرة غامضة.

٣- السؤال المنطقى، اللازم لما نحن فيه، هو أين الغموض فى كثير من **مسائل**

1 - Mohammad at Medina p 226، "وات"، محمد فى المدينة، (٣٤٦-٣٤٧).

2 - المصدر السابق ٢٢٧.

الوثيقة؟ بل أين هو فى كل مسألة وبند منها؟ سواء فى المعنى، أو فى اللفظ، أو فى كليهما، أو حتى فى غير ذلك مما يكتنفه الغموض، أم إنه الشغب والتشويش، وإثارة الغبار على الحقائق عند عدم استطاعة الرد - علمياً كان أو غيره - عليها!

بهذه الأدلة من كلام "وات"، لم نعد بحاجة إلى استكمال نقد كلامه؛ ولكن إحقاقَ الحق وإظهار الباطل في كلامه، يملى علينا مناقشة بقية البنود، وكذا إتماماً للأمانة العلمية فى ذلك.

فنعود إلى النقطة الأولى وما بعدها، حيث ذكر "وات":

أولاً: صحة الوثيقة؛ لأنه لا يمكن لأى مزور أن يزور فيها هذه البنود - المسيئة للإسلام وللنبى ﷺ -، على حسب اكتشاف "وات".

نقول آمناً بالله، وصدقنا بصحة الوثيقة، بغض النظر عن أسباب عدم التمكن من تزويرها، إذ يكفى أن يقول "وات" لا يمكن لأى مزور أن يزورها.

فإذا بنا نُفَاجأ بأن "وات" يقول إن الصحيفة مزورة، مع إن أدلة عدم التزوير باقية، وهكذا يكون **البحث العلمى النزيه المجرد**، ويسوق "وات" أدلة التزوير فيقول:

أولاً: إن ابن اسحاق لم يخبرنا كيف وصلت إليه هذه الصحيفة المزورة - أقصد التى لا يمكن تزويرها -، ونذكر القاريء بأننا رددنا على ذلك - بالإسهاب - فى بداية الكلام على الوثيقة؛ حتى لا نضطر لإعادته فى الرد على "وات" الرد العلمى الحديثى والتاريخى.

ثانياً: إن الوثيقة كتبت فى وقتين، أو أوقات مختلفة[1].... إلى آخره، والرد: إنه ليس بين المتقدمين من كُتَّاب السيرة - مما عرفنا - من ذكر وقتين لها، فضلاً عن أوقات مختلفة! مع إن ذلك لم يكن ليعيبهم فى شيء، إذ كتب فى الوثيقة ما هو أسوأ منه فى نظر "وات"، حتى ادعى

Mohammad at Medina. p. 225 - 1

عدم إمكانية التزوير؛ والمدققون من المتأخرين ذكروا وقتين لا ثالث لهما، ولكن كان الأول بين المهاجرين والأنصار، والثانى بين المسلمين واليهود، وماذا يخالف الواقع أو العقل فى ذلك، وذكرنا بقية الكلام وتوضيحه فى محله السابق ليكون رداً مقدماً على كلام "وات".

ثالثاً: مما يؤكد به "وات" تشكيكه فى الوثيقة - **التى لا يمكن تزويرها** - هو أن هناك اتفاقاً أصلياً، وقع فى العقبة بمكة قبل الهجرة، بين الرسول ﷺ وقبائل المدينة، وبنوده هى ٢٣،١٩،١٦،١٥.

ومما يثير الأسى، والحزن، على البحث العلمى، وعلى "وات"، أن ينزل بفكره، وألا يحترم عقله وبحثه إلى هذا المستوى؛ إن **البند الخامس عشر** يتحدث كما ذكرنا عن إجارة المؤمن، أى: له أن يكفل، ويحفظ، ويمنع من أن يتعرض له أحد بأذى، وذلك فى الوقت الذى لم يكن للمؤمن فيه أى احترام ولا قيمة من مشركى مكة ومن غيرهم، فكيف يجير غيره فى نفس الوقت الذى لا يستطيع أن يمنع فيه نفسه؛ إن إجارة المسلم كانت تكون ذات قيمة بعد الهجرة، لوجود هذا الكيان السياسى، أو أن يكون لهم من القوة والمنعة ما يجعل غيرهم يستجير بهم ليجيروه. ووات يعلم أن ذلك ما كان ليحدث أبداً قبل الهجرة.

ومع ذلك سطر ما قد سمعنا!

وكذلك **البند السادس عشر**، أنَّى يكون قد تعاهد فيه النبى ﷺ والمسلمون - قبل الهجرة - مع اليهود، وهو ينص على أن من تبعنا من يهود فإن له النصر والأسوة غير مظلومين، وكما هو معلوم أن الرسول ﷺ وقبائل المدينة - أنفسهم - كانوا مستخفين ليلة العقبة، حتى من أهل يثرب[1]، وفى حالة من الاستضعاف، يترقبون بها أن يؤيدهم أحد، أو يدفع عنهم ظلماً مما وقع بهم، بل لا يستطيع كثير منهم أن يعلن إسلامه، ومن عُلِمَ إسلامه

1 - ابن هشام، السيرة النبوية (١/ ٦٢).

فهو المتحمل لتبعة ما ينزل عليه ويحيق به من الكفرة. أَنّى لهؤلاء أن ينصروا يهوداً، وأن يكون اليهود معهم غير مظلومين، وأين كان اليهود ليلة العقبة كما يدعى "وات"، ليتعاهدوا مع النبى ﷺ، ويطلبوا منه ألا يظلموا، وهل يُطلب ذلك من النبى ﷺ، إلا فى ظل سيادة يتمتع بها المسلمون، متمكنين حالها من أن يظلموا أو أن يكفوا الظلم، وما حدث لهم ذلك إلا فى ظل دولة المدينة، فكيف يصرح "وات" بأن هذا البند قد وقع قبل الهجرة؟! وفى هذا الواقع المؤلم؟!

أما **البند التاسع عشر**، فهو يتكلم عن القتال فى سبيل الله تعالى، ووات يعلم علم اليقين أن القتال شُرع بعد الهجرة، وأن تلك الأحوال - فى مكة، التى أحاطت بذلك البند - لم تكن ليشرع فيها قتال البتة.

والبند الثالث والعشرون أَظْهَرُ من غيره، إذ ذكر فيه أن مرجعية أى خلاف لأهل الصحيفة، إنما هى لله وللرسول محمد ﷺ؛ هذه المرجعية العليا - التى قررها الواقع، لتجعل النبى ﷺ الحاكم الأعلى - ما استقرت وتحققت وارتضاها المعاصرون لها، الموقعون عليها، إلا في المدينة بعد هجرة النبى ﷺ، وإذا **بوات** يقرر بما لا يدخل فى عقل أحد - فضلاً عن الباحثين - أن المرجعية العليا كانت له ﷺ فى مكة؛ والتى كانت حاله فيها كما هو معلوم من سيرته حتى تركها مستخفياً وهاجر الى المدينة.

وهكذا رأينا كلام "وات" لا يثبت لأى تحليل أو نقد تاريخى أو نصى، فضلاً عن التحقيق والتمحيص فى ذلك.

يقول عبدالله النعيم - ما حاصله -: إن "وات" أوقع نفسه فى تلك الورطة، حتى يخرج القبائل اليهودية الكبرى الثلاث - بنى قينقاع، وبنى النضير، وبنى قريظة - من تحمل تبعات الغدر والخيانة للرسول ﷺ، حيث لم يوقعوا معه عهوداً؛ لأن العهود كانت فى العقبة،

ولم يحضرها أى منهم[1]. وكأنه يستجيز لهم ذلك، من محاولة اغتيال النبى ﷺ، وغير ذلك مما فعلت النضير وقريظة وقينقاع، دون أن يرد عليهم النبى ﷺ، لأنهم لم يعاهدوه على ذلك، وكأن هذه الأحداث بغير عهد مباحة لهم، لا يعاقبون عليها، فلم يخرج "وات" من مستنقع البحث الآسن، المليء بما وصفنا من قبل.

أما السبب الذى لم يَمْحُه "وات"، حيث جعله من أدلة صحة الوثيقة ، هو ضعف مكانة النبى ﷺ، وجعله من أعمدة عدم تزوير الوثيقة، فلما شكك فى صحة الوثيقة، إذ به يبقى أعظم أدلة عدم التشكيك فيها بله التزوير بإبقاء هذا الدليل، وإذا أثبت صحة دليل عدم التزوير، فالوثيقة صحيحة فلم التشكيك وإثبات عدم ذلك؛ أو أنه شكك وأثبت عدم صحة الوثيقة فلم أبقى دليل عدم التزوير، بل دليل الصحة عنده؟! الباعث واضح لا يحتاج لتأمل، أو حتى نظر، فهو قد اخترع مكانة للنبى ﷺ، تنطق الوثيقة بعكسها تماماً، ليبنى عليها كل تلك المجازفات، مع عدم المبالاة بعقل أو بحث؛ إلى آخره.

وتتلخص أدلة "وات" – على ما سبق – فى أن النبى ﷺ زعيم قِبَلِّي كغيره، بل هناك من هو أعظم نفوذاً منه، وأن دستور المدينة ليس دليلاً صادقاً على مكانة النبى ﷺ، حين وصل المدينة، بدليل أنه لم يستطع ملاحقة ابن أُبَيٍّ، حتى طلب الإذن بذلك، وأنه ترك تقرير عقوبة قريظة لزعيم حلفائها، وأن أهل المدينة لم يعترفوا له صراحة بالحكم بينهم، وإنما قبلوا ذلك بالقوة حين ترك الوحى يأمره بالرجوع إلى الله فى خلافاتهم كافة، وأن وجوب طاعة النبى ﷺ، لم تكن صراحة إلا بعد الحديبية، حيث لا يوجب ذلك دستور المدينة. وأن سلطات النبى ﷺ بدأت تتسع تدريجياً[2].

---

1 – انظر عبد الله النعيم، الإستشراق فى السيرة (١١٢-١١٦)

2 – محمد فى المدينة وما بعدها Mohammad at Media p. 228

وبداية الرد السريع المختصر؛ لأن كل سطر عند "وات" يحتاج لنقد لا ينقضي عجب المرء منه، وكيف استجاز ذلك على عقله ونفسه!

إن كلامه من أول سطر يناقض قرائن الأحوال ووقائعها، ويضرب بعضه بعضاً، فبينما يذكر لنا:

أولاً: كون النبى ﷺ زعيماً كغيره، بل هناك من هو أعظم نفوذاً منه؛ فإنه لم يذكر لنا غيره، ولا عِظَم نفوذه، ونحن نُذَكِّره بأن الواقع لم يذكر لنا زعيماً غيره، بيده مقاليد أمور الزعامة فى المدينة، سلماً وحرباً، وعلاقات جوار خارجية، وتنظيماً داخلياً. **من كان بيده شيء من ذلك عند مجئ النبى ﷺ إلى المدينة؟** لقد ذكر كتاب السيرة ابن أُبَيٍّ، وأنهم يعدونه للملك عليهم، فهل ملك بدخول الرسول المدينة شيئاً؟!

وكان على "وات" أن يذكر أى انسان آخر يُسَيِّر أمور المدينة بما كان يقوم به النبى ﷺ، خاصة وإن جميع الرسل الذين أتوا المدينة كانوا ينزلون، أو يعاهدون، أو يسلمون لرسول الله ﷺ.

هذه مخالفة صارخة للواقع لا يمكن أن يكون الباعث عليها علم أو حياد أو نزاهة.

ثانياً: كون طاعة الرسول ﷺ لم تجب حتى صلح الحديبية، ويناقض قوله **ذلك** بدعواه أنهم حُمِلوا بالقوة على الطاعة، وتحكيم الرسول ﷺ بينهم، لنزول الوحى يأمر بذلك.

أما كون طاعة الرسول ﷺ لم تكن واجبة، فهو إلقاء للقول على عواهنه، بغير بينة إلا الاتهام المسبق، وإلا **فوات** يعلم - قبل غيره - نزول آيات وجوب الطاعة في أول ما نزل بالمدينة على الأقل، فقد جاءت سورة الأنفال وهى من أوائل ما نزل هناك، وأولها الأمر بطاعة الرسول ﷺ فى قوله تعالى: ﴿ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۝ ﴾ [الأنفال: ١] وكل الآيات

– تقريباً – الآمرة بطاعة الرسول ﷺ تكذب وات وهو يعلم ذلك، إذ نزلت قبل الحديبية[1].

ثم ما هى القوة التى حملت المؤمنين على الطاعة وتحكيم الرسول ﷺ كما ذكرت؟! أليس هو صاحب المكانة والنفوذ الضعيفين؟! لدرجة عدم تمكنه من ملاحقة ابن أُبَىٍّ؟ فما الذى تغير حتى تكون له كل هذه القوة الحاملة على انقياد المدينة والتزامها بأوامره، وما المانع إذاً أن يكون دستور المدينة قد أمر بطاعة الرسول ﷺ وتحكيمه؟! مع أننا متيقنون أنه لم يكن يحكم غيره، أو ما سمعنا – فيما وصلنا – تحكيم غيره، أو طاعته، على شيء من هذا النحو الذى كان عليه رسول الله ﷺ، ثم إذا كان مَرَدَّ قوة الرسول ﷺ، التى حملت الناس على تحكيمه هو الوحىُ، فقد كان الوحى أقدم من صياغة الوثيقة، فما المانع – على رأى وات – أن يُحْملوا على تحكيمه ﷺ من أول يوم وصل المدينة بتلك القوة الجبرية المدعاة.

ثم إن هناك واقعاً يعلمه وات قد حدث فى العقبة الثانية، وهو بيعة الأنصار للنبى ﷺ، وقد ذكر ذلك ابن اسحاق، فيما رواه عن عبادة بن الصامت، يدل على وجوب طاعة الرسول ﷺ، حيث يقول فى بيعة العقبة: «بايعنا رسول الله ﷺ فى يسرنا وعسرنا، ومنشطنا ومكرهنا، وأثرة علينا، وألا ننازع الأمر أهله، وأن نقول بالحق أينما كنا، لا نخاف فى الله لومة لائم»[2].

وقد كانت علاقة النبى ﷺ بالمسلمين فى دستور المدينة، غير موقوفة على أن يسمعوا له ويطيعوا عندما يدهم المدينة عدو، بل ما رأيناه من سعد بن معاذ رضي الله عنه عند مسير قريش إلى المدينة، يوضح خلافه، فقد قال رضي الله عنه عندما رأى النبى ﷺ يود أن يسمع رأى الأنصار فى

---

1 – آيات الأمر بالطاعة وهى: قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ ﴾ [النساء: ٥٩]، وقوله تعالى: ﴿ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَٱحْذَرُواْ ﴾ [المائدة: ٩٢]، وقوله تعالى: ﴿ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُواْ ﴾ [الأنفال: ٤٦]، وقوله تعالى: ﴿ قُلْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ ﴾ [النور: ٥٤]، وقوله تعالى: ﴿ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٥٦﴾ ﴾ [النور: ٥٦]، قوله تعالى: ﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوٓاْ أَعْمَٰلَكُمْ ﴿٣٣﴾ ﴾ [محمد: ٣٣].

2 – ابن هشام، السيرة النبوية، (٢/ ٧١) وحديث عبادة رواه البخارى(٧٠٥٦)، ومسلم(١٧٠٩). ترجمة عبادة

الخروج لملاقاه قريش: «قد آمنا بك، وصدقناك، وشهدنا أن ما جئت به هو الحق، وأعطيناك على ذلك مواثيقنا وعهودنا، على السمع والطاعة، فامض بنا يا رسول الله لما أردت. والذى بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك، ما تخلف منا رجل واحد، وما نكره أن تلقى بنا عدونا غداً، إنا لصُبُرٌ فى الحرب صُدُقٌ فى اللقاء، لعل الله يريك ما تقر به عينك، فسر بنا على بركة الله»[1].

دل ما سبق على أن طاعة الرسول ﷺ واجبة، وقد فهم ذلك الأنصار، بل هى من الواجبات التى لا تخلف فيها فى أدق المواقف وأصعبها، فما بال الباحث بما دون ذلك، وفى النهاية يكون استدلال وات بما اتخذه النبى ﷺ فى أمر عبد الله بن أبى بن سلول - رأس المنافقين - من ترك عقابه بعد مشاركته فى حديث الإفك، لا يساوى ذكره أو كتابته، ومع ذلك ننظر فيه، فإذا به لم يكن إلا سياسة حكيمة من الرسول ﷺ، لعدم تنفير الأنصار من الإسلام، وكذلك لعزل ابن أبى سياسياً، واجتماعياً، حتى إنه لم ترفع له رأس بعد ذلك، وقد وصل الأمر بهذه السياسة الحكيمة منه ﷺ، أن منع ولد ابن أبى - وكان مسلماً - بعد إعلانه قتل والده للرسول ﷺ إن شاء، ذلك بعد أن منع الابن أباه من دخول المدينة حتى يأذن له النبى ﷺ؛ وقد اتفق الصحابة على أن تلك السياسة كانت الأصح، والأولى فى هذه القضية، ثم يأتى وات ليقول - فارغاً من القول عقلاً وواقعاً - بأن ذلك دليل ضعف مكانة النبى ﷺ! تراه - عليه أفضل الصلاة والسلام - لو أمر ابنه بقتله، أما كان ليقتله؟! فأين ضعف المكانة؟!

واستدل وات كذلك على ضعف مكانة النبى، بأنه ﷺ لم يتخذ قرار تصفية جيب بنى قريظة بعد خيانتهم فى الخندق، وأوكل التحكيم فيهم لسعد بن معاذ حليفهم، وكان الأجدر بـ"وات" أن يصرح بأن مكانة سعد بن معاذ كانت أعلى من مكانة النبى ﷺ فى هذا

---

1 - ابن هشام، السيرة النبوية، (٢/ ١٨٩)، وانظر عبد الله النعيم، الإستشراق، (١٢٢-١٢٣).

الموقف، وفى زعامته للأوس، وانتهت مكانة المتبوع المطاع ﷺ بارتفاع مكانة سعد بن معاذ ﷺ التابع عليه، وانتهت النبوة والزعامة، وآل الأمر لسعد، بدلاً من النبى ﷺ، وبدلاً من ابن أبى الذى كادوا ينصبونه ملكاً عليهم، هذا خلط وعمى فى البحث، وتعام عن الحق، وقصد مشوب بدليل منهار.

إن ملخص القصة، أن بعض الأوس قد طلب من النبى ﷺ أن يترك لهم بنى قريظة، كرامة لهم[1]، كما ترك لابن أُبَىٍّ - زعيم الخزرج - بنى قينقاع، فترك لزعيم الأوس - وهو سعد بن معاذ ﷺ – بني قريظة، فأين الضعف، هلا كان ضعيفاً يوم ترك بنى قينقاع لابن أُبَىٍّ؟! وكان أعلى مكانة من سعد بن معاذ فى الجاهلية زعامة وأتباعاً؛ وقد ذكر وات أن سلطات النبى ﷺ بدأت تتسع تدريجياً، فهل تقلصت عند بنى قريظة فتركها ضعفاً لسعد بن معاذ؟! ترى لو كان النبى ﷺ هو المتخذ لقرار التصفية كان سيتعرض له أحد بقتال؟! أو أن ينضم مع بنى قريظة لقتاله؟! وهل لو اجتمعت بنو قريظة والأوس جميعاً كانوا يستطيعون قتاله؟! وهم حينئذ قد افترض أنهم كفروا بالله ورسوله؛ لقد جمع ابن أبى رجاله - وكانوا أكثر من الأوس - إلى جانب بنى قينقاع، وكانوا أشرف من قريظة عند يهود، وأشد تمرساً فى القتال منهم، وكان النبى ﷺ حديث عهد بمجيئه المدينة، فى قلة من العدد والعدة، ولم نر منهم إلا الاستسلام، فأين الضعف الذى يخالفه الواقع والأحداث والأدلة؟! ذلكم وات وتلك بواعثه، وهذه أدلته على تلك البواعث.

لقد جاء فى نقد وات للوثيقة – الدستور - أقوال أُخَر، لا تستحق الوقوف عندها، وقف عندها الباحث عبد الله النعيم، فنحيل القاريء إليها[2].

---

1 - إن رعاية النبى ﷺ لهذا الجانب كان من منطلق سياسته الحكيمة، ومعالجته الإلهية للأمور التى دائماً ما يأخذنا "وات" بعيداً عنها إلهاء عن واقع النبوة وتصرفاتها، وإتصال الأرض بالسماء فى شخصه المعظم ﷺ. لينسينا رسالته والوحى إليه.

2 - له أقوال فى قضية «مفهوم الأمة» الوارد فى الوثيقة، انظر عبد الله النعيم، الاستشراق فى السيرة (١١٧-١٢٠)

الفصل الثاني

غزوة بـــــدر

المبحث الأول

النشاط السياسى والعسكرى إلى غزوة بدر

وقبل الخوض فى ذلك النشاط نشير إلى شيء من المعاناة التى وقعت للمهاجرين فى بداية وصولهم إلى المدينة حيث لم يكن وصولهم نهاية للألآم والمشقات، بل إن تغير المكان من مكة إلى المدينة أصابهم بأزمات صحية تصوروا معها نهايتهم، إذ كان معلوماً عن المدينة أنها موبؤة بالحمى- حمى يثرب- حتى وصل بهم الحال إلى أن يصلوا وهم قعود، وصرف الله تعالى ذلك عن النبى ﷺ رعاية بهم، وإستبقاء لمن يقوم عليهم وعلى أمور الدين.[1]

لقد وعك أبو بكر وبلال ﷺ، فكان أبو بكر إذا أخذته الحمى يقول:

كَلُ امرئٍ مُقَبَّحٌ فى أهلِه   والموتُ أدنى من شِرَاكِ نَعْلِه

وكان بلال ﷺ إذا أقلعت عنه الحمى يرفع عقيرته، ويقول:

ألا ليت شعرى هل أبيتنَّ ليلةً   بوادٍ وحولى إذخرٌ وجليلُ

وهل أَرِدَنْ يوما مياه مَجَنَّةَ؟   وهل يَبْدُوَنْ لى شامةٌ وطَفيل

وجاءت عائشة رضى الله عنها إلى النبى ﷺ فأخبرته بما يقولان، فقال:«اللهم حبب إلينا المدينة كحبنا مكة أو أشد، وصححها، وبارك فى صاعها ومدها، وانقل حماها فاجعلها

1- أحمد، المسند(٣/ ١٣٦)، وابن ماجه (١٢٢٩-١٢٣١)، من طريق ابن اسحاق، وقال فى الزوائد: إسناده صحيح.

في الجحفة»[1]

ووعكت عائشة[2] رضى الله عنها، وابن فهيرة[3]، لأن المدينة كانت مشهورة بالحمى، حتى قال مشركو مكة عن المسلمين فى عمرة القضية:« أنه يقدم عليكم وفد وهنتهم حمى يثرب» فأمرهم النبى ﷺ أن يرملوا الأشواط الثلاثة، وأن يمشوا ما بين الركنين، ليروا المشركين قوتهم، وأن الحمى لم تنهكهم كما يزعم الكفار.[4] واستجاب الله دعاء نبيه فجعلها من أطيب البلاد بعد ذلك.

تهديد قريش للمسلمين بعد الهجرة:

لم تترك قريش المسلمين يستقرون فى المدينة حتى أرسلوا لكفار المدينة تهديدات شديدة بطرد المسلمين، وقد وجدوا عبد الله بن أبى بن سلول خير من يقوم بهذا الموقف حيث ما زال كافراً ظاهراً وباطناً، وكان يعادى النبى ﷺ وأصحابه، ويؤذى النبى ﷺ ويسيء إليه، لأنه كان يرى أن النبى ﷺ قد سلبه ملكه، فقد وصل الرسول ﷺ المدينة، وأهل المدينة يعدون له تاج الملك عليهم، فتركوه وآمنوا، ومن حينها أظهر عداءه وبغضه للرسول ﷺ، وجاءت موقعة بدر وهزم الله قريشاً فدخل ابن سلول الإسلام كرهاً ظاهراً، وظل كفره باطناً يحارب الله ورسوله والمؤمنين، وصار بذلك رأس النفاق، وكان الرسول ﷺ لحكمته وحسن سياسته يعرض عنه، فلا يقابل إساءته أو أذاه بشيء، – حتى إنه آذى النبى ﷺ ذات

---

1 – البخارى(٣٩٢٦)، الواد كما قال الحافظ فى الفتح: وادى مكة، جليل: نبات ضعيف يحشى به خصاص البيوت وغيرها، وشامة وطفيل جبلان بقرب مكة، وقيل: عينان، ورى الحديث أيضاً ابن هشام عن ابن اسحاق بسند صحيح(٢/ ٢٧١-٢٧٣).

2 – البخارى(٣٩١٧-٣٩١٨).

3 – ذكره ابن اسحاق من حديث عائشة بإسناد حسن، ابن هشام(٢/ ٢٧١)، ورواه أحمد(٢١/ ١٣)، من حديث عائشة، وانظر د. مهدى رزف الله، السيرة النبوية(٣٢١).

4 – البخارى(٤٢٥٦-٤٢٥٧).

مرة[1] –، فطلب سعد بن عبادة ﷺ – سيد الخزرج – العفو له من النبى ﷺ قائلاً: « يا رسول الله اعف عنه، واصفح عنه، فوالذى أنزل عليك الكتاب، لقد جاء الله بالحق الذى أنزل عليك، ولقد اصطلح أهل هذه البُحَيْرَة على أن يتوجوه فيعصبوه بالعِصابة، فلما أبى الله ذلك بالحق الذى أعطاك الله، شَرِق بذلك، فلذلك فَعَل به ما رأيت ... ».[2]

كاتب المشركون فى مكة عبد الله بن أبى بن سلول ليكيد للمسلمين ككيدهم فى مكة، وقالوا فيما كتبوا: إنكم آويتم صاحبنا، وإنا نقسم بالله لتقاتلنه أو لتخرجنه، أو لنسيرن إليكم بأجمعنا حتى نقتل مقاتلتكم ونستبيح نساءكم.[3] لم يتوان ابن سلول عند مجيئه مكتوب قريش أن جمع مشركى المدينة لمحاربة النبى ﷺ، فلما بلغ أمرهم رسول الله ﷺ قال لهم:« لقد بلغ وعيد قريش منكم المبالغ، ما كانت تكيدكم بأكثر مما تكيدون به أنفسكم، تريدون أن تقاتلوا أبناءكم وإخوانكم». فلما سمعوا ذلك من النبى ﷺ تفرقوا.[4] تحسباً لهذا الخطر المحدق بالنبى ﷺ قام المسلمون ليلاً بالتناوب على حراسته ﷺ لا يمسه سوء إلى أن نزل قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ [المائدة: ٦٧]، فقال النبى ﷺ لأصحابه:« يا أيها الناس انصرفوا عنى فقد عصمنى الله عز وجل».[5]

---

1 – رواه الطبراني في الأوسط (٢٣٤)، وابن حبان في صحيحه (٤٢٩)، كلاهما عن أبي هريرة ﷺ قال: مر رسول الله ﷺ على عبد الله بن أبي بن سلول، وهو في ظل، فقال: قد غبر علينا ابن أبي كبشة، فقال ابنه عبد الله بن عبد الله: والذي أكرمك وأنزل عليك الكتاب لئن شئت لآتينك برأسه. فقال رسول الله ﷺ: «لا، ولكن بر أباك وأحسن صحبته». قال الطبراني: لم يرو هذا الحديث عن محمد بن عمرو إلا شبيب بن سعيد، تفرد به : زيد بن بشر. وقال ابن حبان: قال أبو حاتم ﷺ: أبو كبشة هذا والد أم أم رسول الله ﷺ، كان قد خرج إلى الشام، فاستحسن دين النصارى، فرجع إلى قريش وأظهره، فعاتبته قريش حيث جاء بدين غير دينهم. فكانت قريش تعير النبي ﷺ به، وتنسبه إليه ، يعنون بذلك أنه جاء بدين غير دينهم ، كما جاء أبو كبشة بدين غير دينهم.

2 – البخارى(٤٥٦٦)، ومسلم(١٧٩٨)، وأحمد، المسند(الفتح الربانى)(٢١/ ١٩-٢٠)، بإسناد صحيح.

3 – أبو داود، السنن(٣٠٠٤)، وإسناده صحيح.

4 – أبو داود، السنن(٣٠٠٤)، وأسناده صحيح.

5 – الحديث رواه الترمذى(٣٢٥٠)، وحسنه الألبانى، إسناده فى صحيح الترمذى.

وكجزء مما تحيكه قريش للمسلمين من أهل المدينة من مواجهات تدفعهم بها لنبذ الإسلام ورسوله ﷺ، والضغط عليهم ليرجعوا عن نصرة المهاجرين، أو لعدم الدخول فى الإسلام، كان إيذاؤهم لأهل المدينة عندما يأتون المسجد الحرام للاعتمار، وقد حدثت حادثة من هذا القبيل لسعد بن معاذ ﷺ عندما جاء معتمراً إلى مكة، وطلب من مضيفه أمية بن خلف أن ينظر له ساعة خلوة يطوف فيها آمناً بالبيت، فأخذه أمية فى منتصف النهار حين غفلة الناس، ومع ذلك لقيه أبو جهل، فأخبره به، فقال له:« تطوف بالكعبة آمناً وقد آويتم محمد وأصحابه؟ وتشاجرا؛ ومما قال له سعد: « والله لئن منعتنى أن أطوف بالبيت لأقطعن متجرك بالشام ... وهدد أمية هو الآخر بأن الرسول ﷺ سيقتله، وقد كان أن قتله الله ببدر».[1]

بداية النشاط العسكرى والسياسى:

لم يشرع الجهاد فى العهد المكى، بل جاءت الأوامر الإلهية للمسلمين بكف الأيدى، وإقامة الصلاة، والصبر على أذى المشركين، وأن يقبلوا على أنفسهم بالمجاهدة على عبادة الله تعالى، والإتصاف بأوصاف التقوى، التى هى جديرة بأن يثبتوا بعد ذلك إذا لاقوا ودخلوا فى مواجهة الكفاح الدامى، وكذلك يقبلون على توسيع دائرة الدين بانتشار الإسلام بالدعوة إلى الله تعالى بالحكمة والموعظة الحسنة، كل ذلك حتى تترسخ جذور الدعوة وتقوى على مواجهة عوادى البغى والظلم، إذ لو حملت الدعوة سيفها حينئذ لهان على الكفار وأدها فى مهدها والقضاء عليها وإنهاء وجودها. ولم يكن للمسلمين دار ينحازون إليها ليكون معسكراً فى مواجهة قوى الشرك، بل إن حياتهم اليومية لم تكن منفصلة أو متميزة عن المشركين، ولو فرض الجهاد يومئذ لجرى قتال فى كل دار أسلم منها أحد[2].

---

1 – البخارى(٣٦٣٢).

2 – د. أكرم العمرى، السيرة النبوية (٣٣٧).

فلما هاجر المسلمون إلى المدينة، وقام الأنصار بإيواء المهاجرين، ونصرة النبى ﷺ ونصرة الدين، وصارت للمسلمين بقيادة النبى ﷺ أرض هى دار الإسلام جاءهم الإذن بالقتال، وكان الأمر بالجهاد متدرجاً على حسب كل مرحلة من المراحل التى بلغتها الدعوة، وكان أول ما نزل كما يروى ابن عباس ﷺ قوله تعالى:﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَـٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُواْ﴾ [الحج: ٣٩]. وهو من رواية ابن جرير الطبرى بسنده إلى ابن عباس حيث يقول:

« لما أخرج النبى ﷺ من مكة، قال أبو بكر: أخرجوا نبيهم. إنا لله وإنا إليه راجعون ليهلكن. فأنزل الله عز وجل: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَـٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُواْ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ﴾ [الحج: ٣٩]. قال أبو بكر ﷺ: «فعرفت أنه سيكون قتال ».[1]

وزاد أحمد[2] فى روايته لهذا الخبر، أن ابن عباس قال:« وهى أول آية فى القتال»، ولم يكن القتال فرضاً عليهم، بل أُذِن لهم بالقتال دفاعاً عن النفس، ثم جاء الأمر بقتال من يقاتلونهم فى قوله تعالى:﴿ وَقَـٰتِلُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَـٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓاْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿١٩٠﴾ ﴾ [البقرة: ١٩٠].

وهو بذلك يختلف عن القتال والحرب التى شهدها التاريخ الإنسانى، والتى إستهدفت تحقيق أهداف سياسية أو مآرب اقتصادية لأفراد أو جماعات طموحين يريدون العلو فى الأرض، فأعلام الحق والعدل والرحمة هى التى يرفعها ذلك الجهاد، وميزته عن أنواع الحروب الأخرى: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱلطَّـٰغُوتِ﴾ [النساء: ٧٦]، ويقول الرسول ﷺ: « اغزوا باسم الله فى سبيل الله، قاتلوا من كفر بالله، اغزوا

---

1 - ابن جرير، التفسير(١٧/ ١٢٣)، وابن كثير، التفسير (٥/ ٤٣٠-٤٣١).

2 - أحمد، المسند(٣/ ٢٦٢)، وصححه الشيخ – أحمد شاكر، ورواه الترمذى (٢٥٣٥)، حسنه، انظر د . مهدى رزق الله، السيرة النبوية (٣٢٥)، وانظر محمد أبو شهبة، السيرة النبوية(٢/ ٧٤).

ولا تغُلّوا ولا تغدروا ولا تمثلوا ولا تقتلوا وليداً »[1].

وجاءت المرحلة الأخيرة فى تشريع الجهاد بمقاتلة المشركين كافة وابتدائهم به، مر تشريع الجهاد إذن بهذه المراحل الأربعة وهى:

١- ترك القتال، مع الصبر وتحمل الأذى، وكان ذلك بمكة.

٢- مرحلة الأذن بالقتال بعد الهجرة.[2]

٣- مرحلة الأمر بالقتال من يبدؤهم بالقتال.

٤- الأمر بقتال جميع المشركين.[3]

وكانت المرحلة الأخيرة هى مرحلة الجهاد الباقى إلى يوم القيامة، بعد أن أخبر الله تعالى، بأن المشركين، وغيرهم من أهل الكتاب، وكل ملل الأرض سوف تحارب الإسلام، ولو لم يحاربها فى قوله تعالى:﴿ وَلَا يَزَالُونَ يُقَـٰتِلُونَكُمۡ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمۡ عَن دِينِكُمۡ إِنِ ٱسۡتَطَـٰعُواْ ﴾ [البقرة: ٢١٧]. وقد استمر الحال على هذا الوضع إلى يومنا هذا مصداقاً لهذه الآية الكريمة، وكان الواقع أيام الرسول ﷺ يسأل ماذا جنى المسلمون فى المدينة على الروم مثلاً حتى يجمعوا لهم الجموع فى مؤتة، وينذرونهم بمهاجمة المدينة والتى تسببت فى غزوة تبوك، وبماذا يفسر الغزو الصليبى مثلاً فى القرون الوسيطة من أوربا الشمالية للمسلمين فى عقر دارهم فى الشام، ولم يبدأ المسلمون هؤلاء الأوغاد بحرب ولا بغيره حتى سالت دماء المسلمين أنهاراً على

1 - مسلم (١٧٣١).

2 - انظر، محمد بن محمد أبو شهبة، السيرة النبوية(٢/ ٧٥-٧٦).

3 - انظر ابن القيم، زاد الميعاد (٣/ ٧٠)، ط ٦ مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤٠٤ هـ-١٩٨٤م، د. محمد أبو شهبة، السيرة النبوية (٢/ ٧٤ وما بعدها)، د. أكرم العمرى، السيرة النبوية الصحيحة (٣٣٧-٣٣٨)، د. مهدى رزق الله، السيرة النبوية الصحيحة(٣٢٥-٣٢٦).

وصف مؤرخيهم، واستمر هذا التكالب والحقد والعدوان والقتل والتنكيل بالمسلمين إلى يومنا هذا، ولم يراعوا فيهم حقوق الحيوان فضلاً عن حقوق الإنسان.

ثم إن دعوة الإسلام لا إكراه فيها على الدين، بل هى تبليغ رسالة الله تعالى إلى الناس للإيمان بالدين الحق فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر، فإذا قام أى قائم من حاكم أو غيره سداً بين الناس وحريتهم فى الاعتقاد، وبدأ فى التنكيل بهم وتعذيبهم ليردوهم عن معتقداتهم، فضلاً عن الإستعداد للإغارة على دولة الإسلام، كان على دولة الإسلام وحكامها فى نظر المستشرقين، أن ينتظروا ليهاجمهم أعداؤهم من كل فج ليزيلوا دولتهم، أو ليهدموا أركانها دولة الخير والعدل والهدى والرحمة، أو كان على دولة الإسلام وأهلها أن تقف لتتفرج على مآسى المعذبين وأنينهم وصراخ الزوجات والأولاد بسبب إسلامهم، وإلا فالفرية جاهزة، لقد كان انتشار الإسلام بالسيف، وإن المسلمين متعطشون لسفك الدماء.

كان القتال إذن فريضة لحماية الحق، وتأمين الدعوة والدعاة، وانتشار العقيدة دون عقبات تخالف حق الإنسان فى أن يعتقد ما يشاء، إن الدنيا اليوم تقوم بلا قعود لفرد أو لجماعة أوذوا فى أن يختاروا ما شاؤا ومن إعتقادات ليصل الأمر إلى تدمير تلك الدولة التى تقدم على ذلك- بالطبع إلا أن يكون هذا الفرد أو تلك الجماعة مسلمين- فماذا يعيب الإسلام فى ذلك وقد قرر تلك الحقوق منذ خمسة عشر قرناً من الزمان ودفع فيها أى فى سبيل هذه الحقوق تلك الأرواح والأموال، وذلك بمنطق اليوم وأسلوبه.

وإن ثمة عنصر آخر أراده الله لحرب المسلمين المقدسة حقيقة، وهو أن تكون كلمة الله هى العليا، وعندما تكون كلمته هى العليا فإن الخير يشمل الدنيا، وأن الحق والعدل هو ميزانها، وأن الرحمة هى أسلوبها، الكل من مسلم وغيره آمن فى كنفها على نفسه وأهله

وولده وحاضره مستقبله، ويوم أن كانت كلمة المسلمين هى العليا وجدنا اليهود والنصارى آمنين لهم ما للمسلمين وعليهم ما عليهم، وما دفعوا الجزية إلا لإسقاط فريضة الجهاد والدفاع عن الدولة أو الزكاة عنهم، والعكس، يوم استلم أمثال هؤلاء الحكم فعلوا بالمسلمين ما لا يخطر على بال الشيطان من أذى.

وإن رفع الظلم الذى حل بالمسلمين فى تلك الأيام الكالحة فى مكة، كان من أسباب شرع القتال، وهى علة للقتال مقبولة فى كل زمان ومكان فإذا لم يرتفع الظلم إلا بصليل السيوف وصهيل الخيل فلابد منه، والمسلمون نهبت أموالهم وصودرت ممتلكاتهم، سلبت دورهم بعد كل ما لاقوا، ومن ثم جاء الإذن معللاً ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَـٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُواْ﴾، وإنهم ظلموا، وليس ذلك فقط بل هم الآن يُقاتلون كذلك، كان القتال الأول من بعوث وسرايا لمحاولة استرداد شيء من أموالهم التى استولت عليها قريش وكفكفة قريش عن مزيد من الأذى، وإظهار عهد الضعف بالتولى والإدبار مع رفع أى ظلم ممكن عن الباقين بمكة تحت سوط القهر والإذلال[1] إلى أن فرض الجهاد للناس كافة[2].

بدء النبى ﷺ الغزوات والسرايا:

عندما أذن الله لنبيهﷺ بالقتال، ومن معه من المؤمنين سارع النبى ﷺ لإعداد العدة من رجال وعتاد وخطط مستغلين ذلك أحسن الاستغلال لتحقيق أهدافهم التى كانت نصب عين النبى ﷺ.

---

1 - انظر لذلك محمد الغزالى، فقة السيرة(٢٠٨-٢٠٩)، والبوطى، فقة السيرة(١٣٣-١٣٤)، د. محمد أبو شهبة، السيرة (٧٦ وما بعدها)، د. أكرم العمرى، السيرة النبوية (٣٣٧-٣٣٨)، د. مهدى رزق الله، السيرة النبوية(٣٢٥-٣٢٧)، وغير ذلك.

2 - الجهاد له مبحث مستقل إذا شاء الله.

*- أطلق المؤرخون اسم(السرية)، على المجموعة من الجيش أو الجيش يقوده أحد أفراد المسلمين غير رسول الله ﷺ، وأطلقوا اسم(الغزوة)، على ما يقوده الرسول ﷺ بنفسة مجموعة أو جيشاً .

كان العقل والواقع ومن قبل ذلك الشرع الموحى به أن تكون قريش هى المحط الأول الذى تتعلق به سيوف المقاتلين لأنها الخط الأول والحائط الصلب الذى يقف للإسلام وأهله فالعرب مشاركون لهم فى وثنيتهم وبالتالى فى عدائهم للإسلام ولرسوله والمؤمنين فهم الصادون عن سبيل الله فى الجزيرة المشركة يومها برمتها، وهم المضطهدون للمؤمنين فى مكة، المحاربون لهم فى المدينة، المؤلبون عليهم العرب والحبش، الذين لا يرعون فى المسلمين إلاً ولا ذمة، إن فى قتالهم إذن رداً للمظالم أو بشيء منها ورفعاً للظلم، وتمهيداً لدعوة غيرهم إلى دين الحق، ورفع راية الإسلام وكس شوكة الكفر والظلم.

اتجهت هذه الغزوات والسرايا من ثم إلى مواقع غربى المدينة واستهدفت أموراً ثلاثة:

الأول: تهديد تجارة قريش إلى الشام، وهى ضربة خطيرة لاقتصاد مكة التجارى الذى به حياتها وكذلك فى خطوة تالية تهديد تجارتها إلى اليمن وذلك بمهاجمة هذه القوافل شمالاً وجنوباً وشرقاً وغرباً لحصار مكة اقتصادياً ورداً لبعض حقوقهم المسلوبة.

الثانى: عقد المحالفات والموادعات مع القبائل التى تسكن تلك المناطق التى أصبحت مسرحاً لعمليات المسلمين ضد قريش لضمان تعاونها أو حيادها على الأقل فى ذلك الصراع الدامى وهى خطوة نجاحها نجاح فى المسلمين فى الحصار السياسي لقريش، لأن هذه القبائل تميل مع قريش وثنيةومصالح لأن قريشاً سدنة البيت الذى يحجونه ولهم معبوداتهم وأصنامهم حوله، ثم إن لهم مع قريش مصالح ومحالفات تاريخية سماها القرآن الكريم الإيلاف فى قوله تعالى:﴿ لِإِيلَٰفِ قُرَيۡشٍ ۝١ إِۦلَٰفِهِمۡ رِحۡلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيۡفِ ۝٢ ﴾ [قريش:١-٢]، مع إشتراك الجميع فى معاداة الإسلام، إن موادعة هذه القبائل وتحييدها نجاح كبير فى الوقوف لقريش فى تلك المرحلة من الصراع.

الثالث: إبراز قوة المسلمين أمام اليهود وبقايا المشركين فى المدينة المنورة، فالمسلمون

صاروا لا يقتصرون على السيادة فى المدينة، بل تحركوا لفرض سيطرتهم على ما حولها من القبائل، مؤثرين فى علاقاتها ومصالحها.

لا شك أن هذه السرايا والبعوث قد نجحت فى تحقيق أهدافها مما أربك قريشاً وحلفاءها بسبب ضرب نشاطهم التجارى فى كل الاتجاهات، وحصل المسلمون على مورد للتموين والتسليح، ونجحت هذه السرايا فى إنذار الأعداء بأن للمسلمين المقدرة على التصدى والردع، واكتسبت قوات المسلمين الخبرة فى مجال التدريب العسكرى، والمناورة وجس نبض الأعداء ومعرفة بدروب الصحراء وأحوال الأعداء[1].

ونلاحظ على هذه السرايا والغزوات فى تلك المرحلة أنها لم تكن ذات طابع دينى، يحمل الناس على أوامر الشرع، أو يدعوهم إلى الإسلام، نعم ولكن هذا هو الظاهر من عرض الأحداث، وإن كنا نسابق فنقول إن عدم العلم بالوقوع لا ينفى الوقوع، لأن الأصل فى أحوال النبى ﷺ وأصحابه أنهم ما خالطوا أحداً حتى فى أحلك أوقاتهم إلا كانت الدعوة إلى الإسلام هى أول ما يبادرون إليه قولاً سلوكاً، وكأن كتاب السيرة لعلمهم بهذا الحال وأنه ديدن المؤمنين وشغلهم الشاغل، ووظيفتهم التى شرفهم الله بها هى الدعوة إلى الإسلام فكأنه من تحصيل الحاصل أن يذكروا به فى كل موطن.

ثم إن ما استغرقته من هذه الغزوات والسرايا من وقت إلى غزوة بدر الكبرى يعتبر قليلاً فى جنب الوقت الباقى، فلاشك أن ذلك كان مصروفاً فيه إلى الدعوة من جملة أشغالهم ولاشك أن المدينة نفسها وما حولها قد أخذت الجزء الأكبر والاهتمام البالغ بالدعوة إلى الله تعالى، لتثبيت قاعدة انطلاق الإسلام على أقوى أساس وأمتنه، وإن مما يقوى هذه القاعدة أن تكون كل طرق المواجهة من حولها مستقرة وتحت السيطرة تحالفاً أو موادعة وتحييداً.

1 – انظر د. مهدى رزق الله، السيرة النبوية(٣٢٧)، وكذا د. أكرم العمرى، السيرة النبوية(٣٤٥-٣٤٦).

وإن قلة عدد أفراد تلك السرايا والغزوات لينبيء بتوفير العدد الأكبر للقيام بتلك المهمات وتوسيع قاعدة الدين بزيادة رقعة الإسلام وتعميق أثره فى النفوس، وزيادة المنضمين إليه، وذلك بنشر الهدى من العلم النافع والعمل الصالح والدعوة إلى الله تعالى، كل ذلك طاعة لله تعالى، وانتظار مذخور ثوابه، وتأهباً لكل طارئ، وتربصاً بكل هاجم، وتجهيز القوة لتأديب المجرمين يوم يتطاولون.

وقد ذكرنا ما سبق لنرد على المستشرقين القائلين بأن النبى ﷺ حينما صار رئيساً سياسياً فى المدينة تغير عما كان عليه فى مكة بحيث صار الطابع السياسي يزداد بروزاً، والطابع الديني يزداد تراجعاً.[1]

وتكملة لما سقنا من ردود، فلابد من القول إن أحكام الدين فى تفضيلاتها، والطابع الديني للدعوة ما اكتمل وظهر سواء بنزول أحكام الشريعة، والدعوة إليها والتمسك بها، وتعلمها وتعليمها إلا فى المدينة، إن الواجبات والسنن الشرعية والعلاقات الإيمانية والإنسانية والسلوكية التى ميزت المسلمين، كل ذلك كان فى المدينة، فالواقع يخالف كلام فلهاوزن[2]، وغيره من المستشرقين ببروز كل ما يتعلق بدين الإسلام فى المدينة، إذ كان المسلمون فى مكة لم تتنزل عليهم تلك الأحكام، فضلاً عن اضطهادهم، وتخفيهم بدينهم.

وما كان النبى ﷺ ليتبعه فى بدر أولئك المقاتلون فى سبيل الله، مع بقاء غيرهم وأكثر منهم فى المدينة لو كانوا يعلمون أن الرسول ﷺ سيواجه حرباً ما تخلف منهم رجل واحد.

---

1 - انظر فلهاوزن، تاريخ الشعوب العربية (٥-٦)، ترجمة الدكتور محمد عبد الهادى أبو ريدة مراجعة الدكتور حسين مؤنس، ط٢، القاهرة، لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٦٨م.

2 - ولد فى مدينة هاملن فى سكسونيا السفلى بألمانيا، درس اللاهوت وعمل مدرساً فى ميدان تاريخ العهد القديم منذ ١٨٧٠ م، عمل أستاذاً للاهوت فى جامعة هامبورغ وجامعة غرايفسفالد، عمل أستاذاً للغات الشرقية فى جامعة هاله، عنى بالدراسات العربية، وله كتاب«بقايا الوثنية العربية»، اعتمد فيه على كتاب«الأصنام»، للكلبى، ترجم كتاب«المغازى»، للواقدى بعنوان «محمد فى المدينة».

فما كانت التوجهات السياسية إلا تابعة لأوامر الشرع، ومنفذة لتعاليمه تحكمها عقيدة الإسلام المتمثلة فى القرآن الكريم وسنة النبى ﷺ مهتدية فى كل ذلك بأسوتهم فى اتباع تعاليم السماء، والوحى الكريم سيدنا رسول الله ﷺ.

ثم خرج فى أحد والخندق وسائر الغزوات أضعاف مضاعفة من جند الله، علاوة على من دخلوا الإسلام فى أنحاء الجزيرة العربية، يراهم المستشرقون قد دخلوا الإسلام للسياسة، وصاروا دعاة له وجنداً يرفعون رايته، حقاً إن مفتريات المستشرقين لا تقف للواقع بل وتنهار عند أول مهاجمة لها بساطع البرهان أو الدليل.

ونختصر تلك الغزوات..

أولى هذه الغزوات غزوة الأبواء، وتسمى بغزوة ودان، وهما موقعان متجاوران بينها ستة أو ثمانية أميال، وتبعد الأبواء عن المدينة حوالى أربعة وعشرين ميلاً، ولم يقع قتال بل تمت موادعة بنى ضمرة من كنانة، وكانت الغزوة فى ١٢ صفر سنة اثنين. وقد عاد الجيش إلى المدينة[1] بعد أن مكث خارجها إلى بداية شهر ربيع الأول[2]

ويذكر عروة بن الزبير[3] أن النبى ﷺ أرسل سرية من الأبواء تضم ستين رجلاً بقيادة عبيدة بن الحارث[4]، فى حين يذكر ابن اسحاق أن السرية أرسلت إلى سيف البحر بعد العودة إلى المدينة، ثم خرجت سرية حمزة بن عبد المطلب من ثلاثين رجلاً متجهة إلى سيف البحر أيضاً فى نفس الوقت للتعرض لقافلة من قريش، ولكن لم يحدث قتال حيث تدخلت

---

1 - فتح البارى(٧/ ٧٩)، وتاريخ خليفة بن خياط(٥٦)من واية ابن اسحاق- ابن هشام(٢/ ١٧١)، بدون إسناد.

2 - ابن خياط، التاريخ(٥٦)، من رواية المدائنى.

3 - عروه بن الزبير بن العوام، عالم المدينة، أبو عبد الله القرشى، أحد الفقهاء السبعة، أمه اسماء بنت أبى بكر وخالته أم المؤمنين عائشة، لازمها وتفقه بها الذهبى، السير(٤/ ٤٢١).

4- ابن سعد، الطبقات(٢/ ٧)، ابن اسحاق- ابن هشام(٢/ ١٧١-١٧٢).

القبائل الموادعة للطرفين دون ذلك، وإن وقع تراشق بالسهام بين سرية عبيدة والقريشيين، ورمى سعد ابن أبى وقاص بسهم فكان أول سهم رمى به فى الإسلام.[1]

واستمرت حملات المسلمين على الطريق التجارى لقريش فكانت غزوة بُواط[2] إلى رضوى[3] قرب ينبع فى جمادى الأولى لإعتراض قافلة لقريش، ثم غزوة العُشَيرة[4](بينبع) فى جمادى الأولى، ولم يقع قتال فى رضوى والعشيرة، ولكن جرت موادعة بنى مدلج فى العشيرة كانت هذه السرايا والغزوات تهديداً خطيراً لقريش، استهدف ضرب تجارتها ومحاربتها اقتصادياً لحملها على التفكير الجدى فى ترك تماديها فى سياسة الإيذاء والاضطهاد للمسلمين، وزحزحتها عن كونها حجر العثرة فى سبيل الإيمان، وإن المحاصرات الاقتصادية، وضرب آلاتها اليوم من أشد وأنكى ما يقوم به المجرمون فى حروبهم ضد بعضهم البعض، أو لحرب بلاد الإسلام، ثم ينكر مستشرقوهم هذه الحملات فى حرب المسلمين لقريش، وأنها نوع من قطع الطريق، لقد قطعت اليوم كل الطرق البرية والبحرية والجوية، ومحاصرة الموانى كافة كنوع من أنواع الحرب والسيطرة، بل ذلك دأبهم من قديم، وإن وصف قطاع الطرق ولصوص الأوطان لأقل وصف يوصفون به هم وليس المسلمون.

غزوة (بدر الأولى/ الصغرى) سَفَوَان:

أغار كرز بن جابر الفهرى فى جمادى الآخرة عقب غزوة العشيرة على أطراف المدينة ونهب بعض الأبل والمواشى، وهرب بأقصى ما يستطيع، وخرج النبى ﷺ لمطاردته حتى

1 – ابن هشام، السيرة (٢/ ١٧٤).

2 – وهى جبال من جبال جهينة ، من ناحية رضوى وهى قريب من ذى خشب، وبين بواط والمدينة نحو أربعة بُرُد.

3 – ابن سعد، الطبقات(٢/ ٩٠٨)، وابن اسحاق- ابن هشام، السيرة النبوية(٢/ ١٧٦).

4 – البخارى، الصحيح(٣٩٤٩)، ابن اسحاق- بن هشام، السيرة(٢/ ١٧٧).

سَفَوَان من ناحية بدر ولكنه كان قد أفلت من المطاردة، ولكن الحادث أكد للمسلمين على ضرورة بسط سيطرة المسلمين مع جيران المدينة إسلاماً أو موادعة أو غزواً

ســرية نخلة:

كما أسلفنا القول كانت طرق مكة التجارية إلى الشام كلها تحت الرصد والمهاجمة، ولم يبدأ المسلمون بحصار طريقهم إلى اليمن إلا فى هذه السرية، حيث بعث رسول الله ﷺ عبد الله بن جحش فى رجب على رأس سبعة عشر شهراً من الهجرة، ومعه ثمانية رهط وكتب له كتاباً وأمره ألا ينظر فيه حتى يسير يومين إمعاناً فى السرية وحتى لا يعلم أحد وجهته.

ففض الكتاب كما أمر فوجد فيه الأمر بالتوجه حتى ينزل نخلة بين مكة والطائف ليرصد بها قريشاً ويعلم من أخبارهم، وألا يستكره أحداً من أصحابه فمضوا جميعاً، وعندما نزلوا نخلة جنوب مكة كان ذلك فى آخر شهر رجب المحرم، ولكنهم تعرضوا لقافلة لقريش فظفروا بها، وقتلوا قائدها وأسروا اثنين من رجالها وعادوا إلى المدينة.[1]

كان عبد الله بن جحش يدرك خطورة الأمر فى أن يقاتل فى نهاية رجب المحرم القتال فيه عند العرب، أو يتركهم، ليدخلوا حينئذ الحرم فيمتنع القتال أيضاً، ولكنه تشاور وأصحابه، فعزموا على قتالهم فى آخر رجب.

رجع عبد الله بن جحش إلى المدينة بالغنائم والأسيرين، فأبى رسول الله ﷺ أن يتسلمها، لأنه لم يأمر بقتال فى الشهر الحرام وأوقف التصرف فى العير والأسيرين، بلغت إشاعات قريش الجزيرة كلها بأن محمداً يستحل هو وأصحابه القتال فى الشهر الحرام، ويسفكون فيه الدماء، وأنهم أخذوا الأموال والأسرى، وكثر فى ذلك القيل والقال

1 - انظر الغزالى، فقة السيرة (٢١٥-)، د. مهدى رزق الله، السيرة النبوية (٣٣٣)، د. أكرم العمرى، السيرة النبوية (٣٤٧)، د. محمد أبو شهبة، السيرة (٢/ ١١٩-١٢٢)، ابن هشام، السيرة النبوية (٢/ ١٧٩-١٨٢).

وأرجف اليهود والمنافقون فى المدينة قصد إشعال الفتنة، وفى هذه الغمرة من الأسى، والتثريب والعتاب والإرجاف من الأعداء، نزل الوحى حاسماً هذه الأقاويل ومؤيداً مسلك عبد الله تجاه المشركين، وموضحاً سلامة موقفهم.

والآيات هى قوله تعالى: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ۖ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ۖ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفْرٌۢ بِهِۦ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ ﴾ [البقرة: ٢١٧].

فكان فى هذا العذر لأصحاب السرية ما سرى عنهم، وعن المسلمين ما كانوا فيه من كرب وغم، وقبض الرسول ﷺ الغنائم، وفادى الأسيرين من قريش بشرط رجوع سعد بن أبى وقاص، وعتبة بن غزوان إذ خرجا عن السرية لبعير لهما نَدّ، فخشى الرسول ﷺ قريشاً عليهما.

إن الضجة التى افتعلها المشركون لإثارة الريبة والغبار فى سيرة المقاتلين الناصعة الشريفة لهى ضرب من قلب الباطل حقاً، والتغطية على مواقف الخزى من الطغاة ببعض تصرفات المظلومين الحقة.

إن الحُرمات المقدسة كافة قد أُنتهكت فى محاربة الإسلام واضطهاد أهله، فما الذى أعاد لهذه الحُرمات قداستها فجأة، فأصبح انتهاكها معرة وشناعة؟!

ألم يكن المسلمون مع نبيهم مقيمين فى البلد الحرام، والأشهر الحرام حين كانوا يعذبون وتنتهك أعراضهم وتسلب أموالهم، وحين قتل منهم تحت التعذيب من قتل، وحين تقرر قتل نبيهم ﷺ، هل لمثل هؤلاء أن يتأسفوا على انتهاك القيم والأعراف ومنذ متى كانوا حراسها والقائمين على مراعتها وحمايتها، إنهم الملأ المبطل فى كل زمان ومكان.

أوضحت الآيات القرآنية الكريمة، من ضمن ما أوضحت سيرة هذه السرية- لأنها بينت وأشارت إلى أمور كثيرة أخرى أعم من جزئية الكلام على تلك الحادثة- وأول ما

جَلَّته الآيات ناصعاً صالحاً خالداً لكل زمان، ناصحاً لكل مؤمن، كاشفاً عن دواخل الكفرة تلك المعانى التى نشير إليها فيما يلى:

الأول: أن القتال فى الشهر الحرام كبير نعم- أى إثم كبير- كما يقال إنه كبيرة من الكبائر، ولكن الصد عن سبيل الله، الصد عن الإسلام والإيمان به والتزام أحكامه أكبر، أى أكبر الكبائر لما يترتب عليه من نشر الكفر وما يسستتبعه من فسق وانحلال من أوامر الشرع، ومن صد عن سبيل الهدى والتمسك بأحكام الإسلام، وشيوع محاربة الله ورسوله ﷺ ودينه والمؤمنين به.

وإن إخراج المسلمين من مكة وصدهم عن المسجد أكبر كذلك من القتال فى الأشهر الحرم فما الذى جعل أكبر الكبائر ينقلب فى طرفة عين إلى أدناها وأصغرها فى نظر الطغاة إلا مصالحهم الخاصة، ومحاربة الإسلام، والتشهير به، فى الوقت الذى هم أولى بالتشهير بل بالقتال فيه، متى احترموا عهداً أو راعوا ذمة حتى يتباكوا على بعض قيم موروثة قد انتهكت، ومع أن الإسلام لا يقر انتهاكها، ذلك منطق الطغمة الفاسدة دوماً.

ودليل ذلك كله أنهم مستمرون وأمثالهم فى خطتهم الأصلية فى محاربة المسلمين وصدهم عن دينهم بكل وسيلة إلى أن يعودوا إلى الكفر، أو سحق المسلمين حتى لا تقوم لدينهم قائمة، وما أشبه اليوم بالبارحة، ولذلك تابعت الآيات التوجيه والنصح وتفطين المسلمين إلى واقعهم فقال تعالى:﴿ وَلَا يَزَالُونَ يُقَـٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَـٰعُوا۟ ﴾ [البقرة: ٢١٧] (1).

الثانى: وفى نفس السياق الذى وضح به المولى سبحانه للمؤمنين موقف الكفار الدائم منهم أرسل إليهم التحذير الشديد من الهزيمة أمام القوى الباغية، والتفريط فى الإيمان

1 - انظر محمد الغزالى، فقة السيرة (٢١٦).

الذى شرفهم به، وناط سعادتهم فى الدنيا والآخرة بالبقاء عليه. فقال:﴿ وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢١٧﴾ ﴾ [البقرة: ٢١٧].[1]

الثالث: زكت الآية الخاتمة ما فعله « عبد الله بن جحش » وأصحابه فى تلك السرية، رافعة عنهم ما وقع عليهم من تقريع وتوبيخ وتخويف، وهى عِدة بالجميل فى ذات الوقت إلى ما ينتظرهم من الرحمة والمغفرة فقال تعالى:﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢١٨﴾ ﴾ [البقرة: ٢١٨]، وجاء ذلك على عادة القرآن الكريم بأسلوب الرجاء للمؤمنين، لترك الاتكال والاعتماد على ما قدموا من أعمال مجيدة فيما مضى وحث لهم على إدامة الجهاد والكفاح فيما يستقبلون من حياتهم.[2]

إن عبد الله وصحبه نفذوا أوامر الرسول ﷺ بأمانة وشجاعة، وتوغلوا فى أرض العدو مسافات شاسعة متعرضين للقتل متطوعين بغير إكراه ولا حرج، فكان جزاؤهم ذلك لا التعنيف والإساءة.

كلام "وات":

بعد ما سلف من عرض هذه السرية بالذات فى السنة(السيرة المشرفة)، وما نزل من القرآن يؤكد وقوعها، ويظهر الحق الذى يجب أن يعيه المؤمنون منها، والسلوك الذى يجب أن يسيروا عليه فى مثلها جاء وات ليرى فيها فرصة سانحة يبدى ويعيد فيها بمنهجه المعوج لشرح الأحداث بما يسيء إلى النبى ﷺ ودينه من ناحية، وإلى أحد أفراد السرية بالذات من ناحية آخرى وهو سعد بن أبى وقاص رضي الله عنه أحد العشرة المبشرين بالجنة، خارجاً بالتاريخ

1 – انظر محمد الغزالى، فقة السيرة(٢١٦).

2 – محمد أبو شهبة، السيرة النبوية(٢/ ١٢٢).

عن مساره بما لا علاقة له به مما يدهش المرء ويثير استهجانه وتقززه.

لسنا فى حاجة إلى التذكير بمنهج وات من اختراع التاريخ، أو الإسقاط على الحوادث بما لا علاقة لها به من التاريخ الحديث، مع لى عنق الواقع ليوافق رأيه المسبق، ومن ثم نذكر كلامه بحروفه فقط لنناقشه فيه، فمن ذلك:

الأول: يقول وات: كان الشيء الأساسى فى أوامر محمد فى سرية عبد الله بن جحش أن يذهب إلى نخلة وينصب كميناً لقافلة قرشية، وحسب روايات أخرى، وهذه أضافة لاحقة، ترصد- أى ترقب- لترفع المسؤلية عن محمد فى أى مواجهة دموية.[1]

ولا يدرى الباحث من أى وجوه الكلام- الذى لا وجه له- يبدأ أو يناقش، إذ من أى جهة أتيت الكلام وجدته سيئاً لا يمكن أن يكون بحثاً لقد اختراع اتهاماً ليس إلا مغايراً ومجافياً به الواقع والحق وما يقع فى عقول الناس وقد عودنا وات أنه عندما يبدأ فى الاختراع يذكر جملاً قد أشرنا إلى بعضها من قبل، ونذكر بها الآن كأنه يقول ها قد بدأ فاصل التأليف التاريخى والتزوير الوثائقى، لنعلم من حيث لا يدرى أنه قد بدأ عزف النشاز الكاذب من هذه الجمل: «إذا أمكن قبول هذه الرواية، ومما يدعو إلى الشك، ويبدو، ومن الممكن، وإذا افترضنا»، كأن الله سبحانه أَبَى إلا أن يكشف الكاذب على رسوله ﷺ.

ونبدأ بالقول أن الرواية ليس فيها ذكر لكمين فاخترع أنها لنصب كمين، والرواية الصحيحة الموافقة للعقل والواقع صعب عليه ذكرها إلا بأنها مضافة فيما بعد، فهو يضيف روايات من عنده والرواية الصحيحة يدعى أنها أضيفت ولم يقل من أضافها ويذكر لها تاريخاً لاحقاً يظن أنه يفيده، ومن اختراعه أيضاً، فما علاقة ما يكتب بسيرة النبى ﷺ إذن، إنه الحياد والنزاهة العلمية!، إن الواقع يقول مع العقل إن المراقبة والرصد تكون قبل المهاجمة،

1 - وات Mohammad AT Medina p. 7

وهذا ما كان يفعله النبى ﷺ أن يرصد ويراقب ويبث العيون حتى إذا درس الواقع دراسة جيدة، أرسل على إثر ذلك المناسب لها من القوة المرجو بها تحقيق الهدف، أو لم يرسل وأجلها لإتمام الاستطلاع؛ أو إعداد العدة اللازمة، خاصة وأنه فى حرب مع قريش.

والرواية الثابتة، ليست المخترعة من وات، تقول:«فترصد بها قريشاً وتعلم لنا من أخبارهم» فمحا وات هذه العلة (الجملة)، سبب السرية، وأتى لنا من عنده بقوله تنصب كميناً لقافلة قرشية. واضعاً على الرسول ﷺ ما لم يقله ولن يقوله إلى يوم القيامة، ثم يبنى على هذا الكذب، أو التاريخ المزعوم ما يريد أن يلصقه ظلماً وزوراً بالإسلام ونبيه ﷺ.

ثم أبان وات عما يقصد من تزوير التاريخ، بأنهم أى المسلمين زوروه لرفع المسؤلية عن محمد بسبب أى معركة دموية يمكن أن تقع.

منذ متى كان سيدنا محمد ﷺ يتنصل من مسؤليته التى شرفه الوحى بها، وأى مسؤلية تقع عليه لو أنه أعلن من بداية السرية كغيرها من السرايا أنها سرية لمعركة دموية، إنه فى حرب طويلة بكل الوسائل مع قريش، وإن سرية قتالية لابد من إعلانها حتى يتأهب مقاتلوها، ولا يكون قد ألقى بهم فى مهاوى الهلكة أمام أعدائهم، إذ ذلك ليس من خلقه كقائد فضلا عن كونه نبياً ﷺ، بل لو نسب ذلك إلى أقل قائد فى الدنيا لما كان مقبولاً.

وإذا علم المتابع أن عدد هذه السرية لا يزيد على أصابع اليد الواحدة حيث ذهب اثنان من السرية هما سعد بن أبى وقاص وعتبة بن غزوان ليبحثا عن بعيرهما الذى ضل، فهل هذا العدد القليل بعدته الضعيفة يمكن أن يكون سرية هجومية[1]؟!

التالى من كلام وات فى هذه السرية هو زمن وقوعها، أول رجب أو نصفه أو آخره، واخترع أنها وقعت فى نصف رجب، ثم بعد هذا الافتراض الخاطئ يقول: وأما القول بأن

---

1 – د. طارق عبد الحميد، شبهات المنصرين حول السيرة النبوية، طبع مركز التنوير الإسلامى بدون تاريخ(٤١١).

المهاجمين لم يكونوا يعرفون أن اشهر الحرام انتهى.... فهذه لغسل العار الذى أصبح مشهوراً.

ثم يرجع القهقرى بعقله فيقول: يبدو أنها - أى السرية - كانت تعلم أن الحادث قد وقع نحو منتصف الشهر- رجب-.

ولا بأس أن نضغط على عقولنا، ونأتى على أنفسنا، ونستعين بالله تعالى لتفنيد هذه المقالات:

أولاً: لم تختلف المصادر الإسلامية - التى ليس لوات غيرها - فى ميعاد الحادث فى أول الشهر أو غيره، بل اتفقت المصادر كافة على أنها وقعت فى رجب الشهر الحرام.

ثانياً: اخترع وات أنها كانت فى النصف منه ليؤكد على أنها كانت فى رجب وأنهم كانوا يعلمون أنهم قاتلوا فى الشهر الحرام الذى يجب احترامه، وهم ينكرون شيئاً من ذلك حتى يغسلوا العار الذى سيلحقهم بسبب ادعائهم أنهم لم يكونوا يعلمون أنهم فى رجب والذى سيصبح بعد قليل فى كلامك ليس عاراً، فما الذى حمل وات على كل هذه الاختراعات يعلمون ولا يعلمون، والعار وأول رجب وآخره ونصفه.

ثالثاً: وحتى يثبت أنهم يعلمون، اختراع أن الحادثة كانت فى النصف من رجب، وكذبته المصادر والواقع بأنهم كانوا فى آخر يوم من رجب، ولو تركوا القافلة ستدخل الحرم ولا يستطيعون قتالها فآثروا أن يقاتلوا فى الشهر الحرام- وهو أخف عندهم- من أن يقاتلوا فى الحرم الشريف؛ فأين تنصل المصادر الإسلامية من أن القتال وقع فى شهر رجب الذى زعمه وات، وأين مصادره هو التى تثبت هذا التنصل، أله مصادر ذكرت سيرة النبى ﷺ يتحاكم لها ويرجع إليها فيها يقبل أو يرد من السيرة؟ تبين له ما يدعى، ترى لو كانت المصادر الإسلامية لم تذكر ذلك فمن أين كان سيورد هذا النص وتلك الحادثة؟ أم أنه

يعرف طريقة، وهى اختراع سرية لم تكن ولن تكون، كما اخترع وفصل هو أحداثها، فتناقض وتهافت وادعى ما ليس بصادق ولا صحيح.

مضطرون إلى استكمال الكلام مع "وات"..

يقول: إن محمداً لو كان فى نيته خرق الشهر الحرام فإنه لا يعنى أنه كان يفكر فى أمر معيب أو غير مشرف، فقد كان طابع الشهر الحرام مرتبطاً بالديانة الجاهلية التى كان محمد يحاربها، ولهذا كان خرق الشهر الحرام لتحطيم الأصنام. ولكن ماذا نقول عن تردد محمد فى قبول خُمس الغنيمة؟[1]

عاد وات مرة أخرى لعادته فى التناقض، وإثارة الشبهات بهذا التناقض الذى لا محل له إلا فى ذهنه بترتيبه المسبق الذى يؤديه إلى هذه المسالك العقلية الوعرة الضيقة التى لا يستطيع منها فكاكاً أو خروجاً.

فبعد أن كان هذا الفعل عاراً، أصبح لا عار فيه ولا عيب ولا مغمز، ولا يظن بذلك أنه يمدح ولكنه يمهد لمنهجه بالبناء ثم الهدم لإثارة التشكيك فى الرسول ﷺ ودينه كما سيأتى ولكنه قبل أن يذكر ذلك علله بأن الأشهر الحرام من دين الجاهلية كالأصنام يحاربها سيدنا محمد ﷺ، فخلط بين الأمرين هذا الخلط الغريب الشائه، والذى لم يحدث من سيدنا محمد ﷺ لا وحياً ولا اجتهاداً.

نعم قد جاء الرسول ﷺ بوحى السماء بالدعوة إلى التوحيد، وكسر الأصنام ونبذها وخلعها، ولكنه فى نفس الوقت جاءه الوحى بتعظيم الأشهر الحرم، وإبقائها كما ذكرنا الآيات، فكيف يستوى الأمران فى ذهن عاقل.

---

1 - وات Mohammad AT Medina p.8

ثم جاء دور الهدم فى نظر وات فيسأل سؤال الباحث البرئ: «ولكن ماذا نقول فى تردد محمد فى قبول خُمس الغنيمة؟».

المصادر الصحيحة تقول فى رد هذه الشبهة البريئة والتشكيك النزيه فى الوحى والرسول ﷺ، أن السبب فى تردد الرسول ﷺ فى قبول خمس الغنيمة هو أنهم انتهكوا حرمة الشهر الحرام، وقد قال لهم ذلك ﷺ صريحاً: « ما أمرتكم بقتال فى الشهر الحرام[1]»، وهو الصادق المصدوق الذى لا ينطق عن الهوى، وكان يمكن لأحدهم لو كان ذلك كذباً أن يرجع كافراً، ليقول إن محمداً هو الذى أمرنا بالقتال فى الشهر الحرام، وإنه الآن يدعى - حاشا له - أنه لم يأمرنا بذلك، ولأضحت الرسالة من أولها إلى آخرها فى مهب الريح المدمرة لها.

انظر إلى وات لم يمهلنا أن رد هو على سؤاله التاريخى ليقطع علينا الطريق، ويصادر علينا حق التفكير والنطق فضلاً عن الاعتراض وتبيين الخطأ. كائلاً بأوفى كيل من التهم فى جعبته موضحاً اجابته فى ثلاث نقاط:[2]

الأولى: أنه ﷺ اكتشف ردود فعل قوية حول خرق الشهر الحرام أكثر مما ينتظر.

الثانية: خشية البعض من عقاب تنزله بهم الآلهة- هكذا-.

الثالثة: لاحظ البعض التناقض بين الشريعة الآلهية من ناحية ودعوة محمد إلى التضحية فى سبيل الله من ناحية أخرى.

ويضيف لما سبق من نقاط فيقول: وشيء آخر ثابت وهو أن محمداً لم يكن يعبأ كثيراً

1 - انظر عبد الله النعيم، الاستشراق فى السيرة النبوية(٢٤٨).

2 - وات Mohammad AT Medina p.8

بالقتال فى الأشهر الحرم، ولكن كان عليه أن يحترم معتقدات قسم كبير من أتباعه (أصحابه)، وأن يتجنب ما ينشأ عن ذلك من صدى يهدد سلطته كنبى.[1]

ونزيد هنا أن احترام النبى ﷺ كان معلوماً حتى آخر أيامه فى الدنيا للأشهر الحرام حيث قال فى حجة الوداع فى أخر ما وصى به أصحابه والمؤمنين إلى يوم القيامة:« إن السنة اثنا عشر شهراً منها أربعة حرم ثلاثة متواليات: ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب مضر الذى بين جمادى وشعبان»[2]، فأين عدم مبالاته وأنه لا يعبأ بالأشهر الحرم فى قتال أو غيره، وقد ذكرنا ما قاله ﷺ لعبد الله وسريته، من أنهم لم يأمرهم بقتال فى الشهر الحرام.

أما أخذه الغنيمة بعد ذلك، فلم يكن دقيقاً القول بعد ذلك، بل بعد أن نزل الوحى يبرئ ساحة عبد الله بن جحش وسريته من مأثم فى قتالهم أو شين فى سلوكهم فقد رفض أخذ الغنيمة بما أوحى إليه من أمر الله بتعظيم الأشهر الحرام، وأخذها عندما جاءه أمره كذلك فى قرآن يتلى أن ما فعله المشركون بالمسلمين أكبر من القتال فى الشهر الحرام، وأن ما فعلوه بقريش التى لم تراع فيهم حرمة شهر ولا حرمة بيت إنما هو جائز من رد العدوان، واسترداد الحقوق المسلوبة، مع بقاء تعظيم حرمات تلك الأشهر.

أما قول وات إن الرسول ﷺ اكتشف ردود فعل قوية أكثر مما ينتظر، لذا تردد فى قبول الخمس فهو من هراء القول المجافى لحقيقة الانصياع للوحى والإيمان بالنبوة والرسالة، إذ ما الذى حمل هؤلاء الساخطين الذين استرضاهم ﷺ بعدم قبول الغنيمة، ما الذى حملهم على الهدوء وترك الغضب والإعلان بالسخط عند قبول النبى ﷺ الغنيمة وأخذه لها[3]، إن موقفهم من أصحاب السرية وغضبهم مما فعلوا إنما كان رد فعل لغضب النبى ﷺ بدليل

---

1 - Ibid. p.9

2 - ابن سعد، الطبقات(٢/ ١٨٦).

3 - ابن هشام، السيرة النبوية(٢/ ١٨١)، ابن حزم، جوامع السيرة(١٠٦).

قولهم لعبد الله وأصحابه:« صنعتم ما لم تؤمروا به»[1]، وعنفهم إخوانهم من المسلمين فيما صنعوا[2]، كما ذكر ابن اسحاق فى السيرة.

ومن ثم كانت الحقيقة الناصعة أنه عندما نزل الوحى هدأت الأمور، وعاد عبد الله بن جحش وأصحابه مكرمين معززين بين المسلمين بتأييد الوحى لمسلكهم، ولو كان الغاضبون لهم رد فعل على تصرفات النبى ﷺ أو حتى على عبد الله وإخوانه، لكان لذلك أثره ولامتد هذا الأثر فترة بعد ذلك ثم ترى هل يعبأ سيدنا رسول الله ﷺ برد فعل أحد أو الدنيا كلها بعد نزول الوحى عليه، لقد قام أمام الكفار وحيداً يسفه أحلامهم ويسب آلهتهم ويضلل أفهامهم ولم يبال بهم وبما أنزلوه به وبأصحابه، ثم يأتى بعد ذلك ليعمل حساباً لرد فعل بعض المؤمنين المتقين- لو كان هذا صحيحاً- فيفعل أو يترك لأجلهم!

وعندما أراد وات فى النقطة الثانية ليبين لنا السبب الثانى على شبهته البريئة كما نوهنا إليها وهى تردد النبى ﷺ بقبول الخمس من الغنيمة، فإذا به يعاود عين المسألة، بخشية البعض من عقاب تنزله الآلهة عليهم، هكذا قال، لا أعتقد أن وات يظن أنه صادق فيما يقول، هل يعتقد وات أن سيدنا محمد ﷺ وصحبه يؤمنون بتعدد الآلهة الذى ذكر هو سابقاً أنه جاء ليحطمها، أو ليس هناك إلا رب الأرض والسماء، الها واحداً لا إله إلا هو، ولا معبود سواه، فى دينه الذى يدعو إليه وقاتل عليه ﷺ، أن وات يضلل ليشيع أن بعض المسلمين مازالوا خاضعين لمنطق الجاهلية، مؤمنين بالكفر، وهذا أعجب العجب فى البحث العلمى.

النقطة الثالثة فى كلام وات عن أسباب تردد النبى ﷺ فى قبول خمس الغنيمة أولاً،

---

1 – الطبرى، التاريخ طبعة (٢/).

2 – ابن هشام، السيرة النبوية(٢/ ١٨٠).

وهى ملاحظة البعض التناقض بين الشريعة الآلهية من ناحية ودعوة سيدنا محمد ﷺ للتضحية من ناحية أخرى.[1]

ويقال أولاً: من هؤلاء البعض؟ أهم بعض أصحاب النبى ﷺ، أو هم بعض من أتى بعدهم من المسلمين، فإن كان كذلك فليذكر وات اسماً واحداً رأى ذلك، أم عاد وات إلى عوائده القديمة فى منهجه العلمى من إلقاء التهم بغير تثبيت، وزرع الشبهات والشكوك ثم الصاقها بمن لا يُعَلم.

أم هم من المستشرقين ومن تبعهم؟ إذا فليقولوا قولاً يبرئون به ساحتهم من الدجل والتدليس والغش، قولاً فيه شيء من العلم الصحيح والمنطق المستقيم، ليمكن النظر فيه ومعرفة قيمته رداً أو قبولاً.

ويقال ثانياً: إن (وات) قد استعمل فى منهجه- لم أر من نبه إليها من العلماء- طريقة تحمل المرء على تجشم الرد، وعناء البحث وإعمال الفكر ليبعد به الباحث عن إلهية الدعوة وثبوت الوحى وصدق النبوة وصحة الرسالة، فيأخذ المرء فى التجديف معه بعيداً عن الأصل الذى يرمى إليه مصوباً إليه حدقة بحثه إن كان، وفى غمرة البحث ينسى المرء الوحى والرسالة والاحتجاج بهما، وهنا تدب دسيسة وات إلى العقول والقلوب بتثبيت تلك المعانى أو مهاجمتها بعيداً عن الدين والوحى وهو مراده، فيكون بحث الباحث مناظرة لمناظرة أو جدالاً لجدال، بعد به العهد عن النصوص والنبوة وتعلق البحث بالسماء، مع أنه كان يمكن للباحث الرد على وات بكلمة واحدة تثبت بها المعانى ويظهر بها الإيمان وهى «إنه الوحى».

من ذلك ما نحن بصدده من ردود وأقواها ظهوراً ما نحن فيه الآن إذ يقول «ظهر

---

1 - mohammad at medina p. 8

للبعض التناقض بين الشريعة الآلهية ودعوة محمد»، والرد سهل يسير وهو إن الشريعة ودعوة سيدنا محمد ﷺ هى أمر واحد موحى به من عند الله تعالى لا فرق بينها.

أما هذا التناقض فمن وات نفسه، إذ هدف لايجاده بتفسيره الخاطئ (أو متعمد الخطأ) للنصوص فى هذه السرية، إذ السرية للرصد وللاستطلاع من أخبار قريش فجعلها لنصب كمين، وهو ما يسمية دعوة محمد للتضحية فى سبيل الله، وعدم قبوله الخمس وهو الشريعة الآلهية فجعل ذلك تناقضاً[1]، ونسبه للبعض الذين أخفى إعلامهم، لأنهم فى الحقيقة غير موجودين، لأن القصة التى حضروها وعلموها غير ما اخترعه وات وألفه، وبالتالى لم يوجد عندهم ما ادعاه وات، ليلمز به الشرع والدعوة، وأن ذلك ليس وحياً فى النهاية إلى آخر ما اهتم به وات وسعى إلى اثباته بخيله ورجله. ويكفى أنه خالف الواقع المنصوص وكتب وأرخ خلافه لو سمينا ذلك باسمه الصريح لقلنا يكفيه كذباً.

وفى نهاية القول فى تردد النبى ﷺ فى قبول الخمس ذكر وات أن الرسول ﷺ كان عليه أن يحترم معتقدات قسم كبير من أصحابه، وما ينشأ عن ذلك من صدى يهدد سلطته كنبى.[2]

وهذا كلام لا يحتاج لرد لأن الرسول ﷺ لم يكن ليعبأ بمعتقدات العالم كله لو كانت مخالفة لوحى الله له، وأمر دعوته فى مكة ﷺ أشهر شيء فى التاريخ، وكذا فى المدينة، وأيضاً موقفه الحاسم مع اليهود والنصارى وغيرهم.

وإن التاريخ لمثل كلام وات على طريقة وات نفسه لابد أن يدخل فيها، تردده ﷺ فى قبول الخمس حتى لا تتهدد سلطته كنبى ﷺ وها قد قبل الخمس هل تهددت سلطته كنبى

1 – انظر عبد الله النعيم، الاستشراق فى السيرة النبوية(٢٤٩).

2 – وات Mohammad AT Medina p.9

لقد رأينا العكس بما يكذب كلام وات ويدحضه، ويبطل فى نفس الوقت فهمه للتاريخ وتحليله له ثم ما موقف هذا القسم الكبير من أصحابه الذين لم يحترم معتقداتهم، بعد هذه المخالفة الصارخة منه ﷺ لهذه المعتقدات، إنه شيء معيب للغاية أن يصل تحليل وات إلى هذه الدرجة، لأن هذا القسم الكبير من أصحابه ﷺ لاشك لهم اليد الطولى إذن، وهو ما يفرض معتقداتهم، هل حدث شيء من ذلك همساً أو سراً أو علانية؟

إن الإجابة التى لا نحيد عنها أن معتقداتهم هى ما علمهم ﷺ من معتقدات، بل سبيلهم ظاهراً وباطناً هى سبيله﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ﴾ [الأنعام: ١٦٢-١٦٣].

والأمر الثانى فى قصة السرية هى موقف سعد بن أبى وقاص، حيث سارع وات وتهور فلمزه رضي الله عنه وأساء إليه بما اخترع من حكايات مجافية للواقع والحقيقة تجعل الرد عليه ضرباً من تضييع الوقت، مع حزن النفس وتبرمها بمثل هذا التعصب والتطاول وغير ذلك من الافتراءات التى تلبس ثوب العلم والحياد.

وإن الرد عليه يدخل فيما سبق أن رددنا، وإن كان قد أساء إلى النبى ﷺ كما سلف النقل عنه، فلأن يسيء إلى أحد أصحابه بمقالات السوء تلك غير مستغرب ولا مستبعد وما اختار من السرية إلا سعداً رضي الله عنه إلا ليكمل له الإساءة إلى الرسول ﷺ ودينه وأفضل أصحابه المبشرين بالجنة، وبالتالى لا يحتاج الكلام إلى توضيح، وإلى فهم المراد.

تحويل القبلة:

فى نهاية تلك الأحداث التى وقعت قبل غزوة بدر الكبرى، جاء حادث تحويل القبلة إلى الكعبة المشرفة فى مكة، وهو ما نختم به تلك الفترة قبل الخوض فى موقعة بدر كان النبى ﷺ

يتجه فى صلاته بمكة قبل الهجرة مستقبلاً بيت المقدس جاعلاً الكعبة بينه وبين بيت المقدس، وهذا ما ورد صحيحاً عن ابن عباس رضي الله عنهما.[1]

وذهب بعض العلماء إلى أنه ﷺ كان يصلى بمكة إلى الكعبة، فلما هاجر إلى المدينة استقبل بيت المقدس[2].

ولما هاجر النبى ﷺ إلى المدينة المنورة استمر فى الاتجاه بصلاته نحو بيت المقدس ستة عشر شهراً[3]. وفى منتصف رجب سنة اثنين للهجرة أمره الله تعالى بالتحول فى صلاته إلى الكعبة، قبلة إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام، وهو قول الجمهور من العلماء.

وقد رحب يهود المدينة باستقبال النبى ﷺ لقبلتهم، خاصة أنهم قد عاهدوا النبى ﷺ كما أوردنا من قبل، وإن كان ذلك منهم محل إنكار كما ذكر الطبرى فى تفسيره عن مجاهد أنهم كانوا يقولون:« يخالفنا محمد ويتبع قبلتنا [4]»، كأنهم طمعوا فى أن يميل النبى ﷺ إلى دينهم حيث رأوا الإسلام يتابعهم فى القبلة دليل صحة شيء من تقاليدهم وطقوسهم.

لخصت الآيات الكريمة سيرة النبى ﷺ والمسلمين مع القبلة، حيث كانت حادثاً عظيماً فى تاريخ الجماعة المسلمة، وله آثاره الضخمة فى حياتها.

---

1 - ابن سعد (١/ ٢٤٣) الطبقات، والحاكم وصححه. وانظر د. أكرم العمرى، السيرة النبوية الصحيحة (٣٤٩).

2 - وقد مال إلى هذا الرأى أبو عمر بن عبد البر القرطبى، وانتقد الحافظ ابن حجر هذا الرأى وضعفه فقال فى فتح البارى، وهذا ضعيف ويلزم منه دعوى النسخ مرتين، والأول أصح ؛ لأنه يجمع بين القولين، وقد صححه الحاكم وغيره، انظر فتح البارى شرح صحيح البخارى (١/ ٦٣).

3 - مسلم (١/ ٣٧٤)، وجزم به، وهو قول عدد من الصحابه معاذ وأنس وغيرهما ورواه البخارى ستة أو سبعة عشر شهراً وقد وفق بين القولين، وخليفة بن خياط فى التاريخ(٦٤)، الطبرى، التفسير(٢/ ٣)، وذهب د. مهدى رزق الله إلى أن قول الجمهور فى النصف من شعبان على رأس ثمانية عشر شهراً وهو رأى ابن اسحاق- ابن هشام- (٢/ ١٨٢)، بخلاف ترجيح د. أكرم العمرى ولكن صحت الأحاديث على كلام د. أكرم لما صححه البخارى، وابن حجر فى فتح البارى.

4 - الطبرى، التفسير(٢/ ٢٠).

فبينت الآية الأولى على خلاف الترتيب القرآنى كما سنوضح حكمة ذلك، تقلب وجهه فى السماء ﷺ داعياً ربه متضرعاً أو ساكتاً متأدباً يرجوه أن يوجهه إلى الكعبة المشرفة، وذلك فى قوله تعالى: ﴿ قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ ۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا ﴾ [البقرة: ١٤٤].

ثم جاءه الأمر الإلهى الأول بأن يولىَ وجهه شطر المسجد الحرام فقال تعالى: ﴿ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ ۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٤٤﴾ ﴾ [البقرة: ١٤٤].

وجاء الأمر مرة أخرى بالتوجه إلى القبلة فقال جل وعلا: ﴿ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۖ وَإِنَّهُۥ لَلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٩﴾ ﴾ [البقرة: ١٤٩].

وتلا ذلك الأمر الثالث باستقبال المسجد الحرام فقال تعالى: ﴿ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِي وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٠﴾ ﴾ [البقرة: ١٥٠].

ونذكر الآن الآية الأولى فى السياق القرآنى الكريم، وإن كان ذكرها الآن هو محلها فى الواقع على ما سنشير إلى الحكمة التى أبداها أهل العلم فى ذلك، هى قوله تعالى: ﴿ ۞ سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِي كَانُوا۟ عَلَيْهَا ۚ قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ يَهْدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٤٢﴾ ﴾ [البقرة: ١٤٢].

وفى ثنايا تلك السيرة القرآنية جاءت التوجيهات الإلهية والوصايا الربانية، وجاء توضيح المواقف، وتمييز الناس، والتحذير من الاغترار بالباطل، وظهرت الحكم والعبر والعظات من معانى ذلك كله، لتقود قافلة الإيمان فى النور الساطع بقدم راسخ إلى منتهى شوط الأمان والنجاة والرفعة فى الدنيا والآخرة.

وقبل الخوض فى تلك المعانى القرآنية الكريمة يجدر أن نشير إلى كلام له قيمته ذكره

سيد قطب رحمه الله، فنلخص مجمله:

يقول: أما الآن فنقول كلمة فى حكمة تحويل القبلة، واختصاص المسلمين بقبلة خاصة يتوجهون إليها، إذ كان ذلك لا شك لحكمة تربوية ذكرتها الآية الكريمة وهى فى قوله تعالى: ﴿ وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ﴾ [البقرة: ١٤٣].[١]

فقد كان العرب يعظمون البيت الحرام فى جاهليتهم، ويعدونه عنوان مجدهم القومى، ولما كان الإسلام قد جاء لاستخلاص القلوب لله وحده، وتجريدها عن كل تعلق بغيره، وتخليصها من كل نعرة وكل عصبية لغير منهج الإسلام المرتبط بالله تعالى مباشرة، المجرد من ملابسة تاريخية أو عنصرية أو أرضية، فقد نزعهم نزعاً من الاتجاه إلى البيت الحرام واختار لهم المسجد الأقصى ليخلص نفوسهم من كل تلك الرواسب الجاهلية، وليظهر من يتبع الرسول ﷺ ويطيعه فى كل أمره طاعة مجردة من كل شيء، الطاعة الواثقة الراضية المستسلمة، ممن ينقلب على عقبية اعتزازاً بنعرة جاهلية تتعلق بالجنس والقوم والأرض والتاريخ، أو تتلبس فى خفايا المشاعر وحنايا الضمير حتى إذا استسلم أهل الإيمان لهذا الأمر من الله ورسوله جاءهم الأمر باستقبال الكعبة المشرفة، كذلك إظهاراً للاستسلام لله ولرسوله ﷺ، ولكنه فى أمره باستقبال الكعبة المشرفة ربط قلوب المسلمين بحقيقة أخرى هى حقيقة الإسلام، حقيقة أن هذا البيت بناه إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام؛ وليكون تراث الأمة المسلمة التى نشأت تلبية لدعوة إبراهيم لربه بأن يبعث فيهم رسولاً بالإسلام الذى كان عليه إبراهيم وبنوه وأحفاده.[٢]

يقول الطاهر بن عاشور رحمه الله: إن المناسبة بين هذه الآية﴿ ۞ سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ ﴾ وبين

1 - سيد قطب رحمه الله يميل إلى الرأى الذى ضعفناه بأن القبلة فى مكة كانت الكعبة المشرفة«ظلال القرآن»(١/ ١٢٦).
2 - سيد قطب، فى ظلال القرآن(١/ ١٢٦-١٢٧).

الآى التى قبلها غير واضحة، ولكن هناك مناسبة بديعة، وهى أن الآيات التى قبلها تكرر فيها التنويه بإبراهيم وملته والكعبة وأن من يرغب عنها فقد سفه نفسه.[1]

ونعود إلى سيد قطب رحمه الله، حيث بسط القول شيئاً ما كما ذكرنا فيقول رحمه الله ما مختصره أن الحديث عن المسجد الحرام وبنائه وعمارته، والجدل مع أهل الكتاب والمشركين حول إبراهيم وبنيه وملته وقبلته، وعهده ووصيته، كل هذا الحديث كان خير تمهيد لتحويل القبلة إلى بيت الله الذى بناه والذى يمثل ملته التى من أراد غيرها فقد سفه نفسه والتى دعا ربه أن يبعث رسولاً يقيمها، فتحويل القبلة إذن يبدو فى هذا السياق هو الاتجاه الطبيعى المنطقى مع وراثة المسلمين لدين إبراهيم وعهده، وهو الدين الذى ارتضاه الله سبحانه للبشرية كافة، فهو الاتجاه الحسى المتسق مع الاتجاه الشعورى، الذى ينشئه هذا التاريخ.

وإن الله عهد لإبراهيم عليه السلام أن يكون من المسلمين:﴿ إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٣١﴾ ﴾ [البقرة: ١٣١] وعهد إبراهيم عليه السلام لبنيه بالإسلام وكذلك أحفاده:﴿ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾ ﴾ [البقرة: ١٣٢] ولقد أعلم الله إبراهيم عليه السلام أن وراثة عهد الله وفضله لا يناله الظالمين:﴿ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٢٤﴾ ﴾ [البقرة: ١٢٤] إن الأمة المسلمة هى الوارثة لذلك العهد ولذلك الفضل فطبيعى إذن أن ترث بيت الله فى مكة، وأن تتخذ منه قبلة.

فإذا اتجه المسلمون فترة إلى المسجد الاقصى لحكمة سبقت الذى يتجه إليه اليهود والنصارى، وأبوا أن يفيئوا إلى دين أبيهم إبراهيم عليه السلام، ليشاركوا الأمة المسلمة وليكونوا أمة واحدة موحدة لله تعالى، فقد جاء أوان تحويل القبلة إلى بيت الله الأول الذى بناه

1 - الطاهر بن عاشور، التحير والتنوير(٢/ ٥)، وإن كان يميل العلامةابن عاشور إلى أن النسخ كان من بيت المقدس إلى الكعبة فى المدينة، أما فى مكة فكان ﷺ يستقبل الكعبة.

إبراهيم عليه السلام لتتميز للمسلمين كل خصائص الوراثة حسيها وشعوريها، وراثة الدين، ووراثة القبلة، ووراثة الفضل من الله جميعاً.

إن الاختصاص والتميز للجماعة المسلمة ضروريٌ من هذا المنطق، ومما رأينا من سيرة النبى ﷺ عامة الاختصاص فى التصور والاعتقاد، والاختصاص والتميز فى القبلة والعبادة، وهما واضحان فى التصور والاعتقاد، ولكنه قد لا يكون بهذه الدرجة من الوضوح فيما يختص بالقبلة وشعائر العبادة، ولابد من وقفة مع قيمة أشكال العبادة.[1]

إن الناظر إلى أشكال العبادات الظاهرة مجردة عن ملابساتها، ومجردة عن طبيعة النفس البشرية وتأثراتها ربما يبدو له أن فى الحرص على هذه الأشكال بذاتها شيئاً من التعصب الضيق، أو شيئاً من التعبد للشكليات! ولكن نظرة أرحب وأوسع من هذه النظرة وإدراكاً أعمق لطبيعة الفطرة، يكشفان عن حقيقة أخرى لها كل الاعتبار لهذه الشكليات المتميزة للعبادات، ففى النفس البشرية ميل فطرى ناشيء من تكوين الانسان ذاته من جسد طاهر وروح مغيب إلى اتخاذ أشكال ظاهرة عن المشاعر المضمرة، وهذا لا يحتاج إلى تدليل، وقد أشار إليه النبى ﷺ بقوله:« إن فى الجسد مضغة إذا صلحت صلح سائر الجسد»[2]، فما يظهر إذن على المرء أنما هو تعبير لابد منه لذلك الشعور والميل الداخلى إذ لا تستقر وتهدأ هذه المشاعر المضمرة حتى تتخذ لها شكلاً ظاهراً تدركه الحواس.

وعلى هذا الأساس الفطرى أقام الإسلام شعائره التعبدية كلها، فهى لا تؤدى بمجرد النية وحدها أو التوجه الروحى، لكن ذلك يتخذ شكلاً ظاهراً قياماً واتجاهاً إلى القبلة وتكبيراً وقراءة وركوعاً وسجوداً ذلك فى الصلاة، وإحراماً من مكان معين بلباس معين

---

1 - سيد قطب فى ظلال القرآن (١/ ١٢٧).

2 - البخارى، الصحيح (٥٠).

وطوافاً وسعياً بحركة معينة ودعاء وتلبية ورمياً للحجارة ونحراً وحلقاً ذلك فى الحج، وهكذا فى كل عبادته وأوامره وسننه.

ولم يكن بعد ذلك، بد من تمييز المكان الذى يتجه إليه المسلم بالصلاة والعبادة كى يتمييز هو ويتخصص بتصوره ومنهجه واتجاهه فهذا التميز تلبية للشعور بالتخصص والتفرد والامتياز، كما أنه بدوره ينشئ شعوراً بالامتياز والتفرد.

ومن هنا كان التشبه بغير المسلمين فى خصائصهم التى هى تعبير ظاهر عن مشاعر باطنة كالنهى عن طريقتهم فى الشعور والسلوك سواء، ولم يكن هذا تعصباً ولا تمسكاً بمجرد الشكليات. وإنما كان نظرة أعمق إلى ما وراء الشكليات، كان نظرة إلى البواعث الكامنة وراء الأشكال الظاهرة وهذه البواعث هى التى تفرق قوماً عن قوم، وتصوراً عن تصور، وعقلية عن عقلية، وضميراً عن ضمير وخلقاً عن خلق، واتجاهاً فى الحياة كلها عن اتجاه.

لذلك ورد عن أبى هريرة ﷺ قال: إن رسول الله ﷺ قال:« إن اليهود والنصارى لا يصبغون فخالفوهم».[1]

وقال ﷺ وقد خرج على جماعة فقاموا له: « لا تقوموا كما تقوم الأعاجم يعظم بعضهم بعضاً»[2]، وقال ﷺ: « لا تطرونى كما أطرت النصارى ابن مريم إنما أنا عبدٌ، فقولوا: عبد الله ورسوله»[3]، فنهى عن تشبهٍ فى مظهرٍ أو لباسٍ، ونهى عن تشبهٍ فى حركةٍ أو سلوكٍ، ونهى عن تشبهٍ فى قولٍ أو أدبٍ؛ لأن وراء ذلك الشعور الباطن الذى يميز تصوراً عن تصور ومنهجاً فى الحياة عن منهج، وسمة للجماعة عن سمة.

1 - البخارى(٥٤٤٨)، ومسلم(٣٩٢٦).

2 - رواه أبو داود، السنن(٤٥٥٣).

3 - البخارى(٣١٨٩).

ثم هو فى نفس الوقت نَهْىٌ عن التلقى من غير الله تعالى ومنهجه الذى جاءت الأمة لتحققه فى الأرض نَهْىٌ عن الهزيمة الداخلية أمام أى قوم آخرين فى الأرض، فالهزيمة الداخلية تجاه مجتمع معين هى التى تأسر النفس لتقلد ذلك المجتمع المعين، والمسلمون هم الأمة الوسط، هم الأعلون إن كانوا مؤمنين، هم خير أمة أخرجت للناس فإن لم يستخدموا تصورهم ومنهجهم ونظمهم وتقاليدهم من الله فهم يستمدونها من الأدنى الذى جاءوا ليرفعوه.

لقد ضمن الإسلام للبشرية أعلى أفق للتصور، وأقوم منهج فى الحياة، وهو يدعو البشرية كلها إلى أن تفئ إليه، وما كان تعصباً إذن من الإسلام أن يطلب وحدة البشرية على أساسه هو لا على أى أساس آخر، وعلى منهجه لا على أى منهج آخر، وتحت رايته لا تحت أى راية فالذى يدعوك الى توحيد الله تعالى وأن يكون من دونه سواء،ويدعوك إلى الوحدة فى الارفع من المقصود، والوحدة فى الارفع من النظام، ويأبى الحيدة عن منهج الله تعالى والتردى فى مهاوى الجاهلية، ليس متعصباً، أو هو متعصب ولكن للخير والحق والصلاح.

والأمة المسلمة اليوم محاطة بل ومتغلغل فيها نفسها شتى التصورات الجاهلية وغيرها التى تعج بها الأرض، وكذلك شتى الأهداف والرايات الجاهلية التى يرفعها الأقوام، وبين شتى الاهتمامات التى تشغل بال الناس على خلاف اهتمامات الإسلام ومنهجه، ومن ثم فهى فى حاجة إلى التميز بشخصية لا تتلبس بالشخصيات السائدة جاهلية أو غيرها، وتتميز بتصور خاص للوجود والحياة لا يلتبس بالتصورات السائدة، والتميز بأهداف واهتمامات تتفق مع تلك الشخصية وتصورها هذا التميز هو الوقوف تحت راية تحمل اسم الله وحده؛ فتعرف ساعتها بأنها خير أمة، الأمة الوسط[1].

---

1 – انظر سيد قطب، فى ظلال القرآن (١/ ١٢٩).

وهكذا رأينا كيف كانت القبلة تحمل هذه الدلالات التى جاء الإسلام ليؤسسها فى الجماعة المسلمة من وقت مبكر تستطيع فيه حمل الراية والسير الحثيث لتحقيق تلك الأهداف مع التمايز بأنهم المسلمون، ولقد ساروا بذلك حتى إنه لا يمكن أن يقال عنهم فى كل مجال يحمل الخير والحق والعدل والرحمة إلا إنهم المسلمون. إلى أن فقدوا موقعهم تحت الراية وانزحاوا يمنة ويسرة فحل بهم ما نعانيه اليوم.

نعود إلى هذا الجزء من السيرة النبوية فى القرآن الكريم كما هو منهجنا، ونقتصر على ما يوضح الموضوع من كلام الله تعالى، ونبدأ بالآية الأولى وهى قوله تعالى:﴿ ۞ سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمۡ عَن قِبۡلَتِهِمُ ٱلَّتِي كَانُواْ عَلَيۡهَاۚ قُل لِّلَّهِ ٱلۡمَشۡرِقُ وَٱلۡمَغۡرِبُۚ يَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ١٤٢ ﴾ [البقرة: ١٤٢].

وكان سياق هذه الآية الكريمة بحسب الواقع الظاهر متأخراً بعد تحويل القبلة، إذ ذلك القول من السفهاء إنما هو بعد أن يغير المسلمون قبلتهم فتشاع عنهم هذه المقالة السيئة والإشاعات المغرضة ونذكر حكمة ذلك بشرح الآية فيما يلى كما وضحه الفخر الرازى فى « التفسير الكبير»، يقول ماحاصله إن قوله تعالى: ﴿ ۞ سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ ﴾ فيه قولان:

الأول: وهو اختيار القفال أن هذا اللفظ وإن كان للمستقبل ظاهراً لكنه قد يستعمل فى الماضى أيضاً، كالرجل يعمل عملاً فيطعن فيه بعض أعدائه فيقول: أنا أعلم أنهم سيطعنون على فيما فعلت، ومجاز هذا أن يكون القول فيما يكرر ويعاد فإذا ذكروه مرة أخرى صح أن يقال سيقول السفهاء.

الثانى: أن الله أخبر عنهم قبل أن يذكروا هذا الكلام أنهم سيذكرونه وفيه فوائد:

أحدها: أنه ﷺ إذا أخبر عن شيء قبل وقوعه، كان هذا إخبارا بالغيب، فيكون معجزاً.

ثانيها: أنه تعالى إذا أخبر عن ذلك أولاً ثم سمعه منهم، فإنه يكون تأذيه من هذا الكلام أقل مما إذا سمعه منهم أولاً.

ثالثها: أن الله تعالى إذا أسمعه ذلك أولاً، ثم ذكر جوابه معه فحين يسمعه النبي ﷺ منهم يكون الجواب حاضراً، فكان ذلك أولى مما إذا سمعه ولا يكون الجواب حاضراً، وبهذا ظهرت حكمة تقديم تلك الآية وتهيئة المؤمنين وتثبيت قلوبهم لأقوال أعدائهم.[1]

ونعود إلى قوله:﴿ ۞ سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ ﴾، وهم أولئك الذين نشروا شائعاتهم واتهاماتهم للنبى ﷺ وللمؤمنين يشككون فى دينهم، وعدم ثباتهم عليه، بل هم متحيرون لا يدرون إلى أى قبلة يصلون، وهذا تشكيك فى صدق الوحى، وبالتالى الرسالة والقرآن الكريم، وبدأوا حرباً قاسية ليضطرب المؤمنون وتتزعزع ثقتهم فى دينهم ونبيهم وربهم، ها قد جاءتهم فرصة بغير شوكة اهتبلوها، أقوى وأصعب من ملاقاتهم بالسلاح، وللمرء أن يتخيل حال المؤمنين حينئذ، حيث وصف الله تعالى ذلك الوضع السيء بقوله جل وعلا: ﴿ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً ﴾ [البقرة: ١٤٣]. إن رجوع أحد من المؤمنين عن دينه فى ذلك الامتحان لهو أقسى من قتله إذ هو تهوين للصف، وتخذيل له وتعريضه للهزيمة النفسية المقدمة للهزيمة العسكرية.

ولتصوير عظم ذلك ذكر الله تعالى أن هذه المقولة هى مقولة السفهاء، والسفيه من لا يميز ما له مما عليه، ويعدل عن طريق منافعه إلى ما يضره، ولا شك أن من فعل ذلك فى أمر الدنيا يعدونه سفيهاً، فمن باب الأولى فى أمر الدين، وقد وصفهم بالسفاهة أى الخفة والجهل والطيش وعدم تميز الحق النافع، لما أورده عليهم من حجة تدل على سفاهتهم، فقال:﴿ قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٤٢﴾ ﴾ [البقرة: ١٤٢]. أى من كان له المشرق والمغرب – وليس هناك من ادعى لنفسه، أو لغيره ذلك – فهو يوجه إلى ما يشاء،

1 – الفخر الرازي، التفسير الكبير (٢/ ٤٦٢).

وما يعترض على ذلك إلا جاهل سفيه، ونص عليهم عدم اهتدائهم لأنهم لا يستحقونه لإيثارهم الباطل على الحق، وذلك من تمام سفاهتهم، فلا جرم... صدر هذه السيرة بتلك الآية لتبين سفاهتهم، حتى يحذر ذلك المؤمنون، بل ليمتنع تردد ذلك فى صدورهم.

ويأتى السؤال: ما العظيم فى هذا المذكور؟ والكبير فيه، حتى يصوره القرآن الكريم بذلك؟

إن العظيم فى ذلك أن السفهاء كانوا الجميع من غير المؤمنين، إذ رمى الكفار المشركون من مكة، واليهود فى المدينة، والمنافقون رموا المسلمين عن قوس واحدة، إذ لفظ السفهاء لفظ عموم يصلح لكل الكفار بحسب الدليل العقلى الذى أشرنا إليه، والدليل النقلى وهو قوله تعالى:﴿ وَمَن يَرۡغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبۡرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفۡسَهُۥ ﴾ [البقرة: ١٣٠].[1] فالكل قد اجتمع على المسلمين وشككوا واتهموا وذموا؛ لأن الأعداء مجبولون على القدح والطعن، فإذا وجدوا مجالاً لم يتركوا مقالاً البتة، كان الخطب جسيماً إذ اجتمع كل من فى المدينة بل ومشركو مكة على الصياح على المسلمين وإرهابهم من كل فج. حتى قال المؤمنون متوجسين خيفة ما حال إخواننا الذين ماتوا قبل تحويل القبلة، فنزل قوله تعالى:﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَـٰنَكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٣﴾ ﴾ [البقرة: ١٤٣].

ذكر المفسرون ذلك، ونسبوا كل قول من بهت وإفك إلى قائله فقالت اليهود: لو ثبت على قبلتنا لعلمنا أنه الرسول المنتظر المبشر به فى التوراة، وكانوا يظنون موافقته لهم فى القبلة ربما تدعوه إلى أن يوافقهم بالكلية، فليس إذا رسولاً.

وقال المشركون: أبى إلا الرجوع لموافقتنا يعنى كأن الوثنية صارت حقاً.

---

١ – انظر الفخر الرازى، التفسير الكبير(٢/ ٤٦٢-٤٦٣).

وقال المنافقون: على سبيل الاستهزاء إن التحويل مجرد عبث وعمل بالرأى والشهوة إذ لا تتميز بعض الجهات عن بعض بخاصيةمعقولة تقتضى تغيير القبلة.[1]

نزلت الآيات متتابعة لتوضح الحكمة من ذلك، وتبين مواقف كل فريق، وتؤكد على أمر النبى ﷺ بالتوجه هو والمؤمنون إلى الكعبة، وتثبت المؤمنين وترشد سيرهم وليستمروا صامدين تحت الراية المرفوعة - راية الإيمان – سائرين بها مدافعين عنها.

وننظر فى الآية التالية التى تبين بقية سيرة القبلة فى القرآن الكريم، وهى قوله تعالى: ﴿ قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ ۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا ۚ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ ۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٤٤﴾ ﴾ [البقرة: ١٤٤].

كانت هذه الحالة فى الآية الكريمة وهى طلب النبى ﷺ من ربه ليستجيب له بالتوجه إلى قبلة أبيه إبراهيم عليه السلام أول ما ذكر من سيرة النبى - صلوات الله وسلامه عليه - مع القبلة حيث ألهم النبى ﷺ بأنها الحق - وهو الواقع بتقرير الله تعالى ذلك – وجاءت متأخرة عن الآيات السابقة.

ذلك لأن الآيات السابقة كالتمهيد للنبى – عليه الصلاة والسلام – والمؤمنين لهذه الآية، وهى آية إجابة النبى ﷺ لطلبه بالتوجه إلى الكعبة المشرفة، وكذلك تبيين الحكمة من هذه الاستجابة، فقد وطأ القرآن الكريم لهذا التحويل بالأيه التى ذكرنا وهى :﴿ ۞ سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ ﴾،ثم قوله تعالى:﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ... ﴾ [البقرة: ١٤٣].

ليكون ذلك تثبيتاً للمؤمنين، واعدادهم لمواجهة هذه الكبيرة، وفى نفس الوقت ليفصل لهم موقفهم وقيمتهم فى الدنيا والآخرة التى بوأهم الله إياهم، فلا تؤثر فيهم تلك

1- السابق.

الأحداث، بل هم أعلى منها وأجل فكان متناسباً غاية التناسب أن يرشدهم إلى علو مكانتهم باستعلائهم بالإيمان فى قوله تعالى:﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ [البقرة: ١٤٣].

أى ستسمعون من السفهاء ذلك كله، ولكن حقيقة الأمر أنكم أنتم الأمة الوسط العدول الخيار إذا اعتقدتم شيئاً فهو الحق الذى بلغكم به ربكم، فأنتم الشاهدون على كل أمة أو أحد بصدق ما هم عليه وصحته أوْلا، ليس هم الذين يشهدون عليكم بصحة موقف أو فساده:﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ﴾ [المائدة: ٤٨]. أنتم المهيمنون الحاكمون بصحة ما عليه الناس كافة أو بنقيضه لا يرد عليكم أحد ذلك الاعتقاد، أو يدفعه:﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾ [آل عمران: ١١٠].[١]

كان ذلك توطئة قوية لهم ألا يتشككوا إذن أو تنزع ثقتهم فيما هم عليه، أو فيما يتنزل عليهم، إنهم الأمة الوسط التى تشهد على الناس جميعاً، فتقيم بينهم القسط والعدل، وتضع لهم الموازين والقيم، وتبدى فيهم رأيا فيكون هو الرأى المعتمد، وتزن قيمتهم وتصوراتهم وتقاليدهم وشعائرهم فتفصل فى أمرهم، وتقول: هذا حق منها وهذا باطل، فهى شهيدة على الناس، وفى مقام الحكم العدل بينهم...وبينما هى تشهد على الناس هكذا، فإن الرسول ﷺ هو الذى يشهد عليها، فيقرر ذلك كله، ويزن ما يصدر عنها، ويقول فيها الكلمة الأخيرة، وبهذا تتحدد حقيقة هذه الأمة ووظيفتها.[٢]

وبالتالى كانت تلك المقدمات والممهدات للأمة قبل صدور الأمر بتحويل القبلة لتعرفها، ولتستعد لها الاستعداد اللائق، ولتصحح وفقها مفاهيمها وتصوراتها التى

1- انظر الفخر الرازى، التفسير الكبير(٢/ ٤٧٥-٤٧٧)، والطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير(٢/ ٢٠-٢١)، سيد قطب، فو ظلال القرآن(١/ ١٣٠-١٣٢)، وغيرها.

2- السابق.

ترشدها طريقها وتجلى معالمه إلى يوم القيامة، ولتشعر بضخامتها، وتقدر دورها حق قدره، مع الكواشف المضيئة لكل ما حولها تصوراً واعتقاداً وقبائل وأشخاصاً.

وبعد هذا الإعداد الطويل للأمة المسلمة فى هذا التوقيت الدقيق، جاءت الحكمة الإلهية.

لتبين أن تنقية الصف ليستطيع استكمال السير بأقصى قوة مستطاعة، يتحمل تبعاته، ويقدر مسؤلياته، هو الحكمة المنشودة من خطة التربية الربانية هذه، إن بقاء الصف بغير تمحيص وفرز لبقاء الأصلح الأقوى يجعل باطن الصف مصدعاً مهزوزاً سرعان ما ينهار، أو أجزاء كبيرة منه عند أول صدام، مع أن ظاهره يوحى بغير ذلك، وقد رأينا مصداق هؤلاء فى غزوة أحد، ولقد عبرت الآية الكريمة عن هذه الحكمة بقولها: ﴿ وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِي كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ﴾ [البقرة: ١٤٣]. والله سبحانه يعلم كل ما يكون قبل أن يكون، ولكنه يريد أن يظهر المكنون من الناس حتى يحاسبهم عليه، ويأخذهم به، والانقلاب الرجوع إلى المكان الذى جاء منه، انقلب إلى الدار، وقوله:﴿ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ﴾ ، زيادة تأكيد فى الرجوع إلى ما كان وراءه؛ لأن العقبين هما خلف الساقين، أى انقلب على طريق عقبيه، وهو هنا استعارة تمثيلية للارتداد عن الإسلام رجوعاً إلى الكفر السابق.(١)

طالت هذه الفترة مع أنها متأخرة فى الواقع عن الأمر النازل بتحقيق مطلوب النبى ﷺ:﴿ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ ﴾ [البقرة:١٥٠]، كل ذلك لما رأينا من عظات وأحكام وعبر، وتراتيب للانطلاقه الكبرى لأمة الإسلام، والتى اشترطت لها الآية المذكورة آنفاً اتباع النبى ﷺ ظاهراً وباطناً علماً وسلوكاً، عبادة وعقيدة مع

---

١ - انظر الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير(٢/ ٢٣-٢٤)، سيد قطب، فى ظلال القرآن(١/ ١٣٢)، الفخر الرازى، التفسير الكبير(٢/ ٤٧٨-٤٨١)

الوسطية فى كل أمورها لتصل إلى مقصدها وتبلغ أهدافها وتفوز بسعادة الدارين.

نعود إلى الآية التى وجه الله تعالى بها النبى ﷺ والمؤمنين إلى الكعبة، وهى قوله تعالى: ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ ۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا ۚ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ ...﴾ [البقرة: ١٤٤]. وننظر فى تحليلها.

هذا استئناف ابتدائى، وإفضاء لشرع استقبال الكعبة، ونسخ السابق، فهذا هو المقصود من الكلام المفتتح بقوله: ﴿ ۞ سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ ....﴾.

وقد فى كلام العرب للتحقيق، وهنا لتحقيق الخبر، وهو نرى، ولما كان علم الله بذلك مما لا يشك فيه النبى ﷺ حتى يحتاج لتحقيق الخبر به، كان الخبر به مع تأكيده مستعملاً فى لازمه على وجه الكناية لدفع الاستبطاء عنه، وأن يطمئنه لأن النبى ﷺ كان حريصاً على حصوله، ويلزم ذلك الوعد بحصوله واللازم الثانى هذا كنايه ثانية.

وجيء بالمضارع من قد للدلالة على التجدد، والمقصود كما ذكرنا، تجدد اللازم ليكون حينئذ تأكيداً لذلك اللازم وهو الوعد.[1]

والتقليب هنا هو ترديد وجهه فى السماء، وهو تأدب مع الله فى الطلب بغير دعاء كما ذكر بعضهم، ينتظر أن يجاب إلى ذلك، يقول الامام محمد عبده: «فسر بعضهم تقلب الوجه بالدعاء، وحقيقة الدعاء هو شعور القلب بالحاجة إلى عناية الله تعالى فيما يطلب، وصدق التوجه إليه فيما يرغب، ولا يتوقف على تحريك اللسان بالألفاظ، فإن الله ينظر إلى القلوب وما أسرت، فإن وافقتها الألسنة فهى تبع لها وإلا كان الدعاء لغواً يبغضه الله تعالى... فتقلب الوجه فى السماء عبارة عن التوجه إلى الله تعالى انتظاراً لما كانت تشعر به روح النبى

1 – انظر الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير(٢/ ٢٦-).

ﷺ وترجوه من نزول الوحى بتحويل القبلة.[1]

ويستكمل قائلاً: ولا تدل الآية على أنه كان يدعو بلسانه طالباً هذا التحويل ولا تنفى ذلك».

وقال بعض المحققين: من كمال أدبه ﷺ انتظر ولم يسأل. وهذا التوجه هو الذى يحبه الله تعالى، ويهدى قلب صاحبه إلى ما يرجوه ويطلبه.[2]

وهذا الكلام والحال الجليل إنما يدل على أن الرسول ﷺ لم يكن له من أمر نفسه شيء، وأنه ينتظر الوحى فيما يأتى ويدع، ولو كان الأمر له فما المانع أن يقوم هو بالتحويل للكعبة وأن يدعى فى ذلك شيئاً من الإفك المفترى، ثم إن صح هذا فمن أين يخبر بهذه المغيبات التى لا اطلاع لأحد عليها فأخبر بها قبل وقوعها مع حكم وأوامر ووصايا فى سياق معجز معنى ونظاماً.

ولقد رأينا القبلة بعد ذلك شأناً ثابتاً للمؤمنين لم يحاور فيه أحد، ولم ولن يمارى فيه صغير ولا كبير إلى يوم القيامة.

جاء بعد هذا الأدب من النبى ﷺ قوله تعالى:﴿ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ ﴾، فبعد أن كان الوعد بالتحويل فى قوله تعالى:﴿ قَدْ نَرَىٰ ﴾، بأسلوب الكناية، أتى صريحاً مؤكداً معقباً بالفاء، ليكون المعنى أن تولية وجهه للكعبة سيحصل عقب هذا الوعد. وهذا وعد اشتمل على أداتى تأكيد وأداة تعقيب، وذلك غاية اللطف والإحسان.[3]

---

1 – انظر الامام محمد عبده، الاعمال الكاملة، تحقيق وتقديم د. محمد عمارة(١/ ٣٣٣-٣٣٤)، التفسير الجزء الاول، دار الشروق ط١، الهيئة المصرية العامة للكتاب ٢٠٠٩.

2- السابق.

3 – انظر الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير(٢/ ٢٧).

وعبر بقوله:﴿ تَرۡضَىٰهَا ﴾، للدلالة على أن ميله للكعبة ميل لتصد الخير، إذ الرضى مشعر بالمحبة الناشئة عن تعقل، ومقام النبى ﷺ يترفع عن أن يتعلق ميله بما ليس فيه مصلحة راجحة، فميله للكعبة لأنها أجدر بيوت الله التى تدل على التوحيد، فهى أحرى بذلك من بيت المقدس إذ بنى هو بعدها، على منوالها، ولم يصل لشأوها فى ترتيب الله تعالى لبيوته، ويكون استقبال القبلة إيماء إلى استقلال هذا الدين عن دين أهل الكتاب، وهو الأول بوضع الله له – سبحانه وتعالى – ومن ثم كان التعبير بالرضا فى محله الاسمى، وجاء مع قبلة أهل الكتاب بالتعبير بالهوى، وهو الميل إلى غير الحق فقال:﴿ وَلَئِنِ ٱتَّبَعۡتَ أَهۡوَآءَهُم مِّنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلۡعِلۡمِ إِنَّكَ إِذٗا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ١٤٥ ﴾ [البقرة: ١٤٥].

ثم جاء قوله مباشرة:﴿ فَوَلِّ وَجۡهَكَ ﴾، تفريعاً على الوعد، وجاء معقباً بالفاء تعجيلاً بهذا الوعد، واختص به النبى ﷺ لما فيه من إرضائه بجميل رغبته، وسيعقبه بقوله تشريكاً للامة معه بقوله سبحانه:﴿ وَحَيۡثُ مَا كُنتُمۡ فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمۡ شَطۡرَهُۥ ﴾ [البقرة: ١٤٤]، وهو تنصيص على تعميم حكم استقبال الكعبة لجميع المسلمين لجميع أقطار الأرض، لئلا يظن أن الخطاب خاص بالنبى ﷺ أو ببعض الاماكن فى مكة أو المدينة، أو ببعض جهات الكعبة.[1]

أما فائدة قوله:﴿ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبۡلَةٗ تَرۡضَىٰهَا ﴾ قبل:﴿ فَوَلِّ وَجۡهَكَ ﴾، وهلا قال:﴿ قَدۡ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجۡهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ ﴾، ففائدته إظهار الاهتمام برغبة النبى ﷺ، وأنها فى محل تقدير الله، إذ كل ذلك منه لرضاء ربه وقيامه بأوامره أفضل القيام، وأن رغبته ورضاه بحيث يعتنى بها، كما دل عليه وصف القبلة بجملة:﴿ تَرۡضَىٰهَا ﴾[2].

1- انظر الالوسى، روح المعانى(٢/ ١٥)، أبا السعود، إرشاد العقل السليم(١/ ٢٠٨)، والطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير(٢/ ٣٠).

2- انظر الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير(٢/ ٢٨).

وهنا يبين عظيم قدره، وعلو درجته ﷺ فى خضم تلك الأحداث الكبيرة؛ التى هبت سمومها على المسلمين فى تلك الآونة، لتؤكد لهم ارتباطه ﷺ بالسماء، ولتربط على قلوبهم، ولتدعم خطوات اتباعها التى ذكرت الحكمة فيها ومن أجلها.

وننهى الكلام على هذه الآية بالحديث عما ختمت به قبل العودة إلى فهم معنى التوجه ومقصوده إلى القبلة، وختم الآية هو قوله تعالى:﴿ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٤٤﴾ ﴾ [البقرة:١٤٤].

وهذا التذييل والختم للآية يبين أمرين واضحين فى جملة ما وضَّحت دلالة وإشارة :

الأول: وهو أن الذين أوتوا الكتاب يعلمون بصدق سيدنا محمد ﷺ حسب البشارة به فى كتبهم وأن ذلك يتضمن أن ما جاء به الحق، خاصة وقد عبرت الآية بأوتوا الكتاب دون أن يقال أهل الكتاب لتشير إلى أن المقصود أحبار اليهود وأحبار النصارى، وهم العالمون منهم، والأظهر كذلك أن المراد من بقى منهم على الكفر، فصوغ الكلام على أنهم يخالفون ما يعملون، بانكارهم تحويل القبلة مع علمهم كما ذكرت الآية:﴿أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾، بأسلوب القصر الذى يدل على أن تغيير القبلة هو الحق دون غيره، وهو المبشر به فى كتبهم وعلى ألسنة رسلهم.

الثانى: أن قوله تعالى:﴿ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٤٤﴾ ﴾ ، كناية عن الوعيد بجزائهم عن سوء صنعهم، وهو عملهم بغير ما علموا بسبب المكابرة والعناد والسفه؛ لأن قول القادر ما أنا بغافل عن المجرم تحقيق لعقابه. ويستلزم وعيدهم هذا المقام الخطابى وعداً للمسلمين على عظيم منزلتهم؛ لأن الوعيد لهؤلاء السفهاء ترتب على مخالفتهم للمؤمنين، فلا جرم سيلزم للمؤمنين جزاء على اتباعهم لتغيير القبلة.[1]

1- انظر أبا السعود، إرشاد العقل السليم (١/ ٢٠٨)، والطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير(٢/ ٣٤)، والألوسى، روح المعانى(٢/ ١٥-١٦).

أما العود الذى نوهنا إليه آنفاً فهو أن من عمل المؤرخ أن ينظر فى الباعث على الحدث التاريخى، ومعرفة أسبابه وكوامنه وعلله، ولذا ينبغى النظر بعد الاشارة الأولى التى سبقت الكلام على القبلة، إلى مقصود هذا الأمر وباعثه على حسب ما استقر من فهم الشرع والواقع.

ونسارع بالقول أن الباعث على استقبال القبلة باعث عظيم، خاصة وقد بُدِأَ فى وضع اللبنات كلها فى صرح الإسلام العظيم، عقيدة وعبادة وسلوكاً ودعوة... إلى آخره، ليكون تأسيساً وتأصيلاً لا انفصام فيه ولا تراجع عن ثوابته وما يحقق غاياته وأهدافه ولشرح ذلك الباعث وتبيينه يقال: إن مقصود الصلاة العبادة والخضوع لله تعالى، وبمقدار استحضار المعبود يقوى الخضوع له، فتترتب عليه آثاره الطيبة فى إخلاص العبد لربه وإقباله على عبادته، وذلك ملاك الامتثال والاجتناب. ولهذا جاء فى الحديث: «الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك»[1]. ولما تنزه سبحانه عن أن يحيط به الحس تعين لمن يحاول أن يستحضر عظمته أن يجعل له مذكراً به من شيء له انتساب خاص به.[2]

يقول الفخر الرازى: إن الله تعالى خلق فى الانسان قوة عقلية مدركة للمجردات والمعقولات، وقوة خيالية متصرفة فى عالم الأجسام، وقلما تنفك القوة العقلية عن مقارنة القوة الخيالية ومصاحبتها، فإذا أراد الإنسان استحضار أمر عقلى مجرد وجب أن يضع له صورة خيالية بحسبها حتى تكون تلك الصورة الخيالية معينة على إدراك تلك المعانى العقلية...، إلى أن يقول: ولما كان العبد الضعيف إذا وصل إلى مجلس الملك العظيم، فإنه لابد أن يستقبله بوجهه وأن لا يكون معرضاً عنه، وأن يبالغ فى الثناء عليه بلسانه، ويبالغ فى الخدمة والتضرع له فاستقبال القبلة فى الصلاة يجرى مجرى كونه مستقبلاً للملك لا معرضاً

1 - البخارى، الصحيح(٤٨)، مسلم، الصحيح (٩).

2 - انظر الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير(٢/ ٣٠).

عنه، والقراءة والتسبيحات تجرى مجرى الثناء عليه، والركوع والسجود يجرى مجرى الخدمة.»[1]

فإذا تعذر استحضار الذات المطلوبة بالحس فاستحضارها يكون بشيء له انتساب إليها مباشرة كالديار، أو بواسطة كالبرق والنسيم ونحو ذلك، أو بالشبه كالغزال عند المحبين، وقال مالك بن الريب:

دَعاني الهَوى من أهْلِ وُدّى وجيرتى   بذِى الطّيّسَـــــيْنِ فالتفتُّ وُرائيَا

والله تعالى منزه عن أن يحيط به الحس فوسيلة استحضار صفاته هى استحضار ما فيه مزيد دلالة عليه سبحانه من الصفات.

لا جرم أن أوْلى المخلوقات بأن يجعل وسيلة لاستحضار صفات الخالق فى نفس عبده هى المخلوقات التى كان وجودها لأجل الدلالة على توحيد الله وتنزيهه ووصفه بصفات الكمال، مع تجريدها عن كل ما يوهم أنها المقصودة بالعبادة، وتلك هى المساجد التى بناها إبراهيم ﷺ، فبنى الكعبة أول بيت، وبنى مسجداً فى مكان المسجد الأقصى وغير ذلك.

فإذا استقبل المؤمن بالله شيئاً من البيوت التى أقيمت لمناهضة أهل الشرك، وللدلالة على توحيد الله وتمجيده، كان من استحضار صفات الخالق بما هو أشد أضافة إليه.

لكن هذه البيوت على كثرتها لا تتفاضل إلا بإخلاص النية وكونها مبنية لذلك، وسابقة فيه، لأن السابق الدال لمؤسس اللاحق على تأسيسه، قال تعالى:﴿ لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ ﴾ [التوبة:١٠٨]، وقال فى مسجد الضرار:﴿ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا ﴾ [التوبة:١٠٨]، لأنه أسس بنية التفريق بين المؤمنين وإرصاد لمن حارب الله ورسوله ﷺ.

---

1 - الفخر الرازى، التفسير الكبير(٢/ ٤٦٦-٤٦٧).

وللأسبقية قال تعالى: ﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٦﴾ ﴾ [آل عمران: ٩٦]، فجعله هدى للناس لأنه أول بيت، فالبيوت التى أقيمت بعده كبيت المقدس من آثار اهتداء من بناها بالبيت الأول.

فلا شك أن أول بناء أقيم لتوحيد الله تعالى وتنزيهه وإعلان ذلك، وإبطال الاشراك هو الكعبة، وبناها أول من حاجَّ الوثنيين بالأدلة، وقاومهم بجعل أصنامهم جذاذاً، ثم قام بأمر الله تعالى بهذا البناء المهيب توحيداً وذكرا؛ ليعلم كل من أتى سبب بنائه، ومضت على ذلك العصور، وتمضى إلى يوم القيامة تذكر رؤيته بالله مع مزية الأولية الباقية، وميزة بناء إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام له بأيديهما دون معونة أحد ولذلك فهو أعرف فى الدلالة على التوحيد والرسالة معاً، وهما قطبا إيمان المؤمنين وفى هذه الصفة لا يشاركه غيره.[1]

ثم سن الحج إليه لتجديد هذه الذكرى، ولتعميمها فى الأمم الأخرى، فلا جرم بعد ذلك كله أن يكون أَوْلى الموجودات بالاستقبال لمن يريد استحضار جلال الربوبية الحقة، وما بنيت بيوت الله تعالى كالمسجد الأقصى إلا بعده بعدة قرون فكان حرياً أن يكون قبلة كل من أسلم لله تعالى، وقبلة الرسول ﷺ وقبلة المؤمنين معه بالأولية.

وما كان استقبال الرسول ﷺ لبيت المقدس إذن إلا لهذه الحكم التى ذكرنا، وكان فى التحويل بعد ذلك إلى الكعبة علاوة على ما سبق بشارة للنبى ﷺ بأن أمر قريش قد أشرف على الزوال، وبالتالى ستكون وقعة بدر هى الفيصل بين المسلمين وبينهم لذا كان موضوع القبلة بهذا القدر اليسير - الذى يظن به الطول – من أهم الموضوعات الفارقة التى توجه المؤمنين المتقين الوجهة الصحيحة بإخلاص القصد والوجه لله تعالى وبداية للتمايز الذى لا مفاصلة فيه بغير غبش ولا ضبابية بين رافعى راية الله وغيرهم فى كل سلوكهم، وتأكيداً

1 - انظر الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير(٢/ ٣٠- ٣٢).

بعد تأكيد لهذه العقيدة الحقة التى لا تريد إلا الإخلاص لا تبتغى علواً فى الأرض ولا فساداً، وإنما تريد علوا للإيمان وأن يرفرف على أرجاء المعمورة رافعاً تكبير الله وحكمه؛ لتصل الأرض بالسماء، مع استعلاء المؤمنين بدينهم لاتصالهم بخالقهم ومعبودهم، مع المناداة حين كل توجه للقبلة بالمساواة والعدل الرحمة وبأن الشرف والكرم والمكانة للتقوى قلباً وقالباً، مع تحقيق روح الإخوة والتكافل والتضامن وإنكار الذات،مع التذكير فى كل مناداة بأن كل المؤمنين فى الأرض جميعها متجهون نفس الوجهة يدعو أقصاهم لأقصاهم وأعلاهم لأدناهم، ويحزن المتوارى وراء السهول والوديان والجبال للقريب منه والبعيد إذا مسه إذى أو أصابته لأواء، يرجو أن يمكن أن يفديه بماله ونفسه، ويفر ح ويتهلل لكل خبر يأتيه عن سرور إخوانه بنصر أو بما ينشرح به الصدر. وكثير بعد ذلك لا يحوطه به العد، ولا يدخل تحت الحصر إن ما ماجت به المدينة المنورة من جراء تحويل القبلة لم يكن أمام ذرة مما رأينا شيئاً ذا بال، بعدما توالت تلك الحكم وظهرت تلك المنح الآلهية لمن يتبع الرسول ﷺ. جاءت غزوة بدر تتويجاً لهذا الاستكمال لهذا التوجه، مع تربية المؤمنين على القيام بضرائب وتكاليف هذا التوجه، وما أوتى من أوتى منهم بعد ذلك فى مواقف انكسار إلا بغياب شيء من هذه التوجيهات.

المبحث الثانى

غزوة بدر فى السيرة المشرفة

وصل حديث ما سبق من السيرة، إلى تلك النتيجة المتوقعة بين المسلمين وكفار قريش، وهى ذلك الصدام الدامى، فكانت غزوة بدر الكبرى، فبالرغم من تهديد المسلمين لطرق قريش التجارية إلى الشام، لم يشتبكوا مع قوافل قريش فى قتال حاسم، حتى هذه المرحلة، مما جعل قريشاً تواصل إرسال قوافلها التجارية، مع تأمين الحراسة لها، ومع ذلك كان المسلمون لها بالمرصاد؛ فلما بلغهم تحرك قافلة كبيرة لقريش، تحمل أموالاً عظيمة لها، عائدة من الشام، يحرسها ثلاثون أو أربعون رجلاً، بقيادة أبى سفيان بن حرب[1]، أرسل رسول الله ﷺ بَسْبَس بن عمرو إلى بدر، لاستطلاع أخبار القافلة، فلما رجع إليه، ندب المسلمين إليها، وقال ﷺ: «هذه عير قريش، فيها أموالهم، فاخرجوا إليها، لعل الله ينفكلموها»[2].

خرج النبى ﷺ - بمن كان مستعداً - متعجلاً، لئلا تفوتهم القافلة، دون أن ينتظر من رغب فى الخروج من سكان العوالى ليأتى بظهره[3]؛ ولذا لم يعاتب أحداً تخلف عنها[4]، فكان

---

1 - رواه ابن اسحاق باسناد حسن، ابن هشام (٢/ ١٨٢-١٨٣) تحقيق محمد فهمى السرجانى وآخر، المكتبة التوفيقية ط١، وانظر ابن حزم، جوامع السيرة (١٠٧).

2 - المصدر السابق، أما حديث بَسْبَس فهو ثابت فى صحيح مسلم(١٩٠١)، وانظر شرح النووى للحديث، وضبط الإسم تصحيحاً وتصحيفاً، والحديث كذلك فى ترجمته فى الإصابة لإبن حجر(١/ ٩٨)، وانظر د. أكرم العمرى السيرة (٣٥٤)، د. مهدى رزق الله السيرة (٣٣٧).

3 - مسلم من حديث أنس(١٩٠١)، وكذا الطبرانى كما فى مجمع الزوائد للهيثمى(٦/ ٦٧) وقال: رجاله ثقات.

4 - البخارى من حديث كعب بن مالك(٤٤١٨).

جيش المسلمين لا يمثل كل طاقاتهم العسكرية؛ فإنهم خرجوا لملاقاة القافلة، ولم يعلموا أنهم سيواجهون جيش قريش.

كان تعدادهم ثلاثمائة وبضعة عشر رجلاً[1]، منهم مائة من المهاجرين، وبقيتهم من الأنصار. هذه رواية الزبير بن العوام، أما رواية جابر - وقد رده الرسول ﷺ فى بدر لصغره - أن المهاجرين يزيدون على الستين، والأنصار يزيدون على الأربعين ومائتين[2].

وقد أذن رسول الله ﷺ لحذيفة بن اليمان، ولأبيه – رضي الله عنهما – بعدم الخروج معه لأنهما كانا قد وعدا كفار قريش بعدم القتال معه؛ فطلب منهما الوفاء بعهدهما[3].

التحق أحد شجعان المشركين بالنبى ﷺ فى الطريق، ليقاتل مع قومه، فرده رسول الله ﷺ وقال: «ارجع، فلن استعين بمشرك»؛ كرر الرجل المحاولة، فلم يقبل النبى ﷺ فأسلم الرجل والتحق بالمسلمين[4]. وهنا تظهر قضية العقيدة بصبغتها الإسلامية، خاصة فى أول معركة يقاتل فيها المسلمون.

كان مع المسلمين فَرَسان، وسبعون بعيراً يعتقب الرجلان والثلاثة على البعير الواحد، وكان أبو لبابة، وعلى بن أبى طالب زميلى رسول الله ﷺ، فعندما جاء دوره ﷺ فى المشى، قالا له: «نحن نمشى عنك» فقال لهما: «ما أنتما بأقوى منى، ولا أنا بأغنى عن الأجر

---

1 - هذه رواية البخارى، فتح البارى(٣٩٥٦-٣٩٥٩)، وعند مسلم بالجزم كانوا ثلاثمائة وتسعة عشر رجلاً، وهو الأولى ذكره أحمد محمد العليمى باوزير، مرويات غزوة بدر رسالة ماجستير منشورة، مكتبة طيب(ط ١) ١٤٠٠هـ-١٩٨٠م، انظر د. مهدى رزق الله، السيرة النبوية(٣٣٧).

2 - البخارى، فتح البارى(٣٩٥٦)، وانظر كلام ابن حجر على الروايات المختلفة فى ذلك.

3 - النووى، شرح صحيح مسلم (١٢/ ١٤٤)، دار الفكر بيروت ينقل من طبعتنا

4 - النووى، شرح صحيح مسلم (١٢/ ١٩٨) ينقل كذلك من طبعتنا، وانظر د. أكرم العمرى، السيرة النبوية الصحيحة (٣٥٥).

منكما»[1]، وهذا من أروع المواقف- مواقف هذا النبى ﷺ، ومواقف الإسلام- عندما يستوى القائد والجند فى التحمل والبذل، أن يمشى القائد وجنده راكبون، يطلب الأجر بإخلاص وصدق، ويحرص عليه أشد من حرص جنوده، بل ويسابق جنده فى تحمل المشاق، ويقاسمهم الآلام والمتاعب، حائزاً فيها النصيب الأعظم، ولا يرضى إلا أن يكون أمامهم فى مواجهتها؛ إن ذلك مما يدفعهم إلى التضحية والفداء، متطلعين إلى رضوان الله وثوابه؛ وقد رأينا ذلك فى بدر كما سنذكر - إن شاء الله - شيئاً من سيرتهم.

فى الطريق، عند بلوغهم الروحاء – مكان على بعد أربعين ميلاً من المدينة – رد رسول الله ﷺ أبا لبابة، وأَمَّره على المدينة، وكان قد جعل ابن أم مكتوم على الصلاة، وأصبح مرثد بن أبى مرثد مكان أبى لبابة فى زمالة الرسول ﷺ على البعير[2].

لما علم أبو سفيان بالخطر المحدق بقافلة قريش ورجالها، خاصة وقد تكرر ذلك من المسلمين سأل مجدى بن عمرو - عندما اقترب من بدر- عن جيش الرسول ﷺ، فأخبره براكبين أناخا إلى تل، عرف أبو سفيان أنهما من المدينة فأسرع تاركاً الطريق الرئيسى على يسار بدر إلى الساحل، وأرسل ضمضم بن عمرو الغفاري يستنجد بقريش[3].

لما علمت قريش الخبر أخذت فى الاستعداد للخروج على عجل لإنقاذ عيرها ورجالها، ولتلتقى بالمسلمين فى حرب تريد أن تقضى فيها عليهم، لتستريح من الدعوة ورجالها، وما يهدد تجارتها.

1 - أحمد، المسند(٦/ ٣ طبعة شاكر)، وقال الشيخ شاكر: اسناده صحيح، وقد أخرجه الحاكم(٣/ ٢٠)، وقال: صحيح على شرط مسلم، ووافقه الذهبى.

2 - انظر ابن هشام السيرة النبوية(٢/ ١٨٧)، فى قضية بدر بإسناد حسن، وابن كثير، البداية والنهاية(٣/ ٢٨٥).

3 - ابن هشام السيرة النبوية(٢/ ١٨٣).

وقد رأت عاتكة بنت عبد المطلب رؤيا فى المنام قبل مجيء ضمضم؛ أن رجلاً استنفر قريشاً وألقى بصخرة من رأس جبل أبى قبيس بمكة، فتفتت ولم تترك داراً من دور قريش إلا دخل فيها بعضها، وأثارت الرؤيا خصومة بين العباس بن عبد المطلب وأبى جهل حتى قدم ضمضم وأنذرهم خبر القافلة، فصدق الله رؤيا عاتكة[1].

كانت قريش فى أشد حالات الغضب، لقد رأت فيها حدث امتهاناً لكرامتها وحطاً لمكانتها بين العرب، فضلاً عن ضرب مصالحها الاقتصادية، لذلك أسرعت فى الخروج، وحاوت أن تجند كل طاقتها عدداً وعدة، فلم يتخلف من أشرافهم أحد سوى أبى لهب، ولكنه أرسل رجلاً مكانه لدين عليه[2]، فكانوا بين رجلين إما خارج وإما باعث مكانه رجلاً.

أما أبو سفيان فقد نجا بالقافلة وزال الخطر، بعد أن سلك الساحل تاركاً بدراً؛ وكان جيش قريش قد وصل الجحفة[3]، فأرسل إليهم يخبرهم بنجاة القافلة، وأن يعودوا إلى مكة.

وهمَّ جيش مكة بالرجوع، ولكن أبا جهل رفض ذلك، قائلاً: «والله لا نرجع حتى نَرِد بدراً فنقيم بها ثلاثاً، فننحر الجزور ونطعم الطعام، ونسقى الخمر، وتعزف لنا القيان، وتسمع بنا العرب وبمسيرنا وجمعنا، فلا يزالون يهابوننا أبداً، فامضوا»[4].

---

1 - رواه الحاكم ، المستدرك(٣/ ١٩)، وذكره ابن كثير، البداية والنهاية، من طريق ابن اسحاق وبإسناد حسن إلى عروة ولكنه مرسل، ولكن الروايات تعضد صحة الواقعة، الاصابة(٤/ ٣٤٧)، الهيثمى، مجمع الزوائد(٦/ ٧٢)، وانظر د. أكرم العمرى، السيرة النبوية(٣٥٦)، د. مهدى رزق الله، السيرة النبوية(٣٣٩).

2 - ابن اسحاق فى قصة بدر، ابن هشام السيرة النبوية(٢/ ١٨٥).

3 - على ثلاث مراحل من مكة في طريق المدينة. انظر معجم البلدان، الحموي (١/ ٤٧٥).

4 - الطبرى، التفسير(١٣/ ٥٧٩) بإسناد حسن. تحقيق شاكر، وهو رواية ابن اسحاق لغزوة بدر، ابن هشام السيرة(٢/ ١٩٢).

وكان عدد الجيش قد بلغ ألفاً[1]، معهم القيان يضربن بالدفوف، ويتغنون بهجاء المسلمين[2].

خالف بنو زهرة كلام أبى جهل، ورجع الأخنس بن شريق بهم، وكذلك طالب بن أبى طالب، لما اتهمهم – أى بنى هاشم – من اتهم من قريش بأن هواهم مع محمد ﷺ.

تقدم جيش المشركين – مع ذلك – حتى نزلوا قريباً من بدر، وراء كثيب يقع بالعدوة القصوى[3]، وتبين بذلك أن هدفهم ليس إنقاذ القافلة، بل تأديب المسلمين، وتخليص طرق التجارة من تعرضهم، وإعلاء شأن قريش وهيبتها عند العرب.

أما عن المسلمين، وقد وصلوا بدراً لملاقاة القافلة غير مستعدين لغير ذلك من مواجهة الجيش المكى، وخشى فريق من المؤمنين من لقاءٍ لم يتجهزوا له بكامل عدتهم وعتادهم، فجادلوا الرسول ﷺ فى ذلك، وفيها نزل القرآن الكريم[4]: ﴿ كَمَآ أَخۡرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيۡتِكَ بِٱلۡحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقٗا مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ ۝ يُجَٰدِلُونَكَ فِي ٱلۡحَقِّ بَعۡدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلۡمَوۡتِ وَهُمۡ يَنظُرُونَ ۝ وَإِذۡ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحۡدَى ٱلطَّآئِفَتَيۡنِ أَنَّهَا لَكُمۡ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيۡرَ ذَاتِ ٱلشَّوۡكَةِ تَكُونُ لَكُمۡ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلۡحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقۡطَعَ دَابِرَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ۝ ﴾ [الأنفال: ٥-٧].

فقام النبى ﷺ باستشارة الصحابة بعد أن أخبرهم بالموقف وما عزمت عليه قريش[5]، فقام من قادة المهاجرين أبو بكر ﷺ، فقال وأحسن، وقام عمر ﷺ فقال وأحسن، وقام

---

1 – النووى، شرح صحيح مسلم(٢/ ٨٤).

2 – ابن كثير ، البداية والنهاية(٣/ ٢٦٠) وذكر ابن اسحاق أنهم كانوا تسعمائة وخمسين مقاتلاً معهم مائة فرس، ومعهم القيان.

3 – ابن هشام، السيرة النبوية(٣/ ١٩٣).

4 – سنعود إليها إن شاء الله فى عرض السيرة فى القرآن الكريم مع المقارنة والتحليل.

5 – ابن اسحاق، ابن هشام، السيرة النبوية(٢/ ١٨٩)، وإسناده صحيح. وانظر د. أكرم العمرى، السيرة النبوية(٣٥٨).

المقداد بن عمرو ﷺ فقال: «يا رسول الله امض لما أراك الله فنحن معك، والله لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى: اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ها هنا قاعدون، ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون، فوالذى بعثك بالحق لو سرت بنا إلى برك الغماد[1] لجالدنا معك من دونه حتى تبلغه»، فقال له الرسول ﷺ خيراً ودعا له.

ثم قال ﷺ أشيروا عليَّ أيها الناس[2]؛وإنما يريد أن يسمع كلام الأنصار؛ أدرك سعد بن معاذ ﷺ ذلك فقال للنبى ﷺ: «والله لكأنك تريدنا يا رسول الله؟» قال: «أجل» قال: قد آمنا بك وصدقناك وشهدنا أن ما جئت به حق.... إلى آخر الرواية التى ذكرنا من قبل[3].

فَسُرَّ ﷺ بقول سعد ﷺ ونشطه، ثم قال: «سيروا وأبشروا، فإن الله تعالى قد وعدنى

إحدى الطائفتين، والله لكأنى الآن انظر الى مصارع القوم»[4] وعندما وصل رسول الله ﷺ قريباً من الصفراء أرسل بَسْبَس بن عمرو الجهنى، وعدى بن أبى الزغباء الجهنى إلى بدر، يتحسسان له الأخبار عن أبى سفيان وعيره[5]، وقيل أن النبى ﷺ خرج بنفسه هو وأبو بكر ﷺ، لذلك عرفا بالضبط مكان جيش المشركين[6]، وفى مساء يومه ذلك أرسل ﷺ علياً

1 - برك الغِماد: بالكسر ويجوز فيها الضم، وهو موضع وراء مكة، بخمس ليال مما يلي البحر، وقيل: بلد باليمن، دفن عنده عبد الله بن جُدعان، انظر معجم البلدان، الحموي (١/ ٢٨٣).

2 - لأن بيعة العقبة اشترط فيها الأنصار منعة رسول الله ﷺ عندما يبلغ المدينة، وأن دستور المدينة يحتم عليهم الدفاع مع النبى ﷺ ضد من دهم يثرب، وظن النبى ﷺ أن الأنصار تعلم أن ليس عليها أن يسيروا مع النبى ﷺ إلى عدوهم.

3 - انظر صـ٥٣.

4 - ابن اسحاق وعنه ابن هشام، السيرة النبوية(١/ ١٩٠)، وخبر هذه المشورة فى بدر ثابت فى البخارى(٣٩٥٢)، ومسلم(١٧٧٩)، وانظر ابن حجر، فتح البارى(١٥/ ١٥١)، وحاشية تخريج سيرة ابن هشام(٢/ ١٩٠)، د. مهدى رزق الله، السيرة النبوية(٣٤٢).

5 - ابن اسحاق، ابن هشام، السيرة النبوية(٢/ ١٨٨-١٨٩) من حديث بدر الصحيح عند ابن اسحاق.

6 - ابن هشام السيرة(٢/ ١٩٠)، وانظر د. مهدى رزق الله، السيرة النبوية(٣٤٣).

والزبير وسعد بن أبى وقاص فأسر ساقيين من سقاة قريش وأتوا بهما النبى ﷺ وهو يصلى، وبعد الصلاة استجوبهما فعرف منهما عدد قريش مما ينحرون من الجزور، وذكروا له من بالجيش من أشراف مكة[1]،فقال الرسول ﷺ لأصحابه: «هذه مكة قد ألقت إليكم أفلاذ كبدها»[2]. وأشار ﷺ إلى أماكن مصارع بعض قادة قريش فما ماط أحدهم عن موضع يد رسول الله ﷺ[3].

سبق الرسول ﷺ قريشاً إلى ماء بدر ليحول بينهم وبين الماء، وعندما استقروا فى المكان، بنوا لرسول الله ﷺ عريشاً - شبه خيمة - ليكون مقراً للقيادة وظلاً للقائد[4].

ومما طمأن الله به المؤمنين..

إنزال المطر تلك الليلة على معسكر المؤمنين، ووبالاً شديداً على المشركين، وفيه يقول الله تعالى: ﴿ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ ﴿١١﴾ ﴾ [الأنفال: ١١][5]، فكان دهساً للمؤمنين، ثبت به أقدامهم، وربط على قلوبهم، وأذهب عنهم رجز الشيطان.

كذلك من نعمه تعالى عليهم وفضله الذى تقووا به على ملاقاة الكافرين يوم بدر، إلقاء النعاس عليهم، وإنه لمن المنن عظيمة، أن ينام الجند فى وقت الخطر لملاقاة عدوهم،

---

1 - مسلم(١٧٧٩)، وأحمد فى المسند(٢/ ١٩٣) وهو صحيح الإسناد عند الشيخ أحمد شاكر، وقد صحح إسناد أحمد الهيثمى فى مجمع الزوائد (٦/ ٧٦) فقال: رجال أحمد رجا الصحيح غير حارثة بن مضرب وهو ثقة، وانظر د. مهدى رزق الله، السيرة النبوية المصدر السابق نفس الموضع.

2 - ابن اسحاق، ابن هشام، السيرة النبوية(٢/ ١٩١).

3 - مسلم(١٧٧٩)، فى قصة غزوة بدر.

4 - قصة العريش ثابتة بأحاديث صحيحة كما ذكر ابن كثير فى البداية والنهاية عن ابن اسحاق(٣/ ٣١٢)، وورد فى حديث ابن عباس عند البخارى(٤٨٧٧)، وهو فى قبة... الى آخر الحديث، وانظر د. مهدى رزق الله، السيرة النبوية(٣٤٦).

5 - الخبر عند أحمد، المسند تحقيق أحمد شاكر(٢/ ١٩٣)، وعند ابن هشام(١٩٣)، وابن كثير البداية والنهاية(٣/ ٢٩٢)، والتفسير له(٣/ ٥٤٦-٥٦٤).

فإنه راحه لهم، وأمنة عليهم، يقومون بعده بروح عالية مطمئنة واثقة، مع استجمام أبدانهم المرهقة، ليرفعوا راية الله الذى لم يتركهم، وفعل لهم ما لا يستطيع أحد أن يقوم به. وفى ذلك يقول الحق تعالى: ﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ﴾[1].

وكذلك أوقع الخلاف فى صفوف العدو، فقد روى أن عتبة بن ربيعة من صناديد قريش قام خطيباً ليثنى قومه عن القتال، لأنه علم أن المسلمين لن يموت منهم أحد حتى يقتل واحداً أمامه من المشركين[2]، ولذا قال النبى ﷺ:«إن يكن فى أحد من القوم خير فعند صاحب الجمل الأحمر إن يطيعوه يرشدوا[3]»، وكان ذلك عتبة بن ربيعة، واتهمه أبو جهل بالخوف حتى ذعر لذلك وقام مقاتلاً.

موقف الرسول ﷺ:

كان موقف النبى ﷺ فى بدر يُنِمُّ عن اتصال الأرض بالسماء، مع اتخاذ كل الأسباب المادية والمعنوية لقتال العدو، ثم تقدم هو ﷺ أمام الجند المقاتلين كافة.

أما عن استنفاد السبل المادية والمعنوية..

فقد عسكر النبى ﷺ فى مكان أفضل من مكان قريش، أرضاً وماءً، وعبأ قواته بطريقة جديدة لا تعرفها قريش[4]، وهى تعبئة الصفوف ليقلل بها من خسائر الجيش الإسلامى،

1 – أحمد، المسند(٢/ ١٩٣).

2 – وفيه قصة عمرو بن وهب الجمحى حيث أرسلته قريش ليعلم لهم عدد المسلمين، فرجع وأخبرهم ولكنه قال:«قد رأيت البلايا تحمل المنايا، نواضح يثرب تحمل الموت الناقع، قوم ليس لهم منعة إلا سيوفهم، والله ما أرى أن يقتل رجل منهم حتى يقتل رجلاً منكم فإذا أصابوا منكم أعدادهم فما خير العيش بعد ذلك؟ فَرَوْا رأيكم، والحديث سبب اعتراض عتبة بن ربيعة على القتال، وقد رواه ابن اسحاق– ابن هشام، السيرة النبوية(٢/ ١٩٤)».

3 – أحمد، المسند(٢/ ١٩٣).

4 – غير طريق الكر والفر التي تجيدها قريش.

وفيها مزية السيطرة، لكامل قوة الجيش، والتأمين لعمق الجيش، حتى تبقى دائماً بيد القائد قوة احتياطية فى الخلف يعالج بها المواقف التى ليست فى الحسبان[1].

اتخاذ الخيمة - العريش - لإدارة المعركة: وقد سبق.

القتال بنفسه ﷺ:

حيث أصدر أمره ﷺ لأصحابه قائلاً: «لا يتقدمن أحد منكم إلى شيء حتى أكون أنا دونه»[2]، وكذلك ورد عن على ﷺ قوله: «لقد رأيتنا يوم بدر ونحن نلوذ برسول الله ﷺ، وهو أقربنا إلى العدو، وكان من أشد الناس يومئذ بأساً»[3]، لذا قال ابن كثير: «وقد قاتل بنفسه الكريمة قتالاً شديداً، ببدنه، وكذلك أبو بكر الصديق، كما كانا فى العريش يجاهدان بالدعاء والتضرع، ثم نزلا فحرضا، فحثا على القتال وقاتلا بالأبدان جمعاً بين المقامين الشريفين»[4].

عن التعبئة المعنوية للجند:

فأول ما قال ﷺ محرضاً على القتال والثبات ومواجهة الكفرة، مع البذل والتضحية فى سبيل الله سبحانه وتعالى:«والذى بنفس محمد بيده لا يقاتلهم اليوم رجل فيقتل صابراً محتسباً غير مدبر إلا أدخله الله الجنة»[5]، وفى رواية مسلم[6]، أنه عندما دنا المشركون قال

1 - د. أكرم العمرى، السيرة النبوية(٣٦١)، نقلاً عن اللواء. محمود شيت خطاب فى كتابه الرسول القائد(٧٨-٧٩).

2 - مسلم، الصحيح (١٩٠١).

3 - أحمد المسند بتحقيق شاكر(٢/ ٦٤)، وقال: إسناده صحيح.

4 - ابن كثير، البداية والنهاية(٣/ ٣٠٦).

5 - ابن اسحاق- ابن هشام، السيرة النبوية(٢/ ١٩٨).

6 - مسلم، الصحيح (١٩٠١)، وابن سعد(٢/ ٢٥)، باختصار د. مهدى رزق الله، السيرة النبوية(٣٤٩).

رسول الله ﷺ: «قوموا إلى جنة عرضها السموات والأرض»، وعندما سمع ذلك عُمير بن الحُمام الأنصارى، قال: يارسول الله: أجنة عرضها السموات والأرض؟ قال: «نعم» قال: بخٍ بخٍ فقال رسول الله ﷺ: «ما يحملك على قول بخٍ بخٍ» قال: لا والله يارسول الله، إلا رجاءة أن أكون من أهلها. قال:«فإنك من أهلها»، فأخرج تمرات من قَرَنه، فجعل يأكل منهن، ثم قال: لئن أنا حييت حتى آكل تمراتى هذه إنها لحياة طويلة. قال: «فرمى بما كان معه من التمر، ثم قاتلهم حتى قتل»، وقال كذلك عندما سأله أحد الصحابة، وهو عوف بن الحارث: يا رسول الله ما يُضحك الربُ من عبده، قال:«غَمْسَه يَدَه فى العدو حاسراً»، فنزع درعاً كانت عليه، فقذفها، ثم أخذ سيفه فقاتل حتى قتل»[1]، ثم أخذ الرسول ﷺ فى توجيه أوامر الحرب قائلاً: «إذا أكثبوكم فارموهم، واستبقوا نبلكم، ولا تسلوا السيوف حتى يغشوكم»[2].

أما ارتباط الأرض بالسماء فى شخصه الكريم، طلباً للنصر من الله تعالى، وتعلقاً بخالق الأسباب جل وعلا، فقد ظهر فى دعائه لربه، واستغاثته واستنصاره به، مما يبين توكله على الله، لا على الأسباب، واستكماله لكل قوى النصر، ويقينه بأن النصر من عند الله تعالى، فوجدناه منفرداً بربه ليلة بدر يدعوه، يقول الإمام على بن أبى طالب ﷺ، فى وصف تلك الليلة، ليلة السابع عشر من رمضان سنة اثنين من الهجرة وأمامهم معسكر المشركين: «لقد رأيتنا يوم بدر وما منَّا إلا نائم، إلا رسول الله ﷺ، فإنه كان يصلى إلى شجرة حتى أصبح...».

ويبدو أن رسول الله ﷺ أراد أن يريح جيشه تلك الليلة، فقام هو بنفسه بحراستهم[3]،

1 - رواه ابن اسحاق- ابن هشام، السيرة النبوية(٢/ ١٩٩)، وهو مرسل.

2 - البخارى، فتح البارى(٥/ ١٧٣/ ٣٩٨٥/ ١٢/ ٤٨/ ٢٩٠٠).

3 - الحديث رواه أحمد، المسند، الفتح الربانى(٢١/ ٣٠-٣٦)، بإسناد صحيح، انظر د. أكرم العمرى، السيرة النبوية الصحيحة(٣٦٠-٣٦١).

وفى صبيحة يوم بدر، عندما تراءى الجمعان، ما زال الرسول ﷺ يهتف بربه موصولاً قلبه به، يقول على بن أبى طالب ﷺ، دعا رسول الله ﷺ ربه قائلاً: «اللهم هذه قريش، قد أقبلت بخيلائها وفخرها، تحادك وتكذب رسولك، اللهم فنصرك الذى وعدتنى، اللهم أحنهم الغداة»[1]، وحكى كذلك عمر بن الخطاب ﷺ إكثار النبى ﷺ من الدعاء يوم بدر، قائلاً: «لما كان يوم بدر، نظر رسول الله ﷺ إلى المشركين، وهم ألف، وأصحابه ثلاثمائة وتسعة عشر رجلاً، فاستقبل نبى الله ﷺ القبلة، ثم مد يديه فجعل يهتف بربه: «اللهم انجز لى ما عدتنى، اللهم آت ما وعدتنى، اللهم إن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام، لا تعبد فى الأرض» فما زال يهتف بربه ماداً يديه مستقبل القبلة حتى سقط رداؤه عن منكبيه، فأتاه أبو بكر ﷺ، فأخذ رداءه، فألقاه على منكبيه، ثم التزمه من ورائه وقال: يا نبى الله! كفاك مناشدتك ربك، فإنه سينجز لك ما وعدك، فأنزل الله عز وجل: ﴿ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّى مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴾ [الأنفال: ٩]، فأمده الله بالملائكة. وقد خرج من العريش وهو يقول: ﴿ سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ﴾ [القمر: ٤٥][2].

وارتباطه ﷺ بالسماء فى مثل هذا الموقف، دليل الوحى والرسالة والنبوة، إذ من يدعو النبى ﷺ ويناشده غير رب الأرض والسماء، لينصره على قريش فى موقع لا يظن به النصر، وهو مستيقن بذلك النصر، يبشر به أصحابه، لو وقع غير ذلك ما قامت للدعوة قائمة.

---

1 - الخبر رواه ابن هشام(٢/ ١٩٤)، وثبت صحيحاً من قول أبى جهل يومها استفتاحه ودعاؤه بقوله: اللهم أقطعنا للرحم، وأتانا بما لا نعرفه فأحنه- أى أهلكه- الغداة، فكان هو المستفتح أى الحاكم على نفسه فجاءه الفتح بقتله وهزيمتة قريش ليثبت صدق النبى ﷺ وأنه النبى، وأن ربه قد إستجاب له وفى ذلك نزل قوله تعالى: ﴿ إِن تَسْتَفْتِحُوا۟ فَقَدْ جَآءَكُمُ ٱلْفَتْحُ ۖ وَإِن تَنتَهُوا۟ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَإِن تَعُودُوا۟ نَعُدْ وَلَن تُغْنِىَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْـًٔا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الأنفال: ١٩]، وخبر أبى جهل رواه أحمد: الفتح الربانى(٢١/ ٤٤)، والطبرى فى التفسير(١٣/ ٤٥٤)، وصححه شاكر، والدعاء إلى قول الراوى فكان هو المستفتح رواه ابن اسحاق- ابن هشام(٢/ ١٩٩).

2 - من رواية مسلم(ح ١٧٦٣)، وفيه من رواية البخارى كذلك جزء(ح ٤٨٧٥-٤٨٧٧)، وكذلك أحمد فى المسند(٥/ ١٨)، صحح الشيخ شاكر إسناده، وانظر د. مهدى رزق الله، السيرة النبوية(٣٤٧).

بدء المعركـــة:

وابتدأت المعركة بالمبارزات الفردية، وقبل المبارزة والقتال، خرج الأسود بن عبد الأسد المخزومى، يريد هدم حوض ماء المسلمين، فقال: «أعاهد الله لأشربن من حوضهم، أو لأهدمنه، أو لأموتن دونه» وتصدى له حمزة ﷺ، وضربه ضربة أطارت قدمه بنصف ساقه، ثم حبا إلى الحوض مضرجاً بدمائه ليبر قسمه، واتبعه حمزة فضربه حتى قتله فى الحوض»[1].

خرج للمبارزة ثلاثة من فرسان قريش، وهم عتبة بن ربيعة، وشيبة أخوه، والوليد بن عتبة، فخرج إليهم شباب من الأنصار، فلم يقبلوا بغير بنى عمومتهم من المهاجرين، فأمر الرسول ﷺ حمزة، وعبيدة بن الحارث، وعلياً بمبارزتهم، وقد قتل حمزة عتبة، وقتل علىٌّ شيبة، وأما عبيدة فقد تصدى للوليد بن عتبة، وجرح كل واحد صاحبه، فأعان حمزة وعلى عبيدة على قتل الوليد، واحتملا عبيدة إلى معسكر المسلمين[2].

أثرت – لا شك – هذه البداية السيئة على المشركين، وألقت فى قلوبهم، بظلال قاتمة النتيجة، وَخِيمَةِ العاقبة، فى الوقت الذى بدأ المسلمون معركتهم، وهم فى أعلى درجات القوة الإيمانية، والاستبشار بالنصر وحسن العاقبة.

جعلت هذه البداية قريشاً تبدأ بالهجوم على المسلمين، فردوهم بالرمى بالنبل منفذين أوامر الرسول ﷺ، ثم بدأ الالتحام والقتال، وحمى الوطيس، وأخذ النبى ﷺ كفاً من حصى،

---

1 – ابن اسحاق، وذكره ابن هشام(٢/ ١٩٦).

2 – أبو داود، السنن(٢٦٦٥)،وقال الحافظ فى الفتح:" وهذا أصح الروايات(١٥/ ١٦٢)، طبعة الكليات الأزهر، وانظر الإمام أحمد، المسند(٢١/ ٣١-٣٢)، الفتح الربانى للساعاتى، وقال الهيثمى فى مجمع الزوائد(٦/ ٧٦)، ورجال أحمد رجال الصحيح غير حارثة بن مضرب وهو ثقة ". وانظر د. مهدى رزق الله، السيرة النبوية من مصادرها الأصلية(٣٥٠).

فرمى به وجوه القوم، فما بقى منهم أحد إلا امتلأت عيناه من الحصباء وفيها نزلت الآية: ﴿ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ ﴾ [الأنفال:١٧][1].

قُتل فى هذه الملحمة سبعون من قريش، وأُسِر مثلهم، وكان يصرع فى المواضع التي بَيَّنها الرسول ﷺ لأصحابه قبل المعركة، من ذكرهم بأسمائهم[2]، وكان ممن قُتل من قادة قريش أبو جهل، عمرو بن هشام المخزومي، الذى وصفه رسول الله ﷺ بأنه فرعون هذه الأمة[3]، قتله معاذ بن عمرو بن الجموح، ومعاذ بن عفراء – رضي الله عنهما –، فى قصة فى الصحيحين وأجهز عليه عبد الله بن مسعود رضي الله عنه[4].

ومنهم أمية بن خلف، الذى كان يعذب بلالاً رضي الله عنه فى مكة، أسره عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه وأسر معه ابنه علياً، فرآه بلال رضي الله عنه فقال: رأس الكفر أمية بن خلف، لا نجوت إن نجا؛ واستصرخ عليه الأنصار فأعانوه على قتله هو وابنه على[5]، وكان وفاء النبى ﷺ حاضراً آنئذ، كما هو حاله المشرف دائماً، ولم ينسه فى غمرة هذا الصدام الدامى، فأصدر توصياته بعدم قتل بعض المشركين ممن كان يقف مساعداً للمؤمنين فى مكة، وقت اضطهادهم وتعذيبهم، منهم أبو البخترى بن هشام، وكان ممن سعى فى نقض صحيفة المقاطعة، ولم يؤذ النبى ﷺ، ومنهم نفر من بنى هاشم خرجوا مع قريش مكرهين، كالعباس بن عبد المطلب عم النبى ﷺ، والذى وقف بجواره طوال عهده بمكة، خاصة بعد وفاة عمه أبى طالب،

---

1 – الحديث فرواه الهيثمى فى المجمع(٦/ ٨٤)، وقال رواه الطبرانى ورجاله رجال الصحيح، وابن اسحاق – ابن هشام(٢/ ١٩٩)، وحسنه الألبانى فى فقة السيرة (٢٢٨)، طبعة دار القلم دمشق ١٤٠٥هـ- ١٩٨٥م.

2 – أحمد، المسند(١/ ٢٣٢)، بإسناد صحيح، د. أكرم العمرى، السيرة النبوية(٣٦٦).

3 – الهيثمى، مجمع الزوائد(٦/ ٧٩)، من طريق الطبرانى وقال: ورجاله رجال الصحيح غير محمد بن وهب ابن أبى كريمة وهو ثقة.

4 – البخارى(٣١٤١)، ومسلم(١٧٥٢).

5 – البخارى، روى القصة بتمامها(٢٣٠١)، ورواه ابن اسحاق فى قصة بدر- ابن هشام(٢/ ٢٠٢).

وقد ذكر العباس ﷺ نفسه، أنه كان مسلماً وإنما خرج مستكرهاً[1]، وعندما وصل أبا حذيفة كلامُ النبى ﷺ هذا، قال ذلك القول الذى ندم عليه بعد ذلك وهو: «أنقتل آباءنا وآبناءنا وإخواننا وعشيرتنا ونترك العباس، والله لئن لقيته لألحمنه-أو لألجمنه- بالسيف، فبلغت مقالته رسول الله ﷺ، فقال لعمر: «يا أبا حفص! أيضرب وجه عم رسول الله ﷺ، بالسيف؟» فقال عمر: «يا رسول الله، دعنى فلأضرب عنقه بالسيف، فوالله لقد نافق». فكان أبو حذيفة يقول: ما أنا بآمن من تلك الكلمة التى قلت يومئذ، ولا أزال منها خائفاً إلا أن تكفرها عنى الشهادة؛ فقتل يوم اليمامة شهيداً[2].

وقد يظن بعضهم مثل هذا الظن من محاباة النبى ﷺ لأقربائه، ولكنه لا يظل خائفاً من هذا الظن، لا يعتقد غير الشهادة، والموت فى سبيل الله هو الذى ينجيه منه، بل يظن بالنبى ﷺ ذلك وهو لا يبالى بالوقوع الضال فى عرضه الشريف، والبالغ أسوأ دركات الظن به؛ لأن قوله ذلك إنما هو عن الله تعالى، فهو لا ينطق عن الهوى ﷺ، هذا **الأول** فى هذا الموقف، والتدليل على سوء الظن.

الثانى: أن الرسول ﷺ أمر بعدم قتل أبى البخترى، وليس عماً له ﷺ ولا من أبناء عمومته، ولكن لمواقفه المشكورة مع المسلمين فى مكة.

الثالث: فى قول النبى ﷺ: «أيضرب وجه العباس عم النبى ﷺ بالسيف» ليس الاستفهام فيه لإنكار ضربه لكونه عم النبى ﷺ، وإلا فلِمَ منع قتل غيره، وهو ليس عماً، أو قريباً له ﷺ؟! فمحمل الكلام إذاً، أيضرب وجه العباس عمِّ النبى ﷺ الذى ليس هناك

1 - الطبرى، جامع البيان تحقيق الشيخ أحمد شاكر(١٤/ ٧٣)، وانظر د. أكرم العمرى: المجتمع المدنى(٥٥)، وانظر د. مهدى رزق، السيرة النبوية(٣٦٠).

2 - باوزير، مرويات غزوة بدر (٢٦٨)، حيث ذهب إلى تصحيح السند حيث هو روايه ابن اسحاق لغزو بدر، وانظر د. مهدى رزق الله، السيرة النبوية (٣٥٠).

مثله، وقف موقفه مع الرسول ﷺ، وفعل وفعل للمسلمين، أيضرب وجهه مثل هذا بالسيف؟!

الرابع: أن هناك من بنى عمومته ﷺ من حضر بدراً، كأبى سفيان بن الحارث بن عبد المطلب، وعقيل بن أبى طالب، وغيرهم، ولم يأمر بتركهم ولا حماية حيواتهم.

الخامس: هذا الوفاء الفذ الذى كان يمكن أن يحمل النبى ﷺ على المن على جميع الأسرى بغير فداء للمطعم بن عدى - وقد مات كافراً - وذلك فى قوله ﷺ: «لو كان المطعم بن عدى حياً ثم كلمنى فى هؤلاء النتن لأطلقتهم له»، وما كان ذلك إلا لما قام به المطعم من حماية النبى ﷺ، وإجارته له عند دخوله مكة راجعاً مصاباً من الطائف.

وهذا يوضح لنا الرد على ما سنذكر من أقوال المستشرقين، واتهاماتهم للنبى ﷺ فى غزوة بدر، بما سنذكر طرفاً منه.

كما يؤكد كذلك هذه الروح العالية، التى لا تنسى اليد التى امتدت لها خلال الضيق والأذى أن تكافئها؛ لا أن تقول: لو قتل هؤلاء أهذا كان جزائى الذى قدمته لهم؟! ألم يشفع عندهم ما بذلته لهم حال اضطهادهم وتعذيبهم وضعفهم؟! ألم تكن هذه يداً بيضاء امتدت إليهم يوماً تغيثهم من شدة عانوها، أو محنة لاقوها؟! ولم تمتد لهم يوماً بأذى، فاستوت اليوم مع من آذوهم وعذبوهم؟! لم يكن الرسول ﷺ أبداً كذلك، بل هو المثل الأعلى للوفاء الكامل.

نزول الملائكة:

لابد من الإشارة إلى مدد السماء فى هذه الموقعة الأولى، بنزول الملائكة تؤيد المؤمنين، وتقاتل معهم، وذلك لأمرين:

الأول: تبيين تأييد الله سبحانه وتعالى لنبيه ﷺ، لما قال: اللهم نصرك الذى وعدت، إذ كيف يطلب ﷺ نصراً من إله لم يرسله للناس، ولم ينزل عليه كتابه، ويخصه برسالته؟!

الثانى: تحاشى بعض المسلمين من ذكر ذلك، أو تأوله بالتأويلات الباطلة.

وفى ذلك الرد على المستشرقين المنكرين لنبوة ورسالة النبى ﷺ.

نسوق – بداية – شيئاً من الآيات القرآنية، تثبت الأمور الثلاثة:

الأول: وهى نزول الملائكة.

والثانى: نزولهم ببشارة المؤمنين بنصر الله تعالى، رفعاً لمعنوياتهم وإعلاء لإيمانهم ودينهم.

والثالث: مقاتلة الملائكة مع المؤمنين.

ونبدأ بهذه الآية لوضوحها، وهى قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَٰثَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ ﴿١٢٤﴾ بَلَىٰٓ ۚ إِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦ ۗ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١٢٦﴾ ﴾ [آل عمران: ١٢٣-١٢٦].

وكذلك قوله تعالى: ﴿ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّى مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴿٩﴾ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِۦ قُلُوبُكُمْ ۚ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾ ﴾ [1] [الأنفال: ٩-١٠]. وقوله تعالى: ﴿ إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ سَأُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ فَٱضْرِبُوا۟ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ وَٱضْرِبُوا۟ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴿١٢﴾ ﴾ [الأنفال: ١٢].

---

1 – والآية أرجع الطبرى الضمير فيها للمؤمنين.

وأما الأحاديث..

فأول ما يقابلنا فيها هو نزول جبريل عليه السلام.

روى الأموى فى مغازيه بإسناد حسن: «خفق النبى ﷺ خفقة فى العريش ثم انتبه، فقال: أبشر يا أبا بكر، أتاك نصر الله، هذا جبريل عليه السلام معتجر بعمامة، آخذ بعنان فرسه، يقوده على ثناياه النقع، أتاك نصر الله وعِدَتُه»[1].

وذكر ابن عباس – رضي الله عنهما – فى نزول الملائكة فقال: «بينما رجل من المسلمين يومئذ يشتد فى إثر رجل من المشركين، إذ سمع ضربة بالسوط فوقه، وصوت الفارس يقول أقدم حيزوم[2]. فنظر إلى المشرك أمامه فخر مستلقياً، فنظر إليه فإذا هو قد خطم[3] أنفه وشق وجهه كضربة السوط، فاخضر ذلك أجمع، فجاء الأنصارى فحدث بذلك رسول الله ﷺ فقال: «صدقت، ذلك مدد من السماء الثالثة»[4].

وروى الإمام أحمد فى مسنده، أن رجلاً من الأنصار قصير القامة جاء بالعباس أسيراً، فقال العباس: «يا رسول الله، أن هذا والله ما أسرنى، لقد أسرنى رجل أجلح، من أحسن الناس وجهاً، على فرس أبلق، ما أراه فى القوم». فقال الأنصارى: أنا أسرته يا رسول الله. فقال: «اسكت! فقد أيدك الله تعالى بملك كريم»[5].

---

1 – نقله عنه ابن كثير فى البداية والنهاية (٣/ ٣١٢) موصولاً، حيث ذكره ابن اسحاق فى المغازى، وابن هشام بدون سند، وحسنه الألبانى، فقه السير للغزالى (٢٢٦)، طبعة دار القلم، دمشق، انظر د. مهدى رزق الله، السيرة النبوية (٣٥٢).

2 – حيزوم: اسم فرس الملك انظر شرح مسلم.

3 – الخطم: الأثر على الوجه.

4 – مسلم، صحيح(١٧٦٣).

5 – أحمد، المسند(٢/ ١٩٢)، وقال أحمد شاكر: إسناده صحيح، وهو فى مجمع الزوائد، وقال الهيثمى رجال أحمد رجال الصحيح(٦/ ٧٥-٧٦). غير حارثة بن مضرب وهو ثقة.

وقد صح اشتراك الملائكة فى بدر من قول جبريل عليه السلام حين سأل النبى ﷺ: «ما تعدون أهل بدر فيكم؟ قال: من أفضل المسلمين – أو كلمة نحوها– قال: وكذلك من شهد بدراً من الملائكة»[1].

وهى أحاديث تبين القاطع من أدلة القرآن الكريم وتوضحه، وتضرب له الأمثلة، وتفصل فيه القول، ليتعاضد الجميع على هذا الحدث، الذى لا يكبر على الله تعالى، إذ له الخلق والأمر، يخلق ما يشاء، ويفعل ما يشاء، لا معقب لحكمه، ولا راد لقضائه، وهو الرد المجمل على أولئك المصابين بالانهزام النفسى وعقدة الخواجة.

ويَرِدُ السؤال: ما الحكمة من اشتراك الملائكة مع أن جبريل عليه السلام وحده قادر على إهلاكهم بأمر الله؟ ويحسن نقل كلام الإمام السبكى[2]، إذ يجلى الإمام طبيعة الإسلام فى تحقيق أهدافه، وارتباط ذلك بالجهد البشرى، فى حدود السنن الكونية والقوانين الاجتماعية، وغيرها، فيقول رحمه الله: «وقع ذلك– أى نزول الملائكة– لإرادة أن يكون الفعل للنبى ﷺ وأصحابه، وتكون الملائكة مدداً على عادة مدد الجيوش، رعاية لصورة الأسباب، وسنتها التى أجراها الله تعالى فى عباده. والله تعالى هو فاعل الجميع. والله أعلم».أى أن القتال وقع تبع السنن الكونية، والقوانين الطبيعية، من رسول ﷺ وأصحابه؛ وإنما جاءت الملائكة مدداً فى القتال ليس إلا، وإن وقع من بعضهم قتال فما يكون إلا فى صورة الأسباب الممكنة للبشر، حتى يبقى الفعل والأثر منسوبين للقائمين به؛ النبى ﷺ وأصحابه؛ وما زاد من الملائكة مما أوحى الله تعالى به إليهم، من القيام بتثبيت المؤمنين وتبشيرهم بالنصر، وخذلان العدو وإلقاء الخوف والفشل فى قلوبهم، وقد كان ذلك بشهادة المشركين قبل المؤمنين.

---

1 – البخارى (٣٩٩٣).

2 – ونقله كذلك د. أكرم العمرى، انظر .

ولبعض المفسرين تأويلات أخرى فى أمر نزول الملائكة لا نحتاج إلى الوقوف عندها كثيراً.

فر الباقون من قريش لا يلوون على شيء بعد مقتل سبعين منهم، وأسر سبعين، تاركين وراءهم كل شيء، فكانت الغنائم التى غنمها المسلمون.

أقام النبى ﷺ ببدر ثلاثة أيام، وفيها دفن شهداء المسلمين، وهم أربعة عشر، استأثرت رحمة الله بهم فذهبوا إلى عليين، ولم يذكر أنه ﷺ صلى عليهم[1]، ولم يُنْقل أحد منهم من بدر ليدفن فى المدينة[2]، وأمر الرسول ﷺ بسحب قتلى المشركين إلى آبار بدر فألقوا فيها، وفى اليوم الثالث من الأيام الثلاثة، وقف رسول الله ﷺ على أحد الآبار وكان فيه أربعة وعشرون رجلاً من صناديد قريش، فجعل يناديهم بأسمائهم وأسماء آبائهم ويقول: «أيسركم أنكم أطعتم الله ورسوله؟ فإنا قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقاً، فهل وجدتم ما وعد ربكم حقاً؟» فقال عمر ﷺ: يا رسول الله ما تكلم من أجساد لا أرواح لها؟ فقال رسول الله ﷺ: «والذى نفس محمد ما أنتم بأسمع لما أقول منهم»[3].

تلقى المسلمون فى المدينة بشرى النصر، حيث أرسل الرسول ﷺ زيد بن حارثة ﷺ،

---

1 - وهى السنة فى الشهداء.

2 - ابن هشام، السيرة النبوية(٢/ ٢٥٧-٢٥٨)، وابن كثير البداية والنهاية(٣/ ٣٢٧)، وزاد ابن حجر على الأربعة عشر إثنين، انظر ابن حجر، الإصابة(٣/ ٣٢٨-٦٠٨).

3 - رواه ابن اسحاق(٢/ ٧٤)، وهو حديث صحيح أخرجه أحمد(٣/ ١٠٤)، وقال أحمد شاكر إسناده صحيح، وقال ابن كثير فى البداية والنهاية(٢/ ٣٤١)، هذا على شرط الشيخين، وقد أخرجه البخارى(٣٩٧٦)، من حديث أبى طلحة، انظر ابن هشام(٢/ ٢٠٧)، وقد أنكر السمع من الموتى الشيخ محمد الغزالى فى فقة السيرة(٢٣٣)، بقول السيدة عائشة أن رسول الله ﷺ قال: «لقد علموا أن ما وعدهم ربهم حقاً»، ورد عليه الشيخ الألبانى فى التعليق على فقة السيرة(٢٣٢)، بقوله أنكره العلماء وبينوا أن الصواب بجانب من رووا هذا الحديث راجع البداية لابن كثير، و(الفتح) لابن حجر، ثم قال وعندى لا تعارض بينهما بل يمكن الجمع وهو الصواب وذكره فى (أحكام الجنائز وبدعها).

ليعجل لهم البشارة قبل وصول النبى ﷺ، فكانوا بين الفرح الغامر، والحذر ألا يكون خبر مثل هذه الصاعقة يقيناً، قال أسامة: «فوالله ما صدقت حتى رأينا الأسارى»، وكانت الدهشة تعلو الوجوه، أحقاً هزمت قريش! وقتل زعماؤها! وأسر صناديدها! وتحطمت كبرياؤها! وظهرت حقيقة آلهتها الباطلة الزائفة! وعقائدها الضالة!. إن أم المؤمنين سودة لفرط دهشتها تقول لأبى يزيد سهيل بن عمرو ويداه معقودتان إلى عنقه بحبل: «أبا يزيد أعطيتم بأيديكم ألا متم كراماً!» فقال رسول الله ﷺ: «أعلى الله وعلى رسوله؟!» أى تؤلبين، فقالت: «يا رسول الله، والذى بعثك بالحق ما ملكت حين رأيت أبا يزيد، مجموعة يداه إلى عنقه بالحبل، أن قلت ما قلت»[1].

فى طريق عودة الجيش إلى المدينة، أمر الرسول ﷺ بقتل اثنين من الأسرى، هما النضر بن الحارث، وعقبة بن أبى معيط، وكانا يؤذيان المسلمين بمكة، ويشتدان فى عداوتهما لله ولرسوله ﷺ، إن الوقوع فى الأسر لا يعنى صدور عفو عام عن الجرائم التى اقترفها الأسرى أيام حريتهم، وهؤلاء الطغمة من كبراء مكة لهم ماض شنيع، بالغ السوء، فى إيذاء الله ورسوله ﷺ، وقد أبطرتهم منازلهم فساقوا عامة أهل مكة إلى حرب ما كان لها من داع، فكيف يتركون بعد أن استمكنت الأيدى من خناقهم، أليعودوا مرة أخرى أشد عداوة وطلباً للثأر؟!... إن الحصول منهم على فداء لا يناسب ما وقع منهم فى جنب الله، إنهم مجرمو حرب بالاصطلاح الحديث.

إذاً فى قتلهما درس بليغ للطغاة؛ وقد رأينا كيف تخلى عقبة عن جبروته، ونادى من للصبية يا محمد أو يا رسول الله؟ فأجابه: النار[2].

1 - ابن هشام، السيرة (٢/ ٢١٢)، وذكر صحته د. أكرم العمرى، السيرة (٣٧٠).

2 - ابن هشام، السيرة(٢/ ٢١١)، ذكر د. مهدى رزق الله أنه يهودى الأصل نقلاً عن السهيلى الروض الأنف(٣/ ٥٣)، السيرة النبوية(٣٦١).

وصل رسول الله ﷺ المدينة هو وجنوده، منصورين مؤيدين مستبشرين بنعمة الله وفضله وعنايته، قد جمعت لهم الأسرى والغنائم.

استشار النبى ﷺ أبا بكر وعمر وعلياً - رضوان الله عليهم - فيما يصنع بهؤلاء الأسرى؟ فقال أبو بكر ﷺ: يا رسول الله هؤلاء بنو العم والعشيرة والإخوان، وإنى أرى أن نأخذ منهم الفدية؛ فيكون ما أخذناه قوة لنا على الكفار، وعسى أن يهديهم الله فيكونوا لنا عضداً.

فقال رسول الله ﷺ: ما ترى يا ابن الخطاب؟ قال: قلت والله ما أرى ما رأى أبو بكر، ولكن أرى أن تمكننى من فلان- قريب لعمر- فأضرب عنقه، وتمكن علياً من عقيل بن أبى طالب فيضرب عنقه، وتمكن حمزة من فلان- أخيه- فيضرب عنقه، حتى يعلم الله أن ليس فى قلوبنا هوادة للمشركين، وهؤلاء صناديدهم وأئمتهم وقادتهم.

فهوى رسول الله ﷺ ما قال أبو بكر، ولم يهو ما قلت، وأخذ منهم الفداء.

فلما كان من الغد قال عمر ﷺ: فغدوت إلى النبى ﷺ وأبى بكر وهما يبكيان! فقلت: يا رسول الله أخبرنى ماذا يبكيك أنت وصاحبك؟ فإن وجدت بكاء بكيت، وإن لم أجد بكاء تباكيت لبكائكما! فقال رسول الله ﷺ: للذى عرض علىَّ أصحابك من أخذ الفداء، قد عرض علىَّ عذابكم أدنى من هذه الشجرة- لشجرة قريبة- وأنزل الله تعالى: ﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي ٱلْأَرْضِ ۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْأَخِرَةَ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾ لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٦٨﴾ ﴾ [الأنفال: ٩٧-٩٨].

ذكرنا الحديث بطوله لنفاسة هذه المعانى التى تبين روابط الإسلام، وعقائد الدين والرد على وات فى نظرته فى هذا الموقف.

لقد اجتهد الصحابة فيما هو أجدى فائدة، وأولى عاقبة للإسلام والمسلمين فى قضية الأسرى، خاصة وهم يرون المؤمنين فى تلك البأساء من الجوع والعرى، فإذا بالوحى ينزل ليصحح لهم الاجتهاد، ويبين الأصوب فى هذا الأمر، ولكن مع التهديد الشديد فى أن أول موقعة للمسلمين كان الواجب هو الإثخان فى الأرض، أى إستئصال شأفة هؤلاء المجرمين، حتى يسير موكب الدعوة آمن مما هو فيه الأن، وأن يلقى الرهبة والفزع والرعب فى قلوب غيرهم ليفكروا غير مرة قبل أن يهاجموا المسلمين أو أن يتعرضوا لهم.

إن الحياة كما تتقدم بالرجال الأخيار، فإنها تتأخر وتتعفن بالعناصر الخبيثة، وإذا كان من حق الشجرة لكى تنمو أن تُقَلَّم، فمن حق الحياة لكى تصلح أن تنقى من العتاة والمجرمين ولن يقوم عوض أبداً عن هذا الحق ولو كان القناطير المقنطرة من الذهب.

لما سمع المؤمنون هذا الدرس ووعوه وتدبروه، أباح لهم من رحمته الانتفاع بما أخذوا من الفداء، فنزل قوله تعالى:﴿فَكُلُواْ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَٰلاً طَيِّبًا﴾ [الأنفال: ٦٩].

كان أخذ الفداء بالتالى حلالاً فى أول نزوله، ثم جعل الخيار بعد ذلك لإمام المسلمين بين القتل أو الفداء أو المن عدا قتل الأطفال والنساء فلا يجوز قتلهم إذا لم يكونوا محاربين.

قال تعالى:﴿ فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّواْ ٱلْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا﴾ [محمد: ٤].[1]

وكان فداء الأسير ممن يملك المال هو أربعة آلاف درهم، ومع ذلك من رحمة الإسلام والمسلمين، التى تدل على أن المال لم يكن همهم كما علمهم القرآن الكريم فإنهم كانوا يأخذون من بعض الأسارى ما عندهم، وأطلق الرسول ﷺ من لم يقدر على الفداء.

---

١ – ابن كثير، التفسير(٤/ ١٧٣)، طبعة مكتبة التراث الإسلامى حلب،١٤٠٠هـ–١٩٨٠ م.

وكان فى الأسرى أبو العاص بن الربيع زوج زينب بنت رسول الله ﷺ فأرسلت قلادة لها كانت أهدتها لها أمها السيدة خديجة رضى الله عنها فى زواجها لتفدى بها زوجها، فردوها لها، وأطلقوا لها أسيرها لمكانتها من أبيها سيدنا رسول الله ﷺ.

بل كان وارداً أن يطلق سراحهم جميعاً كما قال ﷺ:«لو كان المطعم بن عدى حياً ثم كلمنى فى هؤلاء النتن لأطلقتهم له»[1]، وقد ذكرنا هذا الموقف من قبل حيث كان دور الحماية لرسول الله ﷺ عند رجوعه من الطائف، مع موقفه من نقض صحيفة الظلم والقطيعة.

وإن نظرة سطحية فقط على هذه التصرفات تبين الفارق الضخم الذى لم يحدث مثله من أحد فى تاريخ الإسلام فى قتاله للمسلمين، هذا الفارق الذى يدل على عظم الإسلام وكونه من الله تعالى، وعلى صورة المسلمين السمحة وعقيدتهم البهية المنيرة إزاء أعدائهم؛ إن غيرهم من كل الملل لم يتورعوا عن الإبادة الكاملة لكل صغير وكبير، ذكر وأنثى مع التدمير الشامل لكل ما تقع عليه أيديهم مما له علاقة بالإسلام أو بالمسلمين.

كم أريقت بحار الدماء الذكية على أيدى حاملى الصليب فى حروبهم فى بيت المقدس مماحدث من مآس وجرائم هى أعتى الجرائم التى وقعت على مدار التاريخ.

وبقى الجزء المنير الآخر فى التعامل مع الأسرى، وهو الوصايا من الرسول ﷺ بهم خيراً[2]، خاصة أن من تبقى منهم لا فداء معه وكان يجيد الكتابة، كان فداؤهم أن يعلموا أولاد الأنصار الكتابة.

حكى أبو عزيز- شقيق مصعب بن عمير- ﷺ، وقد أسر فى بدر مع المشركين – أنه

---

1 - البخارى(٢٠٢٤).

2 - الطبرانى فى مسنديه الصغير والكبير، وقال فى مجمع الزوائد: إسناده حسن، د. مهدى رزق الله، السير النبوية(٣٦١).

وهو بين رهط من آسريه الأنصار- أنهم كانوا إذا قدموا غداءهم وعشاءهم خصوه بالخبز وأكلوا التمر لوصية رسول الله ﷺ بالأسرى. حتى ما تقع فى يد أحدهم خبزه إلا ناوله إياها فيستحى فيردها على أحدهم، فيردها عليه ما يمسها.[1]

تلك أخلاق النبوة والرسالة التى حملت الإسلام إلى الدنيا، فكان فيه سعادة الدنيا والآخرة.

الغنائـــم:

ونحن عندما نتكلم عن الأسرى فإن الموضوع الذى ارتبط بها شرعاً وحياً وواقعاً هو موضوع الغنائم، الذى لم يكن لها حكم من قبل، ومن ثم كان عرضة لإختلاف وجهات النظر بين الصحابة الذين حضروا الوقعة، والحديث المروى من جانب كتاب السيرة الذى يبين الحادثة هو حديث عبادة بن الصامت ﷺ إذ يقول:« خرجنا مع رسول الله ﷺ فشهدت معه بدراً فالتقى الناس، فهزم الله تبارك وتعالى العدو، فانطلقت طائفة فى آثارهم، يهزمون ويقتلون، وأكبت طائفة على العسكر يحوونه ويجمعونه، وأحدقت طائفة برسول الله ﷺ لا يصيب العدو منه غرة، حتى إذا كان الليل، وفاء الناس بعضهم إلى بعض، قال الذين جمعوا الغنائم نحن حويناها وجمعناها فليس لأحد فيها نصيب، وقال الذين خرجوا فى طلب العدو: لستم بأحق بها منا، فنحن نفينا عنها العدو، وهزمناهم، وقال الذين أحدقوا برسول الله ﷺ:« لستم بأحق بها منا، نحن أحدقنا برسول الله ﷺ وخفنا أن يصيب العدو منه غرة، وإشتغلنا به، فنزلت:﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ ۖ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَصْلِحُوا۟ ذَاتَ بَيْنِكُمْ ﴾ [الأنفال: ١]، فقسمها رسول الله ﷺ على بواء بين المسلمين أى-بالتساوى[2]، أخذ الله تعالى

1 - ابن اسحاق- ابن هشام، السيرة(٢/ ٢١٢-٢١٣)، وهو مرسل، وقد أسلم كثير من هؤلاء الأسرى بعد ذلك، وحسن أسلامهم وكانوا العضد والنصير المضحى بنفسه وماله فى سبيل الله تعالى. انظر د. مهدى رزق الله، السيرة(٣٦١).

2 - عون المعبود(٢٣٦٠)، تحفة الأحوذى(٣٠٠٤).

الأنفال منهم وجعلها لرسوله ﷺ يفرقها بينهم كما نزل به القرآن الكريم، وكما أمر الله تعالى، وما كان منهم إلا أن قالوا سمعنا وأطعنا.

وكان تقسيم الغنائم بالصفراء مرجعهم إلى المدينة، وقسم رسول الله ﷺ لتسعة من المؤمنين تخلفوا عن الغزوة بما يعلم ﷺ أنه لولا عذرهم لحضروا وشاركوا، منهم عثمان بن عفان رضي الله عنه، كان يقوم على تمريض زوجه رقية بنت رسول الله ﷺ وتوفيت وهم راجعون من بدر فلم يتمكن من الحضور رضى الله عنهم أجمعين.

موقعة بدر، القيمة والنتائج:

أما قيمة غزوة بدر فقد استحق المقاتلون فيها لقب «بدرى»، فكانوا الطبقة الأولى من الصحابة حيث جاءت أحاديث الرسول ﷺ وسيرته وسيرة خلفائه من بعده لتبين فضلهم فى الدنيا، وعلو مقامهم فى الجنة، فأما ما ورد من سمو منزلتهم فى الجنة ما رواه البخارى فى قصة حارثة بن سراقة الذى أصابه سهم طائش يوم بدر، وهو غلام، فجاءت أمه إلى النبى ﷺ فقالت يا رسول الله قد عرفت منزلة حارثة منى، فإن يكن فى الجنة أصبر وأحتسب وأن تكن الأخرى ترى ما أصنع. فقال ﷺ :« ويحك- أو هبلت- أو جنة واحدة هى؟ إنها جنان كثيرة، وإنه فى جنة الفردوس»[1].

وتبين قصة حاطب جانباً آخر يضاف إلى الجانب المتقدم، وملخصه أن حاصب بن أبى بلتعة رضي الله عنه قد حضر بدراً، وفى فتح مكة أرسل إلى قريش من يخبرهم خبر غزو الرسول ﷺ لهم ولكونه بدرياً عفا الرسول ﷺ عنه قائلاً لعمر عندما أراد قتله:« لعل الله أطلع على أهل بدر فقال اعملوا ما شئتم فقد وجبت لكم الجنة، أو فقد غفرت لكم»[2]. ولما قال عبد

---

1 - البخارى(٣٩٨٢).

2 - مسلم(٤٥٥٠).

لحاطب: يا رسول الله ليدخلن حاطب النار، قال رسول الله ﷺ :«كذبت لا يدخلها فإنه شهد بدراً والحديبية»[1].

وأما العطاء المادى فى الدنيا فكانوا المقدمين فيه، فعندما سجل عمر ﷺ الجند فى الدواوين التى أسسها فى الدولة الإسلامية كانوا الطبقة الأولى التى تأخذ أعلى العطاء، وها هى دواوين السنة والرجال توشى صفحاتها الأولى بأسمائهم ومناقبهم مكرمين بذلك على مر الدهور والأعصار[2]مرضيين برضا الله عنهم، ومزدادين رضا بترضى كل من يترضى عنهم إلى يوم القيامة رضى الله عنهم وعن الصحابة أجمعين.

وما ذِكْرُنا لهذه القيمة- نحن غير أهل لذلك- إلا لنبين قليلاً مما قدموا بها وفقهم الله له، واختصهم الله تعالى به، ونسوق منا شيئاً ليتدبر المؤمنون اليوم سيرتهم فيثوبوا إلى مجدهم وعزهم، ولينظر المستشرقون إلى تفسيراتهم للوقائع بما يخالف الحقيقة ويجافى الحق ويناقض العقل والمنطق.

وأول ذلك: هو رفعهم للعقيدة واستعلاؤهم بها[3]، فكانت الدافع لهم والمحرك فى كل ما يأتون ويذرون، فكانوا مستعلين بها فوق ما يدعى المستشرقون من مصالح مادية أو منافع دنيوية أو غيرها، وإنما رفع الإسلام بالنصر أو الشهادة، إذ كيف يعن أو يقع فى تفكير هؤلاء أن يحصلوا فى معركة غير متكافئة غير الهزيمة والقتل أو الإعطاء باليد.

الثانى:الوفاء بالبيعة مع الرسول ﷺ - بيعة العقبة- ولم يمنعهم شروط الوثيقة بأن نصر النبى ﷺ والقتال معه لمن دهم يثرب، بل قالوا لو خضت البحر لخضناه معك ما تخلف منا رجل واحد.

1 - مسلم(٤٥٥١).

2 - انظر د. أكرم العمرى،السيرة(٣٧١).

3 - انظر د. أكرم العمرى،السيرة(٣٧٠).

الثالث: الطاعة التامة للرسول ﷺ، فهم جند مطيعون ومضحون مهما كان الثمن ليقينهم بصدق رسالته ﷺ وأن فى طاعته العاقبة الحسنى فى الدنيا والآخرة.

الرابع: إذا كان تقديمهم لعقيدتهم ودينهم على أنفسهم وأموالهم، فمن باب الأولى أن يظهر ذلك مع غيرهم من الأهل والولد فهاهم المهاجرون يواجهون أقاربهم فى المعركة، الابن يواجه أباه، والأخ يواجه أخاه، وغيرهم من عصباتهم فلا تمنعهم أواصر القربى ووشائج النسب أن يقتلوهم لمصلحة الدين والعقيدة(1)، وقد كان ذلك واضحاً جلياً كذلك فى موقف عمر رضي الله عنه من الأسارى بعد المعركة.

الخامس: أنهم الطبقة الأولى التى تحملت قبل أى أحد عبء الصدمة الأولى فى الإيمان والعبادة والسلوك والدعوة، والتضحية والبذل ثم الهجرة والجهاد، وضربوا فى كل ذلك بأعلى سهم، وأروع مثل.

نتائج بــــدر:

عرفت غزوة بدر بتمجيد القرآن العظيم لها بأنها يوم الفرقان، لأنه فرق بها بين الحق والباطل، ولأنها كانت الفارقة بين عهدين من عهود الإسلام وتاريخه، وكان لها الأثر الكبير فى إعلاء شأن الإسلام.

شُدِه العرب وغيرهم قاطبةً لذلك النصر الحاسم الذى أكرم الله به المؤمنين فى بدر، بل إن أهل مكة استنكروا الخبر أول ما جاءهم وحسبوه هذيان مجنون إذ أول من قدم بمكة بمصاب قريش الحَيْسُمان بن عبد الله الخزاعى، فقالوا: ما وراءك؟ قال: قتل عتبة بن ربيعة

---

1 - وفيه قصه والد أبى عبيدة بن الجراح حيث تعرض لإبنه ليقتله، فيحيد عنه أبو عبيدة ثم قتله، وذكر ابن حجر فى الإصابة(٢/ ٢٥٢-٢٥٣)، ذلك من روايه الطبرانى وجودها.

وشيبة بن ربيعة، وأبو الحكم بن هشام، وأمية بن خلف، وزمعة بن الأسود، ونبيه ومنبه ابنا الحجاج، وأبو البخترى بن هشام، فلما جعل يعدد أشراف قريش قال صفوان ابن أمية وهو قاعد فى الحجر، والله أن يَعْقّل هذا فاسألوه عنى فقالوا: ما فعل صفوان ابن أمية؟ قال: ها هو ذاك جالساً فى الحجر، وقد والله رأيت أباه وأخاه حين قتلا[1].

فلما إستبان صدق الخبر صعق بعضهم حتى كاد يهلك، وماج بعضهم فى بعض من هول المصاب لا يدرى ما يفعل.

وكذا استبعد مشركو المدينة ويهودها ما قرع أسماءهم من بشريات النصر، وذهب بعضهم إلى أنها أخبار من محض الاختلاق، ولم يصدقوا إلا عندما رأوا الأسرى مقرنين فى الأصفاد وقد تعددت مسالك الجميع مختلفة فى معالجة الموقف أو توفيق الأوضاع أو الإعلان بالعداوة والمجاهرة بما ينم عن الحقد والسخط.

فأما أهل مكة فقد منعوا البكاء والنياحة على قتلاهم لئلا يشمت بهم المسلمون، وأمروا بتأخير دفع الفداء لئلا يأرب عليهم المؤمنون فيه[2]، ثم إنطووا على أنفسهم يداوون جروحهم، ويستعيدون قواهم، ويستعدون لنيل الثأر، ولم تزدهم الهزيمة إلا كرهاً للإسلام، ونقمة على رسول الله ﷺ وصحبه، ومزيداً من الاضطهاد لمن يدخل فى دينه.

وبدأ الانتقام والثأر فأرسل صفوان بن أمية عمير بن وهب الجمحى وكان شيطاناً من شياطين قريش لاغتيال الرسول ﷺ بعد أن وعده صفوان بأن يعول أهله مع أهله وأن يتحمل دينه، وكانت حجة عمير فى السفر إلى المدينة فى هذه المهمة الخسيسة هو ولده الأسير ليحسنوا إليه، خلاصة ما حدث أن أمسك به عمر بن الخطاب رضي الله عنه عند وصوله

---

1 – ابن اسحاق، ابن هشام، السيرة(٢/ ٢١٣).

2 – ابن اسحاق، ابن هشام، السيرة(٢/ ٢١٤).

لمسجد الرسول ﷺ حاملاً سيفه، وسأله الرسول ﷺ عن سبب مجيئه فتعلل بولده الأسير، فأخبره الرسول ﷺ بوحى السماء بما حدث بينه وبين صفوان بن أمية فى الحجر، فأسلم لتوه إذ ما حضر ذلك ثالث، وطلب من الرسول ﷺ الرجوع إلى مكة للدعوة للإسلام بالشدة التى كان يهاجمه بها ويؤذى بها المسلمين.[1]

فأما فى المدينة حيث المسلمون كثره مكينة ظاهرة، فقد إستعلى المؤمنون فيها على اليهود وبقايا المشركين، وأخذت العداوة للإسلام وأهله منحى الدس والنفاق والمخاتلة، فأسلم فريق من المشركين واليهود ظاهراً وقلوبهم تغلى حقداً وكفراً.

فأما المشركون فكان زعيمهم عبد الله بن أبى بن سلول رأس المنافقين حيث قال فى رجوع النبى ﷺ والمسلمين منصورين غانمين من بدر: هذا أمر قد توجه – لا مطمع فى إزالته- فبايعوا رسول الله ﷺ على الإسلام فأسلموا[2]. ومن بين من عرفوا بالنفاق من مشركى المدينة غير ابن أبى! جلاس بن سويد وأخوة الحارث وأوس بن قيظى.

ومن بين من عرف بالنفاق من أحبار يهود المدينة: زيد بن اللصيت ورافع بن حريملة ورفاعة بن زيد بن التابوت.وقد أسلم من أسلم منهم وحسن إسلامه، ومات على النفاق من مات منهم[3]، على أن هذا الخداع الذى لاذ به هذا الفريق كان فى الوقت الذى عالن فيه الفريق الباقى من اليهود بسخطهم على الإسلام ورسوله ﷺ، ولم يعودوا يسيطرون على مشاعرهم وأقوالهم وأفعالهم بسبب غيظهم من النتيجة التى لم يكونوا يتوقعونها فاندفعوا نحو العدوان، وأظهروا ألمهم للهزيمة التى أصابت قريشاً، حتى إن كعب بن الأشرف من

1 – ابن اسحاق، ابن هشام، السيرة(٢/ ٢٢٤-٢٢٥).

2 – وخبر نفاقه ومعادته للإسلام وإيذائه للرسول ﷺ، البخارى(٤٥٦٦)، وابن حجر فتح البارى().

3 – انظر مواقف بعضهم فى السيرة، لأبى بكر الجزائرى، هذا الحبيب محمد ﷺ(١٨٩-١٩٤)، د. مهدى رزق الله، السيرة(٣٦٢-٣٦٣).

زعماء يهود أرسل القصائد فى رثاء زعماء المشركين وطالب بالثأر لهم، وحاول اليهود فى نفس الوقت التحقير من شأن هذا النصر وأن المسلمين لو لاقوا يهوداً لعلموا من المقاتلون حقاً. أكد كل ذلك نيات اليهود فى نكث عهودهم مع رسول الله ﷺ والاستعداد لمجابهة المسلمين، مما مهد للأحداث العنيفة التى وقعت بعد ودفع فيها اليهود ثمن غدرهم ونقضهم للعهد غالياً أفراداً وجماعات حيث بدأ ذلك بإجلاء بنى قينقاع من المدينة لما ابتدأوا هم السير فى هذا الطريق العفن، طريق المؤامرات والعدوان وتمزيق العهود[1].

بقى موقف الأعراب الضاربين حول المدينة، وهؤلاء قوم لا يهمهم شيء من قضايا الإيمان والكفر، إذ همهم الحصول على قوتهم ولو بالسلب والنهب وقطع الطريق، لقد أقض ذلك النصر مضجعهم فحشدوا جموعهم لانتهاز فرصة للإغارة على المدينة، وقد سبق لهم استياق نعم المدينة، نهض الرسول ﷺ سريعاً فشتت هذه الجموع، ولم يلق فى سبيل ذلك متاعب ذات بال.[2]

أتينا إلى نهاية ما إستطعنا تفصيله من غزوة بدر مما ورد فى السيرة المشرفة، وكان ينبغى أن نلم بطرف من الحكم والأحكام فى نهايتها، ولكن آثر الباحث أن يكون ذلك بعد عرض منهجه فى السيرة من القرآن الكريم مع المقارنة والتحليل، ثم نسوق كلام المستشرقين ونخص منهم وات بالذات لنرد عليه.

---

1 – الغزالى، فقه السيرة(٢٣٩).

2 – الغزالى، فقه السيرة(٢٣٩).

المبحث الثالث

غزوة بدر فى القرآن الكريم

جاءت سورة الأنفال لتحكى لنا سيرة غزوة بدر بما يليق بالقصص القرآنى فى سرد الأحداث، إذ يوضح المفيد اللازم لكل بشر من الحادثة، ويعلق عليها بما هو المقصود من القصص أهدافه وغاياته، ويشرح الحكم والمواعظ والعبر، ويذكر الاوامر والنواهى للامتثال للشرع وفى الغالب يزيد عما حدث شرحاً وتفصيلاً يكون زاداً وتحذيراً وتنبيهاً أو وصايا لما هو آت، حتى استكمل القرآن الكريم بهذا النهج المصور لسيرة النبى ﷺ وأصحابه، ما كان وما يكون، مع مراعاة أحوال الامم السالفة فى ذكر ذلك القصص لتلمس مواضع العبر تخويفاً واتقاء، مصوغاً كل ذلك فى أعلى درجات البلاغة واللغة، التى تشى بأن الصياغة بهذه الطريقة السامقة إنما هى أيضاً من مطلوبات القرآن الكريم فى عرض السيرة لأغراض لا شك سامية مما يستدعى مراعاة ذلك الدرس البلاغى وغيره فى فهم صياغة السيرة وسردها، وأنه ما كان كذلك إلا لسمو هدفه فى ايصال وفهم وتعلم السيرة القرآنية بهذه التراكيب، والصياغات والاساليب، وأفانين الكلام. لذلك كان التعريج على هذا الدرس من مهمات هذا البحث إظهاراً (لما يمكن من جوانبه) كافة تعميقاً لفهم القرآن ومعرفة جماله وجلاله الباعث على محبته والقيام بحقه والرد على أعدائه، لم يكن عرض السيرة بليغاً بهذه الجماليات لكون ذلك أسلوب القرآن الكريم المعتاد، بل كان لكل مقام مقال.

ولا ننس أن ننوه بوظيفة المؤرخ كما ذكر وات، حيث لا تنحصر فى السرد بقدر فهم البواعث والأهداف من وراء ما يقع من أحداث، ذلك ما بلغ القرآن الكريم فيه درجة غير مسبوقة تتوافق وأهداف الإسلام ووسائله، ومعرفة النفس الانسانية ودوافعها وتبيين ما يعتمل فيها وما تقصد إليه تصويراً لذلك وتصحيحاً وتقويماً للمطلوب فيه.

ونأتى لسورة الأنفال لنحلل منها ما نستطيع من السيرة مع المقارنة والنظر فى جمالياتها.

إن أول ما يصادفنا أن سورة الأنفال تحدثت عن غزوة بدر من آخرها، فلم تسرد الأحداث بما بدأت به فى واقع الأمر، فبدأت بالحديث عن الغنائم والأنفال، وهو فى نهاية الموقعة، وواضح أنها خصت الغنائم بالذات من بين الأحداث الأخيرة فى الوقعة ويبدو أن ذلك كان موضوع الساعة إذن بل وكل ساعة، فيه تتحدد وجهة الغزو، وأهداف الجهاد وما ينبغى أن يكون نصب عين المجاهدين والمؤمنين من مقصود ذلك ووسائله النفسية والمادية فى الدنيا والآخرة كما سنوضح شيئاً من ذلك.

أخذ الحديث وجهات عدة نشير إليها تبين ما سبق:

الأول: فى قوله:﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ ﴾ [الأنفال: ١]، ومعناه أن هناك نصراً قد تحقق، وحصل بسببه غنائم اختلف الصحابة فى توزيعها، وسألوا الرسول ﷺ فيها لعدم علمهم بما ينبغى أن يقسموها به، وأنهم حاوروا الرسول ﷺ تصريحاً، ومنهم من يجادل غيره بما يدل على طلب الفهم فى هذا الشأن، والتعبير بالمضارع ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ ﴾، دل على تكرار السؤال المرة بعد الأخرى من سائلين متعددين، وإما بكثرة السائلين فى الموقف الواحد، وجاء السؤال معدى ب﴿ عَنِ ﴾، ليدل على طلب المعرفة، وهذا يدلنا على تأكيد ما حدث فى السيرة النبوية، ثم جاء القرآن الكريم بعد ذلك التنازع الذى ذكرته السيرة ليوضح المقصود والمطلوب

والغايات والبواعث إلى آخر ما ذكرنا آنفاً فجاء القاطع القرآنى بقوله:﴿ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ ﴾، أى لله تعالى ملكاً واختصاصاً على جعل اللام هنا للملك أو للاختصاص، فهى ملكه ويختص بالقضاء فيها هو جل وعلا فيحكم بها يشاء ويصرفها كيف يشاء، ومعرفة ذلك والقيام به لرسوله ﷺ المبلغ عنه فهى لرسوله ﷺ من هذه الوجهة.

ومما ذكرته السيرة ووضحته جملة:﴿ يَسْـَٔلُونَكَ ﴾، الايذان بأن ثم تنازعاً قد حدث بين ناس من الجيش فى استحقاق الغنائم، وقد كانت لهم عوائد فى الجاهلية متبعة فى الغنائم والأنفال أرادوا العمل بها وتخالفوا فى شأنها والذين سألوا كانوا معروفين، لأن ضمير جمع الغائب فى ﴿يَسْـَٔلُونَكَ﴾، معلوم عند النبى ﷺ وعند السامعين ساعة عند نزول الآية.

الثانى: المنحى الثانى الذى بينته الآيات لتوضح به ما يجب أن تكون عليه سيرة المؤمنين فى هذا الموقف خاصة، وكل المواقف بعد ذلك هو تقوى الله سبحانه وتعالى، وإصلاح ذات البين، وطاعة الله ورسوله ﷺ، وختم هذا المنحى بصيغة الإلهاب لنفوسهم على الامتثال، وهو قوله تعالى:﴿ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾، وذلك ليس تشكيكاً فى إيمانهم، بل لأنهم مؤمنون خاطبهم بذلك، لأنه لا يؤمر بذلك غير المؤمنين.[1]

وهذا معناه أن المؤمنين همهم الأول هو تقوى الله وأولها فى هذا الموقف صلاح ذات البين، وطاعة الرسول ﷺ، ليس همهم الغنائم وقسمتها، ومن يحوزها أو يحرمها، وهى التربية القرآنية الأولى للمؤمنين بأن تكون وجهتهم تقوى الله وطاعة رسوله والاستسلام لأوامره والاجتناب لنواهيه، مع قولهم سمعنا وأطعنا وهو الشق الأول الذى يقوم به الإسلام والشق الثانى هو تآلف القلوب وصلاح ذات البين والاجتماع والاتفاق على كلمة لا شقاق فيها ولا تصدع لها، بأن يكونوا يداً واحدة على من سواهم، متكافلين متوادين

1 - انظر الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير(٩/ ٢٥٢-٢٥٤).

متراحمين كالبنيان يشد بعضه بعضاً، ليسوا من مغريات الدنيا فى شيء، وإن كانت الغنائم عندهم من مظاهر طلب الآخرة حيث يشير إلى هذا الرأى الأستاذ سيد قطب - رحمه الله - فيقول: «ولقد يدهش الانسان حين يرى أهل بدر يتكلمون فى الغنائم، وهم إما من المهاجرين السابقين الذين تركوا وراءهم كل شيء، وهاجروا إلى الله بعقيدتهم، لا يلوون على شيء من أعراض هذه الحياة الدنيا، وإما من الأنصار الذين آووا المهاجرين، وشاركوهم ديارهم و أموالهم، لا يبخلون بشيء من أعراض هذه الحياة الدنيا أو كما قال فيهم ربهم:﴿ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُواْ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴾ [الحشر: ٩]، ولكننا نجد بعض التفسير لهذه الظاهرة فى الروايات نفسها. لقد كانت الأنفال مرتبطة فى الوقت ذاته بحسن البلاء فى المعركة، وكانت بذلك شهادة على حسن البلاء، وكان الناس يومئذ حريصين على هذه الشهادة من الرسول ﷺ ومن الله سبحانه وتعالى فى أول وقعة يشفى فيها صدورهم من المشركين، ولقد غطى هذا الحرص وغلب على أمر آخر نسيه المتكلمون فى الأنفال، حتى ذكرهم الله به، وردهم إليه، ذلك هو ضرورة السماحة فيما بينهم فى التعامل، والصلاح بين قلوبهم فى المشاعر ».[1]

إذن لم يكن من سبب كائناً ما كان ليغطى أو يمنع على الركن الركين من قيام الإسلام، وهو الأخوة الإيمانية التى علمها لهم القرآن الكريم تعليماً واقعياً بنزع الأنفال منهم إلى الله ورسوله ﷺ، وهتف بهم بهاتف التقوى ليكون لاماً لشملهم مصلحاً لجمعهم وذات بينهم، ليبقى سبب النصر هو القائم الباقى، سبب الفوز فى الأولى والآخرة لأنه بغيره كما ذكرت السورة بعد سيكون إخفاقهم، ويعودون بالانكسار والهزيمة قال تعالى: ﴿ وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ﴾ [الأنفال: ٤٦]، ومن ثم جاء الأمر بالتقوى:﴿ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ﴾ [الأنفال: ١]، مفرعاً على جملة:﴿ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ ﴾، لأن فى تلك الجملة رفعاً للنزاع بينهم فى استحقاق الأنفال وإن

1 - سيد قطب، فى ظلال القرآن(٣/ ١٤٧٣).

كل ذلك موكول إلى الله سبحانه وتعالى وذكرهم حينئذ بأنه قد وجب الرضا بما يقسمه الرسول ﷺ. وقدم الأمر بالتقوى لأنها جامع الطاعات.

وعطف الأمر بالاصلاح لما حدث من اختلاف، أما الأمر بالطاعة هنا، فهى كما فى قوله سبحانه:﴿ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَرَجٗا مِّمَّا قَضَيۡتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسۡلِيمٗا ﴾ [النساء: ٦٥]، أى الأمر بالطاعة التامة التى يقتضيها الإيمان الذى يحثهم على ذلك ويظهر الانقياد حقيقة وقوة هذا الإيمان :﴿إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ۝١﴾ [الأنفال: ١].

الثالث: إن المنحى الثالث الذى أكدته الآيات منحى صفات المؤمنين حقاً لتبين لهم سيرتهم الصحيحة، فيزدادوا منها أو يثبتوا عليها، ومن تأخر عن تمامها شيئاً ما كانت مجاهدته لنفسه على اللحاق بها والتمثل بتفاصيلها فبعد أن عاش المؤمنون هذه الأحداث، لا شك أسرعوا فى إصلاح ذات بينهم، وتصافت أرواحهم، وتسامحت نفوسهم وعادوا لا يحركهم، ولا ينبغى إلا تقوى الله وطاعة رسوله ﷺ وتألف صفهم وترابط جمعهم، وعلموا الهدف الذى يجب أن يسعوا إليه هو ما وصاهم به وتنزلت بسببه تلك السورة لزوم التحقق بأعلى وأهم صفات المؤمنين، لأن كل أعمالهم من جهاد فما دونه إنما هو وسيلة لأن يكونوا مؤمنين حق الإيمان، باذلين أرواحهم ليكون غيرهم لاحقاً بهم، حتى تصبح الأرض كلها الأرض الطيبة الصالحة بإيمان أهلها، التى فى نفس الوقت تكون متعبدة بأحسن التعبد موحدة أعلى التوحيد لله رب العالمين، الذى اكرمهم بذلك كله وشرفهم به، واصطفاهم لحمله من دون العالمين.

جاءت الجمل القرآنية الكريمة متتابعة تبين صفات المؤمنين، وكأنها تقول ليس المؤمنون الذى يسمعون كلام الله ولا يرعوون ولا يستجيبون له، ولا يسارعون إلى مرضاته بل هم أعلى وأجل إذ يسمعون كلام الله فترتعش قلوبهم ويظهر ذلك فى انهمال عيونهم،

وقشعريرة أبدانهم، يرتجفون لذكره فيمتثلون أمره ويجتنبون نهيه، ويتعجلون إلى مرضاته، وليس هم الذين يسألون ويتكلمون فى الأنفال، بل هم المنفقون فى السراء والضراء، لا ينتظرون أخذاً إنها يسارعون إعطاء، الذين يخرجون من الاعمال الصالحة وقد ازدادوا إيهاناً فربط على قلوبهم، وأخذهم هذا الإيهان الزائد إلى مواقع الحق والصواب؛ لا يخرجون من الاعمال الصالحة إلى الدنيا وقد خف إيمانهم فيتنازعون عليها. وهم فى كل ذلك متوكلون على الله، محافظون على صلواتهم راكنون إلى ربهم، ينظرون جزاءهم وحسن عاقبتهم فيسارعون إلى ذلك الخير الدائم، وهم مع ذلك ملازمون لطلب المغفرة فى كل حين لأنهم لن يوفوا حق نعمة من نعم الله عليهم أو يقوموا بكل ما جاءهم به ﷺ وإن الرسول – عليه الصلاة والسلام – لهو قدوتهم السائر بهم إلى ربهم المرشد لهم إلى أسباب سعادتهم فى الدنيا والآخرة.

قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَـٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۚ لَّهُمْ دَرَجَـٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ۝ ﴾ [الأنفال: ٢-٤].

هؤلاء هم المؤمنون حقاً أى هؤلاء لا غيرهم هم المؤمنون حق الإيمان، وهذه الجملة وما عطف عليها إما أن تكون مستأنفة وإما تعليلية فإن كانت مستأنفة فهى مستأنفةاستئنافاً بيانياً مسوقة لمن أريد بالمؤمنين بذكر أوصافهم الجليلة جواباً، لسائل يثيره هذا الاشتراط فى قوله: ﴿ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۝ ﴾ [الأنفال: ١]. بعدما تحقق أنهم مؤمنون من قبل فيقول من هم هؤلاء المؤمنون فيجاب بأن المؤمنين هم الذين صفتهم كيت وكيت، فيعلم أن الإيمان الذى جعل شرطاً فى الامتثال هو الإيمان الكامل فتنبعث نفوسهم إلى الاتسام به والتباعد عن موانع زيادته.

وإما أن تكون: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾، وما عطف عليها واقعة موقع التعليل لوجوب الأوامر الثلاثة المتقدمة وهى تقوى الله واصلاح ذات البين وطاعة الله ورسوله، لأن ما تضمنته هذه الجمل التى بعد ﴿ إِنَّمَا ﴾، من شأنه أن يحمل المتصفين به على الامتثال لما سبق فى الجمل.

وإذ قدر كان الاحتمالان غير متنافيين صح تحميل الآية عليهما توفيراً لمعانى الكلام المعجز فإن علة الشيء مما يسأل عنه، وإن بيان العلة مما يصح أن يكون استئنافاً بيانياً.[1]

ونسوق توضيحاً مختصراً لتلك الصفات، يليق بالباعث التاريخى للأحداث وهو شغل المؤرخ، لا لتفسير القرآن الكريم، ليكون المرء على ذُكر منه لأنه سوف تتكرر معنا هذه المعانى والأوصاف فى كل السباقات القرآنية للسيرة النبوية، مع زيادات فى كل مرة تُستكمل بها جوانب الشخصية المسلمة، وفى نفس الوقت تظهر لنا الآثار السيئة فى بعض أخبار السيرة لعدم تمسك المسلمين على المستوى الفردى أو الجماعى بتلك الخصائص والصفات، كما جاء فى غزوة أحد فى سورة آل عمران قوله تعالى:﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ ۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۚ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ ۖ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥٢﴾ ﴾ [آل عمران: ١٥٢]، إذ هى من الصفات التى وصى بها وحذر من المآل السيء لمخالفتها مبكراً بعد غزوة بدر، وفى نفس السياق يتضح لنا الرد على (وات) والمستشرقين من قبله فيما يتعلق بمنهجهم التاريخى فى عرض السيرة.

نعود إلى شرح معانى تلك الصفات وعلاقتها بالاحداث..

الوصف الأول: فى قوله تعالى:﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ [الأنفال:٢]،

1 - انظر الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير(٩/ ٢٥٥).

والمعنى ليس المؤمنون الكامل إيمانهم إلا أصحاب هذه الصفة التى يعرف المتصف بها تحققها فيه من عدمه من عَرْض نفسه على حقيقتها، فأحيلوا فى معرفة أمارات تخلقهم بالإيمان على تلك الصفات التى يأنسونها من أنفسهم والذكر يطلق حقيقة على التلفظ باللسان فإذا علق بالذات كذكر الله أريد ذكر اسمه، أو شأن من شؤونه مثل أمره ونهيه فيجل القلب أى يخاف مع الفزع لاستعظام الموجول منه، وأسند ذلك إلى القلب فى كلام العرب لأن القلب يكثر إطلاقه على إحساس الإنسان وقرارة إدراكه، وقد أجملت الآية ذكر الله إجمالاً بديعاً يناسب معنى الوجل، ليكون ذكر الله إذا جاء باسمه أو بذكر عقابه أو عظمته أو ثوابه ورحمته كل ذلك وغيره يورث القلب لكُمل المؤمنين الوجل؛ لأنه يحصل مع هذا الذكر استحضار جلال الله وشدة بأسه وسعة ثوابه، لنعلم الباعث التاريخى الذى اخترعه المستشرقون وات لتلك الأحداث، وهو أنه إذا تذكر ذلك ينبعث عن هذا الاستحضار توقع حلول بأسه، وتوقع انقطاع بعض ثوابه ورحمته، فهو وجل هو الباعث للمؤمن على الاستكثار من الخير، وتوقى ما لا يُرضى الله تعالى، وملاحظة الوقوف عند حدود الله فى أمره نهيه، وحال آخر يحصل للمؤمن يبين وجهته وإخلاصه وتربيته الحقة على مائدة القرآن الكريم، على يد الرسول ﷺ وهو الأمل والطمع فى ثواب الله، وقد طوى ذكره هنا لاستلزام الوجل إياه؛ لأنه من الوجل أن يخشى وَيجِل من فوات الثواب أو نقصانه.

ثم جاءت الصفة الثانية..

﴿ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَـٰنًا ﴾ [الأنفال: ٢].

ولا شك أن ارتباط هذه الصفة بما قبلها ارتباط وثيق، فى غاية السلاسة، فإذا كان ذكره سبحانه تجل القلوب به، وهو أنواع كما ذكرنا فيدفعها إلى تلك الأحوال الحسنة فإن أعظم ذكره تلاوة آياته وسماعها الذى يحوى ذلك كل أسباب الوجل فيكون تأثيره أعم وأقوى

فيبادر المرء إلى التحقق عند سماع آياته بكل معانى الوجل، التى تزيد بلا مراء إيمانه، وتقوى يقينه، وتعلو حينئذ درجته، وكأن الآية من ناحية داعية إلى الأخذ بأسباب زيادة الإيمان وقوته الذى هو مصدر كل خير، وأن أى أسباب تدعو إلى خلاف ذلك مما يضعف به الإيمان ويقل ويجب الحذر منه وتركه، وقصة الأنفال وغزوة بدر وبقية الأحداث أول ذلك، والدليل عليه، ومن ناحية أخرى يكون ذلك توجيهاً جديداً للمؤمنين، يوضح لهم صفات الكمل من المؤمنين ليصير ذلك ثابتاً لا تزحزح له، زائداً فيما يستقبلون به دعوتهم، وزاداً يتقوون به فى سيرتهم.

أما كيفية تأثير التلاوة فى زيادة الإيمان، فأن دقائق الإعجاز التى تحتوى عليها آيات القرآن تزيد كل آية تتنزل منها أو تتكرر على الاسماع سامعها يقيناً بأنها من عند الله، فتزيده استدلالاً يُقوى الإيمان حتى يقرب من مرتبة الضرورة، ويحصل مع تلك الزيادة زيادة فى الإقبال عليها بَشراشِر القلوب، ثم فى العمل بما تتضمنه من أمر أو نهى، حتى يحصل كمال التقوى، فلا جرم كان لكل آية تتلى على المؤمنين زياد فى عوارض الإيمان من قوة اليقين، وتكثير الأعمال.[1]

أما ما يتعلق بالمقام من الكلام على الأنفال وعلاقته بتلك الزيادة، وحظه منها، فهو أن سماع الآيات النازلة فى هذا الشأن تزيد إيمان المؤمنين بنبذ الشقاق والاختلاف بما ارتفع من ايمانهم بتلك الآيات، ورفع التشاجر الطارىء بسبب الأموال فإن صفات المؤمنين وتحققها والمسارعة إلى تلاوة الآيات والعمل بها، وأن زيادة الإيمان وأهميته لهو مطلوبهم الاسمى الذى بسببه يعرضون عن غيره ويلقونه وراء ظهورهم، ويستقبلون جميعاً أمراً آخر هو

---

1 - لزيادة الإيمان معان أخرى اقتصرنا على المناسب والمطلوب من السياق، وانظر الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير(٩/ ٢٥٦-٢٥٩)، وأبا السعود، إرشاد العقل السليم(٢/ ٣٤١-٣٤٢)، والالوسى، روح المعانى(٦/ ٢٤٠-٢٤٢)، وغير ذلك.

الأهم والأولى عندهم، وبذلك تتضح المناسبة بين ذكر الأنفال، وتعقيبه بالتقوى واصلاح ذات البين والطاعة، وتعليل ذلك بأن شأن المؤمنين هو إقبالهم على زيادة إيمانهم عند تلاوة آيات الله تعالى، وتلك هى التربية القرآنية التى أخذهم بها، وعلمهم فيها الأهم والمهم، والذى لا قيمة له، وأسباب النصر وضرائب التمكين، فما انتصروا بعد ذلك إلا بما تحقق فيهم من هذه الصفات.

﴿ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾، وإن من أهم مقامات الدين التوكل على الله..

وهى صفة ثالثة لـ﴿ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾، أو حال منه، وجعلت فعلاً مضارعاً للدلالة على تجدد وتكرر ذلك منهم، فى كل حين لا يفارقهم التوكل على الله حال دعوتهم وانفالهم وجهادهم وسائر شؤونهم؛ لأن كفايتهم بالله لا بالدنيا وأموالهم، وركونهم وتعلقهم بالله وما عنده لا بالزائل الفانى ولذلك فهو حسبهم كما قال:﴿ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ﴾ [الطلاق: ٣].

ومناسبة التوكل بالذات للغرض، وهو ذكر الأنفال أن المؤمنين كما تعلموا أن يكون مقصدهم رضا ربهم وطاعته لا شيء غيره من أمور الدنيا وحظوظ النفس، فهم هنا ليتعلموا وليتربوا على أن التوكل على الله على لا الأنفال والغنائم وغيرها وهو المطلوب، وأن الاعتماد على شيء من ذلك ينافى هذا التوكل فلا يعتمد المرء على ماله ولا قوته ولا حسبه ولا نسبه ولا عقله، ولا جاهه وسلطانه، ولا على خلق يقومون بشيء له من ذلك: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلاً ﴾ [النساء: ٨١]، ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَيِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ﴾ [الفرقان: ٥٨].

ومن ثم كان تقديم الجار والمجرور فى قوله:﴿ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ [الأنفال: ٢]، للاهتمام باسم الله تعالى وذكر الربوبية المضاف إلى ضميرهم لاظهار شرف ذلك، المحب لعباده عليه يكون تمام التوكل وفى الآية تعريض بالمشركين الذين يتوكلون على أصنامهم:﴿ وَٱتَّخَذُواْ مِن

دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُواْ لَهُمْ عِزًّا ﴿٨١﴾ ﴾ [مريم: ٨١]، ومن ثم كانت مدحاً للمؤمنين وتحذيراً لهم أن يبقى شيء فى قلوبهم من آثار التعلق بما نهوا عنه، لتوهم البعض أنهم إذا فوتوه فقد أضاعوا خيراً من الدنيا.

ومناسبة التوكل مع قضية الأنفال أنهم أمروا بالتخلى عن الأنفال، والرضا بقسمة رسول الله ﷺ فمن كان حرم، فلا يحزنه ولا يفت فى عضده، وليستصغر ذلك أمام توكله على الله، والذى سيعوضه أفضل منه وأعظم.[1]

إن الصور التى جاءت بها السير بعد ذلك للصحابة ومن تبعهم بإحسان لتؤكد أشد التأكيد على هذا الوصف، وتحققهم به، حيث كانوا يواجهون أعداءهم بقلة العدد والعدة والزاد والخروج إلى عدوهم وما كانوا ينكثون أو يتراجعون رائدهم فى ذلك التوكل على الله تعالى، ولا أظن أن التاريخ سجل لهم موقعة صغيرة أو كبيرة كانوا فيها أكثر عدداً أو أوفر عدة وزاداً. من مواجيههم.

﴿ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ ﴾ [الأنفال: ٣].

وصفهم هنا بالمحافظة على ركنى الإيمان الأهمين الصلاة والزكاة، وهو مدح منفصل عن السابق؛ لأن اعادة الموصول هنا للدلالة على الانتقال فى وصفهم إلى غرض آخر غير الذى جيء بالموصول الأول لأجله[2]، وكأن إقامة الصلاة والإنفاق مما يمدح به كل أحد، وهو لهؤلاء مما يزدادون به مدحاً عن غيرهم لتقدمهم فى صفات الإيمان وعلوها.

جمعت هذه المادح والأوصاف الحسنة مكارم الاعمال القلبية الباطنة من الخشية

1- انظر الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير(٩/ ٢٥٩).

2 - انظر الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير(٩/ ٢٦٠).

والإخلاص والتوكل، ومحاسن الأعمال القالبية الظاهرة من الصلاة والصدقة(1)، فلا جرم كانوا أحرياء بأن يكونوا هم المؤمنين حقاً. كما ختمت الآيات بذلك، لتشتد فى التأكيد على صفات المؤمنين؛ التى ينبغى ألا يفرطوا فيها ظاهراً أوباطناً ، سراً وعلانية، ببيان ثوابهم عند الله: ﴿ لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾ [الأنفال: ٤].

لا شك كان ذلك كله العون والمدد على تحقيق أهداف الرسالة، وإعادة صياغة هؤلاء المؤمنين، وتنبيهاً على ما يجب أن يكون، وتحذيراً من مخالفته فيما سيكون، ثم بدأ القرآن الكريم بعد هذا النمهيد الضخم، فى قص سيرة بدر، موزعاً فى تضاعيفها ذلك التمهيد الضخم بما يتناسب مع كل مشهد منها فى سياقات بصياغات جديدة غير متكررة من الفهم والشحن والاصلاح والاعداد، ونبدأ فى أول المشاهد التى قصها القرآن وهى قوله تعالى: ﴿كَمَآ أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيْتِكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ ۝ يُجَٰدِلُونَكَ فِى ٱلْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ ۝﴾ [الأنفال: ٥-٦].

وبالتأمل فى هذه الآيات نرى إجمالاً هذه الامور:

١ - أن الله سبحانه هو الذى أخرج النبى ﷺ من بيته من المدينة، أو من المدينة محاطاً متلبساً بالحق فى هذا الخروج، فلم يكن ليأمر ربه ليخرج بغير حق، لنعلم أن العير أو النفير التى أخرج النبى ﷺ لملاقاتها كان محقاً تمام الحق فى ذلك ولو كره المستشرقون الذين ذكروا باطلهم بأن خروجه لقطع الطرق وغيرها من قبيح الأوصاف المخالفة للواقع.

٢- أن فريقاً من المؤمنين كرهوا الخروج لملاقاة جيش قريش (النفير)، لنفرة الطباع عن القتال أو لعدم الاستعداد لملاقاة الكفار، وهذا عن الصحابة بعد البذل

---

1 - انظر أبا السعود، ارشاد العقل السليم(٢/ ٣٤٢)، والالوسى، روح المعانى(٦/ ٢٤٢)، وغيرها.

والتضحية منهم يدل على أنه ليس داخلاً تحت الاختيار؛ فلا ينتقص من منصبهم وقدرهم، لأنهم هم الذين واصلوا إلى النهاية حتى نصرهم الله تعالى.

٣- ذكرت الآيات كذلك جدالاً من هؤلاء الكارهين للقتال والذى سماه المولى سبحانه وتعالى:﴿ٱلۡحَقِّ﴾، فمتى علموا أنه الحق أى الخروج لملاقاة النفير؟ لا شك قد بين لهم الرسول ﷺ بأن الحق فى ملاقاتهم للنفير وبأنهم سينصرون.

٤- ما زالت النوازع الانسانية فى مثل هذا الحال الذى لا يظن، بل لا يتخيل معه النصر لأنهم لم يتخذوا أسبابه تهتف بهم أن ذلك ليس إلا سوقاً إلى الموت.

ونحلل ما ذكرنا من الآيات الكريمات، فنجد..

أن الكاف فى قوله:﴿كَمَآ أَخۡرَجَكَ﴾، للتشبيه وهو تشبيه حال بحال متصل بها قبله، وهو بتقدير مبتدأ محذوف هو اسم إشارة لما قبله تقديره: هذا حال بحال ما أخرجك ربك من بيتك بالحق، ووجه الشبه هو كراهية المؤمنين فى باديء الأمر لما هو خير لهم فى الواقع[1]، سواء الأنفال أو ملاقاة النفير.

والمعنى أن الله أمره بالخروج إلى المشركين ببدر أمراً موافقاً للمصلحة فى حال كراهة فريق من المؤمنين ذلك الخروج.

وقد أشار هذا الكلام إلى خروج النبى ﷺ موضحاً السبب، وهو أن أبا سفيان بن حرب قد عاد من الشام بعير قريش وفيها أموال عظيمة ندب النبى ﷺ المسلمين إلى الخروج إليها، لعل الله أن ينفلها إياهم تعويضاً بشيء مما سلبه المشركون من أموال المسلمين

---

1 - وهناك غير ذلك من الأوجه، حيث ذكرنا أولاها انظر الفخر الرازى، التفسير الكبير(٧/ ٤٤٥)، أبا السعود، ارشاد العقل السليم(٢/ ٣٤٣)، الالوسى، روح المعانى(٦/ ٢٤٥-٢٤٦)، والطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير(٩/ ٢٦٣-٢٦٤).

ودورهم وأراضيهم، وإعاقه وحصاراً للمشركين عن الاستمرار فى اعتداءاتهم على المسلمين ومع أن أبا سفيان قد سلك الساحل ونجا فإن جيش الكفار بقيادة أبى جهل أبى إلا الاستمرار فى المسير لملاقاة رسول الله ﷺ بعنجهية وغطرسة ذكرتها السيرة، وما كان رسول الله ﷺ ليتراجع حينئذ أمام جيش الكفار، إن ذلك وحده هزيمة وإعلاء لراية الكفر وفيه ما فيه من تجرؤ كل أحد على المسلمين، إذ كانت القبائل تنتظر ما هى قريش فاعلة مع النبى ﷺ، كان متساوقاً مع السياق أن يكون الخروج إليهم هو الحق كما ذكر الله تعالى، خاصة إذا وعدهم النصر، لذلك كان التعجيب من موقف الكراهة هذا لأن تأكيد خبر كراهية فريق من المؤمنين بإن ولام الابتداء مستعمل فى التعجيب من شأنهم بتنزيل السامع غير المنكر لوقوع الخبر منزلة المنكر؛ لأن وقوع ذلك مما شأنه ألا يقع، إذ كان الشأن اتباع ما يحبه الرسول ﷺ، أو التفويض إليه، وما كان ينبغى لهم أن يكرهوا لقاء العدو، فكان تأكيد الخبر كناية من التعجيب بخبرهم[1]، وهذا أحد الدروس المستفادة التى ألقاها القرآن الكريم على أسماع المؤمنين، كيف يقابلون أوامر الرسول وما يحبه وما يشير به مما نزل به قرآن، أو لم ينزل اكتفاء برأيه ﷺ المؤيد من عند الله تعالى، ليسارعوا إليه ويعجلوا إلى تنفيذه، وسنذكر الإشارة القرآنية بعد قليل فى ذلك إن شاء الله تعالى.

أما قوله:﴿ يُجَـٰدِلُونَكَ فِى ٱلْحَقِّ ﴾ [الأنفال: ٦]، إما جملة مستأنفة، أو هى حال ثانية أى: أخرجك فى حال مجادلتهم إياك، أو هى حال من الضمير فى قوله:﴿ لَكَـٰرِهُونَ ﴾، وصيغة المضارع لحكاية الحال كما لو كان حاضراً لزيادة التعجيب منها كما فى قوله تعالى:﴿ يُجَـٰدِلُنَا فِى قَوْمِ لُوطٍ ﴾ [هود: ٧٤]، ولم يقل جادلنا خرجوا إذن والطريق طويل والجدال متجدد متكرر يعجب منه السامع، خاصة بعدما تبين لهم الحق كما ذكرنا باعلام النبى أنهم ينصرون، وهم ما زالوا يقولون هلا ذكرت لنا النفير والقتال حتى نتأهب ونستعد لذا جاء قوله تعالى:﴿ بَعْدَ

1 - انظر الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير(٩/ ٢٦٦-٢٦٧).

مَا تَبَيَّنَ ﴾ [الأنفال: ٦]، كأنه لوم لهم على المجادلة فى هذا الخروج للنفير وترك العير والمتفحص يجد سبب اللوم أن الرسول ﷺ قد أخبرهم بوعد الله لهم بالعير أو بالنصر على النفير فها قد مضت العير وأفلتت وجاء النفير، فهذا الحق بين بذاته إذا سواء شعر به كلهم أو بعضهم بأنهم منتصرون لا محالة؛ بحيث لا ينبغى الاختلاف فيه، فقد كانوا عرباً أذكياء، وكانوا مؤمنين أصفياء، ورأوا كراهة النبى ﷺ لما اختاروا العير، فكان ذلك كافياً فى اليقين بأنهم إذا لقوا المشركين ينتصرون عليهم بلا أدنى ريب.

ولم يترك القرآن الكريم تصوير حالهم، وهم سائرون إلى القتال بغير أهبة يظنونه الموت الذى تتخيله النفوس ببشاعة وكرب فتكرهه فشبه حالهم فى قوله:﴿ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلْمَوْتِ ﴾ [الأنفال: ٦]، بحال من يجادل ويمانع من يسوقه إلى الموت:﴿ وَهُمْ يَنظُرُونَ ﴾ [الأنفال: ٦]، أى إلى الموت المساقين إليه، لأن حالة الخوف من الشيء المسوق إليه تكون أشد عندما يكون منظوراً فما الظن بالموت.[1]

ويأتى الأن مكان الاشارة التى أرجأناها، وهى فى قوله تعالى:﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾ [الأنفال: ٢٤]، فبعد أن انتهت المعركة، وتبين لهم الحق على أرض الواقع وانتصروا، جاء خطاب الله لهم بأنه ما دعاهم للموت حين دعاهم للخروج بل دعاهم للعكس دعاهم لما فيه حياتهم فى الأولى والآخرة، إذ من طبيعة الاستجابة لله تعالى، ولرسوله ﷺ وعاقبتها الحياةُ الحسنى، وإن استشهدوا فيها فقد حصلوا أحدى الحسنيين أو أجلهما وأعظمهما :﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ ﴾ [آل عمران: ١٦٩]، وليكن شعارهم بعد أن رأوا النتيجة رأى العين هو الحياة فى الاستجابة لله ولرسوله ﷺ إنها دعوة إلى الحياة بكل صور الحياة الحقة، وبكل معانى الحياة

---

١ - انظر أبا السعود، إرشاد العقل السليم(٢/ ٣٤٤)، الالوسى، روح المعانى(٦/ ٢٤٨)، الطاهر بن عاشور(٩/ ٢٥٧- ٢٥٨).

الحقة لأنها من الله ورسوله ﷺ.

ما زال القرآن الكريم يقص علينا مشهد الخروج إلى غزوة بدر، لنرى أمر الله تعالى وشأنه وتدبيره هو المحيط بالمؤمنين وبكل شيء من أوله إلى يوم يلقونه، وليروا ترتيب الله تعالى وإرادته الذى لا ترتيب مثله، ولا راد لإرادته، وأنهم مهما حاولوا أن يمهدوا ويوطدوا ويرتبوا لأنفسهم ما فعل من ترتيبه مثقال ذرة، ولو اطلعوا على الغيب لما اختاروا غيره، وقد نطق واقع النصر بخلاف ما ذهبوا إليه وتشوفوا له ورنت إليه قلوبهم وأبصارهم، جاءت الآيتان التاليتان ليؤكدا ويوضحا السابق، ثم يتحدد هدف المعركة الذى قصد إليه الشارع الحكيم فيقول تعالى:﴿ وَإِذۡ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحۡدَى ٱلطَّآئِفَتَيۡنِ أَنَّهَا لَكُمۡ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيۡرَ ذَاتِ ٱلشَّوۡكَةِ تَكُونُ لَكُمۡ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلۡحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقۡطَعَ دَابِرَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ۝٧ لِيُحِقَّ ٱلۡحَقَّ وَيُبۡطِلَ ٱلۡبَٰطِلَ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُجۡرِمُونَ ۝٨ ﴾ [الأنفال: ٧-٨].

﴿ وَإِذۡ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحۡدَى ٱلطَّآئِفَتَيۡنِ ﴾ [الأنفال: ٧]، وهذا كلام مستأنف مسوق لبيان جميل صنع الله بالمؤمنين مع ما بهم مما ذكر عن بعضهم، يبين أنه وعدهم إحدى الجماعتين من المشركين العير أو النفير، و﴿ وَإِذۡ ﴾، منصوب على المفعولية بمضمر إن كان متصرفاً أو ظرف لمفعول ذلك الفعل يعنى واذكروا وقت وعد الله إياكم إحدى الطائفتيين والتذكير بهذا الوقت تذكير بما وقع فيه من الحوادث بتفاصيلها وذكر بالمضارع ليكون حاضراً مفصلاً كأنه مشاهد عياناً[1]، نذكرهم فيه بعدم ظنهم النصر، وأنهم كذا وكذا مما ذكرنا فكيف بكم الآن من بديع أحكام الله تعالى وتقديره.

وقد وعدكم أن إحدى الطائفتين كائنة لكم مختصة بكم تتصرفون فيها كيف شئتم،

1 - هذا ما ذهب إليه معظم كالزمخشرى، الكشاف()، والفخر الرازى، التفسير الكبير(٧/ ٤٤٨)، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم(٢/ ٣٤٤)، والالوسى(٦/ ٢٤٨)، وذهب الطاهر بن عاشور مذهباً آخر(٩/ ٢٦٩)، وإلى ما ذهب إليه المعظم حيث موافقة اللغة، وهناك مذاهب أخرى، انظر بن عاشور أيضاً(٩/ ٢٦٩).

وتحبون أن تكون لكم العير، الطائفة التى لا شوكة فيها، أى لا بأس لها، ترى ماذا لو تحقق لكم ذلك أكان أولى، أم ما أراده الله وتعلقت به مشيئته هو الأولى الذى ظهرت لكم علله وحكمه[1].

وهذه العلل وهى أهداف المعركة الرئيسية:

١ - أن الله يريد أن يحق الحق بكلماته.

٢- أن يقطع دابر الكافرين.

٣- أن يحق الحق ويبطل الباطل ولو كره المجرمون.

ونقل كلاماً عن سيد قطب لنفاسته فيقول رحمه الله ما حاصله لقد أراد الله تعالى - وله الفضل والمنة - أن تكون ملحمة لا غنيمة، وأن تكون موقعة بين الحق والباطل ليحق الحق ويثبته، ويبطل الباطل ويزهقه. وأراد أن يقطع دابر الكافرين فيقتل منهم من يقتل ويؤسر منهم من يؤسر، وتذل كبرياؤهم، وتخضد شوكتهم وتعلو راية الإسلام وكلمته، ويمكن الله تعالى للعصبة المؤمنة التى تعيش بمنهج الله، وتنطلق به لتقرير ألوهية الله تعالى فى الأرض، وأراد أن يكون هذا التمكين عن استحقاق لا عن جزاف بالجهد والجهاد وتكاليفه معاناتها فى عالم الواقع فى ميدان القتال.

لقد أراد الله تعالى للجماعة المسلمة أن تصبح أمة وأن تصبح دولة لها قوتها وسلطانها، وأراد لها أن تقيس قوتها الحقيقية إلى قوة أعدائها فترجح ببعض قوتها على قوة أعدائها، وأن تعلم أن النصر ليس بالعدد والعدة، وليس بالمال والخيل والزاد إنما هو بمقدار ما تحصل بإيمانها من قوة الله تعالى التى لا تقف لها قوة، وأن يحدث ذلك فى الواقع الشاهد لا يكون

---

1 - انظر أبا السعود، إرشاد العقل السليم(٢/ ٣٤٥)، والالوسى، روح المعانى(٦/ ٢٤٨).

مجرد تصور قلبى واعتقادى لتتزود منه الأمة المسلمة الزاد المقنع الذى لا شك فيه لواقعها ومستقبلها.... إلى أن يقول: ولتوقن كل عصبة مسلمة أنها تملك ما تهزم وتغلب خصومها وأعداءها مهما تكن من القلة والعدة المادية ومهما كان أعداؤها بالكثرة والاستعداد والعتاد، ما كانت هذه الحقائق لتستقر كما استقرت بالمعركة الفاصلة بين قوة الإيمان وقوى الطغيان.

وينظر الناظر اليوم وبعد اليوم ليرى الآماد المتطاولة بين ما أرادته الجماعة المؤمنة لنفسها يومذاك وما أراده الله لها، بين ما حسبته خيراً لها وبين ما قدره الله لها من الخير، وكم يخطيء الناس حين يحسبون أنهم قادرون على أن يختاروا لأنفسهم خيراً مما اختاره الله لهم، وحين يتضررون مما يريده الله لهم مما قد يعرضهم لبعض الخطر أو يصيبهم بشيء من الأذى بينما يكمن وراءه الخير الذى لا يخطر لهم ببال ولا بخيال.

وهذا كفيل بالرد على كل كلام أثاره المرجفون المبشرون من المستشرقين وغير المبشرين منهم على غزوات الرسول جميعاً فضلاً عن سيرته العطرة، إننا نسبق الكلام لنقول ذلك لأنه لن يبقى بعد ذلك مجال للرد على وات.

ونستأنف كلاماً أخيراً فى هذه الجزئية لسيد قطب حيث يقول: فأين ما أرادته العصبة المسلمة مما أراده الله لها..؟ لقد كانت تمضى - لو كانت لهم غير ذات الشوكة - قصة غنيمة. قصة قوم أغاروا على قافلة فغنموها! فأما بدر فقد مضت فى التاريخ كله قصة عقيدة قصة نصر حاسم وفرقان بين الحق والباطل. قصة انتصار الحق على أعدائه المدججين بالسلاح المزودين بكل زاد والحق فى قلة من العدد وضعف فى الزاد والراحلة. قصة انتصار القلوب حين تتصل بالله، وحين تتخلص من ضعفها الذاتى. بل قصة انتصار حفنة من القلوب الثابتة المستعلية على الواقع المادى، وبيقينها فى حقيقة القوى وصحة موازينها، قد انتصرت

على نفسها، وخاضت المعركة، والكفة راجحة رجحاناً ظاهراً فى جانب الباطل، فقلبت بيقينها ميزان الظاهر، فإذا الحق ظاهر غالب[1].

ونعود إلى تكملة تحليل الآية، حيث ذكرت أهداف المعركة الثلاثة من الوجهة القرآنية، التى تدل بإشارتها إلى معان أخر تحملها تلك الأهداف:

أول أهداف المعركة: هو أن الله تعالى يريد أن يحق الحق بكلماته، يعنى تعلقت إرادة الله هنا بتثبيت الحق وتدعيمه وشد أساساته وأركانه، فلا يتزعزع ولا ينكسر، بل يقوى ويستقر والحق هنا هو دين الحق أى الإسلام، وقد أطلق عليه الحق فى مواضع كثيرة من القرآن الكريم، كقوله:﴿ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ ﴾ [الزخرف: ٢٩]، وإن إحقاق الحق باستئصال معانديه، أنتم تريدون نفعاً عاجلاً قليلاً، وأراد الله نفعاً عظيماً فى العاجل والآجل، وذلك كله بكلماته، بسبب كلماته، مثل آيات القرآن النازلة فى قتال الكفار، وما أمر به الملائكة من نصرة المسلمين يوم بدر وغير ذلك مما هيأ به للمعركة سبحانه شرعاً وقدراً، وكلماته سبحانه وتعالى لا تتخلف كما فى قوله:﴿ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُواْ كَلَـٰمَ ٱللَّهِ ۚ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبْلُ ﴾ [الفتح: ١٥].

الهدف الثانى: هو قطع دابر الكافرين، وهو إزالتهم حتى لا يبقى فى مؤخرتهم أحد من ورائهم وإن ذلك لتخضيد لشوكتهم، وإظهار أمر المسلمين ورفع شأن الإسلام، وما يكون فيه المسلمون من أمن واطمئنان بال، وإن حرمهم الغنى العارض، إذ كانوا يحسبون أنهم لا يستطيعون هزيمة عدوهم، إن فى ذلك سمو رتبة الدين وعلو كلمة الحق، وهذا ما تحقق للمسلمين بعد بدر، وهم راجعون لا يصدق مسلم ولا يهودى ولا وثنى أنهم انتصروا لقد قلبت الموازين والحسابات، وتغيرت المواقف والأوضاع، ودخل الإسلام

---

1 - انظر سيد قطب، فى ظلال القرآن(٢/ ١٤٨١-١٤٨٢).

مرحلة جديدة يحسب لها حسابها، بحيث جاءت أحد والخندق بكل أعداء الداخل والخارج توقعاً لقوة المسلمين الفتية وأدائهم القوى فى ظاهر الأمر.

لم تكن أهداف المسلمين إذا عند معركتهم وبعد نزول القرآن الكريم بتحديد تلك الأهداف كما ادعى المستشرقون، بل التطلع المادى، قد حسم قبل المعركة بكلمات الله التى بين لهم بعد المعركة.

الهدف الثالث:﴿ لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ وَيُبْطِلَ ٱلْبَـٰطِلَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٨﴾ ﴾ [الأنفال: ٨].

واللام هنا للتعليل وهى متعلق بقوله:﴿ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَـٰتِهِۦ ﴾ [الأنفال: ٧]، أى أراد ذلك وكون أسبابه بكلماته لأجل تحقيقه الحق وإبطاله الباطل، وأفاد التعليل هنا معنى الحصر، أى ما فعل إلا لذات الفعل لهذه الغاية الجليلة لا لشيء آخر، ولا لغرض آخر، وقد سيقت الآية لبيان الحكمة الداعية إلى اختيار ذات الشوكة ونصرهم عليها، مع إرادتهم لغيرها، فلا يكون تكرار، إذ الأول لبيان تفاوت ما بين الإرادتين، وهذا لبيان الحكمة الداعية إلى ما ذكر.[1]

والحق هو حق من قبل ومن بعد وكذا الباطل، ومعنى يحق الحق إذا هو اظهار حقيقته، فيشتهر ويرتفع ذكره لا جعله حقاً بعد أن لم يكن، وكذا الباطل وهذا فى التعبير القرآنى المجيد توكيد أيضاً لإحقاق الحق بنفى ضده وهو إبطال الباطل؛ لأن احقاق الحق من لوازمه إبطال الباطل، كما قال تعالى:﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَـٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ﴾ [الأنبياء: ٢١]، لأنه لما كان الباطل ضد الحق لزم من ثبوت أحدهما انتفاء الآخر، فصار كل ذلك لتوكيد احقاق الحق، كما فى قوله تعالى:﴿ قَدْ ضَلُّوا۟ وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ ﴾ [الأنعام: ١٤٠].

---

1 - انظر أبا السعود، إرشاد العقل السليم(٢/ ٣٤٥)، والألوسى، روح المعانى(٦/ ٢٤٩)، الرازى، التفسير الكبير(٧/ ٤٤٨-٤٤٩)، الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير(٩/ ٢٧٠-٢٧٣).

وعلى كراهة من المجرمين لذلك فعل الله ما فعل بهم، إذ هم المشركون المكذبون، ولا شك أنه لا يقصد بالكراهة مجرد الكراهة القلبية، حتى تكون تلك المبالغ الضخمة فى تلك التراتيب الإلهية للمعركة، ولكن الكراهة هنا كناية عن الاستعداد على قدم وساق لاستكمال محاربة الدعوة وقتل نبيها وتشتيت أهلها وفتنتهم عن دينهم إلى آخر ذلك من المقاومة والاستعداد، ومن ثم كان المشركون بكراهتهم أى بكل ما أوتوا يريدون إظهار الباطل وإحقاقه، وما من بد حينئذ أن تنفذ إرادة الله جل وعلا مهما كانوا[1]، وتنقلب الكفة عليهم بجنده الأقل فى كل شيء ليحق الحق ويبطل الباطل ولو فعل المجرمون فى الأرض ما استطاعوا والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون.

كان درساً ممتازاً لأهل الإيمان فى كل زمان ومكان تحصله العصبة المؤمنة ليزداد يقينها بالله، وحسن توكلها عليه، وثقتها فى دينها ورسولها ﷺ؛ لتعود رايتها مرتفعة ونورها منتشرا يحمل العدل والحق والمساواة، يحمل الدينونة لله تعالى.

وما زلنا سائرين مع السيرة القرآنية تقص لنا سيرة بدر لنقارن ونحلل بما ورد فى الواقع لا لنجمع الأحداث لاستنباط المطلوب، وللتزود بوقود الإيمان الذى لا يخبو ولا يغيض، لتندفع قاطرة الحق حتى تبلغ مداها، فنصل إلى قوله تعالى:﴿ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴿٩﴾ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾ ﴾ [الأنفال: ٩-١٠].

مضى السياق هنا بعد تحديد أهداف المعركة، وكل معركة، مع توجيهات فى كل موقعة جديدة تستوحيها ظروفها وما يحيط بها، فى استحضار جو بدر وملابساتها ومواقفها، والتعبير القرآنى المتميز يعيد تمثيل المشهد بمواقفه وحوادثه وانفعالاته وخفقاته ليعيشوه

1 - الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير(٩/ ٢٧٣).

مرة أخرى، معايشة التأمل والعبرة والاتعاظ والتأهل لما هو آت - معايشة الشكر لله تعالى والمحافظة على أسباب النصر والتزود منها - معايشة نقل ذلك والتحرك به لمن بعدهم من المؤمنين المتقين، معايشة الثبات على الإسلام والتعلق بالله والثقة فى أن النصر من عنده هو سبحانه، ومعايشة الرؤية الحقيقية لابعاد الموقف التى تتجاوز بدراً والجزيرة والعالم كله لتربط الأرض بالسماء والدنيا بالآخرة، ليروا قيمة أقدارهم وأعمالهم فى ميزانهم يوم القيامة.

ونلاحظ على الآيتين ما يلى:

١ - تقدم ذكر الاستغاثة بعد أن ذكر كراهة بعض المؤمنين لقتال لم يستعدوا له، وبعد أن نبأهم بتصحيح أهدافهم من المعركة إلى الأهداف العليا، خاصة بعد ما اختار لهم ذات الشوكة لتكون لهم.

وقد علمنا من السنة الشريفة أن الاستغاثة جاءت متأخرة عندما التقى الفريقان، ونظر النبى ﷺ إلى قلة عدد المؤمنين وزادهم ورحلهم بالإضافة إلى الكفرة فأخذ يستغيث بالله تعالى ويناشده نصره الذى وعده، ويبدو أن هذا التقديم له حكمته فى أن تكون استغاثة المؤمنين أولاً بالله تعالى فى تحقيق النصر، لا بالنظر إلى قوتهم وعدتهم، إذ لا ينفعهم ذلك عندما يرفع الله عنهم عنايته ونصره، مهما كانوا فى نهاية القوة وغاية البأس، لذا قال تعالى بعد ذلك فى غزوة حنين مذكراً لهم تذكيراً عملياً كالمعتاد فى تربية الله تعالى أوليائه المتقين وجنده المخلصين:﴿ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ ۙ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴾ [التوبة: ٢٥]، لذا أعقب هذا الآيات الكريمات التى نحن بصددها بقوله:﴿ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [الأنفال: ١٠]، فكان تقديم الاستغاثة بالله واللجوء إلى نصره بعد تقديم الأسباب كافة هو العامل المقدم فى النصر.

٢- وكذلك قدمت الآيات الكريمات ذكر الملائكة مع أنهم جاءوا مردفين للمؤمنين عندما ألتقى الصفان، ذلك لحكمة أيضاً ولعلها فى الأمور التالية:

الأول: أن الاستغاثة بالله وتقديمها تعنى على الفور غوث الله تعالى بالمدد الذى لا يهزم حتى لا ينسى المؤمنين ذلك أو يغفلوا عنه.

الثانى: أن تقديم الملائكة يدلهم على نزول السكينة ورباطة الجأش والثبات عن الملاقاة فيدخلون المعركة وهم مستعدون الاستعداد التام للمواجهة، لا يهمهم من عدوهم كثرة ولا أبهة ولا سلاح، بل هم صامدون حتى إحدى الحسنيين، لا يهولهم شيء ولا يكبر عليهم شيء، فلا يزلزل الخوف والرعب - كائناً من كان عدوهم - شيئاً من أفئدتهم ولا من أمن روعاتهم، علاوة على البشارة بالنصر، الذى يجعلهم فى نهاية التصميم عليه والمسارعة إليه.

الثالث: الاستجابة الفورية بفاء التعقيب من الله تعالى لهم، ليكون عنواناً لهم وللمؤمنين فى كل زمان ومكان على نزول مدد الله عليهم، وظهور تباشير النصر، وما تكون استجابة الله لهم إلا بعد استجابتهم له:﴿ فَلْيَسْتَجِيبُواْ لِى ﴾ [البقرة: ١٨٦]، بتحقيق أسباب النصر ظاهراً وباطناً، مادياً ومعنوياً، حتى إذا وقفت بهم الأسباب جاءت قدرته وقوته ومدده الذى لا يقهر وفعله وترتيبه الذى لا يغالب وهو من دروس المؤمنين اليوم.

ونعود إلى تحليل الآيتين الكريمتين لهذا المشهد العظيم..

ذكر المفسرون لقوله تعالى:﴿ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ ﴾ [الأنفال: ٩]، تعلقات كثيرة[1]، ونقتصر على كلام ابن عاشور لتوضيحه للواقع وموافقته له فنختصره حيث يقول: يتعلق ظرف: ﴿ إِذْ

1 - فذكر بعضهم أنها بدل من:﴿ وَإِذْ يَعِدُكُمُ ﴾، معمول لعامله، انظر أبا السعود، إرشاد العقل السليم(٢/ ٣٤٥)، الالوسى، روح البيان(٦/ ٢٤٩-٢٥٠)، وكأنه كلام أبى السعود بنصه، وانظر الفخر الرازى، التفسير الكبير(٧/ ٤٥٠)، وجعل العامل فى إذ﴿ وَيُبْطِلَ ٱلْبَٰطِلَ ﴾ .

تَسۡتَغِيثُونَ رَبَّكُمۡ ﴾، بفعل يريده الله، إذ إرادة الله مستمر تعلقها بأزمنة من إرادته إحقاق الحق حتى النصر ونهاية بدر، فكانت استجابة الله لهم بإمدادهم بالملائكة من مظاهر إرادته تحقيق الحق، وإذ كانوا بينهم وبين إرادة الله أن يحق الحق مدة من الزمان، فقد اقترن ببعضها على امتداد تلك المدة كما ذكرنا فصح تعليق ظرف الاستغاثة بفعلها.[1]

وعبر بالمضارع لاستحضار هذه الصورة العجيبة[2]، من الماضى لتكون محل العبرة وعبر بضمير الجماعة وأريد به النبى ﷺ فيكون الجمع للتعظيم، أو لأنه كان يدعو ﷺ لأجلهم معلناً بدعائه وهم يسمعون، فهم بحال من يدعون، أو أن المسلمين أنفسهم كذلك كانوا يستغيثون ويدعون فصح إطلاق الجمع على الجميع.[3]

﴿ فَٱسۡتَجَابَ لَكُمۡ ﴾ [الأنفال: ٩]، لما كانت الاستغاثة طلب الغوث، وهو الإعانة على رفع الشدة والمشقة وكانوا فى ذلك يومئذ، دعوا بطلب النصر لرفع ما هم فيه، فاستجاب لهم، بإجابة دعائهم عقيب الاستغاثة كما تفيده الفاء ولكن على أتم وجه لأن الاستجابة تدل على قبول الطلب والسين والتاء للمبالغة فى تحقيق المطلوب.

وقد جاءت الاستجابة بكلام من الله هو: ﴿ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلۡفٖ مِّنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ مُرۡدِفِينَ ﴾ [الأنفال: ٩]، أى بأنى ممدكم، أى معينكم وناصركم والتأكيد للاعتناء بشأن الخبر.

والإرداف الإتباع والإلحاق؛ فيكون الوعد بألف وبغيرها على ما هو متعارف عندهم من إعداد نجدة للجيش عند الحاجة تكون لهم مدداً، وذلك أن الله أمدهم بآلاف من الملائكة بلغوا خمسة آلاف كما ورد فى سورة آل عمران، وهم مردفين بألفين، فتلك خمسة

1 - الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير(٩/ ٢٧٣-٢٧٤).

2 - أبا السعود، إرشاد العقل السليم(٢/ ٣٤٥)، الألوسى، روح المعانى(٦/ ٢٥٠).

3 - الفخر الرازى، التفسير الكبير(٧/ ٤٥٠-٤٥١)، أبا السعود، إرشاد العقل السليم(٢/ ٣٤٥-٣٤٦)، الألوسى، روح المعانى(٦/ ٢٥٠)، الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير(٩/ ٢٧٣-٢٧٤).

آلاف، وكانت عادتهم فى الحرب إذا كان الجيش عظيماً أن يبعثوا طائفة منه ثم يعقبوها بأخرى؛ لأن ذلك أرهب للعدو.

وكان حلول الملائكة فى المسلمين بكيفية يعلمها الله تعالى، فيراهم من أكرمه الله برؤيتهم أو بإراءة الله الناس ما ليس من شأنه أن يرى عادة.[1]

وما كان إمداد المؤمنين بالملائكة إلا ليبشرهم، وإلا فقد كان يكفيهم أن يضمن لهم النصر دون أن يبين أنه بإمداد من الملائكة.

وأما فائدة التبشير بإمداد الملائكة فيقول الطاهر بن عاشور:«يوم بدر كان فى أول يوم لقى فيه المسلمون عدواً قوياً وجيشاً عديداً، فبشرهم الله بكيفية النصر الذى ضمنه لهم بأنه بجيش من الملائكة، لأن النفوس أميل إلى المحسوسات، فالنصر معنى من المعانى يدق إدراكه سكون النفس لتصوره بخلاف الصور المحسوسة من تصوير مدد الملائكة ورؤية أشكال بعضهم.»[2]

وأما قوله تعالى:﴿ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِۦ قُلُوبُكُمْ ﴾ [الأنفال: ١٠]، كلام مستأنف لبيان أن المؤثر الحقيقى هو الله جل وعلا، ليثق به المؤمنون ولا يقنطوا من النصر عند فقدان أسبابه، وما جعل إمدادكم بهم بشيء من الأشياء إلا بشارة لكم بأنكم تنصرون، ﴿ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِۦ قُلُوبُكُمْ ﴾، وتسكن إليه نفوسكم وتزول عنكم الوسوسة. وفى الآية إشعار بأن الملائكة لم يباشروا قتالاً وهو مذهب بعضهم، ويشع ظاهرها بأن النبى ﷺ أخبرهم بذلك الإمداد وفى

---

1 - انظر لما سبق الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير(٩/ ٢٧٥-٢٧٦)، الزمخشرى، الكشاف(٢/ ١١٦-١١٧)، وأبا السعود، إرشاد العقل السليم(٢/ ٣٤٦-٣٤٧)، والألوسى، روح المعانى(٦/ ٢٥٠-٢٥١)ن الطبرى، جامع البيان(٩/ ١٢٦-١٢٧).

2 - ابن عاشور، التحرير والتنوير(٩/ ٢٧٦).

الأخبار ما يؤيده، بل جاء فى غير ما خبر أن الصحابة رأوا الملائكة عليهم السلام.[1]

وبعد أن بشرهم بنزول الملائكة، وطمأن قلوبهم بالنصر، أكد لهم مرة أخرى على التعلق بالله تعالى وأنه خالق الأسباب، وأن كل شيء منه، فلا يركنوا إلا إليه ولا يتوكلوا إلا عليه فى النصر وفى تحقيق كل أمورهم وتيسيرها فقال:﴿ وَمَا ٱلنَّصۡرُ إِلَّا مِنۡ عِندِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [الأنفال: ١٠]، أى لا تحسبوا النصر من الملائكة فإن الناصر هو الله لكم وللملائكة، أو وما النصر بالملائكة وغيرهم من الأسباب إلا من عند الله، والمنصور من نصره الله تعالى، وختمت الآية الكريمة بقوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾، بصيغة الخبر المؤكد فنزل المخاطبين منزلة من يتردد فى أنه تعالى موصوف بهاتين الصفتين، وهما العزة المقتضية أنه إذا وعد بالنصر لم يعجزه شيء. والحكمة فيما يصدر من جانبه يجب غوص الأفهام فى تبين مقتضاه، فكيف لا يهتدون إلى أن الله لما وعدهم الظفر بأحدى الطائفتين، وقد فاتتهم العير أن ذلك آيل إلى الوعد بالظفر بالنفير. وإن كانت الجملة فى نفس الوقت مستأنفة استئنافاً ابتدائياً جعلت كالإخبار بها ليس بمعلوم لهم.[2]

أخرنا الكلام على المعنى الثانى من نزول الملائكة، وهو قتال الملائكة فى بدر مع المؤمنين مناسبة لسياق الأحداث، مع نزول الآية التى تتحدث عنه.

والآن مع المشهد التالى وهو فى قوله تعالى:﴿ إِذۡ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنۡهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيۡكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ وَيُذۡهِبَ عَنكُمۡ رِجۡزَ ٱلشَّيۡطَٰنِ وَلِيَرۡبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمۡ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلۡأَقۡدَامَ ﴿١١﴾﴾ [الأنفال: ١١].

1 - أبا السعود، إرشاد العقل السليم(٢/ ٣٤٦-٣٤٧)، والزمخشرى، الكشاف(٢/ ١١٦-١١٧)، والألوسى، روح المعانى(٦/ ٢٥٢-٢٥٣).

2 - انظر الزمخشرى، الكشاف(٢/ ١١٧)، أبا حيان، البحر المحيط(٥/ ٢٨٠)، الفخر الرازى، التفسير الكبير(٧/ ٤٥٢)، أبا السعود، إرشاد العقل السليم(٢/ ٣٤٦-٣٤٧)، الألوسى، روح البيان(٦/ ٢٥٢-٢٥٣)، الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير(٩/ ٢٧٦-٢٧٧)، الطبرى، جامع البيان(٩/ ١٢٨-١٢٩).

لقد استجاب الله للمؤمنين عندما استغاثوا به، وأعلمهم أن النصر من عنده، فكان حسبهم بعد ذلك أن يبذلوا ما فى طوقهم فلا يستبقوا منه بقية، وأن يغالبوا الهزة الأولى التى أصابت بعضهم فى مواجهة الخطر الواقعى، وأن يمضوا فى طاعة أمر الله، واثقين بنصر الله، كان حسبهم هذا لينتهى دورهم، ويجيء دور قدرة الله التى تصرفهم وتدبرهم، فكانت البشرى المطمئنة تثبيتاً للقلوب فى مواجهة الخطر، وإنه لحسب العصبة المؤمنة أن تشعر أن جند الله معها لتطمئن قلوبها وتثبت فى المعركة، ثم النصر من عند الله وحده، حيث لا يملك النصر غيره.

وهو:«العزيز» القادر الغالب على أمره، وهو:«الحكيم» الذى يحل كل أمر محله.[1]

لقد انتهى دور العصبة المؤمنة فى أخذها بالأسباب، فهلَّ علينا مشهد الاعداد المباشر للقتال وهو اعداد المقاتلين، وتهيئة مسرح العمليات، وهو يصور ما يأتى، جاء المدد الأول من أمداد الله تعالى للعصبة المؤمنة يوم بدر فى هذا المشهد يذكر قصة النعاس الذى غشاهم قبل المعركة فهى قصة حالة نفسية عجيبة، لا تكون إلا بأمر الله وقدره وتدبيره، لقد فزع المسلمون وهم يرون أنفسهم قلة فى مواجهة خطر لم يحسبوا حسابه، فإذا النعاس يغشاهم، ثم يصحون منه والسكينة تغمر نفوسهم، والطمأنينة تفيض على قلوبهم، كان يوم أحد تكرر الفزع، وتكرر النعاس، وتكررت الطمأنينة، كيف تم هذا؟ كيف وقع هذا التحول المفاجيء إنه مدد من أمداد الله تعالى.

وهذا فى الترتيب والمدد التهيئة لأبلغ رد على المستشرقين فى كل سيرته ﷺ من كونها اصطفاء واختياراً وتدبيراً وترتيباً من الله، إذ ذلك كله ليس فى مقدور جميع البشر أن يفعلوه، أو ينزلوه إن كان شيئاً منه فى الظاهر فما بال الباحث بالقلب والطمأنينة وتغشية

---

1 - انظر سيد قطب، فى ظلال القرآن(٣/ ١٤٨٣-١٤٨٤).

النعاس ونزول الملائكة مع إنزال المطر وإجراء تصاريف ليست فى وقتها تخص هذه الفئة المؤمنة.

وإذ قد صحوا من هذا النعاس بهذا المدد الروحى، جاءتهم أمداد أخرى تحيط بهم من الأمداد المادية هى قصة الماء:﴿ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ ﴾ إلى قوله:﴿ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ ﴾ [الأنفال: ١١]، فتم المدد الروحى بالمدد المادى لتسكن القلوب فى هذه الصحراء بوجود الماء، وتطمئن الأرواح بالطهارة وتثبت الأقدام بثبات الأرض وتماسك الرمال.

ونعود لتحليل الآية الكريمة:

يقول الطاهر بن عاشور فى «التحرير والتنوير»: لقد أبدع نظم الآيات فى التنقل من قصة إلى أخرى من دلائل عناية الله تعالى برسوله ﷺ وبالمؤمنين، فقرنها فى قَرَن زمانها، وجعل ينتقل من إحداها إلى الأخرى بواسطة إذ الزمانية.

وهذا من أبدع التخلص، وهو من مبتكرات القرآن فيما أحسب.[1]

إذ يغشيكم النعاس يجعله غاشياً عليكم ومحيطاً بكم، إذ الغشى كون الشيء غاشيا أى غاماً ومغطياً وهو بدل من:﴿ وَإِذْ يَعِدُكُمُ ﴾، على القول بجواز تعدد البدل، أو مفعولاً فيه لقوله:﴿ وَمَا ٱلنَّصْرُ﴾، فإن إغشاءهم النعاس كان من أسباب النصر، فلا جرم أن يكون وقت حصوله، والنعاس النوم غير الثقيل يزيل التعب ولا يغيب صاحبه، وإسناد الإغشاء إلى الله تعالى؛ لأنه الذى قدر أن يناموا فى وقت لا ينام فى مثله الخائف، فهو نوم منحهم الله إياه لفائدتهم، وإما إسناد الغشى إلى النعاس حقيقة على المتعارف، وقد علمنا أنه من تقدير الله تعالى بقوله:﴿ أَمَنَةً مِّنْهُ ﴾، أى أماناً منه، فإن الخوف والمشقة أطارا كراهم من أوكاره، فلما طامن الله قلوبهم رفرف بجناحه عليهم فنعسوا، وجاء الغَشْى بصيغة المضارع لاستحضار

1 - الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير(٩/ ٢٧٧-٢٧٨).

تلك الحالة تذكيراً بنعمة الله تعالى، إذ لما نعسوا زال أثر الخوف من نفوسهم فتلك نعمة، ولما استيقظوا وجدوا نشاطاً، ونشاط الأعصاب يكسب صاحبه شجاعة، ويزيل شعور الخوف الذى هو فتور الأعصاب.

و﴿ مِّنْهُ ﴾، أى من الله سبحانه، لإفادة تشريف ذلك النعاس، وأنه وارد من جانب القدس فهو لطف وسكينة ورحمة ربانية، ويتأكد به إسناد الإغشاء إلى الله تعالى.[1]

كان ذلك حال المؤمنين الواقع لهم بقدره الله ومشيئته وذلك شيء من مدده، الذى اتبعه بذكر مدد آخر، له قصة نستكمل بها جوانب المشهد الذى نحن فيه، وهى قصة المطر الذى أكرمهم الله به فى تلك الصحراء القاحلة، فى قلة الزاد والماء، إنها لعناية الاهية لا يستطيعها البشر كافة ليحقق بها لجنده هذه الأمور الأربعة:

الأول: ليطهرهم به من الحدث الأصغر والأكبر، وليملأوا أسقيتهم، وليشربوا ويحوزوا الماء إلى رحالهم.

الثانى: إذهاب رجز الشيطان عنهم.

الثالث: الربط على قلوبهم.

الرابع: تثبيت الأقدام.

وذكر إن إنزال المطر عليهم من الله تعالى للتنبيه على إكرامهم به فى وقت احتياجهم إلى الماء، أو لكونه كذلك فى غير الوقت المعتاد نزول الأمطار فيه، فقد كان المسلمون حين

---

1 - انظر الطبرى، جامع البيان(٩/ ١٢٩)، الزمخشرى، الكشاف(٢/ ١١٧)، وأبا السعود، إرشاد العقل السليم(٢/ ٣٤٧)، الألوسى، روح المعانى(٦/ ٢٥٣-٢٥٥)، الفخر الرازى، التفسير الكبير(٧/ ٤٥٣-٤٥٥)، الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير(٩/ ٢٧٧-٢٧٩)، سيد قطب، فى ظلال القرآن(٣/ ١٤٨٤)، وهناك أقوال أخرى فيما ذكرنا، اقتصرنا على الأنسب للسياق والأقوى فى بابه ولمزيد البحث ذكرنا المراجع والمصادر السابقة.

اقتربوا من بدر راموا أن يسبقوا المشركين إلى ماء بدر، ولكن طريقهم كان دَهْساً رملاً ليناً فشق عليهم إسراع السير إلى الماء وكانت أرض المشركين ملبدة، فلما أنزل الله المطر تلبدت الأرض فصار السير أمكن لهم، واستوحلت الأرض للمشركين فصار السير فيها شاقاً، فأمكن المسلمين السبق إلى الماء من بدر، ونزلوا عليه وادخروا ماء كثيراً من المطر فشربوا وتطهروا.

أما الرِجز فهو القذر وهو الحسى، وكذلك المعنوى المعبر عنه بالحديث، فالله جل وعلا أذهب عنهم بالماء رجز الشيطان ذلك، لأن فقدان الماء يلجئهم إلى البقاء فى تنجس الثياب والأبدان والنجاسة مما يلائم طبع الشيطان، علاوة على ما فسر جمهور العلماء الرجز هنا بوسوسة الشيطان وتخويفه من العطش، حيث غلب المسلمون قبل نزول المطر على ماء بدر فظمئوا وأصبحوا مجنبين محدثين فألقى الشيطان فى قلوبهم الحزن وقال: أتزعمون أن فيكم نبياً وأنكم أولياء الله وتصلون مجنبين محدثين، فأنزل الله الماء فسال به الوادى... إلى آخر ما ذكر[1]، أما قوله: ﴿ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ ﴾، أى يقويها بالثقة بلطف الله تعالى فيها بعد بمشاهدة طلائعه، والربط هو الشد أى ربط القلوب، وأنها أتى بـ﴿ عَلَىٰ ﴾، هنا للايماء إلى أنها امتلأت من ذلك حتى علا عليها، وفيه من إفادة التمكن ما لا يخفى.

وتثبيت الأقدام هو ألا تسوخ فى ذلك الدهس، بل تتمكن من السير فى الرمل وجوز ان المراد بالتثبيت كما قال أبو عبيدة جعلهم صابرين غير فارين ولا متزلزلين.[2]

كل ذلك – وأكثر منه مما وقع من السيرة – ذكرته الآية القرآنية الكريمة فى هذا الموجز الموحى، مع نسبته إلى الله تعالى لا إلى غيره، ليكون عبرة للمؤمنين إلى اليوم، مع تذكير

---

1 – الزمخشرى، الكشاف (٢/ ١١٧-١١٨)، الفخر الرازى، التفسير الكبير(٧/ ٤٥٥-٤٥٦)، أبا السعود، إرشاد العقل السليم(٢/ ٣٤٧-٣٤٨)، الألوسى، روح المعانى(٦/ ٢٥٥)، الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير(٩/ ٢٧٩-٢٨٠).

2 – انظر الألوسى، روح المعانى(٦/ ٢٥٦).

الحاضرين بما كان من عظات عبر وأحكام ليستأنفوا توطيد أركان الشريعة، ونشر تعاليم الإسلام، رفع رايته وهم فى تمام الثقة واليقين والتوكل على الله تعالى، وأن الناصر لدينه على الحقيقة هو الله، وإنما أكرمهم ليكونوا الأسباب الظاهرة التى يؤيد بها دينه، ويهزم بها أعداءه، وتتجلى فيها صدق الرسالة وصحة النبوة، وإتصال الأرض بالسماء، وليبدو بها وحى الله العظيم.

تعبأ المؤمنون للقتال، وتقدم المسارعون إلى جنة عرضها السموات والأرض الصفوف، وبدأ المؤمنون فى حصد إحدى الحسنيين، فجاءت الآية التى تبرز المشهد الجليل الهائل، مشهد الأمر لملائكة الإمداد المردفين بأن يعاونوا المؤمنين، وهى قوله تعالى:﴿ إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ فَٱضْرِبُوا۟ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ وَٱضْرِبُوا۟ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴿١٢﴾ ﴾ [الأنفال: ١٢].

ونسوق كلاماً مختصراً مرة أخرى لسيد قطب رحمه الله[1]، دالاً يوضح تمهيد المقصود فيقول: ذلك ما أوحى الله به إلى الملائكة من تثبيت الذين آمنوا، وإلى ما وعد به من إلقاء الرعب فى قلوب الذين كفروا، وإلى ما أمر به الملائكة من الاشتراك الفعلى فى المعركة.

إنه الأمر الهائل، إنها معية الله سبحانه للملائكة فى المعركة، واشتراك الملائكة فيها مع العصبة المؤمنة، هذا هو الأمر الذى لا يجوز أن يشغلنا عنه أن نبحث: كيف اشتركت الملائكة؟ ولاكم قتيلاً قتلت؟ ولا كيف قتلت؟ إن الحقيقة الكبيرة الهائلة فى الموقف هى تلك الحقيقة (إن حركة العصبة المسلمة بهذا الدين أمر هائل عظيم أمر يستحق معية الله لملائكته فى المعركة)، واشتراك الملائكة فيها مع العصبة المسلمة.

إننا نؤمن بخلق من خلق الله اسماهم الملائكة، ولا ندرك من طبيعتهم وعملهم إلا ما

1 - سيد قطب، فى ظلال القرآن(٣/ ١٤٨٦-١٤٨٧).

أخبرنا به النص عن خالقهم جل وعلا، فلا نملك إدراك الكيفية التى اشتركوا بها فى نصر المؤمنين فى بدر إلا بمقدار ما يقرره النص القرآنى أو الحديث الصحيح، لقد أوحى إليهم أنى معكم، وأمرهم أن يثبتوا الذين آمنوا، وأن يضربوا فوق أعناق المشركين، وأن يضربوا منهم كل بنان، كل ذلك فعلوا؛ لأنهم يفعلون ما يؤمرون، وقد وعد الله تعالى أن يلقى الرعب فى قلوب الذين كفروا فكان ذلك، ووعده الحق، ولكنا لا نعلم كيف كان ذلك، فالله هو الذى خلق وهو أعلم بمن خلق.

ولا شك أن ذلك لا يستعظم على قدرة الله تعالى، فكله من الممكن الجائز فكيف يكون محلاً لإنكار، أو ريب وتردد، وقد نزل الملائكة على الأنبياء من قبل، وقاموا بإبادة وخسف قرى ومدن مازالت آثارهم تحكى ذلك، فما المانع أن ينزلوا على المؤمنين المكرمين مدداً لهم يقاتلون على وفق علم الله وترتيبه مع بقاء نواميس النصر العادية وأسبابها.

ووقفه عجلى على تحليل الآية الكريمة:

﴿ إِذۡ ﴾ ظرف متعلق بقوله تعالى:﴿ فَٱسۡتَجَابَ لَكُمۡ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلۡفٖ مِّنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ مُرۡدِفِينَ ﴾[1]، والخطاب هنا للنبى ﷺ كما تنطق به الكاف، لما أن المأمور به مما لا يستطيعه غيره وهو الوحى للملائكة وهو تلطف به ﷺ فى نفس الوقت، إذ الآية فى تفصيل عمل الملائكة يوم بدر، وما خاطبهم الله به فكان الخطاب إلى النبى ﷺ أولى؛ لأنه أحق من يعلم مثل هذا العلم، ويحصل العلم للمسلمين تبعاً له.

وأن كل ما يهم المسلمون هو نصر الملائكة إياهم، وقد حصل.

1 - هذا قول ابن عاشور(٩/ ٢٨٠)، وهذا خلاف ما ذهب إليه الزمخشرى من أن الظرف بدل ثالث لـ﴿ وَإِذۡ يَعِدُكُمُ ﴾، انظر الكشاف(٢/١١٨)، وذهب أبا السعود، إرشاد العقل السليم (٢/٢٤٨)، إلى نصبه بمضمر وإليه ذهب الالوسى، روح المعانى(٦/ ٢٥٦)، ومثله الفخر الرازى، التفسير الكبير(٧/ ٤٥٧)، وانظر تفاصيل غيرها فيما سبق.

وعُرف اسم الله هنا بالاضافة إلى النبى ﷺ ﴿ رَبَّكُمْ ﴾، ليوافق تستغيثون لأن النبى ﷺ أول من استغاث، ولما فيه من التنويه بقدره واللطف به ورفع شأنه.[1]

وإيحاء الله تعالى إلى الملائكة بأنه معهم مقصود منه تشريفهم، وتشريف العمل الذى سيكلفون به، لأن المعية تؤذن إجمالاً بوجود شيء يستدعى المصاحبة، فكان قوله تعالى:﴿ أَنِّي مَعَكُمْ ﴾ [الأنفال: ١٢]، مقدمة للتكليف بعمل شريف يذكر ما تتعلق به المعية، لأنه سيعلم من بقية الكلام، أى أنى معكم فى عملكم الذى أكلفكم به.

﴿ فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾، الفاء لترتيب ما بعدها على ما قبلها، وعُرف هؤلاء المطلوب تثبيتهم بالموصول لايماء صلة ﴿ ءَامَنُوا۟ ﴾، بأن إيمانهم هو الباعث على هذه العناية، فتكون الملائكة بعناية المؤمنين لأجل وصف الإيمان.

وهنا يظهر موقع الفاء من حيث ما دل عليه ﴿ أَنِّي مَعَكُمْ ﴾، من التهيئة لتلقى التكليف بعمل عظيم، وإنما كان هذا العمل بهذه المثابة لأنه إبدال للحقائق الثابتة باقتلاعها، ووضع أضدادها لأنه يجعل الجبن شجاعة، والخوف إقداماً، والهلع ثباتاً فى جانب المؤمنين، ويجعل العزة رعباً فى قلوب المشركين، ويقطع أعناقهم وأيديهم بدون سبب من أسباب القطع المعتادة، فكانت الأعمال التى عهد للملائكة عملها خوارق عادات.

وكان المراد التثبيت أيضاً الحمل على الصمود فى مواطن الحرب والجد وفى مقاساة الشدائد فى القتال قولاً وحالاً مثل ظهورهم بصورة بشرية يعرفونها بالنصر على أعدائهم، وأنهم سمعوا المشركين يقولون لئن حمل علينا المسلمون لننكشفن[2].

---

1 - انظر أبا السعود(٢/ ٣٤٨)، الألوسى، روح المعانى(٦/ ٢٥٦)، الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير(٩/ ٢٨١-٢٨٢)، وغيرها.

2 - انظر لما سبق الزمخشرى، الكشاف(٢/ ١١٨)، أبا حيان، البحر المحيط(٥/ ٢٨٤-٢٨٥)، الفخر الرازى، التفسير الكبير(٧/ ٤٥٧)، الطبرى، جامع البيان(٩/ ١٣٢)، و أبا السعود، إرشاد العقل السليم(٢/ ٣٤٨)، الالوسى، روح المعانى(٦/ ٢٥٦-٢٥٧)، الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير(٩/ ٢٨١).

﴿ سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعْبَ﴾، جاءت تفسيراً لقوله تعالى:﴿ أَنِّي مَعَكُمْ﴾، فى إعانة المؤمنين بإلقاء الرعب فى قلوب اعدائهم، أى يجعلهم مرعوبين خائفين منزعجى النفوس يتوقعون كل مكروه، وأسند الرعب إلى نفسه وحده سبحانه وتعالى؛ لأن الملائكة المخاطبين كانوا ملائكة نصر وتأييد فجعله الله بواسطة أخرى غير الملائكة، وإسناده إليه سبحانه على طريقة الإجمال بدون بيان لكيفية إلقائه، إشارة إلى أنه رعب شديد، قدره الله تعالى على كيفية خارقة للعادة، وإنما كان كذلك لأن أسباب ضده قائمة من وفرة عدد المشركين وعددهم، وإقدامهم على الخروج إلى المسلمين، وحرصهم على حماية أموالهم، وليسمع بهم العرب فلا يزالون يهابون قريشاً. فلما وقع لهم الرعب دل على خرق ذلك كله ولم يقل سبحانه سنلقى بدلاً من سألقى حتى لا يتوهم أن للملائكة سبباً فى إلقاء الرعب فى قلوب الذين كفروا.(1)

وما زلنا مع هذا المدد للمؤمنين عبرة لغيرهم، وبشارة لمن بعدهم ممن تحقق فيهم الإيمان الجالب لهذا النصر.

فقال تعالى:﴿ فَٱضْرِبُواْ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ وَٱضْرِبُواْ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾..

وهى تفسير لقوله تعالى:﴿ فَثَبِّتُواْ ﴾، مبين لكيفية التثبيت، ولا معونة أعظم من إلقاء الرعب فى قلوب الكفرة، ولا تثبيت أبلغ من ضرب أعناقهم، واجتماعهما غاية النصرة(2).

يقول الالوسى:«وقوله سبحانه وتعالى:﴿ سَأُلْقِي ﴾، إلخ جمل استئنافية جارية مجرى التعليل لإفادة التثبيت لأنها مصدقةً ومبنيةً لإعانته إياهم على التثبيت، وقوله سبحانه وتعالى:﴿ فَٱضْرِبُواْ ﴾، إلخ جملة مستعقبة للتثبيت، بمعنى لا تقتصروا على تثبيتهم وأمدوهم بالقتال عقيبه من غير تراخ، وكأن المعنى أنى معكم فيما آمركم به فثبتوا واضربوا، وجيء

1- انظر الالوسى، رح المعانى(٦/ ٢٥٧)، وابن عاشور، التحرير والتنوير(٩/ ٢٨١-٢٨٢).

2- ابو حيان، البحر المحيط(٥/ ٢٨٥)، تبعاً للزمخشرى(٢/ ١١٨).

بالفاء للنكتة المذكورة..... إلى أن يقول: وأما القول بأن﴿ فَٱضۡرِبُواْ ﴾، إلخ خطاب منه تعالى للمؤمنين وأنى ذلك؟ والسورة الكريمة إنما نزلت بعد تمام الواقعة. وبالجملة الآية ظاهرة فيما يدعيه الجماعة من وقوع القتال من الملائكة[1].

﴿ فَوۡقَ ٱلۡأَعۡنَاقِ ﴾، أى الرؤوس من المشركين، وفوق باقية على ظرفيتها، وقيل: إنها مفعول به، وهى بمعنى الأعلى إذا كان بمعنى الرأس، وقيل: زائدة، وقيل بمعنى على أى على الأعناق أو الأعناق.

﴿ وَٱضۡرِبُواْ مِنۡهُمۡ كُلَّ بَنَانٖ ﴾، وهى جمع بنانة وهى الإصبع وقيل طرفه، وإنما خصت الأعناق والبنان لأن ضرب الأعناق إتلاف لأجساد المشركين، وضرب البنان يبطل صلاحية المضروب للقتال، وضرب الملائكة يجوز أن يكون مباشرة بتكوين قطع الأعناق والأصابع بواسطة فعل الملائكة على كيفية خارقة للعادة، وقد ذكرنا فى السيرة عن بعض الصحابة ما يشهد لهذا المعنى[2]، وعلى المعنى الثانى يكون بتسديد ضربات المسلمين فيكون إسناد الضرب اليهم مجازاً عقلياً لأنهم سبب جاء الخطاب القرآنى ليبين لنا بعد ذلك كله – مع أننا اختصرناه لأقل ما يمكن – ليشدد على موقفين وهما موقف المشركين وموقف المسلمين.

الأمر الأول: موقف المشركين:

حيث ذكر أن سبب ما فعل بهم إنما كان لمشاقة الله ورسوله ﷺ، وما ينتظرهم فى الآخرة أشد أنكى فقال:﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ شَآقُّواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۚ وَمَن يُشَاقِقِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ١٣ ذَٰلِكُمۡ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابَ ٱلنَّارِ ١٤ ﴾ [الأنفال: ١٣-١٤].

1 – الالوسى، روح المعانى(٦/ ٢٥٨).

2 – انظر ابن عاشور، التحرير والتنوير(٩/ ٢٨٣).

والباء للسببية تفيد معنى التعليل، والمخاطب إما الملائكة بمعنى أن ما فعلتموه بهم كان لمحاداتهم لله ورسوله ﷺ، أو الخطاب لمن لم تبلغهم الآية من المشركين الأحياء يوم بدر، ولذلك فالجملة معترضة للتحذير من الاستمرار على مشاقة الله ورسوله ﷺ، أو لكل أحد ممن يليق به الخطاب[1].

والمشاقة التى فعل الله ذلك كله بهم لسببها هى العداوة بعصيان وعناد، وهى مشتقة من – الشِق – بالكسر أى هم فى جانب والنبى ﷺ فى جانب، ليسوا فى جانب الإيمان والطاعة، بل الكفر والمعصية والمخالفة للرسول ﷺ، ومن ثم كان التصريح بسبب الانتقام تعريضاً للمؤمنين ليستزيدوا من طاعة الله تعالى ورسوله ﷺ، فإن المشيئة لما كانت سبب هذا الانتقام والعقاب العظيم، فيوشك ما هو مخالفة للرسول ﷺ ولو بدون مشاقة أن يوقع فى العذاب والانكسار وإن كان دون ذلك، وخليق بأن يكون ضدها وهو الطاعة موجباً للخير الشامل للنصر وغيره وهذا ما يمثله الواقع الذى تردينا إليه مقارنة بأعظم واقع كانوا فيه[2]، وقوله:﴿ وَمَن يُشَاقِقِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ﴾، الإظهار فى موضع الإضمار لتربية المهابة وإظهار كمال شناعة ما اجترءوا عليه، والإشعار بعلة الحكم.

وأما قوله:﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ﴾..

فالشرطية بيان للسببية السابقة بطريق برهانى، كأنه قيل: ذلك العقاب الشديد بسبب المشاقة لله تعالى ولرسوله ﷺ، وكل من يشاقق الله ورسوله ﷺ فله بسبب ذلك عقاب شديد

---

1 – انظر الزمخشرى، الكشاف(٢/ ١١٨)، الفخر الرازى، التفسير الكبير(٧/ ٤٥٨)، أبا حيان، البحر المحيط(٥/ ٢٨٧)، وأبا السعود، إرشاد العقل السليم(٢/ ٣٤٩)، الالوسى، روح المعانى(٦/ ٢٥٩)، وابن عاشو، التحرير والتنوير(٩/ ٢٨٤).

2 - أبا السعود، إرشاد العقل السليم(٢/ ٣٤٩)، وابن عاشو، التحرير والتنوير(٩/ ٢٨٤).

كائناً من كان، فإذن لهم بسبب مشاقة الله ورسوله ﷺ عقاب شديد.[1]

فلم يكن ذلك العقاب فى نهاية مشهد المشاقة الهائل هذا إلا تقريراً موضحاً لما وراء المعركة، ووراء النصر فيها والهزيمة، من قاعدة ودستور لمجرى هذه الأمور:

﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۚ وَمَن يُشَاقِقِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿١٣﴾ ﴾ [الأنفال: ١٣].

أنها ليست فلته عارضة ولا مصادفة عابرة، أن ينصر الله العصبة المسلمة، وأن يسلط على أعدائها الرعب والملائكة مع العصبة المؤمنة، إنما ذلك لأنهم شاقوا الله ورسوله ﷺ ووقفوا يصدون عن سبيل الله ويحولون دون منهج الله للحياة.

﴿ وَمَن يُشَاقِقِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾

ينزل عقابه عليهم وهو قادر على عقابهم بأقل بكثير لأنهم أضعف من أن يقفوا لعقابه.

أنها قاعدة وسنة لا فلتة ومصادفة، حيث انطلقت العصبة المسلمة فى الأرض لتقرير ألوهية الله وحده، ثم وقف منها عدو لها موقف المشاقة لله ورسوله ﷺ، كان التثبيت لهم والرعب والهزيمة للمشاقين لله ورسوله ﷺ، ما استقامت العصبة المؤمنة على الطريق، واطمأنت إلى ربها، وتوكلت عليه وحده.

وفى نهاية هذا المشهد يتوجه بالخطاب للمشاقين الصادين عن سبيله، إن هذا الحكم الذى حل بكم فى الدنيا ليس نهاية المطاف إنه أمر ممتد إلى ما وراء هذه الأرض، وإلى ما بعد هذه الحياة فى الآخرة.

---

1 - أبا السعود، إرشاد العقل السليم(٢/ ٣٤٩-٣٥٠)، الالوسى، روح المعانى(٦/ ٢٥٩-٢٦٠).

﴿ ذَٰلِكُمۡ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾..

فهذه نهاية المطاف وهو هذا العذاب الذى لا يقاس إليه ما ذقتم من الرعب والهزيمة ومن الضرب فوق الأعناق ومن ضرب كل بنان.[1]

الأمر الثانى: وهو الخاص بالمسلمين:

وشددت عليه الآيات قبل نهاية قص الغزوة من الوجهة القرآنية، وهى قضية عدم الفرار أمام زحف الكفار، وكان منطقياً أن يجيء هذا النهى، وهذا الوعيد الشديد على وقوعه من المؤمنين بعدما رأوا كيف كان الأمر كله بترتيب الله تعالى تهيئة ونصراً.

وذلك فى قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ زَحۡفٗا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلۡأَدۡبَارَ ﴿١٥﴾ وَمَن يُوَلِّهِمۡ يَوۡمَئِذٖ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفٗا لِّقِتَالٍ أَوۡ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٖ فَقَدۡ بَآءَ بِغَضَبٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأۡوَىٰهُ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ﴿١٦﴾ ﴾ [الأنفال: ١٥-١٦].

بعد أن سرد القرآن الكريم الواقعة، ومشاهدها وملابساتها، وقبل أن يختمها، ويسوق الأحكام التى صارت دستوراً لكل ما يأتى من مشاهد للمؤمنين بعد ذلك، جاء فى أنسب اللحظات هذا الحكم القرآنى لحظات استجابة القلوب للتوجيه.

يعنى بعد أن أراهم قدرة الله وحكمته فى تدبيره، وعونه ومدده، وعلموا منها أنهم لم يكونوا فيها سوى ستار لقدر الله تعالى وقوته، فهو سبحانه الذى أخرج رسوله من بيته بالحق، لم يخرجه بطراً ولا اعتداء ولا طغياناً ولا رياء الناس، والله هو الذى اختار لهم إحدى الطائفتين لأمر يريده كما بين، وهو الذى أمدهم بالملائكة مردفين، والله هو الذى غشاهم النعاس أمنة منه ونزل عليهم من السماء ماء ليطهرهم به، ويذهب عنهم رجز

1 - انظر سيد قطب، فى ظلال القرآن(٣/ ١٤٨٦).

الشيطان وليربط على قلوبهم، ويثبت به الأقدام، والله هو الذى أوحى إلى الملائكة ليثبتوا الذى آمنوا، وألقى فى قلوب الذين كفروا الرعب، وهو الذى أشرك الملائكة فى المعركة، وأمرهم أن يضربوا فوق الأعناق وأن يضربوا من المشركين كل بنان، وهو الذى غنمهم الغنيمة، ورزقهم من فضله بعد أن خرجوا لا مال ولا ظهر ولا عتاد.

فلما ذكرهم بذلك، وأعلمهم أن ذلك شأنه مع الكافرين، اعترض فى خلال ذلك بتحذيرهم من الوهن والفرار، فالجملة معترضة بين جملة إذ يوحى ربك للملائكة وجملة فلم تقتلوهم، وفى هذا تدريب للمسلمين على الشجاعة والثبات والاقدام لتكون تلك سيرتهم الدائمة، بعد ذلك صموداً عند اللقاء حتى يروا بشائر نصره التى لا تتخلف إن التزموا أسباب هذا النصر، وهى خطة محمودة عند العرب لم يزدها الإسلام إلا تقوية، قال الحصين بن الحمام:

تأخرت أستبقى الحياة فلم أجد لنفسى حياة مثل أن أتقدما[1]

بعد أن استعرض القرآن الكريم تلك المشاهد كلها، الآن يجيء الأمر للذين آمنوا أن يثبتوا إذا لقوا الذين كفروا وألا يولوهم الأدبار فراراً وهزيمة، ما دام أن النصر والهزيمة موكولة لإرادة فوق إرادة البشر، وإلى أسباب غير الأسباب الظاهرة التى يراها الناس حيث كان المسلمون مظهراً لتجلى ذلك كله من الله تعالى، وهو يريد فى نفس الوقت أن يكون الجهاد والبلاء من سعيهم ليثيبهم الثواب الأوفى ويعطيهم الجزاء الأعلى.

ويكون المعنى يا أيها الذين آمنوا إذا واجهتم الذين كفروا زحفاً متدانين متقاربين، فلا تفروا عنهم إلا أن يكون ذلك مكيدة حرب تختارون بها أو تنحرفون بها إلى موقع حسن، أو تدبرون خطة أحكم، أو أن يكون ذلك انضماماً إلى فئة أخرى من المسلمين، أو إلى قواعد

---

1 - انظر الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير(٩/ ٢٨٦).

المسلمين لتواصلوا وتعاودوا القتال كرة أخرى، وأن من تولى وأعطى العدو دبره بهذا الوضع المستبشع فقد استحق ذلك العقاب؛ غضباً من الله ومأوى فى جهنم، وصار هذا الحكم عاماً إلى يوم القيامة حيث ذكر الرسول ﷺ أن الفرار من الزحف من الكبائر العظيمة.[1]

ليس من مقصودنا هنا تفسير الآية وتحليلها، لأنها ليست من السيرة القرآنية، وإنما جاءت لتبين للمؤمنين.

أولاً: صحة كل هذه المشاهد السابقة، وصدق نسبتها إلى الله تعالى، ومن ثم جاء الأمر بناء على ذلك بعدم الفرار أمام الكفرة، ولذا كانت الجملة مترابطة مع السياق ملتحمة معه.

ثانياً: كان التركيز على هذا الأمر مبكراً دليلاً على أنه بداية دخول المسلمين لمعارك عديدة مع الكفرة، وأنهم يجب أن يؤهلوا من أول معركة لكل ملاقاة بعد ذلك، فكانت رؤية هذه العناية من الله تعالى من المهمات الحاثة لهم على ذلك البذل والتفانى والإقدام.

يستكمل القرآن الكريم بقية مشاهد موقعة بدر، وهو المشهد الذى يكشف لنا عن قدرة الله وهو يدير المعركة وراءهم، ويقتل لهم أعداءهم، ويرمى لهم ويصيب، وهم ينالون أجر البلاء؛ لأن الله تعالى يريد أن يتفضل عليهم بحسن البلاء، ليثيبهم عليه من فضله، وهو الذى وهبهم إياه.

﴿ فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ ۚ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ ۚ وَلِيُبْلِيَ ٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَآءً حَسَنًا ﴾ [الأنفال: ١٧].

ذكرنا فى أحاديث السيرة أن الرسول ﷺ أمر بقبضة من حصى الوادى، فرمى بها

1 - انظر لما سبق سيد قطب، فى ظلال القرآن(٣/ ١٤٨٧)، والحديث رواه الشيخان:«اجتنبوا الموبقات السبع... ».

المشركين، وقال شاهت الوجوه فلم يبق مشرك إلا أصابته فانهزموا وردفهم المؤمنون يقتلونهم ويأسرونهم فقيل لهم فلم تقتلوهم، والأظهر أن الفاء هى الفصيحة وهى واقعة فى جواب شرط مقدر، أى إن افتخرتم بقتلهم فأنتم لم تقتلوهم ولكن الله قتلهم، أو التقدير إذا علمتم أن الله أوحى إلى الملائكة بضرب أعناق المشركين وقطع أيديهم فلم تقتلوهم أنتم ولكن الله قتلهم وقد بين لكم ذلك.[1]

وكذلك كانت تلك الرمية من النبى ﷺ التى انهزم المشركون على إثرها فقال له تعالى: ﴿وَمَا رَمَيْتَ﴾، أنت يا محمد ﴿إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾، أنها رمية الله تعالى، فلم ترمها أنت على الحقيقة؛ لأنك لو رميتها لما بلغ أثرها إلا ما يبلغة أثر رمى البشر، ولكنها كانت رمية الله حيث أثرت هذا الأثر العظيم، فأثبت الرمية لرسوله ﷺ لأن صورتها وجدت منه، ونفاها عنه، لأن أثرها الذى لا يطيقه فعل البشر هو فعل الله عز وجل، فكان الله فاعل الرمى على الحقيقة وفى ذلك:

١ – إثبات لطف الله تعالى بالنبى ﷺ وإظهار صدق وأعلام نبوته.

٢– وهو كون قتل المشركين ورميهم حاصلاً من الله لأمن المسلمين ونصرهم يفيد تعليل وتوجيه ما نهاهم عنه من توليه الأدبار، ويفيد أمرهم بالصبر والثبات.

٣– التعريض بضمان تأييد الله إياهم إن امتثلوا لقوله مثلاً:﴿ وَٱصْبِرُوٓاْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾[الأنفال: ٤٦]، فإنهم إن امتثلوا ما أمرهم الله كان الله ناصرهم، وذلك ما يؤكد على

1 – هذا ما ذهب إليه فى الكشاف(٢/ ١١٩)، وانظر بن عاشور، التحرير والتنوير(٩/ ٢٩٣)، وأبا السعود، إرشاد العقل السليم(٢/ ٣٥١-٣٥٢)، والالوسى، روح المعانى(٦/ ٢٦٧)، الفخر الرازى، التفسير الكبير(٧/ ٤٦٣)، الطبرى، جامع البيان(٩/ ١٣٦)، وذهب أبو حيان إلى أن الفاء ليست جواب شرط محذوف، وإنما هى للربط بين الجمل، البحر المحيط(٥/ ٢٩٥).

ما أشير إليه من قبل من الوعيد على تولية الأدبار، وقطع عذر الفارين المتولين، ومن ثم جاءهم فى وقعة أحد قوله تعالى:﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْاْ مِنكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ إِنَّمَا ٱسْتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُواْ ﴾ [آل عمرانك ١٥٥].

ومازالت هناك علل أخرى يذكرها القرآن الكريم لما أنزل الله من أسباب نصره، منها ما ختمت به هذه الآية الكريمة وهى قوله تعالى:﴿ وَلِيُبْلِيَ ٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَآءً حَسَنًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾، فجعل قتل المشركين وما أصابهم من رميه ﷺ لعلة أخرى، وهى أن يبلى المؤمنين بلاء حسناً أى ليعطيهم سبحانه من عنده عطاء جميل ومنه قول زهير:

جزى الله بالاحسان ما فعلاً بكم فأبلاهما خير البلاء الذى يبلى

غير مشوب بالشدائد، يشكرونه عليه فيظهر ما يدل عن قيامهم بشكره مما تختبر به طوبتهم لمن لا يعرفها، وهذا العطاء هو النصر والغنيمة فى الدنيا، والجنة فى الآخرة.[1]

والعلة الثانية فى هذا السياق فى قوله تعالى:﴿ ذَٰلِكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٨﴾ ﴾ [الأنفال: ١٨].

والأشارة ب﴿ ذَٰلِكُمْ ﴾، إلى البلاء الحسن وعطف عليه جملة﴿ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾، والتقدير ليبلى المؤمنين وليوهن كيد الكافرين، فأراد الله توهينهم بهزيمتهم تلك الشنيعة ليوهن كيدهم للإضرار بالمسلمين، وهو بشارة لاستمرار وزيادة هذا الوهن حتى زوال عداء قريش للنبى ﷺ وللمسلمين، وذلك ما انتهى إليه واقع الأمر ويدل على البشارة أنه ما كان ذلك الوهن ليعود قوة تهزم بها المسلمون ويعود المسلمون مقهورين تحت الكفرة.

---

١ - الطبرى، جامع البيان(٩/ ١٣٧)، الزمخشرى، الكشاف(٢/ ١١٩-١٢٠)، الفخر الرازى، التفسير الكبير(٧/ ٤٦٥)، وأبا السعود، الارشاد(٢/ ٣٥١-٣٥٢)، الألوسى، روح المعانى(٦/ ٢٦٧-٢٧١)، وابن عاشور، التحرير والتنوير(٩/ ٢٩٣-٢٩٨).

تنتقل الآيات مرة أخرى لتنقل لنا مشهداً من بديع المشاهد، وإن كان موقعه فى السيرة هو أول مشاهد اللقاء الدامى، ولكن أنسب موضع له أن تختم به تلك المشاهد المقصوصة كما جاء به القرآن الكريم، فهو يشير إليه يذكره فى ذات الوقت بأسلوب التوبيخ والسخرية اللائقة بسخرية الكفرة وما كانوا فيه، لأنه مع أنه وقفة لأبى جهل فى بداية المعركة، إلا أن أثرها ووقعها يثبت أو يهدم فى نفس الوقت الحقائق فى صدور المؤمنين والكفرة على السواء ولذا جعل التنبيه به من أشد المهمات، والختم به لتلك المقاطع المتسلسلة من القصص القرآنى من أعظم المناسبات بل والمفاجآت، التى تدل على القصد وأن ذلك كله لم يكن فلتة أو عرضاً.

وهو قوله تعالى:﴿ إِن تَسْتَفْتِحُواْ فَقَدْ جَآءَكُمُ ٱلْفَتْحُ وَإِن تَنتَهُواْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِن تَعُودُواْ نَعُدْ وَلَن تُغْنِىَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْـًٔا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٩﴾ ﴾ [الأنفال: ١٩].

وقف أبو جهل لما التقى الناس ودنا بعضهم من بعض فقال: «اللهم أقطعنا للرحم، وآتانا بما لا يُعرف فأحنه الغداة»[1]، أى فأهلكه، فكان هو المستفتح. أى هو الذى دعا أن يهلك أضل الفريقين، ولذا ذهب جمهور المفسرون على أن الخطاب موجه إلى المشركين وفيه التفات من الغيبة اقتضاها قوله تعالى:﴿ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴾، وكان النصر والفتح لرسول الله ﷺ وأصحابه، فخوطب المشركون بأن قد جاءهم الفتح على سبيل التهكم والتوبيخ أى جاءهم الفتح نعم ولكنه فتح للمسلمين ونصر عليكم أيها المشركون، وحمل ابن عطية «المحرر الوجيز»، فعل جاءكم على معنى فقد تبين لكم النصر ورأيتموه، وأنه

1 - السيرة - ابن هشام(٢/ ١٩٩)، والحديث رواه أحمد(٥/ ٤٣١)، وابن جرير(٩/ ١٣٨)، والبيهقى(٣/ ٧٤)، وهو حديث صحيح.

عليكم لا لكم، فيكون مجيء الفتح بمعنى الظهور فلاتهكم فيها.[1]

وجاء طلب الفتح بصيغة المضارع مع أن الفعل قد مضى لقصد استحضار الحالة من تكريرهم الدعاء بالنصر على المسلمين، وبذلك تظهر مناسبة عطف باقى الجمل ﴿ وَإِن تَنتَهُواْ ...... وَأَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾.

وقوله:﴿ وَإِن تَعُودُواْ نَعُدۡ ﴾، أى: وإن تعودوا إلى العناد والقتال نعد إلى هزمكم كما فعلنا بكم يوم بدر.

ثم أيأسهم من الانتصار فى المستقبل بقوله:﴿ وَلَن تُغۡنِيَ عَنكُمۡ فِئَتُكُمۡ شَيۡـٔٗا وَلَوۡ كَثُرَتۡ ﴾، حيث أكد لهم أنهم لن تنفعهم جماعتهم على كثرتها كما لم تغن عنهم شيئاً فى موقعة بدر وجاء ب ﴿وَلَوۡ ﴾، الاتصالية أى لن تغنى عنكم فى حال من الأحوال، ولو كانت فى حال كثرة على فئة المؤمنين وهنا احتمالان فى عود الضمير فى ﴿ تَعُودُواْ ﴾:

الأول: إن تعودوا للاستفتاح وطلب النصر على المسلمين فالحال واضح.

الثانى: إن تعودوا لقتال ومحاربة المسلمين، فيشكل عليها وقوع هذه الفلته للمشركين فى غزوة أحد.

والجواب عن هذا أن الشرط لم يكن بأداة شرط ليفيد العموم فلا يتخلف كـ(مهما) وغيرها وبالتالى لا يبطله تخلف مضمون الجزاء عن حصول الشرط فى مرة.

ويمكن إضافة القول بأن المسلمين قد انتصروا فى أحد حتى إذا خالفوا شرط النصر بالامتثال لأوامر الشرع، لأنه كما ذكرنا من قبل أنه مهما تكبر الجماعة المسلمة مستمسكة

---

1 - الطبرى، جامع البيان(٩/ ١٣٨)، الزمخشرى، الكشاف(٢/ ١٢٠)، وابن عاشور، التحرير والتنوير(٩/ ٢٩٨-٣٠١)، ابن عطية، المحرر الوجيز.

وممتثلة لأوامر الشرع فإنها منصورة، يضاف إلى ذلك أن غزوة أحد لم تكن هزيمة بالمعنى المعهود للهزيمة، إذ لم يؤسر أحد، ولم تسبب النساء والذرارى، ولم تحتل الأرض، ولم يستسلم الجيش، ولم يقم جيش المشركين بالبقاء فى أرض المعركة أيامه التالية على العادة الجارية حين يحتفل بالنصر، بل أسرع بالرجوع إلى مكة، علاوة على قيام جيش المسلمين بمطاردة واسعة النطاق للجيش المكى فى اليوم التالى للمعركة، مما جعلهم يسرعون الخطى ناجين بجلودهم من مصير عسر، لو استكملوا الحرب مع جيش المسلمين بعدما رأوا نصر المسلمين عليهم فى أول المعركة ووقوع أعداد كبيرة من القتلى بينهم.

ومع ذلك ففى هذا الوعيد بشارة بوقوع النصر الحاسم والفتح المبين، وأنه سيكون للمسلمين يوم فتح مكة.[1]

وختمت الآية بقوله تعالى:﴿ وَأَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾، لتكون تعليلاً لما سبق من نصر وتأييد، وتعليلاً وتمهيداً لما سيأتى من ملاقاة الكافرين من أن النصر سيكون حليفهم، لمعية الله التى لا يدركها العقل لأولئك المؤمنين وأن تلك المعية التى من ضمن ما تقتضيه، نصر مَنْ كان الله معهم، مكفولة لكل من تحقق بالإيمان فى أى عصر وزمان الإيمان الذى هو الركن الركين فى نزول نصر الله تعالى، ولكنه ليس أى إيمان، بل الإيمان الذى يصحب الرب فيه أولياءه، لأنه إذا كان معهم فمعهم الفئة التى لا تغلب، والحارس الذى لا ينام، والهادى الذى لا يضل ثم الواو فى قوله:﴿ وَأَنَّ ٱللَّهَ ....﴾، عاطفة على جملة ﴿ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾، فيستقيم به أسباب النصر أنه يوهن ويضعف تدبير وعمل الكفرة، وهو مع المؤمنين فى ذات الوقت يقويهم ويمدهم ويحفظهم وينصرهم، ويحقق لهم كل ما سبق من نعم أسداها لهم من أول السورة إلى ذلك الموقع.

---

1 – ابن عاشور، التحرير والتنوير(٩/ ٣٠٠).

وورد بعد ذلك مباشرة قوله تعالى:﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَوَلَّوۡاْ عَنۡهُ وَأَنتُمۡ تَسۡمَعُونَ ﴾ [الأنفال: ٢٠].

ولما لم يكن غرضنا التفسير لغير آيات الغزوة، فإننا نختصر إلى القدر الذى يشير إلى ترابط مشاهد الغزوة بما تبعها من أوامر ووصايا وعظات فقط. وبهذا الاختصار نختتم هذه المشاهد، لنعود إلى مقاطع أخرى ذكرتها السورة من مشاهد الغزوة، ولكنها جاءت متباعدة عن هذه السلسلة المتتابعة وبادىء الرأى فإن هذه الآيات عود لما بدأت به آيات السورة فى قوله تعالى:﴿ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴾ [الأنفال: ١].

فضمت هاتان الآيتان فى البدء والختام كل تلك المقاطع وأغلقت عليها وشدتها برباط النصر رباط الطاعة لله ورسوله ﷺ وترك مشاقته وعصيان أمره. فإنه أراهم الله تعالى آيات لطفه وعنايته بهم، ورأوا فوائد امتثال أمر الرسول ﷺ بالخروج لملاقاة الجيش وكانوا كارهين، أعقب ذلك بأن أمرهم بطاعة الله ورسوله ﷺ شكراً على نعمة النصر، واعتباراً بأن ما يأمرهم به خيرٌ عواقبه، وحذرهم من مخالفة أمر الله تعالى ورسوله ﷺ.

وفى هذا رجوع إلى الأمر بالطاعة الذى افتتحت به السورة رجوع الخطيب إلى مقدمة كلامه ليأخذها بعد الاستدلال فى صورة نتيجة أسفر عنها احتجاجه.

فإنه لما ابتدأ فأمرهم بطاعة الله ورسوله ﷺ:﴿ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ...﴾، فى سياق ترجيح ما أمرهم به الرسول ﷺ على ما تهواه أنفسهم، وضرب لهم مثلاً لذلك بحادثة كراهتهم الخروج إلى بدر للقاء النفير خشية الهزيمة، وما نجم عن طاعتهم للرسول ﷺ ومخالفتهم هواهم من النصر العظيم والغُنم الوفير والتأييد المبين للرسول ﷺ، والتأسيس لإقرار دينه إلى آخر المشاهد التى ذكرهم بمنته فيها، وكيف هزم المشركين لمشاقتهم لله ولرسوله ﷺ وهى معصية وترك طاعة الرسول ﷺ، وما حدث لهم جراء ذلك، وعرض بالمسلمين فى أن

يصيبهم ما أصاب المشاقين أن هم اتبعوا هواهم وتركوا طاعته ﷺ، وبوجوب أن يتبرأوا مما فيه أى شائبة لعصيانه، وضمن لهم بعد ذلك النصر أن أطاعوا الله ورسوله ﷺ وتوكلوا على الله وطلبوا منه النصر، أعقب ذلك بإعادة الأمر بالطاعة لله ورسوله ﷺ وأن لا يتولوا عنه كل ذلك فذلكة للمقصود من الموعظة الواقعة بطولها.

انتهت هذه الخلاصة المجملة لما فصل تبييناً للقضية الأصلية، ونسرع إلى البحث فى بقية المشاهد التى صورت متباعدة عن المشاهد الأولى، لحكمة عالية لا شك، إذ اشتملت الآيات الواقعة بين تلك المشاهد على منن ونعم ذكرهم الله بها، وعلى أوامر ونواه يجب أن يلتزموها فى مسيرتهم، وعلى وصايا تعيق المسيرة وتمنعها من مواصلة الرحلة مرفوعة الراية، ووصايا تثبيت الأقدام، وتبقى الراية وتدفعها دائماً إلى الأمام، وتضم فى تلك الآيات أيضاً صورة المشركين وإنفاقهم الأموال ليحاربوا الله ورسوله، فإذا بها تكون عليهم حسرة ويغلبون فى الدنيا، ويحشرون إلى جهنم فى الآخرة، مما يقوى قلوب المؤمنين، ويرفع معنوياتهم، ويرشدهم إلى الطريق الأمثل لملاقاة الكفار والانتصار عليهم إلى آخر ما حوته تلك الآيات الكريمات، إلى أن نصل إلى المشهد المقصود حيث يجمع فى طياته مشاهد كثيرة وهو فى قوله تعالى:﴿ ۞ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤١﴾ إِذْ أَنتُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلدُّنْيَا وَهُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلْقُصْوَىٰ وَٱلرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنكُمْ ۚ وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لَٱخْتَلَفْتُمْ فِى ٱلْمِيعَـٰدِ ۙ وَلَـٰكِن لِّيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَىَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٤٢﴾ إِذْ يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ فِى مَنَامِكَ قَلِيلًا ۖ وَلَوْ أَرَىٰكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ وَلَتَنَـٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ سَلَّمَ ۗ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٤٣﴾ وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ ٱلْتَقَيْتُمْ فِىٓ أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِىٓ أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٤٤﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُواْ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٤٥﴾ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَـٰزَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ۖ وَٱصْبِرُوٓاْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴿٤٦﴾ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَـٰرِهِم بَطَرًا وَرِئَآءَ

ٱلنَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٤٧﴾ وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْۖ فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّنكُمْ إِنِّيٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَۚ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٤٨﴾ إِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمْۗ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٩﴾ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٥٠﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٥١﴾﴾ [الأنفال: ٤١-٥١].

بدأت الآيات الأولى فى قصة بدر كما ذكر القرآن الكريم بتسليم الأنفال لله ورسوله ﷺ وأنها خاصة به جل وعلا يضعها ويقسمها حيث يشاء، ثم بين الأهم من الأنفال والذى يجب أن يكون عليه المؤمنون من الإيمان وأخلاقه، ليركنوا إليه ويتوكلوا عليه لأن كل ذلك بترتيبه هو سبحانه لا بترتيبهم ولا بترتيب الدنيا جميعاً.

وإذ استقرت الأحوال والنفوس والأوامر والنواهى والوصايا كما أبرزتها الآيات من الله تعالى، عاد القرآن الكريم ليفصل قسمة الغنائم كما أراد هو جل وعلا، ومع إعلان هذه القسمة بعد انتهاء المعركة وضح لهم أموراً أخرى تؤكد عليهم أن الأمر كله لله من قبل ومن بعد، وشرح صدورهم بمعنى جديد مازالت أصداه عالية، وستبقى إلى يوم القيامة وهو تسمية يوم بدر بيوم الفرقان، وكان مناسباً بعد ذكر الفرقان أن يبين لهم مستحضراً الحالة أمامهم كأنها مشاهدة كيف كان فرقاناً، وكذلك التوجيهات التالية لهذا النصر الإلهى، الذى لا دخل لهم فيه ليعود بهم إلى السيرة العطرة التى أرادها لهم، ولتكون تلك التوجيهات النبراس الهادى لهذا الطريق القويم لرفعة الدنيا والآخرة.

وبتفصيل يسير يبدأ هذا الشطر ببيان حكم الله تعالى فى الغنائم ليستوحوا له إن كانوا يؤمنون بالله وما أنزل على عبده يوم الفرقان يوم التقى الجمعان، ثم يكشف لهم عن تدبير الله وتقديره فى الموقعة التى جاءت بهذه الغنائم، ويستحضر جانباً آخر من مواقف المعركة

ومشاهدها يتجلى فيه هذا التقدير وذلك التدبير، كما يتجلى مرة أخرى أنهم لم يكونوا سوى أداة لإمضاء قدر الله تعالى ستاراً له، ثم يهيب بهم من وراء هذا الذى كشفهم لهم من حقيقة المعركة إلى الثبات عند اللقاء، وإلى ذكر الله وطاعته وطاعة رسوله ﷺ، ويحذرهم التنازع مخافة الفشل والانكسار، ويدعوهم إلى الصبر، وتجنب البطر والرياء فى الجهاد، ويحذرهم عاقبة الكفار الذين خرجوا من ديارهم بطراً ورئاء الناس ويصدون عن سبيل الله منخدعين بكيد الشيطان، ويؤكد لهم مرة أخرى، الدعوة إلى التوكل على الله وحده، القوى القادر على النصر، الحكيم فى تقدير وتدبيره، ثم يريهم سنته فى أخذ الكافرين المكذبين، وكما ذكر فى الشطر الأول الملائكة يثبتون المؤمنين، ويضربون أعناق الكفار وأيديهم، ذكر هنا أن الملائكة يتوفون الذين كفروا يضربون وجوههم وأدبارهم – ثم زاد بذكر نعمته ومنته فى تآلف المؤمنين والتى لم تكن ولو اجتمع لها من بأقطارها- يطمئنهم إلى كفايته لهم وحمايته إياهم، ومن ثم حرضهم على القتال، وأن يصمدوا فى أضعف حالاتهم، بضعْف أكفائهم من المشركين، والله ناصرهم ما صبروا.[1]

هذا التمهيد نواجه به ما يخصنا فقط من أحداث السيرة ومعانيها، ونبدأ لما استسلموا لأمر الله كما طلب منهم، واستقر فيهم مدلول الإيمان، عاد ليرد عليهم أربعة أخماس الغنيمة، ويستبقى الخمس على الأصل لله ولرسوله ﷺ، لقد استقر فى نفوسهم أنهم لا يملكونها ابتداء بحق الغزو، إنما يستحقونها بمنح الله لهم إياها، بما منحهم من نصر من عنده، وبما دبر أمر المعركة كله، إن الاستسلام لهذا الأمر الجديد هو مقتضى الإيمان بالله تعالى، وذكر مع الإيمان بالله الإيمان بما أنزل على عبده يوم الفرقان فذكرهم بعبده ﷺ تشديداً على الإيمان به، وتصديقاً له فيما أخبر عن ربه، وأن العبودية التى وصل إليها هى أعلى درجات الإيمان والاصطفاء وإنه أعلى مقام يصل إليه الانسان بتكريم الله له، فهى تجلى لهم

1 – انظر سيد قطب، فى ظلال القرآن(١٥١٥-١٥١٦).

قيمة النبى ﷺ عند الله، وفيما يبلغ به عن ربه، وفيما يوكله فيه ربه من التصرف وبالتالى يرشدهم إلى حقيقة العبودية التى يجب أن يسعوا ليدركوها بفضل الله تعالى ليخرجوا بها من عبودية العباد والنفس والهوى والمألوفات والعادات، ليكونوا أحراراً كما فطرهم لا يعبدون سوى إلاههم الواحد جل وعلا.[1]

ويبين لهم أيضاً أن ما أنزل على عبده يوم الفرقان قد رأوه وسمعوه، قد عاينوه وعايشوه وعلموا أن ليس لأحد فيه فضل، وألا قوة على إيجاده وإنزاله إلا للقوى القاهر، مما يستجيش به عندهم عواطف الإيمان ودلائل اليقين وقوة الثقة، التى تحملهم على أن يكونوا كما أراد الله ورسوله ﷺ فى كل أحوالهم ومعاركهم لينزل عليهم ما شاهدوه بأعينهم واستقر مدلوله فى قلوبهم ووجدانهم، ليس بعد ذلك دلائل لإيمان، ولا لتصديق ولا لنبوة، وما يتخلف شيء بعد الآن بسبب من أنفسهم.

ونجيء إلى وصف ذلك اليوم بالفرقان.

إن الفرقان الأول – وهو المجمل – الذى أشار إليه المفسرون، وهى أنها كانت فرقاناً بين الحق والباطل، ولكنه الحق الذى قامت عليه السماوات والأرض الحق الأصيل الذى يعنى تفرد الرب بالالوهية والسلطان والتدبير والتقدير، وأن الكون كله فى عبوديته لا معقب له ولا شريك، وبين الباطل الزائف الذى يقيمه فى الأرض طواغيت تعبد من دون الله تعالى وتتصرف فى خلق الله بما تشاء هى.

لقد كانت فرقاناً بين الوحدانية المجردة لله تعالى فى الشعور والضمير، والخلق والسلوك والعبادة والمعاملة، وبين الشرك فى كل الصور التى تشمل عبودية الضمير لغير الله تعالى من الأشخاص والقيم والأهواء والتقاليد وغيرها بحيث لا تنحنى الهامات لغير

1 - انظر سيد قطب، فى ظلال القرآن(١٥٢٠-١٥٢١).

الله متساوية فى الخضوع لشرعة.

لقد كانت غزوة بدر فرقاناً بين عهدين فى تاريخ الإسلام عهد الصبر والمصابرة والتجمع والانتظار، وعهد القوة والحركة والمبادأة، إنه عهد الاندفاع لتحقيق المنهج الجديد والدولة الجديدة والمجتمع الجديد فى واقع الحياة، يزيل المعوقات التى تحول دون ذلك فى واقع المسلمين أولاً، وفى حياة البشرية بعد ذلك. وما هى إلا سنوات بداية بذلك العهد الذى كان إيذاناً بانتهاء دولة الكفر حتى ظهر صدق هذا الفرقان وأنه كان حقاً.

كانت فرقاناً بين عهدين فى تاريخ البشرية، فالبشرية بمجموعها قبل قيام نظام الإسلام كانت غير البشرية بعد قيام نظام الإسلام، بلا جدال، وكانت تلك البداية فى غزوة بدر، والتى لولا تدبير الله تعالى لدينه وجنده وما أراد لهذه البشرية من الهداية بالرسالة الخاتمة لكانت غنيمة لقافلة بها بعض الأموال.

هذا المجتمع الذى يمثل ميلاداً جديداً للإنسان، وهذه القيم التى تقوم عليها الحياة، ويقوم عليها النظام الاجتماعى والقانونى وغيره كل ذلك لم يعد ملكاً للمسلمين وحدهم، بل صار شيئاً فشيئاً ملكاً للبشرية تأثرت به سواء فى دار الإسلام أو فى خارجها، سواء بصداقة الإسلام أو بعداوته، إن الصليبين الذين زحفوا من الغرب ليحاربوا الإسلام فى ربوعه قد تأثروا بقضاياه ومنها نظامه الاجتماعى فرجعوا إلى بلادهم ليحطموا النظام الاقطاعى، وإن التتار الذين دمروا خلافة الإسلام وهدموا حواضره بإيحاء من اليهود والصليبين من أهل دار الإسلام رجعوا يعتنقون هذه العقيدة ونشروها فى رقعة من الأرض جديدة فى قلب أوربا ظلت الخلافة فيها من القرن الخامس عشر إلى القرن العشرين، على أية حال لقد تأثر التاريخ البشرى كله فى أرض الإسلام أو الأرض التى تناهضه على السواء.[1]

1 - سيد قطب، فى ظلال القرآن(١٥٢١-١٥٢٣).

وأخيراً كانت فرقاناً فى التصور بين أسباب النصر وعوامل الهزيمة، لقد كانت كل عوامل النصر الظاهرة فى صف المشركين، وكانت فى صف المؤمنين كل عوامل الهزيمة الظاهرة، حتى قال المنافقون:﴿ غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمۡ ﴾ [الأنفال: ٤٩]، لقد أراد الله تعالى أن تجرى المعركة على هذا النحو لتكون فرقاناً بين تصورين وتقديرين لأسباب النصر والهزيمة، فتنتصر العقيدة القوية على الكثرة العددية وعلى الزاد والعتاد، ليعلموا أن النصر من عند الله العزيز الحكيم، لقد كانت تلك الألفاظ القليلة الموحية بكل تلك الإيحاءات هى أعلام السيرة التى ساروا بها وساروا تحتها وساروا وراءها، وكلما تمسكوا بها ثبتت وتقدمت وانتصرت، وكلما سقط علم من أعلامها ولم يرفعوه بدأت تهتز الأركان، وتتكالب القوى وهو ما ندركه اليوم، وندرك به ضرورة رفع تلك الأعلام مرة أخرى لنعيد السيرة سيرة الرسول ﷺ وصحبه، السيرة الأولى.

وهنا يعود السياق إلى يوم الفرقان يوم التقى الجمعان، يعود إلى المعركة ليعيد عرضها فى ثوب لم ينشر من قبل بأسلوب عجيب فى استحضار مشاهدها ومواقفها، كما لو كانت معروضة فعلاً، ويكشف عن تدبير الله تعالى فى إدارتها، وكان هذا المشهد يمكن أن يذكر فى أول السورة مع أول ما ذكر إذ له تعلق شديد ببداية المعركة، وإنما ذكرها ليدلل على الفرقان الحاصل بهذا العرض، ويبينه لهم بعد المعركة لأنه المستمر معهم بعد ذلك ومع المؤمنين إلى يوم القيامة، وكذلك مع الكافرين، وليكون تمهيداً لأحكام أغراض مستمرة دائمة مبتدئة بيوم الفرقان.

يقول تعالى:﴿ إِذۡ أَنتُم بِٱلۡعُدۡوَةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُم بِٱلۡعُدۡوَةِ ٱلۡقُصۡوَىٰ وَٱلرَّكۡبُ أَسۡفَلَ مِنكُمۡۚ وَلَوۡ تَوَاعَدتُّمۡ لَٱخۡتَلَفۡتُمۡ فِي ٱلۡمِيعَٰدِ وَلَٰكِن لِّيَقۡضِيَ ٱللَّهُ أَمۡرٗا كَانَ مَفۡعُولٗا لِّيَهۡلِكَ مَنۡ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٖ وَيَحۡيَىٰ مَنۡ حَيَّ عَنۢ بَيِّنَةٖۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٤٢﴾ إِذۡ يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلٗاۖ وَلَوۡ أَرَىٰكَهُمۡ كَثِيرٗا لَّفَشِلۡتُمۡ وَلَتَنَٰزَعۡتُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ سَلَّمَۚ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٤٣﴾ وَإِذۡ يُرِيكُمُوهُمۡ إِذِ ٱلۡتَقَيۡتُمۡ فِيٓ أَعۡيُنِكُمۡ قَلِيلٗا

﴿وَيُقَلِّلُكُمْ فِيٓ أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًاۗ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾ [الأنفال: ٤٢-٤٤].

إن الآيات تحكى وتنطق بمواقع الفريقين، وفى نفس الوقت شاهدة بالتدبير الخفى من ورائها إن يد الله تكاد ترى وهى توقف هؤلاء هنا وهؤلاء هناك والقافلة من بعيد أسفل منهم بمحازاة الساحل.

ثم تبين الآيات الرؤيا التى رآها النبى ﷺ فى إغفائه تقللهم فى عينه تسليماً من الله للمؤمنين من الفشل والتنازع لو رآهم كثيراً إلى آخر المدلولات والاشارات والمنطوقات فى هذه الآيات القليلة الموحية بأعظم المعانى التى سنشير إلى بعضها فى طوايا الكلام إن شاء الله تعالى.

لقد نزل المؤمنون بضفة الوادى القريبة من المدينة، ونزل جيش المشركين بقيادة أبى جهل بالضفة البعيدة من المدينة، وبين الفريقين ربوة تفصلهما، وأما القافلة فقد فر بها أبوسفيان إلى محاذاة الساحل فكانت تحت المؤمنين من جهة البحر، ولم يكن كل من الجيشين يعلم بموقع صاحبه، وإنما جمعهما الله هكذا على جانبى الربوة لأمر يريده، حتى لو أن بينهما موعداً على اللقاء ما اجتمعا بمثل هذه الدقة والضبط من ناحية المكان والموعد، هذا يذكر به المولى سبحانه المؤمنين الآن ليذكرهم بتدبيره وتقديره وإحاطته بكل شيء .

إن وراء هذا التلاقى بهذا العرض لأمراً مقضياً يريد رب العباد تحقيقه بكم أيها المؤمنون فى عالم الواقع ويدبر له هذه التدبير الخفى اللطيف، ويهيء له جميع الظروف التى تيسر لكم القيام به إنه قوله وحكمه العدل:﴿لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ﴾.[1]

إن الهلاك هنا قد يعبر به حقيقة عن القتل، مجازاً عن الكفر، وكذا الحياة يعبر بها عن

1 - يراجع كذلك لمعنى البينة الفخر الرازى، التفسير الكبير(٧/ ٥٠١).

الحياة والإيمان حقيقة ومجازاً كما قال تعالى:﴿ أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَـٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَـٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ﴾ [الأنعام: ١٢٢].

فمن يؤمن بعد ذلك فى هذا الفرقان الضخم يؤمن عن بينة واضحة تبرزها المعركة، ومن يكفر بدون ما شبهة قط يكفر عن بينة فيهلك عن بينة – إن المعركة بظروفها التى لابستها وصاحبتها – تحمل بينة لا تجحد وتدل دلالة لا تنكر على تدبير وراء تدبير البشر، وعلى قوى وراءها غير قوة البشر إنها تثبت لهذا الدين رباً يتولى أصحابه متى أخلصوا له وجاهدوا فى سبيله وصبروا وثبتوا، وأنه لو كان الأمر إلى القوة المادية الظاهرة ما هزم المشركون ولا انتصرت العصبة المسلمة هذا الانتصار العظيم.

ولقد قال المشركون أنفسهم لحليفهم الذى أراد أن يمدهم بالرجال وهم ذاهبون للقتال: فلعمرى إن كنا إنما نقاتل الناس فما بنا من ضعف عنهم، وإن كنا إنما نقاتل الله – كما يزعم محمد – فما لأحد بالله من طاقة. ولقد علموا – لو كان العلم يجدى – أنهم إنما يقاتلون الله كما قال لهم رسول الله الصادق الأمين ﷺ، وأنه ما لأحد بالله من طاقة.... فإذا هلكوا بعد ذلك بالكفر فإنما يهلكون عن بينة.[1]

وبعد هذا التعقيب على ما سبق يأتى أظهار القرآن الكريم للتدبير الخفى اللطيف:﴿ إِذْ يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ فِى مَنَامِكَ قَلِيلًا ۖ وَلَوْ أَرَىٰكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ وَلَتَنَـٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ سَلَّمَ ﴾ [الأنفال: ٤٣].

لقد كان من تدبير الله تعالى أن يرى النبى ﷺ رؤيا فى منامه يرى فيها الكافرين قليلاً لا قوة لهم ولا وزن فيخبر أصحابه برؤياه فيستبشروا ويتشجعوا على خوض المعركة، ويخبر المولى جل وعلا بعلة ذلك، بأنه علم سبحانه أنه لو أراهم كثيراً لفت ذلك فى عضد

١ – سيد قطب، فى ظلال القرآن(١٥٢٥).

المسلمين، ولأضعف قلوبهم عن قتال لا استعداد له ولا توقع، ولتنازعوا فى اللقاء وعدمه، والنزاع أشأم شيء يصيب جيشاً فى مثل هذا الموطن.

والرؤيا – رؤيا النبى ﷺ وهى حق –، فكيف يراهم على مخالفة الواقع وهم كثير، إنهم قليل كما رآهم ﷺ فعلاً إن القوة مهما كانت كثيرة العدد والعدة بغير إيمان فهى قليلة العناء قليلة الوزن فى المعركة، قلوبهم خواء من الإدراك الواسع والإيمان الدافع، هذه هى الحقيقة من وراء الظاهر المخادع، وهى التى أدخلت الطمأنينة فى قلوب المؤمنين وكان هذا تدبيراً من تدبير الله العليم بذات الصدور كما ختمت به الآية.

وعندما التقى الجمعان جاءت رؤية العيان لتكرر الرؤيا النبوية الصادقة بأن يرى كل من الفريقين الآخر قليلاً ليقضى الله أمره المفعول وينفذ قدره السابق، وجاء التذييل:﴿ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴾، وهو التعقيب المناسب لتحقيق التدبير ووقوع القضاء، وهو أن الأمور كلها مرجعها إلى الله – سبحانه وتعالى – يصرفها بسلطانه، ويوقعها بإرادته، ولا تند عن قدرته وحكمه، ولا ينفذ فى الوجود شيء إلا ما قضاه وجرت به المقادير. ومنها على وجه الأخص ذلك الحكم الذى نحن بصدده، إذ الكلام مسوق إليه سوقاً أولياً.

ونشير سريعاً إلى تحليل تلك الآيات من آيات السيرة القرآنية لغزوة بدر، حيث بدأت بقوله تعالى:﴿ ۞ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [الأنفال: ٤١].

وهذا انتقال لبيان ما أجمل من حكم الأنفال الذى افتتحته السورة، وافتتاحه بـ﴿ وَٱعْلَمُوٓاْ ﴾، للاهتمام بشأنه، والتنبيه على رعاية العمل به، فإن المقصود بالعلم تَقَرُّرُ الجزم بأن ذلك حكم الله، والعمل بذلك المعلوم، فيكون ﴿ وَٱعْلَمُوٓاْ ﴾، كناية مراداً به صريحه ولازمه، والخطاب لجميع

المسلمين، وبالخصوص جيش بدر.[1]

﴿ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ ﴾، شرط يتعلق بما دل عليه قوله:﴿ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمْتُم ﴾، لأن الأمر بالعلم لما كان المقصود به العمل بالمعلوم والامتثال لمقتضاه، لأن العلم المجرد يستوى فيه المؤمن والكافر صح تعلق الشرط به، فيكون قوله:﴿ وَٱعْلَمُوٓاْ ﴾، دليلاً على الجواب، أو هو الجواب مقدماً على شرطه، والتقدير: إن كنتم آمنتم بالله فاعلموا أنما غنمتم إلى آخره، لأن الذى يتوقف على تحقق الإيمان بالله وآياته هو العلم بأنه حكم الله مع العمل المترتب على ذلك العلم. مطلق العلم بأن الرسول ﷺ قال ذلك.[2]

وبالتأمل نرى أن الشرط هنا محقق الوقوع؛ إذ لا شك فى أن المخاطبين مؤمنون بالله، والمقصود منه تحقق المشروط، وهو مضمون:﴿ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمْتُم﴾ إلى آخرها.

وجيء فى الشرط بحرف ﴿ إِنَّ ﴾، التى شأن شرطها أن يكون مشكوكاً فى وقوعه زيادة فى حثهم على الطاعة حيث بفرض حالهم فى صورة المشكوك فى حصول شرطه إلهاباً لهم ليبعثهم على إظهار تحقق الشرط فيهم. فالمعنى حينئذ أنكم آمنتم بالله والإيمان يرشد إلى اليقين بتمام العلم والقدرة له سبحانه، وآمنتم بما أنزل على عبده يوم بدر حين فرق الله بين الحق والباطل فرأيتم ذلك رأى العين وارتقى إيمانكم من مرتبة حق اليقين إلى مرتبة عين اليقين، فعلمتم أن الله أعلم بنفعكم من أنفسكم إذ يعدكم إحدى الطائفتين، فكان ما دفعكم إليه أحفظ لمصلحتكم، وأشد تثبيتاً لقوة دينكم فمن رأوا ذلك وتحققوه فهم أحرياء بأن يعلموا أن ما شرع الله لهم من قسمة الغنائم هو المصلحة، ووراء ذلك مصالح جمة آجلة فى الدنيا والآخرة.

---

1 - الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير(١٠/ ٥).

2 - الزمخشرى، الكشاف(٢/ ١٢٧)، أبو السعود، إرشاد العقل السليم(٢/ ٣٦٢)، الالوسى، روح المعانى(١٠/ ٨)، الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير(١٠/ ١٣-١٤).

وقوله:﴿ وَمَآ أَنزَلْنَا ﴾، عطف على اسم الجلالة، والمعنى وآمنتم بما أنزلنا على عبدنا يوم الفرقان – يوم بدر – وتخصيص ﴿ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ ﴾، بالذكر من جملة معتقدات الإيمان؛ لأن لذلك المنزل فى هذا اليوم وقعه الشديد التأثير عليهم مما يجعل لهذا المنزل مزيد تعلق بالمسارعة إلى العمل بما أمروا به فى قوله:﴿ وَٱعْلَمُوٓاْ ﴾.

وإن ما نبههم إليه فى ذلك الإنزال أمران:

الأول: أن يكون المنزل هو الوحى الذى أنزله على عبده يوم بدر كوعده باحدى الطائفتين وتبشيره بالنصر، والوحى بقلة أولئك وهؤلاء...إلى آخر ما نزل من وحى الله تعالى لرسوله ﷺ.

الثانى: أن المنزل يوم الفرقان هو ما شاهدوه بأعينهم من خوارق العادات، واللطف الإلهى، كنزول الملائكة، وإنزال المطر عند حاجة المسلمين إليه، ونصر القلة على الكثرة إلى غير ذلك مما ذكرنا فى موضعه.

وإن إطلاق الانزال ليشمل الأمرين كما ذكرنا معاً. وتزيد الآية فى إظهار أمر آخر وهو التشريف لهذا الانزال والتطهر؛ لأن إطلاق الانزال على حصوله استعارة تشبيهاً له بالواصل إليهم من علو تعظيماً له[1]، علاوة على تعظيم النبى ﷺ بالاضافة إلى الله جل وعلا، وبصفة العبودية خاصة التى هى أعلى درجات وصفات المدح، مع إرشاد المؤمنين إلى العبودية التى يجب أن يكونوا عليها فى تلقى أوامر مولاهم السيد الأعلى وأن حصولهم على تلك المرتبة العليا عند الله تعالى، كما هى لنبيهم بكونهم يكونون عبيداً لربهم منقادين له مع تمام المحبة.

1 – انظر لما سبق الزمخشرى، الكشاف(٢/ ١٢٧)، أبا السعود، إرشاد العقل السليم(٢/ ٣٦٢)، الألوسى، روح المعانى(١٠/ ٨)، ابن عاشور، التحرير والتنوير(١٠/ ١٣-١٤).

و ﴿ يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ ﴾، هو يوم بدر وهو اليوم السابع عشر من رمضان سنة اثنتين من الهجرة، وقد ذكرنا لم سمى الفرقان – ولكن إضافة يوم إلى الفرقان إضافة تنويه به وتشريف له – وقوله:﴿ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ ﴾، بدل من يوم الفرقان، فإضافة يوم إلى جملة: ﴿ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ ﴾، للتذكير بذلك الالتقاء العجيب الذى كان فيه نصرهم على عدوهم، وهذا الالتقاء العجيب حقه أن يذكر به لحكمه التى أشرنا إليه، وحصوله الذى لا يمكن لأحد إحداثه إلا الله، وإن استمرار المؤمنين على ذكر منه لتقوية لإيمانهم، وشحذاً لهممهم على مواصلة المسيرة، ومن ثم رأينا تفصيل القرآن الكريم لهذا اللقاء لذينك الجمعين، جمع المؤمنين المؤيد بالله، وجمع المشركين. فيما يأتى من آيات.

وقوله:﴿ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾، اعتراض بتذييل الآيات السابقة لارتباطها بما بعدها كأنها فى سلك واحد لو قلنا يوم التقى الجمعان إذ أنتم بالعدوة الدنيا.... إلى آخره فالكلام مستقيم ولكن البلاغة فى الاعتراض بهذا التذييل ليؤكد أن ما حدث بتمام قدرته وما سيفصله حالاً إنما هو كذلك بتمام قدرته، وهذا دليل على أنه لا يتعاصى على قدرته شيء؛ فإن ما أسداه لكم يوم بدر لم يكن جارياً على متعارف الأسباب المعتادة، فقدرة الله تعالى قلبت الأحوال، وأنشأت والأشياء من غير مجاريها، وأن ما جرى ليلتقى الجمعان بهذه الطريقة كان بترتيب الله وتدبيره، ثم قصه القرآن مفصلاً بقوله:﴿ إِذْ أَنتُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلدُّنْيَا وَهُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلْقُصْوَىٰ وَٱلرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنكُمْ ۚ وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لَٱخْتَلَفْتُمْ فِى ٱلْمِيعَٰدِ ۙ وَلَٰكِن لِّيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَىَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٤٢﴾ ﴾ [الأنفال: ٤٢].

﴿ إِذْ ﴾ ظرف لـ﴿ أَنزَلْنَا ﴾، أى زمن أنتم بالعدوة الدنيا، ووصف الهيئة ليس من دواعى القرآن الكريم وأغراضه، فهو أطناب فى وصف المنازل، لا يذكره القرآن إلا أن يكون فيه عبرة لازم التذكير بها وقد ظهرت هنا، وهى الحالة الحرجة التى كان المسلمون عليها التى

بينها الظرف وما أضيف إليه لتذكيرهم بها، وتنبيههم للطف عظيم حفهم من الله تعالى، وهى حالة موقع جيش المسلمين من جيش المشركين، وكيف ألتقى الجمعان فى مكان واحد على غير ميعاد، ووجد المسلمون أنفسهم أمام عدو قوى العدد والعدة والمكانة من حسن الموقع.

والعدوة[1]، ضفة الوادى وشاطئه.

والوصف بالدنيا والقصوى يَشْعُر المخاطبون بفائدته، وهى أن المسلمين كانوا حريصين أن يسبقوا المشركين إلى العدوة القصوى، لأنها الأنسب كما بينا فلما سبق المشركون اغتم المسلمون لذلك، فلما نزل المسلمون بالعدوة الدنيا انقلب الموقف بإنزال الله للمطر، حيث تخير المسلمون أحسن موقع وثبتت أرضهم وسقوا وغوروا الماء واتخذوا الحوض، فلما وصل المشركون وجدوا المسلمين قد احتازوا الماء وساء موقفهم ولم تنفعهم العدوة القصوى التى ظن المسلمون أنها الأحسن والأوفق.

﴿ وَٱلرَّكۡبُ أَسۡفَلَ مِنكُمۡ ﴾ [الأنفال: ٤٢]، وهم عير قريش التى أفلتت من المسلمين بمحازاة الساحل بقيادة أبو سفيان، فلو علم العدو بهذا الوضع لاطبقوا بجماعتيهم على المسلمين، ولكن الله صرفهم عن التفطن لذلك، وصرف المسلمين عن العير، ولو حاولوا لوقعوا بين جماعتى العدو.

و﴿ أَسۡفَلَ ﴾، منصوب على الظرفية المكانية، وهو فى محل رفع خبر عن الركب، أى والركب قد فاتكم وكنتم تأملون أن تدركوه لتغنموا ما فيه.

نعود إلى التقييد بهذا الوقت وتلك الحالة فيه، فهو مثل وصف المنازل لاجدوى منه فى

---

1 - سرح الدنيا والقصوى.

القرآن الكريم إلا للعبرة والعظة للسامعين والمؤمنين، ومن ثم كان الغرض من ذلك شكر نعمة الله على ما وفقهم إليه وصرفهم له، وعلى نصرهم بخلاف ظنهم، ليحسن ظنُهم بالله تعالى والاعتماد عليه فى أمورهم، فإن تكامل وصفهم بكل تلك الأحوال من أول السورة وبداية سرد القصة ليبرهن وهم موقنون بذلك، أنهم فى أصعب حالة وعدد ومكان وعدة ولم يكن لهم شيء يوازن المشركين فضلاً عن أن يتفوقوا فيه عليهم، فكان من عجيب عناية الله تعالى أن قلب تلك الحالة رأساً على عقب، وألقى الله فى قلوب المشركين تهوين أمر المسلمين فلم يأخذوا حذرهم – وهم على حق فى ظاهر الأمر – لأى شيء يأخذون حذرهم، وجعلوا مقامهم فى بدر مقام لهو وطرب. فنصر الله المسلمين، من حيث لا يتوقع المسلمون ولا المشركون ولا أى أحد كان، ومن ثم فالذين خوطبوا بقوله:﴿ إِذْ أَنتُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلدُّنْيَا ......﴾، الآية هم أعلم السامعين بفائدة ذلك ولولاه لكان هذا التقييد بالوقت قليل الجدوى.[1]

وجملة ﴿ وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لَٱخْتَلَفْتُمْ فِى ٱلْمِيعَـٰدِ ﴾، فى موضع الحال من الجمعان، وعاملالحال فعل ﴿ ٱلْتَقَى ﴾، أى يوم التقى الجمعان فى حال لقاء على غير ميعاد، قد جاء ألزم مما لو كان على ميعاد فإن اللقاء الذى يكون موعوداً قد يتأخر فيه أحد المتواعدين عن وقته[2]، وهذا اللقاء قد جاء فى إبان متحد وفى مكان متقابل ومعنى الاختلاف فى الميعاد: اختلاف وقته بأن يتأخر أحد الفريقين عن الوقت المحدود فلم يأتوا على سواء وللعلامة الطاهر بن عاشور رأى فى التلازم بين شرط ﴿وَلَوْ﴾، وجوابها هنا حيث هو خفى وأشكل على المفسرين

1 – انظر المصادر السابقة.

2 – يقول أبو السعود: أى لو تواعدتم أنتم وهم للقتال ثم علمتم حالكم وحالهم لاختلفتم أنتم فى الميعاد هيبة لهم ويأساً من الظفر عليهم ليتحققوا أن ما اتفق لهم من الفتح ليس إلا صنعاً من الله عز وجل خارقاً للعادات، فيزدادوا إيماناً وشكر، إرشاد العقل السليم(٢/ ٣٦٢)، وانظر الالوسى، روح المعانى(١٠/ ١٠)، وذلك ما ذكره الزمخشرى، الكشاف(٢/ ١٢٨).

ونلخصه فيما يلي لفائدته فيما نحن فيه من سيرة وكيف عبر القرآن الكريم بهذه التعبيرات الجليلة فى سوق سيرة النبى ﷺ والمؤمنين، وما ينبغى على المؤمنين أن يفقهوه ليعيدوا به سيرتهم الأولى فيقول: والتلازم بين شرط ﴿ وَلَوْ ﴾، وجوابها خفى هنا، وقد أشكل على المفسرين، ومنهم من اضطر إلى تقدير كلام محذوف تقديره: ثم علمتم قلتكم، وأن ذلك يفضى الى التخلف – وقد ذكرنا القائلين بذلك فى الهامش السابق – وغير ذلك من التقدير.

فالوجه فى تفسير هذه الآية أن ﴿ وَلَوْ ﴾، هذه من قبيل ﴿ وَلَوْ ﴾، الصُهَيبية فإن لها استعمالات ملاكها: أن لا يقصد ربط حصول نقيض مضمون الجواب بحصول نقيض مضمون الشرط، بل يقصد أن مضمون الجواب حاصل لا محالة، وقد ذكر الشواهد على تفصيلات ذلك كقوله تعالى:﴿ وَلَوْ سَمِعُواْ مَا ٱسْتَجَابُواْ لَكُمْ ﴾ [فاطر: ١٤]، وقوله:﴿ وَلَوْ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ ﴾ [الأنعام: ٢٨]، ومحصل هذا أن مضمون الجواب مستمر الحصول فى جميع الأحوال فى فرض المتكلم، فيأتى بجملة الشرط متضمنة الحالة التى هى عند السامع مظنة أن يحصل فيها نقيض مضمون الجواب وذلك كقوله تعالى:﴿ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴾ [الأنفال: ٢٣].

والمعنى: لو تواعدتم لاختلفتم فى الميعاد، أى فى وقت ما تواعدتم عليه؛ لأن غالب أحوال المتواعدين ألا يستوى وفاؤهما فى وقت الوفاء بما تواعدا عليه. أى فى وقت واحد، لأن التوقيت كان فى تلك الأزمان تقريباً يقدرونه بأجزاء النهار كالضحى والعصر والغروب. لا ينضبط كاليوم فلكياً، والمعنى: فبالأحرى وأنتم لم تتواعدوا وقد أتيتم سواء متحدين وقت حلولكم فى العدوتين، فاعلموا أن ذلك تيسير بقدر الله لأنه قدر ذلك لتعلموا أن نصركم من عنده على نحو قوله تعالى:﴿ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ ﴾ [الأنفال: ١٧].[1]

1 – انظر الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير(١٠/ ١٨-١٩).

وظهر موقع الاستدراك فى قوله تعالى:﴿ وَلَٰكِن لِّيَقۡضِيَ ٱللَّهُ أَمۡرًا كَانَ مَفۡعُولاً ﴾ [الأنفال: ٤٢].

والتقدير ولكن لم تتواعدوا وجئتم على غير اتعاد ليقضى الله – ليحقق وينجز – ما أراده من نصركم على المشركين، ولما كان تعليل الاستدراك قد وقع بفعل مسند إلى الله كان مفيداً أن مجيئهم إلى العدوتين على غير تواعد منهم كان عناية بالمسلمين من الله تعالى.

ومعنى ﴿ أَمۡرًا ﴾، هنا الشيء العظيم المهم و﴿ كَانَ ﴾، تدل على تحقق ثبوت معنى خبرها لاسمها من الماضى مثل قوله:﴿ وَكَانَ حَقًّا عَلَيۡنَا نَصۡرُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [الروم: ٤٧].

فالاستحقاق لهذا الحق ثابت علينا من الأزل، ولذا فمعنى:﴿ كَانَ مَفۡعُولاً ﴾، أنه ثبت له فى علم الله السابق أنه يفعل، فاشتق له صيغة مفعول من فَعَل للتدليل على أنه حين قدرت مفعوليته فى الأزل صار كأنه فُعِل.

ويكون حاصل المعنى: لينجز الله ويوقع حدثاً عظيماً متصفاً منذ القدم بأنه محقق الوقوع حقيقاً بأن يفعل حتى كأنه قد فُعِل؛ لإنه لا يمنعه ما يحف به من الموانع المعتادة.

لا شك أن تلك الآيات فى درسها اللغوى والنحوى والبلاغى تشير إلى هذه المعانى المهمة التى هى محل توضيح القرآن الكريم لسرد السيرة قصصاً وفقهاً ومعنى وأحكاماً عبراً وعظات وتأسيساً لواقع، وتثبيتاً لإيمان، وسعياً لنصر إلى آخره، ويظهر ذلك فى :

عناية الله الأزلية بالمؤمنين فيما يختاره لهم.

ترتيب الله لهم، وحملهم على هذا الترتيب، وإفشاء تدبير الكافرين وكيدهم.

تبيين الأدلة وتعليل الأحوال والأحكام لهم، ليظهر لهم وجه المصلحة فيما أراد بهم،

وما لم يعلموا من مصالح هو أعظم فائدة لهم حتى يثبتوا ويسيروا مطمئنين واثقين فى نصره، يزدادون بذلك إيماناً وتوكلاً وبذلاً وتضحية.

التأكيد لهم على صدق الرسالة والرسول ﷺ وصحة النبوة وإتصال الأرض بالسماء وعلى توحيد الله تعالى الذى كل شيء بيده وله ملكوت كل شيء، وعلى الإيمان باليوم الآخر.

إن ذلك كله لهو القول الفصل فى الرد على شبه المستشرقين، ووضوح الردود على أمراضهم بلا لبس.

وما ساقته الآيات الأخيرات ليس إلا جزءاً مما يذخر به القرآن الكريم فى عرض السيرة كافة، وأهداف ذلك العرض، بما يوضح أهميته للمؤمنين فى كل آن ومكان فى محاولة للتشبث بذلك ليعودوا إلى سالف مجدهم وعزهم.

والجمل الباقيات فى هذه المشاهد تسير على نفس الوتيرة، مع زيادات آخر وتفهيمات جديدة، سوقها للتحليل من ألزم ما يلزم.

ويأتى قوله تعالى:﴿ لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ ﴾، فى موضع بدل اشتمال من جملة﴿ لِّيَقْضِيَ ٱللَّهُ ....﴾، لأن الأمر هو نصر المؤمنين وقهر المشركين، مع إهلاك المهزومين وإحياء المنصورين، وحفه من الأحوال الدالة على عناية الله بالمسلمين وإهانته للمشركين بالبينة التى تقطع عن الهالكين، وتقتضى شكر الاحياء، وليصدر كفر من كفر وإيمان من آمن عن وضوح بينة.

والهلاك: الموت والاضمحلال ولذلك قوبل بالحياة، والمعنى الزائد عما ذكرنا من قبل إجمالاً هو أن الهلاك والحياة مستعاران لمعنى ذهاب الشوكة، ولمعنى نهوض الأمة وقوتها،

وقد جمع التشبيهين فى قوله:﴿ أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَـٰهُ ﴾ [الأنعام: ١٢٢]، فإن الكفار كانوا فى منعة وعزة، وكان المسلمون فى ضعف وقلة، فلما قضى الله تعالى بالنصر للمسلمين أخفق أمر المشركين ووهنوا، وصار أمر المسلمين إلى جدة ونهوض، وتلك الحياة وذلك الموت لاشارة قوية إلى اضمحلال أمر المشركين يفنوا عن بينة، وارتفاع أمر المسلمين وإيمان من آمن عن بينة، إذ ذلك حكم فصل تحقق بعد ذلك فى ذهاب ريحهم وهزيمتهم.

فكانت وقعة بدر إذن بداية هلاك من هلك عن بينة حتى ينتهى هلاكهم، وحياة ونهوض من آمن حتى يرتفع أمرهم:﴿ وَلَـٰكِن لِّيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولاً ﴾، وقد كان.

و﴿ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾..

أى بكفر من كفر وعقابه وإيمان من آمن وثوابه، ولعل الجمع بين وصف السمع ووصف العلم لاشتمال الإيمان والكفر على القول والاعتقاد اللذين يستدعيان السمع والعلم، وإن كان هذا التذييل يشير أول ما يشير إلى المسلمين بأن الله تعالى سميع لدعائهم بطلب النصر، وسميع بما جرى بينهم من الحوار فى شأن الخروج إلى بدر، ومودتهم أن ذات الشوكة تكون لهم.

وعليم بما يجول فى خواطرهم من غير الأمور المسموعة، وكل ذلك ينبههم إلى تربية المهابة بعد ذلك فى قلوبهم وأفكارهم وأقوالهم، وأن يكون ذلك كله استجابة لأمر الله ظاهراً وباطناً.

وتمضى الآيات لتسكمل بقية ما بدأته من مشاهد، ونسير معها نستجلى تلك السيرة التى قصتها، والتى لم تكن لنقص فى السيرة، وواقع الأمر لو حكيت بمثل ما قصت به فى القرآن الكريم مع استيفاء هذا القص لكل الجوانب اللازمة من وراء هذا السرد، بما يضيف

تلك الأبعاد الدينية مجتمعة مع الأبعاد النفسية والتاريخية وغيرها، لتبقى خالدة ما بقى مؤمن وغيره فى تلك الحياة، وفى نفس الوقت تستشرف الحياة الآخرة وتربطها بالحياة العاجلة، عجالتنا فيما يتعلق بالسيرة قدر الامكان ويأتى قوله تعالى:﴿ إِذْ يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ فِى مَنَامِكَ قَلِيلًا ۖ وَلَوْ أَرَىٰكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ وَلَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ سَلَّمَ ۗ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٤٣﴾ ﴾ [الأنفال:٤٣].

﴿ إِذْ يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ ﴾، بدل من قوله تعالى:﴿ إِذْ أَنتُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلدُّنْيَا ﴾، أو بدل من يوم الفرقان فإن هذه الرؤيا مما اشتمل عليه زمان كونهم بالعدوة الدنيا، وهو يوم الفرقان يوم بدر، وعبر بالمضارع لاستحضار حالة الرؤيا العجيبة، إذ هى قد مضت بالنسبة لنزول الآية ويتعلق قوله:﴿ فِى مَنَامِكَ ﴾، بفعل﴿ يُرِيكَهُمُ ﴾، فالإراءة هنا إراءة رؤيا فى المنام، وأسندتإلى الله تعالى:

أولاً: لأن الرؤيا وحى من الله للأنبياء، سواء كانت واقعة كما هى، أو هى رمز لمعان، فلا تعد صورتها الواقعة مخالفة للحقيقة، ومن الأولى أنه كان يرى الرؤيا كفلق الصبح كما هى [1]، أو كما فى سيدنا إبراهيم عليه السلام:﴿ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ﴾ [الصافات: ١٠٢].

ثانياً: للإهتمام بالرؤيا وتشريفها إذ كان له وقعها المناسب فى نصر المسلمين، وقد كان النبى ﷺ رأى رؤيا منام أن جيش المشركين قليل، فأخبر الصحابه رضي الله عنهم فتشجعوا للقاء المشركين وزال ما كان يخامرهم من تهيب جيش المشركين، فكانت تلك الرؤيا فيه من الله تعالى على رسوله ﷺ وعلى المؤمنين، إذ كانت من أسباب النصر؛ وكانت قلة العدد فى الرؤيا رمزاً لوهن المشركين وضعفهم، لا عن قلة عددهم، كما كان معلوماً من الواقع.

---

1 - الحديث حديث عائشة فى بدء الوحى.

ولو أخبر الله رسوله ﷺ أن يخبر المؤمنين بأنهم غالبون للمشركين لآمنوا بذلك إيماناً عقلياً، لا يحصل منه ما يحصل من التصوير بالمحسوس، ولو لم يخبرهم، أو لم يُرِهْ ربه تلك الرؤيا لحسب المسلمون للمشركين حساباً كبيراً شوش عليهم اطمئناهم وثقتهم، لأنهم معروفون بأنهم أقوى من المسلمين بكثير.

وقوله:﴿ وَلَوْ أَرَىٰكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ ﴾، أى لجبنتم وهبتم الإقدام، وجمع ضمير الخطاب فى الجزاء مع إفراده فى الشرط، لأنه كما قيل إن الجبن يعرض لهم لا له ﷺ، لأنه سبحانه لو أراهم رؤيا مماثلة للحالة التى تبصرها الأعين من المشركين لدخل قلوب المؤمنين الفشل، فأراد الله تعالى ألا يدخل قلوب المسلمين هلع أو جبن من الأصلى إكراماً لهم، وإن كان قد ضمن لهم النصر.

وكذلك ثَّم سبب آخر ذكرته الآية، وهو الاختلاف فى أمر القتال أوخطته إذال للعهد بقوله:﴿ وَلَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ﴾، فكانت الرؤيا حسماً لهذا الاختلاف وقطعاً لدابر الفرقة فى مثل هذا الموقف العصيب فكانت برداً وسلاماً على المؤمنين إذاً.

وجاء قوله تعالى:﴿ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ سَلَّمَ ﴾، ليؤكد ذلك، ويمن به على المؤمنين إذ أنعم بالسلامة من الفشل والتنازع، فكان هذا الاستدراك رافعاً لما يفرض من قوله:﴿ وَلَوْ أَرَىٰكَهُمْ كَثِيرًا ﴾ [الأنفال: ٤٣]، مع أنه جاء – أى الاستدراك – ليشعر فعلاً أنهم كُثُر فى الواقع، ولكن جاء ليفرغ هذه الكثرة فى واقعها من أى عوامل يمكن أن يكون لها أثرها فى المسلمين. ومفعول﴿ سَلَّمَ ﴾، متعلقه محذوفين ايجازاً ليكون التقدير: سلمكم من الفشل والتنازع؛ بأن سلمكم من سببهما وهى إراءتكم واقع عدد المشركين، لأن الاطلاع على كثرة العدد يلقى فى النفوس تهيباً وتخوفاً منه، وذلك يُنْقِصُ شجاعة المسلمين، الذين أراد الله لهم موفور

الشجاعة ومنتهاها.[1]

ووضع الظاهر موضع المضمر فى قوله:﴿ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ سَلَّمَ ﴾، بدلاً من و«لكنه سلم» لقصد تأكيد وزيادة إسناد ذلك إلى الله تعالى، وأنه بعنايته، وكذلك للاهتمام بهذا الحادث، وهو الإنعام بتلك السلامة.

وذيلت الآية بهذا الامتنان﴿ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾، أى: إنه بعلمه بمكنونات الصدور وخواطرها، وما تتأثر به وما يصلحها، فعل ما فعل؛ إذ النفوس مجبولة على التأثر بالمحسوبات والمشاهدات، فأيده بها، مع أن الاعتقاد المجرد يكفى فى تصديقها بموعود الله، لإيمانها القوى بربها، ولكنه لا يثير الشجاعة التامة والإقدام كما يثيره الإحساس بقلة عددهم وتفاهة موقفهم فى الواقع، كذلك فالاعتقاد بأن المشركين سينهزمون مصدقون به، ولكنه يمكن أن يكون مع موت وجراحات قبل الانتصار فجاءت الرؤيا بقلتهم لتزيح ذلك كله فى النفس، وتلقى بدلاً منه ذلك اليقين الواقع، بأنهم منصورون مع سلامة الله لهم.

إن ذلك كله ليهزنا بشدة إلى دين الإسلام واقعه وسيرة النبى ﷺ، وأنه دين الله المرتضى بأخلاقه العليا وشمائله الكريمة ومزاياه الراحمة، إذ كل ذلك خارج عن طوع كل الخلق مجتمعين، خارج عن قدرة ما سوى الله تعالى متظاهرين.

ونشير إلى آخر آية فى هذا المشهد، مشهد ترتيب لقاء القتال وتدبيره – الذى رتبه الله تعالى للفريقين معاً – دلالة عدم خروج شيء فى الكون عن قضائه وتقديره، وعن حكمه وأمره وهى قوله تعالى:﴿ وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ ٱلْتَقَيْتُمْ فِىٓ أَعْيُنِكُمْ قَلِيلاً وَيُقَلِّلُكُمْ فِىٓ أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا

1 - انظر لما سبق الزمخشرى، الكشاف(٢/ ١٢٨-١٢٩)، أبا السعود، إرشاد العقل السليم(٢/ ٣٦٣)، الألوسى، روح المعانى(١٠/ ١٢-١٣)، ابن عاشور، التحرير والتنوير(١٠/ ٢٢-٢٥).

كَانَ مَفْعُولاً ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٤٤﴾ ﴾ [الأنفال: ٤٤].

وإذا كان ما رآه النبى ﷺ رؤيا منام، شجعت المؤمنين، وثبتت الأقدام وكانت من أسباب النصر كما ظهر، فإن المؤمنين خرقاً للعادات، قد رأوا مصداق ذلك رأى العين، ليكون الخبر والمعاينة واحداً يتحقق به مراد الله من وقوع الأمر المفعول كما وعدهم.

﴿ إِذْ يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ فِى مَنَامِكَ قَلِيلاً ﴾، إما منصوب بمضمر، أو هو عطف على﴿ إِذْ يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ ﴾، معبراً بالمضارع لحادث قد انتهى استحضاراً لتلك الحالة التى تخص المؤمنين والتى لا تكون بهذه الكيفية إلا من الله تعالى، وهى رؤية بصر أراها المولى سبحانه وتعالى على خلاف ما فى نفس الأمر لكلا الفريقين، ولما كانت على خلاف الحقيقة لم يُرها النبى ﷺ.

﴿ وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ .... فِىٓ أَعْيُنِكُمْ ﴾، تقييد للإراءة بأنها فى الأعين، لا غير، وليس المرئى كذلك فى نفس الأمر، وكذلك ليدل على أنها إراءة بصرية لا حُلمية.

وخولف فى أسلوب حكاية إراءة المشركين وحكاية إراءة المسلمين؛ لأن المشركين كانوا كُثُر فناسب أن يريهم للمسلمين قليلاً أى هم كثير فرأيتموهم قليلاً، أما المسلمون فكانوا قليلاً فناسب لتقليلهم أن يعبر عنه بأنه «تقليل»، المؤذن بأنه زيادة فى قلتهم، وليعلم أن التقليل ليس بالنقص من عدد المسلمين فى نفس الأمر، ومن ثم لما حدثت المناجزة، وبرز المشركون لقتال المسلمين ظهر لهم كثرة المسلمين فبهتوا، وكان ذلك ملقياً الرعب فى قلوبهم، وذلك ما حكاه القرآن الكريم فى سورة آل عمران قوله:﴿ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْىَ ٱلْعَيْنِ ﴾ [آل عمران: ١٣].

وقال أهل السير كان المسلمون يحسبون عدد المشركين بين السبعين والمئة، حتى قال ابن مسعود ﷺ إلى من بجنبه: أتراهم سبعين؟ فقال: أراهم مئة، وقال أبو جهل: إنما

أصحاب محمد ﷺ أكلة جزور أى قرابة مئة.[1]

وإنما لم يكن تخيل المسلمين قلة المشركين مثبطاً عزيمتهم، كما كان تخيل المشركين قلة المسلمين مثبطاً عزيمتهم؛ لأن قلوب المسلمين كانت مفعمة حنقاً على المشركين، وإيماناً بفساد شركهم، وامتثالاً لأمر الله بقتالهم فما كان بينهم وبين صَبِّ بَأْسهم على المشركين إلا صرف ما يثبط عزائمهم. فأما المشركون فكانوا مزدهين بعدائهم وعنادهم، وكانوا لا يرون المسلمين على شيء، وإن أدنى جولة تجول بينهم فسوف يقبضون على المسلمين قبضاً، فلذلك لا يعبأون بالتأهب لهم، فكان تخييل ما يزيدهم تهاوناً بالمسلمين يزيد تواكلهم، وإهمال إجماع أمرهم.

فكان ذلك كله مما لا يستطيعه أحد بإلقائه فى نفوس الفريقين فجاء قوله تعالى بعد ذلك وهو:﴿ لِيَقْضِيَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولاً ﴾، ليبين أن ذلك الأمر من مفعولات الله سبحانه ، التى قضاها أزلاً علة لهذه الإراءة لكلا الفريقين، لتكون أحد أسباب النصر، وأما قوله تعالى:﴿ لِيَقْضِيَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولاً ﴾، فى الآية فهو لعلة أخرى، وهى تلاقى الجمعان فى مكان واحد فى وقت واحد، فلا تكرار إذن، ويرينا هذا الخبر الضخم كيف قدر سبحانه كل هذه المقدورات ليخرج أى دور فيها للمؤمنين نصراً، وللمشركين هزيمة، بل الأمر كله راجع إليه وحده يقضيه بعلمه وحكمته وقدرته كما قال:﴿ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴾.

ونشير فى نهاية تحليلنا لآيات سيرة بدر مما حكاه القرآن الكريم، إلى ما ذكر القرآن الكريم نفسه عن موقف الشيطان حيث قال جل ذكره:﴿ وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ ۖ فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّنكُمْ إِنِّيٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ ۚ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٤٨﴾ إِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمْ ۗ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٩﴾ ﴾ [الأنفال: ٤٨-٤٩].

---

1 - انظر المراجع السابقة.

بدأت الآيات بقوله تعالى:﴿ وَإِذْ زَيَّنَ ﴾، على أنه مقدر بمضمر، ويجوز أن يكون المضمر مخاطباً به المؤمنون، والعطف على﴿ وَلَا تَكُونُواْ ﴾، فى الآية قبلها، وهى قوله:﴿ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بَطَرًا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٤٧﴾ ﴾ [الأنفال: ٤٧]، أى واذكروا إذ زين لهم الشيطان أعمالهم فى معاداة المؤمنين وغيرها، ووسوس إليهم أنهم يَغلبون لكثرة عددهم وعدتهم، وأنه حافظ لهم.

وفى ذلك انقسم العلماء إلى فريقين:

فريق يرى هذا التزيين وسوسة لهم بذلك يحملهم على مواصلة السير إلى بدر، وأنه وسوس لسراقة بن مالك ليكون هو المخبر لقريش والحامل لهم على مواصلة العناد، وأنه يؤمن لهم طريقهم من كنانة التى كانت على عداء مع قريش، فهابوا أن تقاتلهم وتعرقل سعيهم فطمأنهم سراقة بوسوسة الشيطان فمضوا.

والفريق الثانى:

يرى أن تلك الوسوسة وذلك التزيين قام به الشيطان نفسه للمشركين حيث تمثل لهم فى صورة سراقة بن مالك، وسار معهم فلما تراءت الفئتان وتلاقى الجمعان نكص على عقبيه لما رأى الملائكة تنزل وظن أن جاء موعده المنظور، وكانت يده فى يد الحارث بن هشام فقال له أتخذلنا فى هذه الحال، فقال إنى أرى ما لا ترون ودفع فى صدره وفر هارباً، وانهزم المشركون ورجعوا مكة قالوا هزم الناس سراقة، فقال ما شعرت بمسيركم حتى بلغتنى هزيمتكم فعلموا أنه الشيطان.[1]

---

1 - انظر لما سبق من القولين الطبرى، جامع البيان(١٠/ ١٨)، الزمخشرى، الكشاف(٢/ ١٣٠)، وأبا السعود، إرشاد العقل السليم(٢/ ٣٦٥)، والالوسى، روح المعانى(١٠/ ٢١-٢٢)، وابن عاشور، التحرير والتنوير(١٠/ ٣٤-٣٧)، ورشيد رضا، المنار(١٠/ ٢٩).

وبداية نقول: ذهب سيد قطب رحمه الله إلى إثبات حادثة تزيين الشيطان، ولكن مع عدم العلم بكيفية ذلك، وكأنه يفصل بين الفريقين فى نظرهم إلى تفسير الآية فيقول:«وفى هذا الحادث نص قرآنى يثبت منه أن الشيطان زين للمشركين أعمالهم وشجعهم على الخروج، وأنه بعد ذلك نكص على عقبيه فخذلهم وتركهم يلاقون مصيرهم وحدهم».

«ولكننا لا نعلم الكيفية التى زين لهم بهم أعمالهم...إلى أن قال ولا سبيل لنا إلى الجزم بشيء من أمره إلا بنص قرآنى أو حديث نبوى صحيح والنص هنا لا يثبت الكيفية إنما يثبت الحادث»[1].

وثم تعليق هنا نبديه معتمداً على دراسة النص القرآنى، والمقارنة بين النصوص مع ما ذكرنا من التحليل للآيات النازلة فى حكاية غزوة بدر، خاصة وقد تمسك أصحاب رأى الوسوسة برأيهم، وضعفوا الروايات كافة لرأى تمثل الشيطان، وكلامه مع المشركين ومخاطبته إياهم بما جعلنا ندقق فى فهم النصوص القرآنية الواردة فى الحادث، وما جعلنا نقف على هذا الحادث أمران على الأقل:

الأول: الإيمان بالغيب والملائكة والجن، وأن ذلك من أصول الإيمان، وأن ما جادل من جادل فيه إلا للانهزام الفكرى أمام المادية الغربية الطاغية، التى تفرع الإسلام وتحاول من مضامينه الغيبية، بهذه الادعاءات العلمية زعموا التى لا وزن لها فى ميزان العقل، فضلاً عن العلم وأمانته. وكل ذلك تشكيك فى قضايا الإسلام فى نفوس المؤمنين استكمالاً للغزو الفكرى.

الثانى: وهو المتعلق بما نحن فيه، وهو كيف أن الله تعالى رتب ويرتب للمؤمنين الخلص، كل أمورهم، ويهيء لهم عامة أحوالهم، ويخرق لهم النواميس الكونية دلالة على

---

1 - سيد قطب، فى ظلال القرآن(٣/ ١٥٣١)، ود. محمد بن بكر أل عابد، حديث القرآن عن غزوات الرسول ﷺ(٦٥).

وجود ربهم وعنايته بهم، وعلى صحة رسالة نبيهم وصدق نبوته، وأن كل ذلك هو خالقه والقادر عليه وما عليهم بعد الا أن يكونوا متحققين بصفات المؤمنين الحقة كما بين لهم ذلك كله، ليروا قدرة الله وقوته وحفظه.

وذلك الأمر الثانى هو المهم والأهم للمؤمنين فى كل زمان ومكان، وهو مشكلتنا اليوم وأول هذه التعليقات هنا هو:

١ - أن المؤمنين بقوة الله وقدرته، وأنه لا يعجزه شيء فى الأرض ولا فى السماء، وأن أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون، لا يكبر عليه أن يتصور الشيطان، وأن يتمثل بهذه الأشكال إذ هو سبحانه فى الحقيقة من أقدر الشيطان وغيره على ذلك، إذ لو لم يرد المولى سبحانه ذلك ما كان الشيطان ولا لمن فى الأرض والسماء جميعاً أن يأتوا بأمر على خلاف مراد الله تعالى فى العجب فى تمثل الشيطان إذن؟

٢- وإن القائلين بالمنع قد أجازوا أكثر من ذلك فى الملائكة من نزولهم وتثبيتهم للمؤمنين وضرب المشركين فوق الأعناق، وضربهم لكل بنان، فما الفارق مع أن الملائكة أعظم وهم نور من خلق الله؟

٣- بالنظر فى النص نفسه نسأل ما الوسوسة فى قول الشيطان﴿ إِنِّيٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوۡنَ ﴾ [الأنفال: ٤٨]، وما الوسوسة فى قوله:﴿ فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلۡفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيۡهِ ﴾ [الأنفال: ٤٨]، بما أنه شخص يحادثهم، ورأى ما لا يرون ونكص على عقبيه فأين الوسوسة؟ وهو يجرى فاراً هارباً، أو حال رؤية الملائكة، وكيف تكون وسوسة وتزييناً وهم يرونه يسير معهم إلى أن تراءت الفئتان؟ قد يقال إنها رؤية منام، نعم ولكن كيف رأى الجميع هذه الرؤيا؟ دعنا من ذلك، لقد رأوها، فهل رأوا الشيطان يسير معهم، وهل رأى الملائكة فى المنام؟ فترك المشركين فى المنام وفر هارباً، وهل من جاء فى المنام ليؤازرهم وينصرهم، ينكص على عقبيه

أمامهم فى المنام ليروا هزيمتهم وفرار جارهم، ومنذ متى يصدق المشركون بتلك الرؤى وغيرها، لقد انعكس مقصود النافين لتمثل الشيطان حقيقة، بحيث أوقعوا أنفسهم فيما حاولوا أن يفروا منه مجاراة للمدرسة العقلية، بحيث صارت نفياً للعقل ذاته، أو استهزاء أو التفافاً حول العقل. مع الطعن فى قضايا الدين والإيمان، بدون أى مبرر عقلى، إلا اتباع العقل الغربى المحارب للإسلام.

وبعد ذلك ما كان القرآن الكريم ليترك موقف المنافقين والذين فى قلوبهم مرض، ليستكمل بذلك جوانب الصورة، ولتتم كل إبعادها، إمعاناً فى إعلام المسلمين بإحاطة الله تعالى بعلم كل شيء، وتقدير كل شيء، مع رجوع كل الأمور إليه، وليبصر المؤمنين بمواقف كل فئة، وتستقر نفوسهم على انه لا يخفى عليه شيء فى الأرض ولا فى السماء، وليجعل لكل شيء قدراً فى الواقع أمام المؤمنين يعلمون به كيف نصرهم وأيدهم، وكيف يتوكلون عليه ويبذلون له، بالتالى أنفسهم وأموالهم، فجاء قوله تعالى:﴿ إِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمْ ۗ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٩﴾ ﴾ [الأنفالك ٤٩].

يتعلق﴿ إِذْ يَقُولُ ﴾، بأقرب الأفعال إليه، وهو قوله تعالى﴿ وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ ﴾، مع ما عطف عليه من الأفعال، ويكون قول المنافقين واقعاً فى وقت تزيين الشيطان أعمال المشركين، ويكون نظم الكلام هكذا: وزين الشيطان للمشركين أعمالهم حين كان المنافقون يشوهون ويحمقون أعمال المؤمنين، ويصفونهم بالغرور وقلة التدبير بسبب اعتقادهم فى دينهم الذى أوقعهم فى هذا الغرور.[1]

وفى مثل هذا السياق تُطلب المناسبة لذكرهذا الخبر وراء سابقه، والمناسبة أن كلا

---

1 - وذكر بعضهم أن ﴿ إِذْ يَقُولُ ﴾، ظرف لغير ما ذكر، فانظر فيما سبق، والاختيار من ابن عاشور، التحرير والتنوير(١٠/ ٣٧-٣٩).

الخبرين يتضمن قوة المشركين، وضعف جيش المسلمين، ويقين أولياء الشيطان من المشركين والمنافقين بأن النصر سيكون للمشركين على المسلمين.

فالخبر الأول عن طائفة أعانت المشركين من عدو يخشى منه قطع طريق المشركين، فانحازت إليهم علناً؛ وذلك يستلزم تقبيح ما أقحم المسلمون فيه أنفسهم إذ عمدوا إلى قتال قوم أقوياء.

الخبر الثانى عن طائفة المنافقين الذين فى قلوبهم مرض[1]، أو هما طائفتان على قول البعض شوهتا صنيع المسلمين وحمقوا المسلمين ونسبوهم إلى الغرور، وهو إيقاع أنفسهم فى المضرة بإيهام المنفعة، وأن الذى عزهم بذلك هو دينهم الإسلام، وقد نسبوا الغرور إليه لما فيه من الوعد بنصر المؤمنين، وأن القلة تهزم الكثرة بإذن الله تعالى.

وإن هذا الإرحاف لواقع اليوم من كل الطوائف التى اجتمعت على محاربة الإسلام، يثبطون المسلمين بأنهم لا يمكن أن يتصدوا للاعداء فضلاً عن هزيمتهم، بتهويل قوة الكفرة، وتهوين شأن المسلمين، وإخماد روح العزة والكرامة والثأر فيهم، ويأتى دور المنافقين الذين يوالون الكفرة ويتحدثون بألسنة المسلمين ليشككوهم فى دينهم، وأنه سبب الهزيمة، وأن موعود الله لهم بالنصر إنما هو غرور ومحال، كل ذلك وأشد قد صورته آيات بدر ليخرج المسلمون من تلك الحالة، بل لئلا يكونوا فيها أبداً، لذا جاء قوله تعالى ليؤكد لهم أن جنده مهما كانوا هم الغالبون طالما كانوا بدينهم ذلك مستمسكين فقال:﴿ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [الأنفال: ٤٩]، فهذه الجملة معطوفة على جملة﴿ وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ.......﴾، لأنها من جملة الأخبار المسوقة لبيان عناية الله تعالى بالمسلمين وللامتنان

1 - هذا اختيار الباحث، وهناك تفسيرات أخرى لمن فى قلوبهم مرض، وهم من لم يتمكن الإيمان فى قلوبهم، وانظر الطبرى، جامع البيان(١٠/ ١٥-١٦)، الزمخشرى، الكشاف(٢/ ١٣٠)، وأبا السعود، إرشاد العقل السليم(٢/ ٣٦٥)، والالوسى، روح المعانى(١٠/ ٢٣-٢٤).

عليهم، فالمناسبة بينهما وبين الجملة قبلها: أنها كالعلة لخيبة ظنون المشركين والمنافقين والذين فى قلوبهم مرض، وخيب ظنونهم لأن المسلمين توكلوا على الله وهو عزيز لا يغلب فمن تمسك بالاعتماد عليه نصره وهو حكيم يُكَوِّن أسباب النصر من حيث يجهلها البشر.

وجعل قوله:﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾، كناية عن جواب الشرط باعتبار اللازم، ليس هو الجواب بل عزة المتوكل على الله ونجاته من مضيق أمره، وهو من وجوه البيان، وهو كثير الوقوع فى القرآن الكريم، وعليه قول زهير بن أبى سلمى

من يَلْقَ يوماً على عِلاَّتِه هَرِماً   يَلْقَ السماحةَ فيه والندى خُلُقاَ

أى ينل من كرمه ولا يتخلف ذلك عنه فى حال من الأحوال.[1]

تلك كانت سيرة غزوة بدر فى القرآن الكريم على قدر المستطاع، والملاحظ المتأمل يرى أن أسلوب القصص القرآنى غير أسلوب الحكاية فى الواقع والترتيب الزمنى، بل هو أسلوب عال له وجهته فى العرض، علاوة على عرض ما يفى تماماً بالإغراض المسوقة لسيها القصة، مع تبيان الحكم والعبر والارشادات والاوامر والنواهى وكل ما للشارع فيه حكمة من وصوله للمسلم للعمل به، وإن قضية الإيمان والتخلق بصفاتها ثم العمل لرفع راية هذا الدين والالتزام بذلك سلوكاً ودعوة وعبادة وعقيدة لهو الهدف الواضح من هذا القصص، مع إظهار كل ما يعيق المسلم فى طريق سيره ليحذره، ولئلا يقع فيه مما يعرضه للتخلف والنكوص أو للهلاك والردى، كل ذلك هدى ورحمة للعالمين، ويسوق القرآن الكريم جزيئات يراها المرء من أول وهلة كذلك، ولكنها ذات مدلولات ضخمة،ينبنى عليها صرح الإسلام ومن ثم بقاؤه وانتصاره، وإن التفريط فيها من أكبر أسباب الهزيمة والانكسار.

---

1 - ابن عاشور، التحرير والتنوير(١٠/ ٣٨-٣٩).

إن غزوة بدر بهذا العرض فى نظر الباحث كانت الأساس المتين والدستور القويم لكل ما أتى بعد ذلك من أحداث، وإذا نظر الباحث، أو القارئ المتفحص لأىِّ مما وقع فى السيرة والغزوات التالية لبدر ليقال له ألم ينبه على ذلك فى غزوة بدر؟ ألم يأت مصداق ذلك فى قصة بدر؟ إلى آخره

إذن فما كانت فرقاناً من لا شيء، لا يعبر به وله، بل لأضخم حدث مهد لكل خير وهداية للإسلام والمسلمين والبشرية فى نفسها وواقعها، فى الأرض والسماء، وما بعد انتهاء الدنيا.

إنه بدون مبالغة ما مِنْ قضية وقعت بعد بدر من نصر أو هزيمة إلا وكانت سطور بدر تنبض بها، وكذلك من أخلاق ودعوة، أو من أُخُوَّة ومحبة، أو من اعتقاد واتصال بالله واعتماد عليه وثقة فيه.

كل ذلك يحتاج إلى بحث آخر ضخم لا تحتمله الرسالة، ولذا نتوقف فى هذا الفصل عند هذا الحد، وإن احتملت الرسالة شيئاً جديداً نضيفه وإلا فمحله بحث ضخم قائم بذاته غير هذه الرسالة نرجو من الله تعالى التوفيق له.

الخاتمــة

بعد نهاية المستطاع من هذا البحث إلى هذا الحد، نجمل أهم النتائج.

١ - أول هذه النتائج: أن السيرة فى القرآن الكريم لها أساليب أخرى يظهر فيها الجمال والبلاغة والأعجاز القرآنى، والتى تظهر منها معان أخر لم تكن ولن تكون فى القصص والسرد، الذى لا يهتم بشيء من ذلك، علاوة على أهمية المعروض منها من القرآن من ناحية، و من ناحية أخرى على كون هذا المعروض هو المهم الذى تتعلق به سيرة النبى ﷺ من الهداية، وكفايته للبشر بمزيد التأمل والتدبر، ومن ثم كانت دراسة السيرة فى القرآن الكريم من آكد مطلوبات الشرع، حيث يفرق هذا الدين عن الدراسات النظرية بأنه دين عملى يشمل العلم والعمل وغيره من أسباب السعادة فى الدنيا والأخرة، وتقوم السيرة القرآنية بتغطية هذه الأجزاء لتحقيق علو ورفعة هذا الدين بصياغة الحياة به.

٢ - تحمل السيرة فى القرآن الكريم أسباب البقاء ببقاء القرآن الكريم فى العالم، حيث تبين ولا تقتصر على سرد ما كان بين النبى وغيره ﷺ فى سنينه المشرفة فى الدنيا، بل تحمل أسباب بقاء الأمم وفنائها، والحكم والعظات التى تهم وتنفع الناس فى تحقيق إيمانهم وعبوديتهم لله تعالى، وأسباب النصر والهزيمة، وأسرار صنع الله وأيامه فى الناس، وتصف علاقات الله الأصلية والتى يجب أن تكون بين الله تعالى وبين خلقه على اختلاف عقائدهم، مؤمنين وغيرهم، مما يوضح سبيل المؤمنين وسيرتهم وطرق تعاملهم، والعكس كذلك.

٣- إن السيرة القرآنية تجسيد حيٌّ وباق وثابت وصحيح لا مرية فيه ولاشك مع ملابساته وظروفه وفقهه وأحكامه ونظراته وعبره من وجهة النظر التى لاشية فيها وجهة نظر الشرع الشريف، أو كما أراد رب الكون ان تصل لعبادة أجمعين.

٤- إن ميزة هذه السيرة أن من وراء قصصها يظهر الترتيب الإلهى لكونه سبحانه وتعالى، وأنه يسير وفق نظام لا عبس منه، بل فيه الحكمة والتقدير والقضاء، الذى لا يصل المؤمنون إلى كفه المراد منه إلاعن طريق مدبره ومسيره سبحانه وتعالى، وكانت سيرة غزوة بدر خير مثال لذلك كله وأكثر منه تم عرضه، لم يكن منه شيء فى السيرة القصصية.

٥- إن ملء السيرة القصصية التى وردت فى الآثار بتلك السيرة القرآنية ليُدَشِّنَ المجموع الكامل لسيرة النموذج الأعلى للبشرية ﷺ حيث تكتمل بذلك الصورة المطلوبة لتحقيق هذا الدين كما أراد الله سبحانه وتعالى، وكما تشخصت فيه ﷺ .

٦- وكان من نتائج البحث الجديدة أن الله تعالى لم يبعث سيدنا محمد ﷺ إلا وهو المثال الأعلى للخلق العظيم، فى قوله: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤﴾ [القلم: ٤]، وهى من أول ما نزل من القرآن مما يبين أن سيرة النبى ﷺ لها إبتداء وتمهيد وترتيب لم يبعث إلا وقد استكمله له ربه، وهو أمر متناسب مع الواقع إذ كيف ترجو دعوة إلى مكارم الأخلاق والداعى لها ليس صاحب المكارم العليا فى الأخلاق فى الدنيا كافة، أو هناك من يتميز عنه بشيء من ذلك، لم يحدث واقعاً ولا يقبل عقلاً، ولم نسمع بمن زاد عليه فى شيء، وهو الأمر المهم للدعاة من ساعتها واليوم وكل يوم أن تكون أخلاقهم على أعلى ما يستطيعون ليحققوا ما يصبون إليه من علو لهذا الدين، ومن نجاة لأنفسهم.

٧- جرنا ذلك إلى أمر قطع به البحث، وهو أنه ﷺ حينئذ لابد أن يكون معصوماً من كل ما يؤخذ عليه فى دين وخلق.

٨- إن من نتائج البحث أن بدا متهافتاً جداً موقف المدرسه العلمية الحديثة من السيرة، بل سقط سقوطاً ذريعاً، بالذات أمام حقائق القرآن الكريم التى لا تقبل تأويلاً فضلاً عن التمحل والتزييف.

٩- وكانت المقارنة بين سير الأنبياء أو بعض الوقائع والأحداث فى القرآن الكريم كفيلة بدعم مواقف الباقين وإن لها سلفاً قد حدث لا يكذب به أولئك المعارضون، وأن الجميع من عند إله واحد يرسل رسله، وينزل كتبه، ويرتب كونه كما يشاء.

١٠- بينت الدراسة النصية المقارنة لمواقف المستشرقين تطابق معظم هذه الاراء والمواقف منهم، وأن بعضها لا يزيد على بعض إلا فى الشتم والسب الدال على الإفلاس، وجلت بوضوح غثاثة هذه الكتابات، وفقدها للقيمة من علم أو نزاهة أو حياد أو إنصاف، وكانت دراسة آراء "وات" خير شاهد على ذلك.

وإن كل هذه الدراسات كان همها تحصين بني جلدتهم من الاسلام، ورأس حربة للحقبة الاستعمارية عسكرية كانت أوفكرية.

١١- جائت سيرة القرآن الكريم فى النتائج كدعم لمواقف السيرة النبوية خاصة التى كان فيها شد وجذب فى الأدلة لتصحيح وتؤكد وتثبت الصحيح منها.

كانت تلك أهم نتائج البحث التى وصلت إليها فإن كانت صواباً فمن الله تعالى وحده وله المنه والثناء الحسن الجميل، وإن تكن الأخرى فمحل عفو الله واسع يغفر لنا ويتجاوز عنا.

المصادر والمراجع

تفسير النسفي

الكتاب : مدارك التنزيل وحقائق التأويل

المؤلف : أبو البركات عبد الله بن أحمد بن محمود النسفي (المتوفى : ٧١٠هـ)

تفسير البيضاوي

الكتاب : أنوار التنزيل وأسرار التأويل المعروف بتفسير البيضاوي

المؤلف : ناصرالدين أبو سعيد عبد الله بن عمر بن محمد الشيرازي البيضاوي (المتوفى685 : هـ)

تفسير الرازي

الكتاب : تفسير الفخر الرازي ، المشتهر بالتفسير الكبير و مفاتيح الغيب

المؤلف : أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي الرازي الملقب بفخر الدين الرازي خطيب الري (المتوفى : ٦٠٦هـ)

تفسير الخازن

الكتاب : لباب التأويل في معاني التنزيل

المؤلف : علاء الدين علي بن محمد بن إبراهيم بن عمر الشيحي أبو الحسن ، المعروف بالخازن (المتوفى : ٧٤١هـ)

الكشاف

الكتاب : الكشاف

المؤلف : أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد، الزمخشري جار الله (المتوفى : ٥٣٨هـ)

تفسير ابن كثير

الكتاب : تفسير القرآن العظيم

المؤلف : أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي (المتوفى : ٧٧٤هـ)

المحقق : سامي بن محمد سلامة

الناشر : دار طيبة للنشر والتوزيع

الطبعة : الثانية ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩ م

عدد الأجزاء: ٨

تفسير البغوي

الكتاب : معالم التنزيل

المؤلف : محيي السنة ، أبو محمد الحسين بن مسعود البغوي (المتوفى : ٥١٠هـ)

المحقق : حققه وخرج أحاديثه محمد عبد الله النمر - عثمان جمعة ضميرية - سليمان مسلم الحرش

الناشر : دار طيبة للنشر والتوزيع

الطبعة : الرابعة ، ١٤١٧ هـ - ١٩٩٧ م

عدد الأجزاء : ٨

تفسير الطبري

الكتاب : جامع البيان في تأويل القرآن

المؤلف : محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي، أبو جعفر الطبري (المتوفى : ٣١٠هـ)

المحقق : أحمد محمد شاكر

الناشر : مؤسسة الرسالة

الطبعة : الأولى ، ١٤٢٠ هـ - ٢٠٠٠ م

عدد الأجزاء : ٢٤

البحر المحيط

الكتاب : تفسير البحر المحيط

المؤلف : أبو حيان محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيان النحوي الأندلسي (المتوفى : ٧٤٥هـ)

تفسير القرآن لعبد الرزاق

الكتاب : تفسير القرآن لعبد الرزاق الصنعاني

المؤلف : أبو بكر عبد الرزاق بن همام بن نافع الحميري اليماني الصنعاني (المتوفى : ٢١١هـ)

تفسير ابن كثير

الكتاب : تفسير القرآن العظيم

المؤلف : أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي (المتوفى : ٧٧٤هـ)

المحقق : محمود حسن

الناشر : دار الفكر

الطبعة : الطبعة الجديدة ١٤١٤هـ/ ١٩٩٤م

تفسير القرطبي

الكتاب : الجامع لأحكام القرآن

المؤلف : أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي شمس الدين القرطبي (المتوفى : ٦٧١هـ)

المحقق : هشام سمير البخاري

الناشر : دار عالم الكتب، الرياض، المملكة العربية السعودية

الطبعة : ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٣م

الدر المنثور

الكتاب : الدر المنثور في التأويل بالمأثور

المؤلف : عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي (المتوفى : ٩١١هـ)

تفسير النيسابوري

الكتاب : غرائب القرآن ورغائب الفرقان

المؤلف : نظام الدين الحسن بن محمد بن حسين القمي النيسابوري (المتوفى : ٨٥٠هـ)

في ظلال القرآن

الكتاب : في ظلال القرآن

المؤلف : سيد قطب إبراهيم حسين الشاربي (المتوفى1385 : هـ)

المنتخب

الكتاب : تفسير المنتخب

المؤلف : مجموعة من العلماء - لجنة من علماء الأزهر

فتح القدير للشوكاني

الكتاب : فتح القدير الجامع بين فني الرواية و الدراية من علم التفسير

المؤلف : محمد بن علي بن محمد الشوكاني (المتوفى : ١٢٥٠هـ)

تفسير أبي السعود

الكتاب : إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم

المؤلف : أبو السعود العمادي محمد بن محمد بن مصطفى (المتوفى : ٩٨٢هـ)

تفسير السراج المنير

الكتاب : السراج المنير في الاعانة على معرفة بعض معاني كلام ربنا الحكيم الخبير

المؤلف : محمد بن أحمد الخطيب الشربيني (المتوفى : ٩٧٧هـ)

تيسير اللطيف المنان

الكتاب : تيسير اللطيف المنان في خلاصة تفسير القرآن

المؤلف : عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله السعدي (المتوفى : ١٣٧٦هـ)

الطبعة : الأولى

الناشر : وزارة الشئون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد - المملكة العربية السعودية

تاريخ النشر : ١٤٢٢هـ

عدد الصفحات : ٣٦٨

عدد الأجزاء : ١

مختصر تفسير البغوي

الكتاب : مختصر تفسير البغوي

المؤلف : عبد الله بن أحمد بن علي الزيد

الطبعة : الأولى

الناشر : دار السلام للنشر والتوزيع - الرياض

تاريخ النشر : ١٤١٦هـ

عدد الصفحات : ١٠٤٠

عدد الأجزاء : ١

أيسر التفاسير للجزائري

الكتاب : أيسر التفاسير لكلام العلي الكبير

المؤلف : جابر بن موسى بن عبد القادر بن جابر أبو بكر الجزائري

الناشر : مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة، المملكة العربية السعودية

الطبعة : الخامسة، ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م

أضواء البيان

الكتاب : أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن

المؤلف : محمد الأمين بن محمد المختار بن عبد القادر الجكني الشنقيطي (المتوفى : ١٣٩٣هـ)

الناشر : دار الفكر للطباعة و النشر و التوزيع بيروت - لبنان

الطبعة : ١٤١٥ هـ - ١٩٩٥ مـ

التحرير والتنوير

الكتاب : التحرير والتنوير المعروف بتفسير ابن عاشور

المؤلف : محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي (المتوفى : ١٣٩٣هـ)

الناشر : مؤسسة التاريخ العربي، بيروت - لبنان

الطبعة : الأولى، ١٤٢٠هـ/ ٢٠٠٠م

تفسير الجلالين

الكتاب : تفسير الجلالين

المؤلف : جلال الدين محمد بن أحمد المحلي (المتوفى864 : هـ) و جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي (المتوفى : ٩١١هـ)

الكتاب: أسد الغابة فى معرفة الصحابة

المؤلف: ابن الأثير: على بن محمد بن محمد الجزرى (المتوفى: ٦٣٠ هـ)

الناشر: دار الشعب، القاهرة

الطبعة: ١٣٩٠ هـ، ١٩٧٠م.

الكتاب: النهاية فى غريب الحديث والأثر

المؤلف: ابن الأثير: أبو السعادات المبارك بن محمد الجزرى (المتوفى: ٦٠٦ هـ)

الناشر: دار احياء الكتب العربية، عيسى البابي الحبلي، مصر د.ت.

الكتاب: أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار

المؤلف: الأزرقى: ابو الوليد محمد بن عبد الله بن أحمد الأزرقى (المتوفى: ٢٥٠ هـ)

الناشر: دار الثقافة بيروت،مكة المكرمة

الطبعة: الثالثة، ١٣٩٩ هـ/ ١٩٧٩م

الكتاب: السير والمغازى

المؤلف: ابن اسحاق: محمد بن اسحاق بن يسار المطلبى (المتوفى: ١٥١ هـ)

الناشر: دار الفكر، دمشق

الطبعة: الأولى، ١٣٩٨ هـ/ ١٩٧٨م

الكتاب: التاريخ الكبير

المؤلف: البخارى: أبو عبد الله محمد بن إسماعيل (المتوفى: ٢٥٦ هـ)

الناشر: جمعية دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد الدكن، الهند، ودار الكتب العلمية، بيروت.

الطبعة: ١٣٨٠ هـ/ ١٩٦٠م

الكتاب: الجامع الصحيح

المؤلف: البخارى: أبو عبد الله محمد بن إسماعيل (المتوفى: ٢٥٦ هـ)

الناشر: المكتب الإسلامى، استانبول، تركية

الطبعة: الثالثة، ١٣٩٩ هـ/ ١٩٧٩م

الكتاب: معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع

المؤلف: البخارى: أبو عبد الله محمد بن إسماعيل (المتوفى: ٢٥٦ هـ)

الناشر: مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة

الطبعة: الأولى، ١٣٦٤ هـ/ ١٩٤٥م

الكتاب: أنساب الأشراف

المؤلف: البلاذرى: أحمد بن يحيى بن جابر (المتوفى: ٢٧٩ هـ)

الناشر: دار المعارف، مصر، د. ت.

الكتاب: دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة

المؤلف: البيهقى: أحمد بن الحسين بن على (المتوفى: ٤٥٨ هـ)

الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت

الطبعة: الأولى، ١٤٠٥ هـ/ ١٩٨٥م

الكتاب: السنن الكبرى

المؤلف: البيهقى: أحمد بن الحسين بن على (المتوفى: ٤٥٨ هـ)

الناشر: دائرة المعارف النظامية، حيدر آباد الدكن، الهند

الطبعة: الأولى، ١٣٤٤ هـ/ ١٩٢٥م

الكتاب: سنن الترمذى

المؤلف: الترمذى: محمد بن عيسى بن سورة (المتوفى: ٢٧٩ هـ)

الناشر: دار مكتبة دار الدعوة، حمص، سورية

الطبعة:١٣٨٥ هـ/ ١٩٦٥م

الكتاب: تلقيح فهوم الأثر فى عيون التاريخ والسير

المؤلف: ابن الجوزى: أبو الفرج جمال الدين عبد الرحمن بن على بن محمد الجوزى (المتوفى: ٥٩٧هـ)

الناشر: مكتبة الآداب، مصر.

الكتاب: زاد المسير فى علم التفسير

المؤلف: ابن الجوزى: أبو الفرج جمال الدين عبد الرحمن بن على بن محمد الجوزى (المتوفى: ٥٩٧هـ)

الناشر: المكتب الإسلامى، بيروت

الطبعة: الأولى، ١٣٨٤ هـ/ ١٩٦٤م

الكتاب: المستدرك على الصحيحين

المؤلف: الحاكم: أبو عبد الله بن محمد النيسابورى (المتوفى: ٤٠٥ هـ)

الناشر: مكتبة ومطابع النصر الحديثة، الرياض، د.ت.

الكتاب: الثقات

المؤلف: ابن حبان: أبو حاتم محمد بن حبان بن أحمد البستي (المتوفى: ٣٥٤ هـ)

الناشر: مطبعة مجلس دائرة المعارف، الهند

الطبعة: الأولى، ١٤٠١ هـ/ ١٩٨١م

الكتاب: صحيح بن حبان

المؤلف: ابن حبان: أبو حاتم محمد بن حبان بن أحمد البستي (المتوفى: ٣٥٤ هـ)

الناشر: المكتبة السلفية، المدينة المنورة

الطبعة: الأولى، ١٣٩٠ هـ/ ١٩٧٠م

الكتاب: الإصابة فى تمييز الصحابة

المؤلف: ابن حجر: أحمد بن على بن محمد الكنانى (المتوفى: ٨٥٢ هـ)

الناشر: مطبعة السعادة، مصر

الطبعة: الأولى، ١٣٢٨ هـ/ ١٩١٠م

الكتاب: فتح البارى شرح صحيح البخارى

المؤلف: ابن حجر: أحمد بن على بن محمد الكنانى (المتوفى: ٨٥٢ هـ)

الناشر: مكتبة الكليات الأزهرية، القاهرة

الطبعة: ١٣٩٨ هـ/ ١٩٧٨م

الكتاب: جوامع السيرة

المؤلف: ابن حزم: أبو محمد على بن أحمد بن سعد (المتوفى: ٤٥٦ هـ)

الناشر: دار المعارف، مصر، د.ت

الكتاب: مسند الحميدى
المؤلف: الحميدى: أبو بكر عبدالله بن الزبير (المتوفى: ٢١٩ هـ)
الناشر: من سلسلة منشورات المجلس العلمى، كراتشى، باكستان، عالم الكتب، بيروت، د.ت
الكتاب: المسند
المؤلف: ابن حنبل: أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل (المتوفى: ٢٤١ هـ)
الناشر: المكتب الإسلامى، بيروت
الطبعة: الثانية، ١٣٩٨ هـ/ ١٩٧٨م
الكتاب: المسند
المؤلف: ابن حنبل: أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل (المتوفى: ٢٤١ هـ)
الطبعة: ١٣٦٥ هـ/ ١٩٤٦م
الكتاب: فضائل الصحابة
المؤلف: ابن حنبل: أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل (المتوفى: ٢٤١ هـ)
الناشر: مركز البحث العلمى وإحياء التراث الإسلامى، مكة المكرمة
الطبعة: الأولى، ١٤٠٣ هـ/ ١٩٨٣م
الكتاب: تاريخ خليفة بن خياط
المؤلف: ابن خياط: خليفة بن خياط العصفرى (المتوفى: ٤٦٣ هـ)
الناشر: دار طيبة ، الرياض
الطبعة: الثانية، ١٤٠٥ هـ/ ١٩٨٥م
الكتاب: سنن الدارمى
المؤلف: الدارمى: أبو محمد عبد الله بن عبد الرحمن بن الفضل (المتوفى: ٢٥٥ هـ)
الناشر: دار إحياء السنة النبوية، القاهرة، د.ت
الكتاب: سنن أبي داود مع معالم السنن للخطابى
المؤلف: أبو داود: سليمان بن الأشعث السجستانى (المتوفى: ٢٧٥ هـ)
الناشر: نشر وتوزيع محمد على السيد، سورية

الطبعة: الأولى، ١٣٨٨ هـ/ ١٩٦٩م

الكتاب: المراسيل

المؤلف: أبو داود: سليمان بن الأشعث السجستانى (المتوفى: ٢٧٥ هـ)

الناشر: دار القلم، بيروت

الطبعة: الأولى، ١٤٠٦ هـ/ ١٩٨٦م

الكتاب: مسند الطيالسى

المؤلف: أبو داود: سليمان بن داود بن الجارود الطيالسى (المتوفى: ٢٠٤ هـ)

الناشر: المنبرية بالأزهر، مصر

الطبعة: الأولى، ١٣٧٢ هـ/ ١٩٥٢م

الكتاب: تاريخ الخميس فى أحوال أنفس نفيس

المؤلف: الديار بكرى: حسين بن محمد بن الحسن (المتوفى: ٩٦٦ هـ)

الناشر: مؤسسة شعبان، بيروت، د.ت، والمطبعة الوهبية، مصر

الطبعة: ١٢٨٣ هـ/ ١٨٦٦م

الكتاب: تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام

المؤلف: الذهبى: أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان الذهبى (المتوفى: ٧٤٨ هـ)

الناشر: دار العربى، بيروت

الطبعة: الأولى، ١٤٠٧ هـ/ ١٩٨٧م

الكتاب: تذكرة الحفاظ

المؤلف: الذهبى: أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان الذهبى (المتوفى: ٧٤٨ هـ)

الناشر: إحياء التراث العربى، بيروت، د.ت

الكتاب: شرح المواهب اللدنية للقسطلانى

المؤلف: الزرقانى: محمد بن عبد الباقى بن يوسف أبو عبد الله (المتوفى: ١١٢٢ هـ)

الناشر: دار الطباعة الأميرية، مصر

الطبعة: ١٢٧٨ هـ/ ١٨٦١م

الكتاب: شرح موطأ الإمام مالك بن أنس

المؤلف: الزرقاني: محمد بن عبد الباقي بن يوسف أبو عبد الله (المتوفى: ١١٢٢ هـ)

الناشر: مطعبة الاستقامة، القاهرة

الطبعة: ١٣٧٢ هـ/ ١٩٥٤م

الكتاب: إعلام الساجد بأحكام المساجد

المؤلف: الزركشي: محمد بن عبد الله (المتوفى: ٧٩٤ هـ)

الناشر: لجنة إحياء التراث الإسلامى، القاهرة

الطبعة: ١٣٨٤ هـ/ ١٩٦٤م

الكتاب: المغازى النبوية

المؤلف: الزهرى: محمد بن مسلم بن عبيد الله بن شهاب الزهرى (المتوفى: ١٢٤هـ)

الناشر: دار الفكر، دمشق

الطبعة: ١٤٠١ هـ/ ١٩٨١م

الكتاب: الطبقات الكبرى

المؤلف: ابن سعد: محمد بن سعد بن منيع البصرى (المتوفى: ٢٣٠هـ)

الناشر: دار صادر، بيروت

الطبعة: ١٣٨٨ هـ/ ١٩٦٨م

الكتاب: الروض الأنف فى تفسير السيرة النبوية لابن هشام

المؤلف: السهيلى: أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله بن أحمد بن أبى الحسن الخثعمى (المتوفى: ٥٨١هـ)

الناشر: دار المعرفة، بيروت

الطبعة: ١٣٩٨ هـ/ ١٩٧٨م

الكتاب: عيون الأثر فى فنون المغازى والشمائل والسير

المؤلف: ابن سيد الناس: محمد بن محمد أبو الفتح اليعمرى المصرى (المتوفى: ٧٣٤هـ)

الناشر: دار المعرفة، بيروت، د.ت

الكتاب: تاريخ المدينة المنورة

المؤلف: ابن شبة: أبو زيد عمر بن شبة النميرى البصرى (المتوفى: ٢٦٢هـ)

الناشر: دار الكتاب العربى، بيروت

الطبعة: الثانية، ١٤٠٦ هـ/ ١٩٨٦م

الكتاب: سبل الهدى والرشاد فى سيرة خير العباد

المؤلف: الصالحى: محمد بن يوسف الصالحى (المتوفى: ٩٤٢هـ)

الناشر: لجنة إحياء التراث الإسلامى، القاهرة

الطبعة: ١٣٩٢ هـ/ ١٩٧٢م - ١٤٠٦ هـ/ ١٩٨٦م

الكتاب: المعجم الكبير

المؤلف: الطبرانى: أبو القاسم سليمان بن أحمد (المتوفى ٣٦٠ هـ)

الناشر: إحياء التراث الإسلامى، العراق

الطبعة: الأولى، ١٣٩٧ هـ/ ١٩٧٧ م

الكتاب: جامع البيان عن تأويل آى القرآن

المؤلف: الطبرى: أبو جعفر محمد بن جرير بن زيد (المتوفى ٣١٠ هـ)

الناشر: مكتبة ابن تيمية

الطبعة: الثانية، د.ت

الكتاب: صحيح السيرة النبوية- المسماة: السيرة الذهبية

المؤلف: طرهونى: الشيخ محمد بن رزق بن طرهونى

الناشر: دار ابن تيمية للطباعة والنشر، القاهرة

الطبعة: الأولى، ١٤١٠ هـ

الكتاب: إعلام السائلين عن كتب سيد المرسلين

المؤلف: ابن طولون: محمد بن طولون الدمشقي (المتوفى ٩٥٣ هـ)

الناشر: مؤسسة الرسالة، بيروت

الطبعة: ١٤٠٣ هـ/ ١٩٨٣ م

الكتاب: الاستيعاب فى معرفة الأصحاب

المؤلف: ابن عبد البر: أبو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد النمرى (المتوفى ٤٦٣ هـ)

الناشر: مطبعة السعادة، مصر

الطبعة: الأولى، ١٣٢٨ هـ/ ١٩١٠م

الكتاب: الدرر فى اختصار المغازى والسير

المؤلف: ابن عبد البر: أبو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد النمرى (المتوفى ٤٦٣ هـ)

الطبعة: ١٣٨٦ هـ/ ١٩٦٦م

الكتاب: فتوح مصر

المؤلف: ابن عبد الحكم: أبو القاسم عبدالرحمن بن عبد الله بن عبد الحكم بن أعين القرشى المصرى (المتوفى٢٥٧ هـ)

الناشر: مطبعة بريل، ليدن

الطبعة ١٣٣٩ هـ/ ١٩٢٠م

الكتاب: المصنف

المؤلف: عبد الرزاق: بن همام بن نافع أبوبكر الصنعانى (المتوفى ٢١١ هـ)

الناشر: المكتب الإسلامى، بيروت

الطبعة: الأولى، ١٣٩٢ هـ/ ١٩٧٢م

الكتاب: الأموال

المؤلف: أبو عبيد: القاسم بن سلام البغدادى اللغوى (المتوفى ٢٢٤ هـ)

الناشر: مكتبة الكليات الأزهرية، القاهرة، ودار الفكر، القاهرة-بيروت

الطبعة: الثانية، ١٣٩٥ هـ/ ١٩٧٥م

الكتاب: المغازى

المؤلف: عروة: بن الزبير بن العوام (المتوفى ٩٣ هـ)

الناشر: مكتب التربية العربية، دول الخليج، الرياض

الطبعة: الأولى، ١٤٠١ هـ/ ١٩٨١م

الكتاب: تاريخ مدينة دمشق
المؤلف: ابن عساكر: على بن الحسين بن هبة الله أبو القاسم الدمشقى (المتوفى ٥٧١ هـ)
الناشر: مطبوعات مجمع اللغة العربية، دار الفكر، دمشق
الطبعة: ١٤٠٤ هـ/ ١٩٨٤م
الكتاب: المسند
المؤلف: أبو عوانة: يعقوب بن إسحاق الإسفراييني (المتوفى ٣١٦ هـ)
الناشر: دائرة المعارف العثمانية، حيد آباد الدكن، الهند
الطبعة: الأولى، ١٣٨٥ هـ/ ١٩٦٥م
الكتاب: أخبار مكة فى قديم الدهر وحديثه
المؤلف: الفاكهى: أبو عبد الله محمد بن إسحاق بن العباس (المتوفى: ٢٨٠ هـ)
الناشر: مكتبة ومطبعة النهضة الحديثة، مكة المكرمة
الطبعة: الأولى، ١٤٠٧ هـ/ ١٩٨٦م
الكتاب: زاد المعاد فى هدي خير العباد
المؤلف: ابن قيم الجوزية: أبو عبد الله محمد بن أبى بكر (المتوفي: ٧٥٢ هـ)
الناشر: مؤسسة الرسالة، بيروت
الطبعة: الثالثة عشر، ١٤٠٦ هـ/ ١٩٨٦م
الكتاب: البداية والنهاية
المؤلف: ابن كثير: أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي (المتوفي: ٧٧٤ هـ)
الناشر: مطبعة الفجالة الجديدة، القاهرة، ومكتبة الفلاح بالرياض، د.ت
الكتاب: تفسير القرآن الكريم
المؤلف: ابن كثير: أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي (المتوفي: ٧٧٤ هـ)
الطبعة: ١٣٩٠ هـ/ ١٩٧١م
الكتاب: سنن ابن ماجه
المؤلف: ابن ماجه: أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني (المتوفي: ٢٧٥ هـ)

الناشر: دار الفكر العربي، بيروت

الطبعة: ١٣٩٥ هـ/ ١٩٧٥م

الكتاب: صحيح مسلم

المؤلف: مسلم: أبو الحسين مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري (المتوفي: ٢٦١ هـ)

الناشر: رئاسة إدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد، الرياض

الطبعة: ١٤٠٠ هـ/ ١٩٨٠م

الكتاب: سنن النسائي

المؤلف: النسائي: أبو عبد الرحمن بن شعيب (المتوفي: ٣٠٣ هـ)

الناشر: دار إحياء التراث العربيث، بيروت

الطبعة: الأولى، ١٣٤٨ هـ/ ١٩٣٠م

الكتاب: شرح صحيح مسلم

المؤلف: النووى: أبو زكريا محيى بن شرف (المتوفي: ٦٧٦ هـ)

الناشر: دار الفكر، بيروت، د.ت

الكتاب: دلائل النبوة

المؤلف: أبو نعيم: أحمد بن عبد الله الأصفهاني (المتوفي: ٤٣٠ هـ)

الناشر: دار النفائس، بيروت

الطبعة: الثانية، ١٤٠٦ هـ/ ١٩٨٦م

الكتاب: السيرة النبوية

المؤلف: ابن هشام: أبو محمد عبد الملك بن هشام بن أيوب الحميري (المتوفي: ٢١٨ هـ)

الناشر: مكتبة المنار، الأردن

الطبعة: الأولى، ١٤٠٩ هـ/ ١٩٨٨م

الكتاب: كشف الأستار عن زوائد البزار

المؤلف: الهيثمي: أبو بكر نور الدين علي بن أبي بكر بن سليمان (المتوفي: ٨٠٧ هـ)

الناشر: مؤسسة الرسالة

الطبعة: الأولى، ١٣٩٩ هـ/ ١٩٧٩م

الكتاب: **مجمع الزوائد ومنبع الفوائد**

المؤلف: الهيثمي: أبو بكر نور الدين علي بن أبي بكر بن سليمان (المتوفى: ٨٠٧ هـ)

الناشر: دار الكتاب، بيروت

الطبعة: الثانية، ١٣٨٧ هـ/ ١٩٦٧م

الكتاب: **موارد الظمآن إلى زوائد ابن حبان**

المؤلف: الهيثمي: أبو بكر نور الدين علي بن أبي بكر بن سليمان (المتوفى: ٨٠٧ هـ)

الناشر: دار مكتبة الهلال، بيروت، د.ت

الكتاب: **أسباب النزول**

المؤلف: الواحدي: أبو الحسن علي بن أحمد النيسابوري (المتوفى: ٤٦٨ هـ)

الناشر: مطبعة هندية، مصر

الطبعة: ١٣١٥ هـ/ ١٨٩٧م

الكتاب: **كتاب المغازي**

المؤلف: الواقدى: محمد بن عمر بن واقد (المتوفى: ٢٠٧ هـ)

الناشر: مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت

الطبعة: ١٣٨٤ هـ/ ١٩٦٤م

الكتاب: **تاريخ اليعقوبي**

المؤلف: اليعقوبي: أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر بن وهب بن واضح (المتوفى: ٢٨٢ هـ)

الناشر: دار صادر، بيروت

الطبعة: ١٣٧٩ هـ/ ١٩٦٠م

الكتاب: **إرواء الغليل في تخريج أحاديث منار السبيل**

المؤلف: الألباني: محمد ناصر الدين الألباني

الناشر: المكتب الإسلامي، بيروت

الطبعة: الأولى، ١٣٩٩ هـ/ ١٩٧٩م

الكتاب: تخريج أحاديث فقه السيرة للغزالي

المؤلف: الألباني: محمد ناصر الدين الألباني

الكتاب: دفاع عن الحديث النبوي والسيرة والرد علي جهالات الدكتور البوطي في كتابه«فقه السيرة»

المؤلف: الألباني: محمد ناصر الدين الألباني

الناشر: مؤسسة ومكتبة الخافقين، دمشق

الطبعة: ١٣٩٧ هـ/ ١٩٧٧م

الكتاب: سلسلة الأحاديث الصحيحة

المؤلف: الألباني: محمد ناصر الدين الألباني

الكتاب: صحيح سنن الترمذي

المؤلف: الألباني: محمد ناصر الدين الألباني

الناشر: مكتب التربية العربي لدول الخليج، الرياض

الطبعة: الأولى، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٦م

الكتاب: مرويات غزوة بدر

المؤلف: باوزير: أحمد محمد العليمى باوزير

الناشر: مكتبة طيبة

الطبعة: الأولى، ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م

الكتاب: هذا الحبيب محمد رسول الله < يا محب

المؤلف: أبو بكر الجزائرى

الناشر: مكتبة لينة، دمنهور، مصر

الطبعة: الأولى، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م

الكتاب: معجم المعالم الجغرافية فى السيرة النبوية

المؤلف: عاتق بن غيث

الناشر: دار مكة، مكة المكرمة

الطبعة: الأولى، ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م

الكتاب: فقة السيرة النبوية

المؤلف: البوطى: د. محمد سعيد رمضان البوطى

الناشر: دار الفكر، دمشق

الطبعة: السابعة، ١٣٩٨هـ/ ١٩٧٨م

الكتاب: دراسة الكتب المقدسة فى ضوء المعارف الحديثة

المؤلف: بوكاي: موريس

الناشر: دار المعارف، القاهرة

الطبعة: الرابعة، ١٣٩٧هـ/ ١٩٧٧م

الكتاب: مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة

المؤلف: الحيدرابادي: محمد حميد الله الحيدرابادي

الناشر: دار النفائس، بيروت

الطبعة: الرابعة ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م

الكتاب: إظهار الحق

المؤلف: رحمة الله بن خليل الرحمن الهندي

الناشر: إدارة إحياء التراث الإسلامي، الدوحة

الطبعة: ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م

الكتاب: عثرات وسقطات فى كتاب المنهج الحركي للسيرة النبوية

المؤلف: زهير سالم

الناشر: دار عمار، الأردن

الطبعة: الأولى ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م

الكتاب: الفتح الرباني لترتيب مسند أحمد بن حنبل الشيباني مع بلوغ الأماني فى أسرار الفتح الرباني

المؤلف: السعاتي: أحمد بن عبد الرحمن البنا

الناشر: دار الشهاب، القاهرة، د.ت

الكتاب: من معين السيرة
المؤلف: الشامي: صالح أحمد الشامي
الناشر: المكتب الإسلامي، بيروت
الطبعة: الأولى، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٤م
الكتاب: السيرة النبوية في ضوء القرآن والسنة
المؤلف: أبو شهبة: محمد محمد
الناشر: دار القلم، دمشق
الطبعة: ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٨م
الكتاب: محمد رسول الله ﷺ
المؤلف: عرجون: محمد الصادق إبراهيم عرجون
الناشر: دار القلم، دمشق
الطبعة: الأولى ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م
الكتاب: المجتمع المدني في عهد النبوة - الجهاد ضد المشركين
المؤلف: العمري: د. أكرم ضياء العمري
الطبعة: الأولى، ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م
الكتاب: السيرة النبوية في الصحيحين وعند ابن إسحاق - دراسة مقارنة في العهد المكي
المؤلف: العودة: د. سليمان حمد العودة
الكتاب: فقه السيرة
المؤلف: الغزالي: محمد
الناشر: عالم المعرفة
الطبعة: السابعة، ١٣٩٧هـ/ ١٩٧٦م
الكتاب: المنهج الحركي للسيرة النبوية
المؤلف: الغضبان: منير محمد
الناشر: مكتبة المنار، الأردن

الطبعة: الأولى، ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م

الكتاب: دبلوماسية محمد ﷺ، رسالة دكتوراه منشورة

المؤلف: عون: د. عون الشريف قاسم

الناشر: قسم التأليف والنشر، جامعة الخرطوم د.ت

الكتاب: مصادر السيرة النبوية وتقويمها

المؤلف: فاروق: د. فاروق حمادة

الناشر: دار الثقافة، دار البيضاء

الطبعة: الأولى، ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م

الكتاب: الرحيق المختوم

المؤلف: المباركفوري: الشيخ صفي الرحمن المباركفوري

الناشر: دار الوفاء، المنصورة، مصر

الطبعة: ١٣٩٦هـ/ ١٩٧٦م

الكتاب: دراسة تحليلية لشخصية الرسول محمد ﷺ من خلال سيرته الشريفة

المؤلف: محمد رواس قلعه جي

الناشر: دار النفائس، بيروت

الطبعة: الأولى، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م

الكتاب: السيرة النبوية

المؤلف: الندوي: أبو الحسن على الحسني

الناشر: دار الشروق، جدة

الطبعة: الأولى، ١٣٩٧هـ/ ١٩٧٧م

الكتاب: ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين

المؤلف: الندوي: أبو الحسن على الحسني

الناشر: مطابع علي بن علي، الدوحة

الطبعة: العاشرة، ١٣٩٤هـ/ ١٩٧٤م

الكتاب:صحيفة الدينة – دراسة حديثية وتحقيق–

المؤلف: هارون رشيد محمد إسحاق

الطبعة: ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م

الكتاب: دائرة المعارف الإسلامية

المؤلف: ريكندورف، ترجمة: عباس محمود ورفاقه

الكتاب: الدولة العربية وسقوطها

المؤلف: فلهاوزن، ترجمة: يوسف العش

الناشر: مكتبة الجامعة السورية، دمشق

الطبعة: ١٩٥٦م

الكتاب: مجموعة الوثائق السياسية

المؤلف: محمد حميد محمد

الناشر: دار الارشاد، بيروت

الطبعة: ١٣٨٩هـ/ ١٩٦٩م

الكتاب: سيرة الرسول

المؤلف: محمد عزة دروزة

الناشر: مطبعة عيسي البابي الحلبي، مصر

الطبعة: ١٩٦٥م

الكتاب: نسب حرب

المؤلف: البلاذرى: أحمد بن يحيي بن جابر (المتوفي ١٧٩هـ)

الناشر:مكتبة دار البيان، دمشق

الطبعة: الأولى، ١٣٩٧هـ

الكتاب: أنساب الأشراف

المؤلف: تحقيق محمد حميد الله

الناشر: دار المعارف، مصر

الكتاب: فتوح البلدان

الناشر: مكتبة النهضة العربية

الكتاب: الجوهر النقي (بحاشية السنن الكبرى للبيهقي)

الناشر: مجلس دائرة المعارف العثمانية، الهند

الكتاب: منتقى الأخبار من أحاديث سيد الأخيار (مع شرحه نيل الأوطار للشوكاني)

المؤلف: ابن تيمية: أبو العباس تقي الدين أحمد بن عبد الحليم (المتوفى ٧٢٨هـ)

الكتاب: المناسك وأماكن طرق الحج ومعالم الجزيرة

المؤلف: تحقيق: حمد الجاسر

الناشر: منشورات دار اليمامة، الرياض

الطبعة: ١٣٨٩هـ

الكتاب: شرح معاني الآثار

المؤلف: تحقيق: محمد سيد جاد الحق

الناشر: مطبعة الأنوار المحمدية، القاهرة

الطبعة: ١٣٨٧هـ/ ١٩٦٨م

الكتاب: أوجز المسالك إلى موطأ مالك

المؤلف: محمد سمش الحق العظيم آبادى

الناشر: دار الفكر، بيروت

الطبعة: الثانية، ١٣٩٤هـ

الكتاب: المجموع شرح المهذب

الناشر: مكتبة الإرشاد

الكتاب:مغازي

المؤلف: تحقيق: مارسدن جونس

الناشر: تصوير مؤسسة الأعلمي، بيروت

الكتاب: الدر المنثور

المؤلف: السيوطي

الناشر: محمد أمين دمج، بيروت

الكتاب: طبقات ابن سعد

الناشر: دار بيروت، دار صادر

الطبعة: ١٩٥٨م

الكتاب: كشف الأستار في زوائد مسند البزار

المؤلف: الهيثمي، تحقيق: حبيب الرحمن الأعظمي

الناشر: مؤسسة الرسالة

الكتاب: مجمع الزوائد

المؤلف: الهيثمي

الكتاب: المستدرك

المؤلف: الحاكم النيسابوري

الناشر: حيدر آباد الدكن، الهند

الطبعة: ١٣٤١هـ

الكتاب: مصنف عبد الرازق

المؤلف: تحقيق: حبيب الرحمن الأعظمي

الناشر: دار القلم، بيروت

الطبعة: الأولى، ١٣٩٠هـ

الكتاب: موارد الظمأن إلى زوائد إبن حبان

المؤلف: الهيثمي، تحقيق: محمد عبد الرازق حمزة

الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت

ملخص البحث

إن هذا البحث متعدد المناهج، متشعب الاتجاهات، وهو يتسع لعديد من الرسالات العلمية يكمل بعضها بعضاً؛ لتستكمل سلسلته قدر المستطاع. وقد قسم هذا البحث على ثلاثة أبواب وخاتمة.

الباب الأول: فى سيدنا محمد ﷺ فى القرآن الكريم حيث القرآن الكريم أصدق من وُصِف فيه النبى ﷺ، وأصح وأثبت.

وقد اقتصر البحث فيه على ثلاثة فصول:

الأول: فى ثناء الله عليه.

الثانى: فى حقوقه ﷺ التى قررها القرآن الكريم عن الله تعالى والتى لا يجوز التقصير فيها.

الثالث: فى عصمته ﷺ.

وكان الفصل الأول فى ثلاثة مباحث:

_ المبحث الأول: فى قوله: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤﴾ [القلم: ٤]، مع تعريف الأخلاق عند الفلاسفة، والاركان الأساسية للأخلاق.

_ المبحث الثانى: فى قوله: ﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَـٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾ ﴾ [الأعراف: ١٩٩]، مع تحليل الآية، وذكر الأخلاق الجبلية والكسبية، والبرهنة على أن أخلاقه جبلية.

_ المبحث الثالث: كان فى تحليل قوله تعالى: ﴿ وَٱلضُّحَىٰ ﴿١﴾ وَٱلَّيْلِ ﴾ [الضحى: ١-٢].

وأما الفصل الثانى: فقد خصص لذكر بعض حقوقه ﷺ التى أمر الله بها وكان فيها:

_ المبحث الأول: فى الأمر بالصلاة عليه وتحليل قوله: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَـٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِىِّ ۚ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ صَلُّوا۟ عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴿٥٦﴾ ﴾ [الأحزاب: ٥٦].

_ المبحث الثانى: فى تحليل قوله: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ... ﴾ [الحجرات: ١].

_ المبحث الثالث: فى لزوم طاعته ﷺ.

أما الفصل الثالث: فى الباب الأول: فكان للكلام على عصمته، فبين فيه :

_ المبحث الأول: معنى العصمة.

_ المبحث الثانى: قصة يوسف عليه السلام فى العصمة.

_ المبحث الثالث: بعض الآيات النازلة فى عصمة ﷺ.

ثم إنتقل البحث إلى الباب الثانى وهو: الرسول ﷺ فى مكه وهو في ثلاثة فصول أيضاً:

الفصل الأول: فى ذكر مولده إلى بعثتة ﷺ.

وناقش نسبه ومولده ورضاعته ثم دلف إلى كلام "مونتجمرى وات" مبيناً منهج المستشرقين فى التعامل مع السيرة.

وذكر المباحث التالية فيه، وهى: شق الصدر، وتحليل ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴿١﴾﴾ [الشرح: ١]، وحفظ الله للنبى ﷺ قبل البعثة، وزواجه من خديجة، ومشاركته فى بناء الكعبة، والتعليق على "وات" فيما ذكر من ذلك.

الفصل الثانى: كان فى البشارات بالنبى ﷺ إرهاصاً بنبوته وجاء بشارات الأنبياء السابقين به عليهم السلام، إرهاصات النبوة الواردة فى السنة المشرفة، أخبار النصارى بذلك والآيات الواردة ومناقشة وات أيضاً.

وجاء الفصل الثالث: فى "بدء الوحى" وجاءت مباحثه فى إرهاصات النبوة، وذكر البعثة والنبوة والوحى مراتبه والدعوة وآيات المزمل والمدثر والجهر بالدعوة وبدء الاضطهاد والأذى.

وكان الباب الثالث: فى العهد المدنى.

بدء بالفصل الأول: فى أسس بناء المجتمع الإسلامى فذكر مباحث:

بناء المسجد والمؤاخاة بين المهاجرين والأنصار، الوثيقة بين سكان المدينة.

وجاء الفصل الثانى: فى غزوة بدر الكبرى.

واشتمل على المبحث الأول: فى النشاط السياسى والعسكرى من الهجرة إلى غزوة بدر.

المبحث الثانى: أحداث غزوة بدر فى السيرة.

المبحث الثالث: غزوة بدر فى القرآن الكريم.

وبدأ الفصل الثالث: بمناقشة وات فكان مع وات فى غزوة بدر.

مع أبحاث عديدة شملها البحث ونتائج كثيرة خرج بها.

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

Abstract

"Biography of the Prophe between the irrigated and Quranic verses"

This research is of multiple approaches and diverse orientations. It can accommodate numerous inter-complementing scholarly dissertations so that its series is completed to the best possible extent.

The research is divided into three chapters and a conclusion.

Chapter 1 overviews mention of Prophet Muhammad (peace be upon him) in the Holy Quran, which is the most credible, valid, and genuine source of descriptive information about the Prophet Muhammad (peace be upon him).

This chapter includes three sections:

i. About his praise.
ii. About his rights that Allah the Exalted established for him in the Holy Quran, and which must be fully observed
iii. About his infallibility, may peace be upon him.

Section One covers three research issues:
Issue 1: About His words [interpreted as] "", with a definition of moralities according to philosophers and the main components of morals.

Issue 2: About His words [interpreted as] “”, with an analysis of the Ayah/verse, mention of innate and acquired morals, and proof that his morals were innate.

Issue 3: Analyzing His words [interpreted as] “”.

Section Two was dedicated to a presentation of some of the rights due to him (peace be upon him) as commanded by Allah the Exalted. This includes:

Issue 1: The command to ask [Allah to confer] blessing upon him and an analysis of His words [interpreted as] “”.

Issue 2: Analyzing His words [interpreted as] “”.

Issue 3: The obligation to obey him (peace be upon him).

Section Three discusses his infallibility through:

Issue 1: The meaning of infallibility.

Issue 2: The story of Yusuf (peace be upon him) as related to infallibility.

Issue 3: A number of Ayahs/verses revealed with regards to the infallibility of Muhammad (peace be upon him).

The research them moves on to Chapter 2, which is about the Messenger (peace be upon him) in Makkah. This chapter also comprises three sections:

Section One: An account of the period from his birth to the start of his mission (peace be upon him). Here, his lineage and nursing

are discussed, along with quotations from Montgomery Watt and a discussion of the approach followed by Orientalists in dealing with his biography.

The following issues are handled here: the chest-incision incident and an analysis of “”; the Messenger’s protection by Allah even before his mission started; his marriage to Khadeejah; his participation in reconstructing the Ka’bah; and commenting on what Watt said in this regard.

Section Two: discusses the heralds of the Messenger’s mission, including those by previous prophets (peace be upon him), the heralds mentioned in his biography (Seerah), the relevant foretelling by Christians, related Ayahs/verses, and once again a discussion of Watt’s view.

Section Three: relates to the advent of the revelation, with issues discussing the heralds, the mission and prophecy, revelation and its levels, the call, the Ayahs/verses of Al-Muzzamil and Al-Muddathir, announcing the call in public, and the commencement of persecution and harm.

Chapter 3 handles the Madinah phase.

In **Section One**, the foundations of establishing the Islamic society are discussed through the issues of:

- Building the mosque
- Establish fraternity between the Muhajireen and the Ansaar
- The pact between inhabitants of Al-Madinah

Section Two is about the Great Battle of Badr and covers the following issues:

- Political and military activity from the Hijrah to Badr
- The events of Badr in the Seerah.
- The Battle of Badr in the Holy Quran

Section Three discusses the opinions of Watt regarding the Battle of Badr.

The research also includes numerous other issues and derives many results.

May the peace and blessings of Allah be upon His Messenger, his Family, and his Companions.

فهرس

	الصفحة

تم بحمد الله

كلية الآداب
قسم اللغة العربية وآدابها

السيرة النبوية

بين الآثار المروية والآيات القرآنية

دراسة نصية مقارنة

للحصول على درجة الدكتوراه

مقدمة من الطالب

محمد مصطفى عبد السلام

تحت إشراف

الأستاذ الدكتور عفت الشرقاوي

١٤٣١هـ / ٢٠١٠م